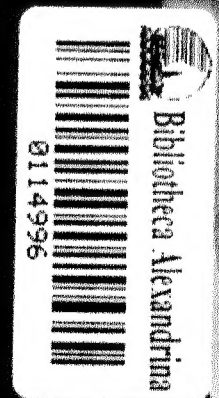


كينزي مراد

حياة أميرة عثمانية في المنفى



مجمع مكتبة
مناظر الحجاز



بيتع الدار
عليه مدرس فينا، ونايت السند، في (العمودين العرشين) العودين

مجلس التعليم العالي، ١٩٨٥ - ١٩٨٦
٢١٢٠٥٠ - ٢١٢٠٥٠ - ٢١٢٠٥٠ - ٢١٢٠٥٠ - ٢١٢٠٥٠ - ٢١٢٠٥٠ - ٢١٢٠٥٠ - ٢١٢٠٥٠



حياة أمير عثمانية
في المنفى

جميع الحقوق محفوظة لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الثانية ١٩٩٦

كينزي مراد

حياة أمير عثمانية في المنفى

ترجمه عن كفرنسية
حافظ الجحالي

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عنوان الكتاب باللغة الافرنسية

KENIZÉ MOURAD

DE LA PART
DE LA
PRINCESSE MORTE

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	آخر الفقرة الثالثة	في ذلك	في نظراته؟ عندئذ تذكرت. لم يكن ذلك كابوساً. فتوقعت في سريها واسترسلت في البكاء
٢٥	٧	يكون في	يقارب
٢٦	١٨	بأحسن الصبر	صابراً
٢٧	١٨	جماعات	أسراب
٣٣	قبل الأخير	تحتفظ	تتذكر الغنيان
٤٤	أول سطر	أما	أمام
٤٦	١٨	حتى يريد	حتى ليريد
٧٧	١٢	الحزين	الحزن
١١٦	٥	بحركات كبيرة	بحركات كثيرة
١٢٢	١٢	مدعيات	مزاعم
١٥٥	١٩	تحمل	تضع
١٦٣	١٠	من ذلك	(تحذف: من ذلك)
٢٢٠	١٧	سيقام فيه	أقيم فيه
٤٢٧	١٧	تعاينه	تعانينه
٧٠٠	١٩	فما يظهر	فيما يظهر
٧٢٩	٤	الخطر	الحظ
٧٣١	٥	فإن الأمور	بدأت الأمور
٧٣١	٨	Coyne	Capucine
٧٣١	١٢	الذين يقفون أمامهم	التي يقفان أمامها
٧٣٢	١٧	بأمرك (الكومانداتور)	الكومانداتور بأمرك

٧٣٤	الكلمات الأجنبية Kabarett في الألمانية، يقابلها Cabaret في الفرنسية، أي الملهى . وكلمة Platz بالألمانية هي place بالفرنسية أي الساحة . وربما وجد بعض التحريف في الكلمات المكتوبة باللغة الأجنبية .
-----	--

بدأت هذه القصة في كانون الثاني / يناير / عام ١٩١٨ في استامبول، عاصمة الأمبراطورية العثمانية، التي جعلت العالم المسيحي يرتجف هلعاً، خلال عدة قرون.

ولقد تغلبت الدول الغربية على هذه القوة وغدت تتنازع على حطام هذه الأمبراطورية المكتهلة، وكانت تسمى منذ زمن طويل باسم «رحل أوروبا المريض».

ولقد تعاقب على العرش في هذه السلطنة ثلاثة أخوة خلال اثنين وأربعين عاماً، وهم السلطان مراد الذي خلع، وحجرت حريته بأمر من أخيه السلطان عبد الحميد، الذي أطيح به، هو نفسه، على يد من سُمّوا بجمعية «تركيا الفتاة»، وأحل محله السلطان رشاد.

واليوم، لم يعد السلطان رشاد إلا ملكاً دستورياً. أما السلطة الحقيقية، فهي في يد الثلاثي، الذي جَرَّ البلاد إلى الحرب إلى جانب ألمانيا.

أواخر ملك الأمير طوبية
النجانية

السلطان محمود الثاني
١٨٠٨ — ١٨٢٩

السلطان عبد المجيد الأول
١٨٣٩ — ١٨٦١

السلطان عبد العزيز
١٨٧٦ — ١٨٩١

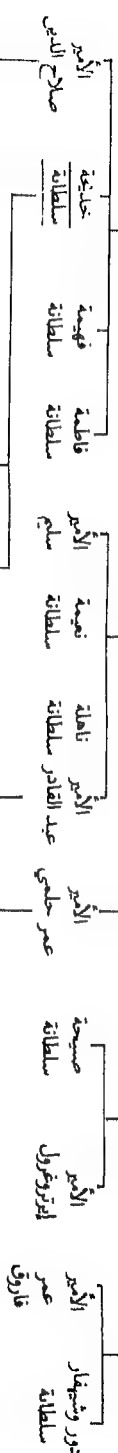
السلطان رشاد
١٩٠٩ — ١٩١٨

السلطان عبد المجيد الثاني
١٨٧٦ — ١٩٠٩

السلطان وحيد الدين
١٩١٨ — ١٩٢٢

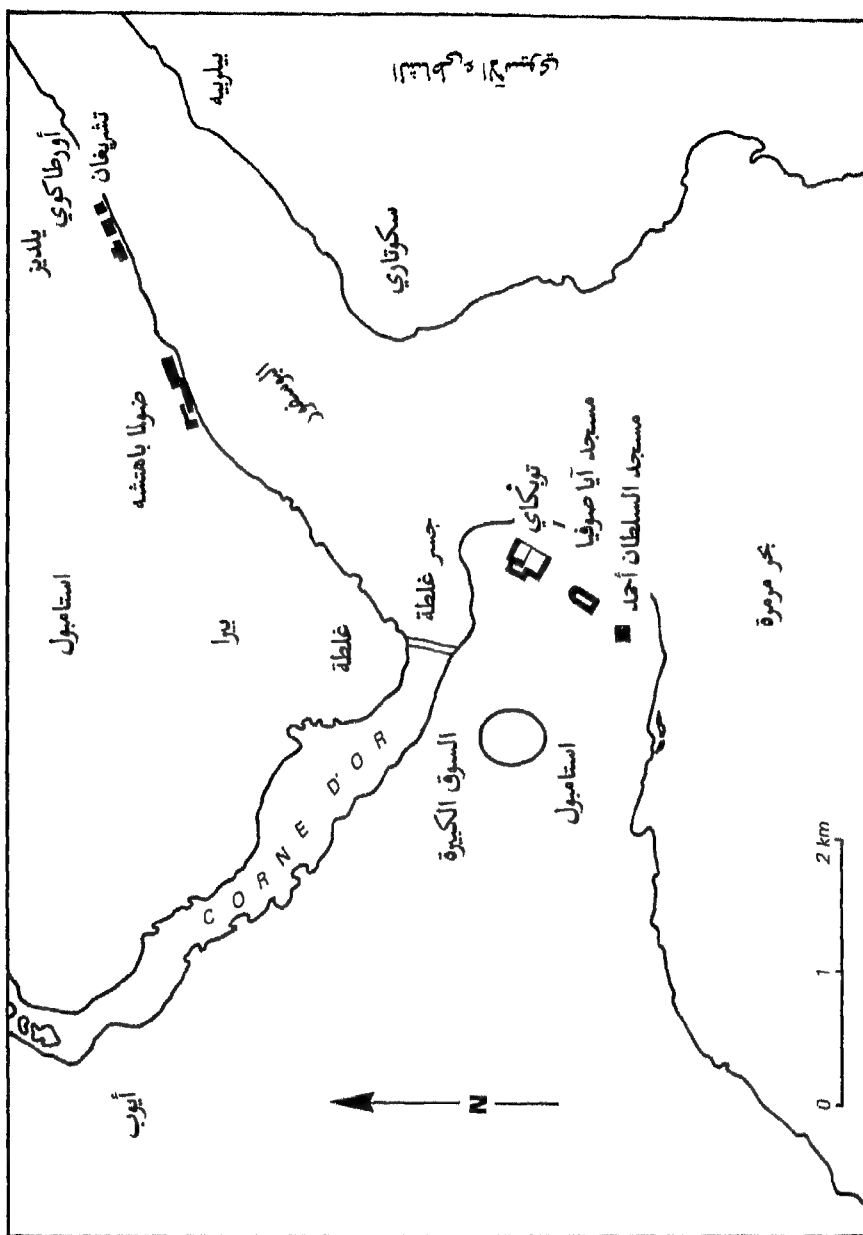
الخلافة
عبد المجيد
١٩٢٢ — ١٩٢٤

السلطان مراد الخامس
١٨٧٦



القسم الأول

تركيا



١

مات العم حميد ! مات العم حميد !

هكذا كانت بنت صغيرة تركض في البهو الرخامي الأبيض من قصر أورطاكوي، المضاء بشمعدانات من الكريستال، وتردد هذه الجملة، كأنما تريد أن تكون أول من يذيع النبأ السعيد، وينقله إلى أمها.

ولقد كادت، من فرط سرعتها، أن تقلب على الأرض سيدتين كبيرتين، عصابات شعرهما مثقلة بالأحجار الكريمة، مما يشير إلى ثرائهما ومرتبتهما.

وعلقست إحداهما قائلة: ما أوقعها! على حين أن الأخرى، الغاضبة هي أيضاً، كشفت عن سخط أكبر، عندما قالت: «ماذا تريدان! إن السلطانة^(١) تدللها بشكل مفرط، إنها وحيدتها. وهي رائعة الحسن، وهذا أمر متفق عليه. ولكنني أخشى أن يسبب لها هذا فيما بعد مشاكل مع زوجها. إن عليها أن تتعلم كيف تضبط سلوكها: إنها في السابعة من العمر، ولم تعد طفلة، لا سيما إذا كانت أميرة.»

ولكن البنية التي لم تكثر لشكاوى الزوج المفترض، واستمرت في عدوها. وأخيراً

(١) السلطانة لقب يطلق على بنات السلاطين. والسلطانة المشار إليها هنا، هي حديجة بنت السلطان مراد المعروف، وأم سلمى.

وصلت ، بعد أن أرهقها الجهد إلى الباب الضخم ، باب الحرمك ، الذي يقوم على حراسته خصيان سودانيان ، على رأس كل منهما طربوش فاقع الحمرة . ففي هذا اليوم كانت الزيارات قليلة ، وقد جلسا معاً ليتحدثا على راحتهما . ولكن لما لحا « السلطانة الصغيرة » نهضا على عجل ، وفتحا المصراع البرونزي ، وأحاطا سلامهما بالكثير من الاحترام ، مخافة أن تشي بما كانا عليه من خمول . لكن الفتاة كان في باها شيء آخر مختلف جداً ، ومن غير أن تنظر إليهما ، اجتازت العتبة ، ووقفت لحظة أمام المرأة الفينيسية ، لتتحقق من حسن ترتيب خصل شعرها الأحمر ، وثوبها الحريري الأزرق ، ثم لما راقها منظرها ، دفعت الستارة البروكار ودخلت إلى الصالة الصغيرة ، التي اعتادت أمها أن تبقى فيها بعد الظهر ، بعد الحما .

وخلافاً لرطوبة الممرات ، كانت هذه الصالة دافئة دافئاً حسناً ، بفضل النقل الفضي الذي يسهر عبدان على إبقاء ناره مشتعلة . وكانت السلطانة المتمددة على الديوان ، تنظر إلى سيدة القهوة الكبيرة ، تصب سائلها في فنجان موضوع في كؤيس مطعم بالزمرد .

وكأنما داخل البنية فورة من الكبرياء ، فتجمدت وأخذت تتأمل أمها وهي في قفطانها الطويل . ومن عادة السلطانة (الأم) ، متى ظهرت بين الناس ، أن تتقيد بالموضة الغربية ، التي أدخلت إلى استامبول ، منذ نهاية القرن التاسع عشر . أما في بيتها ، فإنها تؤثر أن تعيش على « الطريقة التركية » . ففي هذه الحال لانراها تستخدم مشدات البطن ، ولا الأكم المنفوخة ، ولا التنورات الضيقة ، بل تضع على جسمها الثياب التقليدية ، بمتعة ظاهرة ، وتمتدد بشكل مريح على الصوفات اللينة التي تفرش بها صالات القصر الكبرى .

— اقترني ، يا سلمى السلطانة .

بهذه الكلمات تخاطب الأم ابنتها الصغيرة ، ذلك أن البلاط العثماني لا يقبل إهمال تقاليده ، ويخاطب الآباء أبناءهم ، مضيفين إليها كل ما لهم من ألقاب ، حتى ينشأ الأبناء ، منذ أصغر العمر ، على تقاليد المرتبة التي يملكونها بحكم مولدهم ، ويشعروا بكامل حقوقها وواجباتها . وعلى حين أن الخادومات ينحنين للسلام ، هذا السلام أو التحية العميقة ، التي ترتفع فيها اليد اليمنى من الأرض ، إلى موضع القلب ، ثم إلى الشفتين فالجبهة ، كتناكيد لعواطف الوفاء ، في الظاهر والباطن ، فإن سلمى تقبل بسرعة أصابع الأميرة المعطرة ، وتحملها إلى جبهتها ، كإشارة احترام ، وأخيراً ، بلغ بها الهيجان أقصى حدوده ، ولم تعد تصبر على حبس الكلام أكثر من ذلك ، وهتفت تقول :

أيندجيم^(٢)، إن العم «حميد» قد مات !

وظهر شيء من البريق على العينين الرماديتين — الخضراوين . مما حمل البنية على الظن بأن ذلك الألق علامة نشوة ، ولكن سرعان ما انطلق صوت شديد البرودة يعيدها إلى النظام ، إذ تقول :

— كأنك تشيرين إلى حلالة السلطان عبد الحميد ، على ما أطن . فليقبله الله في جنانه . لقد كان سلطاناً عظيماً . ولكن من أين جاءك هذا الخبر الحزين ؟

— أهو خبر محزن ؟ قالت البنية ذلك مندهشة ، وهي تنظر إلى أمها . أو محزن موت هذا العم الكبير الشديد القسوة ، الذي أزاح أخاه عن العرش ، أخاه الذي هو جد سلمى ، وأشاع أنه مجنون ؟

والحقيقة أن مرضعتها كثيراً ما روت لها قصة مراد الخامس ، وهو أمير محبب ، كريم ، استقبل الشعب عهده بمظاهر فرح كبيرة ، لأنه كان يتوقع أن يقوم بإصلاحات كبيرة . ومن المؤسف أن «مراد الخامس» لم يحكم إلا ثلاثة أشهر ... ذلك أن أعصابه الرقيقة قد هُزّت هزاً عنيفاً بدسائس البلاط ، والاعتيالات التي رافقت وصوله إلى السلطة . فأصيب بانهايار نفسي عميق . لكن الطبيب التمسائي ، المختص الكبير ليديرسدورف Liedersdorf كان قد أكد أنه إذا خلد إلى الراحة ، فسيبرأ خلال عدة أسابيع . لكن المجموعة التي كانت حوله ، لم تحسب أي حساب لهذا الرأي . فخلع مراد ، وحبس مع أسرته كلها في قصر تشيراغان .

ولقد عاش السلطان ثمانية وعشرين عاماً في هذا الأسر ، محاطاً باستمرار بجواسيس أخيه الذي كان يخشى تدبير مؤامرة ، تهدف إلى إعادته إلى العرش . وكان عمره ستاً وثلاثين سنة ، عندما دخل سجنه هذا ، ولم يخرج منه إلا عندما مات .

وفي كل مرة كانت سلمى تفكر في هذا الجسد البائس ، كانت تشعر وكأنها تقمصت روح شارلوت كوردي ، هذه البطلة التي حكّت لها مريبتها الفرنسية ، الآنسة روز ، قصتها . وها هو اليوم الذي مات فيه السفاح في سريره .

ومن المستحيل أن تكون أيندجيم قد شعرت ببعض الأسى ، وهي التي بقيت خمسة وعشرين

(٢) أيندجيم : يأمني العزيرة المحترمة .

عاماً سجنية في قصر تشيراغان ، ولم تستطع استعادة حريتها إلا عندما قبلت ذلك الزوج الفظيع ،
الذي فرضه السلطان عبد الحميد .

فليس إذن تكذب ؟

لكن هذه الفكرة الكافرة نبهت سلمى فجأة ، وجعلتها تتخلى عما كانت تعيش فيه من
أحلام . إذ كيف استطاعت أن تتخيل للحظة واحدة أن هذه الأم الكاملة إلى هذا الحد ، تتدنى
بنفسها إلى الكذب ؟ إن الكذب أمر يناسب العبيد الذين يخشون العقاب ، ولكن هل يناسب
سلطانة ؟ ومع حيرتها هذه ، أجابت أخيراً :

— كنت أمر في الحديقة . وسمعت الأغوات^(٣) يقولون ذلك .

وفي نفس اللحظة ظهر في العتبة خصمي^٤ ، سمين بعض الشيء . وعلى يديه قفازان أبيضان ،
وعلى جسمه ذلك الثوب الأسود الكلاسيكي ، ذو الياقة الشبيهة بياقة لباس الضباط ، أي ما كان
يسمى بالاستامبولين . وبعد أن انحنى أمام سيدته مرات ثلاثاً ، استوى واقفاً ، ويداه متصالبتان
تواضعاً فوق بطنه ، ليقول بصوت حاد :

— سيدي السلطانة العظيمة الاحترام...

فقاطعت الأميرة قائلة : إني أعلم . إذ لقد كانت سلمى أسرع منك . فقل ذلك لأختي ،
الأميرة فهمية ، والأميرة فاطمة ، وكذلك أخبر أبناء الأخوة ، الأميين نهاد وفؤاد ، أي أنتظرهم هنا
هذا المساء .

ومنذ أن مات أخو خديجة ، الأمير صلاح الدين ، أصبحت وهي في الثامنة والأربعين من
عمرها أكبر أولاد مراد الخامس . لكن ذكاءها وشخصيتها يفرضان الاحترام والطاعة داخل الأسرة ،
التي أصبحت هي سيدتها التي لا نزاع حولها .

وولدت في ذلك اليوم العصيب ، شخصية لا تنحني لشيء — وها قد مضى على ذلك اليوم
اثنان وأربعون سنة — حيث فهمت أن أبواب قصر تشيراغان قد أغلقت عليها إلى الأبد ، إنها

(٣) الأغوات خصيان بلغوا بعض العمر ، وكسبوا لهذا السبب حق الاحترام . وكان في كل منزل لأمير أو حتى في كل منزل
لبورجوازي ، حتى نهاية الأمبراطورية عام ١٩٢٤ . يستخدم بعضاً من هؤلاء ليؤمنوا الخدمة بين أجنحة النساء والعالم
الخارجي .

شخصية تكوّنت ببطء، ومتابعة عنيدة. وهي التي كانوا يلقبونها بكلمة «البرق»، ذلك أنها كانت تحب أكثر من كل شيء أن تعدو في حديقة قصرهم كورباليدير، أو أن تتنزه بالقايق^(٤) على شاطئ البوسفور، والريح تسفع وجهها، ومع أنها لم تكن تحلم إلا بالفضاء اللامتناهي والبطولة، فقد وجدت وهي في عمر السادسة أنها أصبحت سجيّة.

وعبثاً بكت، وطال صراخها، ومزّقت يديها بالقرع على الأبواب البرونزية، ولكن هذه ظلت موصدة. وعندئذ أصابها مرض شديد، وساور أهلها الخوف على حياتها. أما الطبيب الذي استدعي على عجل، فقد ظل ينتظر ثلاثة أيام حتى أذن له السلطان عبد الحميد بالدخول إلى قصر تشيراغان.

ولقد عالج الطفلة بالعلق، وأمرها أن تشرب جرّعاً من منقوع الأعشاب المرة. فهل كانت هذه الأدوية الحصيّة، هي التي أنقذتها أو أن ذكر أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين، على حبات مسبحة العنبر، التي كانت سيدتان معمرتان من حاشية القصر تتلوانها ليلاً ونهاراً، هي التي كان لها الفضل في ذلك؟ غير أن البنية السجيّة لم تلبث أن استعادت وعيها بعد أسبوع واحد. وعندما فتحت عينيها، رأت وجه أبيها الجميل جداً، واللطيف جداً، ينحني عليها. ولكن لم كان كل هذا البؤس في ذلك؟ غير أن البنية السجيّة لم تلبث أن استعادت وعيها بعد أسبوع واحد. وعندما فتحت من جديد تسترسل في البكاء.

وعندئذ تقلص وجه السلطان مراد، وبدأ شديد القسوة. وقال:

— يا سلطنة خديجة، أتظنين أن أشرتنا كان في وسعها أن تحكم إمبراطورية بهذا الاتساع، منذ ستة قرون، لو همنا نقف أمام أي صعوبة نتوجع ونتألم؟ وإنك لشديدة الاعتزاز بنفسك، فليمدك هذا بما يكفي من الكرامة.

غير أنه أضاف، مع ابتسامة ناعمة، جاءت لتخفف قسوة اللوم، قوله:

— لئن كانت إبنتنا الصغيرة تنقطع عن الضحك، فمن عساه يبهج هذا القصر؟ إننا سنخرج منه يا عزيزتي الغالية، فلا تخشي شيئاً، وعندئذ سنقوم معاً برحلة كبيرة.

وهتفت البنية تقول بفرح شديد:

(٤) نوع من القوارب التي تستعمل للنزهات القصيرة في البحر.

— آه . يا بابا ، أسنذهب إلى باريس — ذلك أنه لم يحدث قط أن غادرت أميرة من الأسرة المالكة أرض تركيا — حتى ولا إلى الضواحي القريبة من استامبول ، فاسترسل السلطان في الضحك .

— أو أصبحت امرأة صغيرة منذ الآن ؟ حسناً أعدك يا زهرتي بأن نمضي إليها حالما نخرج من هنا .

هل كان يعتقد ذلك حقاً ؟ أو كان الأمل ضرورياً لكي يستمر في العيش ... العيش ؟ وتلاشت نظرة السلطانة ، بينما كانت تتذكر ... فخلال الثمانية والعشرين عاماً من الأسر ، عاش السلطان مراد موته يوماً بعد يوم .

وكان الليل قد بدأ يبهط ، عندما دخلت عربتان بضجة كبيرة في الفناء الداخلي للقصر ؛ أي الفناء المطل على أجنحة النساء . فنزلت من إحدهما ، صبية لطيفة ، مثقلة بما عليها من حلي ذهبية ، وهي ترتدي شرشفاً من الحرير البنفسجي ، هذا الغطاء الواسع الذي يحجب كل الأشكال . أما من الأخرى فتتزل سيدة مكورة ، ترتدي شرشفاً أسود ، من أكثر الشرشفت كلاسيكية . ويتضام الشرشفتان لحظة قبل أن يسرعا إلى داخل القصر ، مسبوقين ومتبوعين بخصيان باللباس الرسمي .

والقصر ، على ما هي الحال في أكثر قصور الأمراء والأميرات ، بيت قديم من الخشب المحفور ، وذلك نوع من الحيغة في بلدة معرضة للهزات الأرضية . وهو بلون أبيض وسط حديقة حافلة بالنوافير ، والورود والسرو ، ويشرف على البوسفور الذي يضيقه الغسق في هذه الساعة . أما مطالبته ، وسلاله ، وشرفاته ، ومصاطبه ، فإنها تجعله يبدو بصورة بيت من الدانتيل .

وكانت أمينة سر السلطانة تنتظر هاتين الزائرتين عند أول السلم ، المؤدي إلى أبهاء الطابق الأول . وكانت تلبس ثوباً من الساتان تعلو أزراره حتى العنق ، وعلى رأسها ذلك الغطاء التقليدي المصنوع من الموسلين — ذلك أن المرأة الشريفة لا يسعها حتى في منزلها أن تظل عارية الرأس — وكانت تمسك بيدها العصا الطويلة ذات المقبض الذهبي ، وهذه علامة مميّزة لمن هو في مثل مرتبتها .

ولم تكذ تنحني أمام السليطانتين ، حتى رفعتها هاتان ، وهما تقبلانها . وتعتبر هذه

الكالفات^(٥) في البيوت الكبيرة كأعضاء كاملي العضوية في الأسرة. وما من شيء يقف دون أن يتقيدن بالبروتوكول، بل إنهن لأوثق الأمينات عليه. ولكنهن يعتبرن، على كل حال، أن صور الاحترام التي يقابلن بها من قبل الأميرات كنوع من المكافأة العادلة على إخلاصهن:

وعلى حين أن السلطانتين، المستعنتين بعبدين، يخلعان ثيابهما المزعجة، فإن الكالفا العجوز كانت تهتز طرباً.

— الحمد لله على أن لبوتي^(٦)، ما زالتا، كل يوم، أروع من ذي قبل. ومع نظراتها المصادقة على ما تقول، نراها تمنع النظر في فطمتها الرفيعة المعبدة، التي تلبس ثوباً من التفنن العاجية اللون، يُبرز حسن عينيها السوداوين وكذلك تتأمل فهيمتها المتألقة، التي تبرز قامتها الناعمة من داخل ثوب ذي ذيل، تناثرت عليه صور الفراشات. وكأنما قد أتت به مباشرة من عند أدلر مولر، أحسن خياط في فيينا — أما روائع باريس فإنها لم تعد تصل، مع الأسف، منذ أن خطر ببال الدولة، في آب / أغسطس / عام ١٩١٤، ذلك الخطر السيء بإعلان الحرب على فرنسا.

وتعانقت الأختان بالأيدي، وهما تضحكان. وأخذتا ترتعيان السلم، عندما فاجأتهما عاصفة صغيرة زرقاء، انقضت عليهما، وكادت أن تقلبهما على قفاهما. وتوقفت عندهما مباشرة، وغمرت أيديهما بالقبل.

— ديجديم^(٧) ستجعليني أموت! هكذا قالت فهيمة بكل ما فيها من حنان، وهي تضم سلمى بين ذراعيها، على حين أن الكالفا تدمدم غضباً، مستاءة مما تفعل سلمى.

لكن صبيهاً ضخماً شاحب اللون، يتبع العاصفة. فينحني، بلا فحক্ষে، أما خالتيه. إنه خيري، أخو سلمى. ومع أنه أكبر منها بسنتين، فهو مع ذلك عبدها المخلص، وكان دوماً يتأذى مما تجرؤ على فعله، ولكنه لا يقوى على مقاومتها.

وفي أعلى السلم كانت السلطانة خديجة قد تقدّمت. إنها تبدو أطول من أختيها، ولها مشية منزلقة، شهبانية، مغرية، وعلى شيء كبير من العظمة. ونراها تفرض نفسها على أكثر الناس بعداً. وعندما يتحدثون في الأسرة عن السلطانة، على الرغم من أن الأخوات كلهن سلطانات، فإنهم إنما يتحدثون عنها هي، بصورة مؤكدة.

(٥) وهن ساء مكلفات بخدمة القصر.

(٦) مؤثت الأسود: ويعنى بهذه الكلمة هنا سيدات القصر من الأسرة المالكة.

(٧) ديجديم. تعني العزيز الغالي، وتستخدم خاصة مع الأطفال.

وتجمدت فاطمة ، أمام أختها الكبرى ، من غير أن تخفي إعجابها ، ولكن فهمية ، المستاءة ، والتي هي تبعاً لمعايير الموضة ، الأجل بين أخواتها ، أسرعت فقطت على السحر .

— ماذا يحدث يا أختي العريزة حتى تستدعينا بمثل هذه السرعة ؟ لقد اضطرت لإلغاء الأمسية التي دعيت إليها لدى سفير النمسا — هنغاريا . تلك الأمسية التي كما نقدر أنها ستكون مسلية جداً .

— إن الذي يحدث ، هو أن عمنا السلطان عبد الحميد ، قد قضى نحيبه . هكذا قالت السلطانة بلهجة أكثر رسمية من المؤلف ، لاسيما وأنها لم تقرّر بعد السلوك الذي عليها أن تعتمده في هذه المناسبة . واكتفت فهمية برفع حاجبيها .

— ولم يكن لموت هذا ... الطاغية ، أن يحملني على العدول عن حضور البال (حفلة الرقص) .

— برافو يا خالتي ! فما أحسن ما قلت !

لكن صوتاً جهيراً جعلهن يرتعشن . إذ لقد دخل عليهن من الخلف ، رجل بدين في الخامسة والثلاثين تقريباً من العمر ، هو الأمير نهاد . وهو الابن الأكبر للمرحوم الأمير صلاح الدين . وكان يصحبه أخوه الأصغر منه ، الأمير فؤاد ، الذي يبدو جميلاً في لباسه الرسمي ، لباس اللواء ، الذي لا يتركه أبداً . وهذا « اللواء الأمير » على ما يريد أن يسمى ، بحكم أنه يقيم وزناً أكبر للقب اللواء ، الذي كسبه في ساحات المعارك ، منه للقب الأمير ، كان قد عاد منذ ستة أشهر من الجبهة الشرقية ، حيث جرح جرحاً خطيراً . وهو يقضي الآن فترة نقاهة فرحة في استامبول ، مستغلاً سمعته كبطل ، أمام السيدات ، دود حياء .

وبعد أن انحنيا أمام السلطانات ، تبعاهن إلى البهو الأخضر ، حيث قامت كالفات صغيرات السن بإشعال المئة والسبعة والثلاثين مصباحاً ، في ثريا من الكريستال .

وتسلل خيري وسلمى على رؤوس أصابع أقدامهما ، وراءهن .

وكانت خديجة ، المبتسمة ، تنتظر أن يستقر كل من هؤلاء في مكانه . فهي تعرف أنه ليس من السهل أن تريح اللعبة . وهذا ما يسرها ويروقها .

— أردت هذا المساء أن أجمع مجلس الأسرة، لنقرر ما إذا كان علينا أن نحضر غداً مراسم تشييع السلطان عبد الحميد .

« وتبعاً للتقاليد ، يجب على الأمراء أن يمشوا وراء الموكب الجنائزي الذي سيجتاز المدينة . أما الأميرات فإن عليهن أن يقمن بزيارة مواساة لزوجات المرحوم وبناته ، وفجأة يصبح صوتها عميقاً ، لتقول : أرجوكم ألا تضعوا في حسابكم عواطفكم الشخصية ، بل الصورة التي نقدمها عن أنفسنا إلى الشعب » .

وتقطع فهيمة الصمت ، أول من يقطعه ، لتقول :

— إن هذا كله كورنيلي بعنف^(٨) ، أما أنا ، على كل حال ، فلن أذهب . لقد أفسد عليّ عمي العزيز ، خمسة وعشرين عاماً من حياتي ، ولكنه لن يفسد عليّ بعد الآن أي يوم آخر .

وقالت فطمة ببعض الخجل :

« أليست هذه ، على العكس ، مناسبة للعفو عن الآخرين . إذ لقد كفر المسكين عن إساءته بأكثر مما ينبغي ، فقد انتزع منه العرش ، بدوره ، وسجن عشر سنوات . أولاً نستطيع أخيراً أن ننسى ؟ » .

— ننسى !

وبدا أن الأمير نهاد ، قد ازداد احمرار وجهه ، في مقعده . وخشيت سلمى ، لفترة ما ، أن يختنق . وكان يُظفر جاحظ العينين إلى خالته الشابة ، وقال :

والوفاء إذن ؟ للسلطان مراد ، جدّي الذي أسيئت سمعته ، وقبر حياً ؟ والوفاء لأبي ، الذي قضى عليه الوهن العصبي (النوراستينيا) . فإذا نحن شاركنا في التشييع ، عنى ذلك تبرير من أسرف في اضطهادنا . فلنتغيب ، ولنشر بذلك إلى الأذى غير القابل للتعويض ، والذي ألحقه بأسرتنا ! إن هذا ما ينتظره موتانا منا .

— يا أخي ، أرجوك لنكف عن جعل الموق يتكلمون :

وانتهجت الأنظار كلها إلى الأمير فؤاد الذي كان يتلذذ بتدخين سيكارة .

(٨) أصبح البلاط العثماني منذ القرن التاسع عشر ، فرنسي الثقافة . وهذا التعبير « كورنيلي بعنف » مستمد ومنسوب الشاعر كورني ، الكلاسيكي ، الذي كانت نظراته إلى الحياة مثالية ، يغلب فيها الواجب على العاطفة .

— لما كنت الأصغر سناً هنا ، فإنني أطلب منكم معذرتي إذا بدا أنني أقدم نصيحة . ولكن السنين التي قضيتها على الجبهة مع جنودي ، وهم أناس بسطاء من الأناضول وإزمير ، وشواطئ البحر الأسود ، علمتني شيئاً واحداً : فعلى الرغم من نقائصنا ، فإن الشعب يُجلنا ، ولن يفهم أن نكون مشتتي الأهواء أو متنازعين . ولئن حل عبد الحميد محل مراد ، وأن يكون هو قد عُوض عنه بأخيه رشاد ، فإن هذه أشياء أو أحداث عرضية . والمهم أن تكون أسرتنا كتلة واحدة حول السلطان . والشعب الذي يعاني عذاب هذه الحرب ، بشكل خاص ، بحاجة إلى نقطة استناد قوية . ومنذ ستة قرون ، ونقطة الاستناد هذه ، هي أسرتنا العثمانية . ويجب أن تبقى فيها ، وإلا فإننا قد نأسف على ذلك .

وفي هذه اللحظة ، ظهر أحد الخصيان ، يعلن عن وصول رسول من السلطان .

وكان هذا الرسول سودانياً عظيم الهامة . ومع أنه عبد ، فقد نهضوا جميعاً ، لا احتراماً لشخصه ، لأنه غير موجود بالنسبة إليهم ، ولكن تعبيراً عن الاحترام للكلام الذي هو حامله .

— إن جلالتة الإمبراطورية ، السلطان رشاد ، أمير المؤمنين ... وظل الله على الأرض ، وخاقان البحرين ، الأسود والأبيض ، وسلطان البرين ، يرسل إلى أفراد أسرته الأمراء هذه الرسالة : بمناسبة موت أخينا المحبوب جداً ، السلطان عبد الحميد الثاني ، ندعو الأمراء والأميرات من أسرة جلالة السلطان مراد إلى الاشتراك في المأتم ، في الأماكن والطريقة المحددة بالأعراف . فليكن السلام معكم ، وليتولكم الله جل وعلا بلطف عنايته ! .

وهنا نراهم يتقبلون الأمر الصادر . وليس من شك في أن رسالته ليست بدعوة ، بل هي أمر .

وما كاد الرسول يغادر المكان حتى دمدم الأمير نهاد ، رافعاً كتفيه وقائلاً :

— ليحدث ما يحدث ، فلن أذهب .

وتتدخل السلطانة خديجة لتقول بلهجة اللامم .

— يا نهاد ، أظن أن (فؤاد) على حق . فالموقف خطير . وعلينا أن نبقي على وحدة الأسرة .

— وحدة الأسرة ! آه . لتحدث عنها ، يا خالتي العزيزة . إنها أسرة لم تنقطع منذ ستة قرون عن الاقتتال من أجل السلطة . فكيف قتل جدنا مراد الثالث « قاهر الفرس » من إخوته ؟ إنهم تسعة عشر فيما أظن . وكان أبوه أكثر تواضعاً ، إذ لم يقتل إلا خمسة .

وأجابته الخالة :

— لقد كان ذلك مبرراً بضرورات الحكم . وقد حدث مثل هذا في كل الأسر الحاكمة . لكن الذي حدث في أوروبا ، أن الملوك لم يكن لهم إخوة بهذا العدد . وأنا لأحقد في هذا على السلطان عبد الحميد . ففي تلك الظروف الصعبة التي كانت فيها إنكلترا وفرنسا وروسيا تريد اقتسام أراضيها ، كان يجب بلا ريب أن يوجد رجل مثله ، لكي يدير دفة الحكم . ولقد استطاع خلال ثلاث وثلاثين سنة أن ينقذ الأمبراطورية من شرور الدول ، التي كانت تريد تمزيقها . أما أبي . المفرط في حرصه على الشرف ، والشديد الحساسية ، فربما لم يكن قادراً على أن ينجح في ذلك . وأخيراً ، أليست مصلحة البلاد أولى بالرعاية من سعادتنا الشخصية ؟

وعندئذ تبادلته فهيمة السلطنة والأمير فؤاد غمزة عين ساخرة . ذلك أن كبراهم كانت دوماً امرأة تحرص على الواجب . ولكن من يهتم اليوم بهذه المبادئ الكبرى ؟ أما فهيمة فتريد قبل كل شيء أن تتمتع ، وهي تقبل على المتعة إقبالاً عنيفاً بحكم شعورها أنها أضاعت في الأسر أجمل سني حياتها . إنها من المرح ، والخفة ، بحيث لقيت بلقب « السلطنة الفراشة » . وقد جعلت من الفراشات رمزاً لها ، وجعلت أثوابها تزين كلها بهذا الرمز . إنها فنانة ، عازفة على البيانو بدرجة الكمال ، بل لقد يحدث أن تؤلف بعض القطع الموسيقية . وما من شيء تكرهه مثل « الجدّية » والمسؤوليات .

ويشبهها في هذا ابن أختها ، فؤاد : فلديه نفس الظمأ إلى الحياة ، ولكنه يتميز عنها بحس مرهف ، بالواقع وحقائقه . ولما كان شديد الوعي لمصالحه ، فإنه يعرف كيف يضحي بالقليل لكي يريح الكثير . أما المواقف الصعبة ؛ فإنه يتخلص منها بما لديه من سحر وإغراء . وفي هذه اللحظة نراه لا يقاوم الرغبة في مناعة السلطنة خديجة .

— إذا كنت أفهم سيادتكم (أفنديميز) ، فإنه ليس علينا فقط أن نحضر المراسم ، بل لعل علينا ، كذلك ، أن نذرف فيها بعض الدموع ، لنكون في مستوى الموقف .

— يكفيكم أن تحضروها . ولكن تذكروا هذا ، يا فؤاد ، وأنت يانهاد ؛ فلئن وصلتما إلى العرش يوماً ما ، فانسجوا على مثال السلطان عبد الحميد لا على مثال جدكم السلطان مراد . إذ لا تملك المرأة في آن واحد أن يكون لها ولد ، وأن تحتفظ بعذريتها .

وعندما انفجرت ضاحكة من سحنتهما المندهشة — إذ إنهم لن يتعودوا أبداً على خشونة
كلماتها — مهضت لتختم الاجتماع .

في صباح اليوم التالي ، ما كادت السلطنة خديجة تستيقظ من نومها ، حتى استولت عليها رغبة مفاجئة في المضي إلى السوق لتشتري بعض « الشرايط » . والعادة هي أن الباعة النساء من الأغارقة أو الأرمن ، هن اللواتي يأتين إلى القصر ليعرضوا أشياءهن ، إذ لا يحسن بالأميرة أن تتردد على هذه الأماكن الشعبية ، حتى ولو بقيت بعيدة عن الأنظار في عربتها المغلقة أحسن إغلاق .

ولكنها اليوم لا تريد الانتظار .

فاستدعت زينيل ، خصيئها المفضل . وهو ألباني طويل القامة ، ذو بشرة شديدة البياض . ويجب أن يكون في الأربعين من عمره ، وتلاحظ السلطنة بشيء من المتعة أن سمته الجديدة ، تريق عليه هيئة الباشا .

وتتذكر الآن ذلك المراهق المرعوب الذي وصل منذ خمسة وعشرين سنة إلى قصر تشيراغان ، حيث كانت تعيش سجنينة مع أبيها ، وإخوتها . وكان قد أرسل إليهم من قبل رئيس الحصيان لدى السلطان عبد الحميد ، الذي وجد في إرساله هذا ، وسيلة مناسبة للتخلص منه . ذلك مع أنه كان موهوباً بشكل خاص — لأنهم كانوا يعلمون ويثقفون الأطفال الذين يهينونهم لخدمة البلاط الملكي — ويتميز بالذكاء والحيوية — فإنه فيما بعد بدا عصياً جداً على نظام الحریم القاسي .

ومع ذلك، فإن زينيل هذا سرعان ما تلاءم مع صورة الحياة في قصر تشيراغان. فهل كان مثلاً يشعر بأنه أكثر حرية، مع هؤلاء المساجين؟ وتذكر خديجة أنه كان يتبعها إلى كل مكان. وكان شديد الانتباه لأصغر حركاتها، على حين أنه كان يتجاهل أختها الأميرة فهيمة والأميرة فطمة. ولقد اختارها هي وحدها ليقوم بخدمتها.

ولما كانت قد تأثرت بإخلاقه، فقد ازدادت اعتماداً عليه، بصورة تدريجية! وكانت تقدر رهافته، وتقدر بشكل خاص كتمان الأسرار والأحاديث، وكان بهذا يتميز عن الخصيان الآخرين، الكثيرون الهذر، كالعجائز من السيدات.

أما الآن، وفي قصر أورطاكوي، فقد جعلت منه عينها التي ترى، وأذنها التي تسمع. وهي ترسله بانتظام إلى المدينة لكي يتسقط الإشاعات، وأحاديث المقاهي. فينقل إليها الانتقادات والرغبات التي تشيع في أوساط الشعب العادي في استامبول، الذي ضاق صدره بهذه الحرب التي تتناول، وبصعوبات الحياة اليومية.

وهكذا، فعلى الرغم من أنها حبيسة دائرة الحرم، فهي أكثر إطلاعاً على العواطف الشعبية، من أكثر أعضاء الأسرة الإمبراطورية، الذين كثيراً ما يأتون إليها للاستشارة، لأنهم يعترفون لها بثقب الفكر وسلامة النصائح.

وقد عمدت حديثاً، مكافأة منها لولاء زينيل الذي لا تشوبه الشوائب، إلى ترقية إلى المنصب العظيم، منصب «رئيس الخصيان»، مما أثار الكثير من التعليقات الضاغنة لدى الخصيان الأكبر عمراً منه.

ويراها الإنسان تفكر، وهي تلاحظ العبد الذي ينتظر بأحسن الصبر، ويعينين موجهتين إلى الأرض، جملة الأوامر التي تصدرها إليه. ولكن ماذا تعرف عنه، فيما عدا مزايه كخادم استثنائي الفضائل؟ وما هي حياته خارج القصر؟ وهل هو سعيد؟ إنها لا تملك أية فكرة عن ذلك، وترى أن هذا الأمر لا يعنيتها.

ومن أعماق صحتها تنجيه إليه، وتقول له أخيراً:

— يا آغا أريد أن تجد لي عربة من عربات الأجرة. وبأسرع ما يمكن. وينحني الخصي، مخفياً دهشته. ذلك أن عربات القصر المغطاة والمكشوفة، وهي خمس، في أحسن حال! وبطبيعة

الحال ، فإن هذه العربات تحمل الشارات السلطانية ... فهل ترغب سيدته أن تمضي ، بمجهولة الهوية ، في الوقت الذي كان فيه زوجها خيري بك ، في رحلة خارج المدينة ؟ وزينيل هذا معتاد على نزوات النساء ، فلطالما لاحظها بين نساء الحرمك ، حيث كان يخدم لمدة أربعة عشر عاماً . لكن سلطانه هذه مختلفة ! فأنب نفسه على أنه شك فيها ، ولو للحظة ، وأسرع ليجد لها عربة أجرة .

وساعدتها إحدى الوصيفات (الكالقات) على وضع الشرف الأسود على جسمها ، استعداداً للخروج . لكنها في هذه اللحظة فوجئت بسلمى التي كانت تنتظرها على الباب ، لتقول لها متوسلة :

— أيندجيم ، أرجوك أن تأخذيني معك !

— ولكن كيف يكون ذلك أيتها الأميرة ؟ وتماينك على البيانو ؟ كنت أعتقد أن عليك أن تتدربي على عزف أنغامك !

— سأقوم بذلك لدى العودة ، وأعدك بذلك !

وكان في عيني البنية من البؤس والتوسل ، ما جعل أمها لا تملك لها رفضاً . فهي نفسها قد عانت الكثير من حياتها المنزوية ، بحيث أنها ترغب الآن أن تهب ابنتها الحرية الممكنة ، في حدود المواصفات المقبولة ، وأحياناً فيما هو أكثر من ذلك على ما تقول الألسن الطويلة .

وخرجت العربة المغطاة ، ذات النوافذ المستورة بشبك خشبي ناعم ، من الفناء الداخلي للقصر ، بسرعة معتدلة . أما زينيل ، ومهابته العظيمة ، فقد جلس إلى جانب السائق . وكان ذلك اليوم يوماً جميلاً من أيام الشتاء : واخر البرد من جهة ، ومشمساً من الجهة الأخرى . وكان يحوم في السماء جماعات من الحمام ، على مقربة من المساجد ومن القصور المطلة على البوسفور .

وتدمدم السلطانة خديجة قائلة : « استامبول ، يا عزيزتي العظيمة » وعيناها نصف مغلقتين ، كعاشقة طال عليها بُعد حبيبها ، فهي لا تكل من التأمل فيها . وسلمى ، إلى جانبها ، فاعرة الفم ، تعد نفسها ، متى أصبحت كبيرة ، بأن تخرج مرة كل أسبوع على الأقل ، حتى ولو أدى ذلك إلى الكثير من التقولات .

واجتاز الركاب من جسر غلطة ، ما يسمى بالقرن الذهبي ، وهو شريط ضيق من البحر بين شاطئتي العاصمة . أما السوق فإنها تقوم في المدينة القديمة ، غير بعيدة عن قصر توبكاي المهيب ،

والمهجور من قبل الأسرة المالكة، منذ ستين سنة، وذلك عندما بنى السلطان عبد المجيد، لتخليد ذكره، قصر ضوالة باهتته. وهكذا فإن السلطان والأمراء، المقيمين وراء جدران السراي الرطبة، لا يموتون من السل.

أما الشوارع، فتقوم فيها حركة غير مألوفة. وبعد عدة أمتار، تقف العرب مضطرة. ويظهر وجه زينيل الطويل من خلال الباب.

— يا صاحبة السعادة، لم يعد في وسعنا أن نتقدم. فمن هنا يجب أن يمر الموكب الجنائزي. وترسم ابتسامة هادئة على محيا السلطنة.

— أحقاً هذا؟ لقد نسيت ذلك. إذن فسننتظر ريثما يمر.

وألقت سلمى نظرة باتجاه أمها، إن هذا هو فعلاً ما كانت تفكر به: فالشرايط لم تكن إلا ذريعة! فأيندجيم لا تهتم كثيراً بزيئها! والشيء الذي كانت تريده، هو أن ترى موكب الجنائز، ولما كانت التقاليد تقضي بأن لا تحضره الأميرات، فقد وجدت هذه الحيلة للحضور.

وكان هنالك جمهور كبير من الناس قد تجمع، على دهشة كبيرة من السلطنة. فقالت في نفسها: «يا بؤسهم، إن الناس لقليلو المتع، في أيام الحرب هذه، حتى يكفي أي شيء، لإخراجهم من منازلهم».

وفجأة يسود الصمت. إذ لقد ظهر الموكب في أعلى الشارع.

كان النعش مسبوقة بفرقة عسكرية موسيقية بالاستامبولية السوداء. ومرت الجنائز ببطء، محمولة على أكتاف الجنود. ويتبعها الأمراء، مشاة على الأقدام، بترتيب الأعمار، وعلى صدورهم أوسمة من الماس. ويأتي بعدهم الأصهار (الداماد) أزواج الأميرات، ثم الباشوات في زهم الاستعراض الموحّد، ثم الوزراء بالريدنجوت المزين الجوانب بمطرزات الذهب. وأخيراً، وعلى نفس مستوى الوزراء في هذه الاحتفالات الرسمية، يأتي ألكيسلر آغا، حارس أبواب السعادة، ورئيس الخصيان السود، في القصر.

وعلى جانبي الموكب، وعلى طول الثلاثة الكيلومترات التي تفصل جامع آياصوفيا، عن الضريح الذي سيقبر فيه السلطان، ينتشر الجنود في لباسهم الرسمي في وضعية التأهب. ومن الواضح كل الواضح، أن حكومة تركيا الفتاة، التي أزاحت السلطان عبد الحميد عن العرش، منذ

عشر سنوات ، وتحت رعاية السلطان رشاد ، هي التي بيدها مصائر الأمبراطورية . ولقد شاءت أن يكون الاحتفال بدفن السلطان ضخماً . وفي وسع المرء أن يبدو طيباً مع الموتى .

أما الطبيب ... فإن الرجل الذي يحتفل بدفنه اليوم ، لم يعرفه قط ... وكانت الدموع تغشي نظرة السلطانة . وفجأة ترى نفسها قبل أربعة عشر عاماً ، في تلك الليلة الشديدة البرد التي قبر فيها أبوها السلطان مراد ، بأمر من السلطان عبد الحميد ، بصورة سريعة جداً . إذ لم يصحبه إلى القبر إلا بعض خدمه الأوفياء . أما الشعب الذي كان يحبه حباً جماً ، فإنه لم يسمح له بالإعراب عن أسفه .

وترتجف خديجة . ذلك أن العظمة التي تحيط بالموكب الجنائزي ، لذلك الجلال ، أثار كراهيتها من جديد . وما دام عبد الحميد قد أذل ، فلعلها قد ساحت ، ذلك أن حبسه الطويل قد كفر عن ذنوبه في عينيها . لكن هذا الاحتفال الفخم ، يعيد إليه المجد ، وهو مجد مسروق من أحبه . فحتى في الموت كان حميد يسحق « مراد » . وبعد عشر سنوات من الأسر الغامض ، يبدو هذا الاحتفال بالدفن ، وكأنه يرد إليه الحياة .

وشعرت السلطانة بأن طعماً مرّاً يملأ فمها . أهو الغيرة ؟ وهل تغار من ميت ؟ ... إنها تفهم الآن ماهي الرغبة التي دفعتها إلى تجاوز الأعراف ، من أجل حضور هذا الاحتفال الجنائزي . ولقد كانت تظن أن هذا منها ليس إلا من قبيل الفضول : والحقيقة أنها أرادت الشعور بالانتقام . فلقد جاءت تلاحظ وتستنشق وتتذوق موت الرجل الذي كان يقتل أباه ، يوماً بعد يوم ، خلال ثمانية وعشرين عاماً .

وما من مرة اعتقدت أن قلبها لا يزال يكن كل هذا الكره ...

وكان الموكب قد حاذى العربة . وحاولت خديجة أن تلاحظ بعينها وجود أبناء أخيها . أما نهاد فإنه لم يحضر ، لكن الشاب فؤاد الملفوف بشيابه الرسمية الجميلة ، فإنه يُمثل الأسرة تمثيلاً حسناً ، ولقد انقاد لنصائحها . ولكنها وهي التي تعرف دوماً ما يجب أن تفعله ، لم تعد قط واثقة من أنها كانت على حق .

وفجأة نددت من الحضور صرخات . وحاولت السلطانة داخل عربتها أن تكبت ابتسامة . إن هذا هو السبب الذي جعل الناس كثيرين في الاحتفال : إذ قلما يهتم الشعب باللياقات التي تمنع إحاطة الميت بالصخب . ولهذا جاء يحيي الطاغية التحية التي يستحقها !

ولما كانت شديدة الانتباه ، فإنها أصغت بأذنها ، داخل هذا الصخب ، إلى ما بدا لها أنه

تأوهات وشهقات بكاء ولكن هذا مستحيل ، ويجب أن تكون أساءت السمع ! ومع ذلك ...
فقد كان ما سمعته قائماً فعلاً . فتجمدت في مقعدها ، وعلا وجهها شحوب كلون الموت . وما ذلك
الذي ظنت أنه صرخات كره ، بدا فعلاً أنه صرخات تألم ويأس . فاشتد فيها الاستياء . وماذا ؟ أهذا
الشعب الذي كان في الماضي يهزأ بالطاغية ، يبكي عليه اليوم ؟ أو نسي تلك السنوات السوداء التي
كانت فيها الشرطة ودوائر المخابرات تحكم حكماً مطلقاً ؟ أو نسي كم صفق للانقلاب الذي قام به
رجال تركيا الفتاة ، وأطاحوا فيه بالسلطان عبد الحميد ، وأحلّوا محله أخاه « رشاد » ؟ فهزت رأسها
باحترار ، كأنها تقول : « حقاً إن ذاكرة الناس قصيرة » .

وبدا وجه امرأة من نافذة ، وهي تتألم ، وتتوجع ، وتقول :

— أيها الأب . لِمَ تركنا وتتخلى عنا ؟ ففي زمانك كان لدينا خبز نأكله . أما اليوم فنحن
نموت جوعاً !

وانضمت أصوات أخرى بعضها إلى بعض ، لتقول :

— أين تمضي ؟ لا تركنا وحيدين .

وعندما سمعت السلطنة كلمة « وحيدين » ارتجفت . فماذا يريد هؤلاء الناس أن يقولوا ؟ أو
ليس لديهم ملك ، هو السلطان الطيب رشاد ؟ فهل يكونون قد فقدوا الثقة به ؟ أو تراهم قد حزروا
ما يعرفه كل إنسان في البلاط ، وهو أن السلطان رشاد ليس إلا ألعوبة بين أيدي الأسياد الثلاثة
الحقيقيين ، أنور ، وطلعت ، وجمال ؟

إن هؤلاء لم يروا أن يستشيروا السلطان ، منذ أربع سنوات ، عندما زجوا بتركيا في الحرب ، إلى
جانب ألمانيا ، عام ١٩١٤ . ومنذ ذلك الحين وهم يراكمون الأخطاء ، وتزداد الهزائم التي يحاولون
إخفاءها . ولكن مئات من الجرحى ، تأتي كل يوم من الجبهة ، وتطول الطوابير أمام المخازن ، في الحين
الذي تمتلئ فيه الشوارع بالمتسولين .

وتتندد السلطنة . فمع السلطان عبد الحميد قضي على آخر رمز من رموز « تركيا » القوية
والمحترمة . وعلى الأرجح فإن هذا ما يبكي عليه الشعب . فغمرها حنان الشوق ، ولم تعد فيها
الشجاعة ، لاستبقاء وهم زيارة السوق (البازار) .

فقال لزينيل :

— لنعد إلى القصر .

فنظر الخصي إليها بحزن . إنه يفهم الاضطراب الذي تعانيه السلطانة ، وهو يعلم كم هي بحاجة في هذه اللحظة إلى كلمة تواسيها ، لكن وضعه لا يسمح له إلا بالسكوت ، فينحني ، وينقل بكلام موجز ، أمرها إلى سائق العربة . وبدأت العربة طريق العودة إلى القصر ، على غير عجل .

والآن تبدو الشمس وهي تهبط على البوسفور . ومن خلال النوافذ الزجاجية العالية ، كانت خديجة تتأمل النهر ، وعلى الجانب المقابل ، في القارة الآسيوية ، كانت تتأمل قصر بيليربي Beylerbé ولم تستطع أن تكبت ابتسامة تجاه سخرية القدر هذه : فهناك ، ومقابل منزلها تماماً ، كان سجنها القديم ، والذي أصبح سجيناً بدوره ، قد عاش السنوات الأخيرة من حياته .

ويدعي أصحاب الألسنة الطويلة أنها اختارت أن تعيش على مقربة من السلطان المخلوع لكي تتأمله على راحتها . إن هذا غير صحيح : ففي هذا القصر ، قصر أورتاكوي ، كانت تسكن من قبل بمدة غير قصيرة . ولقد انتقمت لنفسها ، وهذا صحيح ، ولكن بطريقة أخرى .

ولقد أُخبرت بأن (القايق) جاهز : وكان قد حان الوقت لتمضي إلى تقديم تعازيها لأسرة الميت . وباستثناء الاحتفالات الرسمية التي يحاول فيها عدم التعرف بعضهم على بعض ، فإن هذه أول مرة تلتقي فيها الأُسرَتان .

وتجتاز السلطانة خديجة الحديقة ، متبوعة بأختها وابنتها ، لكي تتجه إلى الجسر المبنى من الحجر الذي نبتت عليه الطحالب فيما بعد . وكانت هذه النسوة الأربع يلبسن اللباس الأبيض ، لون الحزن ، أما اللون الأسود المعتبر كلون الشؤم ، فإنه محرمٌ في البلاط العثماني .

وساعدهن الخصيان ، فصعدن إلى القارب اللطيف ، بعد أن حياهن المجدفون العشرة الذين يلبسون ، على ما كانت عليه الحال أيام سليمان الرائع ، قمصاناً واسعة من الباتيسا وسراويل قرمزية اللون . والمجدفون لا يكونون إلا عشرة ، عندما يستقبل الأمراء والأميرات . أما الوزراء فحصتهم ثمانية مجدفين . وأما السلطان فإنه يستخدم عادة (قايق) فيه أربعة عشر مجدفاً .

وعندما كان القايق يسبح فوق الماء ، كانت السلطانات يرفعن حجبهن لكي يتمتعن بالنسيم العليل ، إذ ما من إنسان هناك لكي يراهن . أما المجدفون فعليهم أن يخفضوا عيونهم ، وإلا فإن التسريح عقوبتهم . وفي الماضي كان هذا العقاب هو الموت .

أما سلمى التي اعتلت مقدمة القارب ، فكانت تتأمل بإعجاب حركة الأسماك ، التي كان يبدو أنها تتبع القايق : وهي تحب هذه العادة ، عادة الأوشحة المسلمين الزرقاء ، المطرزة بصور الشبايط والتروية ، بخيوط من الفضة ، تطريزاً يحدع البصر ويوهمه بأن هذه المطرزات أسماك حقيقية .

ووصلت الأميرات إلى قصر بيلربي ، وقد دُخن قليلاً بهواء البحر ، فواكبهن الخصيان في البهو الكبير ذي السقوف المزينة بأشكال هندسية خضراء وحمراء ، وذوي الجدران المكسوة بمرايا دمشقية مطعمة بالصدف . وكان هذا القصر قد بني في القرن الماضي بأمر من السلطان عبد العزيز ، الذي أراد له زينة شرقية فخمة ليميز بها من الدرجات الآتية من أوروبا . ويرى أنه عندما جاءت أوجيني دو مونتيجو ، التي كان يحبها حباً شديداً ، أقامت فيه قبل أن تمضي لتدشين قناة السويس ، فأمر السلطان بأن تطرز الناموسية ، التي تنام تحتها الأمباطورة بألف حبة من اللؤلؤ الناعم .

ودخلت الأميرات ، تتقدمهن سيدة المراسم ، إلى قاعة من الخمل الأرجواني اللون . وهذا هو بهو السلطانة الوالدة ، وهو لقب يعطى للأمهات السلاطين . ولما كانت أم السلطان عبد الحميد قد ماتت ، فإن زوجته الأخيرة مشفقة كادين ، هي التي تصدر مكانها ، وتبدو رقيقة نحيلة في المقعد المصنوع من الخشب الثقيل المذهب ، الذي تجلس عليه . وقد ظلت حتى النهاية إلى جانب السلطان المخلوع . وكان يوم التعزية هو يوم فخارها ، فهي تتلقى المكافأة العادلة على إخلاصها .

أما حولها ، فكان يوجد نساء من مختلف الأعمار ، يجلسن على وسائد وأرائك من البروكار ، وكن يتوجعن إذ يذكرن فضائل المرحوم ، وأعماله الطيبة . ومنهن من يبكين بجلبة ، ومع ذلك فإنهن ينقطعن عن ذلك ليلاحظن القادمات الجدد .

وعندما ظهرت السلطانات الثلاث ، دمدم الحضور دمدمة الدهشة . لكن «الكادين» تقسم ، وهي أذكى من أن يخفى عليها السبب السياسي لهذه الزيارة . ومع ذلك فإنها لا تقلل من شأن هذه البادرة العظيمة . فنهضت على عجل ، لاستقبالهن ، إذ حتى في ذلك اليوم ، الذي وصلت فيه إلى قمة الفخار والتشريف ، لا تنسى الاحترام الواجب للأميرات بالدم . ومهما يكن الأمر فإنها ، ككل زوجات السلطان ، ليست إلا امرأة من الحریم ، تميزت عن غيرها بحظوتها لدى السلطان الشديد القوة .

أما سلمى الغارقة في تقديم احتراماتها الصغيرة ، فإنها تقبل يد النساء المتميزات اللواتي يحطن بالزوجة العزيرة . وكانت تنهياً للسلام على سيدة قمیئة جداً جالسة على يمينها ، ولكنها أمام نظرات البغض العنيفة التي ركزت عليها ، لم تجد بداً من التوقف . فماذا أتت من السوء ؟

وبحكم ما اعترأها من الاضطراب ، نظرت إلى أمها التي كانت تدفعها بحزم إلى الأمام .
 — سلمى ، هيا سَلِّمي على خالتك ، السلطانة نعيمة ، ابنة المرحوم السلطان عبد الحميد .
 ولكن البنيّة تراجعت وهي تهزّ خصل شعرها الحمراء ، لتثير أكثر العجب والاستغراب .
 فأزاحتها عنها أمها إزاحة مفاجئة ، والتفتت إلى الأميرة قائلة :
 — أرجو أن تعذري هذه الطفلة ، فحزنها على فقد عمها لا بد أن يكون قد رفع حرارتها .

لكن السلطانة نعيمة ، التي قابلت هذا الكلام بشيء من الاحتقار ، أزاحت وجهها ، كما لو أنها لم تكن تستطيع أن تتحمل رؤية تلك التي تكلمها . وعندئذ انتصبت خديجة بقامتها الطويلة ، وألقت على الجماعة الحاضرة نظرة ساخرة ، ومضت لتجلس على يسار « الكادين » التي دعته إلى الجلوس بجانبها . فانتصرت . أما ما ظهر من عامية ابنة عمها ، فقد كان بمثابة الاحترام . وما من شخص هنا يخفى ذلك عليه . وهكذا فإن الجرح بعد أربع عشرة سنة ، ما يزال ينزف ، كما كان الأمر من قبل !

وعندما كانت خديجة تصغي إلى الأرملة التي تقص للمرة الألف ، تفاصيل موت جلالته ، كانت تتذكر ...

وصحيح أن كمال الدين باشا كان وسيماً ، وهو زوج نعيمة المذهب ، الرقيق الحاشية . وكانت ابنتا العم قد تزوجتا في العام نفسه ، قبل سبعة عشر عاماً . وعلى حين أن السلطان اختار لابنته المفضلة نعيمة ، التي ولدت يوم تنويجه ، ضابطاً لامعاً ، فإنه فرض على خديجة موظفاً غامضاً ، بشعاً بقدر ما هو محدود .

وكان الزواج هو الوسيلة الوحيدة للخروج من القصر والسجن ، الذي كانت خديجة محبوسة فيه منذ الطفولة . وفي عمر الواحد والثلاثين ، كانت قد يشست من الحياة . وكانت مستعدة لكل شيء ، لكي تصبح حرة . ولكنها لم تتوقع اختياراً مُحِطاً بالإنسان إلى هذه الدرجة . وظلت خلال عدة أسابيع تغلق باب غرفتها بعناد على زوجها . الذي ذهب يشكو أمرها إلى السلطان . وأخيراً ، أرهقتها المقاومة ، وقبلت ما قدّر لها .

وما تزال ترجف عندما تتذكر الليلة الأولى .. ولا تزال تحتفظ بالغثيان الذي لصق بجسمها ، من ذلك .

وكان القصر الذي أهديته من قبل السلطان — كما هي الحال مع كل أميرة تتزوج حديثاً — ملاصقاً لقصر ابنة عمها نعيمة . وتعودت خديجة أن تزور السيدة الشابة ، قريبتها . وكانت تقدم لها نصائحها ، كأخت كبرى ، وتوصل إليها بواسطة زينيل ، بعض الهدايا الصغيرة . وسرعان ما جعلت منها صديقة . وكانت نعيمة تعشق زوجها الأنيق ، المتفتح ، أكبر العشق . فهل من انتقام منها أفضل من أن تسرقه منها . وأية وسيلة أوثق من هذه لكي تجرح جلادها ، وجلاد أبيها ، ذلك الأب الذي كانت تحبه حباً جماً ، عندما تجعل ابنة السلطان تباأس من الحياة بهذه الصورة ؟

وبهذوء ، وصبر ، قامت خديجة ، كما لو أنها تقوم بواجب العدالة ، بإغواء كمال الدين . وكان ذلك سهلاً عليها ، لأن نعيمة القليلة الحذر ، حرصت ، خلافاً للتقاليد ، على أن يلتقي زوجها ، أفضل صديقاتها . وكانت خديجة جميلة ، فوقع الباشا في غرامها ، وصارحها بحبه لها ، في رسائل غرامية عنيفة ، كانت تحتفظ بها بعناية .

وخلال هذا الوقت ، كانت نعيمة التي أمضتها لا مبالاة كمال الدين ، وأرهقتها ، ترفض الطعام ، وتدع نفسها للهلاك . أما خديجة التي كانت تتلقى ماتسره إليها تلك البائسة ، فقد انتهت إلى القناعة بأن اللعبة دامت بمقدار ما يجب وأكثر . وكان كمال الدين يزداد إلحاحاً ، أما واصف زوجها ، الذي سمح لنفسه بأن يكون غيوراً ، فقد كان يُصمّ أذنيها بلومه . فجعلت من رسائل كمال الدين حزمة ، ونادت زينيل وأمرته بأن يُسلمها إلى السلطان ، مدعيّاً بأنه عثر عليها بالمصادفة . وكانت تحرص على الانتقام ، وعلى حررتها . ولم يكن لمثل هذه الفضيحة إلا أن تؤدي إلى الطلاق .

والآن ، وبعد أن مضى أربعة عشر عاماً ، لا تزال خديجة دهشة من سذاجتها . فكيف خطر لها أن بالإمكان إيقاع عبد الحميد في شرك المناورة .

وتعود فترى بالذاكرة ذلك اليوم الذي استدعاها السلطان فيه إلى القصر ، وكان يمسك بيده رسائل الباشا . وكان في وسعها أن تقرأ في عينيه الصغيرتين السوداوين ، ما يكنه من النعمة ، لكنها كانت ترى بصورة خاصة تلك السخرية ، التي أثرت فيها تأثيراً أكبر وأكبر . وكان البلاط كله ينتظر الحكم . فقد نفى كمال الدين باشا إلى بروسة العاصمة القديمة ، وهي على بعد ١٠٠ كم تقريباً من استامبول . ولكن ماذا سيفعل السلطان بالسيدة الشابة ؟ أوستنفي هي أيضاً ، بدورها ؟ لكن قلنا ذلك ، فإننا بالتأكيد لا نعرف عبد الحميد معرفة جيدة . فهو لم يلمها أي لوم ، واكتفى بالضحك الساخر منها و.... أعادها إلى زوجها .

ولن نتخلص خديجة من زوجها إلا بثورة عام ١٩٠٨ ، التي خلعت السلطان عبد الحميد

وجاءت بأخيه الطبيب ، السلطان رشاد . ولما كان هذا لا يأبى على قريته هذه شيئاً ، فقد سمح لها بأن تطلق زوجها .

ولم يكن لأحد أن ينتظر من نهاية جميلة لمثل هذه القصة الرومانتيكية ، غير الاحتفال بعرس كمال الدين والأميرة . فلما تحرّر الباشا ، الذي كان غرامه قد حلق إلى الأوج ، عاد بسرعة إلى استامبول . ولقد استقبل ببرودة كبيرة من قبل السلطانة ، التي صرّحت له بأنها لم تقع في غرامه قط .

وبعد ذلك بسنة ، وخلال نزهة في « مياه آسيا الحلوة »^(١) التقت خديجة بديلوماسي جميل ، فوقع في حبه ، وقررت الزواج منه .

وكان ذلك الديلوماسي هو خيرى رؤوف بك ؛ أي أنه هو أبو سلمى وخيري الصغير .

الليل يلف قصر بيلري . والبوسفور ينشر رطوبة باردة ، والأشباح تهاجم بهو السلطانة الوالدة . وبصورة غريزية ، بدأت النساء يتهايمن .

وقام بعض العبيد ، على رؤوس أصابعهم ، لكي يشعلوا المصابيح الموضوعة في شمعدانات من الكريستال الأخضر ، منشورة في زوايا القاعة ، الأربع . فكأنها تجعلنا نفكر بأشجار كبيرة مملأ بالأوراق .

وشيثاً فشيثاً تستفيق السلطانة من حلمها . فلقد أزعج الوقت للعودة . وبنظرة منها أشارت إلى أخواتها أن الزيارة دامت بما فيه الكفاية . لكن الكادين تسرع ، وتأتى إلا أن ترافقهن حتى باب البهو .

ولكن السلطانة نعيمة لا تنظر إليهن حتى وهن يخرجن .

أما سلمى فإنها لن تفهم قط لماذا لم تلمها أمها ، في طريق العودة ، على أنها لم تحي خالتها ، ولماذا أقبلت عليها أمها بصورة مفاجئة لتضمها إلى صدرها ، وتقبلها .

(١) نهر صغير في ضواحي استامبول .

٣

وانتهى صوت منغم، عذب ومُليح، بأن يجعل سلمى تستفيق من نومها. فتفتتح عينيها، وتبتسم للمراهقة التي تمس العود بريشتها، على مهبط السرير. وهذه عادة شرقية، للحذر من نقطة مفاجئة، ذلك أن الروح، على ما يقولون، تمضي إلى عوالم أخرى. ويجب أن تُمنحها الوقت الكافي للرجوع بالتدريج إلى الجسم.

وتحب سلمى هذه اليقظات على أنغام الموسيقى، ذلك أن غناء هذا العود يبدو لها كوعد بالسعادة لبقية اليوم الذي بدأ به.

وفي ذلك الصباح، شعرت بأنها فرحة بشكل خاص: إنه اليوم. العيد الأكبر في الإسلام، الذي يستعيد ذكرى تضحية إبراهيم بآبائه لله، وعلى كل إنسان أن يرتدي ألبسة جديدة ويتبادل الهدايا مع الآخرين. والمدينة كلها تدوي من ضجيج الألعاب، وصرخات البهالين، وباعة السكاكر. وفي كل زاوية من زوايا أي شارع، يزدحم الأطفال حول مسارح الدمى.

لكن الاحتفالات تكون أعظم ما تكون في قصر ضويلة باهتته. حيث يستقبل السلطان، لمدة ثلاثة أيام، عظماء دولته وكل أفراد أسرته.

وأبت سلمى كأس الحليب الصباحي، المفروض أن يحفظ لها بشرة حلوة، وقفزت من السرير. ومضت متعجلة إلى الحمام، حيث تقوم عبدتان بتهيئة حمام الورود لها — وهذا الأخير أناقته

من الأناقات يحتفظ بها لكبرى المناسبات ، ذلك أن السلطانة تخشى أن تنمّي لدى بنتها ، حب الإغراء المبكر .

ومن أباريق الفضة يسيل الماء الفاتر على جسد الطفلة الأبيض . وبعد أن تنشفها العبدتان بالموسلين الأبيض ، ترشان على جسمها وشعرها رذاذاً من تويجات الورود ، وتمسدانها لمدة طويلة . وعندما تستسلم لأيديهما الناعمة ، تتذوق سلمى العبير اللذيذ ، وتقنع نفسها بأنها ستكون وردة .

وبعد نصف ساعة ، وبعد أن تلبس ثوباً جديداً مطرزاً على الطريقة الإنكليزية ، تمضي مسرعة إلى جناح أمها . وعندما تدخل إليه تجد أباهما خيري رؤوف بك قد سبقها . إذ لقد عاد مساء البارحة من رحلة إلى أراضيه ، عودة مقصودة لحضور الاحتفالات التي تقام في قصر ضلوة باهتشة . ويستقبل عندئذ سلمى ، ويداعب لها شعرها مداعبة خفيفة ، ذلك أن من غير المقبول ذوقاً أن يقبل الأبوان أبناءهما . فتحمر سلمى من الغبطة . وتحضن أباهما بعينيهما ، فما أكثره هيبة في الريدنحوت الرمادي ، وطربوشه الأرجواني ! ولكن ماذا يفعل لكي يبقى شاربيه متجهين بعناد إلى السماء ؟

وخيري بك هذا ذو قامة متوسطة . ونحيف جداً . ومن عاداته أن يظهر بمظهر التميّز والضجر ، الشائع بين رجال الطبقة المختارة . وتراه كسولاً ، نعساً ، تعود النجاح مع النساء ، ولكنه محروم من كل طموح شخصي . ورأى نفسه ذات يوم ينساق إلى الزواج من سلطنة ، دون أن يبحث عن ذلك . ولما كان بعيداً عن الحمق ، فإن الثناء والمدائح التي يتلقاها بحكم لقبه ، كداماد^(١) ترهقه ، ولكنه يكره كل جد من أجل أن يصل إلى وضع محترم ، من عمله هو . وفي الماضي كان شاباً مطمئناً وحالماً . أما اليوم فإنه رجل متعب من كل شيء . وحتى أولاده . فإنه قليل الاكتراث بهم . ولعلهم يُسَلّونه قليلاً ، ولا سيما سلمى التي تحسن استخدام سحرها . أما زوجته ...

وها إن هذه دخلت بهوها الصغير ، فهض خيري بك ، ليقبل لها يدها ، وبعد أن قال لها ماتقضي به الأعراف في هذه المناسبة من تمنيات وتهانٍ ، قدّم لها علبة مجوهرات من الخمّل وتقضي الأعراف أن يقدم الرجل لزوجته بمناسبة بيرم ، وكذلك بمناسبة عيد ميلاد السلطان ، هدية ما لامرأته . فإذا لم يفعل ذلك ، فإن هذا إشارة إلى قرب الطلاق . ويتهدد الداماد داخل نفسه . ولكن

(١) داماد : لقب يعطى لأزواج الأميرات .

من حسن الحظ أن سكرتيه يفكر بكل شيء! وكان داخل العلبة عقد عظيم من الباقوت الأزرق ،
بل الشديد الزرقة . وتقدم الأميرة قائلة :

— وأي ماء^(٢) رائع !

وينحني لها الرجل بهدوء

— لا شيء عظيم الجمال بالنسبة إليك ، يا سلطنة !

لقد قام سكرتيه بكل ما يجب أن يقوم به . ولكن أنى له ، في مثل أيام الحرب هذه والتضييق
من المخصصات المدنية^(٣) ، أن يدفع ثمن هذا كله ؟ لأبأس . فالأرمني الذي يقدم للأسرة منذ زمن
طويل حاجاتها من هذا النوع ، يمكنه أن ينتظر دفع الثمن مدة ما . وعلى كل حال ، فإنه ليس عليه ،
وهو في عمره هذا أن يتعلم البخل .

ثم إنه سحب من جيبه الأخرى علبة مجوهرات ثانية ، أصغر من الأولى — وهذه اختارها
هو — ووضعها بين يدي سلمى . إنها مشبك ، وهو عمل دقيق يمثل طاووساً ، له ريش مزين
بالزمرد . وكان ينتظر بعض الشكر ، ولكن فرح سلمى الطاعني ، حيرته : أوهي صغيرة إلى هذا
الدرجة ، حتى تقيّم هذه الهدية إلى مثل هذا الحد ؟ أو لعلها تريد أن تقلد أمها ؟

ولما كانت القضية ، آخر الأمر ، لا تهمه كثيراً ، فإنه لا يلاحظ أن سلمى تنظر إليه أكثر مما
تنظر إلى المشبك ، وعيناها تتألقان بالفرح : فهذه هي المرة الأولى التي يقدم لها أبوها فيه هدية
نسوية .

ولكن السلطنة ، تبدو قلقة ، فتخاطب زوجها قائلة :

— يا صديقي ، ستتأخر عن السلامك^(٤) .

فيوقفها زوجها بإشارة منه ، قائلاً :

(٢) في الشرق العربي اصطلاح الناس على القول ماء الألماس ، أو مية الألماس ، على كل المجوهرات المصنوعة من الماس .

(٣) مبلغ يعطى لأفراد العائلة المالكة للإنفاق على حاجاتهم الشخصية .

(٤) السلامك : تعبير يشير إلى صلاة الجمعة في مسجد أيا صوفيا حيث يكون على الحاضرين جميعاً أن يأخذوا مكانهم
قبل مجيء السلطان .

— وماذا يهمني من السلامك . إن هذه الشكليات تمرضني . وأنا لأعرف ما إذا كنت سأحضرها أم لا .

ولكنه يعرف جيداً أنه سيذهب إليها ، وهي تعرف ذلك جيداً . ولكنه لا يستطيع إلا أن يثير زوجته . فمع مضي السنين ، أصبح لا يتحمل دوره هذا المصطنع . أما الطلاق ، فإنه ليس بموضع بحث . إذ لا يطلق الإنسان زوجته وهي سلطانة ، فهي وحدها لها هذا الحق ، إذا وافق السلطان على ذلك .

وعلى كل حال فإن خيرى لك لا يملك ما يلومها عليه . فهي زوجة كاملة ، ولكنها أميرة إلى أقصى الحدود ... ومضجرة إلى حد الموت . هكذا كان يفكر ، دون أن يعترف أنه مسحوق بشخصية أقوى من شخصيته ، مما يجيله هو إلى مجرد ظل .

وكانت سلمى لا تزال تتساءل بعد مدة طويلة من ذهاب أبيها ، لماذا كان يبدو تعباً حزناً . كانت جالسة على مقعد خشبي ، تهز فيه رجلها في الفراغ ، منتظرة أمها ، وهي تلوم نفسها على أنها لم تحاول أن تواسيه . ولكن ماذا كان في وسعها أن تقول ؟ إن من الأرجح ، أنه كان سيسخر منها !

وأخيراً أصبحت السلطانة جاهزة . وهي ترتدي ثوباً أغني بلالاً ناعمة ، أحيط ذنبه بفرو السمور (زيلين) . أما خصل شعرها الأصفر ، الذي جعل كأهداب حلزونية ، فإنها مزدانة بأحجار كريمة . وعلى صدرها تتألق نجمة الماس المهداة من « نظام التعاطف »^(٥) إلى بعض السيدات القليلات العظيمات ، وكذلك العقد الذهبي الثقيل المطلي بما يمثل شعار الأباطورية ، والمخصص للأمراء والأميرات وحدهن .

أما خصل شعر سلمى الحمراء ، فإنها تهتز طرباً . إذ إن أمها ستكون دوماً أجمل النساء .

وساعدتهما الكالافات . فصعدتا إلى العربة المكشوفة ، المخصصة للاحتفالات الرسمية والتي يسوقها سائق يرتدي الجاكتية الهنغارية المخططة عرضانياً ، والزرقاء اللون ، والمطعمة بالفضة . وقرع السوط ، فتحركت العربة لتجتاز الكيلومترين ، اللذين يفصلانها عن القصر الملكي .

ويمتد قصر ضويلة باهتته ، المفروش كله بالرخام الأبيض ، يمتد بكسل على طول البوسفور . ويلاحظ الإنسان فيه كل أساليب العمارة ، من كل العهود وكل البلاد ، بنظام فوضوي غني . فهناك

(٥) . l'ordre de la Compassion .

نجد الأعمدة الإغريقية، والأقواس الموريسكية، والقوطية، أو الرومانية Romans، كما نجد الزخرفة المثقلة تغمر الواجهات بباقات الزهر، وأكاليله، والورود، والرصاص، المزينة بنعومة بالأرابيسكات المذهبة. لكن «الطهوريين» يجدون ما يسمونه «بحلوى العروس» شيئاً بشعاً جداً. ولكن الكثرة، والكرم، والأنافة الخيالية، والجهل البريء، بكل قواعد الزخرفة القانونية، تجعل ذلك كله، قريباً إلى النفس، كما لو أن طفلاً وضع كل أنواع الزينة المتباينة، التي وجدها في خزانة أمه، لكي يبدو أجمل مما هو. وهذا لا يفهمه إلا الشعراء، والشعب التركي شاعر.

وعندما دخلت سلمى القصر، تجمّدت أمام وابل الذهب والكريستال. وكثيراً ما كانت قد زارته من قبل، ولكنها في كل مرة تقف فاعرة الفم أمام كل هذه الأثقال من الفخفخة. فالشمعدانات والثريات تدوي بآلاف وريقاتها البراقة، وسلم الشرف مصنوع من «البكرة» Baccarat^(٦). وكذلك المواعد الضخمة ذات الجوانب المقصوصة قصة الماس، والتي تتع بجملة أضواء متقزحة، يتغير لونها في مختلف ساعات النهار.

وتحب البنية الصغيرة هذا البذخ. فهو يشدّ عزمها عندما يُدخل في روعها أن قوة الأمبراطورية لا تغلب، وأن ثروتها لا تنفذ، وأن العالم جميل وسعيد. هنالك طبعاً هذه الحرب، التي يتحدث عنها أصدقاء أبيها، ثم هؤلاء الرجال والنساء، ذوو النظرات المحمومة، الذين يتزاحمون حول شبك قصرها، لكي يطلبوا الخبز. إلا أنهم يظهرون في عيني سلمى وكأنهم يسكنون كوكباً آخر، فالحرب بالنسبة إليها ليست إلا كلمة في الفم الثثار، لدى الأشخاص الكبار.

وبعد مجموعة الخصبان التي استقبلتهما، ها نحن الآن أمام مجموعة من الفتيات، كلهن رائعات — ذلك أن البشاعة شيء محرم في القصر — يحطن بهما لمساعدتهما على التخلص من حجبهما، على حين أن (القهرجية)، التي ترتدي بنطالاً واسعاً وقميصاً صغيراً فضفاضاً، مطرزاً بالشركسيات، تقدم لهما قهوة معطرة بالهال، لكي يستريحاً من عناء الرحلة.

ولما كان الحرملك^(٧) السلطاني، بعيداً عن المؤثرات الخارجية، ومصوناً عنها، فإنه يحتفظ بعاداته القديمة حرصاً شديداً، يحكم أن الكالافات يراقبن بلا هوادة تربية المستجدات. وإذا

(٦) البكرة: نوع من الزجاج الثقيل الفرنسي الأصل (من قرية بكرة).

(٧) الحرم، أو الحرملك: هو المكان الذي تقيم فيه نساء القصر. وقد يوجد بينهن عدة زوجات أو محليات. وقد لا يوجد إلا زوجة واحدة، كما كانت الحال، في الغالب، في تركيا القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، وبطبيعة الحال فقد كانت محاطة بخدمتها وحشمها.

مانظرن بحكم الفضول وبعض الرغبة في التسلية إلى الثياب المجلوبة من فرنسا، والتي تلبسها السلطانات الزائرات، فإنهن لا يشعرن أحداً برغبة في تقليدهن. أو ليس القصر بأعلى من كل «درجة»!

وظهرت سيدة المراسم، التي تبدو فخمة في جاكيتها الطويلة، المطرزة بالذهب، كعلامة على وظائفها العليا. ولقد جاءت لتبحث عن الأميرات، وتقودهن إلى السلطانة الوالدة، أم السلطان. إذ إن كل زيارة إلى القصر تبدأ، أو يجب أن تبدأ بهذه السيدة العجوز، التي هي الشخصية الثانية في المملكة بعد ابنها.

وتجلس السلطانة في جلالها، في بهو مفروش بالحرير البنفسجي، ويتألف أثاثه من مقاعد ثقيلة، من الطراز الفيكتوري. ويدعي العارفون أنها كانت جميلة جداً، ولكنها مع تقدم العمر، والإقامة الطويلة، في جناح الحرم، أصبحت ضخمة. ولم يبق منها إلا عيناها الزرقاوان الرائعتان، اللتان تشهدان على أصلها الشركسي.

وتحيي سلمى وأمها، العبدة القديمة، بكل احترام.

وكانت نساء الحرمك السلطاني، كانت هذه السيدة قد بيعت للقصر، وهي طفلة صغيرة، وكان أبواها يريدان بذلك أن يمنحها أفضل الشروط للصعود الاجتماعي. وكانت الإشاعات قد ملأت الأرض، فيما يتصل بالتربية المرفهة، التي تتلقاها الإماء في القصر. وأولئك الذين علا بهم الحظ فجعلهم يحتلون منصب الصدر الأعظم، من الرجال، أو زوجات أوائل للسلطين، أصبحوا قصصاً تثير الخيال إلى الدرجة التي لم يعد ضرورياً معها أن ينتزع الأطفال من الأسر المحزونة. بل لقد أصبحت الأسر هي التي تتوسل لقبول هؤلاء الأطفال.

ولم يقدر للسلطانة فاليدي أن ترى أسرتها مرة أخرى. وتتساءل سلمى عما إذا كانت قد أسفت أحياناً على فراقهم. وقد عهد بها إلى سيدة الكالافات الأولى. فعلمت، كرفيقاتها، الشعر، والقيثار، والغناء، والرقص، وبالحناء خاص، أُنْكِد على تعلم حسن التصرف. وعندما قدروا أنها أصبحت فتاة لائقة ألحقوها بخدمة السلطان.

وتتذكر هذه السيدة العجوز ذلك اليوم، الذي وقعت فيه عين السلطان عليها وأعجبته. وكثيراً ما تشير إلى ذلك في أحاديثها. وأصبحت نتيجة ذلك غوزدي Geuzde؛ أي تلك التي تلفت نظر السلطان. وحصلت على حق التفرد بغرفة لها على حدة. واشتري لها فساتين جديدة من

الحرير . وكان من حظها أن السلطان لم يتعب منها ولم يزهد بها ، وأعاد طلبها مرات كثيرة . وحصلت منه على لقب « إقبال » أو المحظية ؛ فنقلت عندئذ إلى غرفة أكبر . ووضع في خدمتها ثلاث كالفات وحن عليها الوقت لكي تحمل بولد .

وكثيراً ما سمعت سلمى حديث سيدات عجائز في القصر ، يقصصن كيف أن هذه الشركسية الجميلة ، عندما ولد ابنها رشاد ، رفع من شأنها وأعطيت لقب « الكادين » الثالثة . ولم يكن يكفي للارتقاء عن مستوى الإمام ، أن تكون الفتاة جميلة ، بل إنها كانت بحاجة إلى الذكاء والعناد ، لكي تحظى بهذه المرتبة المرغوبة والمحسود عليها . ذلك أنه كلما علت الفتاة في مراتب الحریم ، ازدادت الخصومات واشتد التنافس ، وكبرت الأخطار . وفي هذه القمم ، يصبح الصراع عنيفاً بلا رحمة . وكان أبناء هاته الكادينات ، في الواقع ، كلهم أمراء ، من الأسرة المالكة . وكان العرف يقضي بأن يتربع أكبرهم سنّاً على العرش . ولكن خلال القرون الستة التي عاشتها الأسرة العثمانية ، كثيراً ما رأى الناس ، الأبناء الأوائل يخفون ، كضحايا للحوادث ، أو مرضى بأمراض غريبة .

ولم تترك هذه الكادين لأحد حق رعاية طفلها ، لأنها كانت تعرف جيداً نماذج من المرضعات أو الحصيان ، أغروا من قبل فتاة منافسة أخرى ، وقتلوا الولد بصورة ما . ولقد أقسمت أن يكون ابنها سلطاناً ، وأنها ستكون السلطانة الوالدة . وكانت حياتها كلها مركزة على هذه الغاية . وكان عليها أن تنتظر عمر الثامنة والسبعين لكي يتحقق لها هذا الأمل .

أما الآن فإن الطموح الذي رافقها خلال ستين سنة من الديبلوماسية والمؤامرات ، قد فارقها ، ولم تعد شيئاً آخر غير امرأة عجوز متعبة .

وأخذت السلطانة الأم وليدة ، بيدها الشديدة البياض ، تدغدغ بضربات خفيفة خدها ، مما يشير إلى الكثير من العطف ، كما كالت المديح للسلطانة خديجة على مظهرها الجميل . ثم إنها عبّت نفسها طويلاً من نارجيلتها الذهبية ، وأغمضت عينيها وانتهت المقابلة .

وكانت هذه هي اللحظة المناسبة لزيارة الكادينات ، اللواتي يستقبلن كل منهن زائراتها ، في جناحها . وهذه الأجنحة قصور صغيرة داخل القصر ، تملأ أبنائها مجموعات من الحصيان والسكرتيرات ، والأمنيات المشرفات على التمويل والتموين ، وكالفات كبيرات أو صغيرات ، وكان الإتيكيت يقضي ، قبل كل حفلة ، أن يعم اللقاء عندهن .

وفي هذه السنة ، ولأول مرة ، كان على سلمى أن تمر بتجربة البروتوكول (أو اختباره) . وكان

قلبا يخفق أما النظرات التي ستقيّمها بلا تسامح . وقامت الأميرة الصغيرة بالمرور على المجموعة المشرفة ، وقاست بعناية عمق ما يجب أن تقدمه من التمنيات لكل إنسانة ، تبعاً لمقامها . وتقدر الأهمية هنا نتيجة معادلة معقدة . تضع في حسابها المولد ، والرتبة ، والعمر . ويحتاج ذلك إلى معرفة كاملة ودقيقة بالبلاط وأعرافه .

وعندما لاحظت سلمى أن البسمات حولها تنطلق ، تنفست نفس الريح ... لأنها اجتازت الاختبار بنجاح .

وفجأة علت ضجة : فالسلطان قد عاد من صلاة السلامك . وستبدأ مباشرة حفلة تقبيل اليد .

وعندئذ تزهّد النساء بالإشاعات والحلوى . وتسرع كل واحدة ، بمقدار ما يتيح لها مقامها ، إلى البهو الدائري الذي يقع فوق قاعة العرش . ومن هناك ، ستحضر النساء ، وهن مختبئات وراء المشربيات ، إلى مشهد من أعظم مشاهد السنة وأدعائها إلى التسلية . أما سلمى المحصورة بين سيدتين ضخمتين جداً ، فإنها تجد صعوبة حتى في التنفس ، ولكنها تأبى أن تتخلّى عن مركزها هذا في الملاحظة ، ولو دفعت لها كل أموال الدنيا .

ورأت ، وهي تنظر من حوالي الثلاثين متراً تحتها ، غابة من الطرايش الأرجوانية ، والريدنخوتات السوداء أو الرمادية ، التي تزينها ألوان الزي العسكري . ولما كانت قد بهرت بآلاف المصاييح الموجودة في قاعة العرش — وهي أكبر قاعة من نوعها في أوروبا كلها — على ما يقال — فإنه كان عليها أن تنتظر مدة طويلة قبل أن يتاح لها التعرف على بعض الوجوه .

وكان السلطان يجلس في صدر القاعة ، ويبدو كشكل كهنوتي في عرشه الذهبي الواسع ، المرصع بالأحجار الكريمة . ويقف على يمينه أمراء الأسرة ، باللباس الرسمي الفخم ، تبعاً للمرتبة والعمر .

ورفعت سلمى نفسها بالوقوف على رؤوس أصابع رجلها . وحاولت أن تلاحظ ابن عمها المفضل فاسيب ، الأكبر منها بعامين ، لكن البعد بينها وبينه كان بحيث لا تستطيع ملاحظته . وكذلك فإنها لا تميّز أباه ، الذي يجب أن يكون على يسار السلطان ، بين الدامادات ، والوزراء المتحلين بما حصلوا عليه من الأوسمة . ومقابل السلطان مجموعة العسكريين من فرقاء وألوية ، وضباط

عالي المقام ، في الثياب الاحتفالية . أما في الألباء المرتفعة ، فنجد عناصر السلك الديبلوماسي ، كما لو أنها غربان ترتبص الفرائس ، وهي في أفخر الثياب .

ويأتي كل واحد من الحضور بدوره ، ويتقدم باتجاه العرش ، ويركع ثلاث مرات (أو يسجد) على الأرض ، ثم ينهض لالقبّل يد السلطان ، إذ ليس من حق أحد أن يمسه ، ولكن ليقبّل رمز السلطة ، وهو بطرشييل étrole من المخمل الأحمر ، المزين بأشكال بلاطية من الذهب ، يمسه به رئيس المراسم .

ثم يأتي كبار الموظفين ، الذين يمثلون مختلف الوزارات ، بالريدنجوت الأسود . ثم يأتي بعدهم ، مبهوتين بكل هذا البذخ ، وجهاء القوم الذين أريد لهم أن يكافؤوا على ولائهم ، الذي بدا بشكل متميّز . ولما كان هؤلاء جميعاً في أشد حالات التأثر من التشريف الذي يحاطون به ، وكذلك من الخوف من سوء رعاية تقاليد المراسم المقدسة ، فإنهم يقبلون البطرشييل ، ثم يخرجون متراجعين إلى الوراء ، متعثرين أحياناً ، على مرأى من عيون الحضور الساخرة .

ويسود الصمت فجأة . ويجلس كل إنسان أنفاسه ، ذلك أن أعلى سلطة دينية في المملكة ؛ أي شيخ الإسلام ، الذي يضع عادة ثوباً أبيض طويلاً ، وعمامة من البروكار ، يتقدم باتجاه السلطان . وهذا بدوره ينهض تكريماً له ، حتى يستقبله . ويأتي وراءه كبار العلماء ، وفقهاء الدين ، بثياب خضراء ، أو بنفسجية ، أو سمراء . ويتبعهم ممثلو المذاهب الدينية في المملكة ، مثل بطريرك الروم الأرثوذكس والبطرك الأرمني ، اللذين يلبسان لباساً أسود ، وكبير أحرار اليهود ، الحاخام ، الذي يتمتع بوضع خاص ، منذ أن جعلت السلطنة من نفسها ، في القرن السادس عشر حامية لهذه الطائفة المضطهدة في أوروبا .

وخلال الحفلة التي دامت زهاء ثلاث ساعات ، كانت الأوركسترا الأمبراطورية ، ببذلة بيضاء يلبسها كل فرد من أفرادها ، وفي صدرها ، مقدمة حمراء وذهبية ، تعزف « موسيقى » عسكرية عثمانية ، وسفونيات حماسية لبيتهوفن . وكان يديرها الموسيقي المشهور لانيج بك وهو رئيس أوركسترا فرنسي وقع في حب الشرق .

وكانت النساء وراء مشربياتهن (أي الحواجز الخشبية المثقوبة ثقوباً كثيرة بصورة فنية) ، يضحكن ملء قلوبهن ، فيري بعضهن بعضاً رئيس القوى الألمانية ، الجنرال فون ساندروس . ذلك الجنرال الذي تجعله ييوسته وتعاضمه شبيهاً بكاريكاتور للضابط الروسي . وكذلك الماركيز الجذاب بالا فيشيني ، سفير النمسا وهنغاريا ، الذي كثيراً ما يصادف في استامبول مساءً راكباً حصانه

الأشقر . ويقول الناس إنه يعرف كل شيء ، فإذا أخبر بشيء بدا مندهشاً كأنه لا يعلم شيئاً . إنه ديبلوماسي كامل .

والحقيقة ، إن هؤلاء السادة الثلاثة الحقيقيين للبلاد ، هم الذين تحب النساء أن تراهم : الوزير الأول الكبير المرهف ، طلعة باشا ، الذي له جسم الثور ، والذي تدل يدها الحمراء اللون على أصله المتواضع ، والقصير الشاحب اللون جمال باشا ، وزير البحرية الذي يخفي تحت المظاهر الأليفة ، قسوة صارمة ، على ما يقال . فلقد أرسل عام ١٩١٥ إلى سورية ، فقمع الثورة التي انتهت مطالبة بالاستقلال ، بعنفٍ لا حدَّ له ، لقب من أجله « بجلاد الشام » .

ولكن نجم المجلس كان بالتأكيد الوسيم أنور باشا . وهو رجل لطيف ، نحيل ، ووزير للبحرية ، ورئيس الثلاثي المشهور . ويقال إنه قادر على إغراء النساء جميعاً . أما شجاعته فلا حدَّ لها . وكذلك غروره ... ويظن أنه عبقرية عسكرية ، ولكنه في هذه الأشهر الأولى من عام ١٩١٨ ، حيث يتراجع الجيش على كل الجهات ، فقد سمعة الرجل الذي كان يطلق عليه تهكماً لقب نابوليونيك ، وبدأت تذبل يوماً بعد يوم . وتطول الألسن لنقد ذاك الذي عبده الناس يوماً ما .

وتهمسُّ إحدى السيدات قائلة : إنه لشيء مخجل أن يقيم هذه الاستقبالات المكلفة في هذه الأيام الشديدة الضيق .

وتقول أخرى : إن هذا الإبن لموظف صغير ، لمسرور من أنه تزوج أميرة ، سروراً تجاوز به كل الحدود .

وحقاً فإن بطل ثورة تركيا الفتاة ، كان قد تزوج السلطانة ناديا ، ابنة أخ السلطان رشاد . وهو جد فخور بامرأته ، حتى يريد أن يريها للناس جميعاً ، وهو يستمر في قلب هذه الحرب ، بإقامة حفلات يبلغ فيها الإسراف غايته . وعلى حين أن الناس ، حتى في القصر الملكي ، قد ضيقوا على أنفسهم ، فإنك ترى مائدته غنية جداً . ولكن الأسرة قد تسامحه على هذا كله ، لو أنه لا يلعب هو نفسه دور الأمبراطور ، مصدراً الأوامر باستمرار إلى الملك العجوز ، فيذله ويذل الأسرة كلها معه .

وتتألم الأميرات فيقلن مستنكرات :

— انظروا كم ان جلالته مريض ، وحصياته تجعله يتألم ألماً لا يطاق . ولكن أنور باشا أرغمه مع ذلك ، منذ عدة أشهر ، على الذهاب إلى المخططة لاستقبال القيصر غليوم الثاني .

والحقيقة أن ما يسوءهن ليس التعب الذي يسببه للباديشاه بالدرجة الأولى ، بل الإذلال الذي

يذيقه إياه : وأصلاً فإنه ما من سلطان تحرك من قصره لاستقبال أحد من الناس ، ملكاً كان أو أمبراطوراً .

وبصورة خاصة ، فإنهن لسن على وشك نسيان شفق الشاب الجميل صالح باشا ، زوج منيرة السلطنة ، إحدى بنات أخ السلطان الأثريات عنده . فلقد اتهمه بالتآمر على تركيا الفتاة ، وقضى بشنقه . وجاءت السلطنة تقبل رجلي السلطان ، وتوسل هذا الأخير إلى أنور باشا لتخفيف هذا الحكم على الداماد ، ولكن عبثاً . وكان على السلطان رشاد ، أن يصادق على الحكم ، وقلبه محطم . ويقال إنه عاد إلى التوقيع ثلاث مرات ، بسبب الدموع التي كانت تشوش عليه الرؤية .

وهكذا كانت التعليقات والانتقادات تأخذ سبيلها بين الناس ، وكانت سلمى تصيخ السمع ، بكامل أذنها لما يقال ، عندما انقطعت الموسيقى فجأة . فنهض السلطان ، وأنبى الاحتفال . وترك قاعة العرش ببطء ، متبوعاً بالأمراء ، وحيا الهاتفين التقليديين من العلماء الذين يقولون : « أيها الباديشاه ، كن متواضعاً ، وتذكر بأن الله أكبر منك » .

وكانت السيدات يستعجلن باتجاه القاعة الكبرى الزرقاء ، حيث سيأتي الباديشاه ليزورهن . وجاءت سيدات المراسم فقضين على كل واحدة منهن بالجلوس في المكان المناسب لها عمراً ومرتبة ، على حين أن أوركسترا الحريم ، وهن حوالي الستين من الموسيقيات الفتيات ، يتخذن مكانهن في الممر المجاور . وعندما ظهر السلطان ، مسبوقاً بالخازنة الكبرى ، بدأت الموسيقى تعزف لحناً لتحية القادم ، ألف لهذه الغاية .

ومن خلال أهداب عينيها ، المخفضتين نصفياً ، بدأت سلمى تتفحص هذا الرجل العجوز ذا الشعر الأبيض ، الذي تشي نظرتة الزجاجية ، وشفته الشخيتان بطيب قلبه . وكان قد أجلس أمه بجانبه وبدا يبتسم بكل هدوء .

وتفد بعدئذ السلطانات وبنات السلطانات ، اللواتي يسمونهن باسم « السلطنة خاتم » . وكانت ذيوهن الطويلة تدمدم فوق السجادات الحريرية ، وتقف كل منهن أمام السلطان وتحية ثلاث مرات بالحناءات رشيقة من جسمها ، وتنسحب لتجلس على يمين السلطان . ثم تأتي الكادينات والوصيفات اللواتي يجلسن إلى يساره . وأخيراً يأتي دور سيدات القصر والكالافات القديمات ، اللواتي بعد أن يحنين الهامة حتى الأرض أمام السلطان ، يذهبن فيجلسن في آخر الصالة .

ومتى انتهت هذه التحيات ، يظهر عبدان يمسكان بين أيديهما ، قماشاً من المخمل مملوءاً

بقطع ذهبية سُكَّت في السنة نفسها . وتأتي الخازنة الكبرى فتغرف ملء يديها من هذه القطع ، وتنثرها باتجاه الأوركسترا ، والكالفات الصغيرات اللواتي يجمعنها ، وهن يباركن عالياً للباديشاه ، على كرمه .

وعندئذ تبدأ فترة المحادثة . فيرجو الباديشاه قريباته ، وزوجاته بأن يجلسن . وييدي قلقه على صحتهن ، ويقول لكل منهن كلمة طيبة . على أن العرف يقضي بعدم توجيه الكلام للباديشاه ، أو تجاوز المسألة المطروحة ، وبالتالي فسرعان ما تحبو حرارة الحديث . وعلى حين أن هؤلاء السيدات ينتظرن وهن جالسات بصورة مستقيمة على أطراف كراسيهن ، يبدأ السلطان بالسعال سعالاً خفيفاً ، وعندما تلقي سلمى نظراتها عليه ، تلاحظ ، على أكبر دهشة منها أنه يبدو خجلاً . وبعد أن يسود الصمت فترة تظن كل سيدة أنها لن تنتهي ، يبدأ الملك بالحديث عن حماماته . فهو هاو لهذه الطيور التي يستوردها من أوروبا . وبحسب أن مثل هذا الحديث قد يكون ممعاً بالنسبة للسيدات . ثم يتكلم على وروده الحلوة التي يقطعها ، عندما يمضي من حديقة قصر الهامور Ilhamour الصغير ، موضحاً أنه لا ينبغي أن يقطع منها أكثر من وردة واحدة من كل شجيرة ، حتى لا يؤذيها . إنه رجل ذو رقة بالغة .

ويحكى أن الشيء الوحيد الذي يخرج به عن طوره هو أن يضع أحد السفراء الأجانب ، رجلاً على رجل ، في حضرته . وعندئذ يقول متأماً : إن هذا الكافر حشر لي رجليه في أنفي . ولكنه يكظم غيظه بقراءة سورة ما من سور القرآن ، لأنه تقي جداً ، وهو عضو في جماعة صوفية ، ولكنه لا يتحدث عن هذا أبداً .

وأخيراً ، وعندما ينهي الحديث عن الحمامات والورد ، ويقتنع أنه استنفد كل المواضيع التي تهم مجموعة حلوة كهذه ، فإنه ينهض ، ويحيي بمودة هؤلاء السيدات . ويعود إلى جناحه .

وهنا تكون مجالات التوتر قد ذهبت ، فتنتطلق الأميرات وهن مسرورات في هذه الصالونات الصغيرة ، ويتمتعن بالتقائهن ، وتنهى كل منها قريبتها على حسن انتقائها للباسها وزينتها ، ويتساررن في شؤونهن . ذلك أن منهن من لم يرين الأميرات الأخريات ، منذ البيرم الماضي ، على أن بينهن الكثير مما ينبغي التحدث فيه . وفي البهو الصغير ، كانت هنالك سلطنة شابة تعزف المازوركا الدارجة يومئذ . على حين أن بنات عمها كن يجربن ، وهن غارقات في الضحك ، أن يرقصن . وعلى جوانبهن ، كانت بعض الأميرات منهمكات في لعبة النردية . وأما لدى الكادين الأولى ، فقد نظمت مسابقة شعرية

حول موضوع معيّن: وكان الشعر باستمرار في موقع الشرف في البلاط العثماني، ومع الأيام كان من بين السلاطين الكبار، من تعاطاه بموهبة حقيقية.

ولكن البهو الذي يجمع أكثر الحاضرات كان ذاك الذي تقوم فيه الميراجو، أو الحكاءة. وهي أحسن من هن من نوعها. وهي لذلك تستدعى لكل المناسبات. إنها تجلس على الأرض، وذقتها بين يديها، وسلمى تنظر إليها. لا بد أن عمرها مئة سنة على الأقل! ولكن شيئاً فشيئاً، تتلاشى التجاعيد، وتستقيم الأكتاف، وتلمع العينان بألق متوقد كآب. إنها لم تعد قط تلك الحكاءة المتقدمة في السن، بل هي ليلي الجميلة، التي يهيم بها المحنون الشباب إلى درجة الموت، وهي صوتها الساخن، ونظراتها الشبيهة بنظرات الغزالة، وإغراؤها الساحر، إنها تلك التي تحمل العشاق، من جيل إلى جيل، على الحلم والبكاء.

ويهبط الليل. وهذه هي ساعة النزول إلى الحقائق للتمتع بالألعاب النارية التي يقدمها السلطان للشعب. وكانت المروج الخضراء قد فرشت بالسجاد والوسائد. والإماء يتقدمن بطعام العشاء على أطباق من الفضة المذهبة. وتشارك الأوركسترا فتعزف بشكل ناعم كونسرتو لموزار.

وفجأة، ينطلق صراخ، يرتجف له الحضور. فإذا بأمية صبية، اكتسى وجهها بلون الموت، وهي تشير إلى حقول الأورطانسيا، التي بدأت في الليل تتحرك. وتتقدم نحوها.. ولكن عندما انحنت هذه الحقول، فهم الناس أن هؤلاء هم أقزام القصر، وأنهم غطوا بباقات ضخمة، جاءوا ليقدموا احتراماتهم للسيدات.

لكن الحاضرات اختلفن في تقييم هذا المشهد، غير أن الإجماع انعقد حول شراب الورد ورقائق اللوز والعسل، التي حضّرها صانعو الحلوى في القصر، والتي لا مثيل لها في كل الشرق الأدنى. وعندما انطلقت أخيراً تلك الأسهم النارية إلى السماء، ولوحظ ارتسام الهلال والنجمة، شعاري تركيا الخالدة، قال الناس بعضهم لبعض: ما من عيد قط كان أنجح من هذا!

وعندما قطعت سلمى البوسفور الذي أضاءه نور القمر، في القايق الذي أعاد أهلها إلى قصر أورطاكوي، كانت تفكر بأن ذلك اليوم كان جميلاً، وأن الحياة حلوة. فكيف يمكن أن نصدق طيور التمس، التي تنبأ بانسحاق إمبراطورية بمثل هذا الغنى وهذه القوة؟

٤

كان الطقس حاراً في استامبول . وفي هذه الأيام الأولى من شهر تموز / يوليو / لا تستطيع نسائم البوسفور ترطيب المدينة . وكان قد جاء البارحة رسول من قصر ضويلة باهتشة ، مالبت أن رحل ، حتى استدعت خديجة سلمى .

— غداً ستذهبن مع خيري إلى قصر ابنة عمك ، الأميرة سعدية . وسيكون أحفاد جلالته والأميرة مقبلة وأخوها ناموق ، حاضرين أيضاً .

وكادت التكشيرة أن ترسم على وجه سلمى ، لكنها كببتها . فهي لا تحب سعدية التي ما تزال في السادسة . ولكن شعورها حاد بوزنها وأهميتها . أما أبوها عبد المجيد ، فيصرخ أمام كل من يريد الاستماع إليه ، أن ابنته هي الأجل والأحلى ، وفي كل اجتماع للأسرة ، يصف الأطفال جميعاً ، ويلاحظ ، باعتزاز ، أن ابنته ليست الأجل فقط ، بل هي الأطول قامة أيضاً . وتعرف أيندجيم هذا كله ، فلماذا إذن يرسلونها إلى هناك . ومن حسن الحظ أن حديقة الأمير الواقعة على مرتفعات الشاطيء الآسيوي ، مكان ممتاز للعبة « الطميعة » . وعلى كل حال فإن أحداً لا يضر ، مع وجود مقبلة .

ولكن ماذا تعمل إذن الآنسة روز ؟ ولهذا تجتاز سلمى الممر ، وتمر جيئة وذهاباً أمام باب

مريتها . وهي لاتفهم كيف أن هذه تضع كل هذا الوقت في العناية بأناقتها وشكلها ... لكي تحصل أخيراً على نتائج تافهة !

وعلى الرغم من عيوبها الصغيرة ، فإن سلمى تحب « أنستها الفرنسية » حباً جماً ، لا سيما وأن هذه المسكينة لاتملك عليها أية سلطة . ولما كانت تجهل عادات المجتمع التركي ، فمن باب أولى ، أن تجهل عادات البلاط ، وبالتالي فإنها « تؤخذ » بمعسرول الكلام الذي تقوله الصغيرة ، تلك الصغيرة التي نفعل بها كل ما نشاء .

ولقد وصلت الآنسة روز إلى استامبول قبل بداية الحرب ؛ أي في عهد كانت فيه العلاقات بين فرنسا والأمبراطورية لاتزال حسنة بدرجة كافية . ولما كانت قد قرأت روايات بيير لوتي وكلود فازير ، فإنها كانت ترى تركيا وسكانها بعينين مندهشتين ، معجبتين ، وتعتقد أنها تفهمهما . وقد استجابت لإعلان صغير وجدته لدى أخوات نوتردام دوسيون ، حيث ربيّت . وكان لهذه الرهينة في استامبول دير مزدهر كان يبحث عن أستاذ للفن . ولما كانت الراغبة الوحيدة ، فإنها عيّنت مباشرة .

وقد احتاحت هذه الفتاة الريفية ، ذات الثامنة والعشرين من العمر ، إلى شجاعة كبيرة كي تنفي نفسها بعيداً عن أهلها ، بهذه الصورة . وكان هنالك ضابط جميل في سلاح الفرسان ، المعسكر في مدينتها ، يتودد إليها ويعدّها بالزواج . وقبلت أن يقلّها .. مرات عديدة ، ويداعبها بعض الشيء ، واستمر ذلك حتى جاءتها رسالة مجهولة المرسل ، يخاصر فيها الخائن فتاة جميلة ، رائعة ، هي زوجته ، ومعها ولدان . ولقد بكت طويلاً ، وأقسمت على ما أوصتها به أمها أكثر من مرة ، أن لاتثق بأي رجل . ولما حانت الفرصة ، تركت الأهل والوطن ، كما لو أنها تدخل في الرهينة .

ولكن الآنسة روز كانت إنسانة لاتبرأ من رومانتيكيّتها . وفي استامبول وقعت في حب رجل فرنسي ، هو أستاذ في ثانوية « غلطة سراي » . وهذا لم يكن متزوجاً ، ولكنه يجب التنقل بين العشيقات . وعندما اكتشفت أنه كان يغازل اثنتين من زميلاتهما ، أصابها المرض من جراء ذلك .

وكانت « فهمية » السلطانة الفراشة ، هي التي أنقذتها . إذ لقد لقيتها خلال استقبال في سفارة فرنسا ، وكان واحداً من هذه الاستقبالات الكبيرة التي تسبق السفر للاصطياف . وكانت الأميرة تبحث عن أستاذ للغة الفرنسية لابنة أختها . فرأت الآنسة روز فرصة غير مأمولة ، لمعاشرة

العالم المؤنق، الذي طالما طمحت إليه، وهي العازية المكتهلة، بصورة مبكرة. وهكذا أصبحت «الآنسة الفرنسية» للسلطانة الصغيرة.

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة. وبدأت سلمى تباأس، عندما شهدت مريبتها تصل إليها، وعلى رأسها قبعة واسعة بنفسجية اللون، مزينة بعصافير من الكاري، ينسجم لونها مع ما زُين به ثوبها الموسلين من براعم ذهبية.

وكان زينيل، الذي لا يؤثر فيه شيء، ينتظرهما على الجسر. وكان مصحوباً بحيري، الذي بدا في أفضل أناته، في حلتها الزرقاء البحرية، والذي كان شعره الأسود، المفصول بخط فارغ لا عيب فيه، ينشر رائحة البريانتين. «لا بد أنه صب على رأسه كل الزجاجة!» على ما لاحظت سلمى المنزعجة. أليظن إذن أنه بهذه الصورة سيملك على سعدية قلبها؟ ومن قبل كان مالدی أخيها من تعلق بابتنة عمه، أحد مواضيع خلافهما، العديدة.

وساعدهم المجدفون، فركبوا القايق الذي سينزلق عما قريب، ويبلغ الشاطئ الآسيوي. وهناك يجدون عربة مكشوفة، على أكبر مسرة من سلمى، التي عندما كانت تخرج مع السلطانة، كانت محكومة بركوب العربات المغلقة. غير أنهم وجدوا أن ابنة لم تراهق بعد ومعها مربية مسيحية، لا ينبغي لهما الركوب في عربة مغلقة، وفي وسعهما، على راحتها، أن يشما رائحة الشمس والهواء فوق الطريق الممتلىء بالحصى، الذي ينتهي إلى المسكن الصيفي للأمير.

وكانت سعدية في انتظارهما. وكانت ترتدي ثوباً من الدانتيل الزهري، وشعرها الأشقر قد جعل صفائر متوازية ملفوفة، وكانت تهبط، بهدوء، السلم لتستقبل مدعوها، عندما ظهرت فجأة بنت صغيرة مدورة الشكل، ذات عينين حادتين، فصدمتها لتندفع نحو سلمى. إنها مقبلة، السعيدة بأن ترى ابنة عمها، التي ترى فيها أختاً لها في الحب والشيطنة. وكان أخوها الأصغر ناموق يمضي بهدوء خلفها.

وبعد نقاش دام بضع دقائق، تقرّر أن يلعبا لعبة الاستيلاء على بيزنطة.

وفي هذه اللعبة سيكون ناموق بطبيعة الحال هو السجين، ولكن من الذي سيلعب الدور الحلو، دور السلطان الفاتح؟ فيتفق على السحب بالقرعة ويشاء الحظ أن يعين سلمى.

وتعارض سعدية قائلة:

— إن هذا مستحيل . إنك لا تستطيعين أن تلعبى دور السلطان ! بل إنك أنت لست
بسلطانة !

ففزت سلمى استياء .

— ماذا تريدن أن تقولي ؟ إني سلطنة ، مثلك تماماً ! وقالت بنت العم :

— كلا ، بصوت ناعم . إن أبى يقول إن أباك ليس أميراً ، وإذن فلست أنت إلا مجرد
سلطنة خاتم .

وفي هذه الحال ربما خنقت سلمى سعدية بسرور ، لكنها تتجمد عاجزة عن الجواب .

لكن الوقحة على حق : فأبوها ليس إلا « داماد » . وفي البيت في أوطاكوي ، كل الناس
يسمونها ، السلطنة الصغيرة ، ولكنها لحت ، من غير أن يكون قد أشار إلى ذلك أحد ، أنهم قدموا
عليها بعض الأميرات الأصغر منها ، لدى احتفالات قصر ضوطة باهتته . وشعرت من غير أن
تفهم ، بأنواع كثيرة من الفروق الصغيرة . لكنها أحست فجأة اليوم ، بحكم الإهانة ، بضعف
مكانتها .

وأصبحت السماء رمادية ، وارتجفت الأشجار بتأثير الهواء الحشن ، وفجأة بدا لها المستقبل
كشيء بشكل ممت . فما هي إلا خاتم سلطنة . ومهما تفعل ، فستمر بعد الأخباريات . وبدا الأمر كما
لو أنهم قطعوا لها جناحها ...

وتفكر بالسلطنة أمها التي يلقبونها بلقب « جيهانكير » ، أي « فاهرة العالم » من شدة تأثير
عظمتها ، وفجأة يُشيرها ظلم الموقف . أوليست أمها بأعلى وأرقى من أكثر الأمراء في الأسرة ؟ أو تكون
عاجزة عن أن تنقل نبل دمها ، لمجرد أنها امرأة ؟ إن هذه الفكرة تبدو لها سخيفة بقدر ما هي غير
محتملة .

وترفع رأسها ، وتثبت النظر في سعدية بكل التعالي الذي تستطيع أن تبديه . وتبحث عن
كلمة أخيرة ، وما من أحد يبدو لها قاسياً مثلها . ولما كانت تغمرها الحيرة ، فقد التفتت نحو أخيها
خيرى . وكان هذا قد اختفى . وأخيراً لحت في الطرف الآخر من المشى ، غارقاً في تأمل كتلة من
الورود . فقالت في نفسها : « كم هو جبان » . ولكن موقف أخيها لا يدهشها ، بل الذي يدهشها هو
أنها بدلاً من أن تبدي استنكارها لما فعل ، فإنها لم تعد تشعر في ذلك إلا بالإحباط .

غير أن مقبلة التي بقيت في جوار سلمى ، لاتعرف ماذا تقول ، وما من مرة وجدت نفسها في وضع مربك كهذا . وأخيراً تغامر بهذه الكلمات :

— وماذا لو أننا نلعب لعبة الطميمة ؟

وينحاز الجميع إلى هذا الاقتراح .

وكان بعد ظهر ذلك اليوم شديد الحيوية والنشاط . ذلك أن مقبلة وسلمى اللتين لبستا فساتين بسيطة من البركال (وهو نسيج قطني) تبحثان عن الخابئ الأكثر غرابة ، والأصعب على الوصول ، وتتسلقان الأشجار ، أو تختبئان في المستنقعات التي لاتجرؤ ابنة عمهن على الاقتراب منها ، خوفاً على ثيابها ، وبالتالي لا يمكنها أن تتبعهما إلى هناك . ولما كانت هذه مستاءة من هذا السلوك ، فقد ظلت تكرر القول : « ليس لكما الحق ! إن الأميرة لاتتصرف بهذه الصورة » ، مما يحملهما على الضحك إلى درجة ذرف الدموع .

ولكن الأعمال العدائية تتوقف ، والجو يهدأ حول مائدة «العصرونية» وتتردد على الشرفة أصداء ضحكاتهم المرحية . إذ لقد نسي الجميع المشاحنة .

وكان الوقت متأخراً عندما ظهر الأمير عمر حلمي ، أبو ناموق ومقبلة ، في الحديقة ، بلباسه الرسمي الفخم .

وتندهش مقبلة ، فتقول :

— أنظري ، ترى لِمَ يظهر أبي في هذا اللباس ؟ فليس هذا اليوم بيوم عيد !

ونظرت إليها سعدية كما لو أنها تقيّمها تقيّم المستاء ، وتقول :

— كيف ؟ ألا تعرفين ؟ إن جدك السلطان رشاد قد مات . وأصبح أبي هو الأمير الوارث المرشح للعرش !

لكن مقبلة الضاحكة دوماً ، بدت وكأنها ضربت بالسوط . وكأنها لم تصدق ، فنظرت إلى ابنة عمها وبدأت الدموع تنفر من عينيها ، وتنزل على خديها . فغضت سلمى ، واتجهت إلى سعدية لتقول لها .

— هيا اذهبي من هنا ، ياطاعون !

وهزت الطاعون كنفها ، وأدارت لهما ظهرها ، كما لو أنها تسخر منهما .

وقبر السلطان رشاد الرقيق ، في المسجد الصغير ، مسجد أيوب ، بعيداً عن التراب الفخمة ، حيث يستريح سابقوه . وكان قد اختار هذا المكان الهادئ والظليل ، لأنه كان يريد أن يستمر في سماع تغريد الطيور ، وضحك الأطفال .

وبعد عدة أيام سيتوج السلطان وحيد الدين ، آخر الإخوة الأربعة الذين تتابعوا منذ اثنتين وأربعين عاماً على العرش . وقد حرص أنور باشا رئيس حزب تركيا الفتاة الذي يملك السلطة ، أن يكون التتويج فخماً ، وأن يكون الاستعراض العسكري استثنائياً للتأثير في عقل الشعب المرهق بهذه الحرب التي لا تنتهي .

ولكن لئن تأثر الشعب بشيء ، فبالقنابل الذي اشتبه سلاح الجو البريطاني أن يقذفها على العاصمة ، في ذلك اليوم خاصة . أفكان ذلك نوعاً من التحذير للسلطان الجديد ؟ وكان هذا خلال الاحتفال كله ، يبدو كتيب الهيئة . وعندما جاءت الأسرة ، في اليوم التالي ، لتنهشه ، استقبلها بهذه الكلمات المرة :

— ولكن بم تهشونني ؟ إن العرش الذي أجلس عليه هو عرش مفعم بالأشواك !

وهذه كلمات لا تؤثر في أحد . فوحيد الدين معروف بتشاؤمه ، بل إن الأطفال أطلقوا عليه لقب « اليوم » . ذلك أنه يبدو دوماً كمن يريد أن يعلن عن خبر سيء . وكالعادة كان يببالغ ويقول : إن الجيش يعاني من الصعوبات . ولكن هذا أمر عابر ، وقد عرفت الأمبراطورية أياماً سوداء أخرى . ثم إن الحليف الألماني هو من القوة بحيث ...

والحق أن الجيش كان يعاني من صعوبات جمة . وإذا لم نقل شيئاً عن مئات الألوف من الهاربين من صفوفه ، مما يمكن أن نوهم الناس بأننا نخهله ، فإن آلافاً كثيرة من الجرحى ، كانت تملأ المشافي . واستولت السلطة على كثير من المباني لإيوائهم فيها .

وكانت خديجة السلطانة تمضي كل أسبوع لزيارة مستشفى هازيكي Haseki ، في مركز المدينة ، لكي تحمل إلى الجنود المرضى أو الجرحى ، شيئاً من الدعم المعنوي وبعض الهدايا الصغيرة . وحتى ذلك الحين ، لم تكن قد أخذت معها سلمى ، خوفاً من أن تتأثر بهذه المناظر تأثراً سيئاً . ولكن البنت أصبحت في السابعة والنصف ، وتفهم الكثير من الأشياء . ومن ناحية أخرى ، فإن السلطانة من أنصار الرواقية ، (الصبر على المكاره) . ولما كانت ، منذ أبكر العمر ، قد عاشت

أقصى التجارب ، وخرجت منها سليمة ، فإنها ترى أن لاشيء يساوي التجربة والاختبار ، في تعديل الطبع وتثقيفه . ولقد رأت في النساء الجميلات من بنات الطبقة الممتازة في استامبول ، تلك الآثار السيئة للتربية الضعيفة ، المرخية للعزم ، فلم يعد في وسعها ألا تحرص على صيانة سلمى منها . وعندما أخبرت زوجها بعزمها هذا ، فإن هذا الرجل ، اللامبالي في العادة ، غضب غضباً شديداً .

— إنك تريد أن تفسد حياة هذه الصغيرة . وسيكون لديها الوقت ، فيما بعد ، لترى ألوان الشقاء ، وربما لتعيشها أيضاً — من يدري ؟ فدعها إذن تعيش هادئة .

ولكن السلطانة ترى أنها الحكم الوحيد فيما يتعلق بتربية ابنتها ، كما هي كذلك في كل ما يتعلق بشؤون البيت . وإذا هي تركت لزوجها أن يهتم بتنشئة ولدهما خيرى — ذلك أن الصبيان ، في ديار الإسلام ، إنما يربون بدءاً من السابعة من العمر ، على أيدي الرجال — فإنها ستقبل ما تقضي به التقاليد طبعاً ، ولكنها تشك في أن تكون هذه التربية ناجحة . ذلك أن جبن كبير أولادها يجرح كبرياءها . ولطالما حاولت أن تهز الخمول ، وأن تضرب على أوتار العزة الشخصية لهذا الصبي ، ولكنها انتهت إلى الزهد بالأمر ، لأنها أدركت أن كل واحدة من محاولاتها تحمله على زيادة الانكفاء على نفسه في كل مرة .

أفيمكن أن يكون ابنها شديد الخوف منها ؟ وعندما لامت نفسها على قسوتها ، فإنها جربت الرقة ، وأقنعت نفسها أن ما تعتبره ضعفاً في الطبع ، لم يكن أكثر من حساسية مفرطة . فخيري كان فناناً ! والشئ الوحيد الذي يهيمه خارج شخصه ، هو الكمان . فعينت له خديجة السلطانة أفضل مدرس موسيقي في البلد ، وهو من فيينا . غير أنه كان ينبغي أن تجابه الحقيقة : فخيري كان يحسن العزف ، إذا شاء ، ولكن ينقصه هذا الهوى الذي ينشئ كبار المهرة في هذا الفن .

ومن حسن الحظ أن يكون الأمر شيئاً آخر مع سلمى ، فخديجة تجد فيها قوة شبابها وشجاعته . أما خيرى ، فيبدو أنه يميل لأبيه . وانتهت هي باليأس من ابنها وزوجها معاً .

ومع ذلك فإن الله وحده يعرف أنها أحبت خيرى رؤوف بك ، بكل ما في المرأة من عنف في الحب ، إذا كانت في الثامنة عشرة من عمرها ، وبكل مطالب المرأة التي كانت في الثامنة والثلاثين عندما لقينته . وربما كانت قد أسرفت في مطالبته بما لا يستطيع . وهكذا فإن أحلامها كمراهقة وحيدة ، وكامرأة أسىء إليها من زوجها الأول الذي كانت تكرهه ، قد نقلتها إلى زوجها الثاني .

ولكن سرعان ما وصلت إلى الشك في كل ما كان يفعله، كما لو أنها بعد أن زينته بكل المواهب التي تتوق إليها، عادت فوجدته محروماً منها جميعاً. وكانت تقول لنفسها أحياناً، إنها غير منصفة، وتقوم بمجهود للتقرب إليه. وكان باستمرار يقابل هذه المحاولات بصمت المستغرب الساخر إلى حد ما.

أما اليوم فإنها لم تعد تطلب منه شيئاً. ومنذ أن ولدت سلمى، انقطعت كل علاقة سليمة بينهما. ومع ذلك فإنها لا تظن أنه يخونها، وبدلاً من أن تسعد بذلك، ترى أنها تحتقره، واضعة هذا الوفاء على حساب الكسل واللامبالاة. فكأن لعلاقتهما طعم كأس من الماء الفاتر. ولكن خديجة كانت قد تجاوزت فترة الشوق. وكل ما هنالك أنها عندما تراه، تندesh. فمن هو إذن هذا الذي أحبته؟

وخلال ذلك، وذات صباح حار من أيام تموز / يوليو /، مضت السلطانة هي وابنتها إلى المستشفى. وكانت سلمى قد قضت نهار الباردة بصنع حزم صغيرة كهدايا للجرحي. وقامت إحدى الكالافات بتهيفة مناديل الشاش الزهرية. وفي كل واحد منها، وضعت علبة من التبغ، وحلوى وبعض النقود، ثم غُلِّفت بشريط جميل من الساتان الأزرق. وهنالك مئات من هذه العلب، تملأ حتى القمة، جملة السلال المزينة بإطار من القماش الملون. وهذه تقدم انطباعاً أجمل، وسلمى سعيدة جداً، لا تكاد تهدأ، من فرط الفرح، بعملية غير مألوفة من هذا النوع.

وكان لا بد من عربتين. أما الأولى، فقد احتلت مكانها فيها السلطانة خديجة وابنتها. وأما في الثانية فقد ركبت الخادومات المكلفات بحمل الهدايا. ولكي يصل الجميع إلى المستشفى، لا بد من المرور على جسر غلظه، على القرن الذهبي، والأحياء القديمة من استامبول.

وحوالي الجسر، كان على العربات أن تبطئ من شدة كثافة المارة. والمدينة، التي يقوم فيها البيع والشراء هي غلظه، الواقعة على أطراف المرفأ. وهناك تقوم المصارف، وشركات الملاحة والبيوت التجارية الكبرى، ولا سيما الصيارفة وأصحاب الدكاكين من كل الأنواع. ولدى تقاطع المدينة «الفرنجية» التي يعيش فيها النصارى، بالمدينة الإسلامية القديمة، يجد الإنسان مكان تلاقي كل الأجناس في الأمبراطورية.

فهناك آباء أغاريق يحاذون يهوداً من ذوي الشعر الطويل، يلبسون قفاطين مطرزة، وهناك أتراك كهول بالبناطيل الواسعة والعمائم إلى جانب شباب على آخر طراز، يلبسون الريدنحوت على الطريقة الأوروبية، وفوقه الطربوش الأحمر المزين بشراة سوداء كبيرة. ومن وراء نوافذ العربة، كانت

سلمى لا تعرف أين تضع نظراتها . وعلى جانب الجسر ، كان هنالك ألباني كبير بلباس أزرق حاد ، يرم شاربيه بهيئة من يريد الخصام ، في الحين الذي تمر فيه أمامه أرمنيات جميلات ، لون بشرتهن بلون الحليب . وهناك أيضاً جماعات من البلغار ، يعرفون من كتلهم الضخمة ، وقبعاتهم المصنوعة من الفرو ، يتنزهون مع بعضهم ، إلى جانب بعض المسلمين المغطيات بملاءات ملونة ، احتشدن هناك لشراء بعض الحاجات ، وكل هذا يؤلف جمهوراً غير متجانس ، ولكنه غير مبال بتنافر أجزائه .

أما قطع الجسر فإنه أمر ملحى . إذ يصرخ سائق العربة بألف صورة ليجد لنفسه ممراً بين عناصر هذا الخليط من العربات ذات المقاييس المختلفة ، التي يصدر عنها نفس الصرخات ، في فوضى فرحة . وبعثاً نحاول . فالعربات الأنيقة المفتوحة ، والعربات المغلقة الفخمة ، أصبحت محصورة وسط هذا الزحام من العربات التي تجر باليد ، والعربات المأجورة ، والعربات التي تجرها الثيران ، على حين أن الحمالين ، المطويين قسمين ، تحت أثقال ضخمة ، يتقدمون في هذا الزحام ، دافعين من أفواههم صرخات « هان » ضخمة . أما باعة الماء فيرفعون كؤوسهم بعضها على بعض ، وباعة البوظة أو المشروبات ، ممن يلبسون ثياباً عجبية محشوة بزجاجات ذات ألوان مشبهة ، يستفيدون من هذه الوقفة الإرغامية ليأتوا فيقدموا خدماتهم للمسافرين العطاش . وسلمى ، الفرحة بهذا كله ، والتي لا تريد أن يفوتها شيء ، ظمأى إلى شراب من بطيخ إزمير ، ولكن أمها تعقد حاجبها محتجة بالخطر الصحي ، وضبط النفس . وعليها أن تكتفي برؤية الأطفال كلهم حول الباعة ينعمون بما يشتهون . وهكذا عرفت أن معنى « نبل الولادة » لا يشتمل دوماً على المزايا وحدها .

وأخيراً يصل الركب إلى استامبول القديمة ^(١) . ولقد يقول الإنسان هذه مدينة أخرى ، وبلاد أخرى . فبعد حركة غلظه الصاخبة ، تقدر الأم والذين معها قيمة الهدوء في الحارات الضيقة ، التي تحيط بها بيوت جميلة من الخشب ، من ذوات المصاريع المغلقة ، والجدران العالية ، التي يعلوها السرو . وحيثما ذهبت وجدت قناطر من الحجر ، وسلالم لولبية تؤدي بك إلى مساحات ظليلة . وهنا على مقربة من أحد المساجد ، مدّ قهوجي قماشاً مشدوداً بحبال ، يحتمي في ظله رجال صامتون يحتسون قهوتهم ، مأخوذين بلعب لا ينتهي بالطاولة ، أو هم يحلمون وهم يدخنون النارجيلة .

وأبعد من ذلك تقوم سوق صغيرة . وهناك باعة سمان يعتلون عرشهم فوق أهرامات الخضار والفاكهة ، ويقدمون لربات البيوت المحجبات بمناديل سوداء ما يحتجن إليه من بضاعتهم . وتحت شجرة من الأشجار يجلس الكاتب الشعبي ، مع مجموعة أعلامه ، وأمواسه ، ومحرراته ، ويكتب

(١) كانوا يطلقون هذا الاسم على الحي القديم من استامبول .

عروض حال للناس بوقار ، على حين أن سيدات عجائز ، يجلسن على الأرض ويحزنن المستقبل ، برمي عظيمات على قطعة من سجادة قديمة . وهنالك أيضاً متسولون ، لكنهم أبداً لا يطلبون الصدقة من الناس . ويكتفون بأن يقبلوا ما يلقي إليهم من المارة من حين إلى حين ، مقتنعين ، بما ورد في تعاليم الدين ، من أنه إذا أكرم الله بعض خلقه بالثروة ، فعليهم أن يتقاسموها مع الفقراء والمعوزين .

وبعد ساعتين من بدء الحركة ، وصل الركب سالمين ، ووقفت العربات جامدة في فناء المستشفى . ولم تنتظر سلمى أن يأتي زينيل ليفتح لها الباب ، بل قفزت منه قفزاً على الأرض . فهي متلهفة لرؤية المحاربين الشجعان « كما يسميهم خالها فؤاد » .

والمستشفى بناء كبير ، رمادي اللون ، بُني في القرن السادس عشر ، بأمر من السلطان سليمان الرائع . ودخلت السلطنة وابنتها متبوعة بخادماتها ، في البهو الكبير ، حيث كان ينتظرهم مدير المستشفى . وانحنى بأكثر ما يستطيع أمام السلطنة ، وألح عليها أن تمر بمكتبه لبعض الاستراحة وتناول القهوة قبل زيارة المرضى . ولكن السلطنة أبت ذلك عليه ، على أكبر فرح من سلمى . وتحمل هذا الرجل الصغير سوء حظه بقلب طيب وكان قد أشاع في كل مكان أنه على أفضل ما يجب مع الأسرة المالكة . فجعل من واجبه الآن أن يصحب السلطنة في زيارتها إلى القاعات .

وما إن دخلت الجماعة في الممر الأول حتى شعرت البنت الصغيرة أن حلقها تملكته رائحة حامضة حلوة ، تنتزع منها قلبها . فتعض على أسنانها قائلة : لا مجال لأن أكون مريضة ! ولكن كلما تقدم الزوار قليلاً ، زادت الرائحة ثقلًا ، وقُلَّ احتمالها . وتفكر البنت قائلة : « ما أغرب هذه الأدوية ! » . ولم تفهم القضية إلا عندما وصلت إلى الممر الثاني ، وأصابها الرعب . ففي الأرض ، وفي كل الزوايا ، كانت هنالك سطول صغيرة مفعمة بضمادات لطخت بالدم وفضلات الإنسان . وهناك رجال متمددون على فراش ، أو على مجرّد غطاء ، وهم يثنون . وبعضهم ينادي أمه . وآخرون رؤوسهم مقلوبة ، وعيونهم مغمضة ، يبدو أنهم يتنفسون بصعوبة . وفي هذا الممر الذي لا هواء فيه ، لا يوجد أقل من مئة . وإلى جانب بعض المتميزين نجد امرأة — هي أختي؟ أو زوجة؟ تسند عنقاً ، أو تعطي كأساً من الماء ، أو تطرد الذباب الذي أغراه الدم .

وشرح المدير القضية فقال :

— إن هذه الفضلات تبقى هنا ليلاً ونهاراً . ونحن نتسامح بذلك ، لأنه ليس عندنا من عناصر الخدمة ما يكفي للقيام بواجب هؤلاء المساكين .

فالممرضة، وهي فتاة ترتدي صدرية بيضاء، طويلة، وشعرها مرصوص بوشاح أبيض، هي الوحيدة التي تخدم كل غرف هذا الممر. وهي تقسم وقتها بين إعطاء الأبر، وأخذ الحرارة، وتوزيع الأدوية القليلة التي لا تزال جاهزة. وليس لديها أي وقت لراحتها الشخصية. ومع ذلك فإنها لا تزال تحتفظ بالبسمة، وتجدها كلمة مواساة لكل مريض. وسلمى التي لم نعد لديها إلا رغبة واحدة، هي الهروب من هذا المكان، تشعر فجأة بالخجل: إن عليها أن تقاوم.

وبعد أن اجتازت الأم وابنتها بعض الأمتار، التي بدت لها وكأنها لا تنتهي، دخلتا في قاعة كبيرة. وهنا، تصبح الرؤية أوضح. فلوحظت نوافذ عالية تثقب الجدران المطلية باللون الأزرق لاستبعاد «العين»، كما أن الأسيرة تمتد على صفوف طويلة. وكان المرضى قد ناموا على الفرش مباشرة، لأن الأغذية انتزعت منذ مدة طويلة لتحل محل الضمادات المفقودة — وبين هؤلاء ممن هم، في أكثر الأحوال في أول الشباب — من يقنون من الألم.

وأحياناً يندو عن بعضهم صرخات تثقب هذه الأغنية الجنائزية، ولكن ما من إنسان يعير لذلك انتباهاً: فكل واحد منطو على نفسه، ويحاول أن يستجمع قواه في نضال يائس ضد الموت.

ثم إن أغلب المرضى يتقاسمون الأسيرة الضيقة، اثنين اثنين. ومع ذلك فهم محظوظون لأن الموشكين على الموت، أولئك الذين لا ينتظر منهم إلا النفس الأخير، وضعوا تحت الأسيرة، خوفاً من أن يفقدوا المستشفى محلات ثمينة. وفي كل صباح، يتكرر الشيء نفسه؛ إذ ترفع الجثث لردها إلى أسرها، أو يلقي بها في الحفرة العامة. ويؤتى من جديد بالجرحى الذين لا يرجى بقاؤهم أحياء، فيوضعون تحت الأسرة، وهكذا... على حين أن القادمين الجدد يوضعون في مكانهم.

وترتجف سلمى، مقسمة بين الغثيان والاستغراب. وتتساءل: «أين هم إذن محاربونا الشجعان؟». وهي لا تستطيع أن تربط بين الجنود الذين أعجبت بهم في الاستعراضات، وبين هذه المخلوقات التي يشتد منها الأنين. وكأنها تحب أن تبكي، ولكنها لا تعرف ما إذا كانت تبكي بداعي الشفقة، أو بداعي خيبة الأمل. فالشجاعة أمام الموت، والفرح بأن يهب الإنسان حياته للوطن، أكل هذه العواطف التي يكثر الجنرال — الأمير من الحديث عنها، ليست إلا كذبة كبيرة؟

وتحسُّ عندئذ بأن أمها تضغط على يدها، وتقول:

— هيا، يا بنيتي الحلوة الصغيرة، تشجعي، أنا هنا. غير أن هذا الحنان اللا مألوف يدخل إلى نفسها الاضطراب أكثر وأكثر أيضاً، فتتوسل قائلة: أيندجيم! أرجوك لنمض.

فتهرز السلطانة رأسها بوقار حزين، وتقول :

— ياسلمى، إن هؤلاء الرجال في نهاية البؤس، أولست قادرة على منحهم شيئاً من
المواساة ؟

وتود سلمى لو أجابت بكلا، وأنها لا ترغب بعد الآن في رؤيتهم، وأنها تحتقرهم لتألمهم بهذه
الصورة التي زال منها الحجل... لأنهم حيوانات ! وفجأة ترى بأنها لم تعد تشعر لا بالشفقة ولا
بالخوف، ولكن فقط بغضب هائل ضد هؤلاء الجرحى، وضد الجنرال — الأمير. بيد أنها تسمع
نفسها تجيب :

— بلى، أيندجيم .

وتبدأ بتوزيع هداياها الزهرية والزرقاء. وتجد خديجة أمام كل سرير كلمة مواساة مناسبة. أما
الأقل ضعفاً بين هؤلاء، فيشكرونها بابتسامة. وبعضهم يتمسك بها، كما لو أن وجود هذه السيدة
الجميلة الرصينة في عالمهم المرعب، يمكن أن يدفع عنهم الموت. والبعض الآخر، يحولون رؤوسهم
عنها.

وتتابع سلمى، وهي ممثلة حقدًا، وعيناها مثبتتان على أحديتها البيضاء، فتشعر فجأة بأنها
اخطفت : ذلك أن رجلاً شذها إلى سريريه وهو يدمدم القول : « خلا، ياطفتي الحبيبة »، وعلى
وجهه سمات الضياع. فبدأت سلمى تصرخ، مرعوبة. فأسرعت أمها وأنقذتها مباشرة. ولكن بدلاً
من أن تبعدها عنه، أبقتها بجانبه، وأحاطتها بيدها الحامية.

— إن هذا الجندي المسكين يظن أنك ابنته. فدعيه يتأملك، فلعل لحظته هذه هي آخر
سعادة له في هذه الدنيا.

أنا ابنته ؟ فتتصلب — ترى كيف يتجرأ ؟

ومرت دقيقة، كأنها زمن طويل. ثم إنها بصورة غير محسوسة، وأمام النظرات المفعمة حباً
لهذا الأب المستعار، بدأت تشعر بدويان عداؤها، وتشاركه في البكاء رغماً عنها.

وبعد شهرين من ذلك التاريخ، أذيع نبأ الهزيمة في ٣٠/٩/١٩١٨. إذ إن الأمبراطورية

العثمانية كحلفائها ألمانيا والنمسا — هنغاريا — طلبت الهدنة .. وأخيراً انتهت الحرب، والشعب الذي استنفدت قواه، بدأ يتنفس .

وسلمى الآن سعيدة : إذ لم يعد مجال لزيارة المستشفيات ولا رؤية الجرحى ، ولا الموتى . إن هذه المناظر المرعبة التي توارقها منذ زيارتها الأخيرة للمستشفى ، ستسناها أخيراً . وستعود الحياة إلى سيرتها كما كانت ، غير مبالية ، كما كان أمرها من قبل ، ولكن لِمَ تبدو أمها في مثل هذه التعاسة ؟

وأولئك الذين سعدوا بالهدنة — وكانوا يقولون « السلام » بدأوا يفقدون فرحهم ، عندما تقدم أسطول المنتصرين ، بعد ثلاثة عشر يوماً ، وذات صباح بارد ، كثير الضباب ، من شهر تشرين الأول / أكتوبر / ، واجتاز الدردنيل ، ومضى منه إلى البوسفور .

هنالك ستون قطعة بحرية ، إنكليزية وفرنسية وإيطالية وإغريقية — وكانت مشاركة هذه الأخيرة غير واردة في اتفاقات الهدنة — ولكن تركيا يومئذ أضعف من أن تحتج ، لاسيما وأن البلاد فقدت حكومتها . ذلك أن الثلاثي الذي جرّها إلى الحرب ، هرب في نفس اليوم الذي أعلنت فيه الهدنة . وكانت القطع البحرية ، المسبوبة بطرادات ، تقترب من الشاطئ في صمت مهيب . وببطء دخلت في القرن الذهبي ، حيث ألقت المراسي ، ووجهت مدافعها إلى قصر السلطان ومقر الباب العالي ، الذي هو مقر أعضاء الحكومة .

وكانت السلطنة واقفة وراء النوافذ تنظر إليها . وتقول في ذات نفسها « لقد سقطنا إلى الحضيض » . فلأول مرة منذ أن استولى أجدادها على المدينة ، أي منذ خمسمئة سنة تقريباً ، تراها احتلت من جديد . وهذه الأباطورية التي أرعبت أوروبا خلال خمسة قرون ، تجد نفسها الآن تحت رحمة أوروبا . وهي سعيدة أن أباه مات ، وعلى أقل تقدير ، لم تقع هذه النكبة في أيامه .

ولم تذهلها عن أفكارها هذه إلا سلمى ، التي جاءت تدلها على نقطة بعيدة ، قريباً من غلطة .

— فماذا يجري هناك ، أبنديم . إن المرء ليظن أن هناك معركة أو قولي عيداً .

وحقاً فإن المشاهد لينطبع في نفسه أنه أمام صخب كبير . واستدعت السلطنة من يحمل إليها منظراً كبيراً ، هو ذكرى من عم (أو خال) كان أميراً للبحر . فتشاهد منظراً ، جعلها مذهولة : فعلى الأرصفة ، من ناحية المدينة المسيحية ، كان هنالك جمهور متعدد الألوان يهز أعلاماً .

وتلاحظ خديجة وجود الأعلام الفرنسية والإنكليزية ، والإيطالية . ولكن أكثرها أعلام زرقاء مخططة بالبياض — وهي أعلام إغريقية !

لم تصدق ما ترى ، فسوّت المنظر ، ثم أعادته إلى مكانه بحركة غاضبة ، قائلة : الخونة . إنهم يرحبون بقدوم العدو !

وتشعر فجأة أنها متعبة لدرجة الموت ، وتتساءل ، « ولكن لماذا ، لماذا » . إن أغاريقنا عثمانيون^(١) ، كالأخرين ! وهم مسيحيون . ليكن ، ولكنهم يملكون كامل الحرية في ممارسة طقوس دينهم ، وبطريكتهم هو أحد الشخصيات الأعظم أهمية في الأمبراطورية . وفي الواقع ، فإنهم أكثر حظاً من أتراك الأناضول ، الذين ينهكون أنفسهم في فلاحه أرض غير معطاءة . وعندما استقلت اليونان منذ تسعين سنة ، كان لهم كامل الحرية في الرحيل ، فأثروا البقاء هنا ، حيث تزدهر أحوالهم . أما الأرمن واليهود ، فإنهم سادة التجارة والمال . وماذا يريدون أكثر ؟

والحقيقة أنها تعرف جيداً ماذا يريدون . ولكنها تأبى أن تصغي لهذه المطالب الخارجة عن الحدود . إنهم يريدون العودة ستة قرون إلى الوراء . وطرد الأتراك من تراقيا الشرقية ، واستامبول خاصة ، لكي يعيدوا أمبراطورية بيزنطة . وهم يعتمدون على المحتل لكي يساعدهم في تحقيق أحلامهم .

وفي بضعة أيام ، عينت قيادة موحدة للقوى المحتلة . أما من الوجهة النظرية ، فإن الأتراك يحتفظون بإدارة المدينة . وأما المرفأ ، والترامواي (الحافلات الكهربائية) ورجال الدرك ، والشرطة فهم

(١) كانوا يطلقون اسم العثماني على كل سكان الأمبراطورية ، سواء أكانوا أغارقة ، أم من البلغار ، أم من العرب ، أم من الأتراك ، أم من أية قومية أخرى . أما كلمة التركي فكان يحتفظ بها للناس الذين هم من العرق التركي .

تحت مراقبة الحلفاء. ويشرف الفرنسيون على مراقبة المدينة القديمة، والبريطانيون على البيرا Pèra^(٧)، والإيطاليون على قسم من شواطئ البوسفور.

ثم إن الأحياء المسيحية في غلطة وبيرا، تزهو بحيوية جديدة. فالفنادق والحانات مملأى ببشارة وجنود يتكلمون بصوت أعلى من ذي قبل. وينفقون مبالغ لم يقبضها القيمين عليها منذ زمن طويل. أما الضباط فإنهم يترددون على البارات الأنيقة، حيث تقوم لاجئات روسيات، طردتهن الثورة البولشفية، بتقديم المشروبات إليهم. ثم إن فناء البيرا بلاس، الفندق الأنيق، وهو أحد الفنادق القليلة، التي تملك الكهرياء—حافل بضباط من كل الأنواع، بل إنه ليلاحظ بينهم بعض رجال السيخ من جيش الهند، بعماماتهم التقليدية على رؤوسهم. وبعض الفرسان المغلفين بجبتهم الحمراء الفاقعة.

وستقرر الإدارة بسرعة استعادة «حفلات الشاي الراقصة»؛ وسنرى العسكريين الوسيمين يراقصون الجميلات من المجتمع البيروتي، في رقصة الفالس، على مرأى من الأمهات السعيدات من هذه المجموعة من الفرسان اللامنتظرين الذين جاءت بهم الهزيمة.

وفي الطرف المقابل، في المدينة الإسلامية، لا نجد إلا الحزن. فلا يخرج الإنسان من بيته إلا في أدنى الحدود، خوفاً من أن يزعمجه الجنود الذين كثيراً ما يكونون سكارى، أو على الأقل حتى لا يكون عليه في الأرصفة الضيقة أن يمحي أمام المتصر. وإنه لإذلال جارح، بالنسبة إلى الأتراك، الذين تعودوا أن يغلبوا الآخرين من الشعوب، أن يغلبوا على يد هؤلاء. ويتجنب الإنسان أكثر ما يتجنب، أن يمضي إلى بيرا Pèra لشراء حاجاته كالعادة سابقاً، إذ لا يمكن أن نرى بلا استنكار وحقد، ذلك التعاطف الغالب، لدى الأقليات المسيحية، التي كنا نظن، حتى ذلك الحين، أننا نعيش معها في أحسن التفاهم. وأسوأ من ذلك أن الإنسان يغامر بأن يتلقى الأذى إذا هو لم يحيي الأعلام الإغريقية، التي تتماوج في الحي كله. وإذا كان مما بد منه أن يجتاز الإنسان بيرا، فإن عليه أن يطيل الطريق، ويلف، ويدور، حتى لا يدخل إلى قلب الحي الإغريقي، ولا يتعرض للإهانة.

غير أن المستقبل يبدو أكثر سوءاً: إذ يتحدث الناس، بقلق عن تعيين الجبرال فراشي

(٧) وهذه تسمية أوروبية لبيوغلو (ابن يو).

ديسيرى Franhet d'Esperey . وهو المعروف بسلطته وعنفه ، لقيادة قوى الحلفاء . وتقول الإشاعات إنه يريد أن يجعل من استامبول عاصمة فرنسية ، وجعل سكانها الأتراك عبيداً .

وخلال ذلك ، كانت الحياة تستمر على عادتها في قصر أورطاكوي ، ولكن سلمى تقاوم رغباتها . ولم يعد يسمح لها إلا بزيارات الأوبد الإغريقية أو البيزنطية . وكانت السلطانة قد سمحت لها منذ زمن طويل بهذه « النزعات الثقافية » على الرغم من المشكلة التي أثارها بين المحيطين بها ، فهي تريد أن تقدم لابنتها تربية كاملة ، وهي كخليط غريب من الحرص على التقاليد ، ومن حرية الفكر ، شديدة الوعي لمزجها بحيث لا تعاً بالأفواويل والإشاعات . ومن عادتها أن تقول : « إن القواعد ، نحن الذين نقررها » .

وفي يوم ١٩١٩/٢/٨ ، كما هي الحال في كل أربعاء ، كان على سلمى أن تخرج مع الأنسة روز . وكنتا قد قررنا الذهاب لرؤية دير آكاتالبتوس ، الذي بُني في القرن السابع ، على يد البطريرك كيراكوس الثاني . ولكن هذا الأربعاء ، كان يوماً استثنائياً ، إذ كان ينتظر أن يصل إلى العاصمة الجنرال الفرنسي . وكانت السلطانة قد فكرت بإلغاء الزيارة ، خوفاً من الجمهور ، غير أن البنت الصغيرة أبدت من الأسى واليأس ما جعل أمها تقبل ما لم تكن تقبل . وأخيراً ، فإن الدير موجود في المدينة القديمة ، على مقربة من مسجد شيزادي . وكان على الموكب أن يمضي من جسر غلطة ليتجه إلى بيرا ، حيث توجد السفارة الفرنسية . فليس هنالك إذن من خطر للتقابل في الطريق .

وذهبتا في عربة مغطاة ، مصحوبتين بزينيل ، الذي كانت من بعض مميزات العديدة أن يواكب السلطانان في نزهاتهن .

وانتهت زيارة الدير بسرعة . إذ خلافاً لعادات سلمى في طرح ألف سؤال وسؤال ، بدا أنها هذه المرة حريصة على العودة بسرعة . ولكن في اللحظة التي كان على العربة فيها أن تتخذ طريق أورطاكوي ، نادى السائق لتقول له :

— امض إلى بيرا ، بسرعة !

ولكن هذا الأتخير أوقف العربة ، ونزل زينيل من المصعد الأمامي ، ووقف على باب العربة ، ليقول :

— إن هذا غير ممكن ، أيها الأميرة ... إذ سيكون تجاه الموكب ...

— صحيح هذا ، وأنا أريد أن أراه . بهذا ردت سلمى بلهجة صارمة .

— لكن السلطنة أملك لا يمكن أن تسمح بذلك ...

— وهي أيضاً لم تسمح بالنزهات التي قمنا بها في المدة الأخيرة بعد زيارات المتاحف ..

والحقيقة أن سلمى استطاعت ، مرتين أو ثلاثاً ، أن تقنع مرافقها ، بإطالة مدة زيارة الأوابد القديمة ، بنزهات كانت تقوم بها حولها . فاتخذت عندئذٍ وضع الغاضب وقالت :

— إني لأتساءل ماذا يمكن أن يحدث لو أنني تحدثت لها في ذلك ... فقطب الخصي حاجبيه ، واضطربت الأنسة روز في مقعدها . فهما يعرفان أنهما أخطأ بنزولهما عند رغبة سلمى ، لكن هذه الزيارات كانت بريئة ، وكانت تسرهما بقدر ماتسر سلمى : ولم يخطر ببالهما قط أن هذه الشيطانة يمكن أن تضحك عليهما : فإذا هي فضحت هذه الشقاوات الإضافية ، فستعاقب حتماً . ولكن الأنسة روز ستسرح بلاريب ، لأنها خانت الأمانة التي وضعتها السلطنة بين يديها . أما زينيل ... فإنه لا يجرؤ أن يفكر بخيبة الأمل التي ستشعر بها سيدته تجاهه . وهو لا يتحمل أن تفسد العلاقة المتميزة ، التي نسجت بينهما السنون بأمور تافهة من هذا النوع . وهو يعرف مدى ماتصل إليه خديجة السلطنة في ثورة شكوكها ، وكانت الخيانات التي أثرت في حياتها خلال الأسر كثيرة ، بحيث أنها لم تعد تمنح ثقتها إلا لبعض الأشخاص القلائل ، الذين لا تنتظر منهم إلا الوفاء كله .

إلا أنه كان كبير الضعف تجاه الصغيرة . فهي الولد الوحيد الذي أحبه إلى هذه الدرجة . ومع أنه كان غاضباً منها ، فقد كان معجباً بها أيضاً — ولقد ناورت هي للحصول على الأمرين معاً مناورة جيدة — فقرّر أن ينصاع لرغبتها .

وقال لها :

— وإذن فلن نبقي إلا بضع دقائق ، متبادلاً غمرة عين مع الأنسة روز .

— بلى ، خمس دقائق فقط ، شكراً يا آغا ، وتمنحه أحلى بسملة لها .

وتصل العربة ، بصعوبة إلى بيرا ، من خلال الأزقة الملائى بمجموعات من الناس الفرحين . وأخيراً تصل إلى الشارع الكبير الذي سيمر فيه الموكب .

وكانت المخازن مغلقة ، والبيوت الجميلة المبنية بالحجر مزينة بالأعلام . أما على الأرصفة — وهذه الطريق هي الوحيدة في استامبول المحفوفة بالأرصفة — فكان هنالك جمهور متحمس

يُلَوِّحُ بأعلام صغيرة، يمكن التعرف فيها على أعلام إغريقية، وكذلك أيضاً على أعلام أرمنية. والأرمن أقلية تطالب بدولة مستقلة، في شرق الأناضول، وكانت مظاهراتها تقمع قبل ذلك بقسوة كبيرة. ولكن الأرمن كانوا يساعدون، خفية، من قبل بريطانيا، وفرنسا، وروسيا — التي كانت ترى في هذا وسيلة لإضعاف الأمبراطورية — وهم يعتقدون أنهم سينالون مطالبهم، مع انتصار الحلفاء.

وعلى حين أن العربة كانت تقف على طرف طريق مجاور — ذلك أن من الأفضل أن لا يلاحظ الإنسان في عربة تحمل الشارات الأمبراطورية —، فإن سلمى والآنسة روز، المتبوعتين بزينيل، الوحيد الواعي للخطر، يشقون طريقهم. وما من إنسان يخطر في باله أن هذه البنت الصغيرة، ذات الجدائل الحمراء، وهذا السيد العتيق المظهر في لباسه الاستامبولي، الذي انقضت أيام دُرُجته (موضته)، هما مسلمان. أما الفتاة الشقراء التي تصحبهما فتبدو مباشرة فرنسية خالصة.

وفجأة تفرع الطبول، ويبدأ عزف الأبواق. هاهو الجنرال يبدو أكثر فخامة مما كان الناس يتخيلون، بقبعته الحمراء، وقميصه الفضفاض، وهو على ظهر حصان أبيض رائع. وينفجر الجمهور تصفيقاً. أما معنى الحصان الأبيض فلم يخف على أحد: ذلك أن السلطان محمد الثاني المنتصر عام ١٤٥٣، دخل إلى بيزنطة على حصان أبيض، وعلى حصان أبيض يعود جنرال مسيحي جداً، فيملك المدينة.

ولقد نظمت الحفلة تنظيماً دقيقاً لتؤثر بفخامتها في شعب كان سلفاً مؤيداً. وكان في مقدمة الموكب، ضباط من رجال الدرك في أزهى ثيابهم الرسمية. وعلى بضعة أمتار منهم، كان الجنرال، العالي الرأس، والذي يتسلك برسن حصانه رجلان كثيفا الشعر، والمتبوع بحامل علمه، ورجال حاشيته، ثم على بعد مناسب منه، بكتيبة من الخيالة dragons، الذين يحملون رماحهم الطويلة، ومجموعة من الخيالة في بزاتهم الزرقاء، ومجموعة من المشاة. ووراء يأتي الجنرال البريطاني Milne، محاطاً بحاشيته الإيكوسية، ثم الجنرال الإيطالي، الذي ترافقه كتيبة من ال bersaglieri ذوي القبعات المزينة بريش الطوويس. وأخيراً، وكخاتمة للموكب، نجد كتيبة إغريقية من الأوزون، في تنانير قصيرة بيضاء، وقلانس حمراء ذات شراب pompon، وهم لا يستطيعون إلا الرد على تحية إخوانهم في العرق، الذين يأتون لتحريرهم من الأتراك.

وما كاد الموكب يتجاوز قليلاً مجموعة البيوت، التي تقف بجذائها سلمى، وزينيل، والآنسة

روز، حتى سمع صراخ امرأة، غطّي عليه حالاً بشتائم وسيل من الضحك. وهتف صوت حاد يقول: «ولكن قوليه إذن، فهو لن يجرح لسانك!» ثم تزايدت الصرخات حدة، وجاءت مجموعة من الشباب المتطرفين في الحماسة، ولاحظت سلمى باستغراب، امرأة بملاءة سوداء، تحاول أن تدافع عن نفسها ضد نصف دزينة من النساء الشريرات، ويقلن لها: قولي يحيا فينيزيلوس^(٣). وكان حول هؤلاء رجال يشهدون المشهد، بوضع الساخر. فلن يضعوا إذن يدهم على امرأة — ولا بد أن فيهم حس الترف — ولكن إذا كانت زوجاتهم يردن تعليم فن الحياة لـ (موز)^(٤)، فليس عليهم هم أن يمنعهم من ذلك.

وكانت سلمى على وشك طلب النجدة، عندما ضغطت الآنسة روز بقوة على يدها، وقالت بلهجة التهديد.

— إني أمنعك من أن تنبسي بينت شفة، وإلا فإننا نحن الذين سيقتلوننا!

فاستكانت البنت الصغيرة، الدائخة، وهي لا تفتأ مع ذلك تقول: «يا إلهي، أنقذها، أرجوك، أنقذها!».

وتدخل الإله في صورة رجال من البحرية الفرنسية، كانوا يبحثون عن بار. فلما سمعوا الضجة، لم يتأخروا عن إنقاذ هذه المرأة، التعيسة. مع شتائم كيكت لها على أنها غامرت بلا وعي بالمرور في مثل هذا الحي.

وعادت سلمى، هي وملكاها الحارسان، إلى العربة. فأسرع سائق العربة الذي كان ينتظرهم بقلق كبير، إلى ضرب حصانيه بالسوط. وهكذا سيكونون في القصر، في الساعة المناسبة تماماً لتناول «العصرونية».

وانتهت تلك المأساة على صورة مناسبة ولكن سلمى تشعر بالخجل. فلأول مرة في حياتها بدت جبانة. وعبثاً قالت لنفسها، إنها لم تزد على أن انصاعت لتعليمات الآنسة روز، وإن صراخها كان سيجعل حياة زينيل في خطر، ذلك أنها في أعماقها، كانت تشعر بأنها خافت.

وأرغمها ما في خلقها من الاستقامة على ملاحظة هذه الصورة الجديدة لنفسها، وجهاً

(٣) فينيزيلوس: المولود عام ١٨٦٤ والملقب بالكريدي الكبير، كان آغذ رئيساً للوزراء.

(٤) موز: مختصر كلمة تطلق احتقاراً على المسلم.

لوجه : صورة الخائفة ! ولكن عزة نفسها لا تتحمل ذلك ، وهي التي لا تعلم إلا بأعمال بطولية ، ولا تجد في ذاكرتها إلا المنجزات الضخمة للسلطين ، أجدادها . ولقد تصرفت بطريقة تدعو إلى الاحتقار . وخلال ليال كثيرة ، كان ذلك كابوساً دائماً لها . وبطبيعة الحال فقد كانت تبحث عن مبررات لتصرفها هذا ، ولكنها لم تجد أي مبرر .

وأخيراً ، فإن التعب والزمن سيقضيان على صور قلقها هذه ، وعذابها ، وستكون للحياة ولذائدها الغلبة . ولكنها لن تنسى أبداً كيف أن امرأة من الشعب أبدت من الشجاعة والعزة ، أكثر مما أبدته منها حفيدة سلطان .

وبقدر ما كان يبدو مجتمع الآستانة في الأشهر الأخيرة للحرب، وعندما كان كل شيء ينذر بالهزيمة مجتمعاً أعمى، غير مبال، كان، منذ احتلال العاصمة، يمتلئ بالتشاؤم واليأس. فما من حديث إلا عن إساءات العسكريين: كعنف الإنكليزي الذي كان من فوق حصانه، يعمل سوطه، في المار الذي لم ينتظم بالسرعة المناسبة، ووقاحة الجندي الإيقوسي الذي يرفع تنورته، أمام السيدات، وسكر الفرنسيين والإيطاليين، ولا سيما عامية السنغاليين. وعند الأتراك، أن هذا هو الإهانة العظمى. ذلك أن سوداً، أي عبيداً — إذ إنهم لم يكونوا في الأمبراطورية العثمانية إلا كذلك — بتصرفهم كسادة ويلقون أوامر عليهم، وهم مضطرون للانصياع إليها! ففي كل مكان تقال قصص عن الإساءات، وهتك الأعراض، تضخمها الإشاعات الشعبية. وأصبح الشعب يخشى بقوة أذى هؤلاء الأوروبيين، الذين طالما ظن أنهم «جد متمدين».

ورداً على هذا الاستياء العام، فإن السلطنة خديجة فكرت بتنظيم واحدة من «هذه الدعوات إلى الحمام»، التي يُعلى من شأنها في استامبول. والتي يدعو الناس بعضهم بعضاً إليها، كما يدعو الناس بعضهم بعضاً في أوروبا إلى حفلة شاي. ولم تضع لذلك إلا شرطاً واحداً: فليس على مدعوة أن تتحدث عن هذه الأحداث — ذلك أننا لن نصل مع ذلك إلى حد السماح للمحتل بأن يفسد كل شيء. وفي مثل هذه الأحوال البائسة تصبح التسلية نوعاً من التحدي أو ما يشبه الواجب الوطني تقريباً.

وعلى الرغم من صور التضييق، التي بدأ الناس يشعرون بها في كل مكان، فإن السلطنة حرصت على أن يكون في حفلتها من البذخ، مثل ما كان لها من قبل. إذ تستقبل المدعوات في البهو الكبير، من قبل كل العناصر النسوية في القصر؛ أي من حوالي الثلاثين «كالفا»، الكبيرات أو الصغيرات، اللواتي عليهن أن يحددن المدعوات بوابل من الورود. وبعد أن يساعدن على خلع الشرشف (الملاءة)، يأخذن بيدهن إلى الأبناء الصغيرة، المينة بالمايا والأزهار، المجاورة للحمام. وتتولى إحدى العبدات أن تجدل لمن شعورهن بأشرطة ذهبية أو فضية طويلة، وتعيد هذه الجداول بشباك إلى أعلى رؤوسهن؛ ثم إنها تلتفها بمنشفة حمام كبيرة مطرزة نظرياً ناعماً، وتضع في أقدامهن خفافاً مطعمة بالصدف.

فإذا أُتقن بهذه الصورة، فإنهن يمتصن إلى الصالون الدائري إلى حيث تستقبلهن السلطنة، وتقدم لمن القهوة بالهال، على نحو ما يشرها العرب، لإعادة النشاط في أيام الحر الشديد، ثم يتبادلن المجاملات ويهتفن بعضهن بعضاً بأدوات الزينة الفضية أو الذهبية، التي تحملها كل منهن. والحقيقة أن هذه الحفلات مناسبة لإخراج الأناريق وزجاجات الروائح العطرة، والصناديق التي توضع فيها هذه الأشياء، والتي تلتفها كل زوجة جديدة في حفلة عرسها.

وتتجه المدعوات عندئذ إلى القاعات الساخنة، وكل واحدة منهن تحيط بها عبدتان مكلفتان بتحميمها، وتمسيدها، ونزع ما على جسمها من شعر، وتعطيرها من الرأس حتى القدمين. وهناك نجد ثلاث قاعات من الرخام الأبيض ذوات النوافير، التي يصدر منها الماء، تتتابع كل منها بعد الأخرى، أما الأخيرة فإنها تكون شبه مظلمة، لكثرة ما فيها من البخار. وهناك يقين ساعات، قبل أن يعدن فيتلاقين في مسبح الماء البارد الموجود في قاعة للراحة، مزدانة بنباتات خضراء، وبصوفات. وهناك حيث يكن متمددات بلذة عنيفة، يتذوقن شراب البنفسج أو الورد، التي تقدمها كالفات صامتات؛ ويكون هناك وراء بعض الستائر أوركسترا تقدم موسيقى ناعمة، خفيفة.

وهذه هي لحظة المسارّات والكشف عن كل ما قيل وسمع. وما دام الجسد والروح قد خفا، فإن كل واحدة تدع لنفسها أن تحلم، تاركة رقبته أو رجليها للتمسيد البطيء، الذي تقوم به إحدى العبدات. وفي مثل هذا الجو من الشهوانية المؤنقة، تشعر حتى أكثر النساء بشاعة، أنهن مقبولات ومرغوبات.

وجال في خاطر سلمى أنها في الفردوس . ذلك أن قواعد التربية الميكتورية الدقيقة ، التي لُقنت لبنات الأسر الكريمة العثمانية ، تلغى تماماً في الحمام ، بنوع من الترخيص الغريب . ففي مثل هذه الصميمية ، تفرق الطبيعة الشرقية ، الكريمة ، المستعدة للذة ، والمتحررة من المستبقات ، بمقدار ما هي متحررة من كل شعور بالإثم ، أو لنقل تسقط حواجز التهذيب المستورد ، والذي ظل سطحياً كطلاء خارجي .

يقوم بين هؤلاء النسوة المستسلمات لأحاساسهن ، الحريصات على راحتهن نوع من التواطؤ السعيد ، المؤلف في آن واحد ، من الميل الجنسي ومن الفرح الطفلي . فتراهن يعجن ببعضهن ، ويتلاصقن ، ويقبلن بعضهن بعضاً ، وتأخذ كل منهن بالأخرى من الخصر ، بصورة عاطفية . أما سلمى التي طاش سهمها بعض الشيء ، برائحة المسك الرومي ، فإنها تحلم عندما ترى هذه الأثداء الحلوة الثقيلة ، وهذه البطون العاجية التي تبدو غاية في الخلاوة والرقّة . ترى هل يمكن أن ينشأ لها هي يوماً من الأيام ثديان ؟ وكانت في كل مساء ، تداعب حسدها في سريرها وتشد صدرها ، لكي تحمل تديها على الطهور .

وما هي إلا مدة يسيرة حتى اتخذت المحادثة ، في مثل هذا الوضع من الارتغاء ، صورة حرة بعض الشيء ، وخوفاً من أن تأمر السلطانة ابنتها بترك القاعة ، تصاغرت هي في رايبتها بقدر ما تستطيع ، حباً في البقاء مع هؤلاء النسوة .

وتتحدث امرأة شابة عن زوجها ، وهو موظف كبير في وزارة الخارجية . فهو رحل حديث يأخذها معه إلى كل الاستقبالات الرسمية . وتروي أنها رافقته ، ذات ليلة ، إلى عشاء دعت إليه السفارة السويسرية ، وهي إحدى السفارات القليلة ، التي ظلت على الحياد .

— فلم يكن هناك إلا أوروبيات ، أنيقات جداً ، ولكن بلباس بكشف عن الصدور والظهور كشفاً خجلت منه عنهن ، والأدعى إلى الاستغراب ، هو أنه ما من واحد من الرجال الحاضرين أعار ذلك انتباهاً . فهم يمشون بين هؤلاء النساء المعروضات بهذه الصورة دون أن يدو عليهم أي اهتمام .

— ولكن هذا معروف ، فالغريبيون لا يملكون رعبات قوية ، على ما تقول السيدة المجاورة لها ، التي تبدي مظهر الحبير العليم ، ولهذا فإن نساءهن يستطعن التنزه وهن نصف عاريات فيضحك الجميع .

— ما شاء الله — والحمد لله — إنه لا يمكن أن نقول مثل هذا عن رجالنا . فهم لا يستطيعون أن يلمحوا ساعداً ، أو كعب قدم ، من غير أن يُجَنِّوا به !

وتتهد امرأة سمراء جميلة ، وتقول :

— كم يجب أن تكون هؤلاء الأوروبيات بائسات . فلو كنت مكانهن لمت من الأسى .

— ولكنهن لا يعين ذلك ... فهن يحسبن أنهن حرات ، ويقلن إن رجالهن متساحون ، حين أنهم غير مباينين .

وتشير سيدة نخيلة قصيرة ، ممن يدعين أنهن من المثقفات إلى أن :

— هذا ربما يشأ عن دينهم . فالسبي عيسى — الذي يعتبرونه كإله ، ذلك أنهم يؤمنون به آلهة ، أو لنقل بثلاثة : هم الآب والابن والروح القدس — هذا النبي كان يتعد عن النساء ، يتزوج قط . وأهم الفرق المسيحية ؛ أي الفرقة الكاثوليكية ، تعتبر أن الطهارة الجنسية هي أعلى الكمال . ولهذا فإن رهبانها يبقون عزاباً ، وكذلك بعض فتياتهن اللواتي يسمونهن راهبات .

وأمام هذه الكلمة يصرخن جميعاً : عازبات ؟ كما لو أنهن لا يصدقن . إذ إن العزوبة بالكـ إلهن هي اللعنة . أوليس أول واجب من واجبات المرأة أن تنجب ، أولم يكن للنبي نفسه زوجات ؟ إن هؤلاء المسلمات لا يرين أن الجنس شيء يتصل بفكرة الخطيئة ، بل العكس تم وأشعار الغزالي ، الشاعر الصوفي الذي عاش في القرن الحادي عشر ، معروفة لدى كل واحدة .

ثم إن الغزالي نفسه هو الذي يؤكد أنه إذا كان محمد ، خلافاً لعيسى ، له زوج عديدات « فذلك لأنه كان يجد نفسه في درجة عالية من الروحانية ، بحيث أن أشياء هذا العالم تكن تمنع قلبه من أن يكون مع الله . وكان يأتيه الوحي ، على حين أنه كان نائماً إلى جـ عائشة » .

وحقاً فإن غرائب المسيحيين تظل موضوع حديث لا ينتهي .

وتتابع المثقفة حديثها فتقول :

— ويقال إن الناس في روما كانوا يأكلون لحم البشر .

— يأكلون لحم البشر ؟ .

وعرت رجفة هزت أجساد الجميع .

— بلى ! ففي كل صباح كان كهنتهم يستحضرون الإله ، بقراءات طقسية ، في قطعة خبز ،
ويأكلونها .

وتقابل المدعوات هذا الكلام بدهشة واستغراب وتلاحظ إحداهن :

— ربما كان هذا مجرد رمز .

— هذا ما كنت أحسبه . ولكن لا . إنهم يقسمون أن إلههم كائن في هذا الخبز ، لحماً
ودماً ، فيعروهن من ذلك رجفة .

— ويجرؤون على القول إننا متعصبون !

وتخلص المثقفة إلى القول ، بصورة الجزم القاطع .

— إن القضية هي دوماً على هذه الصورة . فالأقوياء لا يفرضون قوانينهم علينا ، بل يفرضون
كذلك أفكارهم .

وكأن شيئاً من الحزين يرين الآن على الحضور . فكيف حدث أن وصلن إلى الحديث في
السياسة ؟ وهذا على الرغم من أن الجميع تعاهدن على تجنب كل موضوع مزعج .

وكانت هذه اللحظة هي التي اختارتها إحدى الأميرات لكي تقول ، بلهجة غريبة :

— هل تعرفن آخر خبر ؟

فاتجهت جميع الأنظار إليها ، وقلن

— قوليه بسرعة ، لا ترهقينا بالانتظار .

-- وعندما هيمن عليها الشعور بأهميتها ، بدأت تقول :

— حساً ، ها كن : إن روز دور ... الوردة الذهبية .

ولمعت عيون المدعوات من جديد : فماذا عساه أن يكون روز دور قد فعل ؟

— إن روز دور قد طلب يد صبيحة السلطانة .

فتكاثرت علامم الاستغراب .

— كيف ؟ أيتزوج بنت جلالته ؟ إن هذا مستحيل ! فانزعجت أن يستطعن وضع كلامها موضع الشك .

وانتصبت

— إن هذا خبر مؤكد جداً . وأنا علمت به من أم صبيحة ، الكادين نفسها !

فوصل التيج إلى قمته : أفتتزوج الجميلة صبيحة ، الإبنة المفضلة للسلطان وحيد الدين ، اللواء الشاب ، بطل غاليسولي ، الذي أنقذ ، في أشد ساعات الحرب ، استامبول من يد البريطانيين ، الذين كانوا يهاجمون الدردنيل ! ولكن الجميع يعتبرن أن روز دور هو وجه أسطوري . ذلك أنه تحدى رأي رؤسائه ، وتحدى جيشاً أوروبياً أكثر عدداً ، وأفضل عدة . فلقد استطاع ، بجرأته ، وثقته المطلقة بنفسه وبرجاله ، أن يتغلب على وضع أجمع الخبراء كلهم — في استامبول وفي الجبهة — على أنه ميعوس منه . وقد جعل منه هذا النصر ، الذي يعود إلى عبقريته العسكرية ، مشهوراً ، لا سيما وأنه بعد عدة أشهر ، عندما واجه الجيش الروسي ، استعاد مدينة بيتليس وموش ، فحقق بذلك النجاحات التركية الوحيدة ، بين مجموعة من الهزائم .

أما الجيل الجديد ، الذي ، خاب أمله بحكم أخطاء سياسيه ، وهزائم ألويته المتقدمين في العمر ، فإنه رفعه إلى السماء . وجئت النساء به . وذلك لا لأنه شجاع فحسب ، بل لأنه وسيم ومغرور arrogant . فالبشرة ناصعة ، وكراسي الخدود عالية ، والعينان زرقاوان ترميان بشر عيف ، ولكنهما تستطيعان أن تصبحا أحياناً في غاية الرقة ، والشعر أشقر رائع ، وهذا ما وهبه لقبه . وهو من مواليد سالونيك ، ويقولون إنه من أصل ألباني . وكان أبوه موظفاً صغيراً في الجمارك . أما هو فإن عليه سمّة الأمير ، ويبدو رشيقياً في بزته العسكرية المحكمة التفصيل . ثم إنه مقتنع قناعة عميقة بتفوقه ، وتشع من شخصه قوة وطاقه وحشيتان تقريباً .

وعندما عاد إلى استامبول منذ نهاية الحرب ، صار يرى في البلاط . ويحب السلطان أن يستشيريه حول الوضع المعنوي للجيش ، وأن يستمع إلى آرائه المتميزة عن آراء الآخرين . ولقد علا تقديره له منذ عام ١٩١٧ ، عندما ذهب ، وهو ما يزال ولياً للعهد ، إلى ألمانيا ، لرد الزبارة إلى القيصر ، وكان العقيد الشاب مرافقه العسكري .

وعندما يأتي إلى القصر ، كانت الأميرات ، المختبئات وراء المشربيات (الشمعدانات) ، ينظرن

إلى الضابط الوسيم الذي يمر ، وعليه أكاليل الجمد ، ولقد حلمت أكثر من واحدة منهم أن تصبح امرأته ، بل إن سلطنة صبية تجرأت فكتبت إليه رسائل بريئة وغرامية ، وكانت توصلها إليه بواسطة أحد العبيد . لكن هذا القاسي القلب لم يتنازل مرة ليحجب ، فأوقعها ذلك في المرض ، من شدة الحزن . أترأه كان يظهر بمظهر اللامبالي ، لأنه كان يطمع ببنت السلطان ، وهو من أصل متواضع ؟ ولكن هذا غير مهم . ففي تركيا ليس هنالك من أرستقراطية ، خارج الأسرة الملكية . وفي وسع الإنسان أن يصل إلى أعلى المراتب ، بالاعتماد على مزايه وحدها . وكثيراً ماتزوج الأميرات بالباشاوات أو الوزراء ، الذين يريد السلطان تشريفهم ، بشكل خاص . أو لم تتزوج نادية السلطنة ، قبل خمس سنوات ، من أنور باشا ، وزير الحربية ، الذي كان أبوه مستخدماً في مؤسسة السكك الحديدية ! وروز دور لا يقل شأناً عن أنور .

وسرت في الحمام ربح هيجان فرح . فكل هؤلاء النسوة ، اللواتي كن حتى ذلك الحين ، متمدنات بكسل على الدواوين ، نهضن الآن ، وأحططن بالأميرة . أما هذه الأخيرة ، السعيدة بنجاحها ، فقد تركت من حولها ينتزع منها كل التفاصيل ، واحداً بعد آخر .. وآخرها قولها : كلا إن السلطان لم يجب بعد . ولكنه سيرد ، وكما تعلمن فإنه يزن قراراته ويتأملها طويلاً .

— ولكن أخيراً ، ماذا قال السلطان للباشا ، تماماً ؟

— لقد قال : إن ابنته ماتزال صغيرة ، وإنه سيفكر .

— أصغيرة ، صبيحة السلطنة ؟ ولكن عمرها لا يقل عن عشرين سنة !

وعندئذٍ خفضت الأميرة صوتها ، ودمدمت تقول :

— يبدو أن السلطان يتردد . ولا شك أن الباشا هو أفضل لواء في جيئتنا ، ولكنه شديد العنف ، ويكثر من الشراب . ثم إنهم يقولون ، إن له آراء تميل به إلى الحكم الجمهوري .

واعترت المجموعة رحفة المدعور .

— أو هو جمهوري ، هذا الروز دور ؟ إن هذا مستحيل ! وعندئذٍ لم تعد الأميرة تتحمل ، فالتفتت إلى حارتها ، لتقول :

— عفواً يا سيدتي ، ولكن من هو هذا الروز دور ؟

— كيف ، يا سلطنة ، ألا تعرفين ! قالت ذلك مندهشة . ولكنه هو اللواء مصطفى كمال !

٧

« الجيش اليوناني يحتل إزمير — وبعد بعض المعارك الدامية ، عاد الهدوء » .

وتنهذ خيرى رؤوف بك ، واسترخى جسمه على مقعد الأكاجو ، ليقول :

— لكن كانت الصحافة الأجنبية هي التي تكتب ذلك ، فيجب أن يكون هذا صحيحاً .

وكمثل الكثيرين من أبناء جيله ، ومحيطه ، كان الداماد شديد الإعجاب بأوروبا ، وليس لديه إلا الازدراء ، لما يسميه « بالتركيات » ، ولا سيما صحافة بلده ، بل إنه لا يقرؤها ، ويكلف من يرسل إليه كل يوم نصف دزينة من الصحف الفرنسية والإنكليزية . إن هذا هو وجهة نظر العدو . فليكن ، ولكنه في رأيه أكثر موضوعية من وجهة نظر الصحف المحلية ، الخاضعة للرقابة . وينسى أن هذه غير مفروضة إلا من قبل المحتلين ، هؤلاء الأوروبيين الذين ما أكثر ما يعجب بهم . وعنده أن هذه تفاصيل ، ذلك أن الاعلام ، في تركيا ، كان دوماً ، على كل حال ، تحت المراقبة ، سواء أكان ذلك خلال السنوات الثلاث والثلاثين من حكم السلطان عبد الحميد ، أو خلال السنوات التسع من ديكتاتورية أنور باشا ، فيما بعد .

أما أن الصحافة في البلاد « الحرة » خاضعة لرقابة في مثل هذه الصرامة ، ولكن برهافة أكبر — من حيث أن الحكومات قد فهمت أن المنع أو البطش ، لم يكونا خطرين فقط ، بل بلا جدوى — فإنه لا يريد أن يفهم ذلك . ويعتبر أنهم نمامون ، أولئك الذين يقولون : إن الديمقراطية قد

أصبحت سيدة من يحسن التلاعب بالأخبار وتزويرها . ففي أوروبا ، على ماتروي هذه العقول الفاسدة ، لا تسجن السلطة مديري الصحف ، بل يدعونهم إلى العشاء ، ويصارحون « بالمشكلات الحقيقية » على أفضل وجه . وعندما « يدللونهم » بهذه الصورة ، فإنهم يصلون في أكثر الأحيان إلى استبقائهم في نوع من الحياد المحايي .

لكن هذه الملاحظات تستفز خيري بك . وعلى فرض أنه صدقها ، فإن هذا لا يغيّر شيئاً من قناعته بأن سلام تركيا ، إنما يمر من باب « تغريبها » . وكثيراً ما يقول : « يجب أن نأخذ من أوروبا ورودها ، ولتذهب الأشواك غير مأسوف عليها » . وهو يجب أن يعلن تعلقه بنظريات الفلاسفة العقلانيين والمثل العليا ، التي أشاعتها الثورة الفرنسية . ولكن إذا كان مستعداً للترخيص للشعب ببعض الحقوق ، فإن من العسير عليه أن يهبها الشعب لنفسه .

ولاحظ وهو يتصفح صحفاً أخرى ، افتتاحية في الصفحة الأولى للصحيفة اليومية الكبيرة « Le Journal » مؤرخة في ١٧/٥/١٩١٩ وإلى جانبها تماماً مقال حول « قضية لاندرو Landru » — لقد اكتشفت الضحية العاشرة ، التي أدخلت إلى القرن — . ثم إن الصحفي Saint Bric ، يحلل نزول الحلفاء على ساحل إزمير ، وينتقده بشدة : « إذ إن الهدنة لا تسمح للحلفاء إلا باتخاذ تدابير متعلقة بالنظام . غير أن الأخبار الأكثر تحيزاً لم تستطع الإشارة إلى أي حادث جدي (...) . وإذن فنحن نجد أنفسنا تجاه عمل سياسي مقرر سلفاً . وأكثر من ذلك أنه عمل سياسي ذو أهمية ضخمة : فاحتلال إزمير ليس إلا حكماً بالموت على السلطنة العثمانية » .

— أية شجاعة ! فالدفاع عن المغلوب ، من قبل صاحب رأي ، ضد حكومته نفسها ، ذلك هو ما يسمى بالحرية ، وما يسمى بالنزعة الإنسانية ! وهذا ما يعجب به خيري بك . مهملاً ، في حماسه ، ملاحظة النتيجة التي انتهى إليها المقال : « إن موت الرجل المريض » يدعنا غير مباليين ، لولا أنه ينذر بنهاية النفوذ الفرنسي في الشرق . وحقاً فماذا ستكون حصتنا إذا نحن حوصرنا بالانتدابيين الهائلين ، لبريطانيا العظمى ، وللولايات المتحدة ؟ » .

ويسمع خيري بك من يقرع باب المكتب قرعاً خفيفاً . ويظهر رأس صغير أحمر من خلال شق الباب .

— ولكن هذه ابنتي الحلوة ! فعلى شرف ماذا، أستحق هذا التكريم. أدخلي إذن.

وعندما يكونان لاثالث لهما، بعيدين عن السلطنة، والخدم، فإنه يخاطبها خطاباً عادياً، بعيداً عن مراسم المراتب. وفي كل مرة، يخفق قلب الصغيرة أكثر، بسبب هذه الإلفة المتواطئ عليها. ويرفعها الأب ليضعها فوق ركبتيه، ويحدّق بها، وفي النظرة شيء من السخر.

— وإذن، فماذا هناك، وماذا تريد أن تطلبي مني هذه المرة؟

وتحتج سلمى. وقد جرحها أن تُحرّر بهذه السرعة، على حين أنها قضت صبيحة اليوم كله في تهيئة مشروع معركتها، وتقول:

— ولكن يا بابا، أؤكد لك...

فينفجر ضاحكاً، بينما كانت تنظر إليه بإعجاب: فكّم هو مختلف عندما يكونان معاً، وكّم هو مرح، دون أي أثر لتلك الهيئة المرهقة، التي يحملها حينها ذهب. وهي تحبه، بسبب هذه السعادة التي تراها فيه عندما يراها. فتحنى رأسها جانباً، وتتخذ سماتها هيئة المداعب الجذاب.

— بابا، كنت تقول البارحة، إن الأطفال في أوروبا يربون بحرية أكبر، وهم بالتالي أفضل استعداداً لمجاهدة الحياة.

فيقطب حاجبيه، ويقول في نفسه: ماذا ستخترع لي أيضاً؟

— بلاريب

وتتابع سلمى قائلة:

— أو لآنحس أن من الضروري لفتاة أن تفهم العالم، الذي تعيش فيه؟

وبعض خيرى بك شفّته. ترى أين التقطت هذه الفكرة. لقد التقطتها، على الأرجح من واحدة من هذه الروايات الفرنسية، التي تراها لدى مريتها، ولا بد أنها حفظتها عن ظهر قلب.

— ولكن يا سلمى، لست بعد بصبية.

فتنظر إليه نظرة اللائم، وتحيب.

— تقول الآنسة روز، إن المهم ليس العمر، بل النضج.

وهذا ما كان يتوقعه . إنها الآنسة روز ، وليس مؤكداً أن هذه الفتاة العانس ، المنزوعة
الدماغ ، هي المريية المثالية . ويجب أن يتحدث بذلك إلى زوجته .

— ولكن لنخلص من هذا إلى الواقع : فماذا تريدان ؟ قال لها هذا وهو مستاء بعض الشيء ،
مستعيداً بالغريزة وضع المتباعد .

فثبتت فيه عينها الكبيرتين المتوسلتين ، وهي تقول :

— إنني أريد أن أصحبكم إلى مظاهرة مسجد السلطان أحمد .

— إلى

وكاد خيري بك أن يخنق .

— ولكنك مجنونة ! سيكون هنالك عشرات الألوف من الناس ، من كل الأنواع ، سينهقون
ما الله به عليهم . لن تذهبي إذن وأنا كذلك . فليس لدي أية نية في الاختلاط بهذا النوع من البشر .
فامتلاأت عينا سلمى بالدموع .

— ولكن ، يا بابا . إنها مسألة هذه المذابح الخيفة في إزمير . ويقول زينيل ، إنه يجب أن نفعل
شيئاً ما .

— زينيل يقول ... ؟ آه ، برافو ! إن هذه الطفلة تصغي إلى الخدم أكثر مما تصغي إلى أهلها ،
على ما يبدو . وأنا أريد أن أعرف ما تقوله السلطانة أمك ، في هذا الأمر ؟

— أيندجيم ، لقد خرجت ...

— من المؤكد إذن أنك انتظرت خروجها ، لكي تأتي لتطليبي مني هذا — ويتلثم فلا يجد
الكلمات المسعفة — الطلب اللا معقول .

— ولكن بم هو غير معقول ، يا صهري العزيز ؟

وكانت فاطمة السلطانة — الأخت الصغرى للديجة ، تقف على العتبة ، مصحوبة بخصي .
ومنذ بضع لحظات كان هذا الأخير يحاول عبثاً إثارة انتباه الداماد ، لكي يعلمه بهذه الزائرة . فلقد
مرت السلطانة على غير ميعاد ، لكي ترى أختها ، ولما لم تجدها ، سألت عن ابنة أختها .

وصرحت قائلة :

— كنت أفكر أنا نفسي بالمشاركة في هذه المظاهرة في عربة مغلقة ، ولن ننزل منها ، بطبيعة الحال . ففي أيام هذه المحنة ، أراي ميالة إلى .. بل إني بحاجة إلى الذهاب لأصلي مع شعبي ، ذلك أن هذه مظاهرة دبية .

فنهض خيري بك ، حالاً ، وانحنى لرائته . وكان ثائراً لأنه فوجئ وهو غاضب . بل إنه لم يعد يعرف أبداً ، لِمَ فارق سكينته المعهودة له . أفيكون ذلك لأنه أراد أن يؤكد سلطته على الطفلة ؟ أم لأنه ساءه أن يكون الاستيلاء على إزمير قد أثر فيها أكثر مما أثر فيه .

ولكن بمقدار ما كان الأمر يعني أن نصلي وندعو ، فإن القضية أصبحت من شأن النساء . وفي وسعه ألا يرى أنه معنيٌّ .

— ولكن هل أنت واثقة ، ياسلطانة ، أن هذه المظاهرة ستكون صلوات وأدعية ، وليست واحدة من هذه المظاهرات التي لا يمكن ضبطها ؟

— إني متأكدة ياداماد ، فقد اتخذت كل التدابير .

فيهز رأسه ، غير مقتنع .

— حسناً ، ستأخذين الطفلة . ولكن لكي نزيد من الاطمئنان ، خذي معك زنبيل أيضاً . فلا يعرف المرء أبداً مع هذه الجماهير غير المثقفة ، ماذا يمكن أن يحدث . إذ لسنّا في فرنسا !

ومسجد السلطان أحمد ، الذي يسمى « بالمسجد الأزرق » ، لأنه مستور الجدران بالخزف الزوردي ، إنما يقوم في وسط المدينة القديمة ، قريباً من قصر توبوكاي . ولا بد للوصول إليه من المرور بمتاهة من الأزقة الصاخبة ، المملأى بحوانيت لأصحاب الصناعات ، ودكاكين ، ومقاه مملأى بروادها من الصباح حتى المساء .

ولكن في يوم الجمعة هذا ، كان يخيم على الناس نوع من صمت الأموات . فالخازن مغلقة ، والنوافذ محجوبة . وفي كل مكان يخفق العلم العثماني . والسواري مغلقة بالسواد . وتتقاطر الجموع من كل زقاق . وتتجمع كلها في موكب طويل يتقدم ببطء ، ووقار ، ضارباً الأرض بقدم عتيقة ، جادة . وترى في الموكب أناساً من كل الأعمار ، ومنهم الكهول الذين يمشون بعناء ، ومنهم رجال نشيطون ، قد احمرّت عيونهم من كثرة البكاء . وهناك أيضاً جنود ، من مشوهي الحرب ، ممتلئو الصدور

بالأونمة ، لا يكادون يجسسون دموعهم إلا بعناء . ثم إن أطفال المدارس ، بكامل الصفوف ، وضعوا على سواعدهم شريطة سوداء ، وعليها كلمة لإزمير ، مكتوبة باللون الأخضر . فهناك النساء ، بصورة خاصة اللواتي يلزمن البيت عادة ، ولكن في هذه المرة خرجن بالألوف . وكثيرات منهن رفعن الحجاب . وهن يمشين ، شاحبات اللون . والعيون تلمع بالتحدي .

وفجأة تظهر طائرات بريطانية ، تطير على بعد قليل من سطوح البيوت ، لكي تخيف الجماهير . ولكن عبثاً . فما من رجفة ، ولا من خوف ، بل كل ما هنالك بعض بسمات الاحتقار ، وكأن الناس يقولون : فلتقتلنا هذه الطائرات . وأية أهمية لذلك ، إذا كانت بلادنا تدخل في مرحلة النزاع !

وفي وسع الإنسان أن يلاحظ الحقد في العيون . ولكن الذي يلاحظ أكثر ، هو اللا فهم ، واليأس الذي يشعر به الإنسان عندما يتخلى عنه الناس جميعاً . فلقد خان القوم أولئك الذين كانوا قد وثقوا بهم . فلم هذه الهجمات ؟ إذ لقد انتهت الحرب منذ سبعة أشهر ، ووقعت تركيا على اتفاق الهدنة ، وسلمت السلاح ، وسرحت الجيش . وهي تنتظر ، « صابرة » ، أن يقرر المنتصرون في باريس أو لندن مصيرها .

أما السلطنة العثمانية ، فإن من المعروف أنها لم تعد موضع بحث : فلقد فقدت ممتلكاتها الأوروبية ، في البلقان ، وكذلك فقدت ليبيا ، والشرق الأدنى . ذلك أن الأشقاء المسلمين الذين عقدوا الأمل عليهم ، قد تخلوا عنا . وبدلاً من أن ينضم حسين إلى السلطان مليكه ، فإن شريف مكة العجوز هذا ، رفع لواء التمرد ، منحازاً ضد الباب العالي ، إلى طرف الإنكليز الذين وعدوه بإنشاء مملكة له .

ولقد كانت الكارثة كاملة . وكفت سبع سنوات للقضاء على أمبراطورية أسست خلال سبعة قرون .

« ويقول الناس الأمل إلى الفلسفة ، إن هذا ، أخيراً ، ليس إلا عودة سليمة إلى طبيعة الأشياء . فهذه الشعوب التي ملكنا عليها أمرها ، تستعيد الآن حريتها . أو هي تعتقد ذلك على الأقل . ذلك أن الانتداب الفرنسي ، والإنكليزي ، والإيطالي ، لن تكون أرحم من السلطة العثمانية المسائرة ، في استامبول . وستعرف ذلك عما قريب » .

ويتقبل الأتراك ، بشيء من الخضوع للقدر ، فقدانهم أمبراطورية بهذا الحجم ، هي خليط له من العادات والأعراف والمعتقدات ، ما يجعله غريباً عن الأتراك . ولكن الذي لا يحتملونه ، وهذا الذي

يجد الشعب أنه مستعد للحرب من أجله حتى الموت، هو ذلك العدوان على سلامة أرضهم نفسها؛ أي الأرض التركية، تلك الأرض المسكونة، والمزروعة، والمبنية من قبل الأتراك أنفسهم؛ أي من قبل فلاحي الأناضول الجفافة، أحفاد القبائل البدوية الكبيرة التي أتت من آسيا الوسطى في القرن التاسع.

أما الحلفاء الذين أسكرهم نصرهم، فقد أساءوا تقدير قوة المقاومة لهذا الشعب، الذي اختلط عليه أمره: وظنوا أن كل شيء مسموح لهم. وفي الواقع فإن لويد جورج، الوزير الأول، البريطاني، هو الذي قبل، خلافاً للفرنسيين والطلليان، مطالب الحكومة الإغريقية. وسمح لها بالاستيلاء على إزمير. والحقيقة أن إنكلترا تريد أن تشد اليونان إليها، لكي تجعل منها قاعدة أمنية في وسط هذا العالم الإسلامي، الذي لا يمكن التنبؤ بما سيصدر عنه، والذي يخفي، فيما يقال، ثروات نفطية ضخمة، كما أنه يفصل هذه البريطانية عن ممتلكاتها في الهند، جوهرتها المكنونة.

لكن العربية لا تتقدم، وتقرر السلطنة فطمة، أن تمشي هي وابنة أختها على الأقدام، مصحوبتين بزينيل. وقبلت سلمى فوراً، بفرح. فهي تخجل من أن تبقى قاعدة تشاهد كل هؤلاء الناس الذين يمشون، ويمشون، كما لو أن عليهم ألا يقفوا، وكما لو أنهم كانوا يستعدون إلى الذهاب، الآن، ومن هنا، إلى استعادة إزمير.

وأخيراً يصلون إلى مسجد السلطان أحمد، الذي بدا أسود من كثرة الناس. ولكن أحداً لا يسمع صوتاً، ولا ضجة — فيما عدا خفقان الأعلام في الهواء.

وفجأة، ومن علياء مآذن المسجد الأزرق، كان الأئمة في لباسهم الأسود يطلقون الدعوة إلى الصلاة: «الله أكبر». وعندئذ، يعود إليهم الأذان من الهضبات السبع، كما لو أنه الصدى: «الله أكبر». وكان ذلك كما لو أن سماء استامبول، قد اهتزت، فجأة، والتهبت بالصلاة وكررت معات الألوف من الصدور المخنوقة كلمة «الله أكبر»، إرحمنا يارب، تكراراً مخنوقاً بشهقات البكاء!

ولم تعد سلمى ترى شيئاً. كانت الدموع تجري على خديها. وتكاد تختنق. أمن التعاسة، أم من السعادة؟ إنها لا تدري. فما من مرة قبل الآن شعرت بمثل هذا الاضطراب العميق في صدرها. وكأنما شعرت أنها لم تعد سلمى مطلقاً، بل هي جزء من هذا الجمهور الذي تحس أنها تنصهر فيه، وتتفجر، وتموت. ومع ذلك فإنها تحس بأنها أكثر حيوية من أي يوم مضى.

ووقفت سيدة نخيلة شابة على منصة ، ارتجلت ارتجالاً . وتنظر إليها سلمى كما لو أنها في حلم . وهي لا تضع حجاباً ، ولكنها ترتدي ثوباً أسود . وبصوت منفعل ، بدأت بإعادة ذكرى إزمير إلى الأذهان ، إزمير ، تلك المدينة الهادئة والمختصرة ، حيث عاش الأغارقة والأتراك ، قروناً وقروناً ، في أحسن التفاهم ، رغم اختلافهم بعضهم عن بعض . وكان لا بد من هذه الحرب ، على ما تقول ، ومن مؤامرات الأجنبي ، لكي يقوم كل من هذين الطرفين ضد الآخر .

— وإنه لسهل جداً على المحرضين أن يوججوا الأهواء ! يكفي أن نخرق كنيسة ، أو أن نقتل مسلماً ، وفي الحال تعود المخاوف المتوارثة . والأحقاد القديمة ، التي كان الناس يظنون أنها تُسييت ، بقوة مخيفة ، أما أولئك الذين يفهمون المناورة ، ويحاولون تجنب المأساة ، فإنهم لا ينجحون في إسماع صوتهم ، وينتهون إلى إغلاق أفواههم ، خوفاً من أن يتهموا بالجبن والخيانة .

« فاعلموا ، يا أصدقائي ، أن الاستيلاء على إزمير ليس إلا بداية تقسيم بلادنا تركيا . فالإغريقي فينيزيلوس ، يطالب بكل البلاد التي تحيط ببحر إيجه ، وكل جزرنا ، وحتى بعاصمتنا استامبول . فماذا سيبقى لنا من بلادنا ؟ أبعض الأراضي الصحراوية في وسط الأناضول ، أم مجرد محافظة مراقبة من كل الأطراف : أو قل لا شيء ! »

« ترى أنحنى الهامة ؟ يا أخواتي ، ويا إخوتي ؟ أجيبوني : أنقبل هذا النوع من القتل ؟ » .

ومدّت ، وهي محطمة من الأسى ، يديها نحو الجمهور اللاهث . فإذا نحن أمام زجرة واسعة . كأنها الرعد القاصف المتتابع . وإذا بأغنية عميقة تنطلق من طرف الساحة إلى طرفها الآخر : « كلا ، كلا ، لن نقبل ، وسننقذك ، يا تركيا الجميلة ، يا تركيا الحبيبة ، يا تركيا ، خطيبتنا الصغيرة ، يا تركيا ذات الأنداء الملأى بحليب أمنا ، تركيا ، طفلتنا الضعيفة اليوم ، ونقسم لك على هذا ولن ندعك أبداً تموتين » .

— وتسأل سلمى ، وعيناها حمراوان من البكاء ، داخل العربة التي تنقلهم إلى القصر : ترى من هي هذه السيدة .

وتجيبها خالتها قائلة :

— إنها خالدة أديب الكبيرة ، وهي كاتبة شهيرة ومتحمسة ، ومدافعة عن حقوق المرأة . فكم عرفت كعب تهز هذا الجمهور . وكم هو مؤسف أن يكون لدينا القليل من الرجال مثلها !

وقطبت النية الصغيرة، حاجبها وهي منطوية على نفسها. وهكذا كانت امرأة
تستطيع... وقليلًا قليلًا تألق وجهها. إنها ستكون على هذا النحو فيما بعد. فبالدها، وشعبها،
إنما تعيش هي من أجلهما.
وعرفت سلمى هواها.

— ٨ —

وعندما عادت سلمى من المظاهرة، تلاقت مع أخيها خيرى . فتخبره، وعليها سمات
الجدية :

— لقد تقرّر ، أن نمضي جميعاً إلى الحرب ، حتى النساء والأطفال .

— فيفتح خيرى عينيه بقوة ، إذ ليست لديه أية رغبة في الحرب . ولكنه مع ذلك لا يقبل ذلك
أمام بنت . ويتخذ سمات من لا يهتم بالأمر أبداً ، ويسأل :

— متى سنسافر ؟

— اسكت . فما لإنسان أن يعرف ذلك . إذ إن السلطان يناقش هذا الأمر مع وزرائه ..

ولا تحسب سلمى أنها تكذب ، بل هي تستبق الأمور قليلاً . إذ يبدو لها بديهياً ، بعد ما رآته
في ساحة السلطان أحمد ، أن الأتراك سيمضون إلى استعادة إزمير . وليست المسألة إلا مسألة أيام .
ومضت بعزم ، لتسبق خيرى وتصل إلى أبيها ، حتى تنقل له الخبر .

وكان الداماد مستقراً في القاعة الأمبراطورية ، حيث يستقبل بعض الأصدقاء ، وبعض زملائه
من وزارتي الخارجية والمالية . فيستقبلون سلمى استقبالاً باشاً ، وهم يعرفونها جميعاً . فهي كثيراً

ما تنطلق إلى جناح خيرى بك . ذلك أنها ما تزال أصغر مما يجب لكي تخضع لسجن الحرى .
فيخاطبها أبوها قائلاً :

— وإذن ، أيتها الأنسة الوطنية . كيف كانت هذه المظاهرة ؟

ولما كانت تعي النظرات المثبتة عليها ، فإنها بدأت تروي ما حدث بكل عناية ، دون أن تهمل
أي شيء من التفاصيل . وعندما وصلت إلى حديث خالدة أديب ودعوتها إلى النضال ، بدأ هؤلاء
السادة يضحكون .

— وفيما تتدخل هذه المطالبة بحق الانتخاب للمرأة ؟

— وهل طلبت إلى النساء أن يذهبن إلى الجبهة بالحجاب ، أو بغير الحجاب ؟

فسكتت سلمى ، مجروحة . ولكن الحاضرين لم يعودوا ينتهبون إليها ، وعاد القوم إلى الحديث
فيما كانوا فيه من قبل .

— إذا أنا قلت لكم ان الشعب بلغ أشد الإرهاق ! وإنه لن يمضي أبداً ليحارب ؟ أو تعرفون
كم كان عدد الهاربين من الجيش في تموز / يوليو / عام ١٩١٨ . كان خمسمئة ألف . ولا يمكن لوم
هؤلاء ، لأنهم كانوا يموتون من الجوع والأمراض . ولم يكن لديهم لا أحذية ولا ذخائر . وليس الموقف
الآن بأفضل مما كان . فلقد تلفت المحاصيل على أرضها . والجماعة قائمة في كل مكان . وصدقوني
أن الشيء المهم ليس أن نلعب دور دون كيشوت ، لكي نحاول استرداد إزمير ، بل هو فلاحه
الحقول . فإذا لم يحدث هذا ، فإن من المؤكد أنه لن يكون هنالك تركيا غداً .

— ويجب الاعتراف بأننا أسأنا الاختيار . قال هذا ديلوماسي ، أنيق جداً في « بونجويه »
الريدنجوت الرمادي اللؤلؤي على ما تقضي به « الموضة » . بيد أن الألمان كانوا يظهرون بمظهر من
لا يُغلب ! وأخيراً ، فإنه لم يبق لنا الآن إلا محاولة التفاوض للوصول إلى أفضل معاهدة سلام ،
ممكنة . أما العودة إلى حمل السلاح ، فذلك أحلام . والشجاعة الحقيقية هي أن نكون واقعيين .

وتنتبه سلمى إلى كل ما يقال . ومن يعرف أوضاع البلاد أكثر من أبيها ، ومن أصدقائه . بيد
أن الجماهير المتحمسة التي رأتها بعد ظهر ذلك اليوم ، كانت تريد أن تحارب .

ولم تعد هذه البنية تفهم شيئاً . وتشعر فجأة بأنها متعبة .

وهاهي تلتف على نفسها في مقعدها . أما ضجيج المحادثة فإنه لم يعد يصل إليها إلا من خلال الصخب الغامض لجمهور كان يردد القول : « إزمير ! الله أكبر ! » .

ولكنها شُدت فجأة من نعاسها بصوت أجش . ذلك أن رحلاً قصيراً ، أقرب إلى السمعة ، كان قد وصل لتوه . وسأل الحاضرين .

— هل تعرفون آخر خبر ؟ إن جلالته قد أرسل مصطفى كمال إلى الأناضول .

فتفتتح سلمى عينها جيداً ، وكانت الدهشة تقرأ على كل الوجوه .

— إلى الأناضول ؟ ولكن لماذا ؟ هكذا سأل الحاضرون .

— أما من الوجهة الرسمية ، فقد تم ذلك لتهدئة الأقسام الداخلية من البلاد . فمنذ نهاية الحرب ، كان الناس يتقاتلون كثيراً هناك ، أو بتعبير آخر ، كانت عصابات النهب تتكاثر . ثم إن المواطنين من ذوي الأصل الإغريقي ، الذين ترك لهم المحتل أسلحتهم ، يفرضون إتاوات على القرى التركية ، والجنود الأتراك الذين شكلوا العصابات ، يفرضون الإتاوات على القرى الإغريقية . وأكثر من ذلك أن الجنرال كره بكير ، صديقك — وأشار بغمزة إلى ضابط شاب — مجنون تماماً . إنه يتجاهل الهدنة ، ويأبى أن يُسرَّح جنوده ، وأقام مقر قيادته في ارطروم ، ومعه ست فرق ! وقد انضم إليه بعض الجبلين ، وكذلك بعض أنصار أنور باشا وطلعت . والحلاصة ، إن الإنكليز غاضبون ، وهم يهددون بإرسال جيوشهم لإعادة النظام .

وهتف أحدهم قائلاً :

— أترى هؤلاء الإنكليز في جبال الأناضول . إن أتراكنا ، سيأكلونهم بلقمة واحدة !

وتابع السيد القصير ، الذي هو موظف في وزارة الدفاع ، حديثه ، فقال :

— إن السلطان يخشى أن يدخل الإنكليز إلى داخل البلاد ، فلا يخرجون بعد ذلك منها . ولهذا فقد تعهّد هو بإعادة البلاد إلى السلم . وباعتباره خليفة المسلمين — ذلك أنه لم يعد رئيس الدولة إلا باللقب — فقد وعد الإنكليز بأن يقضي على الفوضى .

ويُعرب السادة الحضور عن شكوكهم .

— ولكن هل الإنكليز موافقون ؟

— إهم يريدونه أن يحاول . وليست لهم أية رغبة في قتل جنودهم . ففي إنكلترا سيكون هذا سيء الأثر على الناس ، ذلك أن الحرب انتهت !

ومنذ أن دار الحديث حول مصطفى كمال ، هذا الروز دور الذي يحمل الأميرات على الحلم به ، فإن سلمى استيقظت كل البقطة . وهي الآن تتابع المحادثة بكل انتباهها .

ويسأل خيرى بك : ما هي صلاحيات مصطفى كمال .

— إن السلطان عبّنه مفتشاً عاماً للمنطقة الشمالية ، وحاكماً للولايات الشمالية . وله صلاحيات غير محدّدة بدقة ، ولكنها بحكم ذلك يمكن أن تكون واسعة جداً . وهذا اختيار حسن . فهو بلا ريب ، بحكم سمعته كبطل ، الشخص الوحيد الذي يستطيع فرض احترام مقررات العاصمة .

وقاطعه رجل صاحب اللون ، هو موظف كبير في القصر ، كان حتى الآن يبدو عازفاً عن المشاركة في الحديث ، قائلاً :

— يا عزيزي ، إنك رجل ساذج . إن هذا أسوأ اختيار كان يمكن أن يقوم به جلّالته . وعندما قدما له قائمة الجنرالات القادرين على السفر إلى الأناضول ، أوضحنا له أن كمال رجل طموح وماهر ، وأنه بدلاً من الانقياد للأوامر ، فقد يقف ، بالعكس ، على رأس التمرد . وأصر السلطان على اختياره .

— وهذا بدقة ما يخشاه الإنكليز ، على ما اعترف به السيد الذي يعمل في وزارة الدفاع . فالقائد الرئيسي ، الجنرال مَيْلس غاضب . وقد وقّع على تعيين مصطفى كمال معاونه ، لأنه كان في مهمة خارج العاصمة . وعندما عاد ، حاول إلغائه ، لكن كمال كان قد سافر . وتصوّر أن الجنرال أرسل وراءه طوربيدات ؛ أي هذه السفن الحربية السريعة جداً . ولكن كان ذلك بعد أن فات الأوان . وطار العصفور بعيداً !

وانفجر الجميع ضاحكين للعبة الحلوة ، التي لعبت على هؤلاء الإنكليز العظماء .

وقال الرجل الشاحب اللون :

— فيما بيننا ، يا محمد بك ، هل تحسب أن جلّالته عهد لمصطفى كمال بمهمة أخرى غير

تهدئة المنطقة؟ إن ذلك مخاطرة كبيرة : وتذكر أن المادة ٦ من الهدنة تقرر أنه في حالة التمرد ، يستطيع المحتل أن يستولي على استامبول نهائياً ، وبقصي على السلطنة .

ويتنهد محمد بك ، ويقول :

— من يعرف بماذا يفكر السلطان . إنه شديد الكتمان للأسرار ! وكل ما أستطيع نفيه إليك هو كلماته الأخيرة لكمال . وهي نفس الكلمات التي فاهها لي أول مرافقيه العسكريين . وكان ذلك في نفس اليوم الذي احتلت فيه إزمير : « ياباشا ، أنت قمت حتى الآن بخدمات كبيرة للدولة . ولكن إنس ذلك كله . إن هذا من التاريخ الماضي . أما الخدمات التي ستقوم بها الآن ، فهي أعظم من كل الباقي . ياباشا ، إنك تستطيع إنقاذ البلاد^(١) » .

وقطب الضابط حاجبيه .

— ماذا يعني ذلك : « يمكنك إنقاذ البلاد » ؟ إنه يمكن تفسير هذه الكلمات بصورتين : أولاهما هدىء المنطقة أنت نفسك ، حتى لا يتدخل المحتل . أو : إجمع القوى التي تجدها في الأناضول ، وقم أنت على رأس حركة المقاومة .

— الحقيقة ، وسط بين التأويلين ، كما هي الحال في كل الأشياء . وإن لي الشرف بأن يكون طبيب أسناني هو طبيب أسنان جلالته ، الذي يحب ، بعد جلسة التطبيب ، أن يتناقش مع هذا الجلاد المعجوز . حسناً ، فهل تعرف ماذا يقول : « باشا الأسنان » ؟ إنه يرى أن جلالته يضع حديدتين في النار . فمن جهة أولى ، تراه ييدي أكثر المرونة تجاه المحتل ، آملاً أن يحصل على أفضل معاهدة صلح ممكنة ، ومن الجهة الأخرى ، لا يكون ضد قيام التمرد في الأناضول . ولهذا اختار بين عدد كبير من الجنرالات الأكفاء ، مصطفى كمال باشا . فجلالته يريد أن يبرهن للمحتلين بأن الشعب التركي ليس بين أيديهم كلياً . وليس بالذي يقبل أن تفرض عليه الشروط كيفما كانت . فإذا اتسعت الاضطرابات في الأناضول ، فستكون دعماً ثميناً في مفاوضات الصلح .

ويسأل موظف المالية ساخراً :

— وعصب الحرب ؟ إن تنظيم أية مقاومة ، مهما تكن متواضعة ، يحتاج إلى المال . وأنا حيث

(١) انظر اللورد كينروس : آتاتورك .

ينبغي لكي أعرف أن صناديقنا فارغة . فمنذ أشهر لا يتقاضى موظفو الدولة إلا نصف ، وأحياناً ثلث أجورهم !

ويشير محمد بك ، بلهجة من يريد أن يقول سراً :

— يقال إن كمال قد حصل على مبلغ هام من الليرات الذهبية . بل إن الجنرال مَيْلن قد دُهِش بذلك ، عندما لاحظ أن تركيا على حافة الإفلاس . وهو يريد ويحرص على أن يعرف من أين جاء هذا المبلغ . ويقال في البلاط — وليس لدي أي برهان على صحة ما يقال — أن حلالته باع ، سراً ، كل ما لديه من أحصنة عريقة ، كي يستطيع أن يقدم لكمال ٥٠.٠٠٠ ليرة ذهبية .

وفي هذا المجلس يُتساقى الكونيك ، على حين أن خادماً ، يرتدي قفطاناً أزرق طويلاً ، يمر على الحاضرين بما معه من « السيفار » وكل من هؤلاء يشرد في أحلامه . فالمغامرة محفوفة بالخطر ، حقاً ، ولكنها تستحق أن تجرّب ، حتى ولو لم يكن لها من نتيجة أخرى ، غير رؤية ما سيكون عليه وجه الجنرال مَيْلن ، التي لم تعد عجرفته محتملة . وفجأة ينتصب ذلك السيّد ، ذو « البونجور » الرمادي اللؤلؤي ، ليقول :

— ولكن إذا كان كمال قد سافر إلى الأناضول ، فماذا عن أمر مشروع الزواج مع صبيحة السلطنة ؟

ويجب الداماد ، وهو يتسم ابتسامة ناعمة .

— آه ، الزواج ... حسناً ، إن السلطان لم يقل ، لا ، ولكن صدقوني لن يقول أبداً : نعم . والحقيقة أنه لا يفكر بإعطاء ابنته المفضلة ، لرجل مغرم ، بهذه الدرجة ، بالخمر ، والنساء ، لا سيما وأنه أسرّ إلى أقرب الناس إليه ، بأنه لا شيء في العالم يحمله على قبول أنور باشا ثانٍ ، يفرض عليه سياسته .

وتفكر سلمى وهي تعود إلى غرفتها وتقول : « مسكين هذا الـروز دور » الوردة الذهبية ! وأنا الذي كنت آمل أن يصبح عضواً في الأسرة » .

وظلت تفكر ، وهي تعد أصابعها . فخلال خمس سنوات أو ست ، ستكون في عمر تصلح فيه للزواج ... ولماذا لا يكون ... ؟ وفجأة يظهر لها فاسيب Vassip ابن عمها ، الذي طالما حلمت بالزواج منه ، تافهاً . أما الـروز دور ، فإنه أكثر إغراءً بما لا يقاس ! لا سيما وأنه جنرال كبير ، بطل .

وستساعده ، وسيدفعان بالعدو إلى خارج تركيا . وسوف تنظم النساء ، وستكون خالدة أديب
ثانية !

ونامت سلمى ، تلك الليلة والابتسامة ملء شفيتها .

إن أروع الإماء اللواتي يزيّن قصر خديجة، هي غولفيليس، بلا منازع. فهي ناعمة، ممشوقة القوام، صدرها عال. فإذا رأيتهَا، بشعرها الذي يشبه لونه لون الحنطة الناضجة، وعينيها الكبيرتين بلون العنقية Pervenche^(١)، رأيت التمثال المفضل للجمال الشرقي.

وكانت يتيمة في عمر الثامنة، عندما اشتراها أحد التجار، الذي كان يقدّر أنه سيبيعها للقصر بسعر عال جداً. وكان يرى أنها خلال بضع سنوات ستصبح واحدة من نفائس الحريم. ولكنه قدّر ما قدّر دون أن يضع في حسابه ثورة ١٩٠٩. فعندما خلع السلطان عبد الحميد عن العرش، وحلّ أخوه من أبيه رشاد محله، فإن الملكية المطلقة، أصبحت ملكية دستورية. وكان بين أوائل الإصلاحات المعلنة على يد رجال تركيا الفتاة، الذين كانوا يحرصون على الحداثة، إلغاء العبودية.

ففتحوا أبواب الحريم، وأعلنوا، في كل أنحاء الأمبراطورية، أن في وسع العائلات أن تأتي لتبحث عن بناتها وأخواتها. وقلائل هم الذين تقدموا. ولكن عدداً قليلاً جداً من النساء الشابات، وافق على ترك ظل القصور المذهب، لكي يستعيد حرية بيت الفلاح المتواضع. ولما كن قد تعودن على الحياة الرفيعة المستوى، والمؤنقة، فإنهن كن يرتجفن إذا واجهتهن فكرة العمل، والحياة البلدية العامية التي تنتظرهن هناك.

(١) جنس رهر من الفصيلة الدفلية.

وخلال بضعة أشهر ، وقبل أن تعود الأشياء إلى مجراها الطبيعي ، كانت نقابة باعة الإماء ، قلقة جداً . وبولانت آغا ، سيد غولفيليس ، فضل المفاوضة السرية ، على المغامرة بالاتصال المباشر بالقصر .

وكان يعرف الخصى الأول لبنت السلطان مراد الكبرى ، تلك التي تزوجت حديثاً ، واستقرت في قصرها الجديد . وسرعان ما تمت الصفقة ، وكل من الرجلين كان مقتنعاً بأنه يقدم خدمة عظيمة إلى اليتيمة .

وهكذا دخلت غولفيليس في حاشية خديجة السلطنة . وكانت أجمل من أن يفكر أحد بتعليمها فن الخدمة المنزلية ، أو بإيذاء عينيها بتعليمها الحساب . وقررت رئيسة الكالافات الكبرى أن تُعلّم الموسيقى والغناء ، وكذلك فن تنسيق الزهر . وشيئاً فشيئاً أصبحت خبيرة بتنسيق باقات كانت تفرح القصر كله ، وكسبت واحداً من أهم المقاعد في أوركسترا الحرملك ، ذلك أنها كانت تعزف بالقيثارة . وعندما بلغت السابعة عشرة من العمر أصبحت أجمل مما كان يتوقعه التاجر العجوز .

وكانت السلطنة التي كانت تؤثرها على غيرها ، كثيراً ما تراها تفكر : لمن دخلت في خدمة جلالته ، فيمكن أن تصبح إحدى محظياته ، ومن يدرى ؟ فقد تصبح زوجة له . ولكنها تستطيع أيضاً أن تبدد في ذلك شبابها ، دون أن تُختار . ذلك أن السلطان كان قد أصبح كبير العمر ، وفي هذه الأيام ، كان ما يشغله هو السياسة ، لا النساء . ولكن بقاءها هنا ، في هذا العالم ، النسوي حصراً ، كان إهانة للطبيعة . ومن الطبيعي مخلوقة في مثل هذه الروعة ، والتي أحسن خلقها للحب ، أن تجني ثماره . وعلى ذلك فقد كان يجب أن يبحث لها عن زوج .

وذات يوم ، عندما كانت تخرج من غرفتها ، اصطدمت سلمى بغولفيليس وهي غارقة في الدموع . فأقلقها ذلك ، وألحت عليها بالأسئلة ، ولكن الأمة الصبية ، المتعثرة باليأس ، عاجزة من الكلام . فانتبهت البنية إلى الجلوس بجانبها وأخذت يدها . وعندما هدأت غولفيليس شيئاً فشيئاً ، مسحت دموعها ، وقالت :

— إن السلطنة تريد أن تزوجني ، بلهجة حزينة بائسة .

وتذكرت سلمى القصص الحزينة التي كانت ترويها لها مرضعتها ، فغامرت بالسؤال :

— لعله كهل وقميء؟

— كلا، إن عمره لا يزيد على الثلاثين، وهو وسيم، لقد رأيته من وراء المشربيات.

وعندئذ لم تعد تفهم الصغيرة. وقالت لها، مشفقة

— لا بد إذن أنه فقير جداً؟

— كلا. إنه غني، وله وضع جيد في وزارة المالية، بل إن الداماد أباك هو الذي أشار به على السلطانة، ولكن...

وعادت تبكي، وقالت:

— لا أريد أن أتزوج. فهنا بيتي، وأسرتي. فلم أتركها لأمضي إلى رجل غريب؟

فتأثرت سلمى من قولها هذا، وأحاطتها بذراعيها.

— لا تحزني يا غولفيليس. فأنا سأقول هذا لأيندجيم. وأنا واثقة أنها لا تريد أن تسبب لك ما يحزنك.

وكفارس يمضي ليحارب من أجل حسنائه، مضت البنية إلى أجنحة السلطانة.

ولم تكن السلطانة وحدها. فأمامها، على السجادة ذات الزخارف الزهرية، يرى ميميبيان آغا، الصائغ الأرمني، وهو جالس القرفصاء وسط علب للمجوهرات من الخمل، من مختلف المقاييس.

فتناديها أمها وتقول:

— تعالي ساعديني يا سلمى

وسلمى تحب المجوهرات حباً جماً. فتقترب منها، وعيناها متألفتان، وتقرر أن تؤجل الحديث عن غولفيليس إلى وقت آخر.

فتقول لها أمها:

— إلي في سبيلي إلى اختيار هدية لصبيحة السلطانة. إذ قد حُدد أخيراً موعد زواجها.

وسعدت سلمى بهذا النبأ، لأنها شديدة الحب لهذه القرية، الشابة. ولكنها تتساءل عما سيكون رأي مصطفى كمال الذي يقاتل في الأناضول. ذلك أنه ليس هو الزوج المختار، بل هو خلافاً لكل التقاليد، ابن عم لصبيحة؛ أي أمير عثماني.

ولقد أقامت هذه القصة القصر وأقعدته: والقضية، بما هي فضيحة ومتع، قضية حب. والأمير عمر فاروق من أكثر رجال الأمبراطورية إغراءً. فهو طويل القامة، أشقر، بوجه ناعم وحازم، وعينين زرقاوين مشدودتين إلى الصدغين. وله هيئة وأناقة يحاول عبثاً أن يقلدها كل شباب المجتمع الراقي. وكان ضابطاً من الحرس الأمبراطوري، لملك بروسيا، حليف تركيا. ولقد قضى مدة الحرب في ألمانيا على الجبهة الغربية. وعندما عاد إلى استامبول، عيّن مرافقاً عسكرياً للسلطان، وهكذا تعرّف إلى صبيحة الجميلة.

وكان ذلك مفاجأة سريعة. ذلك أن عمر فاروق ليس رجل التدابير الوسطى، فصرح لأبيه أنه سيتزوج هذه الفتاة، أو أنه سينتحر. وكان كل من حوله يعرف أنه سيفعل.

ولكن السلطان لم يكن موافقاً على هذا الزواج. لأنه يقلب القاعدة التي تقضي بأنه لا يتزوج أعضاء الأسرة العثمانية فيما بينهم. وقد أصبحت هذه القاعدة معمولاً بها في القرون السابقة، بعد ملاحظة الانحطاط، الذي أصاب الأسر المالكة في أوروبا. وبصورة خاصة، لأن فرعي الأسرة لم يكونا على ما ينبغي من الود منذ مات السلطان عبد العزيز، الذي يؤكد أولاده أنه قتل خلصة، بمؤامرة من فرع السلطان عبد المجيد. وهكذا فإن هوى عمر بصبيحة، كاد يصبح درامة مونتيجو — كابوليه، على الصورة التركية.

ولقد انتظر البلاط شهرين، بقلق بالغ، قرار السلطان. وتناسى الأمير عبد المجيد، الذي لا ولد له غير عمر فاروق، تناسى كرامته وأحقاده، وأكثر من زياراته للقصر. وأخيراً فإن السلطان تسامح مع ابنته، لأنه كان يريد سعادتها. وكان يفكر فوق ذلك أن الأحوال الصعبة، التي تمر بها الأسرة الحاكمة تقتضي منها الاتحاد. وبطبيعة الحال فإن زواج فاروق بصبيحة سيضع حداً لخصومة مضي عليها أكثر من أربعين سنة.

وكانت سلمى الجالسة وسط هذه المجوهرات، التي تعرفها جيداً، لأنها طالما رأتها على أمها، مترددة في اختيارها: فهي تريد لصبيحة، أجمل الحلي، ولكنها تعرف أيضاً أن الفتاة لا تحب الحلي الثقيلة الأثيرة لدى من هن أكبر سناً. وانتهت أخيراً باختيار عقد من الزمرد على شكل النفل ذي

الأربع وريقات ، تناثرت فيه قطع من الماس تصوّر حبات الندى ، ومعه إكليل ، وحلق ، وأساور ، عليها ذات النوع من الزخرفة .

وتهتف السلطانة قائلة :

— عظيم ما اخترت ، فهذا يلائم كما ينبغي لون بشرة صبيحة الرقيقة . والآن قولي لي ما هما المجموعتان اللتان تحبينهما أقل من غيرهما ؟

وبعد بضعة دقائق من التردد . أشارت سلمى إلى علبتين : في إحدهما تلمع قطعة حلي تجمع بين الياقوت الأحمر واللؤلؤ ، أما في العلبة الأخرى ، ففيها عقد طويل من أحجار الفيروز ، ومعه سوارتان وخاتم ضخيم .

فقالَت الأم :

— حسناً يا ممجيان آغا ، وهي تضحك . كان من الصعب عليّ أن أقرر ، ولكن إصبع البراءة قدّم حكمه . أما التفاصيل فنناقشها مع زينيل .

وعندئذٍ يقدّم « الجواهري » مباركته ببعض الكلمات . ويمسك بالعلبتين ، ويدخلهما في حقيبة من الجلد القاتم . ثم قدم تحياته ، وودّع الأميرة ، مستأذناً بالانصراف .

وتنظر إليه سلمى وهو يخرج ، فلا تصدق عينها .

— أيندجيم ، لمَ حمل مجوهراتك ، وأين هي التي اشتريتها اليوم ؟

والحقيقة أن زيارات ممجيان آغا ، التي تباعدت في الأيام الأخيرة ، كانت دوماً مناسبة لمشتريات عظيمة .

فشدت السلطانة ابتها إليها ، ونظرت إليها بوقار .

— يا سلمى ، إني لم أشتري شيئاً ... بل إني بعت المجوهرات التي أشرت إليها ... أترين ؟ فالحرب ثم الاحتلال ، جعلتا الأشياء غالية جداً . ولدينا هنا ستون أمة يجب الإنفاق عليهم . وحقاً فأنا أستطيع أن أتخلص من نصفهم عدداً . ولكن إلى أين يذهبون ؟ وكثيرات هن اللواتي يقمن عندي منذ الطفولة . أما الأخريات فقد كبرن لدى أبي . وكن دوماً وفيات لنا . ولا يطاوعني قلبي في الاستغناء عنهن . ولهذا فأنا أبيع مجوهراتي . وعلى كل حال ، فإن لدي الكثير الكثير منها !

— ولكن إذن ، يا أيندجيم ، نحن فقراء .

وشعرت سلمى بأنها مسحوقه . إذ لقد رأت في الطريق أطفالاً ، شاحبي اللون ، كانوا يبيعون شرائط الأحذية ، وخيطاناً ودبابيس ، موضوعة في علبة من الكارتون ، مربوطة بأعناقهم . وقالت لها الأنسة روز إن هؤلاء « فقراء صغار » . فأعطتهم بعض قطع النقود وابتعدت عنهم بسرعة ، خجلاً من نظراتهم الطامعة والحزينة ، التي كانوا ينظرون بها إلى ثوبها الجميل ، وخصل شعرها المعتنى بها . وقد آلت على نفسها أنها لن تكون أبداً ، أبداً فقيرة . وبعد قليل ، اطمأنت وهي تفكر أن الإنسان يولد إما غنياً ، وإما فقيراً ، كما يولد أبيض أو أسود . وأن العالم مقسم على هذه الصورة ، وأنها ، لحسن الحظ ، في الطرف الأفضل .

أما الآن ، فإن حديث أمها يغرقها في مهو من المخاوف : فعندما تزول المجوهرات ، أيكون عليها عندئذ أن تذهب لتبيع الدبابيس في الطرقات ؟

وتطمئنها أمها قائلة :

— ولكن لا ، أيتها الحمقاء الصغيرة ، فنحن لسنا فقراء . وبالمقابل فإن حولنا عدداً يتزايد من هؤلاء . ولهذا قررت منذ الغد أن أصنع « فقرا مين تشور باسو » أي حساء للفقراء .

لكن سلمى تجهل ماذا عساه أن يكون حساء الفقراء .. وبالمقابل فإنها تعرف أنه سيكون هنالك غداً ، استقبال كبير في قصر ضويلة باهتته ؛ إذ يحتفل بأول عيد سنوي لجلوس السلطان على العرش . ولقد قضت ساعة لاختيار الثوب الذي سترتديه .

وتقول لأمها ، قلقة :

— أيندجيم ، هذا الحساء ... سيكون قبل أو بعد الاحتفال ؟

— لن يكون هنالك احتفال ، إذ إن جلالته يرى أن البلاد التي خربت واحتلت ، لا مجال فيها لأن يتمتع الإنسان بالهناء . ولقد ألغى كذلك الأسهم النارية ، والإضاءات وضربات المدافع ، التي تطلق عادة بمناسبة عيده السنوي . وهذا المال الذي يُوفّر ، سيساعد على تخفيف بعض ألوان الشقاء . ومنذ الآن لن نحتفل إلا بالأعياد الدينية .

وشعرت سلمى بخيبة الأمل ، فخفضت رأسها . وكانت قد أملت بأن ترى ابن خالتها

فاسيب . وهي لا تريد أن تُحسّله الأسى . ولكن يجب أن تصارحه بقرارها في الزواج من روز دور . ومناسبة الزواج ، خطر في بالها سؤال يجب أن تسأل أمها عنه ...

— أيندجيم ، غولفيليس بائسة جداً ، إنها لا تريد الزواج . أفلا يمكن الإبقاء عليها معنا ؟
وبدا أن السلطانة قد فاض بها الكيل .

— إنك الشخص الرابع الذي يحدثني عن غولفيليس ! وقد قررت أن أزوجه . وكذلك اثنتين أو ثلاثاً من أجمل إمائنا . وأنت أصغر مما يجب لتفهمي . ولكن اعرفي أن هناء المرأة ، هي أن يكون لها زوج وأبناء . وستجهز غولفيليس بصورة جيدة ويمكنها أن تأتي لثرائنا متى أرادت . فإذا انقضت عليها بضعة سنين أخرى ، كبرت ، فلا يؤمل أن نجد لها زوجاً مناسباً . وأنا قد لا أكون موجودة لأساعدها .

« لا أكون موجودة ؟ » . ولماذا يكون على مجرى الأشياء ، أن يتغيّر فجأة ؟ إن سلمى لم تعد تفهم شيئاً من كلمات أمها . ولكنها ترى أن من الأناة ألا تكثر في الإلحاح . وأصلاً ، فإن السلطانة قد نهضت ، ومضت ، ومعها كالف ، إلى الحمام .

وفي اليوم التالي ، جاء عدد صغير من الخدم ، وهو يقاوم الهواء البارد جداً ، الآتي من البحر الأسود ، ليعمل أمام شباك القصر العالية . وكانوا قد حملوا معهم صفائح خشبية عريضة ، وبدؤوا يشتونها بعضها على بعض ، ثم يضعونها على مناصب أو حوامل . وهكذا فقد أنشؤوا طاولتين بصورة سريعة . وغطوها بقماش رمادي اللون . ثم وصل تباعاً جملة من التابلكار ، وهم خدم يحملون على رأسهم صواني عليها أوان كبيرة من القصدير ، وضعوها على الطاولات ، إلى جانب سلات ملأى بقطع ضخمة من الخبز .

لكن هذا الإعلان عن كرم السلطانة ، سرعان ما انتشر ، في الحى ، وماكاد مساعدهو الطبّاخين يصلون ، محمّلين بقدرهم ، حتى كانت المجموعات الأولى من الناس قد وصلت ، وبدأت تتقدم خجلة . ومنعاً لوقوع أي حادث ، أمرت السلطانة أن يخدم الرجال على طاولة ، والنساء والأطفال على طاولة أخرى . بيد أن سلمى على أكبر دهشة منها ، منعت من النزول ، وهي تشاهد المنظر ، متخفية في زاوية الشرفة . ولم يكن هناك تراحم بين القادمين ، وكل ما كان هو بعض صور الاستغراب القلقة من القادمين الآخرين . لكنهم سرعان ما يطمئنون ، عندما يلاحظون أن

خدام الموائد يعوّضون عن الأطباق الفارغة، بحسائيات، مملوءة حتى أعلاها بكمية كبيرة من الخضر ذات الرائحة الذكية ومعها قطع لحم شهية .

وكان شحاذاو استامبول الخالدون، يأتون بأعداد كبيرة، ولكن سلمى لاحظت حضور الكثير من الجنود، بثياب الجندي المرقعة . ومنذ أن سرّح الجيش، قبل سنة من ذلك التاريخ، كان هؤلاء مشردين، بلا مال، ولا عمل، في هذا البلد الذي هدمته ثماني سنوات من الحرب المستمرة (هي حرب البلقان، ثم الحرب العالمية الأولى) . ثم إن بينهم لاجئين من داخل البلاد، يعرفون من نوع ثيابهم . إذ لقد تركوا قراهم، التي نهبت من قبل عصابات وطنية، إغريقية أو أرمنية، تريد أن تبرهن « للحلفاء » أن العيش مع الأتراك مستحيل .

ثم إن هناك ... الفقراء الجدد، الذين يعرفون من ثيابهم النظيفة، ومن سيماهم القلقة . وهؤلاء صناع، أو مستخدمون صغار، كانوا حتى الحرب، يكسبون حياتهم بصورة متواضعة . أما اليوم فإنهم فقدوا عملهم، تبعاً لإفلاسات عديدة أو لخراب بعض المعامل النادرة . لكنهم استنفدوا وفوراتهم . وأمام ارتفاع الأسعار التي زادت من حدتها سوق سوداء معصمة . وجدوا أن يستعينوا بالإحسان العام . وهؤلاء هم الذين تتألم سلمى عليهم أكثر من غيرهم : إذ إنهم يبدون متضايقين أشد الضيق من وضعهم وينظرون خلصة إلى الجهات المختلفة، حتى يطمئنوا بأن أحداً من معارفهم لا يرى ما صاروا إليه من الانحدار .

ولما انتهى توزيع الطعام، بدأ الخدم بفك الخشببات والركائز (أو الحوامل)، وحينئذ رأت سلمى رجلاً يمسك بيده بنتاً صغيرة . كان هذا الرجل طويلاً جداً، وقد ارتدى بنطالاً واسعاً وقميصاً من القماش الرمادي، على طريقة الموجيهك . وعندما اقترب من مساعد الطباخ، طلب منه بلغة شبه تركية، ما إذا بقي له قطعة من الخبز .

وأجابه هذا :

— كلا ! فقد انتهى الأمر اليوم، دون أن يعيره أية نظرة . ولماذا لم تأت في الوقت المناسب ؟ إنه ليس لك إلا أن تعود غداً !

وترى سلمى الرجل يهز رأسه، ويستند إلى الشبّاك . ويبدو وكأنه على وشك أن يفقد الوعي . وبشيء من الجهد، يخرج من جيبه حزمة من الروبلات .

— أرجوك، إن هذا من أجل ابنتي الصغيرة . ذلك أنها لم تأكل شيئاً منذ يومين .

ونظر الخادم إلى الروبيلات بعين ساخرة ، وردّ عليه متذمراً :

— وماذا تريد أن أفعل بمزق الورق هذه ؟ لقد قلت لك إن هذا انتهى اليوم . والآن إمض ، وإلا فإنني سأدعو الحرس .

فاصفر وجه الرجل لما تلقاه من شتيمة . فجمع قواه ، وتبهاً لمغادرة المكان ، عندما استوقفه صوت ناعم :

— انتظر أيها السيد !

وكانت سلمى هي التي تظهر ، قافزة على السلم بأسرع ما يمكن ، ووجهها محمر من الغضب ، فتنهر مساعد الطباخ قائلة :

— إحمل بعض اللحم والحلويات والجبن ، حالاً .

وأصيب الرجل برعدة ، وغاب عن الأنظار باتجاه المطابخ . وعندئذ فقط ، انجذبت سلمى إلى محمها . كان للرجل وجه ناعم ، توطره لحية شقراء . وعيناه الزرقاوان تبتسمان .

— شكراً يا آنسة . وأنا أقدم نفسي : الكونت فالنكوف ، ضابط في سلاح الفرسان في جيش القيصر . وهذه هي ابنتي تانيا .

وحارت سلمى في أمرها . ونظرت إلى البنية . ويجب أن تكونا من نفس العمر . ولكن الروسية الصغيرة تبدو شديدة الخجل ، ورقيقة جداً ، بحيث يظن أن سلمى أكبر منها بكثير .

وقالت سلمى :

— إنني سلمى السلطانة . تعالوا !

وفي الحديقة ، وعلى بضعة أمتار من شباك الحديد ، هنالك كشك من المرمر الأبيض ، المحلى بالورود . حيث يستريح الزوار أحياناً قبل الدخول إلى القصر . وإلى هناك تقود سلمى ضيوفها . وما كاد الجمع يصل حتى ظهر الخادم . متبوعاً « بسفرجي » يحمل ما يكفي من الطعام لعشرة أشخاص . وكان واضحاً أن الخادم يريد أن يُصَفِّح عنه . ولكن السلطانة الصغيرة ، غير مستعدة لنسيان خشونته . ولكن ماذا كانت تقول أمها ؟ لقد تذكرت . كانت تقول : إن الضعفاء متى ملكوا ذرة من السلطة ، أصبحوا مستبدين .

وكأن الضابط حزر أفكارها ، فتدخل قائلاً :

— دعي هذا الشخص المسكين . إنه لا يفهم حتى ماتواخذينه عليه . وكان ، على كل حال ، يطيع الأوامر عندما أنهى الخدمة ، في الساعة الحادية عشرة .

فترتجف سلمى : ذلك أن التسامح الذي يعرب عنه الضابط ، يبدو لها وكأنه أعلى درجات الاحتقار . وصحيح أنها كانت تسمع دوماً من يقول : إن الأرستقراطيين الروس يعتبرون أقدانهم كحيوانات .

وتحيب الروسي ، وهي منزعة منه :

— إنه يفهم جيداً ، أيها السيد .

وانتهى الأمر بهم جميعاً إلى الكلام بالفرنسية ، التي يملكونها جميعاً . فيروي لها الضابط كيف أن آخر كتيبة قيصرية ، يقودها الجنرال فرانجل Wrangel ، سحقت في شبه جزيرة القرم ، وأنه نجح في الوصول إلى سان بترسبورغ ، حيث كانت زوجته وابنته تنتظرانه . ولكنه لم يجد إلا بيتاً منهوياً ، مخروباً . وقصص عليه الجيران موت زوجته ، التي قتلها « الحمر » . أما الطفلة فقد كانت في أمان لدى خادمة قديمة كانت عندهما .

— وكانت الصدمة مخيفة ، هائلة ، ذلك أنني كنت مغرماً بزوجتي الشابة . وأردت الموت . ولكن الخادمة ، أعادتني إلى الواقع عندما وضعت ابنتي بين ذراعي . ولقد وجدت لنا ثياب رعاة البقر ، وهذا النوع من التنكر ، استطعنا القيام بمسيرة كبيرة ، باتجاه الحدود التركية .

وفي أكثر من مرة كاد يفتضح أمر الكونت ، لأن يديه البيضاوين ، وأساليبه في التعامل كانت تلفت الأنظار . ولكن الفلاحين ، إما بدافع الرشوة — ذلك أنه أنفق خلال رحلته هذه ، آلاًفاً من الروبلات — وإما لأنهم كانوا متعبين من كل هذا الدم ، ولأنهم أشفقوا على البنية . تركوه يمر حراً .

ولقد حكى عن الجوع ، والعطش ، والخوف ... وسلمى تصغي إليه والدموع في عينها . وسرعان ما أصبحت لا تسمع ما يقول : فلقد رأت نفسها في قصرها والنار تشتعل فيه ، محاطة برجال يزارون : « قميا الثورة ! » . وأصابها الرعب مما تخيلت ، فتنادي أباه وأمها ، فلا يجيبها أحد . وعندئذ تفهم أنها ماتا . وأنها أصبحت وحيدة . فتبدأ تركض وتركض على طريق لا ينتهي . وكان الرصاص يقرع في أذنيها . وخلال كل هذا الوقت ، ورغم مخاوفها ، لم تكن تنقطع عن التساؤل : لم يريدون قتلها .

وبدأت تبكي بشهقات ضخمة . فتأثر الضابط من تعاطفها ، فقطع حديثه ويقول لها :
— إن قلبك طيب ، أيتها الطفلة ، وسيرد لك الله إحسانك .
ونجست البنية من هذا الوهم ، ومن أنانيتها ، فمسحت دموع عينيها . وقالت له :
— إنكم لا تأكلون شيئاً ، بعد أن لاحظت أنهما لم يمسا الطعام إلا مساً خفيفاً .
— لقد طال علينا الجوع خلال شهر كامل ، وقلما تناولنا الطعام ، فكأنما نسينا عادة تناوله .

— وإذن فستحملون كل هذا معكم !
وبإشارة منها ، غلّف الخادم كل هذا الطعام بقماش أبيض ، ووضع في سلة من القصب .
ولكن سلمى تبقى مهمومة . فتسأل :
— ماذا ستفعلون الآن ؟
إن الله سيتدبر الأمر .
— الله ؟ وترسم سلمى بوجهها إشارة اللاقناعة . وتقول بدلاً من الله ، فإن من الأفضل أن
تمضي لرؤية السلطانة . فتقول :

— انتظروني لحظة ، من فضلكم .
وعندما وصلت إلى البهو الصغير ، الذي كانت فيه أمها ، قوبلت بجفاف من ناحيتها .
— وماذا ، يا سلطنة ؟ إنني أعلم بأنك تستقبلين الأجانب في جناح الحديقة ؟
ودمدت سلمى كلامها وقالت خجلة :
— كنت أريد أن أكلمك عن ذلك ، أيندجيم ، ولكنهما كانا على وشك الموت من الجوع .
وتروي لها القصة كلها .

— أيندجيم . ألا يمكننا أن نساعدهما ؟
فعادت السلطانة إلى هدوئها ورقتها . وقالت :

— إني أتمنى ذلك ، ولكن هناك مئة ألف لاجيء روسي في استامبول . وكذلك يأتي اللاجئون الأتراك من الأناضول ، والولايات الإيجية ، بالآلاف ، كل يوم وعليّ أن أهتم بهؤلاء أولاً . وإني لمتألّمة من هذا ، يا بنيّتي . ولكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً أكثر من هذا .

وتقف سلمى مكبوتة : فهذه أول مرة ترى فيها أمها ترفض الإحسان . ولا ريب أن كل شيء ينقلب من السيء إلى الأسوأ .

وبكل هدوء وصمت ، قبلت يد السلطانة ، وجرت إلى غرفتها . وهناك اختارت أجمل ثوب عندها ، وأحذية نظيفة ملمعة . ولعبتها الكبيرة التي جاءت بها من أوكرانيا ، ثم مضت إلى حيث كانوا ينتظرونها .

وقبلت الروسية الصغيرة الهدايا بابتسامة فيها من الحزن ، ما جعل سلمى تشعر بانقباض صدرها .

ووقفت وراء الشباك ، تراقب ابتعادهما ، ابتعاد تانيا وأبيها . ويد الواحد في يد الآخر . ولكنها شعرت باضطراب كبير في نفسها ، من جراء عجزها هذا .

١٠

وفي صباح يوم ١٦/٣/١٩٢٠، عندما استفاق سكان الآستانة، رأوا ما لم يُصدقوا فيه أعينهم: ففي ليلة واحدة، تحولت بلدتهم إلى معسكر ضخم جداً. وكانت هناك مصفحات خرب الشوارع، وفي كل تقاطع طرق، كانت هنالك مراكز فيها جنود مسلحون بالرشاشات. ينفون الناس. أما مراكز الشرطة، ووزارات الحربية، والبحرية، والداحلية، ومحافظة المدينة، وسادي الضباط، فإنها كلها محتلة. وكان بعض الجنود الإنكليز، الذين تساعدهم كتائب من العوركاس gourkhas الهنود يخيّمون في المحطة، والجمارك، وعلى أرصفة غلطة. وحتى الحدائق العامة، وحوانب مسرح «الحقول الصغيرة»، كانت مفعمة بمجود «كثيري الشعر» معزّزين بكتائب من الخيالة. ثم إن كتيبة من السنغال تحيط بالسراي القديمة وتحاصرها، كما أن هناك عناصر أخرى أقامت الحراسة أمام قصور كل الشخصيات الهامة. وفوق ذلك فإن دوريات مؤلفة من أربعة رجال هم دركي فرنسي، وشرطي إيطالي، وآخر بريطاني، ورابع عثماني — يتبع هؤلاء وهو يحرّ رجله حرّاً — احتلت الشوارع. وكانت بضريات من عصيّاتها تفرق أقل التجمعات شأناً، على حين أن عناصر من الشرطة العسكرية تفتش البيوت، وتوقف الأتراك، الذين يشنّه بأن لهم صلة ما مع متمردى الأناضول.

أما الجنرال «تيم» المعروف بروتوكولياً تحت اسم السير شارل هارينجتون. قائد القوات البريطانية، فقد استطاع إقناع السلطات الفرنسية والإيطالية المترددة جداً حتى ذلك حين. بأن

الوقت قد حان لوضع حدٍ لمقاومة أهالي استامبول، تلك المقاومة الخفية، على كونها ناجعة.

وحقاً ففي كل ليلة تختفي أسلحة وذخائر من معسكرات الحلفاء، على كونها محروسة حراسة جيدة. ثم إن ضباطاً وجنوداً أتراكاً، يغادرون العاصمة للانضمام إلى جيش مصطفى كمال الصغير. ولكن ينبغي أن يُهيئَ على هذه المدينة الحرون. ولما كان المندوب السامي الإنكليزي قد ادّعى أنه اكتشف مؤامرة تهدف إلى ذبح كل الأوروبيين؛ فقد تقرّر أن تخضع استامبول لاحتلال نظامي، بدلاً من ذلك الوجود العسكري الرمزي.

وحتى لا يخامر الشك أحداً في جدية قراراته، فإنه أمر بوضع ملصقات كبيرة في كل الشوارع، كتبت فيها كلمة الموت بحروف سوداء. فالموت لمن يخون عنده متمرداً. والموت لمن يسرق الأسلحة، والموت لمن يقدم أية مساعدة، مهما كانت، لهذا الخارج على القانون المدعو مصطفى كمال.

لكن قصر خديجة السلطنة يظل في غليان. فقد بعث بكل الخدم من الرجال لتسقط الأنباء، بعضهم وراء بعض. فيعودون معهم تفاصيل مرعبة: فالجنود ينبشون حتى القبور ليجثوا فيها عن السلاح، وقد قتل ستة عشر شاباً من البواقين، إذ اعتبرتهم سلطات الاحتلال من العسكريين. وأوقف عشرات من أعضاء المجلس النيابي، المعروفين بوطنيتهم، كان بينهم رؤوف باشا، الوزير السابق للبحرية، والأمير المصري سعيد حلم، وهو صديق قديم للأسرة. ومن المرجح أن يساق هؤلاء إلى مالطا، منفين، وتبحث الشرطة أيضاً عن خالدة أديب التي تلهب بكتاباتها وأحاديثها الوطنية مشاعر الناس، إلهاباً خطراً.

وسلمى التي تصغي لكل حديث، تتذكر، بهيجان، تلك المرأة الجميلة، العاطفية، التي طالما جعلتها تبكي لدى قيام المظاهرة أمام مسجد السلطان أحمد. ولأول مرة تشعر أنها تكره كرهاً حقيقياً، كل هؤلاء الأجانب الذين يتصرفون، ببلدها هي، وكأنهم أسيادها.

ويأتي خصي بالصحف. وهي كلها تنشر، في الصفحة الأولى ذلك البيان المشترك للمندوبين السامين، الإنكليزي والفرنسي والإيطالي. وهو يقول: «إن رجال المنظمة المسماة وطنية، يحاولون عرقلة الإرادة الطيبة الموجودة لدى الحكومة المركزية. ولهذا فإن قوى الحلفاء تجدد نفسها مضطرة لاحتلال القسطنطينية احتلالاً مؤقتاً».

وتفكر سلمى وتقول في نفسها: «أي هوس في الاستمرار على إعطاء اسم مسيحي لهذه المدينة، التي أصبحت منذ خمسة قرون تسمى باسم استامبول».

«ولا يريد الحلفاء القضاء على سلطة السلطنة، ولكن يُريدون تعزيزها». هكذا يقول البيان. وهم لا يريدون انتزاع القسطنطينية من الأتراك. ولكن إذا كان هنالك اضطرابات ومذابح، فإن هذا القرار سيتغير على الأرجح. وعلى كل إنسان، يجب أن يساعد على بناء تركيا جديدة، على أنقاض الأمبراطورية القديمة، أن يطيع السلطنة».

وتكاد السلطنة أن تتميز من الغيظ.

— أطاعة السلطنة؟ أية مسخرة! كما لو أن هنالك أحداً يمكن أن يجهل أن البادشاه هو رهينة بيد المحتلين، وأنه لا يستطيع القيام بأية حركة، من غير أن يهّذوه بالخلع، وتسليم استامبول للإغريق!

وما من مرة رأت سلمى أمها في مثل هذا الغضب. فتستنتج من ذلك أن الموقف يجب أن يكون خطيراً. ولعلها تحصل على إيضاحات أوسع لدى أبيها.

وهذا، كما هي العادة، يجلس في غرفة التدخين، محاطاً ببعض الأصدقاء. وكأنهم جميعاً مصابون بكارثة. فوزاراتهم محتلة، وعدد من زملائهم موقوفون. وكما هي الحال لدى السلطنة، هنالك خدام يغدون ويروحون، حاملين معهم آخر الأخبار.

ويندهش القوم.

— ها، إني لم أكن أعرف أن (س) هو كالي أيضاً!

— ربما لم يكن كذلك، ولكن الإنكليز مستأثرون جداً، من تسرب الأسلحة وسرقتها، حتى أنهم ليتهمون كل الناس.

— ليسوا على باطل. فاحزروا بماذا أجاب الحراس الأتراك، حراس أكبر مستودع، ذلك الضابط الإنكليزي الذي طلب إليهم إيضاح كل هذه السرقات من الأسلحة والذخائر. لقد أقسموا جميعاً أن المسؤولية تقع على الماعز، التي ترعى في المرج ليلاً، وتنطح الأبواب التي توجد عليها أختام الشمع، فتحطمها. وشعر الضابط ألا جدوى من سؤالهم عما إذا كانت الماعز هي التي تأكل أيضاً الذخائر.

ويضحك الجميع ملء أفواههم .

— ولكن هذا لا يمنع أن تعزّز التدابير الأخيرة شعبية كمال . ومنذ هذا الصباح ، صار هذا المجنون ، محبباً لديّ .

— ولكن هل هو مجنون ؟ إن خيرى بك يغضن عينيه بهيئة الحائر . فجلالته ليس من هذا الرأي ، بل إن الإنكليز يشتبهون بأمر الباديشاه ، ويرون أنه يشجعه ، في الحين الذي يضحك عليهم لكسب الوقت ، ثم إن وزير خارجيتهم لم يشعر أن العلاقات بين مصطفى كمال ، وبين السلطان ، كانت حميمة إلى هذه الدرجة .

وفيما عدا الضرورة الحاسمة ، فإن أحداً لم يعد يغامر بالخروج . أما سلمى في زاويتها فتغلي من عجزها عن الصبر ؛ فالأمور تجري دوماً هكذا ، فمتى حدث شيء هام ، يجسسونها في البيت . ولا يعود هنالك أي مجال للحديث عن زيارات أثرية ، للإفلات من المراقبة : فباب القصر مغلق ، والمناقشة ممنوعة ، بل إن الفيضان الهائل من الزيارات التي لا تنقطع ، والتي كانت تنعش الحرمك ، حاملة إليه حصته من الأخبار والإنشاعات اليومية ، قد انقطع . ويبدو أن الحياة قد توقفت .

ولقد حاولت الآنسة روز أن تسليّ البنية ، مقترحة أن تحمل إليها بعض الأغاني الفرنسية . فأصابها من ذلك شر . ذلك أن سلمى وجدت في اقتراحها هذا مفرجاً لسوء مزاجها ، فصرّحت لها بأوضح ما يمكن أنها تكره الفرنسيين والإنكليز وكل هؤلاء الأجانب ، الذين يمنعونها من الخروج من بيتها .

وذاذ ليلة ، عندما كانت تتقلب في فراشها ، مكررة مآخذها وإتهاماتها ، سمعت صوت أقدام في الممشى . وبجانب غرفتها ، همس أحدهم بكلمة : أسكت . ويقفزة واحدة ، نهضت البنية . ولما فتحت باب غرفتها قليلاً ، استطاعت أن تلمح زينيل ، وفي يده مصباح ، يسبق شخصاً مغطى بعباءة طويلة . ويتجهان ... نحو جناح أمها ! وعلى ضوء سراجها الليلي ، نظرت إلى المنبه الجميل الذي حمله إليها الجنرال الأمير ، من سويسرا ، ورأت أن الساعة هي الثانية عشرة والنصف . تُرى من يمكنه أن يأتي لمقابلة السلطنة في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟

وتركت غرفتها ، وقلبا يخفق ، وبدأ بالتمسك ، لاجتياز الممر . وهي مقسمة بين الفضول والخوف : والأفضل ألا تفكر بالعقاب الذي تنتظره ، إن هي اكتشفت . وفي الوقت نفسه نراها

تؤنب نفسها : فماذا ؟ أهى التى تحلم بأن تكون بطلة ، وأن توازى خالدة أديب ، ترتجف لجرد التفكير بغضب الأم !

وتنفست بعمق ، وسيطرت على خوفها ، وتابعت السير . وفي آخر الممر ، ومن خلال ستارة البروكار التى تعزل البهو الصغير ، تلاحظ تسرب بعض النور . فتقترب ، وتسمع أنهم يتكلمون بصوت خفيض . فاخترأت بين طيات الستارة . وكشفت ما يكفى منها ، لكى تثبت عينها . ولكن ما تراه يدهشها .

هنالك رجل ، ما يزال شاباً ، جالس على مقعد ، قريب من السلطنة : ويهمس وهو يريها بعض الأوراق ، التى تلاحظها بدقة . ومن حين لآخر ، يرفع رأسه ، وينظر فيما حوله ، كما لو أنه مزعوج . فتفحصه سلمى . وترى أنه ليس من الأسرة ، وكأنه لم يخلق ذقنه جيداً ، والريدنجوت غير مكوي . ثم إنه ليس من أصدقاء أبيها . فمن عساه أن يكون ؟ ولماذا تستقبله أمها فى جناحها الخاص . حيث لا رجل آخر إلا زوجها ، أو أحد أفراد الأسرة ، له الحق فى الدخول . وفى زاوية من هذا البهو نلاحظ زينيل ، وعيناه فى الأرض ، وكأنه ليس مرتاحاً .

وفجأة تقف السلطنة . وتشير إلى الخصى . وتطلب من الزائر أن يتبعه . ولم يكن لسلمى إلا ما يكفى من الوقت للاختفاء بين طيات الستارة . فيمر الرجلان أمامها ، ويتجهان إلى السلم اللولبي الذى يمضى إلى الطابق الثالث . ولم يتوقفا ويستمران فى الصعود . وتسمع صرير باب السقيفة الثقيل . وبعد بضع دقائق يعود زينيل وحده . وتندهش سلمى أكبر الاندهاش : أفتخبىء أمها أجنبياً ، فى جناح القصر المخصص للنساء ؟

وانطفاً ضوء البهو الصغير . لا بد أن السلطنة مضت لتنام . وخلصه عادت الصغيرة إلى غرفتها ، مندهشة ، ومفتونة : وأخيراً فإن شيئاً ما يحدث فى هذا القصر الكتيب ! أما فى ذهنها المفرط التهيج ، فإن الأسئلة تتزاحم ، ولا تصل إلى جواب عن أى منها : فلئن كان هذا الرجل يختبئ ، فلأنه رجل سوء . ولكن ما الذى يجعل أمها إذن تحميه ؟ وهل ستحدث البابا فى ذلك ؟ لا بد أنه سينظر نظرة سيئة جداً إلى استقبال الأميرة لرجل غريب ، فى غيابه .

ولقد ذهب خيرى بك لقضاء عدة أيام لدى أصدقاء ، فى اسكودار . على الشاطئ الآسيوي . وقد أخذ يكثر من الذهاب إليهم فى هذه الأيام ، بل إن سلمى سمعت الكالفات العجائز يمدمن بأن هذا الوقت ، مع كل ما يجري فيه ، فى المدينة ، ليس بالوقت المناسب لترك السلطنة وحدها .

وتنظر إلى المنبه: إنها الساعة الثانية فقط . فكم يبطيء الزمن في سيرو ! ذلك أنها تتعجل مجيء الصباح لتسمع الأخبار .

وكانت قد بدأت تهدأ وتنساب إلى النوم ، عندما سمعت طرقات عنيفة تقرع الباب الخارجي ، مما جعلها ترتعد وتعود إلى اليقظة بعنف ، فتجري إلى النافذة وتلمح على أضواء الفناء الداخلي ، ثلاثة عناصر من الشرطة التركية ، يقومون بحركات كبيرة ، على حين أن حرس القصر يحاولون تهدئتهم . ويأتي بعد ذلك خصيان ، فتظن سلمى أنها تسمعهم يشرحون أن سيد البيت غائب ، وأن عليهما أن يرجوا رحيلهم مباشرة . ذلك أنهم موجودون ، في الناحية التي تسكنها النساء . فيعتذر رجال الشرطة ، ولكنهم يعلنون أنهم مضطرون للإلحاح : إذ قبل لهم إن شقياً خطيراً دخل إلى القصر . ولديهم الأوامر بالبحث عنه .

ووقف الخصيان ، الشاحبا اللون أمام الباب ، وأعلنا عزمهما على الدفاع عن حرمهم ، على حين أن الحرس كانوا يترددون : ذلك أن مهمتهم هي حراسة القصر . ولكن ماذا يجب أن يفعلوا تجاه شرطة الدولة ؟

وفجأة يدوي صوت قوي ، ليقول :

— ماذا يجري ؟

كان صاحب الصوت هو السلطانة . فقد ظهرت على العتبة ، وكان على وجهها حجاب معتم يخفي وجهها نصف إخفاء .

وسألت عناصر الشرطة ، وهي تزهم بعينها ، وتقول : منذ متى أصبح المسلمون يقتحمون مدخل الحرمك ؟

لكن الضابط الذي يقود المجموعة ، والذي توقف لحظة ، ينحني لها ويقول :

— صدي ، سيدتي السلطانة ، أنني أول المستائين مما أفعل . ولكن وجد من رأى مجرمًا يدخل إلى بيتكم ، فأمر الصدر الأعظم الداماد فريد ، بالبحث عنه هنا .

وابتسمت السلطانة ، وعلى وجهها أمائر الاحتقار . وقالت :

— أهذا الرجل الألعية يجرو أن يأمر بشيء ! إعلموا أنه ليس لدي من أمر أتلقاه ، من أحد ، إلا من جلالتة . فأتوني برسالة موقعة من الباديشاه ، وعندئذ أحنى الهامة لها .

لكن الضابط الذي حار في أمره ، تتم قائلاً :

— ولكن يا سلطنة ...

— لا تلح أيها الضابط . فأنت لن تدخل . فذلك يمس بشرفي ..

ولما كانت تراه متردداً ، أمرت أحد حراسها بأن يعطيها مسدسه .

ومن شرفتها ، رأت سلمى رجال الشرطة قد أسندوا بنديقيتهم إلى كتفهم ولكن قبل أن يُتاح لها الوقت لتصرخ ، تدخلت السلطنة قائلة :

— لا تخشوا شيئاً ، بلهجة هازئة ، فأنا لن أشهر سلاحاً على جندي تركي . ولكني مادمت حية ، فإنكم لن تدخلوا أجنحة الحرم .

وكانت تلهو بالمسدس ، بصورة لا مبالية ، وهم ينظرون إليها : فلا يجزؤون على الفهم .

وعندئذٍ تضحك ضحكة باردة ، وتوضح :

— إن عليكم أنتم الاختيار . أيها السادة ، فماذا تفضلون ؟ أغضب الداماد فريد ، أم غضب السلطان عندما يعلم إلى أي درجة من التطرف أوصلتموني ؟

فلاح على وجه الضابط نوع من الإعجاب ، أضاء وجهه . إذ لم يحدث له أن التقى مرات كثيرة برجال من نوع هذه المرأة . ودمدم قائلاً :

— أرجوك يا سلطنة أن تسامحيني .

وبلهجة من فهم الموقف حق الفهم ، أضاف قائلاً :

— إني أعلم أن رجلنا هنا . ولكن حتى ولو أنزلت رتبتي ، فلن أزعجك أكثر .

وغاب الرجل في ظلمة الليل ، ضارباً الأرض بنعليه .

وفي الصباح ، اندفعت سلمى نحو أمها . وكانت هذه جالسة أمام طاولة زينتها ، تقلّب بلا انتباه مجلة Chiffons ، مجلة الموضة الباريسية المشهورة ، على حين أن أمةً من إمائها تمسّط شعرها الطويل وسألت سلمى أمها :

— هل تمت جيداً ، أيندجيم ؟

— على أفضل وجه يا غالية، وأنت ؟

— نمت نوماً سيئاً بما فيه الكفاية . إذ لقد سمعت ضججات غريبة .

لكن سلمى المتعطشة إلى معرفة الكلمة الفصل في هذه القصة ، قررت أن ترغبم أمها على البوح بالسر . لكن ذلك كان عبثاً ، فبعد أن استغربت الأم قائلة : أحقاً ؟ بلهجة اللامبالاة الكاملة ، عادت إلى قراءتها . ودارت سلمى أيضاً بضع دقائق في الغرفة . وعندما لاحظت أنها لن تحصل على شيء ، خرجت خائبة . وهكذا فإنه ليس لأمها ثقة بها ، وهي تعتقد أنها لا تكتم السر . ثم إنها ما تزال تعتبرها طفلة ، على حين أنها صارت في التاسعة . حسناً ، ستحاول استقصاء الخبر وحدها !

وكانت الساعة هي الحادية عشرة : والشيخ الذي يأتي كل صباح ، ليدرّسها القرآن ، اعتذر عن درسه . فأصبح لدى سلمى ساعتان من الحرية . فقالت للآنسة روز ، التي تقلق على برنامج عملها ، بأنها ستبقى في مكتبها الصغير ، لكي تدرس فيه الكتاب المقدس . وما كادت المربية تخرج ، حتى تركت هي الغرفة . وبعد أن اطمأنت إلى أن الممر خالٍ ، تسلّلت بسرعة إلى السلم ، الذي يؤدي إلى السقيفة . وكانت تمشي على رؤوس أصابعها ، حابسة أنفاسها . ولكن بمقدار ما تجهد لتكون حركتها صامتة ، كان يبدو لها أن التلييسة الخشبية القديمة للأرض ، كانت تزداد قرقرة .

وعندما وصلت إلى باب المستودع ، ترددت . فهل يجب أن تقرع الباب ؟ إذن سيكون ذلك أكثر تهدياً . وأخيراً فقد سعلت بقوة ، ثم دفعت الباب بأكبر بطء ممكن .

وكانت السقيفة من الظلمة بحيث لم تميّز فيها شيئاً ، فتقدمت بحذر ، وخلال ذلك سمعت صوتاً جعلها ترتعد :

— لا حركة . وإلا فأني أطلق النار !

وكانت عيناها قد تعودت الظلمة ، فحزرت وجود شكل غامض . يجلس القرفصاء على بعد عدة أمتار . وكان ذلك رجلاً يوجه مسدّسه باتجاهها . ولكن الصوت يرتجف ، ما من شك إذن ، أنه أكثر خوفاً منها ! فانتعشت بهذه الملاحظة — وما من لحظة تخیّلت فيها أنه يمكن أن يطلق النار — فتطمئن سلمى بكثير من الشهامة .

— لا تخف — فأني لن أؤذيك أبداً .

وينظر إليها الرجل ، حائراً . ثم بدأ يضحك عندما لاحظ غرابة الوضع . فاهتز جسمه كله بموجة من الفواق ، جعلته يضحك ضحك من لا يريد التوقف عن الضحك . ولقد توقعت سلمى كل شيء إلا هذا الضحك ، الذي يبدو على الأقل في غير محله ، بالنسبة لشقي تبحث عنه الشرطة . وعندما توقف أخيراً عن الضحك ، سألت القادمة :

— من أنت

لا ريب أن اللاوعي ينضاف إليه سوء التربية . فكيف يسمح هذا الإنسان لنفسه أن يخاطبها بلا تكلف . فانتصبت البنية ، وخاطبته قائلة بخبث :

— أنا ابنة خديجة السلطانة ، التي كنت لديها هذه الليلة .

وتتوقع هي أن تراه ينهار ، ولكنه يكتفي بملاحظة خبيثة يقول معها :

— وهكذا فقد كنت تراقبيننا ، إني لم أعهد الأميرات في مثل هذا التجاوز على واجبات « السريّة » .

وتفكر سلمى ، وتقول : « أي رجل فظ ! » . ولكن المحادثة لم تتخذ المجرى الذي كانت تتوقعه . وبدلاً من أن تكون باحثة وحاكمة ، وجدت نفسها في وضع المتهم . حقاً إن الأشخاص الكبار ، لا يهتمون ؛ فهم يرون أن كل شيء مع الأطفال مسموح به . وعليها أن تعود فتصبح سيدة الموقف . فتتخذ وضعها الأكثر قسوة وتقول :

— إن الشرطة تبحث عنك . فلماذا ؟ ومن أنت ؟

فاتسعت عندئذ بسمه الرجل ، لتريق على وجهه بعض النور الذي يبرز في عينيه .

— إن هذا تحقيق جدّي ! ويسعدني أن أجيبك ، أيتها الأميرة . فاتخذي لك مكاناً ، واجلسي ، أرجوك .

وبكل ما يستطيع من الاحترام المناسب لمقام الأميرة ، يعيّن لها كومة من الخرق ، موجودة إلى جانبه ، لتجلس عليها .

وتفكر سلمى : « إنه يسخر مني » . ولكن هل تستطيع الآن أن تلومه على أنه ييدي بعض

المبالغة في الأدب واللياقة؟ ومن جهة أخرى، فإنها لا تريد أن تغضبه: فهي شديدة الرغبة في الاستماع إلى قصته. فتجلس بحذر، على حين أنه ينظر إليها بكثير من الانتباه.

— لقد أصبحت الآن ناعمةً بدرجة كافية، والله يعلم أنك كنت طفلة قبيحة.

وفي هذه المرة، تطرف الرجل أكثر مما يجب! فاشتد احمرار وجهها حتى بلغ الجبين، وأخذت تبحث عن جواب لاذع. ويستعيد الرجل حديثه، دون أن يظهر عليه أنه لاحظ استنكارها:

— لقد عرفتكَ، عندما كان عمرك سنة واحدة. وكنت المرافق العسكري لخالك الأمير صلاح الدين. وبعد أن مات، مضيت أحارب في الجبهة القوقازية: وقضيت ثلاث سنين كالكابوس في حرب لم تكن حريتنا...

وشعرت سلمى بأنها نسيت وجوده. فهو يتكلم بصوت مخفض وهي تجد صعوبة في فهم ما يقول.

— ولقد غلبنا، وتقاسم أعداؤنا الأمبراطورية. وهم الآن يريدون حذفنا من الخريطة، كما لو أن تركيا أصبحت شيطاناً يجب القضاء عليه بأي ثمن، خوفاً من أن ترفع رأسها ثانية. وخلال ثلاثة قرون كانوا يرتحفون هلعاً منا. واليوم يريدون الانتقام. ولكنهم مخطئون. لأنهم يتجاوزون الحد وهم يرغموننا على مباشرة النضال الأخير؛ فبعد الآن ما من شيء سنفقد.

وتساءل سلمى، لِمَ لا يستطيع الكبار أبداً أن يجيبوا ببساطة على أسئلة بسيطة؟

وبصوت صغير واضح، كررت عليه السؤال:

— إن الشرطة تبحث عنك. فماذا فعلت؟

فينظر إليها الرجل. إنها صغيرة جداً، فماذا عساها أن تفهم؟

وجال في خاطره أن يسألها هذا السؤال:

— أسمعت الناس يوماً ما يتحدثون عن الجنرال مصطفى كمال؟

— بطبيعة الحال.

فهل يعتبرها بلهاء؟

— حسناً، فأنا أحد مساعديه، ومكلف بالاتصال بالضباط الراغبين بالانضمام إلى المقاومة في الأناضول. فأساعدكم على مغادرة استامبول، في ثياب تنكرية متنوعة، وبالطرق الآمن ما يمكن. ولكنهم علموا بأمرى. والبارحة أحاط الإنكليز بالبيت الذي كنت أختبئ فيه. فاستطعت الهرب عن طريق الشرفات. ولما لم أكن أعرف إلى من ألتجئ، تذكرت أن الأمير صلاح الدين، كان يقول ان تركيا، بالنسبة لأملك، تعلو على كل شيء. فلعلها تؤويني عندها. وكنت أحسب أن الشرطة لن تجرؤ أبداً على الدخول إلى قصر السلطنة. ولكنني أخطأت في هذا الظن. وفي هذه الليلة نجحت الأميرة بإبعادهم. ولكنهم سيعودون؛ فهم يعرفون أي هنا. وانظري!

ويرفع الستارة عن كوة إلى جانبه، في الحين الذي كانت فيه سلمى تتفحصه. ويشير إلى عشرة رجال من الشرطة، واقفين على مدخل الحرمك. ويقول:

— هنالك مثل هذا العدد أمام المدخل الآخر. وهم ينتظرون الأمر باقتحام البيت. ويجب أن أغادركم بأسرع ما يمكن. ولكن كيف؟

وبعد بضع ساعات، خرجت مجموعة من النساء (بالملايات) السوداء، من الحرمك، باتجاه السوق، يحملن سلالاً كبيرة من القصب ويتناقشن بحماسة عن المكان، الذي يمكن أن يجدن فيه أفضل الخضار، والفواكه الألد طعماً. ومن غير أن ينظرون إلى الشرطة، يمررن بجانبهم، ويأخذن أول طريق على اليمن، وهن يتابعن هذرهن.

ويلق أحد رجال الشرطة قائلاً:

— إن الله أعطى النساء لساناً طويلاً كذنب الشيطان، ودماغاً ضخماً كحبة الأرز.

فضحك الجميع، باحتقار زاد فيه أنهم سيئو المزاج هذه المرة؛ إذ لقد قضوا صبيحة ذلك اليوم يواجهون الهواء الشديد البرودة، لكي يراقبوا الداخلين إلى القصر والخارجين منه. وعبثاً. فما من إنسان خرج منه إلا هذه المجموعة من العقاقع العجائز. ولكن كم من الوقت سيكون عليهم أن يبقوا خلاله هنا؟ إنه زمن طويل ولا شك، ذلك أن المسألة حرجة، والأميرة ذات الشخصية القوية، تهدد بأن تجعلها فضيحة، وهذا ما ترغب قيادة الحلفاء باجتنابه. ولكن أنى للإنسان أن يتنازل، من غير أن يصبح عرضة للهزء؟ وكان رجال الشرطة وهم بعضون على أسنانهم يستعرضون أفكاراً تعيسة.

أما مجموعة النساء فقد توقفت أمام أحد الرواقات، ليساعدن أكبرهن عمراً على إصلاح

ملأتها (شرشفها) . وهن يخفينها بحشمة عن أنظار المارة . وفجأة ظهر ما يشبه الرجفان وسط هذه الحجب ، وانكشف رجل لا بد أنه أتى من داخل البيت . وعادت النساء دون أن يبدو عليهن أنهم أعرضه انتباهاً ، فحملن السلال من جديد ، وابتعدن وهن يضحكن ضحكات عالية . ويجتاز الرجل الطريق ، ويضيع بين المارة .

أما الرصيف فإنه أصبح من جديد خالياً . أما فوق الأرض ، وأمام الرواق ، فتقوم كومة صغيرة سوداء ، هو شرشف المرأة العجوز .

وبعد ثلاثة أسابيع ، تلقت سلمى بطاقة غريبة كتبت عليها هذه الكلمات : « إن فارة القبو عادت إلى مأواها وهي تشكر جنيتها المحسنات » .

ومن شدة فرحها طارت لتخبر أمها بالخبر السعيد . فرفعت هذه حاجبها .

— من أين يمكن أن تأتي هذه الكلمة الغريبة ؟ ليس لدي عنها أية فكرة ، ولا أنت طبعاً .

ونظرت إلى ابتها نظرة المتواطئ ، وشعرت سلمى بأنها في منتهى السعادة : فهما منذ الآن ، تتقاسمان سرّاً حقيقياً ، هو سر ، إن صدقنا مدعيات المحتل ، قد يجلب الموت . وتفكر بخالدة أديب التي انضمت إلى المقاتلين الوطنيين في الأناضول ، ولديها الشعور بأن بطلتها تبتسم لها .

كانت العربى تتقدم وهى تتزهز على الطريق الترابية . وفى كل لحظة يخشى الإنسان أن تنقلب ، ولكن فى كل مرة أيضاً ، كان السائق وهو يوقف بعنف أحصنته ، أو يضربها بقوة تخرج الدم من جلدها ، يعيد التوازن إلى العربى فى آخر لحظة .

وفى الداخل ، كانت سلمى ، التى أسندت جسمها إلى خالتها ، فطمة السلطانة ، تضحك من فرط السرور . وإن هذا لأبعث على المسرة من الألعاب المنصوبة فى حديقة القصر ، أيام بيرم . وهذه المرة هى المغامرة الحقيقية : ذلك أن البنية وخالتها بعيدتان الآن عن مركز العاصمة ، فى ضواح شبه خالية . ولو وقع لهما حادث ، فستضطران إلى قضاء الليلة بكاملها حيث هما . ومن يعلم ، فقد تضطران إلى طلب المأوى ، لدى واحد من هذه البيوت المتواضعة التى لم ترها البنية قط ، إلا من بعيد ، ولو أنها حِلِمَت دوماً بالدخول إليها .

وكثيراً ما حاولت ، خلال النزعات ، أن تجر الآنسة روز إلى هذه الحارات الفقيرة ، التى كانت تستهويها ، ولكن الأمر انتهى بروز إلى الاستياء .

— ماذا تريدین أن ترى ؟ الوساحة أو الشقاء ؟ وفى وسعى أن أؤكد لك أنه ليس هنالك ما يدعو إلى المسرة !

وأمام هذا العنف اللامألوف لدى هذه الفتاة العانس ، الكثيرة الصبر ، عادة ، سكنت

سلمى ، مندهشة : أما ما تريد أن تراه ، فهي لا تعرف ما هو بالضبط . ولكنها تشعر أن هناك ، بعيداً عن الشرنقة الفخمة التي كبرت فيها ، وأن في هذا الشقاء الذي يخيفها إلى هذا الحد ، يعيش الناس ، مع ذلك ، حقاً . وكثيراً ما كانت خلال زياراتها في المدينة ، تنظر من النوافذ المشبكة لعربتها المغطاة ، أطفالاً نصف عراة يتبع بعضهم بعضاً وهم يصرخون . وهي تكاد أن تحسدهم . ذلك أن الألعاب العنيفة القاسية ، تغربها أشد الإغراء . وهؤلاء الأطفال يبدوون لها أكثر إغراءً من أبناء عمومها وأحوالها . حتى يقال إنهم يتنفسون هواءً أكثر حيوية .

ولقد حاولت أن تشرح هذه المشاعر لغولفيليس التي أصبحت صديقتها . ولكن الأمة الشابّة نظرت إليها ، وهي تفكر لتقول لها :

— إن هذا هو العكس تماماً ، أيتها السلطانة الصغيرة . فليست الثروة هي التي تخنق الحياة ، بل هو الفقر .

ولكن سلمى غير مقتنعة . ولئن كان الأمر على هذه الصورة ، فليَمَ كانت عيون الأطفال الفقراء أكبر ، ونظراتهم أعنف من أبناء الأغنياء ؟

ولكن العربة تجري الآن على طريق مرصوف ، تحيط به أشجار السرو ، وعلى سلمى أن تقتنع ؛ فالحادث الذي سيقع ليس موعده اليوم . وتقترب العربة من الزاوية ، الذي هو غاية النزهة . ومن شدة الفضول لم تعد سلمى تستقر في مكانها . فهذه هي المرة الأولى التي تأخذها فيها خالتها إلى هذا المكان المقدّس ، الذي تزوره هي كل أسبوع منذ سنوات ، إذ إنه إذا كانت خديجة ، بين الأخوات الثلاث ، هي صاحبة العقل ، وفهيمية هي الفنانة ، فإن فطمة هي الصوفية . وعندما كانت في أول صباها ، كانت تقضي أياماً كاملة في التأمل والحلم ، في هذه النصوص المقدسة . ولكن زواجها هو الذي ثبتها على هذه الطريق . أما زوجها رفيق بك ، فإنه عضو في فرقة صوفية للدررايش الدوارين ، التي أسست في القرن الثالث عشر على يد جلال الدين الرومي . ولما كانت هذه الفرقة مفتوحة للنساء ، فإن فطمة بطبيعة الحال انخرطت فيها .

ومنذ أزمة قديمة ، كانت تركيا ممتلئة بهذه الفرق الصوفية على ما قالته لسلمى . ويطلق على كل عضو فيها اسم الصوفي ، المشتقة من كلمة الصوف ، التي تعني ذلك القماش الأبيض الذي يرتدونه كعلامة على الطهارة ، والنقاء ، والعزوف عن هذا العالم . وهو عزوف لا يفي العمل ، بل العكس ! ولقد حدثتها عن فرق الانكشارية ، هؤلاء الرهبان الجنود ، الذين كانوا ، خلال قرون يشكلون قوة الجيش العثماني . ولقد استؤصلوا تماماً في القرن الماضي على يد السلطان محمود . ذلك

أنهم أصبحوا كاهيكليين Temliers في فرنسا، جنوداً، أكثر مما هم رهبان. وكانت قوتهم تشكل خطراً يهدد العرش.

وتصغي سلمى لحديث خالتها بانتباه. ولكنها لا تفهم جيداً معنى الصوفية، على أنها سعيدة لأن خالتها تراها كبيرة بالدرجة الكافية، لكي تحدثها هذه الأحاديث. إذ يبدو لها هذا، على كل حال أمتع من القراءة اليومية في القرآن التي ترغب عليها. وهي لا تعرف العربية وصوت الشيخ الرتيب يغريها بالنوم. ولكن لا سبيل إلى الخلاص منه. ويجب أن يقرأ القرآن بلغته الأصلية، على نحو ما أوحى به الله إلى نبيه محمد، إذ إن قيمة الكلام الإلهي، على ما هو مأثور، أعلى قيمة من العقل البشري، المحدود على كل حال.

وبالمقابل فإن سلمى طالما حلمت بأن ترى «هؤلاء الدراويش المشاهير، الدوارين». فهم أناس يصلون وهم يرقصون، في الحين الذي تعلمت هي فيه أن الرقص شيء غير سليم، وهي لا تنسى غضب أمها عندما فاجأتها ذات يوم، وهي تحاول ممارسة رقص البطن، بصحبة أمة صغيرة. وقد دفعت ثمن هذه الجرة ثلاثة أيام من البقاء داخل غرفتها.

وبيدي أن رقص البطن ليس مناسباً، وبالتأكيد لن يمضي الدراويش... فتمنع نفسها من الضحك. وبالمقابل فإن البولكا والمربعات أو الـ quadrilles، التي ترقصها الأميرات فيما بينهن، رقصات مقبولة جداً. وتحاول سلمى أن تتخيل أولئك الرجال «المقدسين» وهم يرقصون على آيات القرآن، على أنغام البولكا الخفيفة، وعندئذ تبدو لها الصوفية فجأة مغرية جداً.

وبعد أن اجتازت العربة شبكاً من الحديد المصنَّع، توقفت في حديقة مظلمة. وكان المنزل الخشبي المتواضع العائد للشيخ، يختفي تحت عرائش اللبلاب. أما بعد هذا البيت، ووراء بعض الشيء، وفي مقبرة صغيرة، فتقوم فطمة السلطانة بلفت نظر ابنة أختها إلى عشرة قبور، تعلوها عمائم من الحجر المنحوت نحتاً دقيقاً. وهذه هي قبور الشيوخ القدماء. فوقفتا عندها لتقرأ الفاتحة على أرواح الموق الذين دفنوا فيها. ثم تابعتا المشي في طريق تحيط به الورود. وفي الأخير تماماً، تنتصب التيككي Tekké^(١)، وهي بناء جميل من الحجر تعلوه قبة خضراء. وهناك تم الاحتفالات. وتختف فطمة تحت شرفها وغطت سلمى بوشاح طويل وأخذت بيدها نحو باب الزاوية، زاوية المعبد، الذي هو المدخل المخصص للنساء. ومن هناك أخذت السلم الضيق لتصل إلى بهو دائري محاط بمشربيات، حيث يجد الإنسان نساءً من كل الأعمار، تغطيهن أغطية فاتحة اللون، وهن يقمن بعبادتهن، على سجادة الصلاة الخاصة بكل منهن.

(١) أو التكية، أو الزاوية بلغتنا نحن.

وقطبت سلمى أنفها للروائح المنبعثة من كل ما هو مغلق، ممتلئ بالعرق، وأخذت تبحث بعينها عن مكان حر، عندما جاءت امرأة مكتنزة، واندفعت لتقبل يد فاطمة السلطانة. إنها زوجة الشيخ وألحت أن تأخذ الأميرتين إلى المكان المخصص للشخصيات المتميزة. وجريت فطمة أن تقنمها بأن لا حاجة لذلك، وهي مستاءة ضمناً من أن ترى التسلسل الاجتماعي يظل معمولاً به حتى في مكان كان يجب أن يستغنى عنه فيه. لكن مضيفتها لن تفهم ذلك بيسر، وحتى لا تخرج مشاعرها، قبلت، متنهدة، هذا البعد الإرغامي عن الناس.

وكانت سلمى قد ألصقت وجهها بشباك الحديد، لتأمل من الأدنى إلى الأعلى، بهو الاحتفالات، وهو مقطّع بأعمدة من الخشب المحفور. وحوالي البهو، ومن وراء درابزينات ناعمة، كان يجتمع المؤمنون. وفي الوسط، كان هنالك مكان واسع، فارغ، يفتح على المحراب؛ أي هذا النوع من الجدار الذي يشبه جزءاً مفرغاً من أسطوانة كبيرة، كرجة لا ترتوي أبداً. وهو يشير إلى جهة مكة.

وفجأة يصبح الصمت أكثر كثافة. ذلك أن الدراويش قد ظهوروا، ملتفين بثياب بيضاء اللون، غطيت بجُيب سوداء، كما غطيت رؤوسهم بطرايش طويلة من نوع خاص، صنعت من اللباد. وجاء الشيخ آخر من حاء. وانحوا جميعاً أمام المحراب، في الحين الذي بدأ فيه إنشاد ترتيب النغم؛ إذ إن هناك مراهقاً ينشد أناشيد في مدح النبي، مستمدة من قصيدة حب قديمة. ثم بدأ صاحب القيثارة ينشئ نغماً عفيفاً وواضحاً، مقطعاً بضربات طبول.

وعندئذ يضرب الشيخ الأرض، فيتقدم الدراويش، ليدوروا ببطء، ثلاث مرات، في القاعة. وهذه المرات الثلاث تشير إلى مراحل الصعود الثلاث إلى الله: طريق العلم، ثم طريق الحُدس، وأخيراً طريق الحب. فإذا انتهى ذلك خلعوا الجلب السوداء، التي ترمز إلى القبر، فيبدون عندئذ بيضاً متألقي البياض. إنهم نفوس مطهرة، تقوم بالدوران، بصورة بطيئة أول الأمر، ويدهم اليمنى مرفوعة إلى السماء ليستقبلوا المنن الإلهية، واليد اليسرى متجهة إلى الأرض، لكي ينقلوها بها هذه النعم إلى الأرض.

وفي هذه اللحظة ينضم الشيخ ليشارك في الرقص، فيتسارع النغم... فهو يُمثل الشمس بتألق علمه، والآخرون من الدراويش يمثلون الكواكب، التي تدور حول نفسها، وحوله؛ أي حول الشمس، متحدين بهذه الصورة مع قانون الكون. ويتسارع دورانهم أكثر فأكثر، على الصوت النقي جداً، صوت الناي. هذه القيثارة المصنوعة من القصب التي تروي، لمن يريد أن يسمعها،

قصة الأسرار الإلهية. إن كل كيانه مستسلم، وموجه إلى مرحلة الحلول الصوفي؛ أي الاتحاد مع الحقيقة العليا.

وسلمى تأملهم، وهي مسحورة بالموسيقى وبدوران الثياب البيضاء. فتحس بالحاجة الملحة لأن تدخل فتدور معهم، والانصهار في الرقص السحري. لكن عليها أن تبقى محتبة وراء المشربيات. وفجأة تشعر بالحاجة إلى البكاء: كأن شيئاً أساسياً يجري الآن هنا، وهي عنه مستبعدة، فتتظر وهي في هذا العجز، إلى ما حولها. فالله بالتأكيد ليس في هذه الغرفة الخائفة، بل هو في هذا المبد المضاء بأشعة الشمس التي تغيب، إنه مع هؤلاء الدراويش الذين يرقصون وهم سكارى من فرط السعادة.

وعندئذ تضم بقوة شبك المشربة، والدموع تكاد تغميها. إذ ليس لهم الحق في منعها عن التنفس، ولا الحق في نفيها عن الحياة! ...

وحتى ذلك الحين، كانت تتحمل أن تسرق منها شوارع استامبول، وحداققها، وجماهيرها. أما اليوم فإنها تشعر أنهم يسرقون الله. فتكاد تختنق من شدة الاستنكار، والتعاسة، والقرع العاجز... وقليلًا قليلًا يصبح صوت الناي همساً، وتتباطأ العاصفة. ثم إن التويجات البيضاء تعود فتتغلغل على نفسها، وينتهي الاحتفال.

وانسحب الشيخ إلى غرفته، لكي يستقبل أنصاره. وعلى أكبر دهشة من سلمى، كانت النساء مقبولة لديه، والوجه مكشوف. ذلك أن المعلم يقدّر أنه في هذا الجو، القائم على البراءة الفرحة الناشئة عن الرقص المقدس، ما من رغبة غير طاهرة، يمكن أن تتسرب إلى النفس.

وتدفع فطمة السلطانة ابنة أختها، الخائفة بعض الشيء، نحو الرجل القديس، وهو جالس على وسائد واطئة. ويقوم أحد أنصاره، بكل احترام، بمسح العرق عن جبينه. وسواء أكان نحيفاً، أم قصيراً، فإن في وسعه أن يكون كائناً من كان. أما الألق الذي كان يبدو أنه يشع منه خلال الاحتفال، فقد تبدد. وبدا للطفلة أنهم خدعوها. فهي الآن في غرفة مفروشة بلا ذوق، وتجاه إنسان عادي جداً، بين مجموعة من الأوفياء، من ذوي النظرات الناعية.

لكن خالتها تومئ لها. إذ يجب أن تتقدم لتقبل يده. فتصدر عنها حركة تراجع سريعاً ما تجاوزتها. وعلى كل حال فإنها حتى الآن كثيراً ما قبلت الأيادي، سواء أكانت خشنة أم ناعمة، عصبية أم رخوة، بخيلة أم كريمة، شهوانية خبيثة، أم ضعيفة ونشيطة، وأيادي تحبها وتعمرها، أم

أيادي تمت لو عضتها ، بدلاً من تقبيلها . بيد أنها عندما وقفت خاشعة بين يدي هذا الشيخ ، استقر في ذهنها أنها تساهم في كذبة أخطر من كل صور النفاق الاجتماعية ، التي رُبِيت عليها منذ الطفولة .

وكانت اليد بانتظارها ، موضوعة على وسادة من المخمل ، ناعمة وبيضاء ، تكاد تخلو من التجاعيد . وتنحني سلمى لتتناول اليد ، فإذا بها تنقلب ، مقدّمة راحتها . فنظرت إلى خالتها ، وهي في حيرة من أمرها ، فهمست هذه لها بالقول :

— قبلي هذه الراحة . فهو شرف كبير . ذلك أن الشيخ يفتح لك ويريدك قرية من قلبه . ومست بأطراف شفيتها هذه الراحة . وعندما نصبت رأسها راعها ذلك النور الشديد ، الذي يشع من عيني هذا العجوز ، إنه نور بلغ من الشدة ما حال دون أن ترفع بصرها عنه . أما بقية القاعة فقد ظلت معتمة . وفحاة شعرت بالخوف .

فجمعت كل قواها ، ونهضت متمايلة . وفيما يشبه الضباب ، لحت خالتها ، فتعلقت بساعدها . أما فطمة السلطانة ؛ فإنها لم تشعر بشيء . ترى هل حدث شيء ما ؟

والآن فإن الشيخ ينظر إلى البنية بالبسمة الطيبة ، التي تصدر عن جدّ مفعم بالتفهم والتسامح . ويدعوها ، بصوت حار ، إلى الجلوس على ديوان ، على مقربة منه ، حيث كان يوجد طفلان آخران من قبل . وتبتسم فطمة السلطانة ، لأنها سعيدة بهذا الاستقبال : فالشيخ لا يقرب منه إلا أولئك الذين يحبهم ؛ أي أولئك الذين يشعر أن في نفوسهم مزايا حقيقية .

وكانت الغرفة تمتلئ قليلاً قليلاً بالزائرين . والظاهر أنهم يعرفون بعضهم بعضاً ، ويتحدثون فيما بينهم ، سعداء بالتقائهم . وفجأة يفتح الباب ، ويدخل أربعة ضباط أتراك بالثياب الرسمية ويتقدمون .. فأزاح الجمهور لهم المجال لكي يمروا ، وتتعرف سلمى فيهم على بعض الراقصين ، الذين كانوا قبل بضع لحظات يدورون في المسجد . وبعد أن قبلوا يد الشيخ ، جلسوا على وسائل ، أمامه تماماً

وتعرض زوجة الشيخ ، التي تساعدها خادمتها ، ضيافة خفيفة من اللبنيّات والسكريات . فتنتعش المحادثة ، ويناقش الحضور بعض نقاط العقيدة . ويستغرب شاب وجود الشر في العالم الذي خلقه إله لا حدود لطيبه . ويقدم كل واحد رأيه . ويلاحظ أن الضباط يضطربون في مقاعدهم . وأخيراً وبعد أن عيل صبرهم ، تدخل أحدهم في الحديث ، فقال :

— ما سبب الشر؟ وهل هذه هي المشكلة؟ الواقع أن الشر موجود! بل إنه مدعوم من رئيس ديننا، الذي هو شيخ الإسلام الجديد!

فسكت الجميع، واتجهت الأنظار إلى الضابط الذي تابع كلامه:

— إن بلادنا في أيدي الكفرة. وسلطاننا خليفة المسلمين، رهينة لديهم. أو ليس واجبنا كمؤمنين أن نحزّه ونحرّر تركيا، حتى لا تكون الكلمة العليا في الإسلام بين أيدي المسيحيين؟

ويثبت نظرات عينيه على الشيخ الذي يقبل قوله بكل رصانة. ويقول:

— إن الحق معك، يا بني، إن هذا أول واجباتنا.

ويتابع الضابط كلامه، فيقول:

— وإذا فلماذا يدين شيخ الإسلام الجديد، إدانة علنية، هذا النضال الوطني الذي يقوم به مصطفى كمال في الأناضول؟ ولماذا أصدر هذه الفتوى، التي يجعلنا بموجبها خونة، ويأمر الشعب بحمل السلاح ضدنا.

وعندئذ أصبح الصمت ثقیلاً. وصار كل واحد ينظر إلى الشيخ الذي يتهدد.

— إنك تقول إن سلطاننا ليس حراً، وهذا صحيح. ولا بد أن شيخ الإسلام كذلك. ويستنكر الضابط هذا الوضع ويقول:

— لقد كان في وسعه على الأقل أن يأبى الكلام.

— صحيح أنه كان يمكن أن يكون... شجاعاً! ولكن لعله يقدر بنزاهة، كعدد غير قليل من مواطنينا، بأن النضال الوطني لا يأتي بخير، ولا يعطينا شيئاً آخر غير معاهدة صلح أفسى، تفرض علينا.

— سنكسب، أيها المعلم، فليس لنا من خيار آخر! أما الضابط الذي يبدو وكأنه الأكبر عمراً، فإنه ينهض ويستشهد الحاضرين، عندما يقول:

— منذ احتلال استامبول المفروض كعقوبة، نلاحظ أن الأنصار يقدون إلينا من كل أطراف البلاد، وحتى النساء والفتيات، يتركن أسرهن لكي يأتين ليعنن بجرحانا. ومنهن من تخاطر بحياتها كل يوم لكي تسلم الرسائل، أو لتنتقل بعض الذخائر الخبئة في أقمطة مواليدهن. ثم إن هناك

مواطنين على طول الطريق، المؤدية من استامبول إلى مقر قيادتنا العامة في سينوب، يستقبلوننا، ويطعموننا، ويخبئوننا. وبين هؤلاء نجد عدداً كبيراً من فرقنا الصوفية التي لا يخطر ببال المحتل أن يمضي لينقب في مقراتها.

ويتسم بعد ذلك، وينحني للشيخ.

— إن هذا، على ما تعلم، يا شيخنا، لتشجيع كبير لنا. وسلمى التي تسمع هذا كله، لا تكاد تصدق أذنيها. وهكذا فإنها موجودة في أحد مراكز النضال الوطني. فهؤلاء الدراويش الدوارون، وهؤلاء المؤمنون الصوفيون، وهذا الشيخ الذي يبدو لها محبباً أكثر فأكثر، هم... وتبحث عن الكلمة التي سمعتها البارحة لدى أبيها... كلمة متآمرين. ولهذا الاسم حالة من المغامرة والبطولة تقريباً. أو متآمرون كذلك خالها رفيق وخالتها فطمة؟ وهي التي تعرف الآن سر هذا المسجد، أتراها تصل إلى هذا القلب المشتت؟ إنها ترتعد من المسرة. وفجأة تصبح الحياة مثيرة، مشهية.

ولكن أفكارها تنقطع بوصول خادم يبنىء أن الصناديق حُمِلت على عربات الشوفان، وأن ثياب التنكر التي حُضرت للسادة الضباط جاهزة.

فيقول الشيخ، وهو يلتفت إلى الرجال الأربعة.

— شيء ممتاز. ستسافرون نحو منتصف الليل؛ أي في الساعة التي يبدأ النعاس فيها بالاستيلاء على الحرس المراقبين. وهناك درويش من عندنا يدلّكم على آمن الطرق.

وتتبه سلمى في أعماق الحلم: أصناديق؟ وإذن فهي أسلحة بالتأكيد! وإلى جانبها أبطال حقيقيون يحاولون الوصول إلى الجبهة! فتشعر بأنها فخورة بوجودها حيث هي. وتنظر معجبة إلى هؤلاء الرجال؛ فما أجمل سيماءهم! لا بد إذن أن نربح الحرب!

وكما لو أنه لم يجر أي شيء غير مألوف أو غير عادي، عادت الحادثة من جديد. ويروي الضباط وهم يضحكون، كيف أن الأسلحة تنتقل إلى الأناضول، رغمًا عن الإنكليز وفي حضورهم.

— إن الشعب التركي يساعدنا. ولكن تصوروا أن الجنود الفرنسيين والإيطاليين يساعدوننا أيضاً. فهم يزيدون غضباً من البريطانيين، الذين يخطفون لأنفسهم كل فوائد النصر، لهم ولحميهم الأغارقة: كإزمير مثلاً، التي أعطوها هؤلاء، وكان الإيطاليون موعودين بها. أما الفرنسيون فقد بدؤوا يفهمون أن الإنكليز بعد أن اقتطعوا لأنفسهم حصّة الأسد، ولا سيما العراق ونفطها، يريدون الآن

إحكام الخناق على تركيا، فلا يدعون للفرنسيين منها إلا منطقة كيليكيا. ويقال إن حكومة كليمنصو غاضبة جداً، حتى إنها تدرس إمكانية دعم مصطفى كمال، خفية. فهو يريد منع إنكلترا من السيادة على الشرق الأوسط، إرادة لا تنازل عنها. والنتيجة العملية هي: أن هؤلاء الشجعان يغضون النظر عندما يأتي الليل، فيدعوننا ندخل إلى مستودعات الأسلحة، بل إن موظفاً فرنسياً، يُدعى دولاكروا، وصل حديثاً، وقد وعدنا أن ينبئنا عن الليالي التي يكون فيها الحرس البريطانيون في شوق إلى القيام بنزهة.

كل هذا والحضور يصغون متعجبين، وفجأة تنطلق الضحكات. ويهتف بعض الشباب بطيش:

— لتعيش فرنسا. ولكنهم سرعان ما يكفون عن هتافهم بنظرات الشيخ العنيفة إليهم.

— ولكن قولوا لنا كيف تجتاز الأسلحة والذخائر، البوسفور لكي تصل بعد ذلك إلى الأناضول.

— إن جمعية مالكي المراكب (المسماة بالقايق) تعيننا مراكبها ونحن نمر ليلاً. وعلى الرغم من أنهم جميعاً تقريباً من الأرمن، فإنهم يقدمون لنا مساعدات ثمينة. (بهذا يجب أحد الضباط). ويقول رجل له ذقن كثيفة بيضاء.

— وما هو الشيء المستغرب في ذلك؟ إننا ما نزال نحفظ بكثير من الأصدقاء الأرمن، ولا سيما في استامبول، حيث تعيش الطائفتان منذ قرون بلا مشاكل. وهم يعرفون جيداً أن مذابح عام ١٩١٥، شرق البلاد، كانت جزئياً، حصيلة ما قامت به قبائل كردية كانت تتنازع على نفس الأراضي مع الفلاحين الأرمن. وبديهي، أنه ما دام يجب القضاء على الأمبراطورية العثمانية، فإن الصحافة الأوروبية جعلت عناوينها الكبرى تدور حول أمر « بقتل عام للناس » صادر عن استامبول. وكان ذلك الأمر في الحقيقة أمراً بنقل الناس إلى منازل أخرى، وأراض أخرى، وهو أمر لا إنساني بدرجة كافية، عندما يفكر الإنسان بالنساء والأطفال الذين ماتوا من الجوع والأمراض، خلال الطريق.

وسأل أحد المراهقين، وهو محمر الوجه من جرأته:

— ولماذا صدر الأمر بنقلهم ونفيهم.

واستنكر السؤال ذلك الشيخ ذو اللحية البيضاء، وقال :

— أو تظن أن حكومة، مشغولة بالحرب، تنقل أناسها من أرض إلى أخرى، إذا لم تكن هنالك دواع قاهرة؟ لقد كان الأرمن يعيشون في منطقة استراتيجية هامة، على طول حدودنا مع روسيا التي كنا في حرب معها. وكانت العناصر المتطرفة، ولنقل الوطنية، تطالب بالاستقلال بطبيعة الحال، وجاء الروس فوعدهم به، فسهلوا لهم انتقال جيوش القيصر، وهدوهم إلى مواقع الأتراك. وهكذا أصبحت حدودنا الشرقية، طريقاً سلطانية للغزاة. ولهذا أمر طلعة باشا بهذا النقل المأساوي، منعاً لدخول العدو.

فسكت الحاضرون. وكل منهم غارق في أفكار سوداء. وفجأة دوى صوت الشيخ قائلاً :

— إنك متفائل، يا جمال بك. إن هذه أقلية تساعدنا. والحقيقة أن أكثر الأرمن كانوا يدعمون المحتل، لأنهم كانوا يأملون دوماً، بالحصول على الاستقلال. وهم ينشئون لأنفسهم بذلك أوهاماً، هؤلاء المساكين. فالمحتل يستخدمهم. ولكن ما إن تنقطع الحاجة إليهم، حتى يدعهم وشأنهم.

وتظل سلمى تتابع النقاش، فلا يفوتها شيء منه. ذلك أن مأساة الأرمن، التي حدثتها عنها الأنسة روز ذات يوم، أثرت فيها وآلمتها أكبر الألم، لا سيما وأن واحدة من أفضل صديقاتها، وهي حفيذة وزير، كانت أرمنية. وكانت قد فكرت بسؤال أمها، لكي تقدم لها شرحها لهذا الأمر. ولكن ما كادت تبدأ الكلام، حتى امتلأت عينها السلطانة بالدموع. وكانت هذه أول مرة ترى سلمى فيها أمها تبكي، مما جعلها تضطرب نفسياً أكبر الاضطراب.

— عفواً، عفواً أينديجيم. بهذا دمدمت الصغيرة وهي تقبل يدي أمها، وهربت، وقررت في نفسها ألا تأتي أبداً على طرح هذه المشكلة مرة أخرى.

وهذه هي المرة الأولى التي بدأت فيها سلمى تفهم أن شيئاً خطيراً جداً قد جرى في بلدها، فلا أحد يتحدث عنه. وعندما كانت صغيرة، كانت تقبر الأشياء التي كسرتها، ظانة أنها بذلك حذفت المشكلة. فقالت في نفسها: إن الكبار يتصرفون أحياناً كما لو أنهم أطفال.

ومرّت الخادمة بصينية، تقدّم منها للمدعوين كؤوس زهورات ذات لون عسلي. ويصنع هذا بالاعتماد على أعشاب الحديقة. فهو خليط يهبأ بصورة خاصة لجماعة المسجد، ويسمونهم « مشروب الصفاء ».

لكن الشيخ يبقى قلقاً .

— يقال إن مصطفى كمال صديق للحكومة البولشفية ، وأنه قد يكون هو شيوعياً . فهل هذا كلام صحيح ؟

فيستسم أحد الضباط ، هازئاً . ويقول :

— كمال ليس أكثر شيوعية مني ! وأفكار المساواة ، على ما أستطيع تأكيده لكم ، لا تهمه مطلقاً . إنه على الأصح من نوع « الديكتاتور » . ولئن كان يتقرب من السوفييت . فذلك لأنه بحاجة لمساعدتهم : فنحن نقتصنا المال والذخيرة . وقد تعهدت الدولة السوفييتية بأن تقدم لنا ستين ألف بندقية ، وحوالي المئة شاحنة ومليون ليرة ذهبية . فاعترفوا أن إنقاذ الخلافة يذهب هؤلاء الملحدون ليس بأمر عادي !

فيضحك الحاضرون جميعاً . لكن الشيخ غير مستريح . ويلجأ على الموضوع قائلاً :

— إن البولشفيك مهرة ، وهم يحاولون إقناع المسلمين في روسيا أن الشيوعية والإسلام هما مثل أعلى واحد . ويبرهنون على ذلك ببعض آيات من القرآن ، حول المساواة بين الناس ، فوق الأرض التي لا يملكها أحد إلا الله . على أن ثمراتها تعود لذلك الذي يعمل فيها . ولقد نقلوا عدوهم إلى شمال فارس ، حيث بدأ بعض الملايات بتكرار هذه الأفكار التخريبية . ويبدو أن بعض الشيوخ في الأناضول ، القريين من كمال باشا ، يرددون هذه الترهات .

وبدأت لهجته هنا تصبح قاسية .

— قولوا باسمي للجنرال بأنه ما من فرقة صوفية ستدعمه إذا هو ترك الأفكار الشيوعية تتسرب إلى شعبنا ، حتى ولو كان في ذلك إنقاذ لتركيا .

— لا تخف ، يا شيخنا ، ذلك أنه إذا صار للشيوعيين أهمية أكبر مما يجب ، فإنني مقتنع أن كمال باشا سيكون أول من يقضي عليهم .

فهر الشيخ رأسه كما لو أنه قد اقتنع ، ومضى يرشف ببطء مشروب الصفاء . ولقد تأخر الوقت ، والمسألة الأعظم أهمية ، والتي تخطر ببال الجميع ، لم يطرحها بعد أحد . وأخيراً فإن الضابط الشاب الذي أظهر أكبر الاستياء من تصرف شيخ الإسلام ، تشجع وقال :

— يا شيخنا ، قل لنا ، ماذا تراه في أحلامك ؟ أترانا نربح الحرب ؟

وبدا الشيخ مبدّداً في أفكاره ، فتساءل سلمى عما إذا كان قد سمع السؤال . وبعد عدة لحظات ، وكأ لو أنه كان في حالة غيبوبة ، يقول بصوت أصم :

— إن الحرب ستكون طويلة . وتركيا ستطرد الكفرة ، ولكنها ستغلب على يدهم . فسمعت دمدمة بين الحاضرين .

— كيف ؟ اشرح لنا ماذا يعني كلامك هذا ؟

— لا أعرف عن الموضوع أكثر من هذا . أما من الوجهة العسكرية فسننتصر ، ولكن أوروبا ، بدءاً من هذا الانتصار ستصبح السيد الحقيقي .

وسكت ، كأنه منهك .

ويسأل أحد الضباط

— ولكن عندئذٍ ، أيجب علينا أن نمضي لنقاتل .

فانتصب الشيخ ، وهز رأسه بهيئة من عيل صبره . ويقول :

— ولكن لِمَ كل هذه الأسئلة . إن واجبكم اليوم هو أن تفعلوا كل شيء لتحرير الأرض . أما غداً ، وبعد عشرات السنين ، فإن أبنائنا وأحفادنا سيكون عليهم ، على الأرجح ، أن يشنوا على الأجنبي ، حرباً ، أهم من هذه ، وأساسية .

وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل قليلاً ، عندما عادت سلمى وخالتها إلى القصر ، حيث كانت خديجة السلطانة تنتظرهما ، مع أختها فهيمة . وكانت في نقاش كبير . ذلك أن السلطانة تلوم أختها الأصغر منها على حضورها استقبالات السفارة الفرنسية بانتظام . وتقول :

— ألم يعد فيك أدنى حياء ! إنهم يحتلون بلادنا . فهل نسيت ذلك . فكيف تسمحين لنفسك بأن تمضي إلى هناك لتستعرضي جمالك عند العدو ؟

وترد فهيمة على أختها قائلة على سبيل التصحيح :

— يا عزيزتي ، أولاً لست أنا الوحيدة من أسرنا ، في مثل هذه الحال . بل إن بعض أمرائنا يذهبون بانتظام إلى الصالونات الفرنسية . وأي شر ينشأ عن هذا ؟ قولي لي . أما إذا شئنا أن نعيش

عيشة الرقاد، فهل تظنين أن البلاد ستتححر بسرعة أكبر. واللذة عند فطمة، هي أن تذهب إلى مسجد فرقتها. أما لذتي هنا فهي الذهاب إلى البالات. فماذا تفعل هي، وماذا تفعلين أنت، أكثر مني، لخير تركيا.

فيجيب صوت صغير

— نحن، نحن نتأمر

وتتجه فوراً ثلاثة أزواج من العيون. نحو سلمى، التي خافت من جرأتها نفسها. وتمت لو أنها تحت التراب بمئة متر. ترى أية حشرة لسعتها، هذه التي تعرف، بصورة عامة، كيف تحصن لسانها؟

وتنظر فهيمة إليهن بهيئة الساخرة

— أتناّمون؟ إن هذا جميل. حسناً. تصوروا أنني أيضاً، أتأمر، وعلى الأرجح، بصورة أنجع منكم. لأنني أشتغل بالديبلوماسية العليا. وأبرهن للمسؤولين الفرنسيين الذين يرسلون كل يوم تقاريرهم إلى باريس، أن الأتراك قوم متمدنون، وهم أصدقاء لبلدهم، وأننا فهمنا أخطاءنا الماضية، ولا سيما ذلك التحالف المشؤوم مع ألمانيا، وأننا غداً، عندما نملك أعنة السلطة، سنكون الحلفاء الأوفياء لفرنسا!

وتتردد سلمى: فخطاب حالتها يبدو لها مقنعاً. ولكن خديجة السلطانة ترفع كتفها.

— سيفعل الفرنسيون ما يرون أنه الأفضل بالنسبة إليهم. وابتساماتهم ليست هي التي تحملهم على تغيير رأيهم، يا أختي. وبالمقابل، فإن الشعب التركي الذي يراك تذهبين إلى الرقص لدى من يضطهدهم، قد يحاسبك يوماً ما على ذلك، أنت وكل أسرتك!

١٢

— حسناً يا عزيزي، وبرافو لهذه المرة. إن جلالته أظهر الحزم؛ فقد أصدر حكمه على كمال بالموت! وبالموت على من بدأت البلاد تعتبر أنه بطلها، والوحيد الذي يجزؤ على رفض أوامر المحتل، والوحيد الذي أعاد تكوين جيش، وجيش يحارب! إن هذا أمر لم يسمع به! ولعل الناس توقعوا أن الباديشاه، يمنحه وساماً... ولكن لا، فالسلطان لا يصغي إلا لصهره، الداماد فريد، هذا الخادم لمصالح إنكلترا. وهذا ما يدعو للتساؤل عن المصالح التي تريد حكومتنا أن تتخذها، أتلك التي لبريطانيا، أو تلك التي تخص الشعب التركي.

واصفر لون خديجة السلطنة لهذه الإهانة. فمنذ عدة أسابيع وزوجها يشاحنها مرة بعد مرة، كما لو أنها المسؤولة عن أعمال السلطان. فماذا يريد فعلاً؟ أن تنتكر للسلطان؟ وهو يعلم أنها لن تفعل ذلك أبداً، لا وفاءً أعمى للأسرة، ولكن لأنها مقتنعة بأن الباديشاه الذي تعرف ذكاه ومهارته، يلعب لعبة مزدوجة؛ فإدانة كمال الموجود على مئات الكيلومترات، بعيداً عنه، هو عمل رمزي محض... ثم إن جيش الخلافة المرسل من استامبول لمحاربة الكماليين، ليس في الحقيقة إلا عصابة من المتطوعين الذين لا يخضعون لنظام. وبعد بضعة انتصارات رنانة، نراه الآن يمر بالهزيمة بعد الهزيمة. وما هذه التدابير إلا كاذر للرماد في العيون، وغايتها أن يحمل الإنكليز على الصبر.

وبالمقابل فإن السلطان يود أن يتخلص من الصدر الأعظم، الداماد فريد. فمنذ زمن غير قليل، عرف تماماً من هو زوج أخته. ولكن هذا الإنسان مفروض عليه من قبلى البريطانيين.

وخديجة تبذل جهدها لكي تحتفظ بهدوئها، وترى أن من المنافي لكرامتها أن تبدو متأثرة بهجمات زوجها.

وتبدأ ردها فتقول :

— إصنع لي ماروته لي صبيحة السلطنة، التي كنت أتغدى معها قبل البارحة. فعندما استدعي الداماد فريد، لتشكيل الحكومة، ذهبت إلى السلطان أبيها، وقالت له : «إني لم أعد أفهم. لقد كنت عظيم السرور برؤيته يترك الوزارة، منذ ستة أشهر فقط؟». وأجابها السلطان: آه، يا صبيحة، لو أنك تعرفين.. فأنا لا أملك من الأمر شيئاً.

فغضن خيري بك إحدى شفثيه، تغضينا يعبر عن الاحتقار.

— ليكن، فعمك لم يعد يملك أية سلطة. ولكنه يستطيع أن يتنكر لحكومة «الكراكوز»

هذه !

أما سلمى الموجودة في زاوية من البهو الصغير، فكانت لاتنقضي دهشتها. فهي لم تكن تعرف أن أباه مشغوف بالسياسة إلى هذا الحد، وهو الذي كان فيما مضى يهدئ النقاش الذي يُثار بين أصدقائه، بكثير من المرح والمزاح. وإها لتشعر أن حقه لا ينصب على السلطان نفسه، بل على زوجته. فتتنظر إلى أمها. ولكن هذه تظل صامدة تثبت نظراتها على عيني زوجها.

— خيري، أتصدق حقاً، أن على السلطان أن يرر نفسه؟ وفي رأيي أن الباديشاه يسكت لكي يتخذ حذر العدو، ويترك لكمال ما يكفي من الوقت، لكي يعزز جيشه. ذلك أن وزن هذا الجيش هو رصيدنا الأساسي في محادثات السلم، التي تهيأ الآن. وليس للحلفاء أية رغبة في العودة إلى السلاح. فإذا هم وجدوا مقاومة قوية في الأناضول، فسيكونون مضطرين للتخفيف من غلوائهم.

ويهز خيري بك كتفيه بغضب.

— كالعادة، لديك جواب جاهز لكل سؤال : والحقيقة أن سلوك السلطان لا يعذر.

وعندئذ، نظرت إليه خديجة السلطنة، كأنها ترن شخصه.

— ولكن يا صديقي، إذا كنت تفكر بهذه الصورة، فلماذا لاتمضي لتحارب مع الجنرال. وهناك تستطيع أن تبرهن على شجاعتك ووطنيتك.

وتسمع قرقرة جافة — بين يدي الداماد، البيضاء. إذ لقد انكسرت عصا العاج فيها. وقد رمى بالبقايا تحت رجلي السلطنة، وخرج دون أن يقول كلمة.

إلا أنهما في غمرة المناقشة، نسيا سلمى، التي تصاغر كل التصاغر على مقعدها. يا الله، كم تحتقر وتكره هذه المجاهبات، المتزايدة عدداً، بين أبيها وأمها. وليتهما كانا يختصمان! ولكنهما في سخريتهما الشديدة البرودة يصلان إلى الأسوأ. ويبدو لها أن جداراً يقوم بينهما، لكنه يزداد ارتفاعاً كل يوم.

أما أن تعرف أياً من الاثنين هو على حق، فهذا لا يهمها. وكل ما تتمناه هو أن يسكتا، ويتوقفوا عن تمزيق بعضهما، وعن تمزيقها هي..

ويصعد زينيل، وقبضتا يديه مشدودتان، يصعد الشاطئ الغربي من البوسفور الذي ينزل بهدوء، من خلال البساتين والياليات^(١) باتجاه القرن الذهبي. وكانت السماء تمطر رذاذاً، وكان القمر الضعيف يهب المساجد والقصور نوعاً من الألق الغامض.

يمشي الخصي، ذاهلاً عن جمال المدينة التي تملؤه عادة بعواطف متناقضة من الاعتزاز من جهة أولى، ومن الشوق من الجهة الثانية إلى جبال ألبانيا الخشنة، يمشي غير عاىء بالطراوة المعطرة لتلك الليلة الربيعية، ويتقدم، ثم يقف، ويعود أدراجه، وهو غارق في أشد صور الاضطراب.

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة. وكان على محمود أن ينتظره. ولكنه لم يعد قلبه يشده إلى لقاءه. فيختنق مما يشعر به من استنكار وغضب مقتول بالعجز.

وكما يجري كل مساء بعد العشاء، تقدم باتجاه باب السلطنة لكي يسألها عما إذا كان بها من حاجة إلى خدماته، أو إذا كان في وسعه أن يكون حراً.

ولكن صوتاً جاداً، على العتبة، سرعان ما عرفه، وهو صوت خيرى رؤوف بك، استوقفه مباشرة. فتجمد في مكانه، وأصغى قلقاً، واستعد للتدخل إذا ما انفجر ذلك العنف الذي كان يشعر أنه يتصاعد تدريجياً في كلمات الداماد.

وكان يغامر في ذلك بموقعه في القصر، ذلك أنه، بعد كل شيء، ليس إلا خادماً. فمن يعطيه الحق بالوقوف بين سيدته وزوجها...؟ ويتذكر سيدته. وتعلو شفثيه ابتسامة. فقد تعود أن

(١) البالي: بيت من الخشب المحفور.

يسمى السلطانة بهذا الاسم ، متذوقاً ذلك الالتباس اللذيذ الكامن في الكلمة الفرنسية* ، هذه اللغة الرائعة ، لغة التأنيق والتحبب ! وما من مرة تجرأ على النظر إليها بعينيه ، ولكن أحلامه ... ومن يملك أن يمنع عنه الأحلام ؟

وفي ذلك المساء . تخفى وراء ستارة المخمل ، وانتظر ، وقلبه خافق . ولكن الداماد لم يتح له فرصة البرهان على إخلاصه ، تحت نظرات السلطانة الساحرة . فهرب ...

هذا « العديم الكرامة ! » ، يثير غضب زينيل وهو ينتزع بعصبية أوراق غصن من المانوليا . ترى كيف وقعت السلطانة في حب رجل بهذه التفاهة ، وكيف تتحمل وقاحته ، على حين أن وجوده كله متعلق بها ؟

ومن بعيد ، كان جرس كنيسة من كنائس بيرا قد بدأ قرعه . وبصورة آلية عدّ زينيل القرعات : إنها الساعة الحادية عشرة . ويتخيل وجه محمود في قلعه ، وأصابعه الدقيقة ، ضارباً بها ، جزعاً ، تلك الطاولة الرخامية في المقهى الذي تعودا الالتقاء فيه . وهذا المقهى هادئ ، يُظلمه مسجد السليمانية . ولقد اختاره زينيل لأن الذين يختلفون إليه ليسوا إلا سكان الحي الذي هو فيه . وما من إنسان يستطيع التعرف عليهما .

وهما يلتقيان فيه مرة أو مرتين في الأسبوع . ولكن الحضي تصيبه أحياناً أزمة من أزومات الاكتئاب ، إما لأن السلطانة وجهت إليه كلمة خشنة ، وإما لأنها بدت غير مبالية به . وعندئذ يبلغ موعده . ومحمود لا يقول شيئاً . أما من أجل حبيبته ، فهو دائماً حر .

والآن يجب الاستعجال ، والنزول إلى حي غلاطة (غلطة) الذي تلاحظ من بعيد أنواره الحمراء والزرقاء ، ثم اجتياز الجسر ، في هذه الساعة التي يعج فيها الصاخبون . وأخيراً فقط ، وبعد أن يكون قد تجاوز هذه « العاميات » يصل إلى الأزقة الهادئة في استامبول القديمة .

غير أن الشجاعة فارقتة ... أو قل إنه لم تعد له الرغبة الكافية . ويشعر بأنه مرهق ، تعب ، من ذكرى هذا الجسم الفتى المطيع . وهاتين العينين الساذجتين ، وهذه الأيدي المداعبة . ترى لماذا يحبه هذا الصبي بهذه القوة ؟ أما هو فيشعر تجاه محمود بالحنان ، بالعاطفة الرقيقة . أما الحب ، والهووى ... بين بشر مثلهم ! ... فهذا شيء يبدو له تافهاً .

ويتردد . فإذا هو لم يذهب إلى الموعد ، فإنه سيعذّبه والمسكين لا يستحق ذلك . ولكن إذا

* كلمة maitresse الفرنسية ، تعني المعلمة ، والعشيقة أيضاً . وهذا هو الالتباس المقصود هنا .

هو ذهب إليه؟ ... ولما كان مغموراً في ذلك المساء بصورة سيده، فإنه سينطبع في نفسه أنه خائناً. وسيرتد أثر ذلك، على محمود. وهو يعرف هذا من نفسه.

الأفضل إذن أن يعود أدراجه.

ويمضي زينيل في طريقه إلى قصر أورطاكوي، غاضباً على نفسه، وعلى الفتى، وعلى الأرض كلها.

وفي اليوم التالي صباحاً، كان الجو نرجسياً. وهذا ما يطلق على اللون الزهري الذي تضفيه السماء على المناظر الطبيعية، بعد المطر.

وكانت خديجة السلطانة قد قررت أن تذهب مع سلمى لزيارة مسجد أيوب، حيث قبر حامل علم الرسول الذي قتل عام ٦٧٠، في أول حصار للقسطنطينية على يد المسلمين. وهناك أيضاً نجد سيف السلطان عثمان، مؤسس الدولة العثمانية، وهو سيف يتقلده كل سلطان جديد يوم تنصيبه. وهكذا فإن المسجد الصغير، القائم في نهاية القرن الذهبي، يعتبر، من وجهين، رمزاً لنضال الإسلام ضد المسيحية. وفي مثل هذا الوقت من المذلة والكوارث، كثيرون أولئك الذين يذهبون من الأتراك لزيارته، بحثاً عن الشجاعة والأمل.

وتحب سلمى هذا المعبد المختبئ داخل الخضر. وتحب بصورة خاصة تلك المقبرة، التي تحيط به وتمتد حتى قمة الهضاب المشرفة على البحر. إنه واحد من أقدم معابد المدينة. وكل حجرة من حجارة القبر هي بذاتها عمل فني. وهذه الأحجار المرتفعة باتجاه السماء، بعضها تحت عليه عمائم احتفالية، تزداد علواً بمقدار ما تزداد قدماً، وبمقدار ما يكون الميت شخصية هامة. وبعضها الآخر أحدث عهداً، ولا توجد عليها إلا طرايبش بسيطة. أما قبور النساء، فهي مزينة بقرون الغزارة الناعمة. ثم نجد فيه أيضاً حجارة دقيقة جداً، مزينة بطريوش أو بطوق من الزهر: وهنا توجد قبور الأطفال: ولاحظت سلمى أنها كثيرة جداً.

وخلال ما هو أكثر من ساعة، تجولت السلطانتان في المماشي، أما البنت فتحلم، على حين أن أمها تُجر حبات المسبحة المصنوعة من حجارة المرمر، ذاكرة أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين. ومن حين لآخر، تقفان أمام قبر إحدى الشخصيات المشهورة أو أحد الأصدقاء. أما خديجة السلطانة فتتلو على روجه الفاتحة. وأما سلمى، الواقفة إلى جانبها، فإنها تحبس أنفاسها، محاولة بكل قواها أن تلتقط الرسالة التي يجرب الميت — وهي تُحسّ ذلك — أن ينقلها إليها.

ولكنها لا تنجح . فيحزنها ذلك وينطبع في ذهنها أنها خانت واجباً مقدساً وهي تقنع نفسها أنها ذات يوم ، إذا هي عنيت بالأمر بدرجة كافية ، فستنتهي إلى أن تسمع ما يريد الموتى أن ينقلوه إلى الأحياء .

ويبدو لها أن الاتصالات بين العالمين ، طبيعية ، ذلك أنها طالما هُدهدت بقصص مرضعتها ، وهي سوادنية سمينة ، اعتادت أن تتحدث مع الأشجار والأزهار ، التي هي تجسيد جديد لأرواح الموتى ، على ما تؤكد المرأة الطيبة . ولئن كانت الأكثرية بينها خيرة ، فإن منها من تريد إرغامها على القيام بأعمال سيئة . وعندئذ تكون مرغمة على الصراخ بصوت عال ، لإخافتهم .

وتمر سلمى وأمها لدى خروجهما من المقبرة ، على المقهى الذي كان يبيع لوتي يأتني إليه بحثاً عن الإلهام ، وهو بيت بسيط جداً ، أحيط بشرفة تعطرها رائحة الياسين . ومنه يمكن أن نتأمل المياه الملونة بألوان قوس قزح ، وهي مياه القرن الذهبي .

وتدمدم خديجة قائلة :

— هو على الأقل لم يَحْثَا . أما أصدقاء الأيام الحلوة ، فيُديرون لنا ظهورهم ، لكنه هو يستمر بلا كلل في الدفاع عن قضية تركيا . وهو أحد الأشخاص النادرين ، الذين يقدسوننا ويحبوننا ، ذلك أنهم قلماً اعتادوا أن يفهمهم الأوروبيون بحيث يردونه له مقابل الواحد مئة . وما من أجنبي في تركيا ، يُحِبُّ بقدر بيير لوتي .

وعندما عاد سائق العربة ، فنزل إلى المدينة ، وجد أكبر الصعوبة في توجيه العربة ، في الطريق الغاصة بمن فيها . فالناس يتجمعون حول صغار باعة الصحف ، مظهرين ما يدل على أكبر الاضطراب .

— ولكن ماذا يجري أيضاً ؟

وطلبت السلطانة ، القلقة ، من زينيل أن يستطلع الأخبار بسرعة . وما هي إلا دقائق قليلة ، حتى عاد الخصي ، ومعه صحيفة مؤطرة باللون الأسود . ومن شدة الجزع ، انتزعها منه بيديها ؛ فرأت على الصفحة الأولى ما يرضعُ الحلفاء من شروط لتوقيع معاهدة السلم مع تركيا . فتقرؤها بسرعة ، وتعود فترغمي على وسائل العربة ، قائلة :

— لأنهم مجانين ! وما يطلبونه ليس إلا قراراً بالإعدام ، يريدون أن نوقعه ...

وظلت السلطنة، خلال ما بقي لقطع الطريق، مجمدة، لا تتحرك، ورأسها مستلق إلى الراء، وعيناها مغمضتان، وسلمى الخائفة، تتأملها دون أن تجرؤ على القيام بأية حركة.

أما الأيام التي تلت، فقد كانت سوداء، مبكية. فشعب استامبول، متأثراً متأثراً بالغاً من الصدمة، وهو لا يستطيع أن يصدق ما أصابه. فأكثر الناس تشاؤماً لم يتخيّلوا قط أن الحلفاء سيفرضون على البلد شروطاً دراكونية بهذا العنف. وكان المطلوب هو بكل بساطة، تجزئة تركيا.

فتراقيا الشرقية تصبح لليونان، وكذلك مدينة إزمير الغنية، ومنطقتها كلها. أما شرق تركيا، فيصبح أرمنيا، وتستقل منطقة الأكراد. وأما جنوب الأناضول فيصبح مناطق نفوذ لكل من فرنسا وإيطاليا، بحيث لا يبقى لتركيا إلا هضبة الأناضول، مع نافذة تطل على البحر الأسود، بالإضافة إلى استامبول، وهي منطقة محصورة، محاطة ببضع عشرات من الكيلومترات المربعة. ولكن حتى هذه المنطقة المحصورة ليست مستقلة. وكذلك المضائق التي تؤلف طريق وصولها إلى البحر: فكل هذه يجب أن توضع تحت الوصاية الدولية، وتخضع العاصمة العثمانية للرقابة العسكرية والمالية للحلفاء.

وأصبح الوضع في المدينة متوتراً. واشتدت المظاهرات. وأولئك الذين كانوا منذ عدة أشهر، يدعمون سياسة المرونة، والتفاوض، لم يعودوا يجروؤن على التفوه بأية كلمة. وبالمقابل، فإن أنصار مصطفى كمال والنضال المسلح، لجماعات طليعية صغيرة، قد أصبحوا الأكتية الكبرى. وفي كل يوم، وتحت مختلف صور التنكر، كان الوطنيون بالمئات يصلون إلى الجبهة. وبطبيعة الحال فإن الصحف المراقبة لم تكن تعطي قراءها أي معلومات عن حوادث الأناضول، ولكن الناس جميعاً لا يتحدثون إلا عن المعارك التي تدور فيها، وعن نجاح الكمالين. وفي قلب الحي القديم، أصبح البازار مصدر الأخبار الأول. وكان الباعة أمام دكاكينهم، وحول كأس من الشاي يتبادلون بكلمات مغطاة آخر الأخبار، التي يأخذونها من الفلاحين الذين جاؤوا لبيعوا محصولاتهم، أو عن المتطوعين الذين يؤمنون الاتصال بين المنطقة المحتلة، والأراضي المحررة على يد الجماعات الوطنية. وكل إنسان عندما يقوم بمشترياته، يلتقط محصوله من الإشاعات.

وفي قصر خديجة، كان الحصيان يؤمنون الاتصال مع الخارج، عندما ينقلون، بالدقة، كل الأقاويل، والإشاعات. وذات يوم، وحول منتصف حزيران / يونيو / وصل زينيل وعيناه تبرقان، ليقول:

— إن الكمالين سحقوا جيش الخلافة، بل إنهم تجاوزوا مركزاً بريطانياً متقدماً، ووصلوا إلى

توزلا Tuzla. وليسوا الآن إلا على مسافة ٣٠ كم من هنا. ويبدو أن لديهم العزم على دخول استامبول، خلال أسبوع، أي في آخر أيام يرم، من أجل عيد السكريات.

وتكبت السلطنة رجة كادت تعثرها. وتسأل:

— كيف عرفت ذلك؟

— إنني أخذت الخبر من سائق رئيس تحرير جريدة علمدار، الذي أخذه هو عن زوجته، التي هي أفضل صديقة لبنت أخت الصدر الأعظم. ويبدو أن هذا الأخير قلق جداً، لا سيما وأن الإنكليز يلومونه على أنه جعل منهم أضحوكة بما سماه « جيشه الذي لا يقهر » جيش الخلافة، والذي لم يقاوم شهرين.

وارتسم في عيني خديجة السلطنة، بارقة سخرية. ولكن شعورها بالانتصار، سرعان ما أخلى المجال للقلق. فإذا اقرب الكماليون أكثر، فإن الجيوش العدو لن تبقى مكتوفة اليدين! وسنكون في الحرب مرة أخرى، ولعلها أشد عنفاً وضراوة مما كانت عليه من قبل، ذلك أنها ستتضاعف بحرب أهلية. وهي لن تجري بعد الآن، على جبهة بعيدة، فتقتل عسكريين، كما هو قانون كل حرب، بل ستجري هنا، داخل العاصمة نفسها. وتتخيل خديجة معارك الطرقات والمدينة المقدوفة بالقنابل، وعشرات الألوف من الموتى، بين نساء وأطفال. فترتجف. وعندما كانت تمنى النصر للكماليين والقوى الوطنية، فإنها لم تفكر قط بهذه الحقيقة. وفجأة أخذت تأمل بأن الكماليين سيروّون على أعقابهم قبل أن يبلغوا ضواحي استامبول. ولكنها تراجع نفسها مباشرة. فماذا؟ أتفكر إذن كما يفكر الخونة! ومن الأفضل بالتأكيد أن نموت من أن نعيش مدّلين تحت جزمة الأجنبي! بالتأكيد...

فأغمضت عينها لترى استامبول مهتمة، وهي مدينتها الغالية. وكذلك قصر توبكابي الذي سكنه خمسة وعشرون سلطاناً، ومثله الأكشاك الرخامية، وبحيرات البورسلين والمرمر، ومهدمة أيضاً ضوالة باهتته، الحلم الأبيض الذي ولد من البوسفور، ومحروقة تلك المساجد الألف، زهو مدينة الخلفاء، والحنانات والمدارس القرآنية القديمة؛ أي كل هذه الروائع التي نشأت خلال القرون، وسيبىد هذا الانسجام... وينسى هذا السحر... وتفهم خديجة، على دهشة منها، أن هذه التوقعات تُروّعها، أكثر من خسارة الأرواح البشرية.

لكن سلمى لا تشارك أمها في هذا القلق. فكل شيء بالنسبة إليها بسيط؛ فمصطفى كمال سيأتي لطرد الجيوش الأجنبية. وستعود للسلطان سلطته، ويصدر قوانين، غايتها أن تعود تركيا

فتصبح مزدهرة، كما يصبح الناس سعداء. ومن الأرجح أن يعيّن مصطفى كمال، صديقاً أعظم، لأنه يحسن مكافأة الخدمات الوفية.

وخالدة أديب؟ إن سلمى تعود فتري المرأة ذات الثوب الأسود، التي كانت تخطب في الجماهير، مساء الاستيلاء على إزمير. وعندها أن خالدة هذه تجسّد فكرة الحرية. ستعمل إذن في حقل المرأة، وستلغي هذه الملاءات البغيضة، وهذه المشرييات الخانقة، وتفتح نوافذ العربات، وأبواب الحرم. وستساعد سلمى. وهما معاً، ستؤسسان عالماً جديداً، لا يضيق به صدر الإنسان أبداً. ويكون في وسع النساء أن تصبح ملوكاً أو سلاطين، كما هي الحال في إنكلترا.

أما الأيام التالية، فإن استامبول ستعيشها في جو محموم، مارة بالتوالي من الحلم إلى الكابوس. أما الناس الذين أصبحت أعصابهم، على سطح جلودهم، فيصابون بنوبات ضحك أو غضب، حتى من غير سبب. وأما في الشوارع، فإن بعض السيدات يبعن خلسة، بعض الشارات التي تحمل الأعلام الوطنية، فيضعونها على قفا الريدنجات، بانتظار النصر. والمدينة كلها واجفة تعيش في أوجع التوقعات، ولكن الأخبار تبقى هي نفسها: ففي توزلا يتهبأ الكماليون للمعارك القريبة.

ويصل عيد السكريات دون أن تصل جيوشهم إلى مسافات أقرب. وفي مقر أورطاكوي، خليط من الخيبة، والسلى، إلا سلمى التي تأكل، من شدة الغين، لعبتها الكبيرة من الأقدام إلى الرأس، تلك اللعبة المصنوعة من السكر والتي قدمتها لها أمها، وعليها أن تلزم السرير، بسبب سوء الهضم.

— أيتها السلطانة الصغيرة، إن كمال باشا لن يأتي... فقد رماه الأغارقة بست فرق. وجيوشه أقل عدداً، وأدنى عدّة. وهي تتراجع على كل الجبهات.

وماذا؟ أكان يكفي أن تلازم السرير لمدة أربعة أيام، حتى يتغيّر وجه العالم! لقد كانت مريضة، فضعف انتباهها، وأهملت دعواتها. وهال إن الله يتخلى عنهم، وجيش كمال الذي لا يغلب، يتراجع مهزوماً! وتشعر سلمى بأنها خينت: إما من الله أو من الكماليين، أو من الأغارقة. وليس ذلك واضحاً. ولكن من المؤكد «أنهم» استفادوا من غيبيتها!

وتعلقت باليد الضخمة، يد النونو التي حملت إليها هذا الخبر الفاضح.

— على ركبتيك ، إلى جانبي ، يا دادا . نريد أن ندعو وندعو ، ونصلي ونصلي حتى نرغم الله على الإصغاء إلينا . إنه الرحمن ، الرحيم ، العظيم ، الكريم . فلا يسعه أن يكون بمثل هذا الظلم .

ولنسرع ، بالوضوء ، لكي نطهر القلب ، وبالسجادة الصغيرة لكي نعيّن مكان الصلاة . وهكذا تقف جنباً إلى جنب تلك السوداء السمينة ، وهذه البنت النحيلة الحمراء ، وتبدأ معاً بترداد الجملة التقليدية : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ... لاحق إلا الله ، ولا شيء يتم بدون إرادة الله ... » .

وإذن ، فالله يفضل على الشعب التركي الطيب هؤلاء الأغاريق التجار ، المهذارين ، وهؤلاء الإنكليز الذين لا طعم لهم والمغرورين ؟ إن سلمى لا تستطيع أن تصدق ذلك . وها هي راحتا اليدين مفتوحتان باتجاه السماء . وبهذه الحركة التي تعبر عن الخضوع لله ، والتي تمثل في هذه اللحظة ، توسلاً تهتز له الجوانح ، لاتنقطع سلمى عن تكرار قولها :

— أيها الإله القادر على كل شيء ، إنني أدعوك أن تساعدنا ، وتحقق النصر لمصطفى كمال باشا !

وكانت دموعها تجري بغزارة جعلت ياقتها المكشكشة البيضاء مبللة كلها .

ولكن هناك سؤالاً ، كان يعذب البنية . فلا إله إلا الله ، على ما علمها الشيخ ، وإله المسلمين وإله المسيحيين واحد . فإذا ما تضرّع أطفال المسيحيين إلى الله بنفس القوة التي يتضرع فيها أطفال المسلمين ، فسوف يعيي الله ، أن يختار بينهم ! ويجب أن نجعل الميزان يميل إلى « الجهة الصالحة » .

ومنذ اليوم التالي جمعت سلمى أطفال الإماء والعبيد . وكانوا خمسة عشر من الصبيان والبنات . وكانت هذه المجموعة تجتمع خمس مرات في اليوم ، في زاوية الحديقة ، على مقربة من حقل الورود ، الذي ينثر روائحه الذكية في آخر شهر حزيران / يونيو / عادة . وبعد أن يكون الأطفال قد وضعوا سجادات الصلاة الحريرية ، على طبقة العشب الأخضر ، ليصلوا بكل خشوع ، باتجاه مكة ، وراء السلطانة الصغيرة ، التي تؤم الصلاة وتتلو الآيات المقدسة المطلوبة ، بأكبر التقى .

بيد أن الأيام تمر ، وهي تحمل بانتظام لا يتغير ، حصتها من الأخبار السيئة . وهكذا تتأكد هزيمة القوى الوطنية ، وتفوق الأغاريق ، تفوقاً ساحقاً ، وتتساقط المدن واحدة بعد أخرى ، مثل أخيشار وباليكيسير وبانديرما ... وأخيراً بروسة ! إن العاصمة الأمبراطورية القديمة ، والمدينة المقدسة

التي تؤوي قبور السلاطين الأول، هذه الآية الفنية الرائعة التي تمثل أنقى صور الفن الإسلامي، وحيث المساجد والقصور تفخر بشجاعة وقوة الفرسان الذين جاؤوا من الشرق، منذ ستة قرون، بروسة هذه تسقط في يد الكفرة .

وكان سقوطها هذا، بالنسبة إلى الشعب التركي، صدمة مريعة كصدمة بعد سقوط إزمير . وكان الناس مخطئين، عندما أفرطوا في تعليق الآمال على مصطفى كمال ! ومن جديد تتجه الأنظار إلى السلطان الخليفة . ولا بد أنه سيرد، وأن يهب أبناءه تشجيعاً ونظاماً . ولكن أبواب ضوولة باهتشة تظل مغلقة، ويستمر الصمت يحجب أبهاء القصر الرخامية .

وتغلي سلمى استياءً . فأدرنة وتراقيا كلها محتلة، والفرق اليونانية مستمرة في التقدم . فلماذا لا يعلن السلطان الحرب عليها ؟

ولا تحجب أمها عن أي واحد من هذه الأسئلة . ومن شدة اليأس فقدت البنية الشهية والرغبة في اللهو . وقليلًا قليلًا، تهمل جلسات الصلاة التي كانت قد نظمتها، وأصبحت تلجأ إلى الأحلام والقراءات، أو تطلب من إحدى الكالافات العجائز أن تروي لها قصة كبار السلاطين، بدءً من محمد الفاتح، المنتصر وهو في الثامنة عشرة على أمبراطورية بيزنطة، حتى سليم الرهيب، وهو محارب عنيف كان يعود، متى لقي حبيب قلبه، فيصبح شاعراً، ويقول: «إن الأسود كانت ترتجف تحت أظافري القوية الشديدة التمزيق، عندما شاء القدر أن يجعل مني العبد الضعيف لمراقى له عيون الغزلان» .

وهي تحب أن تسمع كيف أن السلطان أحمد الثالث، كان يطير من الفرع على يد صديقه نديم الذي كان ينشد أشعاراً، ويكافئه بملء فمه باللؤلؤ اللطيف . وهي تطرب لسماع قصة الأعمال العظيمة للسلطان سليمان الرابع، الذي قاد الجيش العثماني حتى أبواب فيينا، وتطلب أن يشرح لها كيف أن خلفه السلطان محمود، بما كان له من عقل واضح، أدخل الحداثة إلى تركيا . فهؤلاء السلاطين، بقيمتهم كمحاربين، وألقهم، أو مهارتهم أغدقوا الشرف على اسم بني عثمان . أما الآن فإن كل شيء يبدو مختلفاً . والباديشاه يعتصم بالصمت . وازدادت سلمى ألماً، عندما سمعت وهي تمر أمام المطابخ، طبّاخين يتجرؤون على القيام بتعليقات غير كريمة، خلاصتها أن السلطان خائف .

وذاث صباح، جمعت من جديد أطفال القصر . وكان بينهم صبيان وبنات الأمراء، والسكرتيرية، وكذلك أولاد سائقي العربات، والشوّاثين، والبوابين، الذين تسكن أسرهم في بيوت صغيرة محتبة في آخر الحديقة غير بعيدة عن الأبنية المخصصة للمطابخ . ذلك أن المطابخ في البيوت

التركية المحترمة، موجودة في أقصى مكان في البناء، حتى لا تفوح الروائح فتزعج أهل المنزل. ومن باب أولى أن يكون الأمر كذلك في القصور الملكية، وما يتفرع عنها.

وكان هؤلاء الأطفال جميعاً في خدمة سلمى، وخاصة جلنار، الترتية السمرء، العنيفة في غضباتها كما هي عنيفة في حماسها، ولكنها لم تكن تحمل قط كلمة نقد توجه إلى أميرتها، ثم سيكربولي؛ أي «قطعة صغيرة من السكر»، الشقراء، الزهرية اللون كلها غمازات. وأحمد خاصة، أصغر أبناء السكرتير الخاص لخيري بك، ولم يكن عمره إلا إحدى عشرة سنة، ولكن كان محباً، عاشقاً للسلطانة الصغيرة، منذ الأيام التي يتذكر فيها وجوده. ومتى رآها يحمر، ويفقد عقله، مما يثير عصبية الفتاة التي جعلت منه إنساناً لحمل الشقاء. ولكن كلما أمعنت في السخرية منه، آملته أن تجد بعض المقاومة، أمعن هو في النظر إليها بهيعة الحزين الخاضع، وأمعن في حبها.

وفي ذلك الصباح، وأمام جمعيتها بكامل عناصرها، أعلنت سلمى وقررت أن أيام الصلوات قد انقضت، وأن علينا منذ الآن أن نلعب لعبة الحرب. فمن الجهة الأولى، يقوم الأتراك — وعلى رأسهم السلطان — أي هي بطبيعة الحال — ومن الجهة الأخرى يقوم الإغريق. فيصفق الأطفال جميعاً لنظام العمل اليومي هذا، ويتفرقون في الحديقة للبحث عن غصينات رفيعة ومرنة لتكون السلاح الذي يستخدمونه. ولكن عندما آوأن اختيار عناصر الفريقين، فوجئت سلمى بصعوبة غير متوقعة. إذ ما من أحد رضي أن يكون في «معسكر الأعارقة». ولم يجد المديح، ولا الوعود ولا الوعيد شيئاً، فما من شيء يمكن أن يقنعهم. وكادت أن تبكي من الغضب. فبدأت ترسم على الأرض، وعصاها في يدها، بعض طفحات الغضب المفاجئة، عندما سُمع صوت ناعم يحملها على رفع رأسها، فيقول:

— أنا أريد أن أمثل دور الإغريقي.

وكان القائل أحمد، الذي يثبت عليها عينيه الطيبتين الوفيتين. فشعرت سلمى بلفحة من الاعتراف بالجميل: فهو لا يكتفي بأن يقبل البغض ليروقها، بل إنه يرد إليها بسلطتها عندما حطم حركة العصيان. فابتسمت له بكل السحر الذي كان في إمكانها أن تغري به.

— حسناً، ستكون الجنرال بارافيسكو بولوس. ولكن أين جيشك؟

وكان الجيش، آخر ما بهتهم به الصبي. فهو سعيد بأنه أخيراً استطاع أن يرضي سلطانه

بأن يحارب طواعية وحده ، ضد الآخرين . وعلى كل حال فإن القضية ليست في أن ينتصر الأغريق على الأتراك ، وأقل من ذلك أنه هو أحمد ، سينتصر على التي يحبها .

لكن سلمى لا تفهم الأمر هكذا . فالنصر المفرط السهولة ليس بنصر فتهتف ، وهي تُمر نظراتها الآمرة على أفراد المجموعة :

— من يريد أن يكون إغريقياً مع أحمد .

وعلى أكبر دهشة منها ، تقدمت فتاتان وصبي سمين متفخ الحدين . ويقولون :

— إذا كان أحمد إغريقياً فسنكون أغارقة معه .

وتأمل سلمى فيهم ، بحيرة . فليَم هؤلاء الذين لم يغيّر رأيهم الوعد ولا الوعيد ، ينضمون تلقائياً إلى جانب أحمد ؟ ومن أين جاءت هذه السلطة عليهم ؟ أمن بساطته ، أم من لطفه ؟ إن هذا غير معقول . ذلك أن هذه ليست بصفات القائد . إلا أن الذين انضموا إليه هم الأكثر احماءً بين المجموعة ... فأغضبها ذلك ، وانطبع في ذهنها من غير أن تقول شيئاً ، أنهم يعطونها درساً .

وفي هذه اللحظة كان الأطفال جميعهم ينظرون إليها ، منتظرين أن تعطي إشارة بدء المعركة . وحتى لا يقال بأن الأتراك انتصروا على الإغريق بعددهم ، فإنها عمدت إلى جعل جيشها من أربعة عناصر فقط ، وعينت — وهذا صحيح — بأن تختار الأعظم قوة . وأخيراً وعندما صار كل شيء جاهزاً للهجوم ، انتصبت بكامل عظمتها ، وشعرها الأحمر اللامع في ضوء الشمس ، ورفعت عصاها ، وهتفت :

— الله أكبر

وهجمت ، مع عناصر جيشها ، على العدو .

ومنذ اللحظة الأولى ، كان واضحاً أن الجيش الإغريقي ليس في المستوى المناسب . ولا شك أنه يدافع عن نفسه بشجاعة ، ولكن أنى للفتاتين الصغيرتين ، وللولد السمين أن يقاوما أولئك الذين اختارهم سلمى ؟ ثم إنهم أغارقة ، وطبيعي أن يكون نصيبهم الانسحاق . وهكذا فبعد أن أهدوا مقاومة مبدئية ، جاؤوا واستسلموا في جو الصراخ والهتافات المؤذية لهم .

ولكن أحمد وحده ظل يقاتل ، بعنف لم يخطر في بال أحد من المجموعة أن يظنه قادراً عليه . وكان جنود سلمى يحيطون به دون أن يستطيعوا خرق دفاعاته . وكانت عصاه تدور ضاربة على الخد

أو على الرجل ذاك الذي يقترب منه أكثر مما يجب . وفي تلك اللحظة نسي أحمد أنه يُمَثَّل ذو الجنرال بارافيسكو بولوس ، إذ لم يكن آنذاك إلا الفارس الذي يقاتل ، لكي يستحق إعجاب حبيبته

ولكن سلمى لم تعد سلمى ، بل هي السلطان الشديد القوي المتين ، وظل الله على الأرض ولا يمكنه أن يقبل هزيمة جيوشه على يد هذا الجنرال الإغريقي . فتركت أسراها واندفعت إلى الهجوم وحطمت خطوط الدفاع ، ووقفت وجهاً لوجه أمام العدو . وكانت في أوج الغضب . آه ، من ه البارافيسكو بولوس . إنه يريد الاستيلاء على تركيا ، ورد شعبها إلى العبودية ! وجيشه يحرق القرى ويقتل النساء والأطفال . ويعتقد أنه سينتزع مني استامبول ، ويقلب نظام السلطنة ! .. آه . سيرز هذا الكلب ، هذا الكلب ثلاث مرات ، ما يستطيع أن يفعله تجاه الباديشاه وجيشه التركي . فحتى الآن كان السلطان يتحلى بالصبر . أما الآن فقد تجاوزوا الحدود ، هؤلاء الأغاريق . وسوف يندمون ! . وتضرب سلمى بعصاها ، وتضرب بكل قواها التي تضاعفت عشر مرات من شدة الاستنك والغضب ، وكل الغبن ، والحدق المتراكمة منذ أشهر ، وسيتحرق الأتراك منها أخيراً ، بحملة ذار عنف لا حد له .

ترى هل كان ذلك لأن ذراعها المتعب يؤلمها أو لأنها ، فجأة ، تلاحظ أن صمتاً غير مألوف حلّ محل هتافات الحاضرين ؟ وفجأة تجمدت سلمى . وكان بين رجليها الجنرال بارافيسكو بولوس يصرخ من الألم . ويديه الصغيرتين الداميتين يحمي رأسه ، على حين أن ثيابه الممزقة ترينا جسداً ف جروح طويلة .

— هل أصبحت مجنونة ؟

وعندئذ كانت السلطانة تقف أمام سلمى . والوجه ممتقع اللون .

— وهي لا تبدو غاضبة ، ولكنها مستغربة ، متعجبة ، كما لو أنها اكتشفت في ابنتها شيطا يسكنها . وفجأة يعود إلى سلمى وعيها . فهي ليست السلطان وليس الذي أمامها الجنرال بارافيسكو بولوس ، الذي يتألم هنا ، غير واع ، بل هو صديقها أحمد . وقد قتلته . فالدموع تخنقها وهي تنحنح لتكون قريبة منه . فألصقت خدها على وجه الطفل ، المتقد ناراً ، ومستت بنعومة شعره ، وهزهز بكلمات رقيقة — مما أقنع أحمد أنه قد مات نهائياً ، وها هو الآن في الجنة .

وكان الأطفال ينظرون إلى هذا المشهد ، محزونين . فأهلهم سيجلدونهم بالسياط . ومن يدري فقد يحبسونه في الغرفة المظلمة . وحتى فكرة أن السلطانة الصغيرة المزهوة بنفسها ، ستعاقب

وأَنهم سيحتفلون بـجنازة أحمد احتفالاً رائعاً، ويأتون له بأفضل وأعظم النواحات في المدينة، لن تكفي لمواساتهم. ثم لماذا قبل هذا الغبي بأن يقتل. لقد قاتل في البداية كأسد. ولكن عندما هجمت عليه سلمى، فإنه بدلاً من أن يدافع عن نفسه، نظر إليها، وترك سيفه يهوي على الأرض. أما هي، المندفعة بحلمها، فإنها لم تكن تدرك ذلك، وتستأسد بضرباتها المتدافعة على المحارب الذي بات من غير سلاح.

ويعود صوت الأم مُدوياً من جديد، ليقول :

— يكفيك ماتصنّعت حتى الآن، فاصعدي مباشرة إلى غرفتك.

ولم تكن لتصغي لشروح سلمى التي جربت، وهي تشهق من البكاء، أن تفهم أمها أنها لم تردّ قتل أحمد، بل قتل الجنرال بارافيسكو بولوس. وهي لا تعرف إلا شيئاً واحداً، هو أن ابنتها ضربت ابن خادهم، الذي لم يكن يستطيع أن يردها أو يدافع عن نفسه. وهذا العمل المشين يجب أن يعاقب بلا شفقة، لأنه يتعلق بشرف العائلة.

وأخبر طبيب القصر العجوز، فجاء بسرعة، وفحص «الجثة» التي وجدها بحالة سيئة، ولكنها حية؛ فأوصى بالراحة التامة، وبمرهم يؤتى به خصيصاً من الهند، وسرعان بعد ذلك ما يقف الصبي على قدميه.

وكان على سلمى في الأيام التالية أن تبقى حبيسة غرفتها. وحُرمت كتبها كلها، ولم يترك منها إلا القرآن. ولم تعد ترى إلا الخادمة التي تأتيها بوجباتها من الخبز اليابس، الذي يعطى عادة للخيول. وحتى هذه المرأة نفسها كانت مأمورة بأن لا توجه إليها الكلام. ولما كانت متأثرة، على كل حال، لقلق سلمى، على أحمد، فقد وافقت على هز رأسها، مطمئنة. وهكذا قضت أسبوعين في هذه الحال. ذلك أن السلطانة تريد أن يكون العقاب نموذجياً.

وذات صباح، أوقظت سلمى بفعل غناء رتيب غير مألوف. فأصاحت السمع، فعرفت غناء المؤذنين الجنائزي، الذي ينقل من مثذنة إلى أخرى، خبر حزن وطني. وعندما أطلت من النافذة، رأت عن بعد ذلك الجمهور الذي يتزاحم في الطرقات. ترى ماذا حدث؟ وهل مات السلطان؟

أما الأمة التي تأتي إليها بالخبز، فقد كانت دامعة العينين، وفي هذه المرة، لم تجد صعوبة في

الجواب . فالسلطان لم يمّت ، ولكن الذي حدث أسوأ وأسوأ . فالمفوضون العثمانيون المرسلون إلى فرنسا ، لم يستطيعوا التخفيف من غلواء الحلفاء . واضطروا إلى التوقيع ، في سيفر ، على معاهدة غربية من نوعها ، كان الحديث يدور حولها منذ ثلاثة أشهر ، دون أن يتخيّل أحد لحظة واحدة ، أنه يمكن عقدها . إنها معاهدة تنص على تجزئة تركيا تجزئة كاملة .

وكان نهار الحزن هذا نهار تحريرها . إذ ترى السلطانة أن ابنتها قد عوقبت عقاباً كافياً وأن الحوادث ، على كل حال ، هي من الخطورة بحيث أن كل ماعداها تافه لا قيمة له .

ويأتي الربيع ، ويذهَّب قباب استامبول ، بعد أتعس شتاء عرفته سلمى في حياتها . ذلك أن المدينة ، بعد المظاهرات الهامة التي تبعت توقيع معاهدة سيفر في ١٠/٨/١٩٢٠ ، انطوت على نفسها في حزنها وذلها . وعلى الرغم من إقالة حكومة الداماد فريد ، الإنسان المكروه بالإجماع ، فإن ذلك لم يخرجها من سكنتها إلا قليلاً . وكان هذا السيد القصير ، الممتلىء ، المتفاخم ، ضحية ميله للإنكليز . ولا مجال لأن يسامحه الشعب على توقيع المعاهدة المشؤومة ، وأقل من ذلك أنه حاول أن يحمل السلطان على توقيعها .

وفي العاصمة ، كانت الحياة تصبح صعبة أكثر فأكثر ، على حين أن الجنود الفرنسيين والطلبيان ، الذين رأوا أن الاحتلال سيطول ، عادوا إلى مألوف عاداتهم وأصبحوا يختلطون بالناس في شيء من التلاطف ، أما الإنكليز فقد ظلوا مقيمين على ييوستهم . وبحجة المحافظة على النظام ، يضاعفون التدابير المزعجة ، فهي تتكاثر على الشعب المسكين ، الذي لا يفهم منها شيئاً . وآخر ما كان من هذه ، هو برهان على حب أبناء « آلبون » للحيوانات ، جعل المدينة كلها تستغرب وتندهش : فالإمساك بدجاجة من رجليها ، وهو سلوك أكثر سادية من أمثاله ، يعاقب بغرامة قدرها ١٠ ليرات ، وهي مبلغ ضخيم بالقياس إلى أجر العامل الذي يبلغ ٨٠ ليرة شهرياً . فإذا احتج التركي المسكين على ذلك ، فعليه عندئذ أن يدفع ٢٠ ليرة ، وهكذا يرتفع المبلغ حتى يخرس ، بعد أن

يفرغ جرابه من المال ، ويقتنع أن هؤلاء الإنكليز هم بين أمرين ، إما أنهم مجانيين تماماً وإما أنهم أنذل الأنذال على وجه الأرض .

والواقع أن أكثر هذه التجاوزات إنما تنشأ عن المشرقيين (Levantins ؛ أي الأوروبيين الكاثوليك ذوي الأصل الإيطالي أو الفرنسي ، المقيمين في استامبول) . ولما كانوا يسكنون استامبول منذ مدة طويلة ، فإن بعضهم لبسوا في ظل الاحتلال ، اللباس العسكري البريطاني ، بغية معاونة الحلفاء . ولما كانوا يرفعون بسرعة إلى رتبة رائد ، أو مقدم ، فإنهم يستفيدون من سلطتهم الجديدة ، لكي يقوموا تحت ظل المملكة المتحدة وألوانها ، بخدمة مصالحهم الشخصية الصغيرة ، وزيادة ثروتهم .

واستولى وهن العزيمة على الناس . ففي أوائل شهر كانون الثاني / يناير / ، كان هؤلاء يظنون أن كل شيء سيتغير . واستطاع عصمة باشا ، وهو زميل لمصطفى كمال ، أن يوقف تقدم الأعداء ، في الأناضول ، قريباً من نهر إينونو . وكان ذلك أول انتصار للقوى الوطنية . فاحتفل الناس جميعاً به ، وفي كل بيت ، بحماسة كبيرة . وخلال أيام وأيام بقيت استامبول تترقب ، باعتبار أن هذا النصر هو بداية الهجوم المعاكس . ولكن ما من شيء حدث بعد ذلك ، وعادت المدينة إلى غيبوتها .

وكانت القوى الكمالية أضعف من أن تستطيع متابعة نصرها هذا . ومنذ عدة أشهر ، كان عليها ، لا أن تقاتل ضد الأعداء ، فقط ، ولكن ضد عصابات من الفلاحين الأتراك . ذلك أن الاستبعاد عن جماعة المسلمين الذي أفتى به شيخ الإسلام ، زرع الشك في القلوب . وعبثاً نادى مصطفى كمال بأنه يحارب من أجل السلطان الخليفة ، إذ لم يُصدّق ذلك إلا جزئياً ، وكثيرة هي القرى التي كانت تأبى التعاون معه .

وتخيّل كمال باشا ، طمعاً في كسب ثقة الشعب ، أن يستقدم إلى جانبه ولي العهد ، المعروف بتعاطفه مع الوطنيين . ولكن الأمير عبد المجيد رجل حالم ، فنان ، وليس برجل يصلح للعمل . ولقد تردّد ، وطلب النصيحة ... وأخيراً فإن الإنكليز سمعوا بهذا المشروع ، ووضعوا حداً لتأجيلات الأمير ، فأرسلوا إليه حوالي المئة جندي ليحاصروا بيته .

وفي ذلك الحين قرر ابنه عمر فاروق أن ينضم هو نفسه لكمال في الأناضول . وكان هذا الأمير قوي العزيمة ، طموحاً ، يتحرق على أن يلمع اسمه من خلال الدفاع عن البلد . ولكنه وهو المغرم

بصبيحة، زوجته الشابة، الحامل يومئذ، مضطر لانتظار ولادة الولد. وعندما سافر، بسرية تامة، كان قد حَلَّ الربيع.

وسلمى معجبة جداً بخالها «الرعد» وبهذا يلقبه الأطفال. ذلك أنه مشهور بغضباته بقدر ما هو مشهور بجمال هيئته. ولم تحب أن تكون رجلاً لتصحبه إلى الأناضول! ولهذا فإنها تنظر باحتقار إلى أخيها خيرى الذي يستمر في أكل السكاكر، والعزف على الكمان، دون أن يساوره أي اضطراب.

وتشعر سلمى بالضجر... ففي القصر تمضي الأيام ببطء. وتضاءلت المناسبات الاجتماعية. وحقاً فقد بدأت أفضل العائلات، تشعر بالضيق؛ فهي لا تتلقى أجور الملكيات الزراعية الموجودة في أراضي الأمبراطورية التي أصبحت مستقلة، ولا أجور العقارات التي يسكنها مسيحيون. فقد نسي هؤلاء، منذ بدء الاحتلال، دفع هذه الأجور. وحتى خديجة السلطنة نفسها لا تستطيع أن تبقى صورة حياتها المألوفة إلا ببيع بعض المجوهرات. ولم تعد سلمى تستغرب رؤية ميميحيان آغا يزور بيتهم بانتظام، ويغادره معه علبة مجوهرات تحت إبطه.

ولحسن الحظ فإن الخياطات عدن مع فصل الربيع. ومن الضروري تجديد ما في الخزانة من ثياب، ولا سيما ثياب سلمى التي غدت تنوراتها القصيرة جداً، تجعل عجائز الكالافات يقطن الجبين. ذلك أن البنية على وشك أن تبلغ الأحد عشر عاماً، وهذه الحاشية تحاول أن تقنع السلطنة بأنه قد آن الأوان لجعلها تضع الشرشف. ولكن خديجة صرخت وقالت:

— سلمى ما زالت طفلة!

ترى هل كانت تعتقد ذلك فعلاً، أو أنها كانت تحاول أن تصون، إلى أطول مدة ممكنة، حرية ابنتها؟ ولكنها صرحت بأقوى ما تستطيع، أن السلطنة الصغيرة لن تحمل الحجاب إلا في الثانية عشرة. وكان في وسع الألسن الطويلة أن تهذر دوماً.

وكانت حجرة الخياطة، المغطاة الجدران بقماش من الكريتون الأبيض، وبالمرابا العالية، تعج حيوية. ثم إن الخياطات، الإغريقيات عادة، قد جلبن آخر مجلات الأزياء في باريس، مع موديلات الخياط لافيرير، وأكوماً من الأقمشة الرائعة. ولأول مرة طلب من سلمى أن تشارك في الرأي في اختيار ثيابها. فزادها ذلك حيوية، وجعلها تقلب النماذج، وتنتقل من واحد إلى آخر، وتضع على جسمها، هذه القطعة من القماش أو تلك، دون أن يستقر رأيها على شيء. ولكن ليس لهذا من

أهمية، فلديها ما يكفي من الوقت لتناقش، وتلمس، وتقارن، وتختار، وتقرر حتى في التفاصيل، ثم أن تغيير رأيها بعد ذلك. إذ أنه ليس أمامها من تسليات كثيرة غير هذه. وكلما طال التردد وجدت الخياطات لذة أكبر، لأنهن ينتقلن عندئذ من الدور العادي للمنفذات، إلى دور الناصحات، والحكم. ولن يكن بعد ذلك قليلات الفخر بأن يقلن لربائهن الأخريات المأخوذات بأقوالهن:

— إن السلطانة وابنتها لا تتفان إلا بي. أرايت الفساتين اللاتي كن يرتديهن، في الاستقبال الأخير، إنني أنا الذي أوحيت لهن بشكله، ولونه.

وعلى أن سلمى كانت تتخيل الموديلات الأكثر مناسبة لها، فإنها كانت تنظر خلسة إلى هؤلاء النسوة. فهن تسع، اثنتان منهن تفصلان الفساتين، وثلاث خياطات، وأربع مطرزات. ومنذ زمن طويل كان القصر والبنيات يعرفهن جميعاً. وكن ينادينهن كلاً، باسمها، فهي إذن تعرف ما هن فيه من هموم صحية، كما تعرف أسماء أولادهن، وعمر كل منهم. وليس هنالك إلا موضوع واحد لا يناقشنه مطلقاً، وهو الحرب. وسلمى تتحرق إلى سؤاها لماذا شاء أغارقة استامبول أن يقلبوا ظهر الجن لمواطنهم الأتراك. ولكنها لا تجرؤ على طرح هذا السؤال.

وكانت الشمس قد انحدرت إلى المغيب، عندما أحنت الخياطة الأولى رأسها، وغمرت بعينها غمزة مهنية، وبدأت تأخذ الأقيسة ولكن عن بعد، ذلك أن من المخطور أن يمس الإنسان أحداً من أعضاء الأسرة المالكة. وعندما يتعلق الأمر بخياطة الثياب التقليدية الواسعة، فإن هذا لا يثير أية مشكلة. أما بالنسبة للفساتين الأوروبية، التي ينبغي أن تخاط على مقاييس الجسم بدقة، فإن هذا العرف يثير مصاعب كبيرة، وكثيراً ما تكون السلطانة مرغمة على تغيير موضع الدبابيس بيدها، مما يجعلها ترغي وتزيد داخلياً، ضد هذه العادة المزعجة، من غير أن تجهل أنها ضرورية. ففي مثل هذه الأيام المضطربة، يكون من الضروري، أكثر من أي وقت آخر، أن نصون الأعراف، فهذا أساس جوهرى للاحترام، كالشخصية نفسها. والآن مادامت القدرة قد فقدت، فإن الاحترام يظل الأساس الأخير للعرش.

ومنذ بعض الوقت، تعودت سلمى أن تختلي بنفسها لكي تحلم. والزواية التي تفضلها لهذا، هي كشك من الخشب الزهري، محاط بدرازين محفور حفرافناً رقيقاً، يسمونه «جناح البلبل»، لأنه يقوم في زاوية من الحديقة، حيث تعود هذا الطائر أن يبنى عشه. وهي لا تمل ولا تكل من

سماع زغاريد هذه الروح الظمأى إلى الحب ، والتي تزعم الأسطورة ، أنها ، وقد أياستها لامبالاة الورد ، قضت حياتها وهي تشدو ، محاولة أن تغويها .

وكان الطقس لطيفاً . وسلمى المتمددة على طول الكيليم (أي السجادة التركية) ، تتسلى بتغضين عينيها وتحاول أن تروض الشمس ، وهذه لعبة تحظرها الأنسة روز كما تحظرها مريبتها ، اللتان تدعيان أنها تنتهي إلى إفساد الحديقة . وعندما فتحت عينيها لاحظت زولاً ينتعد باتجاه القصر . ومع أنها ما تزال مبهورة ، ولا تميز ما تراه بوضوح ، فإنه يبدو لها أن هذا الشخص هو العم — الرعد القاصف ! ولكن هذا مستحيل ، فالعم القاصف في الأناضول . وهو يجارب إلى جانب مصطفى كمال . أما زوجته ، التي توجد حالياً لدى خديجة السلطنة ؛ فقد جاءت لتقرأ لها رسالة الأمير عمر فاروق ، الأخيرة . وبقفزة واحدة ، نهضت البنية ، وبدأت تتبعه على رؤوس أصابع قدميها .

وعندما وصلت إلى البهو الأزرق ، سمعت صوتاً حاداً يقول :

— إنه لم يردني ، وهذا كل شيء !

وحقاً فإن الرجل هو الأمير فاروق ، ويداه وراء ظهره ، وهو يمضي إلى الغرفة ، ووجهه ينم عن الحزن ، أما سؤالات زوجته الخجلى ، وخالته ، فيبدو أنها تثيره إلى أبعد مدى . وفجأة يصرّح قائلاً :

— لقد كنا في أكمل السداجة ، عندما اعتقدنا أن كمال سيقبل مساعدتنا لإنقاذ تركيا . أما مساعدة الشيعيين ، وعصابات الأتقياء ، فنع ! ولكن لا مساعدة أمراء الأسرة المالكة ! ففكروا ... إن الشعب يعرف جيداً أن أسرتنا هي التي بنت أمجاد هذه البلاد . فإذا تركنا كمال نحارب ، فربما أنقصنا من أمجاده . ولقد دعانا عندما ظن أنه انتهى ، إلا أن معركة إينونو ، وتحالفه مع البولشفيك ، أنقذاه من وروطته . وهو يرى الآن أنه ليس بحاجة إلينا . ويظن الكثيرون أنه يحاول أن يظهرنا كخونة ، حتى يقضي علينا ذات يوم ، ويستولي على السلطة . ولكنه لن يصل إلينا غداً !

وأخذ الاستنكار والاستياء يبلغان منه كل مبلغ ، فضرب على منضدة صغيرة بقبضة يده ، فانهارت هذه من أثر الضربة .

ومن غير أن يعير أي انتباه لذلك ، تابع كلامه ليقول :

— إن الشعب التركي يحبنا . وليتك رأيت الاستقبال الذي هيأه لي أهالي إنيوغلو ، عندما نزلت على الشاطئ . كان هؤلاء الناس الطيبون يكون من شدة الفرح ، تماماً كما لو أن السلطان هو نفسه الذي جاء ليحارب معهم . وخلال الأيام التي قضيتها بينهم بانتظار جواب كمال عن عرض

خدماتي ، كانت مجموعة من الفلاحين من كل القرى المجاورة ، تأتي لثرائي ، وتلمسني ، وتقتر بأن الباديشاه لم يتخل عنهم ... ولم يكونوا يملكون من سماعي ، أروي كيف أن المركب ، الذي حملا من استامبول ، فتش من تحت لفوق من قبل الإنكليز ، وكيف قضيت ست ساعات ، مخبأ خزانة ، ومسدسي في يدي ، مقررأ ، فيما لو اكتشفت ، أن أحرق دماغي بدلاً من أصبح سجينهم

— وإذن ، فيا إلهي ، لِمَ عدت ؟

إنه الجنرال الأمير عثمان فؤاد ، الذي وصل منذ بضع دقائق ، والذي لا يستطيع أن يكفه غيظه . فهو لا يحب القصص التي لا يكون هو بطلها .

وهدهوء وبطء ، يلتفت عمر فاروق ليحدّق في وجه ابن عمه ، ويقول له ببرودة كبيرة .

— وأنت ، أيها الأمير ، لماذا لم تسافر ؟

وتكهرب الجو ، فتدخل خديجة السلطانة ، قائلة :

— أرجوكم .

والتفتت إلى الأمير فاروق ، بعد أن اتخذت سمة المعجبة جداً .

— وإذن ، يا صاحب السمو ، ما الذي جرى ؟

— وبعد بضعة أيام ، تلقيت رسالة من أنقرة ، وفيها كان الجنرال ، يشكرني بأحسن صـ التهذيب واللباقة على أتي جئت ، ويثني على شجاعتني . ولكنه أضاف يقول : إنه لا يريد أن أرك المخاطر ، وأن علي أن أحتفظ بنفسني لمصائر أعلى ، خدمة لمصلحة الشعب العليا ؛ أي أن ذلك كـ طريقة مهذّبة ، ولكنها واضحة ، لرفض مساعدتي ، وإعادتي إلى بيتي .

وتتنهد زوجة الأمير الشابة ، لتقول :

— إني خائفة . فالباشا بلا ريب عبقرية عسكرية . ولكنه كذلك شيطان من أكبر شياطين الطمع والطموح . وتؤكد حكايتك مخاوف أبي السلطان . فعندما أرسله جلالته إلى الأناضول ، و به . أما الآن فإنه يعتقد أنه قادر على أن يفعل كل شيء .

وكان الصمت يتشاقل ، في البهو الأزرق . ولما كانت حكاية الأمير فاروق قد أوقع

الاضطراب في نفس خديجة السلطنة، فإنها تتساءل عما إذا كان السلطان وحيد الدين ليس على حق، وأن مصطفى كمال، الذي دافعت عنه دوماً، لم يكن في سبيله إلى أن يخونهم جميعاً.

في الأشهر الأخيرة، تغيّرت السلطنة الصغيرة تغيراً كبيراً. إذ لقد أصبحت مراقة. ومن خلالها، كانت الإماء يمتدحن هيفها ورشاقتها كسروة فنية، ولون بشرتها الأبيض كالقمر. ولقد قرّرت السلطنة أن تعلمها، عدا البيانو، العزف على القيثارة، مما يتيح لها أن تعرض محاسن ذراعيها اللذين يعدان بأن يكونا غاية في الجمال. وسلمى تتلذذ بهذا الشئ، وتبدأ باكتشاف مافيه من سحر وتجرب ما لديها من مفاتن في إغراء أحمد، الذي أصبح بعد أن كادت تقتله، أفضل أصدقائها.

وكانت الخمسة عشر يوماً التي قضتها في العقوبة، في غرفتها، امتحاناً حاسماً. إذ أنها بعد أن بكت كثيراً، وثارت على هذا الجزاء الذي كانت تعتبره ظالماً، صارت تجد فيه نوعاً من اللذة، هو أن تظل وحدها، غير مفهومة، ضد كل الناس. وخلال ساعات طويلة، روت لنفسها القصص العائلية لشهداء الإسلام والصوفيين الذين أدانهم، هم أيضاً، مجتمع لم يكن يفهمهم. وكانت المشابهة التي تجدها بين موقفهم وموقفها قد ردت إليها الشجاعة، وأتاحت لها تجاوز المحنة.

ولقد احتاجت إلى أن تستدعي إلى جانبها كل هؤلاء الأبطال، ذلك أنها كانت في سبيلها إلى أن تفقد تلك التي كانت، حتى ذلك الحين، تقدسها أكثر من كل شيء؛ أي أمها. ذلك أن أمها التي كانت تبدو لها على درجة عالية من الكمال، والتي كانت ترى أنها، بالقياس إليها، ضعيلة جداً، حكمت عليها حكماً ظالماً وبغير حق... بل لأنها لم تحاول حتى أن تفهمها... وعبثاً قلبت

سلمى هذه المشكلة في ذهنها، وأعادت التقلب، من كل الوجوه. وإذن فلا بد أن واحدة من الاثنين كانت على خطأ. وكانت تعلم أنها لم تكن هي المخطئة. ومن الغريب أن هذه النتيجة التي كان عليها أن ترضيها، كانت تزيد تعاستها أكثر فأكثر. فكانت تعيسة كما لم تكن في أي يوم من الأيام، وتقريباً يائسة.

وذات ليلة، رأت حلمًا. وكانت فيه، في زنزانة مظلمة، وفي كل حركة من حركاتها، كانت تصطدم بحديد هذه الزنزانة. وفجأة تسمع صوتًا يقول لها: «لماذا لا ترفعين هذه العصاة الموجودة على عينيك. فإذا رفعتها فأنت سترين ما حولك بوضوح ولن تعودى لتتألمي منها».

ولكنها سألت نفسها: كيف أرفع هذه العصاة؟ إنها أصبحت جزءاً منها، وملتصقة بحدقتها التصاقاً يوشك، إذا هي انتزعتها، أن تقتلع معها عينيها. وكانت تبقى فريسة لكل هذا الاضطراب: ترى أيكون أفضل أن أبقى إلى ما لا نهاية في الظلام، دون أن أستطيع الحراك، أم أد أتخلص من هذه العصاة، وأغامر بأن أصبح عمياء؟ وأخيراً فإنها اختارت الحل الثاني ووضعت يدها على العصاة. وعلى أكبر دهشة منها، ذهبَت العصاة، من أول لمسة، وبدأ العالم يظهر لها، لو أنها لم تره كذلك من قبل، مضيئاً وفي متناول اليد.

وفي اليوم التالي شعرت سلمى بأنها أصبحت أفضل حالاً، إلى الدرجة التي لم تعد فيها تفهم كيف أنها، خلال أيام كثيرة، استطاعت تحمل مثل هذا الكابوس. كان العالم يظهر لها مضيئاً و. بعد بحاجة إلى عيني أبنديم لكي ترى.

وكانت أمها الشديدة القوى، مخطئة. وسلمى لم تمت من جرّاء ذلك. وكان هذا الاكتشاف يفتح آفاقاً من الحرية اللامتناهية.

ومرة أخرى استطاع الكماليون أن يردوا الأغارقة، على مقربة من نهر إينونو الصغير. وتوقفت المعارك مؤقتاً. واستامبول تسمح لنفسها، من خلال هذه الانتصارات الصغيرة، أن تحتفل من جديد. وكان ذلك في منتصف نيسان / أبريل. كان الضياء شفافاً والهواء ناعماً حريراً كشفتني مراهق. أما على واجهات القصر، على امتداد البوسفور، فقد كانت عناقيد «الجهنمية» (glicines) تنشر أريجاً فيه من التغير ما يطيش منه الإنسان. ومن وراء جدران الحدائق والبساتين، كان الزعرور والياسمين يعطّران الشوارع، ويخدّران الحواس.

وعاد الناس يتنزهون في «المياه الأسبوية الحلوة» وكانت المراكب (الكايك)^(١) المفروشة بالمخمل المطرز بالذهب الذي شحبه لونه بعض الشيء، تنزلق، صامتة، على النهر الصغير، غوكسو Göksu، كما كان شأنها في أيام ألقها. والعلامة الوحيدة على ذلك الزمن الذي كان الناس فيه، هو أن المجتدين كانوا أقل عدداً، لأن الكثيرين منهم التحقوا بكمال في الأناضول.

وكان النهر من الضيق، بحيث أن المراكب، عندما تتلاقى، تكاد يمس بعضها بعضاً. ومن مركب إلى آخر، كان الناس يتبادلون تحية، أو كلمة لطيفة. وأحياناً كانوا يتشجعون، فيحاول شاب أن يرنو ببصره إلى إحدى الجميلات. فإذا كانت هذه جدية، فإنها سرعان ما تحتفي وراء مظلتها. وإلا فإنها تنظر إلى البعيد، بعيون حاملة. وعندئذ يأخذ الشاب الزهرة التي تزين عروته ويحملها إلى فمه. فإذا ابتسمت الفتاة، مما يشير إلى حرية كبيرة في العادات، فإن الشاب يغامر بأن يرمي الزهرة لتقع في حضنها. ولكن لا بد، قبل الوصول من ذلك إلى مثل هذه الحركات الجريئة، أن نلاحظ مجموعة من صور الإشارات المقتنة بدقة، في التعامل بين الصبايا والشباب. فإذا لعب الطامح بقطعة من السكر، فهذا يعني: «إن قلبي يرغب فيك رغبة حارة»، وإذا لعب ببرقوه، فهذا يعني: «إني في أشد الأسى»، وإذا وضع بين يديه منديلاً من الحرير الأزرق، فهذا يعني: «إنني عاشق إلى أبعد الحدود».

لكن الهدوء لا يدوم إلا مدة قصيرة. ففي ١٣ حزيران / يونيو / ١٩٢١ وصل الملك قسطنطين اليوناني إلى إزمير، ومعه خمسة وثمانون ألف جندي. ويتعمد ألا ينزل في مرفأ المدينة، بل في المكان الذي نزل فيه الصليبيون قديماً. وكان هدفه أن يسحق أنقرة، قلب المقاومة، ويستولي على استامبول. أوليس الله معه؟ وكانت هنالك نبوءة مشهورة تروى عن البابا جوهانس، تؤكد أن الملك المسيحي جداً، سيدخل المدينة، أي القسطنطينية على ما ظلت تسمى لدى الغرب، ويطردها البرابرة. ولما كانت هذه النبوءة تقوي من عزمه، فإنه قام يوم ١٣ / ٨ / ١٩٢١ بهجومه الكبير ضد أنقرة.

وهجم الرعب على المدينة. ذلك أن الأغارقة الأكثر عدداً والأفضل عدداً، يتقدمون بسرعة، والجيش التركي يتراجع باستمرار. وها إن قسماً من سكان العاصمة الكمالية، وحتى من النواب، يستعدون لمغادرة المدينة والرحيل عنها. أما مصطفى كمال الذي امتلأ قلبه بغضب شديد، أمام هذا

(١) يقال الكايك، أو القايك، كما نريد.

الجبن، فإنه يقضي (وهو يعلن حقه في الصلاحيات الكاملة، ويعتبر نفسه القيادة العليا للجيش، وهو لقب كان حتى ذلك الحين، يحتفظ به للسلطان) بتعبئة كل الفلاحين في الأناضول، ويقوم بمصادرة الرجال والنساء لمساعدة الجيش الوطني. وكانت خطته تقضي بإيقاف زحف الأغريق على صقارية، وهي آخر خط من خطوط الدفاع الطبيعي، على أقل من ١٠٠ كم من أنقرة.

أما في استامبول، فإن الشعب فقد كل أمل. وبالمقابل، فإن الإشاعات المتناقلة في الأحياء الإغريقية — المشرقية، لبريا، تدعي أن مصطفى كمال قد سُجن، وبدأ الناس يتشاربون الشمبانيا. ثم إن المطاعم والكباريات لم تكن تفرغ قط. وبصورة خاصة. فإن كاباريه الورداء السوداء، وهي أفخم ما هو من نوعها في المدينة، حيث يقوم بخدمتها منفيات روسيات — أو لاجئات — وهن أميرات أصيلات على ما يقال — ويقدمن ما يُشرب، وعليهن هذه السمات المتميزة، ويرقصن الفالس، حتى الصباح مع الزبائن.

وخلال اثنين وعشرين نهاراً واثنين وعشرين ليلة، استطاعت القوى الكمالية الثبات في مواقعها. وكانت المعركة عنيفة وباعثة على اليأس، وكل من الطرفين يعلم أن مستقبل البلد يتعلق بها. وفي ١١/١٠ كان الجيش الإغريقي يتراجع هارباً؛ فنجت تركيا.

وعم الابتهاج كل أنحاء الوطن. ففي استامبول، امتلأت المساجد بالناس.. واحتفل الشعب، من غير اهتمام بالاحتفال، بالنصر، احتفالاً ضخماً. ولم يعد الناس يمرون بالشوارع، ملتصقين بمجنباته، بل أصبحوا يمشون حتى في وسطها، والجيئ عال. وعندما يقابل الإنسان جندياً بريطانياً، ينظر إليه نظرة السخرية، كما لو أنه يقول له: «أما أنت فلم يعد مقامك بطويل!».

ولكن الحرب لم تنته مع ذلك. وفيما عدا العاصمة، فإن نصف البلاد ما زال محتلاً. أما في الخارج، فإن الحكومات تبدأ بأن تفهم أن الرياح قد غيّرت اتجاهها... وأرسلت باريس، دون أن تضع لحظة واحدة، سفيرها الجذاب، فرانكلان بويون، الملقب بأمرير المشرقيين Le Prince des Levantins، وذلك لإجراء محادثات مع مصطفى كمال. وكان يحمل بين ما حمله بعض عشرات الصناديق من أفضل الكونياك — وبدأت السفارات تعرف مواطن ضعف الرجل العظيم، لا سيما وأن بويون يحمل معه وعداً برحيل القوى الفرنسية من مقاطعة كيليكيا، وكذلك عرضاً للصالح، على أكبر غضب من لندن.

وكانت الأشهر تمضي، وكمال باشا يعزز جيشاً دون أن يستعجل، وأمامه كان الأعراق يتهاون.

وكان الرأي العام في أثينا، يبدى المعارضة لاستمرار الحرب . أما في الخنادق فإن العزائم تنه
وهنا كبيراً .

وأخيراً، وفي ٢٦ آب / أغسطس / ١٩٢٢ ، وعلى حين أنه لم تطلق أية رصاصة منذ سنة
تقريباً، علم الناس أن الجيش التركي قام بهجومه، على نداءات القادة : « أيها الجنود، إلى الأمام ،
إن هدفكم هو البحر المتوسط » . وتقدم الجيش باتجاه إزمير : وتراجعت قوات اليونان بحالة الفوضى
والاضطراب .

ولم يكن أهالي استامبول ليجرؤوا على تصديق ذلك . ولكن سرعان ما علم أن مدن آيدين ،
ومانيازا، وأدراك، قد تحررت . وعندئذ انفجرت الحماسة، إلى أقصى مدى .

أما السلطان وحيد الدين فإنه، في قصره، يلديز، حيث يسكن، بعيداً عن عظمة ضوطة
باهتته، يمضي أيامه في الصلوات . ولا يقطعها إلا لكي يرسل سكرتيه الخاص، بحثاً عن الأخبار :
فإلى أين وصل تقدم القوى الوطنية ؟ وهل تقدمنا على طريق إزمير ؟ وهل نحن حقاً في حالة من
يربح ؟

وأما مكاتب الصحف، فقد استولت عليها الجماهير . ولم يعد بالإمكان أن يخرج أحد
لتوزيع الصحف المطبوعة حديثاً، بل أصبحت ترمى من أعلى الشرفات . وتوقفت الحياة كلها، فلا
تجري إلا دقيقة بعد دقيقة، مع تقدم الكماليين .

وأخيراً، وفي ٩ أيلول، علم أن جيوش الجنرال، قد اقتحمت إزمير، وأن الجنود الإغريق قد
هربوا منها لا يلوون على شيء . أما في الشوارع فقد أضيء كل مكان، وزين باللافتات والأعلام . وكان
الناس يتعانقون، وهم يشهقون باكين من الفرح . والآن، وبعد اثني عشر عاماً من الكوارث والذل،
استطاع الشعب التركي أن يرفع رأسه . وفي هذه المرة كان النصر كاملاً، والحرب قد انتهت فعلاً .

ومن معذنة إلى معذنة، كان المؤذنون ينشدون ما يجدون به العظمة الإلهية . وتتابع في
المساجد الاحتفالات بالنصر، دون انقطاع . أما الاحتفال الأعظم فقد تم في مسجد أياصوفيا، حيث
ذهبت سلمى وأمها في ذلك النهار نفسه الذي تم فيه تحرير إزمير . وهناك ظللتا، وكل واحدة تضم
الأخرى بين الجماهير المحتشدة، ظللتا ساعات، في حالة الجمود، وهما تبهكيان .

وبعد خمسة عشر يوماً من ذلك التاريخ غادر الأسطول الإغريقي مياه استامبول، وأعلن عن
الهدنة بتاريخ ١١ تشرين الأول / أكتوبر، ووقعت بناءً على طلب من قوى الاحتلال، هذه المرة .

في هذا اليوم ، كان مزاج سلمى سيئاً . فقد احتفلت البارحة بعيد ميلادها الثاني عشر ، أي في أبأس يوم من أيام حياتها .

ذلك أنها وجدت بين الهدايا العديدة التي قدّمت لها ، علبة كبيرة كتلك التي تتلقى فيها أمها ، أثوابها من باريس . ورفعت الفطاء ، كالحمومة ، مغلفة عينيها ، ثم فتحتها ... لتجد شرشفاً من الحرير ، فيروزى اللون ، ومعه وشاح من الموسلين .

فانقبضت حنجرتها ، وفاضت عيناها بالدموع . فأدارت ظهرها لما وجدتته ، وعلى الرغم من إلحاح الكالافات اللواتي يهنئنها بالصعود إلى مرتبة المرأة ، فإنها رفضت ، بكل حسم ، أن تجرب هذا السجن المتنقل .

وإنها الآن لعاتبة على والدتها ، أنها خضعت للأعراف ، لا سيما وأن استخدام الشرشف كان في طريقه إلى الزوال ، إن لم يكن في المدن الصغيرة ، ففي العاصمة على الأقل . وكانت الأنيقات من الفتيات أو النساء قد حوّلن هذا الثوب الفضفاض إلى ثوب من قطعتين متلاصقتين فيما بينهما ، ثم دفعن الحجاب بأناقة إلى طرف الرأس ، ولم يعد إلا زينة لها أطيب الآثار .

واستاءت الكالافات ، وقلن لها :

— لمنهن بغايا ونساء سيئات السلوك ، بل وأسوأ من ذلك ، هن مثقفات ، أو ثوريات ، كهذه

الخالدة أديب وزميلاتها . وبحجة تحرير المرأة ... تنتزه الواحدة منهن ، وليس على وجهها شيء . وأكثر من ذلك أنهم يضعون تنورات تكشف عن الكعب ، وحتى عن ريلة الساق (بطة الرجل) ! أما السلطانة ، فلا يمكن أن تنحط إلى هذا المستوى ، وعليها أن تصون الأخلاق وتقاليد الإسلام .

الأخلاق ! وما شأن الأخلاق في هذا كله ؟ ولماذا يكون الكشف عن الوجه والشعر أسوأ على المرأة منه على الرجل ؟ إن سلمى لا يفارقها الغضب من هذا .

وعادت إلى القرآن ، بحماسة من يعتنق الدين حديثاً ، فهي تفهم الآن العربية ، بدرجة كافية ، وتقضي أياماً في البحث عن الآيات المتعلقة بالنساء . وما من آية ، ما من آية ، على وجه الإطلاق ، ورد فيها ، ما يدل على أن المرأة يجب أن تحجب وجهها ، وحتى شعرها ، على حين أن المشايخ يقولون : إنها خطيئة أن تكشف عنهما . والأمر الذي يوجبه القرآن ، إنما هو اللباس المتواضع . بل إن النبي نفسه ، لم يكن يطلب من عائشة أن تحتجب . وكان يصحبها معه إلى « عشاءات » كانت تحدث فيها بحرية مع الرجال . أما سكينه ، حفيدة محمد ، فكانت تأبى بعناد أن تضع الحجاب ، وتقول : « إنها لشييمة لله . ولئن كان قد وهبني الله الجمال ، فليس ذلك من أجل أن أخفيه ! » .

وكانت المدينة ، حول سلمى ، قد بدأت تدوي بدوي الحرية . فلأول مرة ، منذ زمن طويل ، يتنفس أهالي استامبول تنفساً حراً . وفي وسع النساء أخيراً أن يرين الحياة وجهاً لوجه .

وفي هذه الحماسة الفرحة التي تجعلهن يرتعدن ، أصبحت مراهناتنا تشعر بثنايا جسمها كله ، كموجة عاصفة ، تصطدم بالسدود المغلقة التي تنظم آداب الظهور بين الناس ، أو كسميل جارف يتحطم على الجدران المغطاة بالحزير ، جدران القصر ، وعلى تهذيب الكالافات المزهف ، وابتسامتها أمها المتسامحة . فتكاد تحتنق .

وكانت سلمى تجتر مأخذها ، وهي جالسة في زاوية من البهو الأزرق . على حين أن السلطانة ، الجالسة إلى مكتبها ، كانت تنهي إحدى رسائلها ، وهي تحاول ، بتصنع ، أن لا ترى سوء المزاج لدى ابنتها .

وفجأة سمعت خطوات خيري بك المتعجلة ، وكان قد ظهر في البهو ، حتى من دون أن يعلن عن قدمه ، وهو يبدو في أشد الاضطراب . ولأول مرة ، وعلى مدى أربعة عشر عاماً من الحياة الزوجية ، تراه يهمل تحية زوجته ، ويدمدم قائلاً :

— إنه لشيء لا يمكن أن يصدّق، لا يصدّق أبداً.

فألقى كلامه السلطنة. فسألته بنظراتها عما هو فيه، بينما كان يسترخي ليجلس على الكرسي.

— تصوّري أن رجال الجمعية في أنقرة، قد صوتوا على إلغاء السلطنة!

فارتعدت خديجة.

— أتريد أن تقول إنها صوتت على إقالة جلاله السلطان وحيد الدين؟

— كلا. إنها صوتت على إلغاء السلطنة كلها!

قال ذلك وهو يشدّد على كل مقطع من مقاطع كلماته، على حدة.

— ومنذ الآن لن يكون هنالك من سلطانٍ في تركيا، وسيبقى فقط خليفة، هو رئيس ديني خاص مجرد من كل سلطة سياسية. فانظري!

قال هذا وهو يمد إلى زوجته مجموعة من الصحف، ظهر فيها الخبر بالحروف الكبيرة. فتنظر إليها وتتصفحها بنظراتها، وتمزج كتفها.

— إن هذا مستحيل! فما من إنسان يقبل هذا القرار. ذلك أن السلطة الدينية والسلطة السياسية لا تقبلان الانفصال في الإسلام.

وردّ خيرى بك الذي أثاره ما يلاحظه لدى زوجته من اطمئنان هادئ، بجفاف:

— وهذا بالضبط ما اعترضت به أكتية النواب. فالمحافظون، وحتى المعتدلون بعيدون عن مشاركة كمال رأيه في هذا الأمر. إنهم يريدون ملكية دستورية، تراقبها القوى الوطنية.

— لكن كانوا الأكتية، فلم لم يزيحوه؟

— سؤال وجيه... لكن كمال استخدم القوة في التغلب على معارضتهم. فقد صعد على المنبر و.. أنا أقرأ لك الكلمات التي استخدمها: «إن من الضروري أن يقبل كل منكم في هذه الجمعية، بوجهة نظرنا هذه (أي إلغاء السلطنة). فإذا لم تقبلوا، فإن وقائع الحقيقة التي لا محيد

عنها، لن تتغير، ولكننا قد نشهد سقوط بعض الرؤوس»^(١). وفوراً سكت المعارضون، لأنهم يعرفون أن الباشا لا يمزح وأن كثيراً من الرؤوس سقطت فعلاً منذ الحرب الأهلية، بل إن أحد النواب المعارضين مضى إلى حد القول: «اعذرونا، فقد كنا نبحت في القضية من رواية أخرى. ونحن نعرف الآن إلى أي رأي يجب أن ننحاز». ولما كانوا قد أربهوا، فقد صوتت الجمعية بعد عدة ساعات على إلغاء الملكية، وبالإجماع.

وكانت سلمى تسمع هذا كله، وهي حائرة. لم يعد إذن هنالك من سلطان. فماذا يعني ذلك؟ يعني أن البلد التي لا سيّد لها يفعل فيها كل إنسان ما يريد؟ هذا مستحيل! أو هي بلد يحكمها مصطفى كمال؟ ولكن عندئذ... وفي ذهنها، يبرز أمل: لئن أصبح هذا هو السلطان الجديد، فلربما، إذن، لن تكون مرغمة على ارتداء هذا الشرف البغيض؟ فلطيفة هرون، زوجته، لا تحمله أبداً، حتى ولا صديقتها خالدة أديب، ولا واحدة من النساء اللواتي يُحطن بها. إنهن حُرّات، بارتداء الثياب التي تعجبهن والخروج من البيت، بكل حرية.

وفجأة، تبدأ سلمى بأن تتمنى بجنون أن يكون الخبر الذي نقله أبوها صحيحاً، أي أن لا يكون هنالك من سلطان بعد الآن في تركيا، وأن يصبح كمال سيد البلاد. والشيء المزعج، بطبيعة الحال، هو أن أمراء الأسرة، الذين يمضون وقتهم في انتظار أن يصبح كل منهم سلطاناً، لن يعرفوا ماذا يفعلون بوقتهم عندئذ. وهذا المسكين العم فؤاد، وهذا العم «الرعدي» سيبصان بحبيبة. وسعدية! وعندئذ تنتاب سلمى رغبة في الضحك، لا تقاوم. فابنة عمها ستترجع بصورة خفيفة، وهي التي منذ أصبح أبوها أميراً ورثاً، لا تتوقف عن «اتخاذ أوضاع». وتنتظر سلمى بأنها تستخدم هذا التعبير الفرنسي، الذي تستخدمه خالتها، السلطانة الفراشة، لكي تصف ما يضحك من سلوك زوجات البارزين الذين تلقاهم في الاستقبالات. وهي لا تعرف لماذا يقال: «اتخذ أوضاعاً» أو بالفرنسية^(٢) بدلاً من X أو Z. ولكنها تجد الكلمة أنيقة جداً!

وتدخل السلطانة الفراشة إلى البهو، مرتدية ثوباً رمادياً، كما لو أنها تريد أن تبرز ما بها من كآبة. ولكن سلمى تلاحظ أن عينيها تتألقان، وأن خديها ورديان جداً، كما لو أن دور ناقل الأخبار، مهما تكن هذه كئيبة، يهبها. وكانت قد وصلت من قصر يلديز الذي زارت فيه الزوجة الأولى للسلطان. فقالت:

(١) انظر كتاب اللورد كينروس: آتاتورك.

(٢) r هي حرف من جهة وكلمة air من جهة أخرى، أي أوضاع.

— إن الكاديين قلقه جداً. فقد جاء الحاكم الجديد رفعة بك بعد هذا الظهر، لكي يعلم الباديشاه، بتتحيته عن العرش. وقد أجابه جلالته، بأنه لن يتخلى أبداً عنه. ويتساءل الناس جميعاً الآن عما سيحدث. ذلك أن مصطفى كمال ليس بالشخص الذي يقبل التحدي.

فما هي وسائل الضغط التي سيستخدمها؟ إن جلالته يتوقع كل شيء... بل لقد وجد من قال له إن حياته في خطر.

وقال خيرى بك :

— إنهم قادرون على اغتياله، واغتيالنا جميعاً. فأصدقاء كمال، البولشفيك، لم يترددوا في قتل الأسرة المالكة كلها عندهم. ولم يكن لدى هؤلاء المتوحشين أية شفقة حتى على الأطفال!

ولكن سلمى لاتصدق ماتسمعه أذناها. فماذا؟ أهذا هو الروز دور الباشا، الذي طالما دعت له أسرته بالخير، وصلت من أجله؟ أو سيقتلهم؟ إن هذا مستحيل. وكانت أمها منحازة لهذا الرأي، مما خفف من بؤسها كثيراً. فقالت مستاءة :

— إن الموقف خطير بدرجة مناسبة، من غير أن نحاول المبالغة فيه. ومن جهة أخرى، يا صديقي، دعني أقل لك إن أتراكنا أكثر تمذناً من هؤلاء المويجيك!

وتثن السلطانة الفراشة قائلة :

— ستلغى إذن القوائم المدنية، فكيف إذن سيمكننا أن نعيش منذ الآن؟

وردت خديجة السلطانة بقولها :

— ستشتريين كمية أقل من أقمشة الدانتيل. وهذا كل شيء! وعلى كل حال، فإني أشك أن يكون لك بها من حاجة...

ولكي تقطع السبيل على كل تعليق، ألهمت نفسها بشغلها في التطريز.

وترك توفيق باشا، آخر صدر أعظم، منصبه بعد يومين ومضى ليسلم أختام الدولة إلى السلطان. وقام رفعة بك بالإشراف على أمور المدينة فانتقلت الشرطة والدرك إلى إمرته، على حين أن مختلف الوزارات بلغت الأمر بالتوقف عن العمل. وأصبح هو ممثل الحكومة الشرعية في أنقرة. وحجاً،

بإرضاء الشعب الذي لم يكن يفهم حتى كلمة الجمهورية، فإن النظام الجديد أطلق على نفسه اسم « ملكية الشعب .. » .

ثم بعد عدة أيام، قتل علي كمال . وكان هذا الصحفي الكبير قد قام بحملة ضد الكماليين . فأوقف لدى حلاقه، ثم اقتيد إلى إزمير لمحاكمته . ولكن لم يتح له الوقت، ذلك أن الشعب الثائر قضى عليه .

وأثار الخبير الاستياء الكبير لدى حاشية السلطان . وذلك لأنهم يعتبرون علي كمال رجلاً شريفاً لم يفعل شيئاً غير الدفاع عن أفكاره . لكن الأهم من ذلك هو أن شنته بهذه الطريقة كان البرهان على أن الشرطة منذ الآن لن تغامر بحماية أحد من الغضب الشعبي، ولا سيما رجال العهد القديم . أما داخل قصره، فإن السلطان نفسه لم يعد يشعر بالأمن . ذلك أن الجمعية الوطنية الكبرى، في أنقرة، قررت محاكمته بتهمة الخيانة العظمى، وبعض نواب هذه الجمعية، كانوا يطلبون « لصديق الإنكليز » عقوبة الإعدام .

وكان عدد كبير من الخدم قد هربوا، وحتى هيئة الأركان الشخصية للسلطان بدأت تهجره . ويوماً بعد يوم، كان قصر يلديز يصبح أكثر فراغاً .

لكن الضربة الأقسى، للباديشاه ستكون بلا ريب ذلك الهروب السري، الذي قام به ذاك الذي كان يسيء نصحه، أي آخر صدر أعظم، الداماد فريد . وعندما جاؤوا ليخبروا السلطان بذلك، فإنه ما زاد على أن ضحك ضحكة مرة، وقال :

— وهكذا، فإنه لم يملك حتى الشجاعة الضرورية، لكي يقول لي : إلى اللقاء .

وهبطت كتفاه أكثر بقليل من قبل .

وقرّرت خديجة السلطانية، يوم الجمعة التالي أن تمضي لتحضر الاحتفال بالسلامك، في مسجد الحميدية . ذلك أن الباديشاه أذاع أنه سيذهب لحضوره كالعادة، وأنه لدى نزول المصائب، فهي تحرص على مؤازرته .

وعندما كانت تنهأ، مع سلمى، الملتفة بملاءتها، للركوب في العربة الخضراء القائمة، التي تحمل شعار الأسرة المالكة، تجرأ محمد، السائق، وهو رجل ضخم الهامة، بشارين محترمين، أصله من الجبل الأسود، تجرأ على القول، إنه قد يحسن في مثل هذه الأيام الصعبة، أن تؤخذ عربة عادية بدلاً من العربة السلطانية . ونظرت إليه السلطانية نظرة مرعبة، وقالت له :

— لقد كنت فخوراً جداً منذ بضعة أسابيع ، بأن تكون سائقاً في البلاط . والآن أنت خائف . فاذهب إذن ، ولن أمنعك . وسيدفع لك المحاسب أجورك .

وحاول الرجل أن يبرّر موقفه ، فائلاً :

— عفواً ، يا سيدي السلطانة . إن لديّ أطفالاً صغاراً ، وليس لي الحق في أن أجعلهم يتامى . وهدأت الأميرة ، وقالت :

— حسناً ، يا محمد ، عد إلى بيتك ، ولكن إئتني قبل ذلك بالسائق الآخر .

فاحمر الرجل خجلاً ، وبدأ يدمدم بكلامه أكثر من ذي قبل .

— ذلك ، يا صاحبة السمو ، لأن له أماً مُسيئة ليس لها من معين غيره . وها هو قد مضى . وانطلق الشرر من عيني خديجة :

— ومن دون أن يعلمني ؟

— إنه لم يجرؤ على ذلك . فقد تحجّل . ولقد كنت دائماً على جانب كبير من الطيب . وإذن فهكذا يُعترف للإنسان بطيبه . ففي مثل هذا المستوى ، تصبح الأمور مضحكة !

— والآن لم يعد لدينا من سائق كما أرى . ومن حسن الحظ أن زنبيل هنا . ويستطيع أن يقوم مقام السائق .

وهنا قامت بحركة كبيرة لتعيد تصحيح موقع وشاحها على شعرها . وبدت السلطانة كأعظم مما كانت في أي يوم آخر . وصعدت إلى المركبة السلطانية .

ولم يكن موقع المسجد ليبعد عن القصر إلا بمقدار كيلومترين . ويقضي العرف بأن تحضر السيدات هذا الاحتفال ، وهنّ في عرباتهن الواقفة في الفناء الخارجي . وعندما وصلت سلمى وأمها ، انفتحت لها أبواب قصر يلديز ، وبدأ السلطان في عربة مكشوفة ، يشدّها حصانان يمشيان بانتظام . ووراءها يمشي على الأقدام ثلاثة من المرافقين ، وأربعة سكرتيرية وبعض الخصيان السود ؛ وما من وزير ، ولا ذي منصب عالٍ معهم . وتنظر سلمى حولها ، وهي متهدمة ، وتقول : أهذا سلاملك ؟ وتتذكر الاحتفالات الفخمة في الماضي ، عندما كان الوزراء والباشوات بأوسمتهم وشياهم المذهبة ، والأمراء ، والدامادات ، وكبار الموظفين ، يمشون وراء عربة السلطان ، على صوت النشيد الملكي . أين

هي إذن فرقة البواقين الموسيقية ؟ وأين هم الرماحون الجميلون بثيابهم الزرقاء ، ويختلف فرق الجيش التي تقم السياج حول الموكب ، وهي في وضع التأهب ، هاتفة هتافها التقليدي : « ليطل الله عمر باديشاهنا » ؟

لم يكن هنالك من هذا كله إلا بعض جنود الحراسة ، يلتزمون الصمت .

أما السلطان وحيد الدين ، في ثيابه العسكرية ، كجنرال ، ومن دون أي وسام ، فقد نزل ببطء من عربته ، كما لو أن مجرد الحركة تقتضي منه جهداً ضخماً ، إنه وصل إلى درجة كبيرة من الهزال ويبدو مرهقاً كثيراً حتى إن سلمى تتساءل عما إذا كان مريضاً ، فلا تتعرف عليه إلا بصعوبة ، فخلال عدة أشهر أصبح كهلاً مسناً .

واتجه ، ونظراته تائهة في ذات نفسه ، إلى المسجد . وفي هذه اللحظة دوى صوت المؤذن . فوقف السلطان : إنه يصغي إلى الصوت الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة : « باسم حارس الدين ، خليفة المسلمين ... » .

ولأول مرة منذ قرون ، لم يذكر لقب سلطان الدولة العثمانية .

ودخل وحيد الدين إلى المسجد ، وعنقه داخل بين كتفيه الضيقتين ، كما لو أنه يشعر بالبرد . وبقيت سلمى وأمها ، في العربة التي نقلتهما إلى قصرهما ، متأثرتين من منظر السلطان المأساوي والحزن اللامتناهي للمنظر . بقيتا صامتين ، فكل كلام هنا يبدو غير لائق .

ولم تكونا إلا على عدة مئات من الأمتار ، من القصر ، عندما برز من جانب الطريق رجلان . ففوجيء الحصانان بهما ، فانحرفا قليلاً ، وكان على زينيل أن يشد عليهما بكل قوته ، لكي يضبط حركتهما . وتجمدت العربة في مكانها وهي تُصير . وعندما كان أحد الرجلين يوجه مسدسه إلى رأس الخصي ، كان الآخر ، الذي يرتدي بنطالاً ممزقاً ، وجاكيتة عسكرية ، يقترب من نافذة العربة المشبكة ، ويقول ، مخاطباً من كان في العربة ، ولا يستطيع أن يراها :
— يا أيها الخائناتان ، عما قريب سنقتلكما . وليعش مصطفى كمال !

وتجمع بعض المتسعين ليرقبوا المشهد ، منذهلين ، عندما دوى صوت يقول :

— إلى وراء أيها الأوغاد !

وكان ذلك الرجل في الستين من عمره تقريباً، لكنه عملاق، يرتدي بنطالاً فضفاضاً، وجاكيتة قصيرة، مما يلبسه الفلاحون في الأناضول. وكان وجهه يقطر غضباً.

— أيها الخنازير الخبثاء! كيف تجرؤون على مهاجمة نساء الأسرة العثمانية التي تدين لها بلادكم ومصطفى كمال نفسه، بكل شيء؟ اطلبوا منها العفو عنكم حالاً، وإلا فإنني سأمزقكم إرباً.

ويحذ الجمهور ما قاله الرجل، ويبدأ الإحاطة بالرجلين. ففوجيء هذان الأخيران، وهما بلا ريب من الوطنيين الذين وصلوا حديثاً إلى العاصمة، وترددا فيما يفعلان، فينتهز زينيل هذه الفرصة، ويضرب الحصانين بقوة، ويدفع بهما رملًا.

ولقد جرى كل ما جرى بسرعة لم تترك لسلمي حتى فرصة الشعور بالخوف. ولكن الرجل تلفظ بلكمة طعننها في القلب: أيها الخائنات. وهذا التعبير المفعم بالاحتقار والبغضاء، هو مما تعرفه جيداً، لأنها طالما سمعته يتردد بمناسبة الحديث عن الرعايا العثمانيين من ذوي العلاقة مع المحتل. ولكنها هي، سلمى، وأسرتها، أصبح وصمهما بالخيانة؟.. أمّا انه وجد من يردّ هذه الشتيمة لصاحبها في وجهه، فإن هذا يُشوِّشها تشويشاً عظيماً.

فرفعت عينها نحو أمها. وكانت هذه متجمدة في وضع كهنوتي، ونظراتها متجهة إلى بعيد.

— أيندجيم، لماذا أطلقوا علينا....

وقد دهشت أن تسمع صوتها، الخشن، المرتجف، كما لو أنه نَفَس يموت. فلانصل الكلمة إلى حدود الشفتين. فتقوم بجهد، وتقول:

— يطلقون علينا اسم «الخونة»؟

فارتجفت السلطنة. ونظرت إلى ابتها نظرة فيها من التعاسة، ما جعل البنت تحجل، كما لو أن السؤال عن الشتيمة كان تجديدًا لها. فخفضت عينها؛ وعندئذ جاء صوت أمها، شديد العذوبة، ليقول:

— تعلّمي يا سلمى، أنه عندما تقفين، فإن هنالك دوماً ضعفاء، لكي يزعجوا ويركلوك بأرجلهم. ولكن اعلمي أيضاً، أنه مهما تكن نقاط ضعف الأسرة العثمانية وأخطاؤها، فإنها لم تخن قط. بل إن فكرة كهذه، فكرة سخيفة. ذلك أن عظمة تركيا هي عظمتنا، وخيانتها يعني خيانة أنفسنا.

وعندما وصلنا إلى القصر ، وجدنا خيرى بك مصحوباً بالجنرال الأمير عثمان فؤاد . وعندما روتا لهما الحادث ، بدا عليهما الهم . ودمدم خيرى بك ، قائلاً :

— كنت أتوقع هذا من قبل ، وليس هو إلا البداية ، أما الأمير فإنه يقطّب حاجبيه ، ويقول :

— يا عمتي العزيزة ، اسمحي لي أن أوصيك بأن تكوني أكثر حذراً . ففي المدينة في هذه الأيام ، بعض المشاحنات يثيرها إما الوطنيون ، الذين يطالبون برحيل الإنكليز حالاً ، وإما الإنكليز الذين يبحثون عن مبرر لإعلان الحكم العرفي . وهم قلقون من هذه الاضطرابات التي يثيرها الكماليون ، ويعتقدون أن السلطان نفسه في خطر . وهكذا فقد طلب جلالتة من الجنرال هارينجتون ، قائد القوات البريطانية التي مازالت موجودة ، أن يضاعف له الحراسة .

وعجبت السلطانة ، وقالت :

— أطلب السلطان حماية إنكليزية ؟ ألا يوجد أترك أوفياء ، إذن ؟

— وكما تعرفين ، يا عمتي ، فإن الشرطة والدرك قد أصبحا تحت سلطة الكماليين ، بعضهم لأنه مقتنع ، وبعض آخر لأنه خائف .

ولكن الأميرة لا تصغي إليه . فالتفتت إلى زوجها وسألت ، متوقفة عند كل مقطع :

— أليس هناك من أترك أوفياء لنا ، يا خيرى ؟

وبدأ هذا يلهمو بمسبحته ، ذات الحبات العنبرية ، وعلى سحنته مظاهر الحزن والكتابة . إذ أنه منذ تلك المشاحنة التي كسر خلالها عصاه ، قلما رُئي إلى جانب السلطانة . فهو يبقى في جناحه ، يتحدث أحاديث طويلة مع أصدقائه ، وهم من كبار الموظفين ، الذين فقدوا بحكم صلاتهم مع الأسرة المالكة ، كل مواقعهم ودخولهم ، في أقل من أربع وعشرين ساعة . ولم تعد له رغبة في النقاش ، ولكن سؤال زوجته المباشر ، اضطره إلى الجواب ، وهذا ما يفعله وهو ينظر متفحصاً بانتباه ، أظافره المجلّلة .

— إن الموقف الآن ، أمر يبدو معه أن أفضل ما نعمل ، هو الانحناء للواقع ، فإن لم نفعل ، فستشتعل الحرب الأهلية . ولكن البلاد رأت خلال أحد عشر عاماً ما يكفي من الدم ... وأظن أنه

حتى أولئك الذين يشكون في كمال ، يعترفون بجميل ما فعل ، إذ أنقذ تركيا . وهم يريدون الآن تجنب
إضافة مآسٍ جديدة .

فتحملق الأميرة في وجه زوجها ، مع ابتسامة ظنت سلمى أنها تقرأ فيها الكثير من الاحتقار

وفي يوم الجمعة التالي ، كانت السماء تمطر مطراً غزيراً على استامبول . وكانت سلمى تعتقد أن أمها ، وهي معها ، لن تذهب بالتأكيد إلى السلامك . وليس موضوع بحث من جهة أخرى ، أن تذهب فتنزه في الحديقة ، وكان النهار ينيء بأنه سيكون مضجراً . فتشاءبت طويلاً ، دون أن تضع يدها على فمها . وما من إنسان في البهو ، وهي تنتهز الفرصة لتتذوق لذة القدرة على مخالفة القوانين المقدسة للياقة . وفجأة يظهر زينيل ، راكضاً باتجاه أجنحة السلطنة . فتستغرب سلمى ذلك . إذ لم يحدث قط أن رأت الخصى يتصرف بهذه الدرجة من قلة اللياقة . لكن هذا الوضع اللامألوف جعل سمته الخفيفة ، وخديه الطريين كالوليد الكبير ، ينتفضان . ولما كانت مقسمة بين الرغبة في الضحك وبين القلق ، فقد نهضت بقفزة واحدة ، وقالت له :

— يا آغا ، ماذا يجري ؟

غير أنه لم يسمع . فبدأت بدورها تعدو وراءه ، وتصل لاهثة ، إلى عتبة البهو الصغير في الحين الذي كان فيه زينيل ، المترنح ، ينحني في تحيته الثالثة .

— أيتها السلطنة المحترمة جداً .

وتراه يلهث ويدير عينين يائستين .

— أيتها الأميرة المحترمة جداً ...

ويفتح فاه، ولكن الأصوات تنحبس في حلقه؛ وفجأة تراه ينفجر شاهقاً من البكاء.

فتشير السلطانة بأن يؤتى له بمقعد، ويرطب وجهه بالماء، ماء النعنع المعطر؛ وتنتظر بهدوء أن يعود إلى طبيعته. وخلال ذلك كانت بعض كبار الكالفات اللواتي خالجهن الشعور بأن هناك خيراً هاماً، تسلن خفية إلى الهو الصغير، على حين أن سلمى، التي جلست فوق مقعد بسيط من الساتان، تعض شفتيها من فقدان الصبر.

واستطاع الخصي، بعد بضع دقائق أن يستعيد هدوءه. فوقف وصالب كفيه على البطن، وخفض بصره، وتمتم، وكل أعضائه ما تزال ترتجف، قائلاً:

— إن جلالته ... قد ... هرب!

فانتصبت السلطانة واقفة، وقالت له:

— أيها الكذاب! كيف تجرؤ؟

ولم تستطع أن تكمل جملتها، إذ أنها هي الأخرى يملكها الإحساس بالاختناق. وحتى الإمام، والكالفات، المندھشات، لا يفكرن في تقديم المساعدة إليها. وجاء صوت صاف يفسد الصمت ويقول:

— قل ما عندك، يا آغا، أرجوك.

وكانت سلمى، الجريئة وحدها بين كل هؤلاء النساء، والموشكة على السقوط على الأرض، تريد أن تعرف. فيقول:

— إن جلالة السلطان، قد ترك استامبول هذا الصباح، برفقة ابنه، الأمير إيرطوغرول، وتسعة عناصر من حاشيته. وقد ركبوا البحر على متن بارجة بريطانية اسمها «مالايا».

ثم حنا رأسه، بعد أن بلل بالدمع استمبوليته الجميلة المصنوعة من الجوخ الأسود.

وتستاء سلمى وتقول: كم هو مخجل! ترى كيف استطاع أن يفعل بنا هذا؟ وإذن فقد كان الطباخون على حق، عندما كانوا يقولون إن السلطان بدأ يخاف. وعندما كنت أنقل أحاديثهم إلى أيندجيم، انزعجت وغضبت وقالت إن الطباخين لا يمكن أن يفهموا إلا سلوك الطباخين، وليس سلوك السلطان. بيد أنهم هم الذين كانوا على حق.

لقد سلك السلطان سلوك الطبّاحين ، وبدأت تدور في غرفتها ، راكلة قطع الأثاث الناعمة من الغضب . وتقول :

« ما عساها أن تكون هيئتنا الآن . وم سيفكر الناس ؟ أسيرُون أنا جبناء ؟ وإذن فلن أخرج قط من غرفتي ! » .

وبعد ربع ساعة على هذه الحال ، وبعد أن هدأ غضبها ، خرجت على رؤوس أصابع رجلها . فرأت أن القصر هادئ ويبدو لها أنها تسمع مع ذلك همسات في كل زاوية — همسات تنقطع لدى اقترابها .

وتلتقي بمجموعة كالفات يتصنّعن عدم رؤيتها ، فتقول : « إنهن لا يجروُن بعد الآن على النظر إليّ ، إنهن خجالات عني ! » .

وتشعر أنها تشتهي أن تصرخ بهن ، وتقول :

— ولكن انظرن إليّ ! إنني لم أغيّر . وأنا لم أكن لأهرب . فأنا أنا . لِمَ تحجلن مني ؟ ولكنها لا تجرؤ على ذلك ، فتتصلب وترغم نفسها على المشي برصانة ، ورأسها عال ، كما ينبغي للأميرة أن تفعل ، حتى ولو كانت ، داخلياً ، تشعر بأنها مضيّعة كآخر من جاء من الإماء . وإذا هي لم تحط بالتشريف والاحترام اللذين كانت ترى حتى الآن أن من الطبيعي أن تحاط بهما ، فإنها تشعر بأنها شبه عارية .

وفي اليوم التالي ، لم يكن في صحف استامبول إلا تفاصيل وتعليقات على ذلك « الهرب » . وكانت السلطنة متمدّدة على الديوانة ، في الحين الذي كانت فيه إحدى الإماء تمسّد لها عنقها . فطلبت من زنبيل أن يقرأ لها كل مقالة ، من أول صفحة إلى آخر صفحة ، وآخر سطر . وكان الخصي يجرب أن يقفز فوق الكلمات العدائية ، والجمل المشينة . لكن السلطنة لم تخدع بهذا القفز . وأثبتته تأنيباً حمله ، خلافاً لعواطفه ، على الانقياد لما تريد .

ويمكن القول : إن كل المخبرين ، بعد أن أبدوا عظيم استنكارهم ، لهذا « الهروب غير اللائق » ، على مركب إنكليزي ، يبرهن بصورة لا تدحض ، على التواطؤ الذي كان قائماً بين الباديشاه وبين أعداء تركيا ، وكل المخبرين قالوا إن السلطان حمل معه في حقائبه ، مجموعة من الجواهر ، العائدة للدولة . ثم إن حاكم استامبول ختم على أبواب قصر يلدز بالشمع الأحمر ، بغية القيام بمجرد دقيق لما يمكن أن يكون قد سرق . ومن الصحفيين من ادّعى أن السلطان حمل معه مخلفات النبي محمد

(ﷺ) . وكانوا يرون أنه إذا فقدت هذه الخلفات ، فإن تركيا تفقد الحق بتتويج خليفة المسلمين . وبذلك تضيع هيمنتها على العالم الإسلامي ، تلك الهيمنة التي كانت تملكها منذ خمسة قرون .

ونظرت سلمى ، محزونة ، إلى أمها ، وقالت لها : ليس من الممكن أن يكون السلطان قد تصرف على هذا النحو ، أليس كذلك ؟ بيد أنه لا يمكن أن تكون الصحف كلها قد انخدعت ، أو كذبت ... وتشعر بأنها مرهقة ، وجسدها يؤلمها كما لو أنها قد ضربت ضرباً مبرحاً . وتفكر أن تترك البهو الصغير كيلا تسمع شيئاً ، بل إنها لا تملك القوة على الحركة . فتغلق عينيها ، داعية بكل جوارحها أن يُعدم هذا اليوم ، وألا يكون كل ما سمعت إلا حلماً سيئاً . ولكن صوت زينيل ، الرتيب ، القاسي ، يستمر في تعداد المفاسد التي تعزى إلى الهارب ، وسلمى تشد بقوة على قبضتها وجفونها لكي تقاوم هذا الخرز الذي يدخل أكثر فأكثر إلى رأسها . فلماذا ؟ لماذا إذن تلح أبندجيم على أن تقرأ لها كل هذه الأشياء الشنيعة ؟

وفجأة ، ساد الصمت ، وسلمى تلاحظ ، بعد أن فتحت عينيها ، نسيم آغا ، الخصي الأسود المفضل لدى السلطان وحيد الدين ، الذي كان يدخل عليها . ترى لماذا لم يسافر مع سيده فانتصبت السلطنة ، وفي نفسها بصيص من الأمل في النظرات .

— تبارك الله الذي أرسلك ، يا آغا !

قالت هذا وهي ترجو الآغا أن يجلس ، بغية أن تظهر للخادم الوفي ، اعترافها بجميله . لكنه يحرص على أن يبقى واقفاً : ففي أيام الشقاء بالضبط ، وعندما تكون الأسرة المالكة هدفاً للاحتقار والتميمة ، يحرص هو أن يبرهن على احترام أكبر . وعندئذ توقفت خديجة السلطنة عن الإلاح ، مظهرة امتنانها من نعومة سلوكه ، ومن الدرس اللاإرادي الذي لقتها إياه : ومع كل اضطرابها فإن عليها أن تتصرف في الماضي .

ويقصّ الخصي ، ودموعه تغرغر في عينيها ، ما يلي :

— إن السيد ناداني في مساء اليوم السابق لسفره ، وأسرّ إلي بسره الكبير ، وأمرني بأن أهيمى له بعض الحقائق . وتجرات ونظرت إليه ، ورأيت أن عينيها كانتا حمراوين . فقال لي : « كن مقتصداً ، وخذ قليلاً من الأشياء » فأخذت سبع « بدلات » فقط . وكذلك ، على ما أمرني به ، ذلك اللباس الرسمي الفخم الذي لبسه يوم تتويجه . وكان قد طلب إلى عمر ياور باشا ، أن يقوم بحساب المال الذي يملكه ، وقال لي وهو يضحك ، وكما لو أنه ييكي : « ستأتي إلينا خلال بضعة أيام . ولكن

كن مستعداً، يانسيحي، للكثير من العذاب، وذلك لأن الله يشهد أنه ليس لديّ الكفاية من الموارد لأعول بها أسرتي. ولكن أقسم لي على أنه ما من إنسان سيعرف ذلك، إذ أن الشعب يقيس شرفنا بمقياس أموالنا.»

وفكرت سلمى قائلة في نفسها: «ما أغرب هذا، إذ تقول: أئندجيم أنه ليس للشرف علاقة بالثروة» وأما جواب السلطان فإنه يجعلها حائرة: فإذا كان على حق مثلاً فماذا؟ وتتذكر تلك النظرة الدليّة لذلك الضابط الروسي، وابنته الصغيرة، اللذين طردهما الخادم الذي كانا يطلبان منه الخبز. فارتعدت: أفهذا هو الذي ينتظرهما؟

ويتابع الخصيّ كلامه، فيقول:

— إنك تتذكرين، إندميّز، تلك المحبرة الذهبية، وحامل السجائر المطعم بالياقوت، اللذين اعتاد الباديشاه استعملهما؟ ففي اليوم السابق لسفره، أمر ياور باشا أن يردهما إلى الخزانة، وأن يأتيه بالوصل. ودش لذلك زكي بك والكونونيل ريشار ماكسويل، اللذان كانا هناك، وأشارا على جلالته أن يأخذ معه بعض الأشياء الثمينة، لكي يستطيع أن يعيش في الخارج. فرأيت سيّدنا يشحب لونه، وردّ على الكونونيل بلهجة شديدة البرودة: «إن مامعي يكفيني أما الأشياء الموجودة في القصر، فإنها ملك الدولة!»، ثم التفت إلى زكي بك، وترك لغضبه أن يفجر، وقال: «من الذي رخص لك أن تكلمني بهذه الصورة؟ أتريد أن تلوث شرف الأسرة العثمانية؟ إعرف إذن أنه لم يوجد في أسرتنا من هو سارق. فامض الآن إلى سبيلك!» ولم يكن يملك يوم سفره إلا ٣٥ ألف جنيه استرليني، ورقاً^(١).

— هذا صحيح تماماً. وفي وسعي أن أوكدّه.

والتفت الحاضرون جميعاً. ذلك أنه ظهر في العتبة الجنرال الأمير عثمان فؤاد، مصحوباً برجل طويل القامة، في ثياب الضابط. وهذا الأخير هو الذي تدخل وقال هذا، بصورة قليلة الاحتفال بالبروتوكول. فذهلت الكافات. وصرن ينظر بعضهن إلى بعض: ترى هل يجب أن ينسجن؟ لكن الفضول كان أقوى من الموانع الاجتماعية. فاكتفين برد الأغطية على وجوههن.

وبحركة آلية، بحثت السلطانة، في الديوان، عن قطعة المسلمين لكي تحجب عن ناظر الأجنبي شعرها الغزير. وعندما لم تجد ذلك، هزت كتفها بصورة غير ملحوظة! وأخيراً، مأهية

(١) ملذرات نسيم آغا.

ذلك ! فالأحداث أخطر من أن تُصير على الشكليات . وفوق ذلك ، فإنه بدا لها أنها تعرف الرجل الذي خجل من جراته ، وانزوى في آخر القاعة ، وعيناه تنظران إلى الأرض . وكانت سلمى هي التي أنقذتها من حيرتها . فقالت :

— أيندجيم ، تذكرني فأر المستودع !

ذلك أن المراهقة بقيت بعض اللحظات ، قبل أن تعرف من هو هذا الرجل . لأن الشخص القوي الذي يصحب خالها لا يشبه في شيء ذلك الهارب الذي كانت أسرته قد آوته في منزلها . ولقد عرفت من عينيه ، العميقتي الخضرة في لونهما ، والمحاطتين بأهداب سوداء طويلة — كعيني فتاة ، على ما فكرت به في ذلك الحين .

أما الأمير فؤاد فقد ذاب خجلاً ، وقدم كل ما يستطيعه من الاعتذار .

— أرجو أن يتسع صدرك ، يا سلطنة ، لهذا التدخل ، لكن القصر كان خاوياً ، ولم نجد أحداً ليخبر بقدمونا . ولدى صديقي ، العقيد كريم ، تفاصيل غريبة جداً حول سفر جلالته ، فأحببت أن يقوها لك هو بنفسه .

وتبتسم السلطنة ، وهي تتسلى بسحنة الأمير ، المندهشة ، وتقول :

— لقد كنت على حق ، يا ابن أخي . فأنا والعقيد يعرف كل منا الآخر ، من زمن طويل .

إنها مغرمة بأن تصدم الناس ، وهذا هو انتقامها الخفي من القواعد الصلبة للمجتمع العثماني ، وهي قواعد قدّرت دوماً أن من الضروري اتباعها ، ولكن من المهم أن يعرف الإنسان كيفية الخروج عليها . فتدعو الرجلين إلى الجلوس ، وترسل لإحدى الإماء للبحث عن شراب ما لهؤلاء الناس الذين يأتون إليها في زيارة أخيرة .

والأميرة نفسها تجد قانون الضيافة هذا ، قانوناً مثيراً ، إذ أنه حتى في الظروف العصيبة جداً ، يبدو فوق كل اعتبار . « فالطقوس ، والبطء ، يبدوان كوسائل من الخجل ، ضرورة لتخفيف الصدمات » على ما قالته لها أمها ذات يوم . لكن المراهقة ترمي عرض الحائط بهذا التصور للوجود : والذي تريده هي ، وتحرس عليه ، من الحياة ، ليس وجهها الناعم ، العسلي ، بل زواياها الخشنة ، وإبرها التي تحرضها وتثيرها .

أما الضابط ، فقد بدا متضيقاً . وقال :

— على الرغم من أنني ضابط في الجيش الوطني — وحكّ حنجرته — ولا أتذكر لأي شيء في المعركة التي خضناها، فقد كنت أريد أن أقول لك، يا سلطنة، اننا كثيرون أولئك الذين يأسفون على إلغاء الملكية. ومنذ زمن طويل، كنا نشك في نيات كمال باشا. ولكن كان علينا أن نختار إما البلد، وإما الملكية. وكان ذلك صعباً. ذلك أننا كضباط عثمانيين، كنا أقسمنا بيمين الولاء للسلطان. واستقال بعض منا. وأنا على الرغم من الصلات التي تشدني إلى أسرتكم، فقد قررت البقاء. فتركيا بحاجة إلى كل جنودها.

ويشعر الإنسان أن العقيد (كريم) كان قد حضّر خطابه بعناية، ولكنه ليس مع ذلك مرتاحاً. وكان الصمت، في البهو الصغير، يزداد كثافة. وكانت الكالافات يحسن أنفاسهن، في حين أن السلطنة تعبت بخاتمها. وفجأة، ترفع رأسها، لتقول:

— أعتقد، يا سيادة العقيد، أنك لم تأت لتحدثني عن حالاتك النفسية.

فترتد سلمى. إذ ما من مرة رأت أمها يمثل هذه الشدة في الوخز، تجاه إنسان ثانوي. ولكن ربما كانت لا ترى الآن أن العقيد رجل ثانوي، بل كممثل للسلطة الجديدة. وربما كانت هذه الصفة هي التي تسحقها باحتقارها؟

فاحمرّ وجه العقيد، وحسبت سلمى أنه على وشك النهوض للرحيل. وأجاب العقيد بقوله:

— الحقيقة، يا سيدتي السلطنة، أن ذكرى طيبك الماضي، هو الذي دفعني إلى الهجيء. وألاحظ الآن أنني أخطأت، وأن بعض الأشياء، للأسف، لا يمكن أن تنسجم فيما بينها.

فعصّت السلطنة خديجة شفيتها. ذلك أن الجرح مال بها عن العدالة. ولكن الآن، وقد حدث الأذى وتم، فإنها لن تمضي إلى حد الاعتذار! واكتفت بالقول:

— إنني أصغي إليك.

وعلى الرغم من أنها أرادت، بهذه الكلمات، أن تلطّف الجو، فإن هذه قرعت الأسماع كأمر ملكي.

ولما كان الأمير فؤاد ديبلوماسياً، فقد تناول هو الكلام، قائلاً:

— هيا، يا صديقي، فنحن نتحرّق شوقاً إلى حديثك.

وتغلب العقيد على رغبته في ترك القصر ، وترجع على مقعده . وقال :

— بمحض المصادفة ، كان الملحق البحري للسلطان واحداً من أصدقائي في الطفولة . وفي هذا الصباح جاءني ، مضطرب النفس . وبناءً على ما رواه لي ، أستطيع أن أؤكد لك بأن أنقرة هي التي دفعت بالسلطان إلى الهرب .

وثارت موجة من التهمات بين الحضور : ثرى أيها بنا هذا الرجل . ومن غير أن ينتبه العقيد إلى ذلك ، تابع حديثه قائلاً :

— منذ أن رفض جلالته التخلي عن العرش ، جرّبت الحكومة الكمالية ، كل وسائلها لإرغابه . فأشاعت أن الجمهور قد يشنقه ، بل لقد أمروا حاكم استامبول ، رفعة بك ، بتنظيم مظاهرات عداوية حول القصر . فرفض ذلك . وكانوا يريدون أن يدفعوا بهذا العجوز المرهق بأربع سنوات من الاحتلال ، إلى النهاية . وجرّوا عليه كل أنواع الضغط والتهديد . وقد نجحوا في ذلك . فهرب الملك يُمثّل ربحاً عظيماً لهم . إذ لم يعد هنالك من حاجة لإقامة دعوى بالخيانة العظمى ، وهي دعوى قد تؤلب أكتية الرأي العام عليهم . وعندما هرب السلطان ، فإنه لم يهتم نفسه فقط في عيون الشعب ، بل لقد جرّ العار على جميع أسرته . وهذا مما يسوّي مشكلة السلطنة ، من دون أن يكون على الكماليين أن يلوثوا أيديهم^(٢) .

وتدخلت السلطنة فقالت وعيناها تبرقان :

(٢) يروي اللورد كينروس في كتابه ألتاتورك ، وهو المترجم لحياة مصطفى كمال ، أن الملحق العسكري الذي عين للسلطان لكي يتجنّس عليه ، رآه في الساعة السادسة صباحاً ، من ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ ، رآه يخرج من الحديقة من باب جانبي ، ويركب عربة صحية إنكليزية ، فطار صوابه ، وعدا (بالشحاطة) مسافة كيلومتر ونصف الكيلومتر ، قبل أن يجد عربة حملته بأقصى سرعة ، إلى قصر الصدر الأعظم ، على مسافة أربعة كيلومترات من هناك . (ولم يستغرق هذا كله ، أكثر من نصف ساعة) .

وعلى أكبر دهشة من الملحق ، فإن الحاكم قال له بأن يعود لنومه ، وأنه هو نفسه يتكلف مهمة الإبراق لمصطفى كمال ، ويعود لنومه أيضاً . ونحن نعرف ، من جهة أخرى ، ومن خلال برقية أرسلت من السفارة ، للندن ، أن البارجة مالايا ، التي ركبها السلطان ، لم تبحر إلا في الساعة الثامنة و ٤٥ دقيقة .

وعندما نقرأ رواية اللورد كينروس ، يبدو واضحاً أن الكماليين ، ساعدوا على هروب السلطان ، بالاتفاق مع الإنكليز . إذ بين اللحظة التي أخبر فيها الحاكم ، وبين إبحار المالايا ، مدة ساعتين وربع الساعة ، لم يحدث أثناءهما شيء للبحث عن السلطان .

— إن مصلحة أنقرة واضحة، ولكن مهما كانت الضغوط، فإنه لم يكن للباديشاه أن يهرب .

وزاد الأمير الجنرال على ذلك بقوله :

— لقد أساء إلى شرفنا جميعاً .

ومن المفارقة العجيبة أن عائلة الباديشاه تدينه، وأن الضابط الكمالي، هو الذي يدافع عنه .
وتابع العقيد كلامه، قائلاً :

— عندما هرب السلطان، فإنه على الأرجح، قد تجنب إثارة حرب أهلية . وكان رفعة بك قد أُنذره : « إذا لم تتنازلوا، جلالتكم، عن العرش، فإن الدم سيسيل من جديد » . ولعل الباديشاه يفكر أيضاً، من حيث هو خليفة للمسلمين، أن ينشئ حلفاً من البلاد الإسلامية، ويعود ثانية؟ وعلى كل حال، فإنه قد تركنا، مقتنعاً بأنه ما من فرد من الأسرة العثمانية يقبل أن يأخذ مكانه، ويكتفي بلقب الخليفة .

وتدع خديجة السلطنة لفمها حق الابتسام الذي يعبر عن الشك وتقول :

— أحقاً؟ سنرى ذلك عما قريب . ولكنني أخشى أن يكون الباديشاه قد صنع لنفسه أوهاماً . فأمرأؤنا ليسوا كلهم بأبطال !

وفي اليوم التالي، سيقبل ولي العهد عبد المجيد، ما عرضته الحكومة الكمالية عليه، أي أن يصبح خليفة بدلاً من وحيد الدين . وفي يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٢، تُوج في قصر طوبكاي، أمام مخلفات النبي المقدسة، بحضور وفد من حكومة أنقرة .

١٧

كان الرماد قد خبا منذ مدة طويلة ، في المنقل الفضى الكبير . ولن يعود العبيد إلى إشعاله إلا في هذا المساء ، ساعة المضي إلى النوم . ذلك أن الفحم في شهر كانون الثاني / يناير / من عام ١٩٢٣ ، أو في السنة الأولى للاستقلال ، قد أصبح نادراً . وسواء كنا في الأكواخ أم في القصور ، فإن استامبول كلها ترتجف من البرد .

وعلى الرغم من أن السلطنة تعارض في التميز عن الناس ، فإن خيرى بك أخذ على نفسه أن يتحدث عن ذلك لبعض الأصدقاء الذين ظلوا على وفائهم له ، في الوزارات . ولكن عبثاً . ولئن كان الناس في الماضي يتشرفون بتقديم خدمة ما للأسرة المالكة . فما من إنسان يغامر اليوم بأن يقدم لها أيسر الخدمات .

وكانت سلمى المدثرة بقفطانها المبطن بالزبلين جالسة لا تتحرك . وعلى البساط الحريري لغرفتها ، وضعت بنعومة ، ثلاثة شرشف هي ، الزهري ، والأخضر ، والزمردى . ولما كانت من طبيعة حاملة ، فقد أطالت في تأملها لها . ولم تعد تكرهها قط ، بعد أن قررت التضحية بها ، بل إنها أصبحت تجدها جميلة ... فيما هو من نوعها .

وتسمع خطوة خفيفة ، فإذا هي بنية رقيقة شقراء تنزلق إلى غرفة سلمى . إنها سيكرهولي ، أحسن وأفضل صديقة لها ، بعد أن تركت جلنار ، الترتية الغربية الأطوار ، قصر أورطاكوي ، وغادرته إلى القصر الملكي ، قصر يلديز .

وكان ذلك منذ أشهر عديدة. ولكن كلما عادت سلمى إلى التفكير فيه، ارتجفت غضباً. ذلك أن رحيل جَلَنار قد تقرر في غضون بضع ساعات، ولم تعلم به إلا في اليوم التالي. بل إن الصديقتين لم تستطيعا أن تتلاقيا للوداع. وكانت السلطانة والكالفات، يجبن عن أسئلة مراهقتنا حولها، بنفس الجواب دوماً: وخلاصته أن هذه الجلَنار كان لها الحظ في اختيار الكادين لها. فلقد لاحظتها ذات مرة، وعبرت عن الرغبة في أن تكون في معيتها، ووعدت بأن تبحث لها عن زوج جميل. وبعد، فإن جَلَنار كانت قد بلغت الرابعة عشرة. وكانت امرأة. فماذا يمكن أن تتمناه لها أكثر من هذا؟

وتكرّر سلمى هذا القول ساخرة، وواقفة على كل حرف من حروفه.

— بلى. ماذا يمكن أن تتمناه أكثر من هذا. حسناً... فهذا!

وبحركة احتفالية شهرت المقص الذهبي.

وتتمتم سيكربولي، مدعورة:

— أيجب هذا حقاً؟

— يجب.

وكان تردّد صديقتها قد قضى على آخر مألديها من شكوك. وفعلاً فإنها تنحني على الشراشف الثلاث. وتزقها بضربات مقص كبير. وتثقبها من جانب إلى جانب: « خذي هذا لك، ولك، ولك! فسيعلمكن هذا أن تتجرأن، وتبقين عليّ سجيئة! ».

وتشجعت سيكربولي، فاقتربت منها لتساعدنها. وقامت الاثنتان، صامتتين، واعميتين بأنهما ترتكبان إثمًا ضرورياً، بتمزيق القماش الرقيق.

— كم القضية طويلة. فما خطر ببالهن قط أن هذا الأمر يحتاج إلى كل هذا الوقت.

وهمست سلمى تقول:

— لنسرع، فقد يدخل علينا داخل ويمنعنا من إنهاء عملنا.

وتركتا المقص. وبدأتا بأيديهما الأربع بالتمزيق، عجّلتين عصبيتين. وفجأة تنقلبان ضاحكتين، بعد أن خفف عنهما ذاك الذي لا يمكن إصلاحه، والعودة المستحيلة إلى الوراء. آه

ما أحلى صرصرة الحرير الذي يُمرّق ، وكَم هو مؤثر ضجيج الحرية الجاف والحامض ! وبين أرجلها عندئذ قطع من القماش المختلف الألوان . إنها أشرطة عيد ...

وتقول سلمى :

— علينا الآن أن نخزمها حزمتين : واحدة لخالدة أديب ، والثانية للطيفة خاتم ، وأظن أنهما ستكونان مسرورتين جداً !

وكانت سلمى تحتفظ دوماً بإعجاب خاص ، لخالدة أديب ، هذه المرأة النحيفة الشابة ، التي جمعت حولها الجماهير الحزينة ، يوم استولى الأغارقة على إزمير . وهي تحتفظ من مظاهرة الجماهير ، في ساحة السلطان أحمد ، بذكرى كلها انهار . وكانت في التاسعة . ولقد انطبع في ذهنها أنها جاءت في ذلك اليوم إلى هذه الدنيا .

ولكن من جديد ، كانت لطيفة ، النشيطة ، زوجة مصطفى كمال ، هي التي حظيت بانتباه كلتا المراهقتين . فهما تتبعان هوى عنيف ، كل مبادرة من مبادراتها ، التي تفصل الصحف النسائية في الحديث عنها ، وتأتي الأنسة رور فتحملها خفية إليهما .

فقد قرّرت لطيفة حاتم أن «تحرّر أخواتها» ، وهي تقدم لهن المثال الذي يجب أن يحتذى . ولما كانت أول امرأة تحضر اجتماعات الجمعية الكبرى ، فقد أدهشت الناس باستقبالها النواب في مكتب زوجها ، المجاور لقاعة الاجتماع . فهل يلومها أحد على أنها تعمل في الميدان السياسي ؟ إنها تجيب عن ذلك بدفقة ضحكات ، تعني أن النساء لهن ، منذ الآن ، الحق ، وحتى الواجب ، واجب المساهمة في مصير بلدهن .

— ولكن النساء كن دوماً يساهمن في مصير بلدهن ! بهذا دمدمت خديجة السلطانة التي يثيرها الجانب المتحذلق من زوجة الغازي . ولكنهن لم يشعرن بالحاجة إلى الصراخ به من أعلى المآذن ! وخلال قرون وقرون كانت كادئاتنا ، المتخفيات وراء المشرييات ، يتابعن مناقشات الديوان^(١) . وكثيراً ما أثرن بنصائحهن للسلطين ، في سياسة الأمبراطورية . وكل امرأة ، في الشرق ، تعرف كيف تؤثر في قرارات زوجها . ولكن لها من الحكمة ما يحول دون أن تتباهى بذلك . وهذه اللطيفة خاتم إنما تسلك سلوك الغريبات اللواتي لا يشعرن بوجودهن إلا إذا ظهرن في كل مكان ، وأسمعن الناس أقوالهن . وهذه الصورة من السلوك ، هي التي يأخذ بها الأطفال والشعوب البدائية .

(١) أي مجلس الوزراء .

فتفر سلمي رأسها، حائرة، بائسة . فكيف لا تفهم أمها هذا؟ أما أن تكون لطيفة خائماً مغرورة، فما أهمية ذلك؟ إن المهم هو أن تنسف العادات القديمة، وأن تحطم القضبان الحديدية، وأن تدخل شيئاً من الهواء في هذا العالم المغلق، عالم الحريم! أولاً تختنقين، يأيئدجيم، كما أختنق أنا، أم أنك استسلمت؟ استسلمت... لا، إن هذه الكلمة لا تنسجم مع الكبرياء الملكية . أولاً يمكن أن تكون الأيئدجيم قد أصبحت فيلسوفة، مع مرور الزمن؟ أما أنا، فإني شابة، وأريد أن أعيش .

وتشعر المراهقة، من أعماقها، بحكم تدفق قواها، وعظم طموحها، إنها خلقت لشأن عظيم، حتى لتكاد ترتعد من ذلك، مثل الحصان الأصيل الذي يرتجف عند الفجر، أمام المروج التي تمتد أمامه على مدى النظر .

وتسأل سيكرولي :

— ماذا سنكتب؟

وهكذا جاء صوت صديقتها ليعيدها إلى الأرض . بلى . ماذا ستكتبان لبطلتيهما؟ أكتبان أنهما ليستا إلا في الثانية عشرة من العمر، ولكنهما تنتظرانها منذ مدة طويلة، وأنهما مستعدتان لكل شيء لمساعدتهما؟ وأنهما لم تعودا تطيقان البقاء محصورتين في حظيرة الحريم، على حين أن الحياة تغلي حولهما، وأنهما تريدان الخروج، والمشاركة في المعركة... وإلا... وإلا... فإنهما ستموتان!

وتندهش سيكرولي، فتكرر القول :

— ستموتان .

ويأتي الجواب من سلمي حاداً، وبنظرة قاسية :

— بالتأكيد .

فما تطلع عليه منذ أشهر كثيرة عن طريق أحاديث البائعات اللواتي يتابعن الهجيء إلى القصر، وما تقرؤه في الصحف التي تأخذها من الآنسة روز، كل ذلك يخرجها عن طورها . فبلدها في سبيله إلى التحول . واستامبول في طريقها إلى أن تعيش ثورة، وسلمي مرغمة على البقاء جالسة، تطرّز!

فعندما أعريت، ذلك اليوم، عن رغبتها في الدراسة في واحدة من هذه المدارس الجديدة التي

أنشأتها جمعية خالدة أديب ، فإن السلطنة قذفتها بنظرات نارية . ولقد تجرأت ، فألحت على مطلبها ذاك ، محتجة بأن مستوى الدراسة ، على ما يبدو ، حسن جداً ، أما أيندجيم فإنها لم تتنازل بحجاب . ولكن سلمى لاتيأس ، فلقد وصلت دوماً إلى غاياتها . وعما قريب ، ستأتي خالدة أديب ولطفة خاتم ، لتكلما أمها في هذا الشأن ؛ وبانتظار ذلك فإن عليها أن تنهيا .

ولقد قرأت سلمى ، مع صديقتها ، وأعادتا قراءة تاريخ هؤلاء النسوة الجريئات اللواتي تميزن في النضال من أجل الاستقلال . وهما تعرفان الآن كل تفاصيل حياة مونيفر صابمة ، المعروفة أكثر باسم « الجندي صابمة » التي منحت وساماً لشجاعتها الاستثنائية ، وتعرفان مغامرات مقبولة ، التي سافرت يوم عرسها نفسه إلى الجبال مع زوجها لتنضم إلى المقاومة معه . وتعرفان الأعمال العظيمة التي قامت بها رحيمة ، والتي منها أنها كانت على رأس كتيبة من الفرقة التاسعة ، وهاجمت المقر العام للقيادة الفرنسية . وكان الهجوم ناجحاً ، ولكنها لقيت فيه مصرعها .

أما الصورة التقليدية للمرأة ، الرقيقة واللامسؤولة ، فإنها تبدو لهما متأخرة عن أوانها ، وتراجعت لحساب صورة هؤلاء البطلات ، المجهولات أو المشهورات ، اللواتي لولاهن ، على ما يؤكد مصطفى كمال ، لم تكن تركيا لتكسب الحرب .

ولقد قالت لطيفة خاتم إن « الحرب قد انتهت ، ولكن النضال مستمر » . وفي الواقع ، فإن كل يوم يحمل إلينا قسطه من التجديدات التي تتابعها سلمى وسيكروبولي بحماسة . والأكثر من هذا ليس هو الانتصار على الإغريق ، بل هو معركتهما هذه .

ولقد أصدر المدير العام للشرطة أمراً ، حذف بموجبه الستائر ، والمصاريع الخشبية التي كانت تفصل بين النساء والرجال ، في القطارات ، والحافلات ، ومختلف وسائل المواصلات النهرية والبحرية . والآن ، فإن لكل زوجة الحق ، في أن تجلس بجانب زوجها ، دون خوف من غرامة تفرض عليها . والأمر كذلك في المطاعم والمسارح . ولكن قليلاً من الأسر تجرأ على الاستفادة من هذه الرخصة الجديدة ، خوفاً من أن يُشتمن ويضرب من قبل المحافظين التقليديين الذين يعلنون أن هذا كله هو ضد الإسلام .

ولكن الفضيحة الحقيقية ، كانت في ذلك القرار الذي أصدرته جامعة استامبول . وجاء فيه أن الدروس منذ الآن ، ستكون مختلطة . وحتى ذلك الحين كانت قاعات التدريس مفصولة بحواجز كثيفة كانت تستر تواضع الفتيات القلائل اللواتي كن يتابعن الدراسات العالية . ومنذ الآن

فصاعداً، تواجه الأسر المسلمة، مشكلة عويصة: إما قطع دراسة بناتها، أو الحكم عليهن نهائياً بعدم الزواج. ذلك أن الشبان الأكثر تقدمية، أي أولئك الذين يدافعون بقناعة وحماسة، عن حرية المرأة، يعودون إلى التقاليد، عندما يتعلق الأمر بشيء جدّي، كالزواج على رأي أمهاتهم. وهؤلاء يختزن، بعناية وحب، فتاة تقليدية لا يستطيع رجل مهما كان أن يتباهى بأنه رأى وجهها.

وفي الأفق صار لون الشمس شاحباً. وكانت الساعة قد بلغت الساعة الخامسة. ونهضت سيكروبلي، وعليها أن تعود إلى أمها. وبقيت سلمى وحدها، تتأمل الخرق المتعددة الألوان المجموعة بعناية في حزميتين. وقد بدأت الأشباح تهاجم الغرفة. وهكذا فبالقرارات الحلوة المتخذة بعد الظهر بدأ يختلط اللا يقين والشكوك...

— ولكن ماذا هناك، يادجيجيم؟ إنك تبدين محزونة جداً!

— أوه، بابا!

وتناست سلمى كل بروتوكول، وقفرت لتكون بين ذراعي أبيها. فمئذ أسبوع لم تره.

وفي هذه الأيام الأخيرة، تضاءلت زيارات الداماد للحرملة، أكثر فأكثر. ففي الماضي، عندما كانت تريد سلمى أن تكلم أباها، فإنها كانت تجد كل المبررات لتنزل إلى أجنحة خيري بك. ولكن منذ ذلك اليوم الذي بلغت فيه الثانية عشرة، لم يعد لها الحق في اجتياز ذلك الباب الثقيل الذي يفصل عالم النساء عن بقية العالم.

وعبثاً ثارت وغضبت، وقالت إنها تريد أن ترى البابا، ذلك أن الكالافات والخصيان وقفوا في وجهها وقفة حازمة قائلين: «يا أميرة انظري قليلاً، فأنت لم تعودتي طفلة!».

لم تعد طفلة! ترى ماذا كان يعني ذلك؟ أيعني أنها كبرت أكثر مما يجب لكي تكون بحاجة إلى حب أبيها! وحقاً فإنه لم يعن قط بها. ولكن مجرد الجلوس إلى جانبه عندما كان يقرأ أو يتناقش مع أصدقائه، كان يبدو لها ميزة ثمينة جداً... وكانت تبقى صامتة، تتأمله. وكان ما أجمله. كانت تحب فيه كل شيء، وحتى هذه السخرية التي كانت تغضبها، كانت تبدو لها علامة على حكمة عليا، وحتى هذه اللامبالاة التي كانت تظن أنها سمة من سمات عظمتة: فهي بحاجة إلى حضوره: فمجرد النظر إليه، كان يملؤها سعادة.

وفي هجمة من هجمات الثقة، أخذت يده.

— بابا، أرجوك، ألا يمكن أن تطلب من الأيندجيم...

فتصلبت يده، ورائت على عينيه اللتين كانتا ضاحكتين منذ قليل، غشاوة ثقيلة. فأجابها بصوت شديد البرودة:

— اعرفي، يا آنسة، أني لست ناقل أخبارك!

وشعرت بأنها تلقت كتلة من الرخام في وسط صدرها. فانقطع نفسها، وضغطت على كتفها، وخفضت رأسها، وتساءلت لِمَ هو في مثل هذه القسوة؟ وماذا قالت؟ وفجأة فهمت: فأية غبية بدت. والغريب أنها تعرف جيداً أن أبويها، منذ أسابيع، لا يتبادلان الكلام إلا عن طريق زئيل! بل إنها غضبت وانزعجت، من كلفتين صغيرتين كانتا تعلقان على هذا الوضع، بصوت عال... وها هي الآن تبدو غبية، بدلاً منهما. فكم كان في البداية حسن المزاج! لقد جاء عمداً لكي يراها، فأفسدت هي كل شيء...

وعاد صوته، فأصبح أكثر نعومة:

— ولكن إذا كان لديك ما تقولينه لأبيك، فهو جاهز للإصغاء إليك.

فسكنت. ولو أنها فتحت فمها، فلا ريب أنها ستشهق بكاء، وهو لا يكره شيئاً كالبكاء. بيد أنه لا بد لها من الكلام، وإلا فإنه سيعتقد أنها واجدة عليه، أو أنها انحازت لأيندجيم. وهذا غير صحيح. فهي لم تنحز لأحد، وهي تحبهما كليهما، ولكن بصورة فيها من الاختلاف ما يجعلها تظن أن هناك «سلميين» تحبان. وكثيراً ما فكرت بهذا الأمر: فعندما يتنسم لها أمها، فإنها تشعُر بأنها قادرة على اكتساح العالم؛ وعندما ييتسم لها أبوها فإنها تنسى العالم، وتذوب سعادة، كعجينة من الفواكه، تذوب تحت اللسان. وهي لا تعرف لِمَ، ولكنها تعرف فقط أنها لا تريد الاختيار بين هاتين البسمتين.

وبجهد ما استطاعت أن ترفع رأسها. وبعينين لامعتين، تنفحص ذلك الوجه الطويل الكثير الشحوب، والشفتين الرقيقتين، ومئات الانثناءات الصغيرة التي تنشئ ما يشبه النجوم في زاوية الجفنين. وتتأمله وكأنما كانت تريد أن تتشبع منه، كلها، وأن تستبقه في نفسها إلى الأبد.

أما هو فقد أخرج سيكاراً، وغمزها غمزة بعينه، كما لو أنه متواطئ معها.

— هيا، دجيجيم، قصّي عليّ عذابك الكبير.

— بابا، أريد الذهاب إلى المدرسة !

— أفهم ماتريدين ... ولكنهم بالتأكيد قالوا لك إن هذا ليس بالمكان الذي ترتاده الأميرات ، أليس كذلك ؟

وتلح سلمى دون أن توضح الإشارة إلى السلطنة .

— ولكن — يا بابا — كل الناس يذهبون إلى المدرسة . بل إن ثريا آاغوغلو دخلت إلى كلية الحقوق . وقد نشرت صورتها الصحف كلها ، وهنأها كمال باشا ! وقال : « إن مستقبل تركيا يتعلق بتحرر النساء ، وإن بلداً نصف شعبها يظل حبيس البيوت ، هو بلد مشلول نصفياً ! » .
ومحركة أليفة ، بدأ خيري بك يداعب شاربيه .

— هوم ! ... إن هذه واحدة من النقاط التي لا يخطيء فيها هذا الشقي !
ولا يهم سلمى الآن أن تبرز الشتيمة التي وجّهت إلى بطلها . ذلك أن المهم ، هو أن يكون أبوها موافقاً .

— وإذن فهل أستطيع أن أذهب إليها .

— أين ؟

— ولكن ، يا بابا ، إلى المدرسة .

— قولي لي ، منذ متى يقرّر الآباء صور تربية بناتهم ... ولا سيما إذا كانت الأم سلطنة ؟
لا تلحّني عليّ في هذا ، فأنا لأملك فيه شيئاً .

— بل تستطيع ، لو كنت تريد . فقط لو كنت تريد !

وأصبح وجه سلمى شبه قرمزي من الغيظ والغم . وقالت :

— لم أعد أستطيع أن أتحمّل هذا ، يا بابا . فكل شيء يتغير في بلدنا ، وكل شيء يعيش . وما من أحد غيرنا يستمر في نومه ، كما لو أنه لم يحدث شيء . أريد الخروج من هذا القصر ، الخروج .

فخيّم على وجه الداماد شيء من التعاسة . وقال متنهداً :

— اهدئي يا سلماي . ربما خرجت بأسرع مما تتخيلين . وأكبر ما أخشاه أن تأسفي على ذلك .

ولكن لا خالدة أديب ، ولا لطيفة خاتم ، أجابت عن الرسائل التي وصلتها عن طريق وضعها في سلة إحدى البائعات المتواطئة معهما .

وفقدت سلمى وسيكروبلي كل أمل . أما الشراشف ، فإن السلطانة لم تعن حتى بالسؤال عنها ، أين ذهبت . وكل ما فعلته هو أنها طلبت من الخياطات أن يخطن شراشف جديدة ، ويلون أسود .

أما في قصر أورتاكوي ، فإن الحياة ظلت على ما كانت عليه في الماضي ، ولكن مستوى الحياة أصبح أكثر بساطة . ذلك أن الحاكم الجديد ألغى مخصصات الأمراء ، ولم يعد يقدم إلا تعويضاً تافهاً توافق عليه الجمعية الكبيرة . وما من أحد يتألم ، ذلك أن الأهل والأصدقاء ، الذين فقدوا مخصصاتهم ، أصبحوا هم أيضاً يعانون نفس الصعوبات ؛ بل إنهم ليجدون في ذلك مادة للمزاح . وكما تقول خديجة السلطانة بسخرية : « من الأفضل أن نصبح فقراء جدداً ، بدلاً من أن نصبح أغنياء جدداً » .

ولقد اضطرت إلى الاستغناء عن بعض الخادومات . ولكن يبقى أطفال البيت ، والعييد الذي يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الأسرة منذ البداية . والشيء الوحيد الذي حَزَّ في نفسها حقاً ، كان الاستغناء عن تقديم « حساء الفقراء » لا لسبب اقتصادي — فقد كانت لا تتردد في الاكتفاء على مائدتها بصحن وحيد بدلاً من أن تشعر أن من حولها يعانون من الجوع — ولكن الحكومة لا تنظر بعين الرضى إلى مظاهر الكرم هذه : إذ ليس على أعضاء الأسرة المالكة بعد الآن أن يبرزوا في المجتمع . وهكذا فإن السلطانة أمرت بأن يُعان ، خفية ، كل هؤلاء الذين يأتون فيقرعون عليها الباب . وهم عديدون .

وفي هذا العام ، ١٩٢٣ ، أصبح الوضع في استامبول وفي تركيا كلها ، مأساوياً . فبعد أن عانى الشعب من حرب دامت عشر سنين ، ومن الاحتلال ، فإنه أصبح لا يحتمل شروطه ، من شدة الشقاء ، فكيلو الخبز الذي كان يكلف ، قبل الحرب ، قرشاً واحداً ، أصبح الآن بتسعة ، وانتقل سعر اللحم من ٦ إلى ٨٠ للأوقية . وفي مثل هذا السعر أصبح مقصوراً على بعض المحظوظين ، وصار الناس يموتون بالمئات من الجوع والبرد .

وزدادت الصعوبات خطورة بالفوضى التي تسود في أنقرة، حيث استقرت الحكومة الجديدة. وكل ما كان قائماً من سلطات في استامبول، تركّزت الآن واستقرت في هذه البلدة الكبيرة، الموجودة وسط الأناضول، والتي يريد مصطفى كمال أن يجعل منها عاصمة. وهو يريد من ذلك أن يدير ظهره للماضي، وأن يبنى بلداً حديثاً، على مثال الشعوب الأوروبية الكبرى، وخاصة على مثال فرنسا الجمهورية والعلمانية التي ما زالت منذ قرن على الأقل، تؤثر في الأنتيلجنسيا التركية تأثيراً كبيراً.

وكون النظام جمهورياً وعلمانياً، هو نقطة الضعف فيه! ذلك أنه إذا كان قائد الجيش، ورئيس المجلس الوطني، المحاط بهالة النصر، قوياً جداً في هذا الحين، فإن الكثيرين من رفاقه في النضال، قلقون من نزعاته «الاستبدادية». وهم لا ينسون كيف فرض عليهم إلغاء السلطنة، على حين أن الرأي العام كان ينتظر قيام ملكية دستورية، صدرها الأعظم مصطفى كمال.

والواقع أن المجلس الوطني بكامله، ولا سيما رفاق الساعة الأولى، كان يحذر من الغازي. وقد تجمعوا حوله خلال الحرب، معترفين بتفوقه العسكري. ولكن الآن عندما يجب أن ننشئ حكومة شرعية، قانونية، فإن النواب قلما يهتمهم أن يضعوا على رأسها، رجلاً جربوا، على حسابهم، عنفه وقلة وجدانه.

ففي هذا الربيع، أصابهم الرغب من اغتيال شكرو بك، ذلك أن هذا النائب الذي يُمثل طرابزون، وأحد أبرز قادة المعارضة البرلانية، كان كثيراً ما يتصدى لكمال، وكان يدعو بشكل خاص إلى جعل الخليفة عبد المجيد، يستعيد بعض ميزاته الزمنية (أو الدنيوية). وفي ذات يوم عثر عليه مخنوقاً. وسرعان ما اكتشف القاتل، الذي هو «عثمان الأعرج» رئيس حرس الغازي. ولكنه سيقتل، قبل أن يحاكم ويعترف بما جرى، إذ قُتل في احتكاك له مع رجال الدرك.

وأثار هذا الحادث هيجاناً كبيراً. واتهم الناس مصطفى كمال صراحة بأنه أزال من الوجود خصماً سياسياً. وخاف النواب، واعتبروا أن هذا الأمر تحذير لهم.

ولما شعر مصطفى كمال أن المعارضة تتصاعد، حتى داخل مجموعته البرلانية، بدأ يعمل على إنشاء قاعدة سياسية صلبة لنفسه. وكانت اللجان التي أنشئت عام ١٩١٩، داخل البلاد، للقيام بمهام النضال الوطني، متعلقة به، لأنه قائد الجيش، فقد حوّل هذا التنظيم شبه المسلح إلى حزب سياسي، هو «حزب الشعب» الذي جعل له فروعاً حتى في كل قرية. ولهذا فإنه قام بجولة في

مختلف أنحاء البلاد التركية : وكان يقول لمثلي هذه اللجان : « إن البلاد مملوءة بالخونة ، فكونوا يقظين . إن لكم أنتم ، أعضاء حزب الشعب ، أن تحكموا » .

وفي استامبول ، خلال ذلك ، غامر بعض الصحفيين ممن ينتقدون الديكتاتورية الجديدة ، بالتنبؤ بالعودة قريباً إلى نظام السلطنة . وعندما عاد مصطفى كمال إلى أنقرة ، أنبأهم أنهم إن استمروا فيما يقولون ، فإنهم يعرضون أنفسهم للشنق . وهكذا أصدر أمره بمنع كل خطاب سياسي ، بل إنه حاول أن يلغي الحصانة البرلمانية ، لأنه لا يستطيع تحمل معارضة النواب الذين يرى أنهم بين أن يكونوا رجعيين أو أغبياء . ولكنه أخفق في هذه النقطة الأخيرة . ذلك أن « الأغبياء » لن يدعوه ينشر الغصن الذي هم جالسون عليه .

ولما تجاوز الأمر الحدود المعقولة ، فإن الصدر الأعظم أو رئيس الوزراء ، رؤوف باشا ، أحد أقدم أصدقائه ، تقدّم باستقالته . وابتعد عنه رحمي ، وعدنان ، ورفعة بك ، وعلي فؤاد ، وقره بيكير والأشخاص الكبار ، من رجال النضال الوطني . فرأى كمال أن أكثريته تذوب أمام عينيه : إذ لم يعد أحد يحتمل قسوته ، ولا لهجته كمعلم مدرسة . ولحسن حظه فإن الجيش كان منقاداً له ، وكان حزب الشعب قد بدأ يمد فروعه إلى سائر أنحاء البلاد .

وخاصة ، خاصة ، أن السلم قد وُقِعَ .

ففي ٢٤ تموز / يوليو / عام ١٩٢٣ ، وبعد مفاوضات طويلة امتدت على مدى ثمانية أشهر ، كان يشترك فيها عصمة باشا ، مندوب تركيا ، والوزراء المفوضون الغربيون ، ختم مؤتمر لوزان أعماله ، بنجاح كبير : فقد فقدت تركيا إمبراطوريتها ، ولكنها أصبحت منذ الآن شعباً حراً . وهذا شيء يعرف الشعب أنه مدين به بالدرجة الأولى لمصطفى كمال !

وتتذكر سلمى دوماً مشهد رحيل جيوش الاحتلال . إذ لقد صحبت أمها إلى قصر « ضويلة باهتشة » الذي يجب أن يتم فيه الاحتفال العسكري . وكانت مع بنات أعمامها وخالاتها وعماتها يتزاحمن وراء النوافذ العالية المطلّة على الساحة التي تحاذي البوسفور . وكانت شمس أكتوبر تلهو على البحيرات الرخامية . وكان الجمهور على جانبي النهر ، يغطي الشواطئ .

وفي العاشرة والنصف قام فريق من المشاة الأتراك ، مسبقاً بالفرقة الموسيقية التابعة ل سلاح البحرية ، باحتلال موقعه في الساحة . وكان يحمل العلم الأحمر الذي يتوسطه الهلال الأبيض والنجمة ، مرفوعاً إلى أعلى مدى .. وبعد بضع دقائق جاء رجال الكتيبة ٦٦ ، من الجيش الفرنسي ،

رافعة بفخر علمها الممزق في المعارك، ثم جاءت الكتائب الإيطالية والبريطانية، واصطفت جميعها أمام الأتراك. أما على الطرف الآخر، فقد كان رجال السلك الدبلوماسي، في ثيابهم الرسمية، واقفين على أقدامهم، كما لو كانوا جنوداً في وضع التهيؤ.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف يظهر المندوبون السامون، لدول الحلفاء، أي الجنرال بيليه Pellé، والجنرال هارينجتون Harington، والماركيز دوغاروني Marquis de Garroni، وهم شاحبو اللون في ثيابهم العسكرية المذهبة. وتقدم حاكم استامبول، بقدم ثابتة، من غير أن يستطيع إخفاء هيجانه، لاستقبالهم.

وعندئذ صدحت الموسيقى. فعزفت الأناشيد الوطنية، البريطانية، والفرنسية والإيطالية. وأخيراً عُزِفَ النشيد الوطني التركي، بموسيقى عالية، عندما كان العلم الكبير الأحمر والأبيض يرتفع في الجو. وبدأت الفرق الأوروية تتقدم ببطء لتحيتها. وأخيراً يتركون المكان، بكل كرامتهم، ليبحروا.

وكانت السفن الحربية، بعضها بعد بعض، يعزف كل منها نشيده الوطني، وتبتعد عن الأرض التركية التي كانوا قد جاؤوا لاحتلالها منذ خمس سنين. وكان الجمهور المصامت، يتبعها بالأعين حتى تغيب عن النظر، كما لو أنها نقاط سماء فوق مياه البوسفور الزرقاء...

وفي فرجة إحدى النوافذ في قصر ضويلة باهتشة، كانت ترى مراهقة تمسك بيد أمها، ووجه كل منهما مبتل بالدموع. فابتسمت كل واحدة منهما للأخرى.

وبعد بضعة أيام، انهالت ضربات المدافع فجأة، فقذفت بسلمى إلى آخر سريرها. وهذا تماماً ما كانت تخشاه. «فهم» تظاهروا بالرحيل. والآن «هم» يعودون معززين! وبقدمها الحافيتين، قفزت إلى النافذة، وتفحصت الأفق: فلم تر أية باخرة حربية، ولكن كان هناك بعض الكواكك أو المراكب التركية، وبعض سفن الصيد الخفيفة تتجول فوق البوسفور، في ضوء الصباح الشفاف. بيد أن طلقات المدافع تستمر، منتظمة، لاتلين. وتشعر سلمى بالاستنكار يحرق لها وجهها. فتأخذ قفطانها بسرعة، وبعد دقيقتين، كانت في غرفة أمها.

فطمأنتها هذه بقولها:

— لا، دجيجيم، ليس هؤلاء بإنكليز، ولا بفرنسيين، ولا بطلين، وكذلك ليسوا بأغريق، والشكر لله! بل إنها الجمهورية التركية تعلن عن نفسها.

وتستغرب سلمى المندھشة، والآسفة فجأة على أنها لم تصغ كما ينبغي لدروس الآنسة روز،
فقلت :

— الجمهورية؟ كما في فرنسا؟

وتتحرك شفتا السلطنة لترسم علامة ارتياب، وقالت :

— إن كثيرين من الأتراك يظنون أن الجمهورية هي الحرية، والمساواة، والعدالة. وأنا خائفة جداً، مع الأسف، ألا يكون هنالك شيء من هذا كله. فقد علمت منذ قليل، أن رؤوف بك غاضب: إذ لقد اتخذ القرار في بضع ساعات. بل إنه لم يخبر بذلك، كما لم يخبر حوالي المئة من نواب المعارضة. وتراه يعلن أن هذا انقلاب جديد لكمال، الذي حمل النواب على انتخابه رئيساً للجمهورية.

وهذا ما استكتبه فيما بعد صحافة استامبول. فعناوين الصحف ليست برقيقة على المحرك لما سماه الكثيرون، انقلاباً حقيقياً: «فقد أدخلت الجمهورية عندما كان يوجه المسدس إلى رأس الأمة».

«أدستور كتب في عدة أيام، بيد مصطفى كمال وبعض الإطاعات، هو هذا الذي يسمى بالدولة التركية الجديدة؟». «إن السلطات التي منحت للغازي أكبر من كل ما أعطي منها لأي سلطان!». ومن الصحف من يشبه مصطفى كمال بالثلاثي المقدس لدى المسيحيين، فهو في آن واحد، الأب، والابن، والروح القدس. وهو يجمع في الواقع كل السلطات: إنه رئيس للجمهورية، وكذلك رئيس للحكومة، ورئيس للبرلمان، وقائد للجيش، ورئيس للحزب الوحيد في تركيا. أما بالنسبة لمن كانوا يحملون بملكية دستورية، ولن كانوا يريدون ديمقراطية على الطريقة الغربية، فقد كان ذلك صدمة. وهم يعرفون أنه ما من شيء بعد الآن، ولا إنسان، يستطيع الوقوف ضد قرارات الغازي.

وبالمقابل، فإن الحماسة هي التي يعلو صوتها في الشوارع. فالشعب يحتفل بالخبر بالموسيقى. وتقوم مسيرات بالمشاعل في كل الشوارع. ولا يعرف الناس ماذا تعني «الجمهورية»، ولكنهم ينتظرون منها كل شيء. بل إن مساجين السجن المركزي تظاهروا على هتافات: «تحيا الجمهورية، تحيا العدالة!». وطالبوا بإطلاق سراحهم فوراً.

أما سلمى فليس المهم عندها أن تكون تركيا جمهورية أو ملكية، إذ إن مصطفى كمال

سيكون على كل حال رئيساً لها. وبالمقابل، فإن بعض قرارات هذا الغازي الذي ما زالت تسميه «روز دور»، بدأت ترعجها وتثيرها. ولا سيما هذه النزوة التي أعلن معها أن أنقرة هي العاصمة بدلاً من استامبول الأرستقراطية. وكان الناس يتحدثون عن ذلك منذ مدة طويلة. ولكن ما كان هنالك من يصدّق ذلك، إذ أنى لهذه القرية الضائعة في الهضبة الأناضولية القاحلة، أن تعوِّض عن المدينة الفخمة، التي هي فخر الأمبراطورية؟ إن استامبول ماسة ثمينة وضعت في نقطة التقاء القارتين، وهي ملتقى كل الثقافات، وكل الحضارات. وكانت قد أصبحت الملتقى الوحيد للعالم بين الشرق والغرب، فضلاً عن أنها ولدت من نبوءة لأبولون قبل ثلاثة عشر قرناً من الهجرة. ولكن الأسئلة بالنسبة لمصطفى كمال أشياء كإلية. وهو يفضل عليها الأجوبة. وفي ١٣/١٠/١٩٢٣ فقدت استامبول وضعها الذي استقرت عليه منذ عشرات القرون، ذلك الوضع الذي جعل منها واحداً من أهم مراكز العالم.

وفي هذا الوقت بالذات، قرّر أبو أحمد أن يترك مكانه كسكرتير للدواماد— وكان ينظر لهذه الوظيفة أيام «الكماالية المنتصرة» نظرة سيئة— وأن يقبل عملاً جديداً في أنقرة. ومنذ أشهر كانت سلمى لا ترى أحمد، أي منذ اليوم الذي بلغت فيه الثانية عشرة. ولكنهما يتكاثبان برسائل طويلة، قبل زينيل أخيراً أن ينقلها، ذلك أنه لا يستطيع أن يرفض أي طلب لسلطانته الصغيرة، ومع ذلك فإنها عندما جاءت ترجوه أن يهيء لها مقابلة مع هذا المراهق، فإنه اكتفى برفع حاجبيه، وقال لها:

— إنك تاج رأسي، أما هذا، فأنت تعرفين أنني لا أستطيع إليه سبيلاً.

فردّت قائلة:

— يا آغا، أنت الوحيد الذي يستطيع مساعدتي. فهو مسافر، ويجب حتماً أن أراه مرة أخيرة!

ولقد طال بكاؤها في ذلك، حتى قبل الخصمي بتدبير الأمر، فهو يحبها كثيراً، يحب ابنته الصغيرة، وهو بحاجة كبيرة لأن تحبه. فبسمه واحدة منها تغمره بالسعادة... ذلك أنها شبيهة ببسمه السلطنة.

وقد تم الوداع بين الاثنين في جناح العندليب. ووقف زينيل كحارس على الباب، وأتاح لهما البقاء ربع ساعة.

وكان أحمد قد لبس أجمل ما عنده . وكان ينظر إلى حذائه ، وهو شاحب اللون .

فقالت في نفسها :

« أي خاطر جاءني حتى أطلب أن أراه . بل ليس عليه لوائح المسرور بهذا اللقاء ... فلو كنت أعرف ... ومع ذلك فإنه يكتب لي رسائل جميلة ... فلماذا لا يقول شيئاً ؟ ... ولكن انظر ، هاهو يحمر الآن ... إن المسكين لم يملك التتابع في أفكاره قط ! وإني لظالمة ... وإنه لبائس ... ولكني أنا أيضاً بائسة . وأخيراً فإنه هو الذي يتركني ... يا إلهي ما كنت أعتقد أن ربع الساعة سيكون بطيئاً إلى هذه الدرجة ... كلمني ، يا أحمد ، كلمني ، وإلا فإنني سأنفجر ... » .

— أحمد

ورفع الطفل رأسه . وكان يبكي .

— أحمد أرجوك ، لا تبك . إني أمتنع عن ذلك ! ... وأولاً ، فإنني أنا التي يجب أن تبكي !

— أنت ، ولم أنت ، يا أميري .

— لأنك تتخلي عني ! ...

« لم يكن عليّ قط أن أقول هذا ، كم يبدو أحمد حزناً ... إنه يصمت ، بل إنه لا يحاول حتى أن يبرّر نفسه ... ولكن كيف يستطيع ذلك ؟ سيكون معناه أن يتهم أباه ... والأمور تجري دوماً على هذه الصورة ، فالكبار يتكلمون باستمرار عن مبادئهم ، ولكن عندما يكون ذلك في مصلحتهم ، فإنهم ينسونها ! يا لحسن الحظ أن الأئندجيم ليست كذلك ... ولا البابا ... بطبيعة الحال ... » .

— لا تكن حزناً يا أحمد ، فلسوف يكون لك أصدقاء كثيرون في أنقرة وستنسائي .

— أنا ، يا أميري ، أنساك ... ؟

وينظر إليها كما لو أنه يؤنبها تأنيباً فيه من القوة ما يجعلها تخجل ، تخجل من هذا الألم الذي سببته له والذي لا تملك أن تشاركه فيه . غير أنها عندما علمت بنياً سفره ، شعرت كما لو أنها ضربت بحجر على قلبها : أفهذا هو الحب . بل إنها حلمت أنه يقترح عليها أن تهرب معه ... وكانت قالت لنفسها أنها ربما قبلت ذلك منه ...

وبدلاً من ذلك ، يبقى جالساً يبكي ... بل إنه لم يأخذ يدها بيده . فتشعر بأن حنجرتها تنقبض ، لا لأن أحمد سيذهب ، ولكن لأنها تفهم فجأة ... أنها لا تحبه .

وبحركة من يدها رفعت شريطة المخمل الأزرق التي تربط شعرها ، وقدمتها إليه . فأشرق وجه أحمد ، وبدأ أنه سعيد جداً بها ، حتى لقد ضاقت به ذرعاً ، وبدأ لها أنها تكذب . ولكن هل تستطيع أن تقول له إن هذا الشريط ليس ، بعد كل شيء ، إلا شريطاً ؟ ومن جهة أخرى ، ماذا تعرف هي عن هذا الأمر ؟

وبعد عدة أيام ، تفقد سلمى عزيزتها غوليفيليس . وكانت بعد سفر أحمد آخر صديقة كبيرة لها . ولقد وصلت ذات يوم باكية ، ضامة وليدها إلى صدرها . أما زوجها ، وهو موظف في المالية ، فإن عليه أن يمضي إلى أنقرة . لكن غوليفيليس تأبى أن تذهب معه ، وقد جاءت لتتوسل إلى « أمها بالتبني » أن تستبقهما عندها ، هي وصغيرها .

وبقيت السلطانة ساعات مع غوليفيليس لتقنعها أن عليها اتباع زوجها . وسلمى الجلوسة قرب غوليفيليس ، تنتظر من أمها لحظة ضعف غير محتملة .. حتى بدا في الأفق شفق أحمر : وكان على هذه العروس الشابة أن تعود إلى بيتها .

وطرحت سلمى فكرة إقامة حفلة على شرف هذه الشركسية ، بغية تحريك هذا الجو الحزين : كأن تُنَزَّه في عربة تجرها الثيران ، فوق نهر أيوب ، مع كل صديقاتها في الحرملك ، مع « سيران » في الريف المطل على القرن الذهبي .

وهذه آخر أيام الخريف ، والنور يلهو خلال الأوراق المحمرة ، وسالف العروس^(٢) ، التي تحيط بالطرق الحجرية . وكانت الثيران ، ذات الجبهة المطلية بالحناء ، والقرون المزدانة بعقود مر اللآلئ الزرقاء ، استبعاداً لعيون السوء ، تجر العربات ذات الألوان الحارة ، والمزينة بعقود وطاقات مر الأزهار الحلوة الأرجح : حتى ليخطر بالبال أنها العربات الريفية التي يملكها سيد فلاح ، من قد: الزمان .

وكانت النساء ، في الداخل ، ووراء الستائر الخيرية ، متمددات على وسائد ثخينة . وهم يهذرن ويضحكن ، كما لو أنهم في الأيام الخالية الحلوة . وكانت ملكة العيد وحدها صامتة ، ضائفة وسط كل هذا المرح . وكانت سلمى ، تلطى بها . وخطر لها أن تضع يدها بيد صديقتها . ذلك أ:

(٢) سالف العروس amaranthe ، نبات للزينة .

نظرة الأمة الفتية كانت تقبض لها قلبها . وكأن لها من أحمد عينيه الحزونتين ، عينين تقولان: « لا لقاء بعد الآن » وفي الحين نفسه كانت الشفتان تتمم « إلى القريب العاجل » ...

ومضى هذا النهار الذي وعدت البنية نفسها فيه بالكثير من المتعة ، كحج إلى مرج الأموات . وكانت تلوم نفسها على أنها ألحّت ، وكانت تتمنى لو احتفظت من غوليفيليس بصورة الخفة ، واللامبالاة . ولكن السحر انقضى . وعلى الرغم من الأحاديث المازحة ، والوعود ، فغوليفيليس ستعود بعد سنة لتقضي بعض الأيام في استامبول ، وعندما تصبح سلمى كبيرة ستذهب بالتأكيد إلى أنقرة — وكانت تعرفان أن كلا منهما فقدت الأخرى — ويقنعة مثيرة ، كانت دموع كل منهما تقول : « لن نلتقي أبداً » .

ويعيش السلطان عبد المجيد ، في قصر ضويلة باهتشته ، عيشة هادئة .. ولقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره ، وظلت أساليبه في التعامل رقيقة . وهو يقسم وقته بين الفن ، والموسيقى ومطالعة كتب الدين . ولا يحاول أن يلعب أي دور سياسي ، ولكنه ، وهو الشديد التقوى ، يحمل مهمته ، كأمر للمؤمنين ، على محمل الجد ، باعتباره مسؤولاً عن ٣٥٠ مليون من المسلمين .

ونراه لا يخرج إلا مرة واحدة ، كل أسبوع ، لصلاة السلامك . ولقد حرص على أن يعيد لهذا الاحتفال فخامته القديمة . ولهذا فهو يمضي كل يوم جمعة ، بحاشية كبيرة إلى مسجد أياصوفيا ، أو إلى مساجد أخرى هامة في المدينة ، تحف به مفرزة من الفرسان . وقد يحدث أن يترك عربته ، ويمتطي صهوة حصان أبيض . ويتجمع الناس على الطريق الذي يمر به ، ويهتفون بحياته . وإن له لسمعة المزهو بنفسه ، بلحيته البيضاء الطويلة ، وعينيه اللتين تملكان لوناً بنفسجياً غريباً .

وربما اجتاز الخليفة البوسفور في مركبه الملكي ، الأبيض المذهب ، ليذهب فيصلي في مسجد أسكودار الكبير . بل إنه لبس مرتين أو ثلاثاً معطف السلطان محمد الفاتح ، ولفته العالية . ذلك السلطان الجد ، الذي كان في الثامنة عشرة من عمره عندما استولى على بيزنطة عام ١٤٥٣ .

لكن هذه التظاهرات ، والشعبية الحقيقية التي يتمتع بها الخليفة ، قد أثارت سيد تركيا الجديد ، إثارة عميقة . لا سيما وأنه يستقبل في قصره السفراء وأصحاب المراكز الرفيعة من الأجانب ، كما يستقبل رجال السياسة الأتراك ، وبصورة خاصة رؤوف باشا ورفعة بك ، بطل معركة الاستقلال ، اللذين يستمران في مخاطبته على أنه صاحب الجلالة . بل إن رفعة بك مضى إلى حدّ أنه أهدى

جلالته حصاناً أصيلاً رائعاً، وهذا ما كتبت عنه الصحف بكثير من التفاصيل ، كما أنها تروي تفاصيل كل أعمال الخليفة وحركاته .

وكان عبد المجيد ، من غير أن يريد ذلك ، يجذب إليه ، كالمغناطيس كل المستائين في البلاد ، وهم كثيرون . فمنهم من كان من الأسر الكبيرة ، أو الجنرالات المتقاعدين ، أو الموظفين المعزولين ، وكبار رجال القصر القدماء ، ورجال الدين خاصة .

وحقاً فإن مصطفى كمال أهمل ، بعد انتصاره ، كل مظاهر التعلق بالدين . ولقد أثار حديثاً استنكار كافة المسلمين عندما طرد شيخ الإسلام ، وضريه بقرآن على ظهره . ويقال إن النساء في أنقرة يُرغمْنَ على الخروج بدون حجاب ، وإن هذا الأمر سيُطبق عما قريب في كل أنحاء البلاد . وآخر فضيحة هي تلك التي أمر فيها الغازي أن يقام له تمثال ... إذ ما من سلطان تجراً على عمله ، من حيث أن تمثيل الشخص الإنساني ممنوع في الدين ، الذي يعتبر هذا العمل نوعاً من الوثنية .

وقليلاً فقليلاً ، وباسم الإسلام ، تتجمع المعارضة . ففي المساجد والساحات العامة بدأ الحوجات والمشايخ يخطبون ضد «حكومة الملحدّين هذه» . وصارت النشرات والكاريكاتورات توزّع ، من هذه الجوامع نفسها ، التي كانت في الماضي ، تساعد كمال في نضاله من أجل الاستقلال . وكما كان يهاجم الغازي في استبداده ، فإنه كان يهاجم على فساد أخلاقه . وعندما ساءته غيرة لطيفة خاتم ، طلقها وعاد إلى سابق عاداته كرجل أعزب ، ومنذ ذلك الحين تراه يقضي ليلاته في البارات ، يلعب ويسكر ، بل إنه ليرى مع العاهرات .

ثم إن انتحار فكرية ، في هذا الخريف من عام ١٩٢٣ ، لم يساعد على الإعلاء من نفوذه . ذلك أن هذه القرية الشابة ، التي كانت في الماضي عاشقة ، بجنون ، لهذا الجنرال الوسيم ، عادت إلى أنقرة ، منذ أن علمت بطلاقه . وكانت مستعدة لتقبل كل شيء ، من هذا الرجل الذي تعبدته . ولكن كمال رمى بها خارج البيت وعثر عليها في اليوم التالي ، ميتة في حفرة : فقد قتلت نفسها برصاصة من مسدس .

والآن فإن الملكيين ورجال الدين ليسوا وحدهم في المعارضة ، بل إن ديمقراطيين كثيراً أرهقتهُم كل هذه التجاوزات ، يتطلعون جميعاً إلى الخليفة . وعلى كل حال ، فإن عبد المجيد يمكن أن يكون ملكاً دستورياً كاملاً : فهو رجل حكيم وشريف ، وليس له من قوة الشخصية ما يجعله يدخل في صراع مع وزرائه المحتمنين .

ويشعر مصطفى كمال بأن الخطر يقترب منه. وحتى هذه اللحظة، لم يجزؤ على مجابهة الشعب بإلغاء الخلافة، التي كان يصفها بين جماعته، بكونها «ورماً خلّفته القرون الوسطى». ولكنه يعلم أنه لن يكون السيد المطلق إلا إذا هو قضى عليها.

والغريب أن عبد المجيد نفسه هو الذي قدّم له المبرر، عندما طلب زيادة في مخصصاته التي، كما قال، لا تسمح له بأن يقوم بأعباء منصبه كخليفة بصورة مقبولة. وبكل وقاحة يجيب كمال بقوله: «إن على الخليفة أن يعيش عيشة متواضعة، وإن الخلافة نفسها ليست إلا بقية من بقايا التاريخ، لا شيء يبررها».

ومنذ ذلك الحين، بدأت الحرب بين الطرفين. وبدأت الصحافة بدفع من الغازي، بمهاجمة الخلافة: «فماذا تنفعنا الخلافة؟ إن هذه وظيفة تكلف الشعب غالياً، ويمكن أن تستخدم كمستند لإعادة السلطنة!». لكن الصحف المعتدلة تعترض على ذلك، وتقول: «إن الخلافة كنز لا يقدر بثمن، بالنسبة لبلادنا. فإذا نحن ألغيناها، فإن تركيا بعشرة ملايين ستفقد كل أهمية في العالم الإسلامي، كما أنها ستكون بالنسبة لدول أوروبا دولة صغيرة لا قيمة لها».

وفي يوم ١٢/٥/١٩٢٣، انفجرت القنبلة، على صورة رسالة من الآغاخان، نُشرت في ثلاث صحف في استامبول. وفيها يحتج رئيس الطائفة الإسماعيلية على الإساءات التي تُوجّه إلى أمير المؤمنين ويطالب بأن يُضمن له وضع يُؤمن له احترام كل الشعوب الإسلامية وثقتها.

وهذه الرسالة ليست بالأمر العظيم، ولكنها أرسلت من لندن. والمناسبة أجمل مما نتوقع بكثير! فينادي مصطفى كمال بوجود مؤامرة، ويدّين الآغاخان، كعميل للقوى الأجنبية التي تحاول أن تقسم الشعب التركي. فأوقف مديرو الصحف التي تجرأت على نشر الرسالة، وأحيلوا على المحاكمة. وصدر قانون ضد «الخيانة» يقضي بأن كل من يتظاهر ضد الجمهورية، لمصلحة النظام القديم، يعاقب بالإعدام. ثم إن القائم بالشؤون الدينية، الذي غامر بالدفاع عن الخليفة، رأى (الكمال) يصرّح أنه إذا عاد إلى مثل ذلك، فسوف يشنق. وأوقفت مجموعة من الضباط، والموظفين. حتى ليظن الإنسان أننا على أبواب انقلاب.

ولكن عبد المجيد، في قصره، يلتزم الصمت، ليرك للعاصفة أن تهدأ، لكن الغازي قرّر الانتهاء منه، فطلب من حكومة استامبول منع الاحتفال بصلاة يوم الجمعة. فإذا أراد الخليفة أن يصلي في المسجد، فليس عليه إلا أن يستأجر عربة توصله إليه، أما المرافقة بمفرزة من الفرسان، فقد ألغيت، وصور المركب الملكي. ثم إن مخصصات الخليفة قد اختصرت إلى الدرجة التي

لا يستطيع معها، لا تعيين أمناء سر، ولا مستشارين. أما أصدقاؤه الأوفياء، الذين يريدون البقاء، رغم كل شيء، فأنهم يوصون «حرصاً على حياتهم» أن يتركوا القصر بأسرع وقت.

ومضى شهران. ومضى مصطفى كمال للإشراف على المناورات السنوية الكبرى، في منطقة إزمير. فعاد الأمل إلى المقرين من الخليفة، ولكن ذلك لم يكن إلا إنذاراً. والحقيقة هي أن الغازي ذهب ليستشير القادة العسكريين. وبعد عدة أيام من المناقشات، استطاع إقناعهم أنه يجب وضع حد للسلطة الدينية للأسرة العثمانية.

ولما كان الجيش معه، فإنه يستطيع أن يضرب. أما المجلس الوطني فهو يعلم أنه يملك أمره بين يديه. وكما هي العادة، فإن نواباً كثيرين، تمرّدوا، ولكنهم لن يجروؤا على عصيان أوامره. وعدا ذلك، فإنه كان قد أخذ حذره، فدعا رؤوف باشا، معارضه الأكبر شأناً، أمام اللجنة المركزية لحزب الشعب، وأرغمه على أن يقسم يمين الولاء للجمهورية ولرئيسها، تحت طائلة الطرد من البرلمان، والنفي من تركيا. ولما كان رؤوف باشا ورفعة بك، يعلمان ماذا يهيا لهما، وعجزهما عن تجنبه، فقد تركا أنقرة.

وفي يوم ٢٧/٢/١٩٢٤، وُجّهت الضربة الأخيرة فأدانت المجموعة الكمالية ما يحاك من مؤامرات من أنصار العهد القديم، وقضت بإلغاء الخلافة. وفي اليوم الثالث من أيار، وبعد أسبوع من الاحتجاجات والمشادات، انتهى البرلمان بالخنوع. وصوت برفع اليد لاعلى طرد الخليفة عبد المجيد فوراً، بل على طرد أفراد الأسرة العثمانية جميعاً.

وكان علينا جميعاً أن نرحل في غضون ثلاثة أيام!

أما الجنرال الأمير عثمان فؤاد، فإنه لم يعد يطيق نفسه من شدة التأذي والاستنكار. فجاء هذا الصباح في الساعة التاسعة إلى جناح خديجة السلطانة، ذلك أنه علم أن الخليفة وزوجتيه وأولاده، قد ركبوا قطار الشرق السريع، باتجاه سويسرا.

وجاء حاكم استامبول، ومدير شرطتها في قلب الليل، إلى قصر الخليفة، الذي كان يقرأ في مكتبته، على مارواه لي حاجبه. بل إنهما كانا قد أحاطا بجنودهما القصر، خشية أن يهرب! وكان الخليفة يحتفظ بكامل كرامته، وكل ماطلبه هو أن يسمح له بعدة أيام لكي ينظم أموره. غير أن «البهائم» رفضوا! ذلك أن خوفهم كبير من ردّ الفعل الشعبي، بل إنهم حرّموا على الصحف أن

تُنشر الخبر قبل أربع وعشرين ساعة . وكان على الأمير أن يرحل في أسرع وقت ممكن . ولم يترك له إلا حذً أدنى من الوقت ، ليحزم حوائجه .

« وفي الساعة الخامسة جمع العاملون في القصر كلهم في البهو الكبير . وكان الجميع ييكون . وكان الخليفة متأثراً جداً . فصافح بعض الأيدي وقال : « إني لم أسيء قط إلى شعبي ، ولن أسيء إليه أبداً . وبالعكس ، فإنني سأدعو الله دوماً أن يرفع من شأنه ، حتى أموت وبعد الموت أيضاً » .

« وعندئذ جاء رئيس مكتب الأمن ، ودفعه إلى عربة ، لم يأخذوه بها إلى المحطة الرئيسية سركيدجي ، بل إلى محطة صغيرة تقع على مسافة خمسة وعشرين كم منها ، تجنباً لكل مظاهرة » .

وكانت سلمى تصغي ، وفمها مفتوح . فهي لا تفهم شيئاً من هذا كله . فخلال سنوات كان الناس يخشون جيوش الاحتلال : وكان الناس يتوقعون كل شيء من جانب الإنكليز والأغريق ! والآن وقد كسبنا الحرب ، فإن الأتراك هم الذين يطردون الخليفة ، ويريدون أن يطردونا ... لقد أصبحوا مجانين ! ومن المؤكد أن هذا سوء تفاهم ! وكالعادة صارت أيندجيم هي التي تهديء العم فؤاد . وستشرح له ، وترتب كل شيء ... وكانت المراهقة ، بعينها ، تسأل أمها ، ولكن أمها أخفت وجهها بيديها ، وبصعوبة ما استطاعت سلمى أن تسمعها تقول :

— المنفى ؟ ... هذا غير ممكن ...

أما الجنرال الأمير فكان في البهو الصغير المزين بأزهار النرجس ، يدور كالأسد المستعد للانقضاض .

— لقد جُردنا من جنسيتنا ، ومُنعنا من أن نطأ أقدامنا أرض الوطن مرة ثانية . وأموالنا مصادرة . كل ما هو من حقنا الآن ، هو أن نحمل معنا حاجاتنا الشخصية . آه ! كدت أنسى شيئاً ، فقد قررت الحكومة الكريمة منح كل منا ألف ليرة ذهبية ، بحيث نستطيع العيش بضعة أشهر ! هاك ، يا عمتي العزيزة ، جليلة الموقف . فنحن مطروون كالمجرمين ! ولا سيما أولئك الذين من بيننا وهبوا دمه لتركيا .

قال هذا ووضع يده على صدره المزدان بالألحمة التي نالها في ساحة القتال . وكانت شفتاه ترتجفان . وتشعر سلمى أنها تكاد تبكي . ورأسها يدور بها . لا . حقاً إنها لا تفهم ... فالسفر ؟ لماذا ؟ وأين ؟ ولأية مدة ... ؟ وكان العم فؤاد قد قال : إلى الأبد .

— ولكن ماذا يعني قوله : « إلى الأبد » .

وندت منها صرخة من غير أن تريدها. فنظرت إليها أمها، فكم هي شاحبة اللون...

— أيندجيم!

وارتمت سلمى على أرجل السلطانة.

— ليس هذا بصحيح؛ قولي لي إن هذا غير صحيح. فعلى ماذا يلومونا؟... أرجوك، يا أيندجيم، ويا عمنا فؤاد، أجيبي! ماذا يحدث؟

— يحدث أن مصطفى كمال...

فانتصبت سلمى واقفة، وقد سُري عنها

— الباشا؟ وإذن فما من شيء قد ضاع، يجب أن نمضي لنراه، ونشرح له أنهم خانوه، وأنها قط لم نعمل ضده! تذكري، أيندجيم، كنت تقولين إنه وطني كبير... وخلال الحرب، كنت كل مساء تطليبن منا أن ندعو له بالنصر... والضابط الذي خبأناه... يجب أن نذهب إلى أنقرة، وأن نقص على الباشا كل شيء. وأنا واثقة أنه سيفهم!

ولكن لماذا تدير لها أمها ظهرها. ولم العم فؤاد يرفع كتفيه؟ أو ما من إنسان يصغي إليها؟ ويقول الجنرال الأمر:

— سلطنة، تذكري أنه ليس لدينا إلا ثلاثة أيام.

وبسرعة ينحني، ويترك البهو الذي هو فيه.

هنالك ضباب... وسلمى لا تذكر إلا ضباباً من الأنين، والجنون، والدموع، والصغائر، والإخلاص، والوفاء اللامنتظر، والخيانات أيضاً...

وخلال ثلاثة أيام، تاهت البنية، ورُدّت على أعقابها من غرفة إلى أخرى من قبل الخادومات والخصيان الذين ينتزعون الثياب المعلقة من أماكنها، ويطوونها، ويضعونها في الحقائب ويختصمون فيما بينهم، وخلال ثلاثة أيام حاولت أن تهرب من هذا الضجيج وهذه الفوضى ومن تأوهات الكالافات، وبخاصة من الأنسة روز الباكية التي تتبعها من مكان لآخر، لكي تواسيها. وفي مثل

هذه (الشوشرة)، لم تعد تعرف قصرها، قصر الدانتيل الهادىء. فكأنها ليست في بيتها. وكأن الضجيج استبعدها عنه قبل الألوان.

وانتهى ذلك معها إلى أن تحبس نفسها في غرفتها، ونظرت إلى كل من هذه الأشياء الأليفة التي تحبها لكي تنقش صورتها في نفسها، ولكي لا تنساها. ولكنها لم تعد تستطيع أن تراها، لأنها غدت غامضة. كما لو أن الحياة فارقتها... وهكذا، فعندما قامت خادمتان بحمل الحقيبة الكبيرة، ورجتاها أن تختار ما تريد حمله، فإنها لم ترد على أن ترمي في أعماقها كتاب الشعر ودفاترها؛ أما الباقي فقد قالت هن أن تختاراً لوحدهما. ولما كان خيرى يشكو من أن حقيته صغيرة جداً على ملابسه ولعبه، فقد تركت له نصف حقيتها.

ومع ذلك فإن بعض الصور من داخل هذا الضباب تطفو على السطح، كجزيرات صغيرة من الألوان: مثل صورة الحياطات المنحنيات على أبواب أمها، واللواتي يخفين في تضاعيفها بعض الحلبي: ويقطن إن للسلطانة الحق في حملها معها، ولكن لا يعرف أحد، ما إذا كان أحد رجال الجمارك يبرز الكثير من قوة الوجدان! بل يبدو لها أنها رأت زمردة تختفي في جيب إحداها... ثم زنبيل، زنبيل الطيب، الواقف فوق صندوق، يصرخ بكل الناس، وينقذ الجميع، ويبرز ساعديه كما لو أنه رئيس أوركسترا. وأخيراً صورة أمها في وسط هذه الفوضى، وهي تمر من جديد، باسمه، وتواسي وتهدىء.

— لا تخافوا شيئاً، يا أولادي، إنما ليست أكثر من زوبعة تثور ثم تهدأ بعد بضعة أشهر. وعندئذ سيستدعيها الشعب.

ولكن الشعب، في الوقت الحاضر يصمت. ذلك أن الحكومة قامت بما هو ضروري للجيمه. فقد أقامت في كل المدن الكبرى محاكم استثنائية، لها الحق في إصدار الحكم بالإعدام، وعممت «قانون الحيانة» على كل أولئك الذين قد يناقشون قضية طرد الخليفة والأمراء من البلاد.

وخلال ثلاثة أيام تتابع الأصدقاء لزيارة قصر أورطاكوي، وعلى الأقل أولئك الذين تجرؤوا على تحدي المراقبة. وخلال ثلاثة أيام أيضاً، تساءل أهل البيت، أين يذهبون؟ إذ لم يحدث مرة قبل اليوم أن أميرة عثمانية خرجت من بلدها. وبين «القديمات» قليلات هن اللواتي خرجن من قصورهن.

ولقد اقترح أول الأمر الذهاب إلى فرنسا، إلى نيس حيث الطقس لطيف كما هو في استامبول، وحيث السماء، على ما يبدو، تظل زرقاء صافية، وحيث البوسفور يسمى البحر

الأبيض المتوسط . ولكن الأميرة اختارت أخيراً بيروت « لأنها قريبة جداً ، ولأننا نستطيع العودة منها بسرعة ! » .

وتساءلت سلمى عما يفكر به أبوها حول هذا الموضوع . فمئذ جاء هذا الخبر لم تره مطلقاً . ويحْيَل إليها أنه غارق ، ذلك المسكين ، في نخل كتبه ، والنظر في أوراقه ... ونخالجتها فجأة رغبة حادة في أن تراه ، إذ لم تعد تطيق الوجود مع كل هؤلاء النسوة اللواتي يقبلن يدها ، بهيئة المحزونات الكئيبات .

ولم يعد هنالك حرس على باب الحرمك . فعادت سلمى ومَرَّت في البهو ، صادمة الكالافات . واندفعت نحو أمها .

— أيندجيم ، بابا ، أين هو بابا ؟

وبرقة غير مألوفة ، تداعب السلطانة شعر ابنتها وتقول لها :

— كوني شجاعة ، ياسلماي . فقد نُحِير الدامادون بين الرحيل مع زوجاتهم ، أو الانفصال عنهن ، والبقاء هنا . وأبوك لن يأتي إلينا بعد الآن .

فرَّت الكلمات في الفراغ ... وهو فراغ ، يعمّق مجراه ، ويزداد برودة ، داخل صدرها ، وداخل بطنها ، وحتى آخر نقطة من أصابعها ... « لن ... يأتي ... بعد الآن » .

الساعة هي الثامنة صباحاً ، وضوء النهار شفاف في يوم الجمعة ١٩٢٤/٣/٧ .

وفي القطار الذي ينقلهم بعيداً عن استامبول ، كانت سلمى ، ملتفة على نفسها فوق المقعد ، تنظر إلى بلدها الذي يتركها ... أي ، إلى غابات الصنوبر التي تمر أمامها ، وإلى الأنهار المتألقة ، والنساء في أغطيتهن البيضاء وسط حقول اللفت .

وأمام عينيها ، كانت السماء تمطر رذاذاً .

القسم الثاني

لبنان

١

في وسعها أن تصف عني بقدر ما تستطيع، فلن أحفض عيني. وتكفي شكوى واحدة، وتكون قد انتقمت، ولن يكون بها حاجة إلى الضرب، وقد تعفو. إنني لن أقدم لها هذه الفرصة. فذلك معناه، أنها على حق.

وفي ساحة اللعب، وحول المرأة التي تلبس الثياب السوداء، وحول الفتاة ذات الخصل الحمراء، كانت الطالبات يزدحمن، صامتات. وهذا الذي بدأ كأنه وليمة — يكاد ينتهي إلى مأساة — وأخيراً سنرى هذه الوقحة تبكي. والأم أشيليه تضرب بعنف — إنها على وشك أن تقصم ظهرها... فلماذا لا تصرخ وتبكي هذه الحمقاء؟ ألا تعلم أن عليها أن تصرخ قبل أن تشعر بالألم. فالراهبات ذوات قلوب رقيقة، ولا يحتملن سماع الصراخ.

وتوقفت الراهبة، متعبة. وترفع سلمى ذقنها، وتكسو وجهها بسيماء الاحتقار — كما لو أنها ضحية أمام معذّبيها.

— ستكتبين لي الدرس مئة مرة!

— كلا.

فعصّت الدهشة الطالبات: إنها قوية، هذه التركية الصغيرة. واصفرّت الأم أشيليه، وقالت:

— إنك الشيطان! وسنرى ماذا تقول عن سلوكك الأم المديرة.

وانطلقت بما تلبس من تنانير وأكمام، وأدارت ظهرها، واتجهت إلى مكتب الراهبة العليا.
واقتربت مراهرة سمراء من سلمى بخجل. إنها أمل، بنت أسرة درزية كبيرة، من هؤلاء
الإقطاعيين الذي سيطروا على الجبل اللبناني قروناً وقروناً. وقالت لها، قلقة:
— ستُطردن، إذن. فماذا ستقول أمك.

— ستهنئي.

— ؟ ؟ ؟

— إن أمي لا تقبل أن تهان أسرنا. وهذه التي يقال إنها مدرّسة تاريخ ليست إلا كاذبة!
أويقال عن راهبة إنها كاذبة! إن الطالبات لا يُصدّقن ما يسمعن. ويتعد بعضهن لينقلن
الكفر الذي لا يصدق، لغيرهن. ولا يجزؤ أحد على تخيل ما قد يقع— ولكننا حتماً سنتسلى.
وتنظر الأم مارك، في مكتبها المغلف بخشب قائم، إلى الصليب الذي علّق فيه المسيح،
داعية أن يلهمها الصواب. فهذه حالة تمرد موصوفة. وهي مضطرة إلى الرد بعنف. ولكن هل
تستطيع أن تفسّر هذه الصغيرة على أن تقول السوء عن ذويها؟ وفي العام الماضي، جوهت بمشكلة
مماثلة، بعد الدرس الذي كان يتعلق بالحروب الصليبية! وكان في الصف طالبتان مسلمتان، جاء
أبوهما فأخذاهما دون أن ينبسا ببنت شفة.

وهذه المؤسسات، الشبيهة بهذه التي تديرها الأم مارك في بيروت— أي مدارس أخوات
بيزانسون— مفتوحة للأطفال من كل الأديان. وهي لا تهدف إلى هداية «الغنيات الشاردة» ولكنها
لا تفقد أبداً الأمل بأن كلام الربّ مثل البذور التي تُرمى في الهواء، وستنتهي ذات يوم بأن تنبت.

ويقرع الباب بثلاث ضربات خفيفة. وتدخل صبية ذات شعر كثيف، ملتهب، فوق ياقة
من الدانتيل الأبيض، الذي يُحليّ اللباس الأزرق— البحري. وعيناها مخفضتان، والجهة عنيدة.
وتقدّم عميق الاحترام بانحناء كبيرة.

— يمكنك أن ترفعي رأسك، يا آنسة.

وتضرب الأم مارك على مكتبها ضربات خفيفة بأصابعها العاجية الطويلة.

— إنك ترين، يا ابنتي، أنني مترددة. فماذا تفعلين لو كنت في مكاني؟

ولكنها لم تتوقع تلك النظرة المثقلة بالتأنيب، ولا الردّ الجارح، على مافيه من حسن التهذيب .

— ليس لي شرف الحلول محلّك، أيتها الأم المحترمة .

— « الأم » !

— عفواً ؟

— أمي المبتجلة .

— نعم، الأم المبتجلة .

واختارت الأم مارك أن تضع الحذف (حذف حرف ي من «أمي» والاكتفاء بالأم وحدها) على حساب الجهل باللغة الفرنسية، وتابعت كلامها بلهجة ناعمة، قائلة :

— إن الأم أشيليه تطلب طردك . وتؤكد أن في سلوكك خطراً على النظام في الصف .

وتسكت سلمى . وتفكر بأمرها . مسكينة أيندجيم . فبعد خيري الذي يأبى أن يذهب إلى المدرسة ، لأن رفاقه يسمونه «صاحب الحمرة Annesse» بدلاً من «صاحب السمو Altesse» . وهاهي الآن تسبب لها مشكلات جديدة . وعندما خطر لها ما ستعانيه أمها من ذلك ، ضعف عزمها .

— أيتها الأم المحترمة — ماذا تفعلين لو أنهم أرغموك على حفظ — وهنا يضعف صوتها — على حفظ أن جدك كان مجنوناً ... وعمك الكبير كان شيطاناً مغرماً بدم الآخرين ... وعمك الآخر ضعيف العقل ، والأخير جباناً ؟

وتنظر الأم مارك من جديد إلى الصليب الذي عليه المسيح . ثم استدارت إلى المراهقة ، وعيناها تلمعان .

— إن سيدنا يسوع المسيح قد صُلب ، لأن معاصريه كانوا يرون فيه «دجالاً» . فأحكام الناس ، كما ترين ، تعكس حدودهم : فليس هناك من تاريخ ، بل هنالك وجهات نظر . والوحيد

الذي يعرف الحقيقة ، هو الذي لا يملك وجهة نظر ، لأنه غير محدود بشيء . فهو في كل مكان ، إنه الله .

وباعتبارها حفيذة متأخرة لأسرة عظيمة من أيام الصليبيين الذين حاربوا ، ووهبوا حياتهم للحقيقة ، فإن الأم مارك تضطرب كما لو أنها قد خانتهم . ورأت أن تستعجل الخلاص من هذه القصة ، ولكن صوتها يضطرب قليلاً عندما تنطق بحكمها :

— إنك لن تحضري بعد الآن دروس التاريخ ، وستدرسين البرنامج وحدك . وأعتقد أنه ليس من الضروري أن أشير إلى هذا الحادث أمام السلطنة .

— أوه ! شكراً يا أمي المبهجة !

وياندفاع طبيعي ، قبلت سلمى يد الراهبة العليا ، وحملت إلى جبينها كما كانوا يفعلون في البلاط العثماني .

وقتمت الراهبة ، مندهشة :

— امضي بسلام ، يا بنيتي !

ومن غير أن تفكر سلمى ، وحسب العادة الإسلامية ، أجابت :

— رافقتك السلامة ، يا أمي !

وبدا للأم مارك أن المسيح ، من صليبه ، يتنسم لها .

وإذا قارنا بيروت بالعاصمة العثمانية ، وجدناها مدينة حلوة في المحافظات ، يسكنها حوالي المئة ألف نسمة ، تزيّن بها بيوت بيضاء ذات سقوف من القرميد الأحمر ، ومحاطة بمحاذق كثيرة الظلال .

وفي الغرب ، في حي رأس بيروت ، حيث استقرت السلطنة ، يمكن للإنسان من الشرفة أن يرى البحر ، ذا اللون الأزرق الشديد الزرقة حتى إن سلمى صدمت منه أول الأمر ، كما يُصدم الإنسان مما يبدو له من سوء الأدب لدى إنسان ما . ولكن البنية فهمت تدريجياً أن كل بيروت كانت على صورة البحر المتوسط ، ضاحكة ، ممتلئة حيوية ، على نقيص استامبول وبوسفورها ، اللذين كان شفوفهما المتقلب والمغمور بالأحلام والأشواق ، يُثير الرغبة في البكاء من شدة الرقة .

ثم إن السيدة اللبنانية التي أجرتهم بيتهم الجديد «تعشق تركيا والأتراك!» — ككل سكان الحي، على ما تؤكد هي.

وبزهو ما تعظم لهم شأن بيتهم المحمل بأشجار التين والنباتات دون أن تشير إلى المزايب التي تهرب ما يجري فيها من الماء، وتملأ الجدران ببقع كبيرة من العفن، ولا إلى النوافذ التي لا ترى حرجاً في مرور الهواء، منها، بكامل الحرية.

وتشرح لهم:

— أن الأسر السنية تسكن في رأس بيروت، تلك الأسر التي كانت في عهد العثمانيين، وحتى مجيء الفرنسيين، سادة المدينة، خلال أربعة قرون.

«أما هنا فتسكن عائلة الغندور، التي كانت تملك إدارة حصر التبغ والتبناك. وأسرة البلطجي، التي تسيطر على المرفأ. وهناك نجد بيت الداعوق، وبهم، والصلح. وهم جميعاً أغنياء جداً! ثم إنهم يتكلمون اللغة التركية، كما يتكلمون العربية، وأحياناً نراهم يفخرون بوجود دم تركي في عروقهم، عن طريق جدّة شركسية أو استامبولية».

وتضيف أن هذا المجتمع الراقي السني، على أفضل حال مع الأسر الرومية الأرثوذكسية، التي تشكل أقلية عظيمة القوة. وهذه جميعاً تستقبل الزوار، تقريباً كل يوم. فيلعب الرجال بالورق والبوكر، وتلعب النساء بالبيناكل. وفي آخر ما بعد الظهر، يتنزه الناس على الأحصنة، في الهضاب المجاورة، ولا سيما في الربيع عندما يتعطر الجو برائحة الزعتر والزعرور.

وتهز السلطانة رأسها، بأدب، فتفهم صاحبة البيت أن في ذلك دعوة إلى متابعة الحديث، فتسرع إلى إيضاح أن هذه الأسر: أي السرسق، والطراد، والتويني، وكلهم من أصحاب المصارف، هي التي تقدم أجمل الاستقبالات.

— ويلتقي عندهم كل أهل بيروت، من مسيحيين ومسلمين. والمسيحيون هنا هم الذين يتبعون الطقوس الإغريقية، ذلك أن الموارنة، باستثناء بعض الأسر المقيمة هنا منذ أجيال كثيرة، قلائل في بيروت. وماتزال أكثرهم تسكن في الجبل، وهم فلاحون حريصون على أرضهم وكنيستهم.

وخلافاً لأكثرية اللبنانيين، فإن أكثرية الموارنة لا يعتبرون أنفسهم عرباً، على ما تقول، بل هم

فينيقيون، من أحفاد أولئك الذين أنشؤوا إمبراطورية بحرية، سيطرت عدة قرون على البحار، حتى سُحِّقَتْ على يد بطليموس، أحد قواد جيش الاسكندر.

وكبرهان على أصلهم المختلف، يقولون أنهم لم يتكلموا العربية إلا مع القرن السابع عشر، وقبل ذلك كانوا لا يتكلمون إلا الآرامية.

والواقع أن الانتداب الفرنسي الذي استبعد استامبول عن السلطة على المنطقة، أنشأ لبنان الكبير، وجعل بيروت عاصمة له. وبطبيعة الحال فإنه سيستند إلى المسيحيين الموارنة الذين كانت فرنسا تحمهم منذ عام ١٨٦٠، لا سيما وأن أكتية هؤلاء رُبُّوا في الإرساليات المقيمة في لبنان، وهم يتكلمون الفرنسية بكل طلاقة. وعندما قدّم لهم مراكز عديدة في الإدارة الجديدة، وتسهيلات مختلفة لمساعدتهم على إنشاء مراكز تجارية، فإنه شجعهم بالتدرج على السكن في المدينة. وسيصبحون قاعدته الأكثر ولاءً. وسينشئ هؤلاء المدنيون الجدد، بيوتهم في الأشرفية، لأن الأرض فيها شبه عذراء، وإذن فهي أرخص من غرب بيروت، حيث يوجد البحر كما توجد بيوت حلوة جداً. ثم إنهم في هذا الحي أقرب إلى جبلهم الذي تركوا فيه أسرهم، واحتفظوا بيت صغير، وقطعة بسيطة من الأرض.

وهكذا فإن مختلف أحياء بيروت ستؤلف، لأسباب عملية وعاطفية، جزءاً ثقافية ودينية. وهي جزر قابلة جداً للنموذ: فخلال السنين، صارت العائلات المارونية التي «نجحت»، تأتي لتسكن في الحي الأنيق الذي هو حي الصنائع والفنون، في قلب رأس بيروت، في الحين الذي سيقام فيه منذ مئة سنة تقريباً وفوق الهضبة المشجرة التي تسمى بالأشرفية، حي سرسق، آنق حي في المدينة. وفي منازلهم الفخمة المبنية في القرن التاسع عشر، على الطراز الفلورنسي، الفينيسي، يتابع أبناء بطرس الأنيقون، وليندا سرسق الجميلة، والإخوان تويني الجذابون، يتابعون تحت الانتداب الفرنسي الآن، ما كانوا يفعلونه تحت الحكم العثماني، من تقديم أروع السهرات.

ولما كانت بيروت واحة بين البحر والجبل، فإنها مدينة يحب الإنسان فيها قبل كل شيء، أن يتمتع بالحياة. وعلمنا أن نعترف بأن الفرنسيين، قد حملوا إلى هذه المدينة الريفية حيويةً، وزهواً جعلها تشبه باريس في كثير من النواحي.

ولئن كانت الطوائف تتساكن في جو التسامح، فإنه يسود فيها مع ذلك ما يسمى بالاستبعاد الجماعي. فالأسر الكبيرة، التي ترى هبوط هؤلاء الفلاحين من الجبل، بمساعدة الفرنسيين، كما

ترى اغتناءهم في بضع سنين، تلاحظ أنهم من «حديثي النعمة»، لا تقاليد لهم، ولا حسن تصرف، وتضيق بهم ذرعاً.

ثم إن الهوة تكبر بين البيروتيين القدماء، والبيروتيين الجدد. بيد أن الإدارة الفرنسية لا تشجع المارونيين وحدهم، بل إنها بحاجة كذلك إلى دعائم قوية لدى الطائفة الإسلامية. وهي تعلم أنه لا يمكنها أن تنتظر من البورجوازية السنية العليا، الكثير من الحماسة، وذلك لأنها عندما أنشأت لبنان، فصلته عن المملكة العربية التي وعد بها الإنكليز العرب والتي كان عليها أن تضم سورية ولبنان وفلسطين. وعدا ذلك فإن الانتداب اضطر لكي يثبت وجوده إلى الضغط على المصالح الاقتصادية هؤلاء السنيين الأغنياء. ومع ذلك فإن العلاقات تظل سليمة، وأحياناً جيدة بين الطوائف. فقد كان اللبنانيون دبلوماسيين دوماً. أما فيما بينهم (بين السنيين خاصة) فإنهم يهتمون فرنسا بأنها أساءت إلى ثروة البلاد، وبصورة خاصة، عندما عوّضت عن الليرة الذهبية، بليرة ورقية تعتمد على الفرنك. وهم مستأثرون، بشكل خاص، من أن أعظم المراكز نفوذاً في السياسة، والقضاء، والجيش، قد أعطيت للمسيحيين. وبالمقابل فإن هناك طبقة بورجوازية متوسطة، سنية، لم تكن تكلف في عهد العثمانيين بوظائف هامة. فصار الفرنسيون يعتمدون على بعض هذه الأسر، ويشجعونها ليكسبوا إخلاصها.

وإلى هذا المجتمع البيروتي، المشرف على تحولات عظيمة، بتأثير سادته الجدد و «أصدقائه» وصلت السلطنة خديجة، مصحوبة بولديها، وزينيل، وكالفاتين.

وهنا حصلوا على نجاح كبير نشأ عن فضول الناس أولاً، وعن تعاطفهم ثانياً. وعلى كل حال فإن السلطان مراد الخامس لم يؤذ أحداً، لالسبب غير أنه لم يحكم، ذلك المسكين، إلا ثلاثة أشهر... أما ابنته البائسة! فلقد بقيت سجيناً مع أبيها ثلاثين سنة، ثم عشرين أخرى، مقسمة بين زوج كان على الأرجح يضربها، والآخر كان بالتأكيد يخونها، ثم جاءت الحرب، والثورة، والنفي أخيراً! وهكذا فإن كل سيدات المجتمع المحيطات بها، كن يتألمن لها، وصرن يتسابقن إلى زيارتها.

ولكن إذا كن يتوقعن — وعيونهن سلفاً تتألق لهذا التوقع — كشوفاً مؤثرة، وتفاصيل لم يُسمع بها من قبل حول الصورة التي عوملت بها الأسرة المالكة، أو في أقل الدرجات، بعض التهنيدات، والنظرات الحزينة، التي توفر الفرص للإمساك بيد الأميرة، وحلف اليمين لها بأن ستملك صداقتهن الأبدية — فإنهن قد خاب فألهن.

وفي البهو دي الستائر الحريرية الصفراء التي عما لومها قليلاً، كانت السلطنة تستقبلهن

بالبسملة الأليفة، وبحس الكرامة الخاص بملكة تأتيا رعاياها لتقدم لها احترامها. أما أسئلة الزائرات التي بدأت بأن تكون رسمية، ثم مع الأيام، غدت أكثر فأكثر إلحاحاً على ما يتوقعه من كشف ومصارحات، فإنها كانت تجيب عنها بهدوء لا يعرف الاضطراب. وحقاً، فإنه ليس لديها ما يمتعهن أن تقوله؛ فكمال لم يفعل إلا ما قدر أنه واجبه، أما إمكانية قيام ثورة مضادة، وإعادة النظام السابق؟ فذلك خاضع لإرادة الله... ولكن من سيصبح خليفة من جديد؟ إن هذا السؤال الذي يطرحه، كانت هي على وشك أن تطرحه عليهن... ففي اليوم التالي لرحيل عبد المجيد، كانت الصحف قد أشارت إلى تعيين حسين، ملك الحجاز، لهذا المنصب، من قبل أبنائه هو. أما الآن فيتحدث الناس عن فؤاد ملك مصر. وتقول رداً على مثل هذه الملاحظة: «نحن لسنا على صلة به، ولا أعرف سبباً أكثر منكم عن هذا الموضوع».

وتعود الزائرات حائرات، مع الشعور الغامض بأن السلطنة مكتر بهن، لكن هذا المكر المفترض كان يناقضه ما يستقبلن به من حفاوة جميلة. ولقد وجد من النساء، الرفيعات المقام، من دعاها إلى التفضل بزيارتهم، بعد ظهر أي يوم تريده، لحفلة شاي؛ بدعوى أنهم يردن تقديم بعض الصديقات إليها، وكانت السلطنة تعتذر آسفة عن قبول الدعوة، وتقول:

— إن هذا لجميل جداً منكن، ولكنني لا أخرج مطلقاً. وبالمقابل فإذا شئت زيارتي، فإني سأسعد دوماً بذلك.

وخلال عدة أسابيع كان البهو لا يفرغ من الزائرات. لكنهن مع الأيام، باعدن بينها. ذلك أن هذه الأميرة التي كان يقال: إنها ذكية، والتي كانت شخصيتها ممتدحة بينهن، ليس لديها ما تقوله! فيزهد المجتمع البيروتي، ويمضي ليتعلق بأخرين، فيما عدا بعض المتحذلقات من ذوات المستوى الأكثر تواضعاً واللواتي واطن على زياراتها، بغية أن يروين لصديقاتهن المنبهرات، بأن «صديقتهم» السلطنة، كانت اليوم «مزكومة» بعض الشيء أو أنها كانت تلبس ثوباً من الحرير الأخضر كان يهبها حقاً سمتها السلطانية!

وفي الهدوء الذي عادت السلطنة فوجدته من جديد، كانت تضعك بصمت.

— لقد لقتنهن درساً، هؤلاء البله، اللواتي كن يردن التناوس، إذ يضعن على صدورهن سلطنة! أيدعوني! حقاً إنهن لا يرين ما في ذلك من حرج! فهل للأميرة من أسرة ملكية، ومن عمري، أن تتحرك من بيتها؟ فأذكرني يا سلمى هذا: إنه ليس لأننا أصبحنا لائملك المال، يجب أن نغير طريقتنا في السلوك. فأنت أميرة، ويجب ألا تنسي ذلك أبداً.

وتطلق سلمى واحدة من تهنديتها... «أميرة بلا مال، ماذا يعني ذلك؟ إنني أضحوكة الصف كله. ورفيقاتي يسميني بصاحبة السمو ذات الكلسات الملقطة».

ومع ذلك فإنها تكتفي بالجواب:

— إنه يصعب عليّ، يا أبنديجيم، أن أنسى ذلك.

وتنظر إليها خديجة مندهشة.

— هل من شيء يزعجك؟ في المدرسة؟

— كلا يا أبنديجيم. إن المدرسة سارة جداً.

كان يجب أن توفر العناء على أمها، بأي ثمن. فالسلطانة تظل شاحخة الرأس، ولكن، وبمرور الزمن، كانت نظراتها التي كانت ممتلئة حيوية في الماضي، وعميقة، قد غشيها تعبير مؤلم. فهي لا تفهم، ولا تقبل سكوت شعبها.

وفي الصباح والمساء تصغي إلى الإذاعة، وتحاول أن تستمع إلى أخبار تركيا. فحذف المدارس والمؤسسات الدينية، وإغلاق مراكز التجمعات الصوفية، قد أثار استنكارها. وبالمقابل فإنها شعرت بلذة الانتصار عندما سمعت أنهم ينزعون الحجاب بالقوة، ويأمرّون الرجال بنزع الطربوش، كرمز على الانتساب للإسلام، تحت طائلة الشنق! ففي هذه المرة، لا بد للأتراك من أن يشوروا! ولكن الأمر في هذه المرة ظل كما كان في غيرها من المرات، فقد قبل الأتراك ماجرى. ويوماً بعد يوم، كانت الثنية تتعمق أكثر فأكثر على زاوية شفتي خديجة. وعندما تركت بلدها، كانت مقتنعة بأنها سرعان ما ترى الشعب الذي يرهقه كمال، يستدعي الأسرة المالكة. ولكن ها قد مضت سنة كاملة، والشعب لا يزال صامتاً.

ولاريب أن المحاكم الاستثنائية قائمة في كل مكان. والمعارضة والصحافة، مازالتا خاضعتين للرقابة. ولكن السلطانة تتألم، وتقول: الأتراك عشرة ملايين، فهل تمكن مراقبتهم وإخضاعهم؟

ثم إن تخلي زوجها عنها خلف فيها إحساساً بالمرارة. ولكن الذي يؤذيها أكثر من أي شيء آخر، هو اللاهتمام الذي تلاحظه لدى شعبها.

ولكن سلمى أقسمت، كفارس شجاع، على حماية أميرتها. فالعبادة التي كانت دوماً

تخطيطها بها، تحولّت في الأشهر الأخيرة إلى حنان قلق، كما لو أنها عندما اكتشفت ما فيها من سرعة عطب، خشيت أن تصيبها مصيبة جديدة، فتحطم لها قلبها.

وهكذا، فإنها عندما انتهت المدرسة، لم تعد تخرج— وأصلاً فألى أين تذهب؟ إنه ليس لها من صديقات— فتعود مباشرة إلى البيت— وهناك تجلس على وسادة، تحت قدمي السلطانة، ساعات وساعات، وتخترع ألف قصة لتحاول بها إلهاء أمها وشغلها عن نفسها: فما من مرة في الماضي قضت مثل هذا الوقت قربها... وفي قصر أورتاكوي، كانت المراسم، والحضور الدائم للكالفات، تجعل كل علاقة حميمة بين الأم وابنتها مستحيلة. أما المنفى، فإنه على الأقل، قرب ما بينهما. أو قل هكذا كانت تقول، لكي تعزي نفسها. ولكنها تعرف أن الأمر ليس كذلك، وأن السلطانة لم تبد قط لها بعيدة كما هي اليوم.

وذات يوم، ألغى أستاذ الرياضيات درسه، لأنه كان مريضاً. فعادت سلمى إلى البيت قبل ساعة من موعدها. فأوقفت على العتبة: وسمعت جلجلات الضحك! وببطء اقتربت ورأت... أيندجيم— أيندجيم التي تضحك كما لم ترها تضحك منذ زمان طويل منذ مغادرة استامبول. وكان زينيل جالساً على وسادتها هي، جاثياً بين قدميها، وهو سعيد، يخطب:

فشعرت المراهقة بأن حنجرتها تنقبض، وأنها خدعت: فأمرها لا تريها إلا وجهاً حزيناً. فلم تجد مع زينيل بهجتها القديمة؟

وتقدمت، وهي صفراء الوجه تماماً، فنهض الحصّي، وتوقفت السلطانة عن الضحك، وسألتها:

— ماذا هنالك يا سلمى؟ أنت مريضة؟

وتصنع القلق وتقول في نفسها: ولكنني أستطيع أن أموت مادام زينيل هنا.

أما خيري الذي لم تكن سلمى قد رآته، فيضحك، ويقول:

— إنها غيرة. هذا كل شيء. أولاً تفهمين، يا أيندجيم، أن الآنسة لا تحتمل أن تهتم بأبي إنسان آخر غيرها، حتى بي أنا؟ وعندما تبسمن لي، يمتقع لونها كسفرجلة قديمة!

وتنظر سلمى إلى أخيها نظرة أفعوية. إذ لقد كانت تسيء تقدير قوة الملاحظة لدى أخيها

(البابا يوف) السمين . ولكنه سيدفع الثمن . وبانتظار ذلك ، فإن من الأفضل التخلص من هذا الموقف .

— أنا غيور ، أية فكرة ! إني لست غيور ! بل كنت مندهشة ... ومسرورة بأن أسمعتك تضحكين يا أيندجيم .

وتشعر آنخذ أن صوتها يرن رنة المداجاة . وقطعاً لما قد يحدث ، تدّعي أنها تريد ترتيب كتبها ، وتنسحب إلى غرفتها .

فأقلق ذلك أمها ، وتبعها إلى غرفتها .

— ولكن ماذا يا سلمى ؟

فطفرت الدموع من عيني المراهقة ، وأجابت :

— أوه ، يا أيندجيم ، إني لشد ما أحبك ، وأكثر من كل شيء . وبني حاجة إلى أن تحبيني ...

— أكثر من كل شيء . ولكن ، يا سلمى ، إني أحبك ، وكذلك خيري ، أكثر من كل شيء .

ودخلت البرودة إلى اللهجة .

— وبالمقابل ، فأنا لأحب المساومة على العواطف ، لا من أبنائي ولا من أي إنسان آخر . أما عن الهوى ، ذلك أنك إنما تتحدثين عن هذا ، على ما يبدو لي ، فلقد بدا لي دوماً في غير محله . إلا ما تعلق بهوى بلادي !

وخفضت سلمى رأسها نحو الأرض . وكيف يحدث أن أمها ، الطيبة جداً في العادة ، يمكن أن تبدو أحياناً في مثل هذه القسوة ؟

وكان البابا يقول ، إن الماما عندما تكون غاضبة ، فإنها لا تعي مقدار فظاعتها ! فبابا ... الذي كنت أعبد ، والذي تخلى عني ... ثم هي الآن ، وتعص سلمى على شفيتها : ذلك أنه يجب إخفاء اضطرابها ، مهما يكن الثمن ... آه لو كنت أستطيع أن أحبها أقل ، وألا أكون خرقاء بهذه الدرجة ، أو حريصة هذا الحرص على إرضائها ، أو لو كنت قادرة على أن أبين لها أنني قليلة المبالاة . عندئذ قد

تحبني ، وأنا واثقة . ولكن قد يقول الإنسان ، اني ثقيلة عليها ... فكم من مرة لامتنني على أي أكاد أخنقها ؟

وتتنفس سلمى بعمق ... فهي لن تترك نفسها تفرق .

— أيندجيم . ألم تكوني تحبين أباك بعنف ؟

— أبي ... ؟

وترسم بسمه على وجه خديجة ، فتضيئه . وفجأة تبدو وكأنها صبية صغيرة .

— بلى ، كنت أحبه بعنف . وكان رجلاً غير عادي . وهو واحد من النوادر الذين يستطيع المرء أن يعبداهم بلا خطأ .

وتنظر إليها سلمى في صمت .

إنه هذا ، أيندجيم ، وبالوسط هذا الذي أشعر به تجاهك فلماذا تأبين ذلك عليّ ؟ وذات يوم ، كنت تقولين : أن يكون الإنسان إلهاً ... فيجب أن يكون هذا جهنم . فكل الأمل ، وكل حب للإنسانية معلقان على ثيابك ، ما أثقل ذلك من وزن ! فقليلاً من اللامبالاة ، إن كان يرضيك ، وشيئاً من الهواء . فلقد كنت ضحكت من إحدى النكات . وإني أفهم الآن كم كنت بريئة ... آه ! إن الإنسان في حالة خطأ دائم ، إما لأنه لا يجب بدرجة كافية ، أو لأنه يحب أكثر مما يجب .



— إنهم يقتلون أصحابنا بالمقات .

وجدت أمل سلمى ، إلى ركن من أركان ساحة اللعب . وكان وجهها أكثر شحوباً مما هو في العادة .

— قام الفرنسيون ، في الجبل ، بإحراق قرى بكاملها ، بلا أدنى شفقة على النساء والأطفال . وسوف يندمون . إن انتقام الدروز ، سيكون مخيفاً !

وهبط بالون على الأرض بين أرجلهما . وتزاحمت طالبتان وهما تضحكان ، للإمساك به . إنها الأيام الأولى للخريف ، والشمس أشبه ما تكون ، بالحرير .

وأخذت سلمى بيد أمل . ذلك أن هذه الدرزية الصغيرة هي صديقتها الوحيدة في مدرسة أخوات بيزانسون ، بل الوحيدة التي تجرأت على كسر العزلة التي كانت تحاط بها . وفهمت المراقبة ما في سلمى من قلق واضطراب ؛ ذلك أنها مرّت ، هي الأخرى ، بمثل هذا ، وهي التي يقول فيها الراهبات : « أمل جميلة ، ذكية ، وكَم هو مؤسف أن تكون هذه المسكينة مسلمة ! » . وفي البداية ، لم تكن تريد البقاء . وكانت تبكي كل يوم ، ولكن أباهما لم يقبل ذلك منها : فأفضل المدارس في لبنان هي المدارس المسيحية . وتعتبر الأسر المسلمة أن مما يشرّفها أن ترسل بناتها إليها .

وتسأل سلمى أمل ، بنعومة ، قائلة :

— أمل اشرحي لي أرجوك ، فاللبنانيون الآخرون قبلوا الانتداب الفرنسي . فلم يحارب الدروز ؟

— إنها مسألة شرف !

وتتألق العينان الزرقاوان .

لم نكن في البداية ضد الفرنسيين ، ولكن المندوب السامي ، الجنرال ساراي ، شتم رؤساءنا . ففي ربيع هذا العام ١٩٢٥ ، أتى وفد من سورية ليناقد في وضع الطائفة الدرزية . وكان يحتج على تصرفات الحاكم الفرنسي كاربييه Carbillet ، التي كانت تقلب التقاليد القديمة ، رأساً على عقب . وكان يطالب ، كما كان يقضي اتفاق عام ١٩٢١ ، بتولية حاكم درزي على الجبل .

لكن المفوض السامي استقبل هذا الوفد ببرودة ، وأجابهم ، بأنه يجب إصلاحات كاربييه كل التحديد ، وأن اتفاق عام ١٩٢١ ، أمر قد تجاوزه الزمن ، وتعاقبت بعد ذلك الوفود الدرزية ، في المجيء إلى بيروت ، دون أن تنجح في مقابلة ساراي . ويرى هذا الجنرال اليساري ، العقلائي ، المعارض لوجود رجال الدين والنزعة الدينية أن الدروز متوحشون ، تماماً كسود أفريقيا الذين تعود عليهم . وليس لديه من وقت ليضيعه معهم .

و ذات يوم ، عندما كان يحاول أن يستبعد عنه مجموعة من وجهاء الدروز ، محاطة بموالي المنة من الفرسان ، خرج من باب ثانوي ، ووجد نفسه وجهاً لوجه معهم على السلام . واعتبر الدروز أن هذه الإهانة لا تحتمل . فرموا بكوفياتهم على الأرض ، وقالوا : بيننا وبين الفرنسيين ، لا مجال إلا للحرب ، منذ الآن . فأمر المفوض السامي مندوبه في دمشق ، بأن يستدعي الرؤساء الدروز البارزين ، بحجة البحث في مطالبهم ، وأن يوقفهم . فوقع ثلاثة من زعمائنا البارزين في هذا الكمين .

وفي هذه المرة كان ما حدث أكثر من أن يحتمل . ففي ١٧ تموز / يوليو / ، انفجر التمرد ، بقيادة الرجل الرهيب سلطان باشا الأطرش . فأرسلت إليه بعض الكتائب الفرنسية ، لضبط الأمن ، فشتت أيدي سباً .

— ولم ينته الأمر بعد ، على ما قالت أمل وهي تقطّب جبينها ، تقطيب من يريد المجاهدة الحرة . فوجد بين دروز الشوف اللبناني من انضم إلى دروز سورية . وهم الآن أكثر من خمسين ألف محارب .

وقالت سلمى :

— إنك ترين جيداً أنهم سيكسبون معركتهم . فلم أنت قلقة ؟

وتنهّدت أمل ، قائلة :

— لأن الحكومة الفرنسية — مثلك تماماً ، بدأت تعتقد أنه يمكننا أن نربح . ولهذا فقد أرسلت الجنرال غاملان على رأس فرقة من الخيالة الشرکس ، والمفارز التونسية ، وسبع كتائب من المشاة . وهم مجهّزون بأحدث مدفعية ، وبدؤوا يقصفون قرانا لجعلها قاعاً صفصفاً . ورجالنا يقاتلون كالأسود . ولكن ماذا بوسعهم أن يفعلوا بينادقهم ضد المدافع ... ؟

فأحاطت سلمى بذراعها كتفي الصبية . ذلك أنها هي أيضاً لا تنسى . فالاحتلال ، والإذلال ، والتمرد ، والعجز ... ثم النصر . وضمت إليها صديقتها بقوة .

— يا أمل ، سوف ترحون الحرب ، كما ربحناها نحن في تركيا ضد الجيوش الأجنبية ! أنا واثقة من ذلك .

نحن ... من نحن ... ؟ لقد مرت سنوات وسلمى لا تستطيع أبداً ، أن توفّق بين عقلها وبين ما يبدو لها أنه مفارقة : أي انتصار بلدها ، وطرد أسرتها : لا بد إذن أن التاريخ قد ضلّ ...

وتابعت أمل كلامها فقالت :

— إن الأسوأ من كل شيء آخر ، هو أن الفرنسيين متأكدون من أنهم على حق . فهم يقسمون منطقتنا ، وشعبنا ، ويدّعون أنه ، في الحقيقة ...

وانفجرت سلمى قائلة :

— أية حقيقة ؟ أي الحقيقة التي ترغمهم على قتلکم ، والحقيقة التي أرغمت مصطفى كمال على طردنا ؟ ولطالما ظننت أنا أن هناك سوء تفاهم ، وأنه كان من الواجب أن نشرحه لهم . وكنت أؤاخذ أُمي على السكوت ، بدلاً من أن تعلن براءتها بأعلى الأصوات .

ولكن كم كنت حمقاء ! كنت أصغر من أن أفهم ... لا تضحكي ! فأننا لم نتجاوز الرابعة عشرة ، وهذا صحيح . ولكن ما هكذا يكون الحساب .

« لقد كبرت عندما اكتشفت أن النية الحسنة لا تنفع شيئاً . وأن المسألة ليست : « ما هو

الصحيح ؟ » ولكن ، من هو الأقوى ؟ » ومنذ أدركت ذلك ، توقفت عن التألم والتوجع ، وأقسمت أن أكون ذات يوم أنا الأقوى .

— وإذن ، فأنتما تتآمران ؟

واقتربت طالبتان ، ساخرتين ، وهما ماري لور وماري أنيس الجميلتان ، والمتعالتان ، ومن بنات ضباط كبار في الجيش الفرنسي .

وانتصبت أمل أمامهما ، وقد استعدت للقتال .

— ما أكثركما حصافة ! والواقع أننا كنا نتناقش في الطريقة الأنجع لطردكم من لبنان .

وكانت ماري لور تنظر إليها بشيء من التعاطف .

— أوه ، أوه ! هوني عليك ، يا صغيرتي ، فبعد كل حساب ، لولانا ، لكانت بلادكم ما تزال منطقة مستعبدة للعثمانيين !

وتدخل ماري أنيس قائلة :

— أنبوا أحاديثكم . فحولنا من يستمع إلى ما نقول . ولكن علمت الأمهات أننا نتحدث في السياسة ، إذن لكان عقابنا الطرد من المدرسة .

واحتجت سلمى بلهجة جافة ، قائلة :

— إن هذا لبالغ السهولة أن نهرب الآن بعد أن شتمتانا !

وهزئت ماري لور من صاحبها ، وقالت :

— انظري ، إن الأميرة تطلب تعويضاً . حسناً . إني أقترح أن نسوي النزاع فوق ساحة الرياضة . وأنا أترك لكما اختيار الأسلحة : إما العدو ، وإما القفز .

— القفز ! المظلة .

وكانت ماري لور أطول منها بعشرة سنتيمترات ، وسلمى تعرف أنه لن يكون لها أدنى حظ في التسابق بالعدو معها .

وتقع ساحة الرياضة في طرف جانبي من الأبنية الرئيسية ، حتى يتسنى للطالبات أن يتمرنن بكل هدوء .

أما على الطرف الأيمن ، فتوجد كومة كبيرة من الرمل ، فوقها ركائز متشابهة ، يمكن أن تثبت عليها القوائم المعدنية بالارتفاع المطلوب .

وتقترح ماري لور أن يبدأ بمترين ؟
— جيد جداً .

— وإذن فتبدئين أنت ، لأنك تعتبرين أنك المشتومة .

وكانت المراهقتان تتحدى كل منهما الأخرى بالنظرات . ولقد نسيتا أمل تماماً ، على كونها هي السبب في هذا الشجار . ولكن أتراها السبب أو المبرر ؟ الحقيقة أن ماري لور وسلمى تتحرقان على مثل هذه المجابهة . فهما تتشابهان ، في الزهو ، والعنف واللاتسامح . وكان في وسعهما ، في ظروف أخرى ، أن تكونا صديقتين . أما الآن فهما متكارهتان .

وحولهما كانت الطالبات يتجمعن ، منتبهات .

وتتطوع اثنتان منهما لرفع العوارض على أبعاد متساوية : عشرين وعشرين سنتمراً . ولديهما القليل من الوقت قبل نهاية الفرصة . وهناك طالبتان للمراقبة .

وأول قفزة كانت كلعبة أطفال .

وتعلن البنت المكلفة بدور الحكم .

— ٢ر٢٠ متراً .

وتندفع سلمى ، خفيفة . وتتبعها ماري لور ، بساقيها القويتين ، الشديدي العضلات .

— ثم ٢ر٤٠

هنا يصبح الأمر جدياً . وتقفز الواحدة بعد الأخرى ، متجمعة كل منهما حول نفسها ، ومتركة .

— ثم ٢ر٦٠ ، كما تقول الحكم .

ووقفت سلمى على العارضة. وسمعت تتممة. ولاحظت بين الطالبات المتجمعات هناك، وجه أمل الصغيرة فأشارت إليها باليد لتطمئنها. وهي عصبية بعض الشيء، إذ أنها لم تقفز من قبل قط، على مثل هذا الارتفاع. ولكن مع كل هذا الرمل، لا خوف من مشكلة. فتطوي ركبتيها. مرة، مرتين، هوب! رابحة.

ولم تكد أن تنهض من مكانها حتى هبطت ماري لور وراءها. فتصالبت نظراتهما، وترددتا لحظة، ثم تباعدتا.

— ٢٨٠ متراً.

وهدهوء تسلقت سلمى الدرجات. وشعرت بارتجاف غريب في صدرها. أما تحتها فيسود الصمت. وهناك عشرون زوجاً من العيون تنظر إليها. ولا مجال للتراجع.

فتتنفس بعمق: وهيا!

وما كادت تنطلق حتى عرفت. وكما لو أنها تضاعفت — سجّلت الكسر، وحرقة ضربة السوط، والألم اللا محتمل، وفي الوقت نفسه، تسجل نوعاً من الارتياح: لقد انتهى الأمر، وليس عليها أن تخاف.

وكانت الصرخات تدوي حولها، وكل شيء يدور. لا... إنها لن تتقيأ، إنها...

أين هي، وماذا حدث. ولم تغسل لها الأم جان وجهها بالماء المثلج؟ ولم هذا الوجه المرعوب؟

وعندئذ شدّها ألمٌ في الساق اليمنى إلى الحقيقة.

— لا تتحركي يا صغيرتي، ستصل عربة المستشفى. ولكن أي سوء تبصر. كان يمكن أن تقتلي نفسك. فلم قفزت من مكان بهذا العلو؟

وتردّ سلمى بتقطيب وجهها، وتقول:

— كنت أندرّب... كمقدمة للألعاب الأولمبية.

وينقلب وجوه البنات من القلق إلى الإشراق، وتكثر الضحكات. وكان هذا أكثر مما تتحملة ماري لور.

— إن الحق عليّ ، يا أمي فأنا التي ...

وقاطعتها سلمى بحدة :

— إنك أنت التي جعلتني أتذوق الرياضة . وكان عليّ أن أفهم أني لست بـحيث أضاھيك .

وتنهدت الأم جان قائلة :

— يا طفلي المسكينة . أترين إلى أين يؤدي الغرور والزهو بالنفس ؟

وأخيراً ، ها قد جاءت عربة المستشفى . وبعد ألف حذر وُضعت البنية الجريح حيث ينبغي .
وتدافعت بنات الصف ، ليقطن لها : إلى اللقاء . أما أمل فكانت تغص بالبكاء وتشهق ، وتقف إلى جانبها ماري لور شاحبة كل الشحوب .

— إلى اللقاء يا سلمى ، عودي إلينا بسرعة .

وتلتقي نظراتهما ، وتبتسم كل واحدة للأخرى . وتلاحظ سلمى بدهشة أنها سعيدة بأنها كسرت ساقها .

إنه كسر سيء . فقد أمر الطبيب بستة أسابيع تبقى خلالها في البيت بلا حركة . وكانت أمل تأتي ، كل يوم ، بعد الانصراف ، لترى المجروحة . وانقلبت الصداقة التي كانت تجمع بينهما إلى هوى .

— لن أنسى أبداً ما فعلته من أجلي . وفي المدرسة لا نتحدث البنات إلا عن شجاعتك .
وهن يقدرن الجميل الذي صنعه بعدم البوح بشيء . لقد لفتها درساً جيداً .

وتضم سلمى بين ذراعيها ، وتسوي خصلة شعر على الجبين المبلل بالعرق . وتنثر بعض القبل على يديها — والدفاتر منشورة على السرير — إذ يقدر أن سلمى تتابع الدراسة ، كما أن أمل تلخص لها دروس كل يوم . وهما لا تنتهيان من الحديث فيما بينهما .

وكانت أمل قد فقدت أمها في عمر الثانية . وهي لا تذكر منها شيئاً . وخالتها هي التي ربّتها ، وهي ابنة عم للست نظيرة ، سيدة الدروز .

— لم أر الست نظيرة إلا مرة واحدة في قصرها في المختارة في قلب جبل الشوف . ولكنني سأذكر

ذلك دوماً. كانت تجلس على ديوان واطيء، لابسة ثوباً أسود بسيطاً، وشعرها مغطى بوشاح أبيض، كالفلاحات عندنا. وكانت عليها سمة الملكة.

وتتذكر أمل أنه كان هنالك نحو من عشرين رئيساً من رؤساء العشائر، جاؤوا لاستشارة صاحبة قصرهم. وكانوا، قد تركوا بنادقهم وخراطيشهم التي تشكل كومة كبيرة في مدخل البهو، احتراماً لها. وهي تذكر وجوههم الخشنة، المخددة، تلك الوجوه التي لم تعد نراها الآن في المدن. ومع ذلك فإنهم أمام هذه المرأة الرقيقة، كانوا يبدون وجلين، خائفين، كالأطفال.

— وكانت الست نظيرة تكلمهم مطولاً، ثم تكلم كل واحد منهم على حدة. وكانت تطرح السؤال نفسه، مثبتة عينها الفاتحتين عليهم. وقد قبلوا جميعاً كلامها، وجاؤوا أخيراً فقبل كل منهم طرف ثوبها، كعلامة أخيرة على تبعيتهم لها. والذي أدهشني هو أنه مامن مرة رفعت صوتها، ولا قامت بحركة.

وتتمت سلمى، حاملة وقالت:

— إنها تشبه أُمي، أو التي كانت أُمي، على الأصح. مسكينة أيندجيم. فمئذ المنفى، تغيرت كثيراً.

— وأبوك؟

وتحوّلت عينا سلمى من لونهما إلى اللون الأسمر الغامق.

— لم يعد لي أب.

وتحزن أمل، وتقول:

— غفرانك، ماكنت أعرف...

— مامن إنسان يعرف، إلا أنا.

وعادت سلمى بعد شهرين إلى المدرسة على عصوين، ودخلت الصف. فاستقبلت بحماسة. وحتى البنات اللواتي لم يكلمنها قط، تجمعن حولها، عجالات.

ومن آخر الساحة، كانت ماري لور، تتقدم غير مبالية. وقالت لها:

— إني سعيدة بأن أراك ثانية .

وهي جملة بسيطة . ولكن أحداً لم يخطيء في فهمها : إذ صدرت عن رئيسة الرابطة الفرنسية المارونية ، مما يعني أنها تؤكد المصالحة .

أما بالنسبة إلى سلمى ، فإن النهار مضى كعبد ، وحتى الراهبات كن يقدمن لها مختلف صور العباية .

وفي المساء ، اقترحت عليها ماري لور أن ترافقها . وكما هي الحال مع أكثر الطالبات الفرنسيات ، فإن تحت تصرفها عربة لها سائق ينتظرها على باب المدرسة . و كادت سلمى أن تقبل عندما فاجأت نظرة أمل الحزينة .

— إن هذا لطيف منك . ولكنني أحب أن أتنفس الهواء الطلق . وشاءت أمل أن تحمل لي كتبتي .

ولم تُخدع ماري لور بالكلام ، فهزّت كتفها ، وقالت :

— إني آسفة ، وكنت أظن أن لدينا أشياء نقولها لبعضنا . ثم أضافت : ولكنك على حق ، بلهجة اللامبالية ، التي لا تحسن إخفاء خيبة أملها . فالوفاء دائماً في المقام الأول !

ورأتها سلمى تبتعد ، وقلبها حزين لأنها رفضت اليد الممدودة ، وكانت تشعر بأنها أخطأت . وعبثاً حاولت أن تفكر في الأمر ، وأن تبرّر ما فعلت — فهل كانت تستطيع التخلي عن أمل التي كانت إلى جانبها حتى في أسوأ الظروف ؟ وأخيراً تضاعل الفرح بذلك النهار . وحتى الشمس ، فإنها فقدت بعض حرارتها .

وعندما كانت الصبية أمل الدرزبة إلى جانبها تسخر مما حدث وتقول : انظري انظري . أفتكون الحميلة اللامبالية غيري ؟ وتدع المجال لانطلاق غضبها .

— آه ، أرجوك أن تحفظي لنفسك تعليقاتك !

ولكنها شعرت مباشرة بالندم أمام الوجه الجريح : « ألها أسوء أيضاً ؟ فماذا يحدث لي ؟ ولماذا كانت الصداقة حصرية . ولم يجب ، بأي ثمن ، أن يختار كل منا معسكره ؟

وبعد عدة أيام ، وفي قلب درس الأدب . وعندما كانت الأم تيريزا تتفنن في أن تشرح لطالباتها أخلاق كورني ، المتعارضة مع لأخلاقية الشخصيات الراسينية ، ضحايا أهوائها ، انفتح

باب الصف لتظهر منه الأم المديرة، مصحوبة بسيّد متميِّز جداً، يحمل طربوشاً على رأسه وعصا ذات يد من الفضة .

ولدى أول ضربة من يد الأم تيريزيا، وقفت الطالبات جميعاً . وفي الضربة الثانية، حاولت كل منهن في المكان الضيق التي هي فيه، أن ترسم بقدر ما استطاعت، تلك الركعة الخفيفة، التي تشير إلى الاحترام، على حين أنهن كن من خلال جفونهن المنخفضة نصفياً، يفحصن الأجنبي القادم .

وهمست الأم مارك بصوتها الغنائي قائلة :

— أعذرونا على قطع درس، أمي، ولكن سعادته الداماد أحمد نامي بك، حاكم سورية، يشرفنا بزيارة مؤسستنا . وعدا ذلك فإن ابنة أخته (ابنة أخت زوجته في الحقيقة) بينكن في الصف . فتعالى يا سلمى وحيي قريبك .

وأقبلت المراهقة، محمّرة خجلاً، وتحاول وهي على عصويها، أن تنحني انحناء الاحترام التي لا بدّ منها، والتي قطعها عليها ضحكة الحاكم الكبيرة .

— كنت أقل خجلاً . وأنت بنت صغيرة ! هيا يا ابنة أختي، لا تعقدي الموضوع بكل هذه الحركات، وإلا فإنك ستكسرين ساقك الأخرى .

ويقصر لها خدها قرصة أبوية .

— هيا، إحكي لي، ما الذي حدث لك ؟

وثمنت سلمى لو اختفت تحت الأرض . فهذه هي اللحظة التي ستلاحظ فيها من جديد، على حين أنها بدأت بأن تُقبل .

— ليس هذا بشيء هام، يا صاحب السعادة .

— أكانت هنالك مسابقة ؟

— بمعنى ما .

وهتف الحاكم وقال :

— برافو، مضيفاً ببحث لمن يريد أن يسمع من الراهبات: إني ألاحظ هنا جيداً آثار الدم العثماني. فتابعي، يا ابنة أختي، حديثك.

ويحمرّ لون سلمى احمراراً شديداً. ومن جهة أخرى، فكأنما شاء القدر أن يزيد في اضطرابها، عندما وجدت أن اثنين من المصورين يتبعان سعادته كظله، ويصورانه حيثما كان، ويُصورانها معه بطبيعة الحال، فيتخذ هو ما شاء من أوضاع، ويضع يداً حامية، حول كتفي الفتاة، حتى إنها لتبكي من الغضب لو استطاعت. فكأن كل جهودها، انتهت إلى الإحفاق: وغداً، ومهما تفعل، فإن رفيقاتها سيعاملونها، كفتاة سليطة، وقحة.

ولكنها في الغد، وعلى أكبر دهشة منها، بدا لها أن رفيقاتها كن متأثرات. ونشرت الجريدة الصباحية L'orient في زاويتها المخصصة للشؤون العامة، صورة لسلمى والحاكم مع تعليق عليها هو قولها «الأميرة الشجاعة الصغيرة». وسأل الأهل بناتهم، وقد لفت نظرهن وجود بنت أخت الداماد، الذي تُعلّق عليه، هذه الأيام، آمال كبيرة. وحقاً فإن الداماد قد عيّن حاكماً لسورية من قبل المفوض السامي الفرنسي، هنري دوجوفيل. ويرى هذا الأخير أن الداماد، من حيث أنه عثماني، وقريب من رؤساء الدروز، ولكنه كذلك صديق لفرنسا، هو أفضل من يُعيّن ليفاض في إيجاد حل لحرب الجبل المريعة هذه.

وكانت الأحاديث حول موائد فطور الصباح، أحاديث غنية الحيوية. ولقد سأل أكثر من أب ابنته: «لماذا لا تدعين هذه الفتاة الصغيرة؟ فهذه علاقة لا يصح إهمالها!». أما الأمهات فأنهن وافقن على هذا الاقتراح، وقلن إضافة على ذلك: «صحيح أنها مسلمة، ولكنها أخيراً أميرة...».

وخلال أسبوع، كانت سلمى التي طالما سمعت من رفيقاتها أحاديث رواحن وبجيهن، واستقبالاتهن، دون أن تدعى قط إليها، تتلقى نصف دزينة من الدعوات. وكانت تشكر عليها بأدب؛ وبها رغبة في أن تشتمهن. ولكنها كانت تكتفي بالجواب: إنها ستسأل أمها قبل الرد.

ومن بعيد، رأت ماري لور تشير إليها إشارة صغيرة، كما لو أنها تريد أن تقول: «لا تأخذي هذا كله مأخذ الجد!». فهذه على الأقل لم توجه دعوة. وسلمى تعترف بجميلها هذا، لها.

وأنا، أنا، ألا أوجد؟ فأنا إذن لاشيء في أعينهن؟ ولقد ظننت يوماً ما أنني كسبت مودّتهن! ولكن كم كنت حقاً!

وبضربات عنيفة من عصويها، كانت سلمى تُطير الحصى من الطريق، دون أن تنتبه إلى

أمل التي وضعت يدها بيدها، متسائلة باضطراب: ما الذي يُسبب الدموع، لأول مرة، من عيني صديقتها؟

- لا تكوني تعيسة، فأنت تشرفين بذلك أكثر من استحقاقهن.
- إني أعرف أنهن لا يساوين هذا العناء. ولكن يا عزيزتي أمل، إني بحاجة إلى أن أُحِبَّ ...
- وردّت الصبية خجلى: «أنا أحبك يا سلمى. وأعرف أن هذا ليس بالشئ العظيم».
- ولكن بلى، يا أمل. إن هذا كثير وأنا أقدره حق التقدير!

وتحاول سلمى أن تبسم، ولكن فمها المرتجف يهبط بالابتسامة فيجعلها تكشيرة. وتضغط على يد رفيقتها، وتقول: أصبح يا أمل، أنك تحبيني، ولكن لماذا؟ لأني في هذا الصف مثلك، كبطة عرجاء بين الأوز العراقي؟ لأننا مسلمات أمام المسيحيات اللواتي يكرهنا؟

ومن خلال الدموع التي لا تحاول هذه المرة أن توقفها، تعود سلمى لترى بخيالها قصر أورتاكوي حيث كانت توجد «سلطانة صغيرة» شيطانة قوية الإرادة، تفرض الإعجاب والحب على الأطفال الآخرين. ولكن كم يبدو هذا بعيداً... غوليفيلس وأنت يا أحمد. أتذكران سلماً؟ كنتما تحبان. وكان هذا يبدو لي طبيعياً... أما الآن فلم يبق لي أحد. وحتى البابا... كلا، فأنا لا أريد أن أفكر فيه بعد الآن. فتهز رأسها، وتمسح دموعها بظهر إحدى يديها. ولكن ماذا تقول؟ إنه يبقى لي الأهم بكثير، أبنديجيم. فهل تحبني أبنديجيم!... بالتأكيد... فأنا ابتها... ولولا ذلك، أكانت تحبني؟ وهل تحبني لذاتي؟

وفي الأسابيع التي تلت، كانت بطاقات الدعوة تزداد. ولكن سلمى على أكبر دهشة من أمها، ترفض، حتى مجرد النظر إليها. وكانت تدّعي أن هذه الاجتماعات التي لا تهتم فيها كل واحدة إلا أن تكون صاحبة الثوب الأجمل، والتي يكون فيها الموضوع الأول للحديث هو الكلام بسوء عن الغائبات، هذه الاجتماعات تضجرها.

ولكن السلطانة لا تلح على شيء آخر. فهي تحذر من خلال عناء ابتها، وجود جرح في نفسها، ولكنها تعرف أن سلمى لن تتكلم إلا عندما تقرّر هي. وتفكر: «أهذه البنية التي كانت شديدة الثقة بالآخرين، مطمئنة بصورة طبيعية لهم، تصبح الآن حريصة على كتمان سرها في نفسها! وأقول أحياناً لنفسني: إن هذا خطأي أنا، فأنا لا أخصّ ولدي بالكثير من العناية، لاها، ولا لأخيها خيري... لم تُعْذِبي شجاعة

على القيام بذلك ... حتى ولا الرغبة ... وعدا ذلك فماذا أستطيع أن أقول لهما؟ وعبثاً بحثت في نفسي، فلا أجد إلا الصمت ..» .

وتأمل سلمى الجالسة بين زينيل والكالفات، نقوش السجادة الأرابيسك التي تكاد أن ترقص . ولقد سمعت ماري أنيس تقول إن أستاذاً في هذه العصورنيات جاء ليعلمهن الشارلستون فتتخيل الضحكات، والموسيقى، وكأن ساقها تمشي عليهما التمل ولكن ماذا يجدي أن تحلم؟ فهي لن تذهب .

وأصلاً، فإنها لا تملك ثوباً مناسباً تضعه على جسمها لمثل هذه الزيارات . ثم إن الزيارة تقتضي أن يُردَّ عليها بمثلها . فأين نجد المال اللازم لذلك؟

وقد أصبحت الأسرة تعيش على ميزانية صغيرة . وفي كل شهرين أو ثلاثة، وعن طريق ابن عم ميمجيان آغا، يأتي صائغ قضى شبابه في استامبول، وهو مخلص لهذه الأسرة، فتنبيه السلطانة قطعة مجوهرات، تتنازع عليها نساء المجتمع الماروني، اللواتي اغتتين من جديد . لا من أجل جمال الحجرة الثمينة، ولكن من أجل أن يحظين بحمل مخلفات هذه الأسرة العثمانية التي كانت مسيطرة في بلادهن مدة أربعة قرون .

ولكن مقتنيات الأسرة من الحلي ليست مما لا ينفد . ويحدث أحياناً أن تتخذ السلطانة لهجة قاسية، وأن تتكلم عن ضرورة الاقتصاد — مما يضحك كل الموجودين في البيت . ذلك أن الأميرة لا تملك أي فكرة عن المال . ولقد رفضت باستمرار أن تراجع الحسابات — وتقول: « أنتظرون إليّ كباتعة؟ أو كامرأة قادرة على قلب القطع النقدية التي تبعث على التقرز؟ » .

وكان زينيل هو الذي تولى الشؤون المالية للبيت . فهو منذ الآن الرجل الوحيد في الأسرة . ذلك أن خيرري في السادسة عشرة من عمره، ليس إلا صبيّاً يكثر من الحرد . أما وأن السلطانة قد سعدت بخلاصها من هذه المهمة « التي لا تحتمل » فقد تركت له كامل الحرية في التصرف؛ وما من مرة تتقدم بملاحظة ما، أو تقول كلمة حول تواضع المائدة التي كثيراً ما تكون هزيلة . فهي قادرة فقط على التحليق فوق هذه التفاصيل .

وبالمقابل فإنها لا تعرف أن ترفض شيئاً على الفقراء الذين يقرعون بابها، فكرمها مشهور لدى سكان الحي جميعاً، وما من إنسان يفكر بجعلها تلاحظ بأن الدنيا قد تغيرت، وأن عليها أن تكون أقل

كراً . ولا سيما سلمى . فلقد رأت دوماً من حولها يعطي للأصدقاء والخدم والعبيد والمعوزين . كانوا يعطون . وكان هذا أمراً طبيعياً ، يؤلف جزءاً من نظام الأشياء . أما اليوم ، فإنه لم يعد هنالك مال . فهل هذا سبب كافٍ للتغيير ؟ الحقيقة أنها ، كأماها ، لا تستطيع أن ترى عينين تتوسلان من دون أن تستجيب لهما . ذلك أن فعل الخير يسرها أعظم السرور .

وذاًت يوم ، كانت إحدى رفيقاتها تراها تفرغ مالدنيا في حاملة النقود ، في كل مرة يمر بها سائل ويمد إليها يده ، فاستاءت من هذا ، وقالت لها :

— ولكن توقفي عن القيام بدور الأميرة !

وفي تلك اللحظة ، دهشت سلمى من هذا القول . أما فيما بعد فقد تساءلت عما إذا كانت تعطي ما تعطيه لتحفظ بوهم التميز عن الآخرين ، أو بوضع لم يعد لها أبداً . وقد أقضتها هذا التساؤل ، بعض الوقت . ثم إنها قالت لنفسها ، إنها لا تزيد على أن تنقاد لغيرتها : وكما أن واجب الجندي أن يقاتل ، وواجب الطبيب أن يُعنى بالمرضى ، فإن من طبيعة الأمير ، على ما ترى هي ، أن يظهر بمظهر أمير .

وجاء موزع « بربري » يحمل رسالة . ولما كان مزهواً بلباسه الأحمر الرسمي الذي يبرز عظمة بشرته السمراء ، فإنه وقف على مدخل البهو ، حين كانت السلطانة تمزق الغلاف المزين بتاج ذهبي سميك . وتقرأ :

« وصحيح أن « الخديوي » حصل بفضل الإنكليز ، على لقب « ملك مصر » ، على ما كانت تفكر به ، متسلية ؛ وإذا هو بقي على شروط الطاعة المعروفة ، فلعله يصل ذات يوم ، إلى لقب « الأباطور » . وكان التسامح الساخر ، الذي كانت تستقبل به ، بوجه عام ، صغائر الغرور لدى أمثالها ؛ قد تلون اليوم بشيء من الزهد : وهي غير قريبة من نسيان ما وقع سابقاً ، وهو أن السلطان الكريم قد رفض عام ١٩٢٤ أن يستقبل الأسرة العثمانية المنفية .

وتدل الكتابة العالية والمركز عليها على شخصية تعي أهميتها ، وهذه بنت أخت للملك فؤاد ، هي الأميرة زبيدة ، تمر ببירות وتحب بهذه المناسبة أن « تسعد » بمحادثة السلطانة .

« أوتسعد . فعندما كنا حماهم ... ولم يمر وقت طويل على ذلك ، أي منذ اثنتي عشرة سنة ، كانوا يطلبون التبشرف باستقبالنا لهم ! ولكن هيا ... سنستقبلها بشكل لائق . ولكنه ليس من المؤكد أنها ستجد فيها ... ما يسعدها ! » .

وأخذت السلطانة واحدة من أواخر أوراقها التي تحمل شعارات الأباطورية، وخطّطت، مع بسملة خبيثة، بضعة سطور، تدعو فيها الأميرة إلى زيارتها في الغد، في ساعة الشاي.

وكان العقد الثقيل المؤلف من حبات الزمرد يتوهج، وفي المركز ماسة كبيرة كعين السّمائي تتألق بأشعتها المتنوعة الألوان.

وعلى العتبة وقفت الأميرة زبيدة مبهورة، حتى ليصعب عليها أن ترفع عينها عن عنق السلطانة.

— ادخلي، يا عزيزتي، أرجوك.

وفي الحال تعرّفت زبيدة على اللهجة الأباطورية، حيث يختلط التهذيب المرفف، والسمو الرفيع، مع أكبر قدر من الظهور على السجّية، هذه اللهجة التي تملؤها وهي فتاة شابة، بالإعجاب، والحمد، والتي لم تصل، مع جهودها كلها، إلى تقليدها.

وعلى الكرسي العالي، في آخر الصالة، كانت السلطانة في شكلها القاتم، تنتظر، بلا حركة.

وسرعة تعود الأميرة إلى نفسها، وتنحني بلطف مقدمة أعمق تحياتها وتمنياتها، واليد على القلب، ثم على الشفاه، ثم على الجبهة. وعندما تنتصب واقفة، ترى نظرة باردة، كلها تساؤل. ومن المؤكد أن مضيفتها كانت تتوقع ثلاث انحناءات، كما يقضي بذلك العرف في البلاط العثماني. وفي هذه القاعة الضيقة في بيتها البيروتي المتواضع. تبقى السلطانة «سلطانة» أكثر منها في أي وقت آخر. وتعود هذه المرأة الشابة، بعناء كبير، فتنقاد لهذا العرف، موائمة بين تمنياتها وبين المكان الشديد الضيق، في الوقت الحاضر، محمّرة خجلاً منذ البداية بعد أن أعيّدت بصمت، ولكن بوضوح إلى مكانها.

وأخيراً تبتسم لها السلطانة، وتشير إلى مقعد قريب منها لتجلس عليه. ولا تدرك ما وراء ذلك إلا بعد أن جلّست: ذلك أن المقعد الذي تجلس عليه الأميرة أدنى ارتفاعاً من الكرسي العالي الذي تجلس عليه السلطانة، مما يرغم الأولى على مد عنقها لكي تكلم مضيفتها: ذلك هو مبدأ العرش ومقاعد الدوقات الصغيرة.

وكانت الأميرة التي شعرت بأنها تضيق بجلستها أكثر فأكثر، تتساءل عما إذا كان يجب عليها

أن تعتبر نفسها مهانة، وأن تعرب عن ذلك . وفي هذه اللحظة بالضبط تتكلم السلطانة بأعذب لهجة في العالم لتشكرها على إضاعة جزء من وقتها الثمين للقيام بزيارة لمسكينة منفية . ترى هل كانت تسخر؟ ولكن ما الوسيلة لاتخاذ موقف يائس، أمام هاتين العينين الברاقيتين، وهذه الكلمات التي تقطر عسلاً...؟

لكن الساعة التي تلت كانت من أطول الساعات التي عرفتتها الأميرة زبيدة في حياتها، فقد جاءت متوجة بثروتها، وقوتها، لتلاحظ شقاء أسرة كانت دوماً تغار منها، وفي نفسها أن تتألم، وتواسي، بل لتقدم بلطف وذوق، مبلغاً صغيراً خيئ في أعماق حقيبتها . وها هي الآن تستقبل بنبل وتعاضم كانا أكبر مما عرفته في الأيام التي كانت فيه هذه الأسرة هي الحاكمة .

وتساءلت الأميرة عن الأقاويل التي كانت تزداع عن فقر السلطانة — وحتى عن شقائها على ما كان يقول بعضهم . ترى كيف أخذت بها وتحدت إلى هذا الحد . وحقاً فإن البيت ليس كبيراً، ولكن حلي السلطانة، وفخامة الاستقبال، حيث كانت تتتابع المشروبات، والحلوى المقدمة في آنية من أفخر ما يوجد من نوعها، أي من الفضة المذهبة، وعلى أيدي ثلاثة من الخدم الذين يتقنون المهنة إلى أبعد حد، كل ذلك لا يدل على الضيق : فماذا تفعل؟ وكان التساؤل مثيراً للغاية، وكان من المستحيل طرحه .

ومنذ أن حانت فرصة طبيعية، عادت الأميرة فقدّمت شكرها، وطلبت الإذن بالانصراف، دون أن تنسى التمنيات — التي قدمتها، ثلاث مرات، دون أن تدير ظهرها، أمام السلطانة الجالسة على كرسيها العالي، والتي تبسم لها في طيبتها العظيم .

أما الشيء الذي لن تسمعه الأميرة المنكودة الحظ زبيدة، وما هي بعيدة عن تخيله، فهو انفجارات الضحك لدى السلطانة خديجة بعد مغادرتها مباشرة .

— حقاً لم تكن تلك المرأة المتصنعة تُصدّق ما تراه عينها ! وأعتقد أنني لقّنتها درساً جيداً . ولن نحصل بسرعة على زيارات من هذا النوع . هيا، يا أبنائي، تعالوا، فالحلوى لذيدة جداً !

فجاءت سلمى وخيري وزينيل والكالفتان المنتكرتان بزي القائمات بالخدمة، وجلسوا جميعاً على الطاولة . وتبعهم رجل قصير، أجلسه خديجة إلى يمينها، وملأت له هي بنفسها صحنه . إنه صديقها الصائغ الأرمني الأمين . وسيغادر المنزل بعد ساعة، وفي كيسه الجلدي الكبير، ذلك العقد الفخم، وصحون الفضة المذهبة التي أعارها للسلطانة بهذه المناسبة .

٣

أرسالة لي ؟ وتقول ذلك سلمى مندهشة وتنظر إلى الطابع الذي يدل على أن الرسالة من العراق ... من إذن يمكن أن يكتب إليها . فهي لا تعرف أحداً هناك ؟

وكان الموزّع ، عادةً ، يضع الرسائل في العلبة الخضراء التي يملك زنبيل مفتاحها إلا أنه هذه المرة استوقف الفتاة عندما كانت تترك البيت لتذهب إلى مدرستها ، وقال لها :

— إن عليك أن تدفعي عشرة قروش . فالطابع الموجود لا يفي بالأجر المطلوب . هاكِ إذن ، فوقّعي هنا ، شكراً يا آنسة .

وعاد على دراجته مصفراً في الضياء المذهب لصباح هذا اليوم من شهر أيار / مايو / .

ورازت سلمى الظرف بفضول واضح ، أما الخط العالي ، الرقيق ، فيبدو أنه مألوف ، معروف عندها . ومع ذلك ... ويتعمّد ، دسّته في جيبها . ذلك أنها متأخرة عن امتحان الهندسة .

وتسرع الخطأ . وما إن دارت على زاوية الشارع ، وأصبح مستحيلاً على الكالافات أن يرينها ، من وراء النوافذ ، حتى بدأت تعدو : فأسرعي يا سلمى ، إنه ليس لديك إلا عشر دقائق قبل أن يقرع الجرس .

وكانت المسألة سهلة. وعندما خرجت الطالبات ، تبادلن أجوبتهن . ولكن سلمى ليست مستعدة الآن للبحث في المثلثات المتساوية الضلعين ، ولا في المتوازيات الأضلاع المستطيلة .

— اعذريني ، إنهم ينتظرونني .

وبلا شروح أخرى ، تركت هناك أمل التي تريد التحقق من حلولها . فلم قالت هذا ، وهي التي تكره الكذب ؟ ومن ينتظرها غير هذه القطعة من الورق القابعة في أعماق جيبتها ؟ وبدلاً من أن تمشي في طريق البيت . عادت فالتجعت نحو الكورنيش ، على امتداد البحر . ومشت ببطء ، لتتذوق طعم الشمس ، ذلك أن بين يديها الوقت كله . وكانت تأبى ، وهي مبتسمة ، عروض الباعة الصغار الذين يقدمون « البوظة » والليموناضة ، والذين يجنون الثروات الطائلة في هذا الفصل . ووصلت إلى مكان غير بعيد عن فندق باصول القديم ، وهناك في إحدى الدخلات ، كانت تعرف مكاناً هادئاً .

وجلست على العارضة الخشبية ، وبدأت تلهو بالرسالة . فأفضل لحظة ، هي التي تكون السابقة ، لحديث ما . إذ يمكن أن تتخيل الفتاة الأمير الرائع الذي لحها من بعيد ، والذي يكتب إليها لمصارتها بحبه . ولكن عندما تفتح الرسالة ، ستلاحظ بصورة لا تتغير ، أن الذي يكتب ، هو ابنة عم أو خالة ، تلوم على أن أخبارنا لا تصلها . أما أبناء العم ، أنفسهم ، فإنهم لا يكتبون أبداً .

وعندئذ تفتح سلمى الرسالة :

بغداد ١ أيار / مايو / ١٩٢٦

ابنتي الصغيرة العزيزة

أرسل إليك هذه الكلمة كما لو أنني أرمي بزجاجة في البحر . ذلك أنني ، منذ سنين ، كتبت لك مرات عديدة . ثرى هل ضلّت رسائلي الطريق ، أو أنك أبيت الجواب ؟

إن أباك بائس جداً ، كما تعرفين ، على أنه فقد سلماه الحلوة . وهذا بسببي ، بالتأكيد : فلقد اخترت بلادي ، معتقداً أن بها حاجة إليّ . فأني غرور ...

وبعد ذلك ، ما من يوم يمضي دون أن آسف على ذلك القرار . فهل تستطيعين فهمي ... ومساحتني ؟ إنني لأشعر بوحدة موحشة كبيرة ، ولكن أحببت أن أراك تكبرين . لقد كنت طفلة رائعة ، ويجب أن تكوني الآن فتاة جميلة .

ولقد حسبت أنه ربما كنت أنت تحبين أن تري أباك الكهل بعد هذا الزمن الطويل . وأنا الآن

قصل في بغداد . وهي مدينة رائعة ، فهل يروقك أن تعرفيها ؟ إن كان ذلك ، فاكتبي إليّ به ، وأنا أرسل إليك مباشرة بطاقتي سفر لك ولكالفاك . ويمكن أن تبقي إلى جانبي بضعة أشهر أو أكثر إن رغبت بذلك : فما من شيء يجعلني أعظم سعادة .

وأنا أنتظر جوابك بلهفة

أبوك الذي يحبك .

ملاحظة : لا ريب أنني أحب أن أرى خيرتي ، ولكن يجب قبل كل شيء أن ينهي دراسته . وأكلفك بنقل احتراماتي إلى السلطانة . وليحرسها الله ! .
يا أبي ... ! يا أبي ؟

سلمى مذهولة من الحقد ، من السعادة ... لماذا تفعل بي هكذا ؟ وماذا فعلت لك ، أنا ؟ إنك تتخل عي ، ثم تعود فتأخذني ، إنك تحبني ، بل لم تعد تحبني ، بل قد صرت تحبني من جديد . ترى ما أنا وماذا أنا بالنسبة إليك ؟

كان هنالك شبح صغير على المقعد ، يضم الرسالة منحنيًا على نفسه تصدر عنه شهقات مرة ولذيذة ... لقد أحبتك كثيراً وكرهتك كثيراً ، لأنك لم تعد تحني !

وتقلص الوجه وانفتح الفم لصراخ أخرس ، في صمت خانق .

وتمرّ أحد الناس ، فيبطيء في مشيته ، مستغرياً هذه الفتاة التي ينفجر بأسها ، بهذا العنف . أما هي فإنها لا تراه ؛ ولا وجود عندها إلا لهذه الرسالة التي في يدها .

« لقد شعرت بغياي ، واشتقت إليّ ؟ » — وأنا ؟

وهل تساءلت كيف كانت ابتك الغالية ، تتحمل خيانتك ؟ ذلك أنك خنتني . فمنذ وقت طويل ، كنت تحلم بالغياب عنا ، وكنت أحسّ بذلك . وكان غياك يزداد أكثر فأكثر . ففي البيت كان كل شيء يرهقك ، وكنت تريد استعادة حريتك . أما الأمر فلم يكن بالنسبة إليك إلا مبرراً .

يا أبي ...

لقد عتبت عليك ، وخاصةً لأنك تركتنا دون أن تقبلني ...

فلو أنك تكلمت لكان كل شيء أسهل بكثير .

أوكنت تظن أنني لأفهم ؟ أو كنت تسيء معرفتي إلى هذه الدرجة ؟ ففي عمر الثالثة عشرة ، لا يكون الإنسان طفلاً . وكثيراً ما يعرف الأطفال ما يجري أكثر من الكبار وأفضل ، لأن هؤلاء يتعاملون لحماية أنفسهم .

أما أنا فلم أكن مصفحة بغلاف حام . وكنت أريد أن أحسّ بأعصابي ، والتعمّق في الأمور من خلال الأكاذيب ، والظواهر المضلّة . وكنت أعرف فقط أن الحياة هي هذا . وأنه ليس هناك من طريق آخر .

وهذا أمر مرهق ، وهو يحتاج إلى قوة ... وأنا قوية عندما أشعر بأنني محبوبة . ولقد انتزعت قوتي عندما تخلّيت عني ، دون أن تخبرني .

لقد تأملت كثيراً ، يا بابا ، لو كنت تعرف ...

ومن غير أن تشعّر ، صرخت سلمى . والشمس تدور وتدور بين دموعها . وتحسّ فجأة بتعب شديد ، وبرغبة في الدخول إلى ماتحت الأرض ، والاختفاء في أعظم نقطة منها ، هادئة .

ولكن كم قضت جالسة على تلك العارضة ؟ لقد بدأ البحر يحمرّ عندما عازمت على العودة إلى البيت .

واستقبلتها هتافات مجنونة : « أين كنت ؟ » و « ماذا حدث ؟ » « وهل جُرحت » . وكانت الكالفتان تدوران حولها كما لو أنها صوص عثر عليه من جديد . وكان زينيل في البهو يحاول للمرة الألف أن يتصل بالشرطة ، فأذهلته عودتها ، وانفتح فمه ، كمستقبل في الهواء ، على حين أن خيرى ينفجر من الضحك .

— كنت أقول ذلك لكم . كانت تنزه ! لم يكن هنالك معنى لكل هذا الذي فعلتموه ! وفهمت السلطانة من خلال نظرات ابتها ، الغريبة ، أن شيئاً خطيراً من نوع ما ، قد حدث .

— ولكن ماذا هنالك يا سلمى ؟

ولكن الفتاة لم تسمعها ، بل دارت نحو زينيل ، ونظرت إليه بقسوة قاتلة .

— من الذي أخذ الرسائل التي كان أبي يرسلها إليّ خلال سنتين ؟
فساد صمت مفضوح : إن هذه أول مرة منذ المنفى ، يجرؤ فيها أحدهم على الإشارة إلى
خيري رؤوف بك ، أمام السلطانة . ولكن سلمى لم تعد تهتم بالمواضعات . وثار غضبها ، وكرّرت
السؤال مرة ثانية مقطعة كلماته :

— من الذي أخذ رسائل أبي ؟ من ؟
وبردة كبيرة ، قاطعتها السلطانة ، قائلة .
— عودي إلى هدوئك ، يا أميرة ، وتوقفي عن اتهام زينيل . فأنا التي أخذت الرسائل ،
ومزقتها .

وأسقط في يد سلمى ، ونظرت إلى أمها .
— أنت ، أيندجيم ؟ ولكن لِمَ ؟ وكنت مع ذلك تعرفين كم أعاني من صمته !
— كنت ستألمين أكثر بكثير لو أنك قرأتها !
وعادت السلطانة إلى هدوئها ، وأخذت بيد سلمى .

— كنت ستمزقين ، يا بنيتي الصغيرة ، وكنت طرحت على نفسك ألف سؤال . واعتقدت
أنه كان من الأفضل لك أن يكون الانفصال واضحاً ما دام قد وُجد . وفي البداية كان ذلك قاسياً .
وأنا أعرف ذلك . ولكن قليلاً قليلاً استسلمت لما لا بدّ منه ، وبدأت تنسين .
— أنسى ؟ أوه يا أيندجيم . كيف اعتقدت أنني أستطيع أن أنسى أبي ؟
وتتردد السلطانة :

— لقد فعلت ما فعلت من أجلك وأنا مستمرة في الاعتقاد بأنني محقة : أنظري ، في أية حال
أنت الآن .

— ... بسبك ، وبسبب عمايتك ! كانت عينا سلمى تلهيان ، فعصّت على شفيتها .
ويجب أن لا تقول الكلمات التي لا يمكن ترميم آثارها . ولكن ماذا ؟ أتهرب ... ويبدو لها الباب بعيداً
جداً ... أم تدخل إلى غرفتها ، وتغلق الباب عليها ... فهي لا تريد أحداً ، ولا تحب أن ترى أحداً ...
وسقطت على الأرض .

— « ستقتل أباك وأملك ! » هكذا كانت تقول الأم بارزانيه ، وإنها الوصية السادسة أو السابعة ؟

— حقاً إن رأسك يشبه المصفاة
— نعم ، يا أمي أنشيليه
ولكن عندما يأتي الجد
سيشققك من الأرحل
وسيعلمك
أن تروي في كل مكان
أن السلطان مجنون
كم أنا برداة ...

برد في الصباح
كصبي شيطان
وحر في الليل
ومخنوقة في الخزانة^(١)

... ما أكثر الناس ! من هن هؤلاء النسوة في لباسهن الأبيض وهن ييكنن ؟ وهذا الثقب الذي يكر بلا انقطاع ، هل هو ... ؟ لا ! لا تقبروني . إني لست ميتة . قفوا !

— إن المسكينة لا تعي أنها ميتة .
— ولكنني لست ميتة !
— وهان الخنون يدهمها ، بزيادة !

وأي بؤس عليها أن تفرضه على أمها الرائعة ! إنها لم تكن قط عاقلة .

— ثم إن أباه ميت من شدة الحزن . وإنها هي التي قتلتها .
— بل هذا خطأ ! إن أبي يحني ، فأنا صغيرته الغالية .

ولكن ماذا يعتنن الآن ؟ « ليحفظ الله الملكة » ؟ . إن هذا أطف . ولكن كيف ؟ أفهدا ليس من أجلي ؟ أولست ملكة ؟ ولكن إذا كنت أنا الملكة ، لأن أبي هو الملك ، أما أمي ؟ مسكينة ماما ، إنها ماتت وهي صغيرة جداً : ولست أنا الذي قتلتها .

(١) الكلام هنا تعبير عن هديان سلمى بعد أن فوجئت بأن أمها كانت تحرمها من قراءة رسائل أبيها .

— أرجوك يا دكتور، قل لي الحقيقة. هل ستشفى؟

وخديجة السلطانة شاحبة الوجه، فمند أسبوع وهي تسهر على صحة سلمى. وتأتى أن تتركها لحظة واحدة. كما لو أن حضورها وحده، يحول دون استفحال المرض.

— إني لأعرف، يا سلطنة. إنها صدمة على جسدٍ هو في الأصل ضعيف. هل من سوابق من هذا النوع في الأسرة؟

— لا كهذا تماماً، ولكن أي، كانت تتباه نوبات اكتئاب.

— عفوك يا سلطنة. يجب أن أعرف الحقيقة. هل كان يمر أبوك بنوبات هذيان.

— إني أجهل ذلك يا دكتور— وتشعر السلطانة أنها ستصاب بالإغماء— لقد كنت صغيرة جداً، عندما كان أبي يمرض، وكانوا يستبعدوننا. ثم إنه شفي فيما بعد.

فانتصب الدكتور من جديد. وانتفخ جذعه، ووضع باهمه على صدرته.

— وإذن فإنك لم تعرفي قط ما إذا كان أبوك قد أصابته نزوات جنون، أم لا، وإبتنتك، فيما ترين، لا تعرف كذلك. إن هذا يفسّر كل شيء!

— إني لأفهم.

ويصلح الطبيب نظارتيه، ويقول:

— إني لأظن أنك سمعت حديثاً عن الدكتور فرويد. فهو طبيب نفسي نمساوي، قام بثورة في عالم الأمراض العقلية. ولقد درست نظرياته، وقارنتها بملاحظاتى الشخصية، واستخرجت منها بعض النتائج العملية التي أنا مسرور منها. وأعترف بذلك.

ثم يضخم صوته، ويركّز على كل مقطع بعناية:

فتبعاً للدكتور فرويد، وفي رأيي أنا أيضاً، فإني أظن أن ابنتك تجابه مشكلة لا تعرف كيف تحلّها. وهذه حالة شائعة. وكل إنسان ينتهي منها على طريقته، إما بالإقبال على اللذة، أو العمل، أو بالكحول. ولكن بعض الأشخاص— ربما كانوا أكثر حساسية— يختارون الهرب عن طريق الجنون.

— يختارون؟

— بلى، يا أميرة، إذ يمكن القول إن في القضية اختياراً، حتى ولو لم يكن واعياً. فالقول بوجود درجات مختلفة للشعور، ذلك هو الأمر الذي تجلّت فيه مهارة الدكتور فرويد.

— ولكن ... ابنتي.

ولما كان الدكتور منصرفاً إلى حديثه، فإنه لم يسمع السلطانة.

— كنت أقول إذن: ولم هذا الاختيار لا غيره، مما هو أكثر معقولة؟ حسناً. إنه قد تكون هنالك جملة بواعث أو أسباب، يدخل فيها أحياناً تأثير شخص نحبه أو نتأهى معه. ولهذا سألتك عما إذا كانت ابنتك تعرف ما إذا كان جدّها يمر بنوبات جنون. فإذا قلنا: نعم، على ما هو ممكن جداً— إذ لا يبقى هنالك أي سر مع وجود الخدم— فيمكن أن نأمل بأن التماهي لن يدوم، لأنه ليس قوياً، وهو يقوم على الـ «ربما يكون» فقط. فإذا ضعفت التواترات، فأنا الدكتور أوخان، أستطيع أن أوكد لك أن هذا التماهي السيء، سيزول تلقائياً.

وهنا يصبح صوته أقوى، ويقول:

— ولكن لك دوراً هنا تلعبه.

— سأفعل كل ما يطلب مني، يا دكتور، قل لي...

— أرجوك بصورة خاصة ألا تفعل شيئاً. اذهبي واستريحي، ودعي للآخرين أن يهتموا بابنتك. إذ أنها في حالتها هذه، وخاصة في حالتها هذه، تدرك ما أنت فيه من الاكتئاب، وهذا يعرّز شعورها بالذنب تجاهك. فهي لا تعرف كيف ترضيك، من غير أن تخون أباه، والعكس بالعكس. ولهذا فإنها تلجأ أكثر فأكثر إلى العالم اللاواعي: فدعي ابنتك وشأنها.

— أتريد أن تقول إن حضوري بجانبها أمر سيء بالنسبة إليها.

— إني لأقول، بل أوكد. واحتراماتي يا سلطنة.

هذا الطبيب حمار، وأكثر من ذلك، إنه شخص سمج! كيف يمكن أن يؤذي حب الأم ابنتها؟

ومن شدة الاستياء، كانت السلطانة تذرّع بهوها جيئةً وذهاباً، وتقول في نفسها:

— عندما أفكر أنهم يعتبرونه أفضل طبيب نفسي في المدينة !.. ولكن ماذا نفعل الآن ؟

ويتصدى زينيل ، فيقول لها دون أن يتجراً على النظر إليها :

— إن كنت أسمح لنفسي ، فأنا أقول باتباع رأيه . وأنا لأصدق لحظة واحدة ، ما جاء في كلامه . ولكن أنت ، أنت بحاجة إلى الراحة ، وتبين مرهقة . فلا تخشي شيئاً ، إني سأسهر على صحة الأميرة ، وأخبرك بأي تغيير قد يحصل .

« عليك أن تكفري ! » . وخرجت الأشباح بلا شكل من الجدران البيضاء ، وتحيط بسلمى .

— ولكن ماذا فعلت ؟

— ها ، ها ، ها ، إنها تسأل ماذا فعلت !

أي ضحك غني ... ولكن يجب ألا نغضبها .

— أقسم لكم — وتناغم صوته بانحسار ما تستطيع — أنني لا أعرف .

— لن تعري ذلك أبداً . إن هذا هو العقاب : أن تعري أنك أجمرت جرمًا مرعباً ، ولكنك تجهلين ما هو .

— إني لأفهم ...

— ومع ذلك فإنه بسيط : إذا كنت تعرفين الخطيئة ، وأنتك تعاقبين عليها ، عندئذ يكون العقاب وسيلة للتكفير . وكما يحاسب السماء ، فإنك تضعين في الميزان ذلك الشر الذي أحدثته ، وذلك الذي تعانينه ، وبعد مدة ما ، تقدرين أنك وفيت ما عليك . إن هذا غاية في السهولة : فبفضل العقاب ، يزول الاكتئاب ، وينتهي القلق ، ويعود العالم إلى أحسن حال . حسناً ونحن لن نعاقبك ، فأنت تستحقين جهنم . وجهنم هي فقدان العقاب .

— لا . أرجوكم ، لا هذا ، وتتوسل إليهم سلمى وهي في حالة رعب . وتحاول أن تمسك بطرف من الشبح . ولكنها لا تصل إلى القيام بأية حركة ، رغم جهودها . وتتألم وتئن قائلة :

— إني أريد أن أموت .

— ولكن ماذا شرحنا لك ؟

وتستطيل الأصوات بصفير غاضب .

في عالمنا الصحيح ، لا في هذه الغرفة ، ولا في هذا البلد ، لا يموت الناس . وليس هناك لاهية ولا موت . ولا حق ، ولا باطل ، ولا بداية ولا نهاية . وما فعلته ، بعد كل شيء ، لأهمية له مطلقاً ، ذلك أن في عالمنا ، لا خير ، ولا شر ، وما من شيء هو عدل ، ولا شيء هو ظلم . إنه عالم لامتناه ، وإذن فيلا قواعد .

وتقاطعهم سلمى :

— ولكن إذا كان مافعلته بلا أهمية على الإطلاق ، فإنه يمكنكم أن تسامحوني ؟

— إن هذا فكرة ثابتة لديك . فاعرفي أنه حتى إذا أردنا ذلك ، فلن نستطيع . ولدينا ميّرة خاصة بنا ، هي أننا أحرار تماماً . وهذه الحرية هي التي تمنعنا من اتخاذ أي قرار . فنحن كموازين ، مامس شيء له فيها وزن .

وغضبت سلمى ، فغاصت في وسادتها ، واحتضت قائلة :

— لا معنى لهذا كله .

— ربما ولكن هل تعرفين أنت ، كلاماً له معنى في أي يوم من الأيام ؟ فأني لكلماتكم البائسة — وهي كلمات مصنوعة من قبل عقول محدودة — أن تبلغ الحقيقة ؟ لا تفكري بذلك ، واستمري في تسلياتك ، ولا تحاولي أن تخرجي من علبتك ذات الأبعاد الثلاثة . فأولئك الذين حاولوا ذلك ، لم يمتح حتى إلى التدخل بشأنهم . ذلك أن إخوانهم أنفسهم سجنوهم وراء قضبان ، وصرحوا بأنهم مجانين ، وهذا إن هم لم يصلبوهم أو لم يحرقوهم .

وصدقني ، إن من الأفضل أن تبقي هادئة في زاويتك . وهذه الزاوية مضجرة ، محدودة ، وهذا صحيح . ولكن اللامتناهي ، كما تعرفين ، هو رتيب أيضاً . ذلك أنه مجال لا ينتهي ، وبلا جدار ، يستند المرء إليه ، ولا باب يغلق ، ثم إن الرد فيه شديد ، وما من غطاء يحيط بك ، وما من شيء يحُدُّ شيئاً ، وأخيراً فإن هذا اللامتناهي مهلك .

« ... وأخيراً نامت . كم هي حمراء ، مبلّلة ، بنتي الصغيرة المسكينة ! » . وبلطف شدّ زينيل الغطاء ليغطي به سلمى . ويحمي جسمها الرقيق ، لا من برودة غير متوقعة ، ولكن من التأثيرات السيئة التي يشعر أنها تحوم حولها . وعندما كانت تصرخ منذ قليل ، وتتخبط ضد الأشباح ، فإن زينيل ، أخذ القرآن بيده اليمنى ، وفتح الأنوار كلها ، ونظر في الخزائن جميعاً . وعبثاً يقول الناس ، في أيامنا هذه ، إن العائدين ، مخترعات عقول نسوة طبيبات ، ذلك أن زينيل يتذكر جيداً أن الناس في قريته في ألبانيا ، كانوا لا يمشون إلى النوم ، قبل أن يضعوا على الباب شيئاً من الخبز ، وبعض الفاكهة ، حتى لا يخطر في بال الأرواح الجائعة ، تلك الفكرة السيئة ، بالدخول إلى البيت . وبصورة عامة ، كان لا يبقى شيء من ذلك في الصباح .

ومسّ زينيل بسبابته البضة ، خدّ المراهقة ، وارتجف من حرّاته . وهب أن أحداً فاجأه ، فكيف يشرح له حركة اللا احترام هذه . أتراها لحظة ذهول أم هي رغبة كهل في مسّ بشرية طرية ؟ وحتى تحت العذاب ، يجب أن لا تنقل الحقيقة أبداً ! إنه لسر رهيب ولذيذ يُقضّه ويسحره ، ويجعله حتى في أسوأ الخصومات ، ينتصب كملك ، كإله ، أو كإنسان !

— بابا !

وانتصبت سلمى وهي تزار، وعيناها بيضاوان من الخوف .

— لا تقتلني ! أبعد هذا الخنجر . فأنا بنت صغيرة . ألا تعرفني ؟ انظر ! إني أنتزع هذه البشرة .

وبعصبية تخدش وجهها ، دافعة بقوة ذلك الخصي الذي يُحاول أن يهدئها .

— انظر ، فأني أنا أنا ! أولاً تتعرف إلى طفلتك الصغيرة ، الصغيرة جداً ؟

وتفوقعت على نفسها وجعلت ركبتيها تحت ذقنها ، ويداها مضغوطتان حول الكتفين .

— ألا تزال تراني أيضاً ؟ إني أضيق نفسي بسرعة ، وعما قريب ، لن أكون إلا صدفة يمكنك أن تحملها في جيبك ، ولن أزعجك . وأعدك بذلك . ولكنك ستداعبني من وقت لآخر . قل : ألا تفعل ؟

— بلى ، يا بنيتي الصغيرة ، سأداعبك ، فلا تخافي ...

وبنعومة لامتناهية ، وضع زينيل يده على جبين المراهقة التي تمن .

— إنهم يدخلون مسامير في رأسي ، يمنعوني عن التفكير . بابا ، لا تتخلّ عني !

— إنني هنا ، جيجيم ، فاهدئي ، ولن أتخلّى عنك أبداً .

و « تلوذ به » مرتجفة بين ساعديه .

— إنني أحبك كثيراً ، ولأحب غيرك !

وكانت عيناه مغشأتين بالهيجان ، عندما ضمّها إلى صدره ، وبدأ يهددها ، برقة :

— وأنا ، لو تعلمين كم أحبك ، كما لو أنه لم يوجد قبلي أب يحب ولده .

يا أي ... الذي كانت الخادومات تهزأ منه سراً : أترأه قد عاشها ، أو حلم بها ، هذه الليلة المباركة ... منذ ست عشرة سنة ؟

أما سلطانته فكانت تنام في سرير كبير محاط بستائر من الضباب . وكانت ريح عاتية قد

عصفت به . وأخذته بصورة لا تقاوم ، إليها ، حبيبته ، ملكته . وجاء رجل مجهول اسمه زينيل ، أكثر حرية ، وأكثر انسجاماً مع نفسه من أي وقت مضى ، فوضع شفتيه على الجبين الأبيض . وشعر بشيء يشبه الانبهار ... أما بعد ذلك فلم يعد يتذكر شيئاً .

وبعد تسعة أشهر ، كانت سلمى تولد من جديد ، ودهش الجميع من شبهها بخيري بك . ولكن زينيل بقي صامتاً . وبجسمه كله ، أحسّ بنداء يشده إلى هذا الكائن الصغير ، كأنه قطعة أخذت من جسمه ، أو عرفان جميل .

وكان خلال مدة طويلة يدفع عن نفسه هذه الأخيصة المؤنبة ، ولكنها كانت تفرض نفسها عليه بعنف أكبر فأكبر ، وفي السنوات الأخيرة خاصة ، منذ أن جعل المنفى منهم ... أسرة .

واليوم إنها هي ، ابنته الصغيرة ، التي تهتف به . ومن شدة ما اعتراه من هيجان ، انفصل عنها قليلاً لكي يتأملها بصورة أفضل .

— يا سلماي ! أنت معجزتي ، أنت صبحي ، وهبة لا تصدق من الآلهة ، أنت دمة ذرفها الله على شقائي ...

وتصغي إليه مسحورة .

— زدني أيضاً ، يا بابا ، قل لي أيضاً أشياء حلوة ...

— أيتها الزهرة الصغيرة ، شعاع واحد من الشمس ، وما أنت منفتحة أجمل التفتح ... هنا ، استريحني على كتف باباك . فهل تفهمين الآن ؟

فتمتمت بقولها :

— بلى ، وعيناها نصف مغلقتين .

— أي عذاب ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن أقوله لك ؟ فما كنت لتصدقيني أبداً . وكان يجب أن تكتشفي سرنا ، وحدك .

— سرنا نحن ؟ ...

وتنطوي على نفسها أكثر أيضاً ، وتنهّد ارتياحاً .

— عديني بألا تقولي شيئاً، ذلك أنهم سيعتبرونا مجنونين . أو يؤمن الكفرة بشيء مستحيل على العلي القدير .

ومن شدة الاستياء، انتصب الخصي، إن تُذكر هذه الخطيئة يجعل دمه يغلي . وفتح سلمى عينيها، مندهشة : فكم هو أحمر، فجأة . ترى لِمَ يتكلم بمثل هذه القوة ؟

— إنهم يقولون إننا مجانين . ولكن احتفظوا أنتم بحكمتمكم ، يا ديدان الأرض ، الذين يخشون كل ضلال !

وأمسك بيدي سلمى

— يا بنيتي ، باركي معي الجنون ، فهو الطريق الملكية إلى اللانهاية ، إلى النقطة الأخيرة التي يختلط فيها كل شيء ، وحيث يكون كل شيء واضحاً ... ولنشكر الله على أنه ساعدنا على الحركة ، ولنحمده على هذه النقطة من الزئبق التي تدور في رؤوسنا المربعة . فلتضاعف ولتفجر بألف شعاع ! أبهر النور يا رحمن !

— أي حُلُم عجيب رأيته ، يا زينيل ، لو كنت تعرف ...

وسلمى ، المتوردة كلها ، تتمطى ، بمتعة كبيرة .

— كم هي الساعة الآن . إني أموت من الجوع . وهل الطقس جميل ؟ صباح الخير ، ليلي خاتم ، هل أستطيع أن أحصل على مرنى الفريز ؟

— من المُرّ

وفتحت الكالفا عينيها بقوة ، وتلعثمت بالرد على ما طلب منها .

— أترك عرفتني ؟

— أتراني عرفتك ؟ ... ولكن يا ليلي خاتم ، أنت بصحة جيدة ؟

— الله ، الله !

فهزها الهيجان ، واندفعت الكالفا خارج الغرفة .

— يا سلطانة ! الأميرة . الأميرة شفيت !

وعلقت سلمى قائلة :

— ما الذي جرى لها؟ ترى هل كنت مريضة بهذه الدرجة؟ وماذا كان بي، يا زينيل؟

— هو، ما من شيء عظيم، ولكن... ولكن... مجرد (غريب) صغير.

— يا مسكيني زينيل، كم تسيء الكذب! وهذا مخجل بالنسبة لرجل في البلاط!

— أيندجيم، لماذا تنظرين إليّ هكذا؟

وهنا كانت السلطانة تدخل إلى الغرفة.

— قولي لي، ماذا جرى؟

وتساءل سلمى: لماذا تضئُها أمها بين ذراعيها مع هذا الحنان غير العادي؟

— نوع من الحمى يا سلمى، هذا كل شيء.

وتسكت البنت. ومادامت أمها تخفي عنها حقيقة ماجرى. يجب أن يكون ما أصابها خطيراً.

وتحاول، بأقصى الجهد، أن تتذكر. فلا يخطر ببالها أي شيء. أي شيء على الإطلاق، إلا هذا الحلم الذي كان فيه زينيل يقول... ولكن ماذا كان يقول؟

ولم تقرّر سلمى أن تجيب أباهما إلا بعد شهرين. وستقول له إنها لا تستطيع السفر إلى بغداد، بحجة دراستها في المدرسة...

— ولكن، لماذا لا يأتي هو إلى بيروت ليراها؟ «إن هذا سيغمرنني بالمسرة» على ما كتبت. بالمسرة؟ ترى هل هذه هي الكلمة المناسبة لوصف هذا الاضطراب في القلب، وهذه الدموع؟ أما الكلمات الأخرى، فإنها لن تكتبها. فهذا «السرور» ببطاقات الدعوة المعلقة بالمئات بما لها من صفة لا شخصية وملتبسة، سيرى أبوها ما يجب أن يرى فيها.

وبعد بضعة أسابيع تعود إليها رسالتها من العراق، ومعها كلمة من السفير. فقد استقال خيرى بك من عمله، وترك البلاد. ولم يمر باستامبول. وظل عنوانه مجهولاً.

وهدها ماتلقته . فبعد أن نظرت إلى الحروف السوداء المكتوبة على الورق الأبيض ، العاجي اللون ، تقول : تأخرت أكثر مما يجب . فقد سافر ، وطن أنها لا تريد أن تراه . ومن جديد أضاعته . ولكن هذه المرة لا بخطأ منه ، بل بخطأ منها .
ولكنها لا تشتهي أن تبكي . بل إنها فقط تشعر بالبرد .

في وسعنا ، بكل هدوء ، أن نلاحظ مرفأ بيروت ، من شاطئ ميناء الحصن ، من فوق صخرة تنهض عمودياً من البحر .

وفي كل خميس ، تأتي الباخرة بيير — لوتي من استامبول ، وتفرغ حمولتها من الركاب . وبعد عدة ساعات ، وعندما تكون قد امتلأت بالبضائع والمسافرين ، تعود الباخرة البيضاء الكبيرة من جديد إلى العاصمة ، وتحمل معها أحلام مراهقة تستند إلى الجانب الصخري ، وتبعتها بنظراتها ، بعنف ، حتى تختفي عند حدود الأفق .

وفي البداية كانت سلمى تنزل إلى المرفأ . وهناك تختلط بالجمهور ، وتترك الناس يرحمونها ويهددونهم ، وعيناها مغلقتان ، محاولة أن تجد آثار أصوات بلدها ، ورائحته . ثم إذا هي غمرت بذلك كله ، عندئذ ، وعندئذ فقط ، كانت تسمح لنفسها بالنظر . ويبدو لها عندئذ أن هذه الوجوه التي رأتها تعرفها ، وكانت تتفحصها بحماسة ، واحداً بعد آخر ، محاولة أن تلتقط في النظرات صوراً تحدثها عن مدينتها ، وأن تجد في بسمه ما ، ذلك الألق المتشوق ، لغروب الشمس ، على القرن الذهبي . وكانت تمسك نفسها بعناء عن سؤال الناس : هل الأهل في استامبول سعداء ؟ وأن تطلب قطعة من خبز السمسم ، تجاوزت السلة ، لتلحظ فيها حراة نيرة ، أو وردة ذابلة .

وكان هؤلاء المسافرون ، المزدانون بأوهامها ، موضوع تأمل من قبل هذه المسكينة . وكانوا يتجاوزونها ، مندهشين ، ومستنكرين .

أما بعد ذلك ، فقد فضلت أن تلجأ إلى صحور هذا الشاطئ الحالي . وبعيداً عن الجمهور الذي يظل محتفظاً بسرّه ، وعن هذا الشيطان ذي الجوانب الحسنة الاستقبال والهادئة ، تجد حلمها بصورة أفضل . وخلال أشهر وأشهر ، كانت تعود إليه ، فيما يتبّه الحج . فهي لا تريد أن تنسى : بل ليس لها الحق في النسيان .

واستمر ذلك حتى فقدت ببيزلوتي ، بالتدريج ، سحرها وأصبحت كغيرها من المراكب ، وأصبح لركابها ذلك الوجه العادي المغتبط ، كالمسافرين الذين يفدون من أية نقطة في العالم . وخلال بضعة أسابيع ، سوف تبذل الجهد للقاء هذا الهيجان ، وهذا العذاب اللذين يطمئنانها ويصلانها بسلمى القديمة ، ولكن عثاً . وبدأت تشعر بأنها حقاً قد فقدت الآن كل شيء عندما فقدت حزنها .

وبعد ذلك . وبعد زمن طويل من نسيانها طريق المرفأ ، بدأت سلمى تتساءل عما إذا كانت تمضي إلى هناك لتغذية عذابها ، أو لتقضي عليه ، ولتحرّر مه .

وما من إنسان عندها انتبه إلى هذه النزهات الأسبوعية . وإن يوم الخميس عطلة ، تدّعي سلمى أنها تقصّيها لدى أمل . وكانت إحدى الكالفتين ترافقها إليها ، ولا تعود لتأتي بها إلا في نهاية ما بعد الظهر .

وتعيش أمل في البيت الضخم ، في قلب الحي الدرزي ، وحيدة مع أخيها مروان الذي يكبرها بثلاث سنوات . وكانا طفلين عندما أطاحت بأمهما ذبحة صدرية . وبعد بضع سنين مات الأب ، عندما سقط من على ظهر الحصان . فجاءت عندئذ عمّة لهما واستقرت في المنزل الكبير القائم في طريق مارالباس ، لتهتم وتعنى باليتيمين . ولما كانت شديدة التقيد بالتقاليد ، فلقد ربتهم على الطريقة القديمة . ففي المدرسة ما من أحد يعرف أحسن من أمل كيف ينحني للاحترام ، أو كيف تحمّر عندما يكلمها من هو أكبر منها . ولكن العمّة كبيرة العمر ، وقيلولاتها التي تمتدّ إلى بداية السهرة ، تترك لليتيمين بعض الحرية .

ولما كانت أمل وحيدة ، فإنها تفهم حاجة سلمى إلى أن تكون وحيدة أيضاً ، بلا رفيق . وما من مرة سألتها عن نزهاتها السريّة . وكل ما تفعله هو أن تأخذ بيد رفيقتها عندما تعود وعيناها محمّرتان ، والجفون منتفخة ، وبلا أية كلمة ، تقبلها .

ولما كانت أمل لا تسألها عن شيء ، فقد شعرت سلمى بالحاجة إلى أن تُشركها في حياتها .

وغدت تحدثها عن أبيها الذي لم يميت ، على نحو ما أوحى به كلامها ، بل إنه منذ ترك العراق ، يظهر مرة كل بضعة أشهر ، ببطاقة يرسلها من الطرف الآخر للعالم .

— وكانت أولى بطاقاته قد جاءت من البرازيل ، والثانية من فنزويلا . والبارحة تلقيت واحدة من المكسيك . ولا أستطيع أن أجيبه عنها ، لأنني لا أعرف عنوانه . وهو يعدني بأن يعطيني إياه ، عندما يستقر . أما الآن ، فإنه دائم التجوال ، بسبب أعماله . ويقول لي إن جنوب أمريكا قارة عجيبة ، يجمع فيها الجريشون ثروات ضخمة ، وأنه عما قريب ، سيطلبني لعنده ، وأنه يريد أن يقدم لي من جديد حياة كحياة الأميرات من قبل ... وهو لا يطلب مني أبداً ماذا أريد .

ولكن ما تريده ، هل تعرفه هي نفسها ؟ فكل شيء يبدو لها غير واقعي ، إلى درجة كبيرة ، كهذه الرسائل التي لا تنتظر جواباً ، وهذا الأب الذي لا يُمسك به ، وهذه المشاريع العظيمة ، وهذه الوعود ...

— وأحياناً ، أحب لو أنه يمسك عني رسائله ، حتى لا آمل بشيء ، وأيأس باستمرار ... ولكن إذا هو لم يعد يكتب لي ، فأظن أن ...

وبصوت لا يكاد يُسمع ، أضافت قوطا :

— أترين يا أمل ، إنني أحبه ، وأعرف أنه قادر غداً على التخلي عني ... فأفاجيء نفسي عندما أجد أنني أكرهه ، وأتمنى موته .

وبعنف ، أخذت رأسها بين يديها . وقالت :

— إنني لا أستطيع أن أحتمل انقطاع حبه ! إذ لم أعد أعرف أين أنا منه ، ولم أعد أعرف بماذا أفكر !

وأحاط ساعد بكتفها ، وأحسست بشفتين غضبتين على جبينها . وبقينا طول ما بعد الظهر ، متعانقتين في الديوان العميق . ولم تقل أمل شيئاً ، ولكنها بالغريزة تعرف أن الكلمات لا تزيد على أن تفتق الجروح ، وأن كل تشجيع ، أمام هذا الألم ، نوع من قلة الحياء ، وكل نصيحة تشبه الشتيمة . ذلك أن كل ماتكون صديقتها بحاجة إليه ، وماستقدمه لها ، إنما هو حبا .

وعندما جاءت الكالفا ، في أول المساء ، تبحث عن الأميرة فإنها لم تلمح شيئاً . فسلمى مرتاحة ، هادئة . ذلك أن حنان أمل أعاد لها قوتها .

وتوقفت عربة أمام حديقة البيت. تُرى من جاء لزيارة السلطنة؟ ذلك أنها لم تعد تلقى الكثير من الزيارات منذ أن ثبُت عزم السنوية Snobisme لدى سيدات المجتمع البيروتي! وسلمى فخورة بأن أمها رفضت الانزلاق إلى هذه اللعبة، ولكنها تتساءل أحياناً عما إذا كانت لن تدفع ثمن هذا غالياً. ذلك أنها تظل وحيدة.

وهذه السلطنة التي كان قصصها أورتاكوي، يعجّ بالناس، والتي كانت تقسّم وقتها بين أعمال البر التي تقوم بها، وبين المناقشات السياسية، وبين مجالس الأسرة، وأصدقائها وصديقاتها، والتي كانت تشرف على جيش من العبيد والخادومات وتقوم هي نفسها بحل مشكلة كل واحد منهم على حدة، ها هي الآن ومنذ سنتين، محصورة في هذا البيت، وليس لها من صحبة غير هاتين الكالفتين، وغير هذا الخصي... وحقاً فإن زينيل أكثر بكثير من خصي، إذ لقد أصبح المحاسب، وأمين السر، والمستشار في كل ما يهم الحياة اليومية؛ ولكن هل هو صديق، أو ممن يباح له بما في النفس؟ إن سلمى تعرف أمها، وتعرف أنها حتى إذا أصابها اليأس، فإنها لن تتساهل... تجاه الأدنى. وليست القضية قضية زهر أو عجب — فالسلطنة تقدّر زينيل أكثر بكثير مما تقدّر أغلب أمراء الأسرة — ولكنها قضية منظومة من القيم، هي من الرسوخ، بحيث أنه ما من كارثة تستطيع هزّها أو زلزلتها: إذ لا يطلب العون من أولئك الذين يعتبرون بحكم التقاليد، ممن علينا أن نحميمهم؛ فمع هؤلاء يمكن أن نتقاسم الأفراح، ولكننا لا نتقاسم المصائب والأفراح.

وفي قاعة الاستقبال يجلس شخص مهيب، بشعر كله أسود: إنه نائلة السلطنة بنت السلطان عبد الحميد. وكانت الأسترات لا تتزاوران في استامبول. ولكن المنفى قرّب بينهما. وما أقلّهم عدداً في بيروت! ذلك أن أكثر الأمراء والأميرات قد تبعوا الخليفة إلى نيس، حيث عاد للتكوّن، بلاط صغير. وإلى هناك ذهب العم فؤاد — «إلى بلاد النساء الجميلات» على ما كان قد صرّح به، مغطياً شقاه بالمزاح — والسلطنة الفراشة التي طالما حلمت بأن تعرف الشاطئ اللازوردي. وكثيراً ما كانت سلمى تفكّر بهذه الحالة، المرحّة، الأنيقة، التي كانت تدفع بالذوق إلى الدرجة التي كانت معها تجعل فرش عربتها منسجماً مع لون أثوابها، يوم تحتاج إلى التنقل. ترى ماذا فعل الله بها؟ وهل هي سعيدة في فرنسا؟ بل إن مراهقتنا لا نستطيع أن نتخيّل صورة حياتها هناك. أما فهيمة السلطنة فقلما تكتب عن أخبارها. وبالمقابل فإن فاطمة السلطنة، تكتب بانتظام. فلقد استقرت في صوفيا مع زوجها وأولادها الثلاثة، وأصبحت تعيش حياة هادئة، يضيئها وجود شيخ عظيم للدراويش، تزوره عدة مرات في الأسبوع، بصحبة رفيق بك. وتكتب عن ذلك فتقول: «إننا نتقدم على الطريق. وأفهم أكثر فأكثر أن ما عدا ذلك قليل الأهمية...».

والباقي هنا — هو المنفى ، والعودة الممكنة — وهذا ما كانت تتحدّث عنه خديجة السلطنة وابنة عمها الأميرة نائلة . أما أخبار استامبول فسيقة . ذلك أن مصطفى كمال أوقف أهـ عارضيه ، بحجة اكتشاف مؤامرة ضده . وبعد أن حوكموا محاكمة تافهة ، صرّح خلالها القاضي « علي الأصيل » للصحفيين بأن المتهمين كانوا مذنبين حقاً ، نُصبت لهم المشائق ، وتم التنفيذ هذا الصباح ، في ٢٧ آب / أغسطس ١٩٢٦ . وكانت إذاعة لندن هي التي أشاعت الخبر ، وأوضحت أن الوضع هادئ . أما محاكم الاستقلال ، فإنها تظل عاملة ، في المدن كافة .

وتعبّر السلطنة خديجة عن استيائها ، وتقول : وإذن فمن بين كل الأبطال الذين حاربوا من أجل استقلال تركيا ، لم يبق أحد ؟

— وعلى كل حال يبقى الوزير الأول عصمة اينونو . وقد أطلق عليه لقب « سوط الغازي » ، لأنه شديد القسوة على الذين ينحرفون عن الخط . أما أكثر الآخرين ، مثل رؤوف باشا ورحمي والدكتور عدنان وخالدة أديب ، فقد نفوا أنفسهم منذ عدة أشهر . وعندما حل كمال الأحزاب رأى هؤلاء أنه لم يبق لهم ما يفعلونه ، وأنهم هم أنفسهم في خطر .

وتنهدت السلطنة . وقالت :

— مسكينة تركيا . وماذا أقول عندما أفكر بأن هذه الحكومة مضت إلى حد تغيير اسم الله وأن على الناس في المساجد أن يُصَلُّوا لـ « تانري » بحجة أنه اسم أكثر تركية ! ... ولقد انتظرت مدة طويلة ردّ فعل الشعب على هذا ، ولكنني ألاحظ الآن أنه مقيّد تماماً .

وهنا ضعف صوتها ، وتابعت تقول :

— وأصل من هنا إلى التساؤل ، عما إذا كنا حقاً سنعود يوماً ما لديارنا ... وبلادنا ...

وهذه هي المرة الأولى التي تعترف فيها السلطنة بشكوكها . فأخذ الاضطراب يسلمى كل مأخذ ، واقتربت ، فقَبِلَتْ يَدَ عَمَّتْها ، وجلست على الوسادة إلى جانب أمها .

— أيندجيم ، من المؤكد أننا سنعود . ففي استامبول ، كل الناس مستأوون ، كالطلاب ، والمثقفين ، ورجال الدين ، والتجار خاصة . وتذكّرني ما كتبه ميمجيان آغا إلى ابن عمه : « إن السوق كلّها معادية للنظام الجديد ، وعندما تبدأ السوق بالتحرك ، فإن القادة يكونون في خطر » . سنكون عما قريب في تركيا — أيندجيم — وسترين .

وكانت المراهقة قد وضعت في نظراتها كل ما تستطيعه من القناعة: إذ يجب ألا تفقد أمها الأمل. فبدأت الأم تداعب بخنان، شعر ابنتها الأحمر.

— إنك على حق يا بنتي. وقد تتابني أحياناً نوبات اكتئاب ليس على الإنسان أن يعيرها أي انتباه.

وتشعر سلمى بقلها ينقبض: فإنها تقبل كلامها حتى لا تحزنها، وكل منهما تمثل على الأخرى. وفي الحقيقة فإنهما، كلتيهما، تعرفان. تعرفان؟ وتعود فتنتصب، استياءً— فماذا تعرفان؟ لا شيء! بل هما بكل بساطة في حال من يقبل الهزيمة. ولكن سلمى، هي وحدها، ترفض! «إذ يجب أن ناضل، على ما كانت تقوله قديماً أيندجيم. فكل شيء ممكن دائماً».

ولما كانت قد أصبحت فريسة تهيج حاد، فقد استوت واقفة. ذلك أنها تشعر بالحاجة الشديدة إلى أن تقاتل، وفي داخل صدرها حرارة، إن هي لم تعبر عنها، فإنها تختنق بها. ولكن ماذا لو التحقت بخالدة أديب، ورؤوف باشا؟ أو لو أنهم جميعاً حاولوا العودة إلى تركيا بهوية مزيفة؟ أو لو أنهم نظموا أنفسهم هم والألوف من المستائين، وقادوا المعارضة للنظام؟ كل هذا ممكن.

وظلّت سلمى تنشيء خططاً للمعركة، حتى ساعة متأخرة من الليل. ذلك أنها جلست على مكتبها وبدأت تسوّد الأوراق التي أمامها، ورقة بعد ورقة، لتكتب مذكراتها! إنها تريد العودة إلى استامبول، وتريد ذلك أكثر من أي شيء آخر، وتأتي أن تستسلم!

ومن خلال النافذة المفتوحة كانت تصل إليها رائحة الياسمين المسكرة. فتشمها ملء رئتيها، وتنشق الليل الحار، وتدع النسيم يداعبها، وتمتلئ كلها بأصوات الجداجد. وها هو جسمها ينحل بالتدرج في الظلمة الزرقاء، فكأنها في طريقها إلى أن تصبح واسعة واسعة... وببطء، ارتفعت إلى مجموعات النجوم، ولعبت معها، وأصبحت لعبة لها. ولم تعد إلا جزءاً لا يتجزأ من هذا الجمال.

ولم تستطع سلمى أن تنام هادئة مفعمة بالمسرة إلا عند الفجر.

وتعيش سلمى الأيام التالية كما لو أنها في حلم. فتبدو لها المشاكل اليومية تافهة، الآن وقد أصبحت «تعرف»! ويندهش الناس من رؤيتها في الصف، وفي البيت، في مرح متصل؛ فقد كانت تحزن لأبسط الملاحظات، وأصبحت الآن كلها «تسامحاً». وعلى أنها كانت، في فقدان صبرها، تُطيح، بكل القواعد، وتُمرّقها، تبدو الآن كما لو أنها تملك الخلود بين يديها. وحتى أمل نفسها

لا تصل إلى حزر ما تخبىء هذه البسمة ذات الرقة غير المعهودة؛ تماماً كما لو أن صديقتها لم تعد هناك .

وفي ذات صباح ، و من غير أن يحدث شيء ينبيء عما سيكون ، استيقظت سلمى مرهقة ، مشبّطة العزيمة . ونظرت إلى غرفتها ذات الأثاث العادي جداً ، وفكّرت : «إن الحقيقة ، هي هذا ! » . ودفعة واحدة ، استولى عليها اليأس ، وارتقت على وسادتها وبدأت شهقات البكاء . آه ، كم تكره لبنان . فنحن دوماً أمام هذا البحر الأزرق ، وهذه الشمس العنيدة ، وهذا المرج ! ولم تكره هؤلاء الناس الذين يستقبلونها في «بيوتهم» ، وكل هؤلاء الذين يستطيعون أن يقولوا : «جماعتنا ، بلدنا ، وطننا» من دون أي رغبة في البكاء . وكل هؤلاء الذين يخصّصون الآخرين ... وأبدأ لن تعود فتجد استامبول ، ولن تخصّ أحداً مطلقاً . ففي كل هذه الأيام ، كانت تكذب على نفسها . إذ لا يمكن أن نناضل إلا إذا كان لنا أرض نقف عليها ، ونحارب فيها وجهاً لوجه ، أرض لنقع فيها ، ومنها سننهض . ولكن عندما لا يكون هنالك ما يثير فيك أي صدى ، وعندما لا تستطيع يدك أن تلمس شيئاً هو لك حقاً ، وعندما يحكم على أقوالك بأن لا تكون أكثر من ضجيج ... فأني لك أن تحارب ؟ وضد ماذا ، وضدّ من ؟

لقد هدّدت نفسها بالأوهام : والأحلام بالنسبة إلى المنفى ليست بمشاريع حقيقية ، ولكنها محاولات هروب . وقل الآن إن هذه هي التي كانت تظن أنها شجاعة ، وكانت تحتقر الذين يتلاءمون مع «الحقيقة الواقعة» . فهل تكون الشجاعة ، الحقيقية ، على ما يدّعون ، في القبول بالواقع ؟ إنها لم تعد تعرف ، ولم تعد تفهم ماذا تجدي الشجاعة ، ولماذا يجب أن تبسم ، عندما نكون راغبين في البكاء . وكل ما تعرفه ، أنه حتى الحيوانات نفسها لها وكر ، أو منطقة ، أو حيّز حيوي ، وبدون ذلك تموت .

— ولكن من الذي سرق البسمة من إبنة عمي الحلوة ؟

وكان قد وصل سمو الأمير أورهان ، حفيد السلطان عبد الحميد ، وهو يقود سيارة من نوع دولاهي ، بيضاء رائعة . إنه يقوم بوظيفة التاكسي ، كما يقول . وهذه طريقة في أن يضع نفسه في خدمة كل الناس ، وبالتالي لا يخدم أي إنسان . كان قصيراً ونحياً ، ولكنه ذو قوة هركولية ، ومزاج حاد ، وهو لا يتردد ، عندما يتخذ زبون ما لهجة لا تروقه ، لا يتردد في أخذه من عنقه ، ورميه خارج السيارة . وهكذا وجد بعضهم نفسه ملقى على الأرض ، دون أن يفهم ماذا كان يحدث له : وكان ذلك فقط لأن سموه شعر بأنه شتم .

وسلمى تعشق هذا الرجل . فهو غريب ، لا يتقيد بالمواضعات ، على نقيض ابن عمه خيرى الذي لا يرتدي منذ بلغ الثامنة عشرة من العمر ، إلا بدلات قاتمة وياقات منشأة ، حتى في عز الصيف . أما أورهان ، فإنه في العشرين من عمره ، ولا يتخذ موقف الجدد من شيء . وهو يأبى الكلام عن تركيا ، ويسخر من مزاج ابنة عمه الصغيرة .

— إنه دمك السلافي ! فكل هؤلاء الجميلات الأوكرانيات والشركسيات ، اللواتي حلّى بها أجدادنا حريمهم ، نقلن إلينا حبة ! هيا ، يا أميرة ، استفيدي من حريتك . فأنت تعرفين أنك في استامبول تظلين سجنية . هيا أسرعى وجمّلي نفسك ، فأنا آخذك لأنزهك .

ويركبان ، ضاحكين ، في السيارة البيضاء ، تحت بصر السلطانة المتساحة . فابنتها الصغيرة بحاجة إلى بعض التسلية ، ومع أورهان ، تكون تحت حراسة جيدة .

وأخذ الإثنين طريق دمشق ، الذي يصعد متثنياً بين أشجار الجيكاراند ذات الأزهار البنفسجية ، والعندم الهندي ، والعرعر . ولقد طلبت سلمى ، بأعذب صوت لها ، أن تسرع السيارة ، وأن تمضي بعيداً . وهي تعرف أن أورهان يُفضّل أن يقف في عالية . أي في المصيف الأنيق ، على بعد يكاد أن يكون ٢٠ كم من بيروت . ولكنها تعرف أيضاً أنها متى ابتسمت له ، وجعلت أهداب عينيها الطويلة تحفّق قليلاً ، فإنه لا يملك أن يرفض لها طلباً . وتنهدت لشعورها بالراحة ، وأنزلت زجاج السيارة وعرضت وجهها للهواء ، وكانا كلما ارتفعا على الطريق ، ابترد الهواء ، وصفا الضياء وترك الصنوبر والسرو مكانهما لأشجار الخروب ، ذات الجذوع الملساء والأوراق الخضراء البرونزية ، الناعمة الملمس ، حتى ليكاد الإنسان أن يداعب جسده بها .

ولقد تجاوزا بمحمدون . وانتصبت أمامهما سلسلة جبال لبنان ، الزرقاء بعض الشيء ، مما عليها من ضباب ، وتميّز فيها في بعض شعاعات الشمس ، قمة جبل صنين الملأى بالثلج .

وقفزت سلمى من العربة ، وبدأت تعدو على الطريق ، في وسط الحشائش العالية ، والغوبيات الملأى « بالوزال » وجهها يتطلع إلى السماء ، وذراعاها مفتوحتان ، كما لو أنها تريد ضمّ كل هذا الأفق ، وامتصاصه ، وتملكه ، ثم تعدو وتعدو حتى ليقال ، إنها لا تريد أن تقف ، فتسمع من بعيد صوت أورهان ، يناديها ، ولكنها لا تلتفت إليه ، وتريد أن تبقى وحيدة مع هذه الطبيعة التي تردّها إلى نفسها ، والأقرب إلّاها من أعز الصديقات ، هذه الطبيعة التي تستسلم لها دون الخوف من أنها ستتخلى عنها ، والتي تشعر من كل مسامها بأنها تدخل إليها ، وتبها القوة ، والشدة .

وارتقت بعنف على العشب، وهي تشم الآن رائحته الطيبة، ورأسها فيما يشبه الدوار، وتصعد إلى ساقها ويطنها تلك الاهتزازات الحارة للأرض، وهي تشعر بأنها تنصهر فيها. إنها لم تعد سلمى، بل هي أكثر من ذلك، إنها هذا الغصين من العشب، وهذه الوريقات، وهذا الغصن الذي يتمطى لكي يبلغ السحاب، بل هي هذه الشجرة التي تمد جذورها حتى الأغوار العميقة والخفية لولادتها، وهي هدير النبع وماؤه الشفاف الذي ينطلق هارباً، فيبقى دوماً هناك. إنها مداعبة الشمس، ودوران الرياح، وهي لم تعد سلمى، بل هي موجودة، فقط.

وعلى طريق العودة لاتنطق الفتاة بأية كلمة، وتحاول أن تحمي فرحها، كأنما هو لب ضعيف تخاف أن يخبو. وطن أورهان أنها حزينة، فجداً يبحث عن طريقة لتسليتها. ويقص عليها مئة قصة لاتسمع منها شيئاً. ولعلها تؤثر أن يسكت. ولكن أنى لها أن تفهمه أن الصمت قد يكون أعز الرفاق، وأكثرهم حرارة وأعظمهم انتباهاً، وأوسعهم كرمًا، وأنها في كلمة «الوحدة»^(١) ترى «الشمس».

وفيما بعد، وعندما كانت سلمى تذكر هذه الفترة من مراهقتها، كانت تقول: إنها هذه الصلة الرحمة مع الطبيعة التي حمتها من اليأس، وردتها إلى نفسها. ولولا هذه الانطلاقات في هذا العالم السحري، لما احتملت الانفصال عن كل ما كانت تحبه، ولما استطاعت، على الأرجح، أن تقاوم الاكتئاب اللاذع، الذي كان يهاجم شيئاً فشيئاً، منزل طريق رسم باشا.

وكانت السلطنة تنهار أكثر فأكثر في كل يوم. ثم إن إعادة انتخاب مصطفى كمال لرئاسة الجمهورية، مرة ثانية، في تشرين الثاني / نوفمبر من عام ١٩٢٧، أصابتها بصدمة لن تبرا منها. ومنذ الآن، رأت نفسها مرغمة على القول بأن الشعب التركي لن يحارب من أجل عودة الأسرة العثمانية. وتأثرت بذلك صحتها، وازدادت خطورتها. وجاء الطبيب فشخص لديها مرضاً في القلب. وقالت له مبتسمة: «حقاً يا دكتور، إن القضية قضية مرض في القلب»، وتطمئناً لزينيل وللكالفات، قبلت أن تتناول، كل يوم، جملة الحبات والنقاط التي كانت زجاجاتها مصفوفة على طاولة نومها.

وكان ما يقلق سلمى أكثر من المرض، هو ذلك الانقياد أو المطاوعة اللامألوفة لديها: وهي تشعر جيداً أنها ليست نتيجة الأمل في الشفاء، بل نتيجة اللامبالاة العميقة بالحياة، كأنما هي

(١) كلمة الشمس بالفرنسية هي Soleil، وكلمة الوحدة التي تعني العزلة عن الناس هي Solitude، ومن هنا نشأ جناس خاص، لا يمكننا إنشاؤه في العربية.

استقالت منها . وكانت المراهقة تتألم من أجل أمها . وفي الوقت نفسه كانت تحقد عليها أنها لا تقاوم ما بها . وتلك التي كانوا يسمونها « جيها نجير » « غازية العالم » — وإلى هذه الدرجة كانت قوتها لا تنحني في الخصومة — ليس لها الحق في ترك الأمور على عواهنها ، ولا الحق في التنكر لنفسها ! ولا يجوز لها أن تكشف ضعفها للناس ، كأني واحدة من البشر ، بل يجب أن تستمر في البقاء « سلطنة » . ولكن كان الوثن يبدأ بالتحطم ، فإن العالم كله حولها ينهار .

واليوم ، في ٣٠ حزيران / يونيو / ١٩٢٨ ، هو يوم انتهاء الدراسة في المدارس . وقد اجتمعت الطالبات اللواتي ستركن المدرسة نهائياً في ساحة المدرسة ، جماعات ، جماعات صغيرة ، مع الميرات (الأمهات) . وكانت عيونهن تلمع من التأثير الناشئ عن ترك المدرسة ، « ليدخلن أخيراً في العالم » كما تلمع كذلك من الهيجان . ولكن يقلن : كنا هنا في حالة حسنة ، محاطات ، مدللات ، وأحياناً مؤنّبات ، ولكننا دوماً محميات . وكانت الراهبات طيبات ، حتى أكثرهن فسوة . ومن المحزن أن تتركهن . فالعقوبات ، والظلمات ، والبكاء ، كل هذا قد نُسي تماماً . ولن يحتفظن إلا بالحب لهن ، وسيزرنهن كثيراً ، ويشكرن ، ولا يعرفن ماذا عليهن أن يَقُلْنَ . ويشعرن أنهن ناكرات للجميل ، نوعاً ما ، بسعادتتهن بترك المدرسة . ولكن الأمهات يبدن تفهماً . وينظرن إلينا ، وكلهن حنان ، ويقلن إنهن فخورات بنا ، وإننا منذ الآن فتيات مكتملات ... وما من مرة خلال السنوات الماضية كلها ، شعرنا بأنهن قريبات منا إلى هذا الحد .

ولكن ماذا يعني أن تكون الواحدة منا في السابعة عشرة من عمرها ، وأن تبدأ الحياة ؟

بعض الطالبات يتركن لبنان . فماري أنيس تعود إلى فرنسا ، أما ماري لور ، فتسافر إلى بينوس أيرس ، حيث عيّن أبوها ملحقاً عسكرياً .

— بينوس أيرس ؟

— أوليس هذا أمراً خارقاً للعادة . ويبدو أنها مدينة بيضاء كلها ، ومرحة بجنون !

— بلى ، هكذا يبدو ...

ومن بينوس أيرس تلقت سلمى آخر رسالة لها من أبيها ، منذ أكثر من سنة . وكان يخبرها فيها أنه اكتشف مدينة أحلامه ، وأنه قرّر أن يضع حداً لحياته المتشردة . وهو يبحث عن بيت جميل لأُميرته الحلوة ، وسيكتب لها متى استقر به الحال . ومنذ ذلك الحين لم تتلق شيئاً من أخباره . فهل كان مريضاً ، أو أنه وقعت به كارثة ؟ وقد أنشأت حول ذلك جملة فرضيات ، تاهت بينها ، حتى إنها

تساءلت عما إذا؟ ... كلا. إن هذا ليس بممكن! وإذن فكيف أعود فأجده؟ إنها لم تكن قادرة على طلب النصيح من أمها، ولكن مع من غيرها أتكلم؟

وها إن ماري لور نسافر إلى هذه المدينة التي كانت سلمى تجول فيها، بالفكر: ويمكن أن تساعدنا. ذلك أن الفتاتين منذ المجابهة، يوم القفزة — المظلة، أصبحتا صديقتين، لا بصورة حميمة، كما هي الحال مع أمل — فهما لم تتساراً قط — ولكنهما ارتبطتا بعاطفة حقيقية غنية بالاحترام، تماماً كرفاق السلاح، الذين يهتمون بالشجاعة والولاء، أكثر مما يهتمون بالبرقة والحب.

وها هي سلمى التي تأخذ بيد ماري لور إلى زاوية من فناء المدرسة، عندما تنتهي من الكلام مع الأم أشيليه، مباشرة. وتنظر وهي بعيدة عنها قليلاً إلى هذا الوجه الأشقر ذي العينين الشاحبتين والجبين الأملس، والفم المتعالي، وتتخيلها كفارس شهيم يجتاز المحيط ويعود إليها بأبيها.. وستشرح لها كل شيء.

ولكن ماذا تشرح لها؟ ... أن أباهما تخلى عنها، وأنه في بينوس أيريس، وأنه لم يرسل قط عنوانه إليها؟ وأنه لم يعد يكتب قط؟ فتتجمد في عقلها الكلمات. بل إنها ترى منذ الآن عضّ ماري لور على شفتيها، غضة خفية تكاد لا تدرك، ولكن لا من الشفقة، كلا — فهي لا تتوقع منها هذه الشتيمة — ولكن بسبب من سوء الفهم لما يبدو أنه مناشدة لتقديم العون، وخيبة الأمل، تجاه هذا الضعيف، وما يمكن أن يكون قلبه خجل. فسلمى الخفية، والشجاعة التي كانت ماري لور تحترمها، وسلمى القاسية كالماش، التي كانت ترى نفسها فيها، هذه السلمى، أتكون إذن مجرد ضحية؟

ولن تقول سلمى شيئاً لماري لور، لا لجرد صون كرامتها، ولكن لأنها أدركت الآن ألا فائدة من ذلك. فلماري لور قوة أولئك الذين لم يعرفوا الشقاء قط. وهي لا تتحمل الضعف.

وستتساءل سلمى فيما بعد، مرات كثيرة عما إذا كانت على حق عندما سكنت ولم تحدث ماري لور بشيء. وعلى كل حال فإن ماري لور كانت حظها الأخير.

ولم تسمع بعد ذلك قط بأخبار أبيها.

وقبلية هي النسلاب المتاحة في بيروت. عندما نكح الفتاة في سن السابعة عشرة، وتكون في الوقت نفسه امرأة وفقر. فبحر ع (فقدان سبر) انتظرت سلمى نهاية المدرسة والاستخدام الدقيق للوقت، والثياب الموحدة، وورقة العلامات، وخماسة ما تخيلت ماداً ستفعل أحراراً عندما

تصبح حرة وتبدأ الحياة، الحقيقية. والآن وهي أمام الأفق اللامتناهي للزمن، فإنها تبقى لتذوقه، وهي شديدة الانتباه لجريانه الساكن، وهذا الفراغ الغني بكل الممكنات. وتكتشف بدهشة أن التسلية التي تفضلها، هي ألا تفعل شيئاً. أي ألا تفعل شيئاً، لكي تعيش أكثر، وتحيا الحياة في عريها الكامل، مجردة من كل النشاطات التي تعرقها، وتفكرها، وتظل ماثلة كلياً لتبوجات العالم، وتذوق الخلود في كل ثانية.

وكانت السلطنة، تراقب السلمي من المقعد الذي تقضي فيه، منذ الآن، أكبر قسم من أيامها... فيؤرقها ما تراه من هذه اللامبالاة لدى هذه البنية التي كانت من قبل، ملأى بالحياة. ترى هل ورثت، كأخيها، ذلك الطبع الكسول، المعروف لأبيها؟ وإنه ليكفيها من العناء أن تضطر، بحكم صفاء فكرها المألوف، أن يكون خيري، عاجزاً. فلا أقل من أن لا يخبب أملها بابتها. ذلك أنها حملتها كل آمالها، ولا ينبغي لها أن تخيبها. وهكذا فإن السلطنة تلح على أن تجد سلمى ما يشغل وقتها.

— ينبغي عليك أن تجدي في دراسة اللغة الإنكليزية والإيطالية، فلهجتك سيئة جداً. ولقد طلبت من ليلي هانم أن تعلمك قطباً أخرى للتطريز. أما الخط العربي، الذي كنت موهوبة له، فألاحظ أنك أهملته... انظري يا سلمى: أنت جميلة، ذكية، وأنت أميرة. وهناك مستقبل لامع ينتظرك، فيجب أن تنتهي له. ولا يجوز أن تبقى بلا عمل.

ولو أن سلمى ملكت الجراءة، إذن لسدت أذنها، فهي لم تعد تحتل هذه الجمل الدائمة: «يجب، ولا يجب». وهي تشعر أنهم يحاولون سرقة حياتها. وفي الأصل، عندما كانت صغيرة، وعندما كانت الآنسة روز تعيد عليها دروسها الفرنسية: «أنت، أنت، تو تو es وهذا وذاك Ceci et Cela» كانت تسمع «أنت مقتولة Toi Tuée و Ceci et Cela»، فكان المخاطب يعرفك، ويحدثك، ويُسمرك، وانتهى أمرك يافراشتي الجميلة، وانتهت الحرية. أنت أنت، أنت مقتولة.

ولكن كيف تسيء أمها فهمها إلى هذا الحد. أو لم تكن شابة هي أيضاً؟

ومن حسن الحظ أن زيارات أمل وأخيها مروان كثيرة. فتسرّي عن سلمى بعض الشيء. وتعلق قلب السلطنة بهذين الشابين، من جراء ذلك: فهما مهذبان بدرجة عالية! وفي مثل هذه المدينة الغريبة، لا تملك أن تتمنى صحبة لابنتها أفضل من هذه وتراها تحبو مروان أكبر الثقة، ذلك أنه وهو في العشرين من عمره يكشف عن نضج ورجولة، لا تحتاج معها إلى مثل زينيل، كوصيف، عندما تذهب الأسرة إلى نزهة ما في المدينة. وهي تريد أن تحرّج سلمى بعض

الشيء، لأنها قلقة على ما يبدو من حساسيتها المفرطة، وكثرة صمتها، وميلها إلى الهروب من الواقع. ولطالما حاولت السلطنة خديجة أن لا تعترف بهذا، ولكنها، آخر الأمر، مضطرة إلى التسليم بما في وضع ابنتها من شذوذ: ولا تذكرها هذه بزوجها خيري بك بقدر ما تذكرها بأبيها السلطان مراد، عندما تراها تضع على البيانو ساعات كاملة، وعندما تشعر أنها تمرّ دورياً من أقصى الحماسة، إلى أقصى اليأس. وتعترف السلطنة، بشيء من عصاة القلب، بوجود هذا الخليط من القوة والضعف، الذي إن لم يجد مجالاً ينساب فيه، وقضية يتعلق بها، فلربما اضطرب أمره، وساء المصير...

ولهذا فإنها لم تقف ضد حب سلمى للسينما، وتعلقها بها. وتقول لنفسها إن خيال ابنتها سيجد ما يتغذى به في هذه القصص الرومانطيقية الجميلة، أكثر مما يجد في الوحدة، داخل بيت، كل ما فيه يتحدث لها عن الماضي. فهذا الفن السابع هو في سبيله إلى أن يأخذ مداه. وهناك شركة هوليوودية كبيرة اسمها Warner Bros، نجحت نجاحاً ضخماً في إنتاجها فيلماً ناطقاً باسم مغني الجاز، حيث تجد الممثلين يتكلمون!

وهكذا اعتادت سلمى وأمل، أن تذهبا إلى السينما كل يوم جمعة في الساعة الثالثة، في الحفلة المخصصة للنساء. ويأتي مروان بسيارته إلشيزنار ووكرك التي تحمل النسر المذهب الشهير، فيوصلهما إلى السينما، ثم يعود بهما عند نهاية الفيلم.

ولكن كثيراً ما تقع أخطاء فنية عند العرض، وقد يحدث أن هاتين الفتاتين المرهقتين من انقطاع العرض، تتركان السينما المظلمة وتذهبان فتنزهان في ضياء الشمس.

وهذا الحي من المدينة، الذي تجتمع فيه كل قاعات السينما، هو بذاته مغامرة. وهو يبدأ من ساحة المدافع، التي أصبح اسمها ساحة الشهداء، منذ أن قام جمال باشا التركي بشنق أحد عشر معارضاً فيها، عام ١٩١٥. وهذا الحي هو أكثر الأحياء حركة، وكثرة مارة، في بيروت، وهو مجمع المقاهي العربية، حيث تجد رجالاً يضعون الطرايش على رؤوسهم، ويقضون ساعات طويلة في لعب الطاولة، بكل رصانة، ويدخنون النارجيلة، ثم إنه المكان الذي تكثر فيه المطاعم والمقاهي الليلية، أي هذه المحلات التي تتحدث عنها النساء المسلمات في رأس بيروت، ويقفن إن النساء فيها يرقصن عاريات. وتأخذ سلمى بيد أمل: فمجرد المشي بجانب هذه المحلات يعني أنك تذوّقت الثمرة المحرمة. وكان في ذهنهما أن الناس جميعاً ينظرون إليهما، وتتخذان صورة اللامبالى وهما تقطعان الساحة ببطء، باتجاه المطعم الفرنسي، «وهو ملهى مرح جداً» على ما قال أورهان الذي زاره مرة. ويرتاد هذا المطعم أرقى الناس في المجتمع البيروتي. ومتى قُدِّم العرض، الذي تقوم به عادة فرقة أجنبية

آتية من باريس، يرقص الناس على الشرفة، المواجهة للبحر، حتى الخامسة أو السادسة صباحاً. وتلقي سلمى، برغبة، نظرة على الإعلان الذي يشير بحروف حمراء كبيرة إلى :

«الآنسة نيني روكامبول، في رقصها الروكامبولي» أي الخيالي.

وتتندد سلمى، وتقول لنفسها :

— كم يجب أن يكون هذا الرقص مسلياً !

غير أنها لا تستطيع أبداً أن تمضي إلى مثل هذه المحلات : ذلك أنه ليس من المناسب لفتاة، وخاصة إذا كانت مسلمة، أن تزورها.

وذات يوم عندما كانتا تنزهان على هذه الصورة، اتجهتا إلى السراي الصغير، وهي بناية طويلة من الحجر الأصفر، لها أبواب ونوافذ ذات أقواس. وهنا يقوم مقرّ الحكومة اللبنانية، ولكن باستثناء بعض الشاويش (جمع شاويش) الذين يظلون في نعاس دائم، فإن هذا المقرّ يظل شبه خال. ومن يريد أن يضيع وقته إذا كان من المعروف والمشهور أن كل ما يُقرّر، إنما يقرّر في الهضبة المشرفة على المدينة، في السراي الكبيرة، التي تقوم فيها مكاتب المفوض السامي، هنري بونسو؟

وعندما رأت مجموعة فرحة من العسكريين، هاتين الفتاتين الجميلتين تتسكعان في الطريق، بدأت بملاحقتهما. فاحمرتا خجلاً، وحشتا الخطأ، متظاهرتين بأنهما لا تفهمان الشئ الخفيف الذي يسمعهان من أفرادها. ولم تستطعا تضليل هؤلاء إلا في تلك الرحمة العجيبة التي تقوم عادة في طرق «سوق الفرنج». وهذا هو الاسم الذي يطلق على سوق الأجانب، وهي جنة الخضار والأزهار، ولكنها في الوقت نفسه سوق لبيع كل البضائع التي تأتي من أوروبا؛ ولهذا يكثر زوارها من نساء الطبقة البورجوازية اللبنانية، اللواتي يأتين إليها، لشراء حاجاتهن، متبوعات بصبي يحمل سلة على ظهره، لكن الفتيات يفضلن عليه سوق الصاغة : حيث يوجد صناع صغار، لهم أيد خفيفة تخلط أصابعها خيوطاً ذهبية، بأخرى فضّية. وهما تحبان أيضاً أن تنزها بجانب سوق الطويلة، حيث تسود طبقة الخياطين، والحذّائين الأرمن، الذين لا مثيل لهم في تقليد التماذج الباريسية، وباعة «الكوريوس» الذين يعرضون عليك أنواعاً من الأشياء التافهة و «الأصلية».

وبدأت الشمس تهبط. وهذه هي الساعة التي تخرج فيها النساء لقضاء حاجاتهن، أو لمجرّد تنشّق رطوبة الهواء. ويرى الإنسان عندئذ بائع الماء المعطرّ، ماء الزهر، أو ماء الورد، وبائع

الدبابيس الصغير ، اللذين يعليان من شأن بضاعتها ، وهكذا يصبح حو المدينة حو عيد ، في كل يوم ، والطقس لطيف .

وها هي سلمى ، بجانب أمل ، تضع بين الجمهور ، وتندوق حريتها . لقد نسيت استامبول .

إن عائلته أمل ومروان من أقدم العائلات اللبنانية . وهي لا تزال تهيمن على جزء كبير من منطقة الشوف . وهكذا فإن اليتيمين يُستقبلان استقبلاً حاراً في ألمع الحلقات في بيروت . وبدأت (أمل) التي بلغت الثامنة عشرة تخرج ، وهي تود لو اصطحبت سلمى معها : فصديقتها جميلة جداً ... ويكفي أن يراها الناس حتى تنهال عليها الدعوات من كل مكان . ولكن أنى لنا أن ننع السلطنة أن أميرة عثمانية يمكنها من دون أن تنزل عن مسنوها ، أن تتصل ببعض الأسر العريقة جداً ؟

وأتاحت الفرصة عندما دعت ليندا سرسق إلى حفلة شاي راقصة تقيمها في قصرها في الأشرفية . وقد ناقشت الفتاتان هذا الأمر بصورة مطوّلة : فحفلة شاي راقصة ، فكرة جميلة ، أقل إثارة للنفور من حفلة راقصة فقط ، لا بد للسلطنة من أن ترفضها بالتأكيد . ثم إن ليندا سرسق هي شبه قريبة ، وعلى الأقل لأن مروان وأمل يسميانها « خالة » : ويمكن أن تعرض فكرة حفلة الشاي ، كما لو أنها اجتماع عائلي !

وعندما وصلت بطاقة الدعوة ، كانت أمل ، كما لو أن الأمر ، بالصدفة ، عند صديقتها — وسألت السلطنة بلهجة الاحتقار :

— من عساهم أن يكونوا هؤلاء السرسق ؟ أليكونون تجاراً على ما أقدر ؟

وأجابت أمل بلطف :

— أوه ، كلا ، يا صاحبة السمو ، إنهم إحدى العائلات الكبيرة ويقومون بأعمال ضخمة في ...

وقطعت السلطنة كلام أمل بجفاف ، قائلة :

— إن هذا ما كنت أقوله . إنهم تجار .

ومن حسن الحظ أن السيدة غزاوي كانت موجودة هناك . وهذه لبنانية ولدت في استامبول ،

وتزوجت أحد كبار الموظفين . فشرحت للسلطانة أن « السرق » هم أحسن من يوجد في لبنان !
— وهم روم أو روثوكس ، بطبيعة الحال ، ولكنهم في مثل النعمة ، التي للسنيين . ففي أبهائهم
لا نلتقي إلا بأفضل شخصيات المجتمع اللبناني . ولئن شاءت الأميرة سلمى أن تخرج إلى الناس
ذات يوم ، فإنه لا يمكن أن يوجد مكان أفضل من قصر السراسقة . ولكن إذا كانت ، سموك ، تبتغين
إبقائها في البيت ، فبطبيعة الحال ...

وكانت سلمى مستعدة لتقبل السيدة غزاوي على دفاعها هذا ، ولكنها كانت مسرورة
بتقليب صفحات إحدى المجلات ، وعليها سمة اللامبالاة ، كأن الأمر لا يعينها .

وتتردد السلطانة خديجة . فالسيدة غزاوي تعرف معرفة كاملة عالمها اللبناني الصغير ،
واتضح أن نصائحها ثمينة ، دوماً : ولكن ملاحظتها الأخيرة هي التي هزت أركان السلطانة ، ذلك
أنها تنسجم مع الهم الذي بدأ يسكنها منذ بعض الوقت ، ويمنعها أحياناً من النوم : ترى ماذا سيكون
أمر سلمى ؟

وعندما كانت في المدرسة ، مشغولة بدراساتها ، فإن هذا الأمر لم يكن مطروحاً . ولكن الآن ؟
الآن والمنفى يطول ، والعودة إلى تركيا تبدو مجرد خيال ، فإذا ماذا سيكون أمرها بعد هذا ؟

يجب أن نجد لها زوجاً ، ومسلماً طبعاً ، وغنياً ، وأميراً على الأقل ، وهذه شروط ثلاثة يستحيل
الجمع بينها في هذه البيروت ، حيث لا تطمح حتى العائلات السنية بزواج مع بنات الأسرة العثمانية .
ولعل ذلك ممكن من جهة الأسرة الملكية المصرية ، أو من الإمارات الهندية ... ؟

ويانتظار ذلك ، فإن السيدة غزاوي على حق . فليس على سلمى أن تبقى قابعة في البيت .
ويجب أن تتعلم منذ الآن الدخول في المجتمع . ولا تكفي المعرفة التي يمكن أن تنقلها السلطانة
إليها ، لتقوم بهذا الدور ، بل إن على ابنتها أن تجابه الواقع . ففي قصر أوطاكوي الذي كان لوحده
« بلاطاً » كانت سلمى تستطيع بصورة طبيعية أن تكسب تجربة العلاقات الإنسانية والصفاء
الفكري ، الضروريين للأمرء . أما وحدتها في بيتها برأس بيروت ، ما بين زينيل والكالفاتين ، فماذا
عساها أن تفهم من العالم الذي ستدعى يوماً ما إلى الحياة فيه ؟

وبكل نعمة ، تستدير السلطانة نحو أمل ، وتقول لها :

— عودي في الغد ، يا بنية . وسأعطيك جوابي .

والحقيقة أنها كانت قد اتخذت قرارها . فسلمى تذهب إلى دعوة ليندا سرسق . ولكن تبقى هنالك مشكلة صعبة : فماذا تلبس ؟ إذ ما من مال متوفر لشراء الفستان المناسب . ولكن عليها ، بين كل هؤلاء اللبنانيات المترعات بالخلي ، واللواتي يلبسن أحسن ما اخترعه الخياطة الفرنسية ، أن تحتفظ بمقامها ! لكن لدى السيدة غزاوي رأياً في هذا الموضوع ، وهي امرأة ذات

— لئن استطعت أن أسمح لنفسي ، يا صاحبة السمو ، فإني أسأل لماذا لا تقوم ليلى هانم التي تملك أصابع الجنيات ، بأخذ واحد من أثوابك القديمة ، وتطوره لهذا الغرض ؟ فهذه الثياب الفخمة المقصّبة لا بد أن يسوء حالها إن هي بقيت نائمة في الخزائن .

ويلاحظ الجمع أن هذه الفكرة رائعة الذكاء ، فتقوم سلمى عندئذ باختيار فستان حريري لونه أزرق بحري ، يبرز لون عينيها .

وخلال ذلك يصل سورين آغا . فيوضع في الصورة . إذ لقد أصبح الأرمني صديقاً للأُسرة منذ أن أشار ذات يوم على الأميرة ، وضد مصلحته هو ، أن تشتري بثمان المجوهرات التي تبيعها له ، أسهماً في الشركات ، لكي تستفيد من أرباحها . ولقد وضع نفسه في خدمة زينيل في هذه القضية الحساسة . فكسب بإخلاصه ووفائه ثقة كل هذه الأسرة ، وكل أفرادها .

وفي هذا اليوم ، وفي الساعات التالية لما بعد الظهر ، كان يبدو مشغولاً ومهموماً ، يذرع البيت جيئةً وذهاباً ، وهو ينظر إلى الكالفتين المشغولتين بإصلاح الثوب الحريري . وربما لاحظ الإنسان أنه يريد أن يقول شيئاً ، ولكنه لا يجرؤ . وأخيراً غامر ، حمراً الوجه ، بالقول :

— عفوك يا سيدتي السلطانة ، واغفري لي جرأتي ، ولكن الأميرة سلمى جميلة . وينجب أن تكون الأجمل ؛ فهل تقبل أن تختار بين الخلي التي أملكها ما ترى أنه الأفضل بالنسبة إليها . كل ما لدي هو بين يديها ، في كل المناسبات التي تحتاج فيها إلى الخلي ، وسيكون ذلك شرفاً كبيراً لي ! وتأثرت السلطانة بهذا القول ، وابتسمت للرجل القصير ، ومدّت إليه يدها التي أمسك بها ، متعيراً ، وقبّلها بحماسة .



الآنسة أمل الدروزي، والآنسة سلمى رؤوف، والسيد مروان الدروزي !

هكذا قدّم المعلن القادمين الجدد، وألقى بنظرة حائرة على الفتاة التي تصحب الدروزي . إذ أنه لم يرها قط في «أربعاءات» ليندا سرسق، وليس ذلك مما يدهشه — فالقصر مضياف، وهو يستقبل كل أسبوع، أصدقاء جُددًا — ولكنه، وهو الذي يمارس مهنته هذه منذ اثنتين وثلاثين سنة، ويفخر بأنه يحجز بالتأكيد هذه الحديثة النعمة، في ثياب الدوقة، أو الدوقة التي لبست ثياب فتيات «الظهر»، أملًا بأن تبدو أصغر سنًا، في هذه المرة يتردد: فهذه المخلوقة تعرف كيف تمشي، وهذا أمر لا شك فيه، بل إن لها في طلتها شيئاً من القوة التي تحمل الإنسان على أن يعجز الدم الأزرق في عروقها، ولكن هذا الثوب ذا الكشكشات الغربية، يأتي مباشرة من يدي خياطة صغيرة في باب أدريس، ويتعارض تماماً مع عقد الباقوت الأزرق، الذي يبرهن على ذوق غير سليم لمن يأتي إلى هذه الحفلة بعد الظهر !

وكانت المضيفة قد أسرعت إلى القادمين الجدد

— أمل ! مروان ! أعزائي، ما أعظم فرحي بلقائكم ! وصديقتكم الآنسة رؤوف . أهلاً وسهلاً بكم . ولما كنت قد جئت إلينا مع أعزائي الصغار هؤلاء، فأنت لدينا في منزلك . كانت أمهما أعز صديقة، لديّ، بل أختي ...

وتنهَّدت قليلاً، وندت حركة من الشعر الأحمر الشهير، الذي تنزلق بعض خصله من الوشاح اللامع (اللامى) الذي لا يقل شهرة. وليندا سرسق التي بلغت الأربعين من عمرها واحدة من أكثر نساء بيروت إغراءً، لا يجماها بالدرجة الأولى، بل بروحها وما فيها من سحر وحب للحياة، تقول ألسنة السوء إنه تضاعف منذ أن ترمّلت في عمر الرابعة والعشرين. ولكن كل إنسان يعترف لها بقلبها الكبير، ذلك أن صالونها هو أكثر الصالونات ارتياداً في المدينة.

— ولكن اعذروني، إني أترككم، فهذا هو غبطة البطريك!

وتنطلق مهفهفة لكي تقبل الخاتم الذي يتألق في اليد المعطرة.

ويقول مروان:

— لقد أعجبتها، وأصلاً— وأضاف هنا ضحكة صغيرة— فإنها تحب الأتراك!

ولا تفهم سلمى تلك النظرة القاتلة التي رشقت بها أمل أناها. ولكنها ستفهم ذلك فيما بعد، عندما تكون هي نفسها قد انطلقت في المجتمع البيروتي، ذلك أنها ستعلم أن ليندا المتوهجة كانت الصديقة الحميمة لجمال باشا، الحاكم التركي المكلف بحفظ الأمن في لبنان أثناء الحرب.

وكان جمهور أنيق يزدهم في الأبهاء المتلاحقة المزينة بشجيرات الكاردينيا الزهرية الشاحبة، وفي الأخير كان هنالك بهو عربي ثمين، تغني فيه نافورة البحيرة الرخامية، ألحان الماء، وتنشئ منه واحة رطوبة، ثم فتح الخدم المطلات البلورية التي تشرف على حديقة واسعة يصعد منها عطر أشجار البرتقال والياسمين العربي والميموزا.

وقاد مروان الفتاتين إلى الشرفة، وهي مكان مثالي ليستمتع الإنسان، دون أن يزعجه أحد، برؤية هؤلاء الحاضرين بألوانهم الغريبة. وبدأ مرشد سلمى يعرفها بالحضور.

— فهذا السيد النشيط، الذي يضع قرنفة في مزربته، هو نيقولا بطرس، من عائلة من الروم الأورثوذكس أيضاً، وهي تنافس عائلة سرسق في فخخة الاستقبالات. وإلى جانبه الماركيزة جان دو فريج، وهي نبالة بابوية، تلقبها ألسنة السوء «بالماركيزة من عهد قريب». وأبعد منها، هذا السيد القصير، وهو هنري فرعون، رئيس النادي الأدبي، وهو لا يعطي انطباعاتاً هاماً، ولكن لا تنخدعي بالظواهر، فهو يملك أعظم مجموعة من الأشياء الفنية في لبنان كله، وسوريا على أغلب الظن! وهو يشتري قصوراً قديمة في دمشق وحلب، ويفكك أحشائها ومدانها ليضعها في أهبائه—

أما بيته ، القريب من السراي — الكبيرة فهو كهف حقيقي من كهوف علي بابا ، وإذا دعي إنسان ما إليه ، فإن ذلك شرف كبير له ، لأن الرجل قلماً يدعو . وبالمقابل ، فإن الإنسان يلقاه ، كل خميس ، في مكان سباق الخيل . وهو يملك اصطبلًا فيه مئتا حصان ، يُحب أن يراقب تدريبها ، من عرزال مفعم بالحضرة ، يتذوق فيها جرعات صغيرة من القهوة برفقة بعض من أصدقائه . ويقال إن السياسة اللبنانية كلها تحاك في هذا العرزال .

وانظري ! إن الأميرة شهاب قد وصلت . وهي تنتسب إلى أقدم أسرة أمراء في الجبل ؛ وهاهي الجميلة لوسي طراد ، مصحوبة بجان تويني ، هذا الكهل المتميز جداً ؛ فقد كان سفيراً للأمبراطورية العثمانية ، في عاصمة القيصر الروسي ، وهو صديق شخصي لإدوار السابع . وهناك ، على اليسار ، ذلك الرجل ذو الشعر الأحمر ؟ إنه نيقولا سرسق ، وهو واحد من وجوه القوم الأصليين ، وقد حرص الرسام فان دونغن على تصويره بيده . فإذا انتهينا من هذا ، قلنا إنه دُبَّ بعض الشيء ولكن ليس فيه ما يُخشى منه ؛ فهو لا يحب الفتيات .

ويضحك الجميع ، دون أن يلاحظوا أن رجلين كانا منذ بضع دقائق ، يراقبانهم من الجهة الأخرى من الشرفة ، مراقبة المهتم الحريص .

— أقول لك إنها فرنسية ! فانظر إلى هذه القامة المشيقة ، والخصر النحيل ، والبشرة البيضاء ، إنها روعة حقيقية !

— إنك لاتعرف من الأمر شيئاً يا أوكثاف ! فهذه العيون الناعسة ، وهذا الفم البض الشفتين ، البريء والشهواني معاً ، لا يمكن أن يكون إلا لواحدة شرقية .

— حسناً ، فلتراهن ، يا ألكسيس . ولكن لتراهن ، لا على أصل الفتاة ، بل على أي منا يكسب مودتها .

— لم أكن أتوقع أقل من ذلك من ضابط فرنسي ، فأنت دائماً مستعد للهجوم ، أليس كذلك ؟ ولكن حذار . لقد لاحظت يدها ، فهي غير ذات بعل . وأنا أحذرك ، فالفتيات عندنا ... ومع ذلك ، فقد يسرها أن تجد اهتماماً بها لدى اثنين من ألمع ممثلي الحلقة ... إنك على حق ، يا أوكثاف . هيا نجرب حظنا !

وبكل سهولة ويسر ، اقتربا .

— وإذن ، يا صديقي مروان !

وبصورة أليفة جداً، ضرباً على كتف الشاب ضربات خفيفة، وانحنياً أمام أخته، مع شيء من التردد أمام سلمى.

— الآنسة؟

وتسرع أمل فتقول:

— الآنسة رؤوف. باسلمى إني أقدم لك ابن العم الصغير لمضيفتنا. ألكسيس، والكابيتين أوكشاف دو فير بري Verpré.

وببدأ الحديث، بخيوية. وهذان العازدان الحديدان ينمتعان بحب المكّة، وجمال الحلقة، وهذا الأخير لا يفسد فيهما شيئاً. وكانت نظراتهما المعجبه جعل سلمى شديدة الخفة. ولذكر الآن أنها كانت قد ترددت في الهجيء، خجلاً وخوفاً من أن يصيبها الملل! ويتناول الحديث كل شيء ولا شيء. وبصورة خفية يسأل ألكسيس سلمى:

— آه: أنت مستقرة إذن في بيروت. وأبوك ديبلوماسي فيها على الأرجح؟ لا؟ هل هو...

ميت؟

ويتحد وضع المتألم.

— أرجو أن تعذرني. يجب أن تكون أملك متأمة من الوحدة، وأنا واثق من أن أمي ستسعد بأن تدعوها إلى حفلة شاي. أفلا تخرج؟ أم هي مريضة؟ ما أكثر البؤس! وهكذا فأنت زهرة حلوة وحيدة...

ويحمرّ وجه سلمى. فما من مرّة كلمها رجل بهذه الصورة. والواقع أنها لم تسنح لها فرصة للكلام مع رجل، غير إخوة صديقاتها، اللواتي يعتبرنها كأخت. وبدأ قلبها يخفق بسرعة أكثر بقليل. ترى أهذا هو مايسمونه «المناعشة» أو الغزل Fleurt؟

وهذه هي اللحظة التي يختارها مروان، غير الشاعر بما يجري حوله، ليتذكر بأنه لم يقدم احتراماته للخالة إميللي.

— انظري ياسلمى، فهذه السيدة العجور، الموجودة في زاوية البهو، والتي يتجمع حولها الناس، إنما هي رئيسة جماعة السرّسق. وهي تحب أن تقص على الحاضرين، كيف أنها رقصت،

وهي لاتزال فتاة ، مع ناليون الثالث ، أو كانت تراقصه ! فإذا أنا وأمل لم نمض لتقبيلها ، فستعتبر ذلك جريمة في حق جلالتها . وأنا أتركك الآن في حراسة جيدة . فاعذرنا لحظة .

ويبتسم الكسيس إذ يرى مروان يتعد ويقول :

— إن هذا المروان رجل لطيف حقاً .

وقالت سلمى :

— بلى ، دون أن تدرك الغمزة ، مما أضحك أوكتاف كثيراً .

وغامر فقال أيضاً :

أولاً ترين ، يا آتسة ، أن هذه الأمسية تتطاول قليلاً ، بل ليس هناك من موسيقى جيدة . فهل تحبين الرقص .

وترد سلمى قائلة :

— أحبه كثيراً ، ولعلها تفضل أن تُفرَم قطعاً صغيرة من أن تعترف بأنها لم ترقص قط ، إلا مع رفيقاتها في الصف .

— وإذن فأنا أقترح عليك شيئاً أكثر إمتاعاً من هذا الاستقبال المزعج . سنقوم بهنّه حملة لديّ ، مع بعض الأصدقاء ، ونساء جميلات . ولديّ آخر الاسطوانات التي ظهرت في باريس . وأنا أضمن لك أنك لن تمسّي لحظة واحدة .

ونجّلت سلمى ولعنت غرورها ، فما الذي أحوجها إلى القول بأنها كانت ترقص ، ومادا يمكن أن تقول أمها إذا هي عرفت ذلك ؟ لا . لا مجال لحضوره .

وتتلعثم قليلاً ، وتقول :

— لا أعرف ما إذا كان مروان وأمل ...

فيغمر أوكتاف بعينه .

— أوه ! إنهم من (الدقة) القديمة ، بل لسنا بحاجة إلى أن نقول هذا لهما . فسنقترح : أد . نصحبك في العودة ، لأن بيتك على طريقنا ، وتكون اللعبة قد تمت .

ويشعر الكسيس أنهما يسرعان أكثر مما يجب . ولكن الزمن يفرض ذلك ، إذ سيعود مروان بين لحظة أخرى . فيقرر أن يضرب ضربته الكبرى .

— لا نقولي لي ، إنك لست واثقة منا ! ويقول هذا وعليه سمة من جرحت كرامته .

والحقيقة أنه غير منزعج ، من أن ترغمه على الإلحاح في الرجاء . فهو لا يحب الانتصارات السهلة . ولكن يجب كذلك ألا تكون متصنعة . فلقد تعود هو على معاشره النساء ، وهذه الفتاة ، بما في عينيها وشفتيها ، إذا كانت ما زالت عذراء ، فإنها على كل حال ليست ببريء ! ومن حسن الحظ أن الأم عاجزة ، وليس هنالك أب يطلب تقديم الحساب ، كما ليس هناك أدنى مخاطرة .

— هيا يا بنيتي الجميلة ، أفلهذه الدرجة لانعجبك ؟

وتقدم أوكشاف دو فير بري فاقترب من الفتاة ، وبحركة طالما نجحت في الماضي يمد ذراعه الملائف حول خصرها .

وحالاً ، وبقفزة واحدة ، تخلصت سلمى من يده ، مرتجفة من الاستنكار وقالت له :

— اتركني ، يا هذا المقرف !

وإذن فقد كان هذا لطفهما ، وجميل تقرهما . فكيف لم أفهم ذلك من قبل ؟ ولكن كيف لها أن تقدّر أنهما يعتبرانها ... فتاة ... وتشعر بأنها لئولت ، وأذلت ، ولديها رغبة في البكاء .

— أهذا أنت . إنه لغريب . وماذا تفعلين هنا يا أميرة ؟

وكان على الشرفة سيدة طويلة القوام تتقدم ، فتعرف سلمى بدهشة ، أنها عمته ، نائلة السلطنة . فكيف حدث لها وهي القليلة الظهور جداً بين الناس ، أن توجد لدى العائلة « سرسق » ؟ وكانت الفتاة تجهل أن السلطنة ، عرفت العمة اميلي في استامبول ، وأنها أرادت تكريمها — المرة الواحدة ليست بالعادة — بحضور هذه الأمسية . فطار صوابها — ولكن ماذا حذرت ؟ — فتقوم سلمى بتقديم احتراماتها العميقة ، وتقبل اليد الممدودة إليها ، بينما كان الشابان المجهولان ، ينحنيان :

— صاحبة السمو .

فنظرت إليهما بعين مملوءة بالشك ، ثم قالت بلهجة جافة :

— إني أحرمكما أيها السيدان ، من قريبتني . فقد مضى زمن طويل لم أرها خلاله .

وتأخذ سلمى بذراعيها ، وتستولي عليها بحكم السلطة .

— هل أنت مجنونة ، يا صغيرتي ، ووحيدة في شرفة تكاد أن تكون غير مضاءة ، مع رجلين ليس لهما — وهذا ما أستطيع أن أقوله لك — أية سمعة حسنة ! ولئن كان شرفك رخيصاً عليك ، فإن شرف أسرنا ، غال عليّ ! وستعديني أن تتصرفي في المستقبل ، تصرفاً أرعى للكرامة . فإذا لم تفعلي ، فأنا مضطرة إلى إخبار أمك المسكينة ، ونصحها بأن تحبسك في غرفتك ، حتى يجدوا لك عريساً .

— ولكن أخيراً يا سلمى ، لماذا تعرّضيننا لهذه المواقف الحرجة ؟ (قالت ذلك أمل في السيارة التي تعيدهم إلى البيت ، مستنكرة) ولماذا تصرّين على أن تُقدّمك باعتبارك الآنسة رؤوف . لقد كانت الحالة ليندا غاضبة . أما الكسيس ، فقد عاتبني معاتبة شديدة ، ولامني على أنني جعلته أضحوكة . وأخيراً ، وضّحي لي ، لماذا كنت تحرصين على أن لا تكوني معروفة ؟

ولكن سلمى ، المنكفئة على نفسها في زاوية من المقعد ، تنظر أمامها ، بعيون قاسية ، وكانت تؤثر الصمت . لكن أمل تلحّ ، فتقرّر أن تجيبها .

— هل سمعت ، يا أمل ، بهرون الرشيد الذي كان خليفة بغداد في القرن الثامن ؟ كان هذا الخليفة يحب التنكر كرجل عادي ، ويقتزّه في عاصمته في الليل ، ليستمع إلى رأي الناس بحكومته . ولكنني أظن أنه كان يفعل هذا ، ليبحت عن نفسه بالدرجة الأولى . وكان يصادف أناساً آخرين لا تؤثر في علاقاتهم المصلحة ، ولا النفاق ، ولا الخوف . وكان ينشئ لنفسه أصدقاء يقدرّون مزايه ، وأعداء كانوا لا يتخرجون عندما يذكرون له عيوبه ، وكثيراً من اللامبالين الذين لا يعيرونه اهتماماً لأنهم لم يكونوا يجدون فيه ما يحلو لأعينهم . وكان يتعلّم أن يعرف نفسه من خلال هؤلاء الناس الذين كانوا لا يعرفونه . وهكذا كان يجد المرأة التي طالما أبيت عليه .

وفي هذا المساء ، تعلمتُ ، يا أمل ، الكثير ، أنا أيضاً .

وحبست سلمى نفسها في بيتها ، بعد هذه التجربة المؤلمة . وهي نائمة على الأرض كلها ، أنها لا تحبها ، وهي في هذا تنخدع : فرمما لم يكونوا يحبونها ، ولكنهم ، كما نرى ، يعبدونها . وسرعان ما شاع الخبر بوجود هذه الأميرة الشابة ذات العيون الزمردية الطويلة ، المتوحشة بقدر ماهي متعالية . وفي

كل يوم تأتيها بطاقات دعوة موجّهة من أسماء عظيمة . وفي مثل هذا المجتمع الصغير ، حيث كل الناس يعرف بعضهم بعضاً حتى الفتيان ، فإن وجهاً جديداً هو نسلية عظيمة القيسة .

وكانت الفناة قد أقسمت ألا تقبل أية دعوة . ولكنها انتهت بعد بعض الوقت ، ومن طرف الشفاه ، بالقبول : فهذا إنها قد بلغت الثامنة عشرة ، وقرّرت أن نتمتع . وكانت خلال الأسابيع التي انزوت فيها في بيتها قد سنّت أظافرها . ونراها في مذكراتها تكتب — كتكملة للاقتناع — إن زمن الطفولة قد انتهى .

ولكي تبرز هذا الانتقال إلى عالم الراشدين ، أخذت موعداً مع الحلاق ، بصورة خفية . وهناك أمرت بكثير من القوة خوفاً من أن تتراجع ، أمرت ذلك الرجل المتألم بأن يقص شعرها الكثيف قصاً قوياً ، « على طريقة الصبيان » تبعاً للموضة الجديدة السائدة في باريس . وبعدة ضربات من المقص ، ها هي الفتاة الرومانتيكية تتحول إلى محاربة ذات طاقة نحاسية ، أو لنقل خليطاً من سرعة العطب والتصلب ، مع هذا القليل من الغموض الذي تدعو إليه روح العصر ، والذي يبأس كل من يقول : إنه يحب « المرأة » .

وعندما عادت إلى البيت فوبلت بالكثير من الاستغراب المخلوط بالهلع . ولكنها لم تبال بلوم أمها ، ولا بنقد صديقاتها الغيورات من جرأتها ، وأقل من ذلك ، من خيبة أمل المعجبين بها . وهي لا تأسف على شيء . وبصورة لا شعورية ، كانت نستبعد الصورة الخرافية ، التي طالما كانت تُلهِم الفنانين الذين رسموا العبداء الجميلة التي كان رجل قوي يجرّها من شعرها الطويل .

والآن ، فإنها مستعدة لجأبة العالم .

وخلال بضعة أشهر تنشئ سلمى لنفسها مكاناً تغبط عليه ، في المجتمع البيروتي العالي ، لأنها الأجل بين كل هؤلاء النساء — فاللواتي يعرن منها ينقدن أنفها الطويل بعض الشيء وذقنها المثلثية الشكل — لكن الرجال لا ينظرون إلى هذه التفاصيل . وهم يجمعون على الاعتراف بسحر بسمتها ، الطفلية من جهة ، والمثيرة من جهة أخرى ، وبرقتها الساذجة بعض الشيء ، وعلى مقاربتها المتباعدة نوعاً ما والتي تتردد ما بين الخجل والغطرسة .

والخازات سلمى إلى طرف اللعب بلقبها ؛ فهذه طريقته هي ، التي لا تستطيع معها الردّ على الدعوات ، أو تسديد دينها لهؤلاء الأغنياء : أما أن يكون على مائدتهم صاحب أو صاحبة سمو ، فهذا ما يموتون عليه . ويحدث أحياناً أن تفكر بأن السلوك على هذه الصورة يهبط بقيمتها . ولكنها

تسرع وتطرد من عقلها هذه الأفكار المزعجة . وبعد كل حساب ، أيمكن أن يكون لديها خيار آخر ؟ وعندما تلاحظ أمل ملاحظتها هذه ، قائلة ، وهي مشغولة البال :

— كم تغيّرت يا سلمى ، فهل أنت سعيدة ؟

تردّ عليها سلمى بقسوة .

ذلك أن من الطبيعي أن تكون سعيدة . ففي كل يوم تختبر قوتها أكثر بقليل . وتعشق أن تغري وتغوي : وما من مرة ظنت أن عملها هذا يملؤها حبوراً إلى هذه الدرجة !

أما السلطانة التي كانت قد دفعتها إلى قبول الزيارات ، فإنها بدأت الآن تقلق عليها ، إذ أنها لا ترى ، بين هذه الشبيبة المذهبة في بيروت أي زوج يمكن أن يناسبها . وما أكبرها فضيحة إن هي غامرت بحب مسيحي ، أو شيء كيفما اتفق !

وتسأل الأم ، عندما تقص عليها ابنتها أخبار بالانها :

أحقاً ، يا سلمى ، لا تجددين بين هؤلاء الشباب شخصاً ياسبك ؟ وتطمئننا سلمى ، وهي تضحك .

— لا تخشي من شيء ، أبنديم ، إن لديّ قلباً من الصخر .

ولكنها لن تقول لها ، بأنها أقسمت أنها لن تحب أبداً مخافة أن تتعذب . ذلك أن وراء قناع اللامبالاة الذي تضعه الأميرة ، تختفي المراهقة ، ابنة الثالثة عشرة ، والتي تخلى عنها الرجل الذي ملأ حياتها يوماً ما ، والتي تبكي .

أما بين الجوار فالنقد قائم على السلطانة التي تترك كل هذه الحرية لابنتها . ذلك أن أسر البورجوازية الصغيرة ، التي كان نساؤها مازلن يغطين وجوههن بحجاب أسود ، يرين أن تطور العادات بهذه السرعة ، مع مجيء الفرنسيين ، شيء يهدد فضيلة الفتیان ، وتوازن العلاقات القديمة ، وجملة المجتمع ، في آخر الحساب .

ثم إن بعض النساء يقلن : إن هذه ليست المرة الأولى التي نرى فيها الأوروبيين يدفعون الشعوب التي يحكمونها ، إلى الفساد ، بغية إضعافها ، والسيطرة عليها بسهولة أكبر . فإذا أجبناهم بأن الفرنسيين يعيشون هم أنفسهم بهذه الطريقة ولا يرغبون عليها أحداً ، فإنهم يجيبنا : بأن المثال ، نوع من الإرغام الخفي ، على العقول الفتية .

وهؤلاء النسوة يعتبن على السلطانة التي ينبغي لها، بحكم وضعها، على ما يقدّر، أن تكون أول من يعمل للمحافظة على التقاليد. وقالت إحداهن لزينيل: «إذا كان مرض السلطانة في قلبها، يمنعها من مراقبة ابنتها، فلماذا لا تكلفك بذلك أنت؟»... ولو أنها انطلقت على سجيتها لأضافت القول: «وأخيراً، أمن أجل لا شيء، جعلوك خصياً؟».

وقد أجاب زينيل بجفاف:

— إن السلطانة تعرف ما عليها أن تفعل، وأدار ظهره إلى هذه المتأدية في كلامها.

أما في الواقع، فإنه هو أيضاً يرى أن سلمى أصبحت شديدة الانطلاق. وبديهي أنها لا تخرج إلا محفوفة بخيري الذي يأخذ دوره كحام، أو وصي، مأخذ الجد، بأكثر مما يجب، أو بأخواتها وإخوتها الذين تبنتهم العائلة، مثل أمل ومروان. فما من شيء إذن يمكن أن يحدث لها. وفي البداية كان هو الذي يرافقها إلى بعض حفلات الرقص التي تدعى إليها. وكان يبقى واقفاً على الباب، محزوماً باستامبوليته إلى جانب الخدم، ينظر إلى الأزواج يرقصون. ولكن سرعان ما فهم أن حضوره لا معنى له، عدا ما يجده فيه من مذلة — وهو ليس بخادم. ذلك أن الفتيات كن يراقبن من قبل أمهاتهن، عن كثب، ويجلسن حول حلبة الرقص، ويتناقطن آخر الإشاعات، من غير أن تزوغ عيونهن لحظة واحدة عن ذريته الثمينة.

ولكن مبدأ هذه الأمسيات، هو الشيء الذي يستنكره زينيل؛ فهو لا يفهم ولا يقبل هذا الرقص الأجنبي، وهذا التماس الجسدي بين الرجال والنساء، بهذه العلنية. حتى إن دمه ليغلي من مجرد فكرة أن بعض أيدي الذكور يمكن أن تنساب لتلف ساعد الأميرة، وخصرها. فهي من النقاء بحيث لا تدري ماذا يحول بخاطر كل هذه الذكور، تحت غطاء التربية السليمة. أما هو فيعرف.

وبديهي أنه يريد أن تكون سلمى هي الأجل، والأكثر من يحتفل بها، ولكنه يريد أيضاً أن تكون الأشرف، والأكثر احتراماً. وعندما يرى هؤلاء الكبار يدورون حولها، فإنه في الوقت نفسه مسرور ومجروح. وهو يحب أن تحاط بالإعجاب، ولكنه لا يحتمل أن تُمسّ بالسوء. وهو يراها، في عقله، مثل هذه التماثيل الصغيرة اللطيفة للعدراء مريم التي يضعها المسيحيون تحت غلاف زجاجي ويعبدونها. فابنته الصغيرة، ينبغي له أن يحميها، حتى ضد رغبتها. وسيتحدث إليها بذلك.

ومنذ الكلمات الأولى التي قالها الخصى، نظرت سلمى إليه، مندهشة. ولكن سرعان

ما غلب الاستنكار على الدهشة : فبأي حق يخاطبها بهذه الصورة . ذلك أنها لم تقبل أي ملاحظة ناقدة إلا من أمها . وأحياناً — ولكن من زمن بعيد — من أبيها . ولكن أتقبلها من زينيل . فمسؤولياته الجديدة ، وثقة السلطنة ، أضاعت له رشده وتجاوز كل الحدود ... فهو ينسى من هو ، ومن هي ! ولن تنجيّه ، ولن تشرح له أن هذه الأوضاع الحرة ، إنما هي طريقة في الدفاع عن نفسها ، وإخفاء شدة حساسيتها . ولن تخط من قدرها بالدرجة التي تبرّر له فيها سلوكها . وما دام قد أعطى نفسه الحق بالحكم عليها ، فقد جعلها هي تخرج من جلدّها ، وتغالف مألوف عاداتها معه . وهي تحسّ بأن ما فعله هو نوع من الشتيمة ، وأكثر من ذلك إيلاماً أنها ترى أن في هذا نوعاً من قلة الوفاء من جانب خادم قديم ، يفترض فيه باستمرار أن يكرمها أكبر التكرّم ، ويحيطها بأكبر الإعجاب ، ويمنحها أكبر الوفاء .

وينزع من التحدي ، لبست معطفها ، وضعت على رأسها غطاءه الأخضر ، وخرجت من البيت ، بعد أن أغلقت الباب بشدة .

— ولكن ماذا يا آغا ؟

ذلك أن السلطنة سمعت من البهو الصغير الذي تقضي فيه بعد ظهرياتها ، وحيث كل شيء في هذا البيت هادئ — سمعت ضجيجاً غير مألوف . غير أن السحنة الممتعة التي رأتها على وجه زينيل جعلها تتوقع دراما ، أو مأساة . ولكن الخصي يتردد ، وعليها أن تأمره بالكلام .

وقصّر زينيل ، دفعة واحدة ما يسمعه من نقد الجيران ، والهذر ، والتلوينحات الخبيثة ، كما أشار إلى شكوكه هو : فهل من حق أميرة عثمانية أن تعيش حياة كحياة أية فتاة أخرى لاعلى التعيين ، في المجتمع اللبناني . أولاً ينبغي أن تحتفظ بشيء من البعد ، وترفض الاختلاط بهذا العالم الذي لا تناسب إليه ؟ فما من إنسان من هؤلاء الشبان كان يطعم في شرف النظر إليها أو لحها : وهذا ، على ما يعترف به ، يثير أكبر الإثارة ، ويستنكره أعظم الاستنكار .

وكان يتوقع أن يُحبّد رأيه ، أو أن يفهم ، في أقل الدرجات ، من قبل السلطنة . وعندما يكون الإنسان فقيراً ، أفريقي له شيء آخر غير كرامته ؟ ولم يتوقع تلك النظرة الغاضبة ، واللّهجة الجارحة ، من ناحيتها قط ، عندما قالت له :

— إنك لا تفهم من هذا شيئاً . أما الجارات فلا تهمني أقوالهن في شيء ، ولم أكن أتخيل ، وأعترف بذلك ، أنك تُعيرهن أذنأ صاغية إلى هذا الحدّ .

واكتأب رينيل، أكبر الاكثاب . ولكن السلطانة عادت حالاً لتصبح رقيقة معه !

— يازينيل المسكين ، لقد كنت ، مع ذلك ، معي في قصر تشيريغان ، حيث كنت سجيناً . أفلا تتذكر كم كنت تعيسة ، إلى درجة الموت ؟ وعندما يكون الإنسان ، مثلي ، قد قضى شبابه حبساً ، فإنه يقدّر قيمة الحرية . وفي قصر أورطاكوي ، كنت حرة ، ولكنني لم أخرج أبداً وأريد أن تشعر سلمى بحريتها . ويجب أن تفهم أن حرية بيروت غير حرية استامبول . وعندما تستمتع ابنتي بالحياة ، ومن غير أن تتجاوز بعض الحدود — وثقتي بها كبيرة هنا — فأنا سعيدة بهذه المتعة .

لكن خديجة لا تشير إلى المبرّر الآخر ، لتسامحها ، وهو على صلة بمرضها . وهي تعلم أنها قد تعيش عشرين سنة ، ولكنها قد تصاب بأزمة مفاجئة ، تودي بها ، بين يوم وآخر . فإذا بقيت ابنتها بريئة ، ساذجة ، ككل هؤلاء الفتيات المحميات أكثر مما ينبغي ، وإذا كانت لا تعرف من هذا العالم شيئاً ، فماذا يحدث عندئذ ؟ وهكذا فإن المآسي التي مرّت بها منذ الطفولة ، وطلاقها ، وانتهيار الأميرة ، والدمار ، والنفي ، كل هذا أزاح عن السلطانة كثيراً من الأفكار المسبقة . ولا يسوءها أن تتعرض سلمى للتجارب ، ويشتد عودها : فإذا جاء يوم وجدت نفسها فيه وحدها ، فيجب أن تعرف كيف تواجه الحياة .

٦

فيلاديتين تيدريك إيديريم ! ليكن مباركاً يوم ولادتك ! ولتزهـر زمناً طويلاً ورود خديك ، ولتقلأ
روائح الجنة أنفك ، ولتكن حياتك كلها عسلاً ولبناً !

واجتمعت الأسرة في الصالة التي قامت الكالفاتان بتزيينها بطاقات الحبيزة والداتورا ، لكي
تحتفل بالعيد العشرين لولادة سلمى . وكانت الهدايا المقدمة قد صُفّت على الطاولة المصنوعة من
الخشب المذهب ، وأحاطوها ، بعناية ، بالورق البلوري . فقد جاءها من نيرفين وليلى خانم مناديل
لطيفة من الباتيسـتا ، طرزناها بأرقام سلمى ، وفوقها تاج ، ومن زينيل زجاجة من « الكريب دوشين »
من صناعة ميبو ، وهي الرائحة التي تفضلها لدى العزيز زينيل . والذي احتاج إلى أن يحرم نفسه من
السجائر خلال أسابيع لكي يستطيع شراءها لها . أما خيرى ، العملي دوماً ، فقد قدم لأخته علبـة من
الفواكه المجففة التي يمكن لأهل البيت جميعاً أن يستفيدوا منها . أما السلطانة ... فقد هيأت مانطو
من الزيلين ، وهو روعة تتذكر سلمى أنها رأتـه على أمها في الماضي ، عندما كانت تذهب إلى « ضوالة
باهتشه » ، ووضعتـه على الفتوي .

— ولكن يا أئندجيم ، لماذا ؟ (قالت سلمى ذلك محتجة) .

— لم أعد أستعمله يا غالية ، وأكون سعيدة إذا لبيسته أنت ، ولطالما حسبـت أن من الشتيمة
لمثل هذا الفرو الجميل أن نَقْدَم له وجهاً ، ممتلئاً بالتجاعيد ، وبالمقابل فإنه متى مسّ بشرة غصـة ،
عاش من جديد .

وأشعلت نيرفين هائم الشمعات العشرين الموضوعة على قالب الكاتو الكبير، بالشوكولا . وكانت قد نهضت من نومها في الصباح الباكر لكي تهيئه وتصنعه . فهي تعرف كم أن أميرتها شرهة : ومادام هذا عيد ميلادها ، فلن تقدّم لها كاتو اليوم السابق .

وتأمل سلمى ، حاملة تلك « الشُعَل » التي تتراقص ، وقليلًا فقليلًا تراها تتحول ، وتكبر ، وتتكاثر . وهي الآن ماثات ومثات تتألق تحت ثريات الكريستال في قصر أورطاكوي . وكانوا في أعياد ميلادها ، في عهد الطفولة يشعلونها كلّها ، على شرفها . وتعود تفاصيل هذه الحفلات الفخمة كلها إليها الآن ، واحداً بعد آخر . وكانت الأوركسترا النسوية التي توقظها على نغمات الموسيقى ، بينما كانت الإماء تعني بها لجعلها أجمل ما يمكن ، تستمر في عزف الأنغام التي كانت تحبّها ، ثم يأتي دور الكالافات الصغيرات ، الاثنتا عشرة ، وقد لبسن ثياباً جديدة قدمتها لهن السلطانة ، فيأتين ويواكبنها إلى بهو المرايا ، حيث كان أبواها ينتظرانها ، هما وكل من كان من الحرملك . وعندما كانت سلمى تدخل ، كانت الأوركسترا تبدأ بعزف لحن عيد الميلاد — وكانوا في كل عام يؤلفون لحناً جديداً — وكانت الكالافات ترمي فوقها آلافاً من زهرات الياسمين الصغيرة التي كانت تعطر الغرفة كلها .

وعندئذ يبدأ توزيع الهدايا التي تكون سلمى قد اختارتها مع أمها السلطانة ، لكل واحدة من إماء القصر ونسائه . ذلك أنهم ، في المشرق ، يعرفون ، أن في العطاء من السعادة أكثر من تلك التي توجد في الأخذ ، وأن عيد الميلاد يجب أن يكون يوم عيد بالنسبة لكل من يحيط بنا . وأخيراً وعندما تكون مظاهر الفرح ، وتوزيع الهدايا ، قد انتهت ، كانت تأتي أمتان وتسحبان البساط الحريري ، الذي كان يخفي في جوفه جبلاً من الخزم ، من أشكال وألوان متنوعة .

وكانت سلمى تحتاج إلى ساعتين أو ثلاث لتفتح هذه الخزم ، وتنظر في محتوياتها ، وكان فيها تلك الهدايا الصغيرة التي تقدمها الكالافات ، والحشم ، وحتى الإماء الصغيرات . وكان هنالك أيضاً « تلك الخزم — الكاذبة » خزم خيري ، والهدايا الرائعة التي تقدمها السلطانة ورؤوف بك . وكثيراً ما تذكر سلمى ، بشكل خاص ، عيدها الثالث عشر ، أو الأخير ، قبل النفي . ذلك أن أباهما استقدم من باريس ، من عند بائع الحلبي المشهور كارتبييه ساعة صغيرة عجيبة ، لم تستطع البنية أن تفهمها لأول وهلة . وكان الإطار الكريستالي محاطاً بلآلئ وماسات ؛ وكانت عقارب الساعة من الماس أيضاً ؛ وكان الرقاص المصنوع من الذهب ، والمعلق بين عمودين صغيرين من الكوارتز الزهري ، ينعكس في قاعدة من الكريستال الصخري .

وعندما تركت سلمى استامبول ، أعطت وقلبا يخزها ، أعطت هذه الساعة لغوليفيليس : ذلك أنها كانت لا تريد أن تحتفظ من أب لم يعد يحبها بأي شيء . ولكن كم تأسف هي اليوم على هذه الحلية الناعمة التي كانت تحدّثها عن رقة ذاك الذي لا تستطيع نسيانه . ترى ماذا كان سيقدم لها ، وهي في عيد ميلادها العشرين ؟

ومن خلال الشعل التي تترنّح ، كانت سلمى ترى نفسها لا بسة ثوباً طويلاً له ذيل ، وعلى جبينها تاج . كما ترى باقات وأزهاراً نارية ، تلهب حديقة قصرها ، قصر الدانتيل ، وأوركسترات متوالية في الغويبات ، تعزف فالسات رومانتيكية . أما هي فإنها تمشي والوجه معرض لنسائم البوسفور ، وحولها نساء يلبسن قفطانات مطرزة بالذهب ، يهرولن ويضحكن من سعادتها ...

وبدأ الشمع يسيل على قطعة الكاتو الشوكولاتية . وبنفخة واحدة قوية ، أطفأت سلمى الشموع ، وصقّت الكالافات . وهذا يعني ، على ما يتنبأ به ، أن الأميرة ستتزوج خلال السنة . أتتزوج إذن ؟ ولكن من ؟ إن سلمى تعرف أن أمها عادت إلى مراسلة بعض أسر الأمراء ، الذين كانوا ، في الماضي ، من أتباع الأباطورية ، وحزرت الآن أنها كانت موضوع هذه الرسائل ، ولكنها تتظاهر بأنها لا تعنى بهذا الأمر . وعدا ذلك فإنها تجد نفسها أصغر مما يجب للزواج ، وبدأت تتذوق لذة المغازلة والمحاوطة . ولا ترغب في وضع حدّ لها ، بهذه السرعة !

ومع ذلك فإنه عندما تزوج الأمير أومبرتو الإيطالي ، من الأميرة ماري — جوزي ، البلجيكية ، منذ عدة أشهر ، وواكبها ستة ملوك وستون أميرة حتى المذبح ، لم يسع سلمى أن تمنع نفسها من الرغبة في مثل ذلك ، ولكنها لن تتزوج أبداً زواجاً عظيماً كهذا ، على حين أنها في نفس الدرجة من النبل ، وأكثر جمالاً بكثير من هذه الماري — جوزي ! غير أنها لن تحمل في سلّة عرسها شيئاً آخر غيرها هي ...

وفي ربيع العام ١٩٣١ ، كان الإضراب والمظاهرات تشل مدينة بيروت . وكان الشارع يصطدم بقوى الشرطة ، بحجج واهية أحياناً ، مثل الحصول على مقاعد أرخص سعراً للطلاب في السينما . وكان هنالك إضراب عن الحافلات والكهرباء ، نظّمتها لجنة من التجار ، والطلاب ، والوجهاء ، وقيل إنه سيتتابع حتى نهاية شهر حزيران / يونيو . وعلى سبيل التضامن ، فإن البرلمان نفسه يعقد بعض الجلسات على ضوء الشموع . وهكذا فإن الحكومة التي سماها المفوض السامي الفرنسي ستضطر إلى أن تطلب من الشركة صاحبة الامتياز خفض أسعارها . وهي شركة أجنبية ، فرنسية — بلجيكية ، كأكثر الشركات التي تشرف على الحياة الاقتصادية في لبنان منذ بدأ عهد

الانتداب . وهذه الشركات الأجنبية هي التي كان اللبنانيون آنذ يضعونها موضع الاتهام ، ويرون أن فرنسا ليست موجودة على أرضهم إلا لفرض الضرائب الثقيلة ، تغذية لجيش من الموظفين العجزة ، وتصدير ما لديها من تضخم عن طريق ربط الليرة اللبنانية بعملتها هي ، أي الفرنك . كما يتهمونها بأنها لم تحترم الدستور الذي أصدرته هي عام ١٩٢٦ ، ومنحته للبلاد . وحقاً فإن المفوض السامي هنري بونسو الذي حل محل هنري دو جوفنيل ، ألغى مجلس الشيوخ ، وعزز السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية ، وفرض إعادة انتخاب تابعه شارل دباس ، لرئاسة الجمهورية .

ومروان الذي يدرس الحقوق في الجامعة الأمريكية ، يعود إلى البيت كل يوم ، وهو ثائر . وحتى أصدقاؤه المارونيون ، بدأوا يثرون على الوصاية التي فرضتها فرنسا على إدارة شؤونهم . ونراه يتحدث ، بصوت منخفض ، إلى أخته وإلى سلمى عن شخص اسمه أنطون سعادة ، وهو مسيحي لبناني في الثلاثين من عمره ، عاش ما بين البرازيل وألمانيا ، وعاد أخيراً إلى بيروت . وأسس في الجامعة جمعية سرية يجتمع فيها الشبان من كل الأديان : وهم يريدون التحرر من الفرنسيين وإعادة خلق الأمة السورية الكبيرة التي تضم ، فيما يقولون ، لبنان وفلسطين : إنها سورية الموحدة ، التي ستنشط العالم العربي وتقاوم كل تدخل أجنبي .

أما المطالبة بالاستقلال ، ومشكلة الاحتلال حتى ولو أطلق عليه اسم الانتداب ، فإن سلمى عاشت مثل ذلك كله في تركيا ، وتأملت منه بدرجة كافية ، لكي تفهم نفاد صبر أصدقائها . فقد أصبح كل واحد منهم يهوى السياسة . وفي السنة القادمة عندما يخل موعد الانتخاب ، فلربما هوى كل شيء قائم الآن .

لكن أكثر المرشحين لرئاسة الجمهورية هم من الموازنة . ومن أبرزهم ، إميل إدّة ، وهو رجل قصير القامة في السابعة والأربعين من عمره ، ومعروف بسلامته الخلقية وعواطفه المنحازة إلى فرنسا ، وبشارة الخوري ، وهو محام لامع ، أكثر انفتاحاً على العالم العربي ، وأشد نقداً لنظام الانتداب . ويقف ضد هؤلاء جميعاً رجل مسلم هو الشيخ محمد الجسر ، رئيس البرلمان . وهو رجل وسيم ذو لحية بيضاء ، محترم بين أئداده المسلمين والمسيحيين على السواء . وكان نائباً في العهد العثماني ، ونائب حاتم بيروت . وأثناء الحرب قام بخدمات كبيرة للطائفة المارونية ، وأنقذ بطريقها من النفي . وهكذا فإنه مدعوم لا من قبل الشيعة والسنة والدروز فحسب ، بل كذلك من الكثيرين من الروم الأرثوذكس ومن الموازنة . ولما كان المسيحيون منقسمين على أنفسهم ، فإن حظهم من النجاح يصبح كبيراً .

ولكن أيقبل مسلم على رأس الحكم في لبنان ؟ ويرى كثيرون من المسيحيين اللبنانيين ،

وفرنسا التي فصّلت لهم بلداً على قياسهم بُغية أن يكون لها في الشرق الأوسط حليف موثوق ، أن هذا غير معقول ، إذ يوشك أن يرمي لبنان في فلك سورية والعرب !

وكانت المشكلة عويصة جداً بحيث احتاج المفوض السامي ، بعد أن رأى مجلس النواب منحازاً إلى الجسر ، ورأى السيد ريمون إدّة يدعمه ، لأسباب تتعلق بالاستراتيجية الانتخابية ، إلى تعليق الدستور قبل ثلاثة أيام من موعد الانتخابات . وسيبقى على شارل دبّاس الذي يحكم بقرارات ، لها قوة القوانين ، وموضوعة سلفاً في السراي الكبيرة ، رئيساً للبنان لمدة عشرين شهراً .

ولكن الناس ، في صيف هذا العام ١٩٣١ ، لا يتوقعون قيام المفوض السامي بحركة كهذه . بل على العكس أصبحت سلطات الانتداب المتجاوزة للحدود المعقولة ، موضع بحث في الدوائر العليا ، ولا سيما بعد أن نُجحت الإضرابات .

وتقضي سلمى ساعات في النقاش مع مروان وأمل . ونراها تستاء أشد الاستياء من موقف الفرنسيين ، وملاى بالحماسة للشيخ الجسر ، وهو صديق السلطنة يساعدها بأكثر ما يستطيع منذ أن جاءت منفية : وهي لم تنس قط تلك الليلة التي قضاها في قصر ضويلة باهتته ، عندما كانت لا تزال في عمر الرابعة . وكان يصحب أباهما إلى الدعوة الموجهة إليه من قبل السلطان عبد الحميد . وتقف سلمى بين أنصار الشيخ الجسر المتحمسين جداً . وظلت تفعل ذلك حتى جاء ابن عمها أورهان مع خيري ، إلى شارع مار الياس ، وأنبأها بعنف على ما تفعل .

— إن هذا كله أمر لا علاقة له بك ، أيتها الأميرة . وليس عليك أن تدخلي فيه .

وعلى الطريق ، أمعن أورهان في تأنيبها ، لمدة طويلة .

— سلمى ، أأضعتِ صوابك . أتريدين أن يطردونا جميعاً مرة جديدة ؟ وإلى أين نذهب ؟ أرجوك أن لا تكثري من الكلام ، وتذكري أننا لسنا في بلادنا .

ترى أكان يمكن أن تنسى ذلك . ولكن عليها أن تعترف أن أورهان على حق . ذلك أن أفراد الأسرة العثمانية ما يزالون يُنظر إليهم وكأنهم السادة القداماء . فلا يمكن أن يسمحوا لأنفسهم بالتحيز لأية جهة . « وحتى بين الأصدقاء ينبغي أن تظلي على الحياد ، إذ ما من شيء يبقى خافياً على الناس » .

وتعرف سلمى أن هذا هو الموقف المعقول ، ولكنها ترى صعوبة في قبوله . فلقد ورثت من أمها

السلطانة، ومن كل أسرتها، ذلك الهوى الذي يحملها على الاهتمام بالسياسة، والحاجة إلى النضال من أجل قضية كبيرة. وكان هذا الهوى معروفاً لديها، منذ كانت في التاسعة من عمرها في ساحة السلطان أحمد، مع الجمهور الباكي، فقد عقدت النية عند ذلك على العمل لإنقاذ تركيا. ولكنها لم تعد تعرف ماذا تفعل بهذا الهوى، الآن، عندما لم يبق لها وطن، وعندما أصبحت مجرد ضيفة. لم يبق لها إذن إلا العلاقات الاجتماعية، والدعوات التي تتلقاها على العشاء، والبالات حيث يروقها أن تلمع. أما السينا فللنهار. ذلك أنها تكره أن تلعب بالورق أو تلقى صديقاتها لتناول الشاي وتبادل الحديث في إشاعات كل يوم. وليس لديها ما يكفي من المال لكي تقضي وقتها لدى الخياطة، أو لدى الحلاق. ولولا جلسات الريالتو والماجستيك، بعد الظهر، لكانت الأيام طويلة جداً.

ومنذ عشر سنوات، فرضت هوليود نفسها كعاصمة «للفن السابع»، ولقد وصف تشرشل في مقال له في جريدة الـ Reveil، إحدى أهم جريدتين في لبنان، بعد أن تخلّى مؤقتاً عن العمل السياسي، وزار الولايات المتحدة، وصف هذه المدينة الجديدة «ككرنفال في بلاد الجن». فالستوديوهات تغطي آلاف الفدادين التي تؤوي آلاف الممثلين — الاختصاصيين من ذوي الأجور العالية. وهناك جيوش من العمال يبنون بسرعة ومهارة شوارع صينية، أو لندنية، أو هندية. وقد يجد الإنسان عشرين فيلماً في آن واحد. «والشباب والجمال هما ملكا هذا العالم».

وعلى كل حال، فإن نجوم هذا العالم هن الأمباطورات، اللواتي يفرضن معايير الموضة النسوية على العالم كله. فإذا ظهرن على الشاشة، ابتهجت الجماهير أكبر الابتهاج. وما من يوم بلغت فيه ملكة ما، مهما كانت شعبيتها طاغية، درجة الشهرة التي بلغت «الملك الأزرق» أو «المرأة السماوية la Divine...».

وتذهب سلمى لرؤية كل فيلم من أفلام هؤلاء. فمارلين تهزها وتغريها. أما في شخصية «لولا» فإن صوتها الأجنس، وشهوانيتها المضطربة، عندما تغني «إني ملأى بالحب، من الرأس إلى القدمين» كل ذلك كان بالنسبة لفتاتنا اكتشافاً حقيقياً. أو يمكن أن نحمل الرجال على الافتتان إلى هذه الدرجة؟ ولكنها تحدها أجمل في فيلم «موروكو» عندما سحرت الجندي غاري كوبر، وهي في السموكنغ، واللباس الرسمي جداً، أو عندما تراها في فيلم ماتا- هاري، مرة كطيارة في لباسها الرسمي، مرة امرأة مشؤومة، تصلح، بحركة أخيرة، حمرة شفتيها الحلوتين بحد سيف الضابط المكلف بإعدامها.

ومع ذلك فإن غريتا غاريو هي التي تستهويها أكثر من كل واحدة أخرى. وهي تحلم بأن تشبهها، فقد نرعت بعض شعرات حاجبيها وزينت شعرها مثل غاريو. وخلال ساعات طويلة، نراها تقف أمام المرأة، وتبذل جهداً في تقليد حركاتها الجافة نسبياً، ومشيتها المرتاحة، وتعبيرها اللامبالي، الذي لا يمنع من أن نخزر وراءه لهيباً، تلاحظ سلمى أنه كلهيب هواها هي. وتبعاً لكونها جاءت لترى فيلم Love الحب، حيث تجسد بطلته آنا كارينين، أو المغازلة la Courtisane، أو ماتا— هاري، فإنها تكون مرة بعد مرة سريعة العطب ورومانتيكية، شهوانية، جريئة على مرأى من زينيل المتعجب، والكالفاتين اللتين لا تفهمان شيئاً من هذه الاندفاعات المزاجية.

وذاً يوم، وبمناسبة استقبال تم في منزل أسرة طراد، وهي من الأسر التي تملك المصارف، والبارزة جداً في بيروت، تلاحظ سلمى رجالاً في الخمسين من عمره، لم ينقطع عن النظر إليها طيلة العشاء. وعندما انتقل المدعوون إلى الصالة لشرب القهوة، فإنه يقترب منها ويقول:

— لقد نسي أصحاب الدعوة أن يقدمونا لبعضنا. فأنا ريشار مورفي، المدير الفني لمترو غولديون ماير، وأنا ألاحظك منذ بداية السهرة، فهل أنت ممثلة؟

وسرّت سلمى لهذا المديح، وفتحت فمها لضحكة خفيفة وقالت:

— هل تدل هيتي على ذلك؟

— أنت جميلة، وهذا لا ريب فيه، ولكن ليس هذا هو الأهم. ذلك أن لك حضوراً وهذا أمر نادر جداً. فهل فكرت يوماً ما بالدخول في عالم السينما؟

— لن أكون قادرة على ذلك أبداً...

— هيا، لا تكوني متواضعة. فالتحرك أمام الكاميرا، هو مهنة، وهي تتعلم. ولكن الذي ينقص هوليود، هو هؤلاء الفتيات الشابات مثلك، ممن يمتلئن حيوية، ورقة، مع وجود المستوى الذي ينبئ عن نفسه، بمجرد النظر. وأريد أن أقول لك شيئاً قلما أقوله: إنك من قماش الكواكب. فما هو اسمك؟

— سلمى...

— رائع، وخلال سنة سيكون هذا الاسم معروفاً لدى الناس جميعاً، ذلك لأنني، يا آنسة سلمى، أريد أن أقود خطاك إلى الجحيم. فهل تسمحين لي بذلك؟

ولا يقول ريشار مورفي أنه استعلم، وأنه يعرف جيداً من هي سلمى، وأن هذا وحده هو الذي يهمه. ذلك أنه إذا كانت الفتاة حلوة، فإنها، على الأرجح، ستكون ممثلة تافهة. أما المهم فهو أنها أميرة! أميرة في هوليوود!... ويكاد من الآن أن يرى عناوين الصحف. فالأمريكيون يجنون بكل ماله رائحة الأرستقراطية. ومع حفيذة لسلطان، وحتى إذا كانت الأفلام تافهة، فإن الـ MGM ستسبق بكثير الكولومبيا، والوارنر والفوكس!

ولكن المسألة ليست بهذه السهولة. إذ لا يمكن للسلطانة المعروفة بطبعها المتصلب، أن تسمح لابنتها بأن تنطلق إلى مهنة، لا بدّ أنها تعتبرها معادلة لمهنة المومس. ثم هي في الجانب الآخر من العالم، في هوليوود، هذا المكان المضيق! ويتسم مورفي داخلياً: «فماذا إن هو أخذ الأم مع البنت لتراقبها؟... سلطنة مكتهلة محجبة في هوليوود. إن الضربة ستكون عبقرية... ولكن لا ندع لنفسنا أن نحلم: فإن الصغيرة هي التي يجب إقناعها وإغراؤها، بآمال المجد، إلى الدرجة التي تكون معها قادرة على تجاوز الاستئذان من أمها. فهي في عمر الرشد، أخيراً! وها هو الخطر يمدّ يده إليها. إن حياتها كلها هنا في الميزان».

وهذا ما حمل ريشار مورفي على العمل لإقناع سلمى. فهو يسكن الآن ضيفاً عند عائلة طراد، وسيدعوها هنا كل يوم إلى حفلة شاي. ولا ينبغي أن يترك لها الفرصة لتعود فتناسك وهو يعرف التكتيك الذي يجب استخدامه مع هؤلاء الفتيات الطموحات والساذجات. وهو لم يعرف الخيبة قط.

— سلمى، أعتقد أنك أصبحت مجنونة تماماً!

وها هي السلطانة منتصبة على كرسيها، وحاجباها متقطبان، وهي تنظر إلى ابنتها كما لو أنها تحاول الإمساك بالشخص الغريب الذي يكلمها.

وللمرة الثالثة، تعود سلمى فتقدم شرحها للموضوع.

— أيندجيم، أرجوك، حاولي أن تفهمي. فالـ MGM هي أكبر شركة للسينما في العالم. ويريدون أن أعمل معهم. إنهم يعتقدون معي عقداً ذهبياً: خمسة أفلام في العام، وفي كل منها أنا البطولة. وهل تعرفين كم يدفعون لي؟ مئة ألف دولار في العام. تخيلي إذن. سنستطيع أن نشترى لأنفسنا قصرًا، وستكوني براحة حتى آخر أيامك.

— إنك طفلة . أفلا تتخيلين فساد الجو المفعم بالممثلين ، وما فيه من اللاأخلاقية ؟
— أوه ، ولكنني أعرف كيف أفرض احترامي . وأصلاً فإني أفهمت أصحاب العلاقة أي لن
أمثّل أدواراً جريئة ، وقد قبلوا .

— أدواراً جريئة ! ... وقد قبلوا ! ... إنه لشيء حسن من جانبهم . وحقاً فإني أرى الآن أنني
أنا التي أصبحت مجنونة . ولن أناقش لحظة واحدة بعد الآن في هذا المشروع اللامعقول .
ونفرت الدموع إلى عيني سلمى ، وهي لا تحاول حتى إيقافها . فنهضت واجتازت الغرفة
بخطوات كبيرة عاضبة .

— بدأت أفقد الصبر من الحياة التي أعيشها ! من حفلات الشاي الراقصة ، والدعوات إلى
العشاء ، والبالات ثم البالات ... وها إني قد قضيت أربع سنوات بعد أن غادرت المدرسة . وعمري
واحد وعشرون عاماً ، والزمن يمضي ، ولم أفعل شيئاً بعد بحياتي .

وشعرت السلطانة أن في هذا الانفجار العاطفي الشاب ، آثار مرارة ، وبأس ، يرهقانها .
وكانت تفكر أيضاً بأن ابنتها لا تستطيع أن تكتفي بهذه الحفلات ، كشغل لحياتها .

فقال بصوت حنون :

— هيا ، ياسلماي . لا تأخذي الأمور بصورة مأساوية والحقيقة أن لك من الشخصية
أكثر مما ترضين معه بحياتك هذه . يجب أن نزوجك .

ووقفت سلمى . وقالت بصوت ساخر :

— وأين هو الأمير الرائع ؟

وردّت الأم من غير أن تفارق هدوءها .

— لقد فكرت أنه ينبغي لك ملك .

فنظرت سلمى إلى أمها مذهولة : إذ ليس من عادة أمها أن تترحم ! وقالت :

— ملك ؟ ولكن ...

ومن غير أن يبدو على السلطانة أنها لاحظت دهشة ابنتها نابت كلامها بنفس اللهجة :

— شكرًا لله ، فما يزال هناك بعض الملوك على هذا الكوكب . والملك الذي فكرت فيه لك ، هو زوجو ZOG ملك ألبانيا . ومنذ بعض الوقت ، قمت ببعض الاتصالات ، السرية طبعاً . وأنت تعرفين أن أخته تزوجت منذ مدة قريبة ، عمك الأمير عابد ، أصغر أبناء السلطان عبد الحميد . وهذا مما ييسر المفاوضات . وأنا لأخفي عنك أن الملك أحمد زوجو ليس بملك كبير ، ذلك أنه لا يحكم إلا ما هو قريب من المليون نسمة . ولكنه ما يزال شاباً ، وهو جميل ، ويبدو أنه يملك صور التعامل الحلوة ، ولا يُعرف له عيب شائن . ثم إنه يتكلم التركية بطلاقة لأنه أتم دراسته في استامبول ، وهو يُكِن أكبر الاحترام لأسرتنا .

ومن الناس من يدّعي أن الملك زوجو ، أو أحمد زوجو ، على الأصح ، هو ملك حديث النعمة ، وأن أسرته هي من صغار النبلاء ، وأنه تُوج ملكاً ، بنوع من الانقلاب . وعلى كل حال ، فإنه أعاد الأمن إلى نصابه في هذه البلاد الفقيرة التي تمزقت بين مختلف الأحزاب ، منذ استقلالها عام ١٩١٣ وعلى كل حال فهو رجل شجاع . ويقال إنه ليس شديد الذكاء . ولكن هذا أفضل ، في آخر الحساب : إذ لن يكون ذلك إلا سبباً لزيادة نفوذك عليه .

فما رأيك في هذا ؟ أفيرضيك أن تكوني ملكة ؟

« أي دور » وقضت سلمى ليلها بالتقلب في سريرها ، مرة لطرف ، ومرة لطرف آخر ، ذلك أنها أكثر هيجاناً مما تستطيع معه النوم . وفجأة تظهر لها أنوار هوليوود براقه وتافهة : وستكون ملكة ، ولكن لا ملكة من السيلولويد ! ومنذ الغد ستخرج مخرج مترو غولدوين ماير أنها لم تعد مستعدة لتوقيع العقد ، وأن لديها ما هو أفضل كعمل ! وتتخيل دهشته : سيفتح فاه ليصبح أكبر من فم الأسد الذي جعلته الشركة شعاراً لها ، وسيطرح عليها ألف سؤال . وبديهي أنها لن تستطيع أن تجيب بشيء .

وخلال الأسابيع التالية ، ستغرق سلمى في كل الكتب ، وكل المجلات ، التي تتحدث عن ألبانيا . واتفقت مع أمل على القيام بغزو على جميع مكاتب المدينة ، لأنها الوحيدة التي حدّثتها عن هذا الموضوع . ستقرآن ، وتناقشان ، وتُشغفان بالاطلاع . غير أن ما تكتشفانه ليس بالمرح دوماً . لاشك أن المملكة الصغيرة الجبلية رائعة الجمال : وقد عُرف أبنائها ، وهم فلاحون جفاة وشرفاء كيف يحتفظون بعبادات أجدادهم ، واحتفظوا بقانون رائع لقضايا الشرف . ولكن إذا كان الهدوء يسود هذه البلاد التي تتنازعها خصومات عنيفة بين أسر إقطاعية كبيرة ، فذلك ، على ما تقول بعض الصحف ، لأن الملك زوجو لا يتردد في القضاء على أولئك الذين يعرقلون عمله . وهنالك صحف

تُعجب بكرم الملك، وتوضّح أن الهدايا التي يقدّمها لأصدقائه وأسرته، تنشأ إلى حد كبير عن خلطه بين ماله ومال الدولة.

ولكن سلمى لن تصدق من هذا شيئاً. أولاً تقول الصحف عن العظماء أسوأ الأشياء؟ أولم يُقل في السنوات الأخيرة لحكم أسرتها، أن السلطان حمل معه جزءاً من أموال الدولة، وكذلك مخلفات النبي (ﷺ)؟ وهكذا فقد تعلّمت أن الصحف كثيراً ما تتحدّث عن أمور موثوقة تماماً، وهي في الحقيقة لاتعدو أن تكون مجرد تلفيقات.

وبالمقابل فإنها تسجّل، بانتباه شديد، جملة الأرقام والتفاصيل التي تتحدّث عن فقر المملكة، وعما فيها من تخلف. إذ يجب أن تبنى المشافي والمدارس. ومنذ الآن تتخيل البسمة المطمئنة التي ترسم على وجوه النساء والأطفال، الذين قرّرت أن تكرّس نفسها لهم. وهي تعرف أن مهمتها ليست سهلة، وأنه يجب تغيير العادات، والاصطدام بالمواقع المكتسبة، ولكنها ستناضل، وتشعر فجأة أنها قوية بالحلب الذي يحمّله لها شعب كامل.

وبنوع من الاندفاع العفوي، أحاطت بذراعتها خصّر صديقتها، لتقول لها:

— لن تنسيني. وستأتين مرات كثيرة لزيارتي، أليس كذلك؟

فتعانقها أمل بحنان، وتقول سأتي لرؤيتك طبعاً، أعدك بذلك.

ذلك أنها تقاسم سلمى سعادتها، وكذلك تقاسمها مخاوفها من هذا المستقبل الذي لاتصلان إلى تحيّل على الرغم مما قرأتاه، والمعلومات التي حاولتا التقاطها من هنا وهناك.

ولما كانت من بنات جبل الدروز، فإنها تعرف الجبليين، وتعرف كذلك أنهم ليسوا بأشخاصٍ لينّي العريكة. أما سلمى فإنها من بنات المدينة، وقد اعتادت على حلاوة المدن التي يحيط بها البحر، وعلى بطء الشرق، وطرق تعامله المهذّبة. فكيف ستردّ على الخشونة التي لم تختبرها قط؟ وبدأت، وهي غارقة في تأملاتها هذه، بمداعبة الخصل الحمراء والكثفين الأكثر نعومة من الساتان. وهي تتساءل الآن عما إذا كانت السلطنة، قد أحسنت الاختيار، وإذا كان هذا المستقبل اللامع سيحمل السعادة إلى تلك التي تحبّها أكثر من أخت. ولكنها لن تقول شيئاً. فلئن كان قدر سلمى أن تصبح ملكة، فعليه أن يتحقق.

ومنذ ذلك الحين، ومنذ أن تعود سلمى إلى البيت، نراها تحتلي بزئيل. وخلال ساعات، يتكلمان «على بلادهما» وما فيها من غابات واسعة، وشلالات، وقرى جميلة من الحجارة البيضاء،

جاثمة على طرف الجبل ، وعلى الليالي الطويلة في الزاوية التي فيها النار ، حيث يتسامر الناس حول حكايات فرسان شجعان تحميمهم الجن ، وعن المعيزة الرائعة التي نزوجها ابن الملك ، ذلك أنها كانت تخفي تحت صوفها وقرنها « حساء الأرض » ، وحكاية « الدب النادم » وحكاية « الصوص الساحر » ...

وكان زينيل في الثالثة عشرة من عمره ، عندما أخذه جنود السلطان من قريته في ألبانيا ، إلى عاصمة الأمبراطورية . ولقد حاول النسيان ، ونجح في ذلك جزئياً . ولكنه اليوم يتذكر كل التفاصيل ، كما لو أنها حدثت البارحة .

وفي رأي الخصي أن هذا الزواج هم إشارة من السماء ، تؤكد له قناعته المجنونة ، بأن تلك الليلة ، في استامبول ، وفي قصر أورطاكوي . ستكون السلطنة ... وهو ...

وهكذا فإن بنته الصغيرة تعود إلى أصول دمها . وهي تجهل ذلك ولكن كيائها كَلَّه ، يشدّها إلى هذه البلاد المجهولة التي جاءت منها . أما هو ، الفلاح الصغير ، الذي كان يعدو بأرجل حافية في الجبل ، والذي كان كثيراً ما يشعر بالبرد ، ودائماً بالجوع ، والذي لم يجرؤ قط على رفع رأسه أمام المختار ، سيصبح ، هو نفسه زينيل ، عم الملك .

وهكذا فإن الفرح والزهو يخنقانه . وتستيقظ فيه الرغبة في الغناء . فتستيقظ ، من أعماق ذاكرته بقايا أغان قديمة ، يغنيها لابنته التي ستصبح ملكته . فيبدأ بصوته الرخيم ، ترديد الكلمات التي كانت أمه تغنيها في الماضي .

أريد أن آتي لعندك ، أيتها الغنمة ذات العينين الكحيلتين

أريد أن آتي لعندك يا (كربوجة)

وأجلس على كرسي ، أيتها الغنمة الصغيرة ،

لأشرب الخمر ، يا (كربوجة)

في كأس زهرية ، يا غنمتي الصغيرة

لكي تسعدي مرة ، ولكل مرة ، يا غنمتي الصغيرة

مرة ولكل مرة ، يا كربوجة

— تابع يا آغا ، تابع !

وعندما يرى أن سلمى معلقة بشفتيه ، فإنه يدهش أن تجد هذه القطع المتناثرة من أغنية لا بقية لها ، شيئاً تحبه ، وتريد متابعتها . ويقول في نفسه إنها ، في أعماق قلبها ، تشعر أنها أغانيها .

ومضى شهران . ولا يصل من ألبانيا خبر . وبعد أن أعطت السلطانة موافقتها المبدئية ، فإنها ترفض الآن متابعة الاتصالات . وهذه المفاوضات حرجة بطبيعتها ، وتحتاج إلى وقت . وقد يكون أثر الاستعجال فيها سيئاً جداً .

وأخيراً وصلت الرسالة المنتظرة من زمن طويل ، محتومة بخاتم الأسرة الملكية . وكانت صادرة عن أمين السر الشخصي للملك . وهو شخص في غاية التميّز عرفته السلطانة منذ أن كانت وظيفته في استامبول . وبعد التهانئ المعتادة والتعنيات المتصلة بالصحة والسعادة للأسرة الأمبراطورية ، يقول فيها :

« إنك لا تجهلين ، يا سيدتي السلطانة أن الرئيس مصطفى كمال قرّر قطع العلاقات مع ألبانيا بعد زواج الأمير عابد بأخت جلالته . غير أن الملك مضطر لأسباب تفهمينها ، لإعادة العلاقات مع تركيا . وهكذا فإن الزواج بأميرة عثمانية يفسد نهائياً ذلك التفاهم الضروري بين بلدينا .

ولهذا فإن جلالته ، الشديد الأسف ، مضطر إلى العدول عن هذا المشروع الذي كان يتمناه من كل جوارحه . إلا أن الأمانى الشخصية يجب أن تتمحي أمام مصالح الدولة .

وتفضلي ، يا سيدتي السلطانة ، بقبول » .

وبطبيعة الحال فقد أطلعت السلطانة ابنتها سلمى على هذه الرسالة ، وهي شاحبة الوجه جداً . فقرأتها سلمى ، وانفجرت ضاحكة ، ومزقتها بهدوء .



إنه الغسق. وكتائب من سحب النور والرماد تصعد إلى الغرب، في صفوف مترابطة. والعصافير المستهامة تدور وتدور في السماء، للحاق بالشمس. وتتنفس الأرض، التي تخلصت أخيراً من دهس الإنسان؛ فتدع لأعماقها أن تبت النسخ، وتعطر الجو.

وتقف سلمى في شرفتها متكئة وتُصغي لغناء المؤذن المقطّع بدقات أجراس (كنيسة سان لويس، التابعة للفرنسيين) القريبة من المسجد، والتي تفرع إيداناً بقداس المساء. وعليها أن تلبس ثيابها لتخرج. ففي هذا المساء دعت أسرة ثابت، وهي واحدة من أغنى الأسر المارونية، في لبنان، إلى عشاء على شرف المفوض السامي، الكونت داميان دومارتيل. ويقال إن هذا الرجل ديبلوماسي محنك، ويبدو أنهم يعتمدون عليه، لكي يعيد حكم الدستور الذي علّقه سلفه، تمهيداً لقيام الانتخابات الرئاسية.

وستحضرها زبدة المجتمع البيروتي، السياسية والاقتصادية معاً — وهي واحدة على كل حال. وسيحضر إميل إدّة ونده وصديقه بشارة الخوري، وكذلك الأمير فؤاد أرسلان، النائب الدرزي، ورياض الصلح، النائب السني، وكلاهما يوجه أمرّ النقد للانتداب، فضلاً عن أنهما، هما الاثنين، متيمان بحب الجميلة يمنى الخوري، أخت المرشح للرئاسة. وسيحضر أيضاً كميل شمعون، وهو ذئب شاب في السياسة. ويدعي الناس أنه ليس هنالك رجل أجمل منه في كل الشرق الأدنى، وأنه عندما تزوج من بنت نيقولا ثابت، حطّم الكثير من قلوب الفاتنات.

وتزييناً للحفلة ، دعا أهل المنزل أجمل زهرات المدينة : مثل ايفون بوستروس ومود فرج الله ونجلا حمدان ، وهي درزية حارة ذات عينين شديدي السواد ، وإيزابيليتا ، الصديقة أو الخليفة القديمة لملك إسبانيا ، ألفونس الثالث عشر ، والتي أصبحت الزوجة النزقة لروبير صباغ ، وكثيرات غيرهن ... وعندما تريد بيروت الإغراء ، فإنه ليس لكرمها حدود ، فهي تقدم لمن اختارتها ، أحلى جواهرها ، بكرم ، وتبهره بمرحها ، وتسحره بذكائها البراق والمرهف غالباً ، وتستلب عقله بشبكة من ألف صداقة مفاجئة ، بقدر ما هي خالدة — أو عابرة ، مما يعني الشيء نفسه ، ذلك أن اللبنانيين ، باعتبارهم شرقيين حقاً وصدقاً ، يعرفون جيداً أن الخلود يقوم في اللحظة الحاضرة وعليها .

والرجل المختار ، هذا المساء ، والذي تريد بيروت أن تنسج حوله شبكتها اللامعة ، هو سيدها الجديد ، وقد دعيت سلمى لتكون واحدة من عناصر هذا البناء العنكبوتي المعدل للإحاطة به ، وأسرره إذا أمكن .

وهي تتسلى بذلك ، على حين أنها منذ سنتين ، ربما كانت تتمرد رافضة أن تلعب دور الأدوات ، لأنها تريد أن تُدعى وتُحِبَّ لذاتها ! « هي ذاتها » ... ولكنها لم تعد تعرف اليوم ماذا يعني ذلك ؛ فما أكثر المرايا التي تحطمت ... مرآة أنوار هوليود المتلاعبة ، التي كانت تنعكس فيها صورة ملكة هوليود اللامعة ، والمرآة ذات الذهب الشاحب اللون التي كانت تعكس لها صورة الوجه الجميل والرصين ، لملكة ألبانيا الشابة ، وحتى مرايا قصر أورتاكوي ، حيث كانت سلطنة صغيرة تسويّ تحصيل شعرها ، قبل أن تنطلق إلى غزو العالم .

وبحركة مفاجئة ، رمت سلمى بشعرها إلى الوراء : فهي الآن في الثانية والعشرين من عمرها ، ولم تعد تلك المراهقة التي تثن من بحثها عن الحقيقة ، والتي كانت تظن ، من وراء الأميرة العثمانية ، أنها كشفت الغطاء عن سلمى ... التي بدأت تتساءل ماذا يوجد وراء هذه السلمى ! إن ذلك كاللعبة الروسية : إذا فتحتها ، اكتشفت فيها لعبة أخرى ، وهكذا : ولا يجد الإنسان إلا أغلفة ، أما اللعبة الحقيقية فإنه لن يجدها . ولكن هل هنالك من لعبة حقيقية ؟ ومن يستطيع أن يقول : إن هنالك سلمى حقيقية خارج الأدوار التي اختارت أن تقوم بها ؟ أما هي ، فإنها غير قادرة على ذلك ، وتأبى أن تتابع إرهاب نفسها بالتفكير في هذا البحث اللامعقول .

وإنها لشابة ، وإنها لواحدة من النساء التي يحتفل بها في بيروت ، أكبر الاحتفال ، وهي لا تريد التفكير — وأصلاً ، فإن نرفين هانم ، تقول إن هذا ينشئ تجاعيد في الوجه — ، إنها تريد أن تتسلى ، وهذا كل شيء .

— يا إلهي، يا سلمى، أمازلت غير جاهزة؟ إنها الساعة التاسعة! كان ذلك كلام أمل التي دخلت الغرفة، وهي رائعة بثوبها المحكم التفصيل على قفدها، وهو من آخر موضة أطلقها الخياط الباريسي الكبير لوسيان لولونغ Lelong.

— لقد قرعت الباب عليك، ولما كنت لا تردّين، فقد دخلت. ماذا يجري؟ هل أنت مريضة؟ إنك تعرفين أن علينا أن نكون جميعاً في بيت ثابت في الساعة التاسعة والنصف، قبل وصول المفوض السامي!

وردت سلمى قائلة:

— وفي حالة التهيؤ العسكري للسلام، على ما أتخيل. كلا، يا أمل، لست مريضة. ولكنني راغبة هذا المساء في أن أتأخر.

وتجد سلمى، أمام لوم صديقتها، أن تسخر، فتقول:

— أتأخر لمجرد الإخلاص، لاحظي جيداً. إن هؤلاء الناس الطيبين ليس لديهم ما يقولونه بعضهم لبعض، وأنا — بتأخري — أقدم لهم مناسبة للهدر. أوتظنين أنني لن أدعى ثانية؟

وكان في نظرتها من الوقاحة، وفي صوتها من التحدي ما أثرت معه أمل عدم الرد. فهي الآن لم تعد تعرف صديقتها في هذه الغريبة المتشدقة. ذلك أن هذه الفتاة التي كانت من الحساسية على درجة عنيفة، وسريعة العطب تقريباً، قد تصلّبت الآن، منذ أن تلقت خبيتها المزدوجة؛ خيبة الزواج بملك ألبانيا، وخبية العمل في هوليوود. فهي لم تعد تتكلم على هذين المشروعين، إلا بسخرية، لأنها أكثر زهواً بنفسها من أن تظهر للناس خيبة أملها، كما لو أنها تلوم نعمها على أنها حليمت. وتلوم أمل على أنها كانت شاهداً على هذه الأحلام، حتى ليقول الإنسان، إنها قرّرت ألا تدع نفسها تؤخذ بالجرم المكشوف، جرم سلامة النية، وآثرت أن تثير وترفض، حتى لا تدع مجالاً لأحد أن يرفضها.

ولقد أصبحت، بحكم ذلك، على درجة عالية من الشعبية، في هذا العالم حيث كل شيء — الحب، والمال، والنجاح — كل شيء يرهق، لفرط السهولة. فحول سلمى، يراقب الناس بعضهم بعضاً: فأبهم سيحصل على مودة هذه الفتاة العنيفة؟ ذلك أن برودتها خيالية. وما من إنسان استطاع الادعاء بأنه سرق منها قبلة، حتى ولأنه أمسك يدها. والحقيقة، أنهم ممتنون لها في ذلك.

لأنهم مقتنعون أن لا مبالاة، ليست إلا أسلوباً تستخدمه لإغرائهم: وبالتالي فإن النصر سيكون أجمل وأجمل.

وتحسب أمل، وهي تتفحص الوجه المغلق، أنهم مخطئون جميعاً. فقد أصبحت لا مبالية حقاً. وحتى عندما تتسلى وتستمتع، فإنها إنما تفعل ذلك بحكم الواجب.

ويقرع الباب. وهما خيرى ومروان يأتیان لتقصي الأخبار. وتلاحظ سلمى، بسخرية، أن خيرى تأنق على أفضل صورة: إذ لبس السموكنج من قماش الشانتونغ السكري. وقرنفلة على المزرة — وذلك حتى يثير اهتمام أمل —. ذلك أنه أسرَّ لأخته منذ عدة أيام، قائلاً:

«إنني عاشق! فهل تظنين أنه يروقها أن تكون أميرة؟» وترد سلمى بقولها:

— أظن أن هذا آخر ما يشغل بالها. وهذا ما حمله خيرى على حمل الخبث من جانب أخته.

وعلى ذلك فإنه قرّر أن يبدأ حديث المغازلة. فمئذ أسبوع تراه يرسل كل يوم إلى شارع مار الياص باقة من الورد الأحمر؛ وهو يتوقع في هذا المساء أن يكافأ ببسمة، وسينتهز الفرصة ليطلب منها أن تحتفظ له بكل رقصات الفالس، ذلك أنه متى انتهى العشاء ابتداء الرقص.

لكن أمل لم تبتسم، وهذا ما وضعه على حساب الخجل الساحر. وعندما جاء مروان، فيما بعد، وأخذته جانباً ليشرح له أن أخته تكره الورد لأن رائحتها تسبب لها آلام رأس عنيفة، فإنه سيتأثر أكبر التأثير من هذه النعومة، وسيشعر أنه ازداد هيماً بها.

وبالانتظار، يستنكر ما تفعله أخته سلمى، إذ هو يعتقد أنها تفعل ما تفعل رغبة في أن يلاحظها الناس!

ولكنها تردّ قائلة:

— ولكن امضوا أنتم، وسألحق بكم. وسيرافقني زينيل في العربة.

ويتردد مروان، فهو لا يحب هذا الريق في عيني سلمى، ويجب أقل من ذلك ضحكاتها الجديدة، المركزة بإفراط، أو السريعة جداً. فقد كان في عزمه هذا المساء أن يكلمها، ولكنه رأى أنه ربما كان من الأفضل أن يرسل إليها أولاً «سفيراً» كنائب عنه. وأخرج من جيبه حزمة رقيقة.

— لقد جئت بك بكتاب لفريد الدين عطار، أكبر شاعر صوفي درزي. فإذا قررت أن لاتأني، فسيكون نعم صاحب.

ويروي الكتاب «أن كل طيور العالم اجتمعت لتبحث عن ملكها، السيمورغ، الذي اختفى منذ زمن طويل. ومامن إنسان يعرف أين يقيم، باستثناء عصفور مُسِنَّ جداً. ولكنه لا يستطيع أن يجده وحده، ذلك أن الطريق إليه مملوء بالمهلك. وعليهم أن يذهبوا جميعاً. والحقيقة أن السيمورغ يقيم في القاف، وهو سلسلة من الجبال تحيط بالأرض. ولكي نصل إليه، يجب أن نجتاز حواجز نارياً، ونسبح في شلالات عنيفة، ونحارب جيوشاً من التنانين الشرسة.

» وقد مضوا بالآلاف، ولكن أكثرهم هلك، خلال الرحلة التي ستدوم سنوات. ولم يصل إلى بلاط السيمورغ في جبل القاف إلا حوالي ثلاثين عصفوراً هم الأكبر حكمة، وذلك بعد مصاعب لا تحصى. وهناك اكتشفوا مبهوتين، آلاف الشموس والأقمار والنجوم. وكانوا في ضوء كل من هذه الكواكب يترآون (يرى بعضهم بعضاً) ويرون السيمورغ. وظلوا كذلك حتى عرفوا أخيراً أنهم هم السيمورغ، وأن السيمورغ هم. وأنهم الكائن نفسه، وأن ملكهم، أي الإله الذي مضوا ليجتثوا عنه، بعيداً جداً، كان فيهم...».

وتركت سلمى الكتاب جانباً.

ففي إحدى التكايا في ضواحي استامبول، كانت بنت صغيرة تقبل راحة يد الشيخ العجوز المفتوحة... وفجأة صار النور يُغشيها، وتشعر هي أنها إذا أبقت عينيها مفتوحتين، فسوف تنحل فيه. وهي لا تريد، وتخاف.. فتغلق عينيها، وترى الأشياء قد عادت إلى نظامها المألوف والمطمئن، وحلت محل تلك الأنوار.

ولقد احتفظت سلمى في قلبها بالأسف على ذلك الانهار، وبالخجل من خوفها. وهو خجل هي فخورة به رغم المفارقة البادية في ذلك، وهي تغذيه وتداعبه. ذلك أن مجرد الخجل هو البرهان على عظمة النفس التي تحاول أن تتجاوز نفسها بلا انقطاع.

فمنذ مدة طويلة ترى نفسها مشغولة بالبحث عن الوحدة، ولكنها وقفت دوماً على العتبة. فهي تخشى أن تضع فيها إصبعها، فتؤخذ كلّها، وتشعر بأن البحث عن المطلق لا يمكن أن يضع حدوداً، وأن الإنسان يغامر بالضياح فيه، كهذه الآلاف من عصافير السيمورغ التي ماتت قبل أن تبلغ النور.

ولكن ألا نغامر، إن نحن لجأنا إلى الممارسات الدينية البحتة، بأن ننسى ما لفقدان الأمن من خصوصية؟ ومروان الذي هو واحد من «العقل» أي أنه أحد المتفكرين في العقيدة الدرزية، صرح لها ذات يوم بأن الدين والأخلاق هما أفضل الوسائل لكي لا نصل إلى الله أبداً. «فالوصايا والمحرمات، على ما كان يقول، إنما هي جدران عالية، نقيمها من أجل الوصول إلى السماء، ولكن كلما ارتفعت أكثر، ضاقت السماء أكثر، وما هي إلا لحظات، حتى لا نرى إلا مربعاً أزرق بشعاً، ليس له من سمات السماء شيء، وهو مجرد مربع أزرق. فهم يتحدثوننا عن سلام من الرخام، وعرش من الذهب، أي عن عالم ميت كأخلاقهم. وهم لا يفهمون أن السماء هي الحياة فيما لها من كثرة لا متناهية؛ وكيف يمكن أن يُسَوَّر طريق اللانهاي بجدران؟».

وتشعر سلمى بالدوار الذي يصيبها. فلم حمل إليها مروان هذا الكتاب؟ لقد كانت هادئة مستريحة، وكانت سكرى بأن الكثيرين يحيطون بها، ويعبدونها — فلم يُفسد عليها مروان كل شيء في حياتها؟ أولاً يمكنه أن يتركها تعيش، ككل الناس، وأن تكون سعيدة؟

سعيدة... لقد تجمّدت هذه الكلمة أمامها، وأصبحت عامية، قذرة. وحقاً فإنها ستندھش باستمرار. وهي قادرة على أن تقص على نفسها، أي شيء! ولم تسقط بعد إلى هذا الدرك الذي تستطيع فيه أن تكتفي بهذه السعادة، تلك!

ولقد رأت، في قصر أورطاكوي كثيراً من النساء ذوات النظرة الخالية من كل قلق؛ وهنّ تماماً هؤلاء الأنبيات في صالونات بيروت. أو هذا الذي توشك أن تفرق فيه؟.. فترتجف. وتعود إليها كلمات الصوفي الكبير، جلال الدين الرومي: «لا أفقدني الله وجودك، أيها الألم السعيد، الأثمن من الماء، والذي هو حرقة النفس التي بدونها، لن نكون إلا من الخشب الميت!».

ونزلت سلمى إلى الحديقة الصغيرة. فوجدت الليل شديد الانتباه، والنجوم لم تُعد غريبة عنها، وتشعر بأنها تعود إلى ذاتها، بعد غيبة طويلة.

وتبهط العربة الشارع، بمرح، ويضرب السائق بكرابجه، ويثير الحصان، بطرف السوط. وما هو بالقليل الزهو بنفسه، مادام في عربته سيدتان بهذا القدر من الجمال. والمارة كلهم ينظرون إليه.

وأمل هي التي فكرت بذلك. فمنذ بضعة أسابيع سمعت ما يقال عن هذه المرأة، ذات

القوى المدهشة . إنها دلفية أو نبية جديدة ، على ما يتمنون ، أو مرسله من عند الله ، أو لعلها شيطان . فقررنا أن نذهب إليها ، دون أن نقول شيئاً لمروان الذي قد يستاء من هذا العمل .

وعندما وصلنا إلى البيت ذي العوارض المغلقة ، جاءهما مراهق نحيف ، وأدخلهما دون أن يقول أي كلمة ، إلى غرفة مظلمة توجد فيها مجامر عطور تحاول ، عبثاً ، القضاء على روائح كريهة تختلط فيها آثار العرق ، والأنفاس .

القفا عريض ، ومرتاح تماماً على السرير العالي الذي تجتمع حوله الأشياء ، والمرأة العجوز جالسة . وهي تقطر نقطة فنقطة شراب المحبة المحيي والمميت ، شراب كلماتها ، ولحظات صمتها . وتسقط بعض كلماتها ، وفيها الحامض ، يتلوه الحلو (العسل) من شفتيها الرقيقتين ، على حين أن عينها الملتبتهتين تنفذ إلى النظرات ، وتثقب الصدور ، لكي تصل إلى القلوب .

وفي الظل ، وعلى مقربة من الباب ، وقفت الفتاتان . ولكن العجوز رأتهما . وبالغريزة فهمت أنهما فرستان من نوع عال . فأشارت إليهما بيدها الريلة أن تقتربا ، وتدخلوا في الحلقة ، حلقة المختارين الذين يحيطون بالسريـر . ولكنهما تأييان ، هاتان المتمردتان !

فابتسمت العجوز . وهي تحبهما هكذا : سفيتين ومغرورتين ، كأطفال عراة ينتصبون في النور . وهما النوع الذي تحبه ، أي نوع الأطفال اللاواعين الذين يعتقدون أنهم محبوبون من الله . وهؤلاء هم الذين يمنحونها الحياة . وليس لها من نظرة تلقى على شعب العبيد الخاشعين المحيطين بها : إذ لقد افترست هؤلاء حتى الأحشاء ؛ وأصبحوا عناصر شبكتها . وهم يذهبون إلى المدينة لينشروا كلامها ، وينقلوا إليها فرائس جديدة متعطشة لسماعها ، هي ، الملهمة .

ولكن بعض الناس المحيطين بالسريـر ، والجالسين على جوانبه يترددون : فهذه العجوز المسيطرة ، الرهيبة والرائعة معاً ، ترى ما هي الأرواح التي تتحكم فيها ؟ أهي إلهية ، أم شيطانية ؟ وقليلاً قليلاً تفرض الفكرة نفسها ، بأن هذه الأرواح أخيراً هي نفسها ، وأن الله هو النور الذي تخلص من كل تحبث ، ذلك الحبث الذي ينشئ تفسخه الحار أرواح الشياطين .. والأكثر شجاعة ، أو الأقل وعياً ، هم الذين يركبون للقيام بالرحلة التي لا عودة منها ، والتي ليس لهم فيها إلا قناعتهم الوحيدة ، بأنهم سيتبخرون إلى ما لا نهاية — في لهب النار ، أو في لعبة الحب الإلهي .

وهؤلاء الذين لا يزالون يماطلون ، لن يتخلصوا أبداً من القلق الواخر ، قلق من يعرف أنه غير قادر على بلوغ السعادة النهائية ، أو الشقاء النهائي — وماذا يهم أن يكون الأمر هذا أو ذاك . ولكن

العجوز، تقدّم هؤلاء الذين اجتازوا الباب الأول، من أبواب الخوف، أو لم يجروا على اجتيازه، تقدّم نفس الجائزة الملكية: القلق، إلى الأبد.

وعلى عتبة الغرفة، همست الفتاة الحمراء الشعر لرفيقتها، بعد أن أدارت ظهرها، قائلة:

— هيا نذهب، فالنور هنا أسود.

ترى هل سمعت العجوز؟ وعلى كل حال فقد انتصبت على سريرها، وأطلقت من فمها القاتم تلك البهلة (أو اللعنة) قائلة:

— ستخفضين رأسك، أنت المزهوة بنفسك! وخلال ليلتين، — وتذكري ذلك — خلال ليلتين، سآتي لعندك!.

ومنذ زمن طويل، لم تستمتع سلمى بقدر ما استمتعت هذه المرة. فالبال التكري لدى جان تويني كان قد أعدّ، وموضوعه «الهند الغزلة» وهو عنوان مستوحى من أوبرا «رامو»، وكانت قد لبست حُلّة مهراجا جودبور Jodhpurs من الساتان الأبيض، ووضعت على رأسها عمامة بقنزعة. وكانت هذه قد انتزعت من ريش نيرفين هاتم — وحلّت عنقها بعقد فيه ستة حبال من اللؤلؤ الناعم، الذي استعارته من سورين آغا، فلم يعرفها أحد من خلال قناع الذئب الأسود. ولكن عندما رفع الناس الأقنعة، في آخر السهرة، فإنها مرة أخرى، أدهشت الحاضرين جميعاً.

ومع ذلك، فقد كانت على وشك أن تعتذر حتى آخر لحظة. ذلك أن تهديدات الساحرة، كانت تؤرقها، وحاولت جهدها أن تستبعد مخاوفها، ولكنها كانت تعود إليها باستمرار. وقضت أمل النهار كله محاولة إقناعها بأن هذه العجوز لم تكن تملك قوتها إلا من خضوع المحيطين بها: ولما شعرت بأن سلمى متمردة، قالت الكلمات التي خطرت ببالها، لإخافتها.

— فكري! لم تكن هذه العجوز لتقبل التحدي أمام قطيعها الثاغي! ولكن كيف يمكن أن تأتي لعندك؟ وعلى كل حال فإنها أسمن مما ينبغي لكي تتحرك.

ولما كانت سلمى تتردد، وتخبرها بأن بعض النساء في تركيا كن يملكن قوى شيطانية، غضبت أمل الرقيقة وقالت:

— حقاً إنك تخيئين أُملي، إنك مثل نساء قرانا في سرعة التصديق.

ولكن مروان ، الذي أخبر بما جرى ، وصل إلى إقناع سلمى ، أن من الأفضل لها ألا تبقى في بيتها ، وأن عليها ، بشكل خاص ، ألا تنسى تحذير زينيل والكالفات من فتح الباب ، مهما يكن المبرر .

وعزفت الموسيقى ، آخر ما عزفت ، لحناً من نوع التانغو . وكانت الساعة قد بلغت الرابعة ، وغادر أكثر المدعوين المنزل ، وكانت الشموع في الشمعدانات الفضية على وشك الانتهاء ، وتلقي بظلال راقصة على سجادات الزينة المعلقة على الجدران التي بدت وكأنها تتحرك . وكانت سلمى بين ذراعي الجميل ابراهيم سرسق ترك جسدها ينقاد . وهذه أفضل لحظة ، إذ لم يبق إلا حفنة صغيرة من الأصدقاء ، لكي تبدأ سهرة جديدة ، أكثر صميمية .

وأخرج موسى دو فريج قيثارته لكي يرافق هنري فرعون في الحانه ، وكان هذا يملك صوتاً جميلاً ويغني أغاني الحب الدارجة . وكان غابرييل ثابت يروي قصصاً مضحكة . وكانت إيزابيليتا قد جاءت بنقاراتها ، وثوبها الأحمر المكشكش ، لكي ترقص الفلامنكو .

وعندما بدأ النهار بالطلوع ، وقدم الخدم فناجين قهوة حارة ، قرر الحضور ، آسفين أن يفتروا ، وما من مرة تأخرت سلمى في الرجوع كهذه المرة . إذ لقد جرت العادة أن يقرر خيرى العودة حول الساعة الثانية . ولكن في هذه الليلة ، قبلت أمل بالتواطؤ مع سلمى ، بأن تخصه ببعض رقصات الفالس . ففسي بذلك كل مبادئه .

وكانت تقف أمام سور البيت سيارة سوداء من نوع الأحصنة الخمسة ، وكان باب البيت مفتوحاً ، وبقفزة ، اجتازت سلمى البهو وكانت كل الأنوار مفتوحة ، ولكن ليس هنالك أحد . فتصعد على السلم بأقصى سرعة ، وتتجسس أمام غرفة أمها : فقد حدثت مصيبة ، وكانت تعرف ذلك ... إنها الساحرة ..

وتدفع الباب ، وهي ترتجف . وكانت الغرفة مغمورة بنور قاتم . ولم تر سلمى أول الأمر إلا ظهراً عريضاً يلبس الريدنجوت الرمادي . ثم قليلاً قليلاً بدأت ترى زينيل والكالفاتين ، الذين أشاروا لها بحركة إصبع على الشفتين بأن تسكت . فتتقدم ببطء وتبحث عن أمها بعينيها ، وأتخذ استدار الريدنجوت الرمادي وحرك النظارة الوحيدة التي على عينيها ، لينهر هذا الفتى المعمم . ولكن سلمى لا تراه ، فتقترب ، وفجأة تلمح شكلاً ممتدداً على الأرض متصلياً ... ميتاً !

فصرخت «أيندجيم» واندفعت نحو أمها . ولكن قبل أن تصل إليها ، كانت هنالك يد قوية تمسك بها .

— الهدوء ! ليس هذا الوقت وقت التصنع !

وبعد أن دفعها بقسوة إلى ذراعي زينيل ، جلس الطبيب القرفصاء وعاد إلى فحصه . وبعد عدة ساعات أو عدة دقائق ، مما تعجز هي عن تحديده ، نهض وطلب أن تغطي المريضة بأغطية إضافية . وقال :

— من المستحيل الآن نقلها من مكانها ، ولكن يجب أن تدفأ... أن تدفأ ؟ ولكن ماذا ؟

وتقدم خيري برصانة ، ولأول مرة في حياته ، أعجبت به سلمى عندما قال بصوت هادئ :

— إنني ابنها ، يا دكتور ، فقل لي الحقيقة .

فنظر إليه الطبيب ، وهز رأسه ، وقال :

— إن أمك أصيبت بنوبة قلبية ، خطيرة جداً ، أيها الشاب ، ولحسن الحظ فإن القلب قاوم .

— ولكن .

— أخشى أن تبقى مشلولة .

وأمام البيانو ، كانت سلمى جالسة ، لا تتحرك . فقد عزفت منذ قليل بضع مقطوعات «لشوبر» ، هي المرتجلات الثانية والخامسة ، أي تلك التي تؤثرها أيندجيم ، وكذلك تنويحات ليسبت Lisept على نغمة لـ «هايدن» . أما السلطانة الجالسة باستمرار على مقعد متحرك ، لا تتحرك منه إلا لكي تنقل على ذراعي زينيل ، إلى سريرها ، فقد أصغت إليها ، والعينان نصف مغلقتين ، في وضع من يشعر بكامل الغبطة .

ومنذ ستة أشهر وهي مشلولة الرجلين ، وما من مرة سمعتها سلمى تتألم ، وما من مرة شعرت بأنها فقدت الصبر ، أو هبطت معنوياً . بل على العكس . فلأول مرة منذ المنفى — منذ أحد عشر عاماً — بدت هذه الأم ، فرحة تقريباً ، كما لو أنها هُذئت ببعض الحبوب .

ومع ذلك ... فأمام هذه المرأة التي اكتهلت ، والمعتمدة على غيرها في حركتها ، تذكر سلمى

بألم تلك « السلطنة ». إنها تعود فتراها أميرة باهرة ، في ثوبها ذي الذيل المطرّز بالزيفلين ، والصدر يزينه الشريط الأمبراطوري ، ملكة باردة ورائعة ، تأتي على الشرطة دخول قصرها ، وتخطر بجياتها من أجل رجل مجهول ؛ إلهة رحيمة ، ذات ضعف إنساني ، ولا تفهم إلا الشرف ، آه ، إنها لم تكن رقيقة ، ولكن كم كانت تستحق الإعجاب !

ومنذ ستة أشهر ، وسلمى لا تخرج ، ولم تعد لها أية رغبة في الخروج . وظنت في البداية أن ذلك كان للبقاء مع أمها ، ثم خطر ببالها أنها تعوض بذلك عما جنته على أمها : وهي تعلم أن مرضاً في القلب ، يعرض الإنسان للآزمات القلبية ، ولكنها تبقى في الأعماق ، مقتنعة أن الساحرة هي التي انتقمت .

وهي قلقة ، بصورة خاصة . فقد أُنذِرهم الطبيب أن أزمة ثانية « يمكن أن تكون مشؤومة » . وببطء شقت الفكرة اللامعقولة ، المثيرة ، طريقها ، وانتهت الفتاة ، مدهوشة ، إلى فهم الحقيقة ، وهي أن أمها يمكن أن تموت ، وأن هذه الصخرة التي حملتها ، وكانت العنصر الذي لا يتغير في حياتها ، يمكن أن يتداعى ، ويدعها مترجحة على حافة الهوة . وما من مرة خطرت ببالها هذه الفكرة من قبل . وحتى الآن ، كان الموت بالنسبة إليها ، هو موت الآخرين . أما موت أمها ؟ ... وكان ذلك كما لو أن أفضل ما فيها يجب أن يموت .

وفي الأيام الأولى ، بعدما شاع خبر مرض السلطنة ، كتبت إليها بعض صديقاتها ، وأخريات جئن لزيارتها . وبعد شهر ، وهو فترة راحة تمنح لبؤسها ، عدن فدعونها من جديد ، ولكن لما كانت لا تستجيب ، فقد تعبن منها ، ونسيتها .

وكان مروان وأمل ، وحدهما ، يتابعان زيارة شارع رستم باشا ، بانتظام . وكانا قلقين من ملاحظة أن سلمى تنكمش على نفسها ، وتقضي كل ما بعد الظهر في تأليف ألحان sonatives وباللات حزينة . وذات يوم تحلت السلطنة بمروان وقالت له :

— لا بد لهذه البنية من أن تخرج ! أرجوك ، جد وسيلة لذلك ، وإلا فإنها ستصاب بمرض . ومريضان في هذا البيت أكثر مما يجب — قالت ذلك وهي تضحك — وأنا أحرص على الاحتفاظ بتميزي !

لكن فصل الحفلات الراقصة في الهواء الطلق يكاد أن يبدأ ، فنحن في الربيع ، وبدأت جيوش

من عمال الخدائق، تعمل في ملكيات حي سرسق، للعناية بالهورتانسيا المستوردة من أوروبا، وقص
أسيجة الدفلى والزعرور.

لكن البال الأكثر تفرداً، على الأرجح، والأمتع، أيضاً هو بال الأميرالية الذي يحتفل به كل
عام على ظهر السفينة جان دارك، السفينة — المدرسة، الفرنسية. ويختار المدعون اختياريًا دقيقاً.
وأمل ومروان موجودان على قائمة المختارين: والحرب الفرنسية — الدرزية، أصبحت ذكرى بعيدة؛ إذ
منذ عام ١٩٣٠ حصل الجبل على دستور مستقل. والانتداب الفرنسي حريص في سورية ولبنان على
عدم إزعاج سادة الجبل.

وقد عمل مروان ما يجب لكي تدعى سلمى إلى هذه الحفلة، على السفينة — المدرسة.
ولقد توقع رفضها، لكنه تظاهر بالاستياء:

— أنت لا تستطيعين أن تفعلي معي هذا! إنه عشاء على المائدة، والأمكنة كلها محجوزة،
منذ شهر.

وأضافت أمل ملححة:

— إن حفلة بال على الماء، هي جو آخر مختلف جداً، إنه كرحلة في البحر، ثم إنني أريد أن
تري ابن عمي وحيد الذي وافق، للمرة الأولى، على النزول من جبله. ثم إنه كذلك قريب بعيد
للمست نظيرة، وسترين، إنه شديد التفرد، ولكنه ساحر!

وأخيراً أمكن إقناع سلمى بحضور هذه الحفلة.

— ٨ —

كانت جان دارك ، في المرفأ المظلم ، المضاء ببعض المصاييح تنفصل عما حولها كشجرة عهد الميلاد المزينة بأطواق من النور . وكان الأميرال واقفاً على الجسر ، محاطاً بضباطه في الثياب الخاصة بالحفلات ... وبعد هؤلاء بقليل نجد الأوركسترا التي سمّوها « بحرية الشرق » وكانت تعزف فاتحة ، الحياة الباريسية « لأوفنباخ Offenbach » .

أما السيدات على أحذيتهن العالية ، وفي أثوابهن الطويلة ، فإنهن يطلقن صرخات خائفة وفرحة معاً . ذلك أنهن يغامرن بالسير على الممشى الضيق ، متبوعات برفاقهن الیقظین . وكان الأميرال ، وهو على أفضل ما يكون ، كرجل استقبالات ، يستقبل ضيوفه ، ويقول لكل منهم كلمة محببة ، وهو سعيد . إذ إن الحفلة ستكون ناجحة : ولقد جمع في ٣٠٠ متر مربع ، كل من هو ذو شأن في بيروت ، وكان هنالك ضباط شباب يأخذون على عاتقهم أن يَدُلُّوا الضيوف على أمكنتهم .

وكانت طاولة الداروزي موجودة على بعد كاف من الأوركسترا . وكانوا قد تأخروا في الحضور . وهالإن كل الناس قد جلسوا حول أغطية دمشقية ، تحت كمية ضخمة من الورود ، والفضيات ، وبورسلينات ليوج ، فاستقبلتهم عبارات التعجب .

— كنا قد قطعنا الأمل من حضوركم !

— هذه من العزيمة أمل ! أساعة من التأخر فقط ؟ إنك تحققين تقدماً في هذه الطريق ! هذا ما قاله شاب يتخلّع في مشيته .

— وحيد، إني واثقة بأنك تغفو عني عندما ترى من أحمل إليك : سلمى ، ها إني أقدم إليك ابن عمي ، واطمئني فهو أقل إزعاجاً مما يبدو عليه .

وينطلق الرجل الطويل ، بنوعٍ من اللامبالاة المجاملة ، وييدي عجبه بلهجة مسرحية ترغم المدعوين الآخرين على الطاولات المجاورة على الالتفات :

— آه ، يا أميرة ! لو أن أجدادي استطاعوا أن يحلموا بك ، إذن لوفّرنا على عائلتنا عدة قرون من الحروب ، ولكان محاربونا العتاة قد استسلموا مباشرة .

وكانت نظرة العينين الزرقاوين ، المسحورتين نصفياً ، والساخرتين نصفياً ، تحيط بسلمى . وها هو وحيد يغيّر ترتيب الطاولة بسلطته لتكون سلمى على يمينه . إنه يهمل المدعوين الآخرين ، ولا ينظر إلا إليها ، ويكثر عليها من الأسئلة فيما يتعلق بحياتها ، ونشاطاتها ، وتذوّقاتها . ويبدو أنه أغوي إغواءً كاملاً ، فلم يعد يلاحظ ضيق ضيفته التي لم تعد هي أيضاً تملك أن تعدّل من هذا الغزل المفضوح .

ولكن عذاب سلمى لم يطل أكثر من ربع ساعة ، وكأن فضول الرجل قد أشبع فجأة ، واهتمامه قد استنفد ، فأدار وحيد ظهره فجأة لها ، ودخل في نقاش سياسي عنيف مع أصدقائه .

أما جار سلمى الذي على اليمين ، وهو رجل قصير ، رقيق ، متميز جداً ، فإنه يسرع إلى انتهاز الفرصة التي أتاحوها له . ويبدو أنه لم يحفظ أو لم يسمع جيداً اسم هذه الفتاة الرائعة ، ولكن ماذا يهم ! فسوف يستعلم عن ذلك فيما بعد .

— اسمحي لي أن أقدم نفسي ، فأنا شارل القرم ، الشاعر . فهل تحبين الشعر يا آنسة ؟ وتحيب سلمى التي استراحت بعد تلك العاصفة الدرزية ، للرقّة ، وحسن الأسلوب ، البهريتين .

— يسمونني « شاعراً فينيقياً » ... فهل قرأت آخر مجموعة لي ، تلك التي سميتها : « الجبل الملهم ؟ » . فقد حصلت على جائزة ادغار آلان بو .

وأجابت سلمى بمجاملة :

— سمعت الناس يتحدثون عنها .

— أفيرضيك أن أنشدك منها بعض المقاطع ؟

وتجيب سلمى ، مندهشة من غرور المؤلفين الذي يتجاوز الحدود .

— بالتأكيد .

فيسعل الشاعر سعلة خفيفة ليجلو صوته ، ثم يبدأ ، وعيناه ضائعتان في أفق الأغطية البيضاء ، بالإنشاد :

آه ، قل لي كيف
استطاع فلاحونا ، خلال ألفي عام
أن يحتفظوا بالصليب وسط العمامة
بدءاً من بحر الصين ، وحتى المتوسط
في لبناننا وحده .

يا أخخي المسلم ، إفهم صراحتي .
فأنا اللبناني الحقيقي ، النزيه والمتدين
فأنا أكثر لبنانية بمقدار ما ترمز عقيدتي
لقلب البجع ...

وترتجف سلمى . ترى أهذا السيد الشديد التهذيب يمكن أن يكون مثيراً ؟ ولكنها تكتم ضحكاتها أمام نظرة الحسير البصر ، الخجلى . فالأمر كله ، أنه لم يفهم من هي .

وأخذ الرجل بفنائية أشعاره ، فأخذ يهز رأسه ، وازداد صوته سعة :

يا لغة الفينيقيين ، لغتي اللبنانية
التي لا صوت لحرفها ، تحت الأقبية المرصصة
إنك لغة العهد الذهبي ، أنت التي كانت
أصلاً لكل ألقباء .

يا لغة بلادي ، هبينا الثقة

اجعلينا نؤمن أيضاً بأنفسنا وبأجدادنا
واحفظي لنا موقعنا
احفظي الثقة بنا
على مائدة الآلهة .

وتتذكر سلمى أنها في صفها كانت ترى بعض المارونيات يرفضن أن يُوحّد بينهن وبين العرب . ولكن يقلن إنهن فينيقيات ، منحدرات من هذا الشعب الذي هيمن على المتوسط ، والذي انقضت حضارته منذ ألفي سنة . فتشعر فجأة بأنها ترغب في أن تتسلى ، وأن تنتقم « للعمامات » .

— ولكن أيها السيد ، إن الفينيقيين ، لم يكونوا لامسيحيين ولا عرباً فيما أعلم !

واحمرّ وجه الرجل ، وأخذ يشرح لهذه الفتاة الجاهلة أن « المسيحيين ظلوا أوفياء لأصوبهم ؛ ولكن كان لبنان قد تعرّب ، مع الأسف ، فإن اللبنانيين الحقيقيين هم ... » ، فأدارت سلمى وجهها ، فتصالبت نظراتها بنظرات وحيد الذي يرمقها بنظرة متواطئة . وهكذا فقد كان يُصنّي إليه ، وكانت لا مبالاة ، قد ذهبت ! وشعرت الصبية بقلبها يخفق ، بصورة مستغربة . فهذا الرجل يتصرف كنذل ، وهي مستعدة لأن تسامحه لدى أول بسمه . فما هو الشيء الذي يستهويها في هذا الرجل الواضح النزوات ؟ أسمائه التي تستعصي على الفهم ؟ أم هيئته التي تدل على أنه يسخر من كل شيء ؟

وانتهى العشاء ، فينزلق الخدم بين الطاولات ، سائلين كل مدعو ، عما يشتهي من قهوة أو مشروبات روحية . وتنطلق أوركسترا « بحرية الشرق » التي كانت تعزف حتى تلك الساعة ، بهدوء ، تنطلق فرحة لتعزف بقوة ، لحناً من التانغو الإغريقي .

واندفعت الأزواج الأولى إلى الحلبة ، وسلمى تلاحظهم بفضول ، وتودّ لو أنها جرّبت ، إلا أنها وعدت أمها بالألا تعرض نفسها في حفلات « تخلّع المتوحشين » . والسلطانة لا تسمح لها إلا برقصات الفالس ، وهذا هو الذي يصبح موضوع مزاح بالنسبة لأصدقاء الفتاة ، الذين يلاحظون أنه ليس لها الحق إلا في الرقصات « التي تدوخ الرأس » .

والآن تعزف الموسيقى فالساً لشتراوس . وترافق سلمى هذه الموسيقى بضربات موازية لها ، بقدمها ، دون أن تذهل عن إلقاء بعض النظرات على جارها . ترى هل يدعوها ؟ لكنه لا يفكر حتى بالنظر إليها ، وقد عاد إلى النقاش مع أصدقائه .

— هل تشرفيني ، يا أميرة ؟

وتنظر أمامها ، فإذا هو ضابط فرنسي ينحني لها . ويبدو عظيم الهيبة في لباسه الرسمي ، وهو رقيق ، برونزي اللون ، له بسمه مجاملة .

— ولكن ألا تذكريني ؟ لقد تقابلنا في منزل بيت بستروس : وأنا جورج بوي Buis ، نقيب في سلاح الخيالة .

وليس من المألوف أن تقبل الفتاة دعوة من شخص غريب عن المجموعة التي هي فيها ، ولكن لا بأس ، فالرجل مُصرٌّ وشديد الرغبة في الرقص ... وهي تحب ذلك ، لكي تبين لوحيد أنها لا تهتم بتقلبات مزاجه .

وتمتعة كبيرة ، تنساق سلمى مع اللحن الموسيقي البطيء . ولكن الأوركسترا تعزف ثلاث فالسات متتابة . وهي تعلم أن الناس سيقولون فيها الأقاويل ، ولكنها سترقص مع هذا الضابط الجميل حتى النهاية .

وما إن عادت إلى طاولتها ، طائشة بعض الشيء ، حتى استدار وحيد ، كما لو أن نابضاً يحرّكه .

— من الغريب أن يرى الإنسان فتاة مسلمة ، وأكثر من ذلك ، أميرة عثمانية ، تقبل مراقبة ضابط فرنسي . وأنا أحب سعة العقل هذه ، وهذا النوع من النبيل في النسيان .

وتعمر سلمى خجلاً . أما الضيوف الآخرون فبدأوا ينظرون إلى وحيد . وأما مروان الحائر ، فإنه يحاول أن يقف الموقف .

— آه ، وحيد بك ، داعية الأخلاق ! إن هذه آخر مكتشفاتك . وكنت أعرف حبك للمزاح ، أما إلى هذا الحد ؟ فلا .

ويرد وحيد ، بكل برودة قائلاً :

— ليس هذا بمزاح .

فيعض مروان على أسنانه ، ولكنه لن يشتم صديقه ، ذلك أن التضامن القليل يمنعه من ذلك . ومن جهة أخرى لا يسعه أن تؤدي ضيفته .

— سلمى ، يا عزيزتي ، أتخمين أن تسعدينني أكبر السعادة ، بالرقص معي هذه المرة ؟
وكآلة تتحرك تلقائياً ، نهضت سلمى . أما وحيد ، فإن الاستياء يُلمح في نظراته ، وهو
يراهما يتعدان .

وعلى الطاولة ، عادت المحادثة فاستؤنفت ، فتدفقت الكلمات كالفيضان لإخفاء الضيق .
أما وحيد فظل صامتاً ، وبدأ يشرب . ويجب أن يكون في كأسه الرابع أو الخامس من الكونياك ، حين
أسقط كأسه على الطاولة ، بدرجة من العنف أدت إلى كسره .

— يانادل ، إن هذا الكونياك كريه ، فاحمل إليّ غيره !

فذهل النادل ، واقترب .

— ولكن ، يا بيبك ، إن هذا كونياك معتق لمدة طويلة ، وليس لدينا غيره .

— أي إنه الوحيد الذي يتفضلون علينا به .

— لاشك أن أسيادنا يرون أننا قليلو المدنية ، نحن اللبنانيين الآخرين ، فلا نلاحظ الفرق
بين الجيد والردئ .

ورفع صوته . واتجهت الأنظار كلّها إليه .

— كونياك سيء ، وحكومة كراكوز ، ودستور لمجرّد الخداع ، وهذا كاف جداً لأشخاص
بدائيين ، ولكن أرجو ألا يدّعوا مع ذلك أنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم . حسناً ، أنا أقول لكم أيها
السادة ، بأننا تحمّلنا منكم ما يكفي ، ونريد أن تتركونا وشأننا ، وبسرعة ، ذلك أننا لن نطالبكم
بذلك دوماً بهذا اللطف !

ونخيم الصمت على القاعة ، وكما لو أن الأمر متعمّد ، توقفت الموسيقى عن العزف . ولا يجرو
أحد على الحركة ، فانقلب الزعيم الدرزي الشاب على كرسيه ، بضحكة كبيرة ، ورفع كأسه .

— إني أشرب كأس حرية لبنان ، واستقلال لبنان !

وقالت سلمى لمروان :

— رياه ، إنه ثمل تماماً !

— كلا، إنه لا يكون ثملاً أبداً، ولا أعرف إنساناً يقاوم الكحول كما يقاومه وحيد. وكلما ازداد شرباً، ازداد وضوح فكر. وهذا الذي قاله الآن، نقوله نحن جميعاً، ما عدا بعض الأسر المدينة بصعودها إلى الانتداب. وقبل الحرب، وعدتنا فرنسا بالاستقلال. ولكن ماذا تفعل؟ إنها تفرض حدوداً مصطنعة بين سورية ولبنان، على حين أن هاتين المنطقتين، كانتا منذ قرون تشكلان وحدة سياسية، واقتصادية ومالية، ثم تضعنا تحت الوصاية! ويديهي أنها وصاية ساذجة كالطفل، ولكن فقط نحن اللبنانيين الآخرين، مسالمون ونفضل الحصول على ما نريد بالنقاش، لا بالحرب. ولكن ها قد مضت خمس عشرة سنة، ونحن ناقش دون أن نحصل على شيء. وحتى لدى الموارنة، فإن الناس بدأوا يضيّقون ذرعاً.

— ومع ذلك... أيقال مثل هذا الكلام على ظهر باخرة فرنسية؟

— إن هذا، هذا من وحيد، خالصاً. فهو يعشق الإثارة. وهو يتمتع أكثر فأكثر، لأنه يعرف بأنهم يظنون أنه سكران، فيتجنبون إبعاده. وما دام الأمر يتعلّق بتظاهرات كلامية، فإن الفرنسيين يحترسون من مسّ رئيس درزي بأذى، فهم غير مستعدين لنسيان الحرب الدموية في الجبل. ومع ذلك فقد كنت أظن أن وحيداً، هذا المساء سيحافظ على هدوئه. وأظن كل الظن، — وابتنسم وهو ينظر إلى سلمى بحث — أننا مدينون لك بهذا الانفجار الصغير.

— أتمزح؟

— لا أتمزح مطلقاً. إذ عندما رقصت مع هذا الضابط الفرنسي أثرت «وحيد» إثارة كبيرة. وعلى الرغم من مظاهره الحديثة، فإنه يبقى إقطاعياً كبيراً، وأكثر حرصاً مما يظن على تقاليده، وعلى قانون الشرف التقليدي. أما تربيته المسفّسة، وقراءاته الانتقائية، فإنها لم تغيّر فيه شيئاً.

وفي صباح اليوم التالي، يقرع الجرس على باب بيت رأس بيروت، وكان على الباب رجل ذو لحية، يتقلد بندقية، ويحتفي نصفياً وراء طاقة ضخمة من سيف الغراب (الغلايول) الأحمر.

— أمرني الرئيس بأن أحمل هذا إلى الأميرة، متوجّهاً بكلامه هذا إلى زينيل المبهوت أمام هذا المشهد اللامألوف.

— أي رئيس؟

ويردّ الرجل وعليه سيماء الغضب:

— إنه الرئيس وحيد بك .

ثم تخلص من حملة ، ووضعه بين يدي الخصى ، وأصلح وضع بارودته ، وضرب رجله بالأرض ، وابتعد ، برصانة ووقار .

وبعد أن أنهت كل من سلمى وأمل مشتريتهما من مخزن بيرانجيه الكبير ، الذي هو واجهة باريس ، دخلتا تستريحان بشرب مشروب في الباتيسري السويسرية ، المحل الوحيد في بيروت ، الذي يتاح فيه لامرأة أن تظهر .

وكانت سلمى منذ أذان الظهر تتحرّق شوقاً لجعل الحديث يدور حول وحيد ، فقالت لأمل :

— كم هو غريب الأطوار ، ابن عمك هذا !!

فابتسمت أمل ، وقالت :

— إن لدينا شيئاً من كل شيء ، فمن الناس من يقول : إن وحيد مجنون ، وأنا أظن أنه يخفي لعبته ، وأنه أذكى أفراد الأسرة . وهو ينتسب إلى فرع يدّعي أنه الفرع الشرعي ، الذي غيّب عن المسرح ، منذ قرن ونصف القرن بعد مؤامرات واغتيالات ، وممارسات يومية بين قبائلنا . وله دوماً أنصاره ، القلائل ولا ريب ، ولكنهم أوفياء له أشد الوفاء وكانوا يُجِلّون أباه حمزة بك ، أكبر الإجلال ، فهو بطل من أبطال القضية العربية ، وقد قتل عندما كان وحيد دون العاشرة . وكانوا يأملون ، عندما قُتل فؤاد بك ، زوج الست نظيرة ، بدوره ، أن اللقب سيعود إليه ، ولكن الست نظيرة وابنها كمال ، الذي كان طفلاً صغيراً في ذلك الحين ، كانا يملكان قلوب أكثرية أبناء القبيلة . وعدا ذلك ، فإنهم كانوا ، وهم ما زالوا ، مدعومين بحزم من فرنسا .

« ولكن هل يدري أحد ؟ إن المواقف تتغير أحياناً بسرعة ، فلو حدث شيء لكمال ، فإن وحيد يمكن أن يصبح الزعيم . وهكذا فإن الناس جميعاً ، وعلى رأسهم الفرنسيون ، يعاملونه معاملة خاصة » .

وفي الأسابيع التالية ، ستخرج سلمى كثيراً . ومن دون أن تعترف لنفسها بشيء ، فإنها في الحقيقة كانت تريد أن ترى وحيداً مرة أخرى . وفي الواقع ، فإنه لن يكون هنالك عشاء ولا استقبال

لا تلتقي فيه بالبيك الغني . وفي كل مرة ، سيحييها هو بأدب جم ، تحيةً مبالغاً شيئاً ما ، ولكنه لا يحاول أبداً أن يعيد صورة المحادثة الشخصية التي تمت له في اللقاء الأول .

وفي الأصل ، فإنه محاط حيثما كان ، بالسيدات ، اللواتي تُغريهن لا مبالاته أشد الإغراء . ولئن رآه بعضهن أميل إلى القماعة ، بجهته التي أخلاها الشعر بصورة مبكرة ، وبأنفه الشبيه بأنف النسر ، وعينييه الزرقاوين الجامدتين بشكل غريب ، فإنهن جميعاً يتفقن على الاعتراف بأن له سحراً كاسحاً ، وهن يتأثرن بهذه البسمة الشبيهة ببسمة مراهق خجول ، وهذه النظرة المدهوشة دائماً ، والشديدة السعادة لأدنى كلمة محببة تقال له ، كما لو أنه لا يجرؤ على الاعتقاد بأن الناس يمكن أن يشعروا بشيء من المودة تجاهه . ولكن إذا استطاعت إحداهن ، بعد أن تكون أغريت به ، أن تبدو أليفة له بعض الشيء ، فإن البسمة تصبح ساخرة ، ثم تأتي ملاحظة جارحة ، فتعيد المرأة المتطفلة إلى مكانها .

وتشعر سلمى أحياناً بأن نظرتة ترهقها . وككل امرأة تريد الإغراء ، فإنها تزيد في التطرف تجاه الفتيان المحيطين بها ، الذين لا يجرؤون على تصديق سعادتهم .

وذات مساء أخيراً ، اقترب وحيد منها ، وبصوتٍ حاول جهده أن يجعله مفجعاً ، سألها :

— يا أميرة ، لماذا تهربين مني ؟ أو ما زلت تلوميني أيضاً ؟ أو لم تحزري أن ما ظهر مني من جفاء ، ليلة بال الأميرالية ، لم يكن صادراً إلا عن غيرة مخيفة ؟

ومرة أخرى أيضاً ، كانت البسمة الساخرة تكذب جدية الأقوال . بيد أن النظرة كانت قلقة ، وبدهشة أدركت سلمى أن هذا الصبي الكبير الوقح ، شخص خجول ، وأنه بحكم خجله هذا يبدو وكأنه يسخر عندما يكون سليم النية .

ولكنها لم تكن تستطيع مقاومة رغبته في الانتقام .

— أألومك ؟ وعلى ماذا ؟ على ليلة الأميرالية ؟ إنها مضت من زمن طويل . وكنت قد نسيتها تماماً .

— وإذن فلن تأتي عليّ هذا الفالس ؟

أتراه يسخر ؟ وينظر كل منهما إلى الآخر ، وينفجران ضحكاً ، فيأخذها إلى الحلبة ...
يا إلهي ، كم هو لا يحسن الرقص !

٩

جاء الصيف ، ودعا الحرّ الناس إلى الهرب ، بجماعات كثيفة ، بعيداً عن مدينة أصبحت خانقة . وكان كل من استطاع ، أو يستطيع ، يمضي فيستقر في الجبل ، في الفنادق الضخمة في كل من صوفر وعاليه وبكفيا ، أو في بيوتهم الفخمة المحاطة بالحدائق المتدرجة المصاطب . حتى إن الحكومة نفسها تنتقل .

ودعت أمل سلمى إلى رأس المتن ، في البيت العائلي القديم الذي يشرف على الوادي . وهذا القصر المتكشف الذي أهمل في القرن الماضي ، عندما اختار جدّ الفتاة ، وهو الوحيد الذي تابع دراسته ، أن يستقر في بيروت ، هذا القصر الذي تقرّر فيه جزء من تاريخ الشعب الدرزي ، لم يعد الآن إلّا مجرد مسكن لقضاء الصيف .

وهنا يعيش الإنسان حياة اجتماعية ريفية ، أكثر حيوية منها في العاصمة . إذ ليس لدى الناس هنا مشاغل كثيرة ، فتراهم ينشطون ليتذوقوا الحياة بلذّة أكبر . فيزور الجيران بعضهم بعضاً بكل بساطة . وفي النهار يتنزهون في العربة ، على الطرق الجبلية الضيقة ، ويقيمون «سيارين» عظيمة على مقربة من ماء نبع صاف ، أو في واحد من الفنادق القروية التي تستأجر كاملة ، حتى لا ينزعج المستأجرون ، أو أن الإنسان يركب حصانه ، ويمضي به طول النهار ، إن كان يتمتع بروح رياضية ، أو يهوى المغامرة .

ولكن في كل مساء — وهذه هي العادة — يتلاقى الناس . وهنالك حفلات في كل مكان ، ولما كان الناس يحرسون على أن لا يسيئوا إلى أحد ، فإنهم لا يترددون في قطع عشرات الكيلومترات من الطرق لزيارة فلان ثم فلان . أما الرقص فإنه يستمر حتى الفجر .

وعندما يأتي الصباح ، فإن الخدم يضعون في كل غرفة فرشاً من القطن . ذلك أن الشكليات يغض النظر عنها في الريف : وفي البيوت من الكبر ما يتسع لكل المدعوين ، وهؤلاء لن يغادروا إلا بعد طلوع النهار ، ثم بعد أن يرتاحوا تماماً ، بعد تناول فطور غني يتألف من العصافير المشوية ، والفول ، والحمص .

وقصر وحيد قريب من رأس المتن . لكن قلة من اللبنانيين أتاحت لهم فرصة الدخول إليه ، أما أمه التي تسكن هناك طول السنة فإنها تعيش حياة بعيدة عن الناس ، ويقال إن هذا البيت لا يستقبل إلا الفلاحين الدروز المقيمين على مقربة منه وبعض المشايخ الذين احتفظوا بولائهم للأسرة .

وعلى أكبر دهشة من سلمى ، فقد تبين لها أن البيك الشاب الذي يقضي أكثر أوقاته لدى أمل ومروان ، لم يدعُهما قط .

وتعلّق أمل على ذلك بقولها ساخرة :

— إنه لا يدعوننا لأننا لا نضع الحجاب ، وهو يخشى أن نخرج شعور جماعته .

والظاهر أنها تمزح . ولكن سلمى تشعر بأنها تقول الحقيقة . وعلى كل حال ، فإننا لم نلق وحيداً في رأس المتن ، كما رأيناه في هذه الأيام فهل هو يأتي من أجل سلمى ، كما يؤكد مروان ؟ ولكن إذا صحّ ذلك ، فما أغربها من طريقة للتقرب منها ! ذلك أنه قلماً يوجه إليها الكلام . ولما كان مشغولاً أغلب الوقت بتدريبات التصوير ، أو منهمكاً في مناقشات سياسية لانهاية لها ، فإنه يبدو وكأنه يُفضل جماعة الذكور . ولكن يكفي أن يتقرب رجل ما من سلمى ، ويبقى معها أكثر من الوقت الذي تقتضيه المجاملة ، لكي يظهر هو . ومن دون أن يلاحظ النظرات الحانقة التي يُرمى بها ، فإنه يدخل في الحديث ويشارك فيه . بل إنه يمضي أحياناً إلى حد قطع الحديث ، بقوله :

— اعذرني يا عزيزي ، فأنا أريد أن أكلّمك يا سلمى ، ويأخذ بيدها ، بما يشبه القوة ،

ويعضي بها .

أما المرة الأولى التي «اختطفها» فيها بهذه الطريقة، فإنها اغتازت وقالت له :

— ولكن يا وحيد، ماذا يحدث لك ؟ إنك تتصرف وكأنك ملك لك !

ونظر إليها .

— أياكون هذا مزعجاً لك إلى هذه الدرجة .

ولما ظلت صامتة، فإنه أخذ يدها بخنان وقبّلها في جوف راحتها . فاعتراها من ذلك رعشة، إذ لم تشعر قط بشيء من هذا النوع من قبل . فأغمضت عينيها وفكّرت، وقالت له : بلى سأكون لك .

فأضاف هو بصوت خافت قوله :

— سلمى يجب أن تعرفي كم أنت مهمة بالنسبة إليّ، فلا تلعب مع هؤلاء الأغبياء .

ومضى مباشرة ليقابل أصدقاءه .

وحذّرت أمل التي كانت ترى سلمى شاردة أكثر فأكثر كل يوم بقولها :

— سلمى، انتبهي، إن وحيد لم يعرف قط ماذا يريد . وأنا لا أريد أن تعذبي .

لكن المرأة العاشقة تحسب دوماً أنها استثناء، وسلمى تحب لأول مرة، وهذا الدرع الذي صنعتته لنفسها في السنوات الأخيرة وهي تنظر حولها بشيء من الشفقة المتعالية إلى ذلك الأذى الذي كان الحب يُسبّبه، تمرّق دفعة واحدة . وبدأ لها أنها في حالة عري، وأدهشها أن تكون سعيدة بهذه الدرجة .

وكذلك وحيد، فإنه، من جهته، يبدو وقد دُجّن، ومنذ الآن، عندما يراها، ينسى بسمته الساحرة، ولم يعد في عينيهِ إلا الحنان . وكثيراً ما ترافقه في رحلات طويلة، غير مبالية بما سيُشاع عنها، فيتحدّث هو إليها عن طفولته، وعن أبيه الذي منعه حتى وهو ميت، من أن يعيش، حياة طبيعية، لمدة طويلة .

— أنا لا أتمنى لأحد أن يكون ابن بطل، فما من يوم يمر، إلا ويلقاني شخص محترم، سليم النية، ليقول لي متعجباً : « آه، أبوك أي رجل كان ! » وعندما يزني ويقيّمني، يقول لنفسه : « إن هذا لا يصل حتى إلى حزام أبيه ! » .

ونعركة أليفة يدخل أصابعه الرقيقة في شعرها .
— لقد أضعت مدة طويلة للتخلص من شبحة ، وأحياناً أراني غير متأكد من أنني وصلت إلى ذلك .

وفي هذه اللحظات ، يبدو على درجة من الضياع ، تجعل قلب سلمى ينبض ، فتأخذ يده ، وتغرق عينيها في عينيه .

— وحيد ، إني أعرف أنك ستعجز مهام كبيرة . والمهم ، هو أن تكون واثقاً من نفسك .
فيتسّم لها معترفاً لها بالجميل ، ويقول :

— إنك جد مختلفة عن النساء الأخريات . ويبدو أنك سريعة العطب ، وأنت في مثل هذه القوة ...

وتريد سلمى أن تحتج ، ولكنه لا يفسح لها المجال ، ويقول :

— أعرف أنك قوية ، وأنا أحبك بهذه الصورة .

إنه يريد لها دفعة واحدة ، بلا تردد ولا مخاوف ، على حين أنها ترغب في أن تبدو كما هي ، رامية عرض الحائط بشخصها كأمية وقحة ، واثقة من نفسها . وكلما بدأت تفضي إليه بما هو الشيء الأكثر رقة فيها ، والأشد نزاهة ، تملّص أمامها ، كما لو أنه خائف ... وكما لو أنه يريد أن يكون صخرة ، بلا شقوق ، لكي يحكم بأن مثل هذه الصخرة موجودة ، وأنه يستطيع ، هو أيضاً ، أن يصبح كذلك ذات يوم ...

وعندئذ تصمت ، وتصغي إليه ، مندهشة من أنها تشعر بهذا النوع من المرأة الصابرة ، داخلها ، أفيكون ذلك قوة ، أم ضعفاً ؟

— ولكن هل حدّثك ، على الأقل ، عن الزواج ؟

يا إلهي كم هي مزعجة أمل ، في أسئلتها هذه !

— إن كنت تحرصين على أن تعرفي ، فإنه لم يقل الكلمة ، ولكن كل أحاديثه ، ووضعه ، يمضيان في هذا الاتجاه .

— ولكنك تعرفين أن الدروز لا يتزوجون إلا فيما بينهم، باستثناء بعض الحالات الشاذة، وأم وحيد محافظة جداً، ولن تقبل بأجنبية، لا سيما وأنها تحرص على تعزيز شرعية ابنها وذريتها في الحال التي تسمح، ذات يوم، باستعادة السلطة.

— انظري، يأمل، إن وحيد هو الشخص الأكثر استقلالية بين من لقيتهم، حتى هذا اليوم. أفعتقدين أنه يدع لأمه أن تتحكم في قراره؟

وتهز أمل رأسها، بعد أن ثبّطت عزميتها.

— إما أن الحب يعميك، وإما، حقاً، أنك لا تفهمين شيئاً من طباع رجالنا! ...

وقد ترك هذا الحديث في نفس سلمى انطباعاً سيئاً. فلم تظل أفضل صديقة لها تحدّرها بدلاً من أن تفرح بسعادتها؟ ولم تشك في أن وحيد يستطيع حبها؟ أفتكون غيرة؟ وأمل تعرف البيك الشاب منذ الطفولة — إذ ليس هو بأكبر منها إلا بنحو أربع سنوات. وكان مع أخيها مروان يتقاسمان نفس اللعب. لا بدّ إذن أنها تحس تجاهه بعاطفة لاشعورية من التملك.

ولا تستطيع أن تمنع نفسها عن نقل هذا الحديث إلى وحيد. فتقول له بلهجة المزاح ما دار بينها وبين أمل وتنبئه بشكوكها. ويستعذب هذا كله، ويحبب بلهجته الواخزة.

— أغريهي؟ إنها بالتأكيد كذلك. ولكنني أظن أنك تخطئين حول موضوع الغيرة، فهي لا تحبني أنا، يا عزيزتي، ولكن تحبّك أنت!

ولو أنه ضربها بكفه على خدّها ساعتئذٍ، إذن لما أحسّت باللطفة.

فتنظر إليه، مذهولة، ويصعد الدم إلى وجهها: ترى كيف يستطيع أن يلّمح بمثل هذه القذارات؟ إنها تحب أمل، وأمل تحبّها حباً صافياً لا يميز له أن يُلوّثه!

فابتعدت، وهي ملأى بالحقد.

— ربما قال الإنسان إنك تتسلى بتهديم كل شيء!

ويستنكر وحيد، فيجيب:

— آه، لا. لن تذهبي إلى حد لومي على صراحتي! وما أحبه فيك، هو أنك قادرة على مجابهة الحقيقة، وأنتك ...

— أنني قوية؟ بلى، إني أعرف. ولقد ضمقت ذرعاً، من أني قوية! وأنا بحاجة، أنا أيضاً، إلى الرقة، لا إلى دعس كل ما هو عزيز عليّ، بحجة الصراحة.

وأدارت له ظهرها، فهي لن تبقى لحظة أخرى، مع هذا الرجل. وتريد أن تعود، ولكن إلى أين تذهب؟ إنها غير راغبة في أن ترى أمل، وغير راغبة في أن ترى أحداً، إنها بحاجة إلى أن تبقى وحدها.

وتترك سلمى رأس المتن في اليوم التالي، دون أن ترى وحيدها، وهي مدينة بهذا إلى أمل، التي أوشكت للحظة واحدة، أن تخونها. وهي تريد أن تنسى الأحاديث المشيرة، التي كشف فيها الدرزي عن نفسه، أكثر بكثير مما لوّث أمل. وكانت تعرفه أنانياً، ولكنها لم تكن تتخيل أنه قادر على القيام بنائم تافهة. ونامت ليلتها كلها وهي تبكي غضباً، ومن خيبة الأمل. والآن، فقد قرّرت. فهي لن تراه أبداً.

بيد أن سلمى شعرت وهي تقبّل أمل، ساعة الرحيل. بشيء من الحرج. فلقد ضمتها بين ذراعيها مع الانطباع اللا محتمل بأنها تكذب عليها. وعندما رفعت أمل نحوها وجهاً قلقاً، عضت على شفتيها لكي لا تصرخ قائلة: «ولكن انقطعي عن حبي!».

ترى أمن أجل جملة، كان ينبغي ألا تقال أبداً، ستضيعهما معاً؟

وكانت سلمى لم تعد إلى بيروت إلا منذ ثلاثة أيام، عندما جاءها الرجل الذي يتأبط البندقية، حاملاً معه رسالة:

«لا أستطيع أن أحتمل الانفصال عنك، ولقد قلت ما قلت كيفما اتفق، فهل تستطيعين مسامحتي. سأنتظرك في صالة الشاي في فندق سان جورج، بعد ظهرنا هذا في الساعة الرابعة. أتوسل إليك بأن تأتي.

وحيدك»

ولكن ماذا يحسب هذا الرجل؟ أيحسب أنه يستطيع أن يسمح لنفسه بأي شيء، وأنه يكفي أن يقول «عفواً» لكي تجري إليه؟ إن هذا لإفراط في السهولة! فهي لن تذهب إليه بالتأكيد! وما بينهما هو قصة انتهت الآن. إن —ت—تت. أضف إلى ذلك أنها لا تشعر بأي شيء نحوه، بل هي لا تفهم مطلقاً كيف رأت أنه مغر.

وها إنها ستمضي اليوم كله في أعمال البيت ، وتغني ، برؤوس شفتيها ، ومنذ مدة طويلة لم يرها أحد فرحة كما هي الآن ، وتتخيل وحيد ، وهو يترقبها ، ويسمعتها على شفتيها : وسيكون بائساً ، ويائساً . ولسوف يرهقها برسائله وأزهاره ، ولن تحببه . فهي الآن تعرفه ، ولن تدعه يتجاوز الحدود ! وفي الساعة الرابعة ، وخمس دقائق ، وكانت قد لبست طبقاً من الشانتونج الأخضر ، يبرز لونها ، دفعت سلمى باب فندق سان جورج ودخلت .

لقد ظن كل منهما أنه أضاع الآخر . ولكن ما من مرة شعرا أنهما أكثر قرباً ، فوجد لم يعد يفرق في أحاديثه الفردية ، ولأول مرة يستمع إلى ما تقوله سلمى ، فستسلم إليه ، سعيدة . وأصبحا يتقابلان كل يوم : وتقول لأمها إنها ذاهبة إلى بيت أمل . وخلال ساعات ، يمشيان على الشاطئ ، شاطئ الرمل الأحمر ، ثم يستريحان في أحد هذه المطاعم الصغيرة التي تقف على الأعمدة وسط البحر حيث تقدم المازة والفليفلة المشوية ، أو أنهما يصعدان على هضبة السراي الكبيرة ، حيث يطلان على بيروت كلها . ومن هناك ، يتركان العرب ، وينزلان بالحافلة الشديدة الاهتزاز ، وتهبط حتى تصل إلى ساحة المدفع . وهما يجبان التسكع في الطرق الضيقة ، في المدينة القديمة ، حيث لا يريان ، بالتأكيد ، أي وجه معروف . ويتساران بألف شيء ، وينشغان ألف مشروع .

وفي ذات يوم ، عندما كانا يعودان من طريق ويغاند ، صادفا عدداً من البرانس السوداء ، يجرون رملاً ، فيجبرونهما على إفساح الطريق لهما . وهؤلاء هم السباهي الخاصون بالمندوب السامي ، الذين يركبون جيادهم الصغيرة العربية ، وهم في حدود الثلاثين ، يواكبون السيارة الرسمية ، في كل رحلاتها . ولم يستطع وحيد إلا أن يشتمهم . وأضاف ، بصوت خافت :

— هؤلاء الأغبياء ، إنهم لا يقدرون أننا عما قريب سنتخلص منهم .

أما طجة كلامه ، فإنها تشير إلى التأكيد الكامل ، واستغريت سلمى ، فسألته بنظراتها . فيتأملها طويلاً وهو يرف بعينه ، ويقول أخيراً :

— إن كنت تعدينني بالأ تقولي شيئاً ، فغداً مساءً ، سأخذك معي ، وستفهمين .

وبار الطيران — ذو المقاعد الجلدية ، والخشبية القائمة — هو المكان المفضل لكل المتأمرين في

المدينة . وهؤلاء يهربون من السان جورج منذ أن شاع الخبر بأن ببيير ، وهو أفضل من يشرف على بار في العاصمة ، كان أحد عناصر المخابرات في الشرق الأوسط ، والمركز الرئيس لها يقوم في بيروت .

لكن وصول وحيد مع سلمى يلفت الأنظار . ذلك أن الاجتماع في ذلك النهار ، اجتماع استثنائي : وكان ممثلو الاتجاهات المختلفة ، المعارضة للانتداب ، يفكرون بمناقشة القيام بعمل مشترك . وكان الناس ينظر بعضهم إلى بعض ، دون أن يعرفوا ماذا يفعلون : فهل من الحكمة أن يستقبلوا فيما بينهم ، غريبة ؟ ثم كيف يتخلون عن شخص في مثل هذا الإغراء ؟ وفي لبنان ، ترى المجاملة مغروسة في القلوب : وأخيراً ، إذا كان وحيد بك قد رأى أن يأتي بها ، فسيكون من باب الشتيمة له ، أن يحدوا منها ! وهكذا يقربون بعضهم من بعض ، ليضعوها في المكان اللائق بها . وجاؤوا بشمبانيا عظيمة ، وأخذوا يتناقشون .

وبصوت خافت ، أخذ وحيد يعرف سلمى بالشخصيات الحاضرة .

— فهذا الرجل ذو الشعر الأبعد ، هو ماسوني ، أرسله محفله ، الذي اتخذ أخيراً قراراً بالوقوف ضد الانتداب . وإلى جانبه ، صحفي جاء كمراقب ، وهو جبران التويني ، مدير جريدة النهار ، أول صحيفة لبنانية تقف ضد الانتداب ، وهو يعرف جيداً عناصر العالم السياسي الفرنسي ، ويمكن أن يكون رأيه ثميناً بالنسبة إلينا . وأمامنا ، هذا الرجل ذو الوجه الشديد العزم ، هو أنطون سعادة المشهور ، مؤسس الحزب القومي السوري المطالب بسورية الكبرى التي يدخل فيها لبنان وفلسطين ، ومن الغريب أن نظريته القائلة بوجود سورية طبيعية تعود في أصولها إلى أقدم الأزمنة ، زمن الكنعانيين ، تستند إلى كتابات أحد الجزويت البلجيكي ، الأب لمانس . وعلى يمينه اثنان من الداعين إلى الوحدة العربية الكبرى ، وعندهما أن وحدة سورية ولبنان ليست إلا مرحلة على طريق الوحدة الكبرى .

وبدأت سلمى التي تهيب هؤلاء الحاضرين ، تتأمل وجوه هؤلاء الأبطال الذين ربما وهبوا حياتهم غداً ، من أجل « تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبية » . وكانت تتخيل أنهم أقل حرصاً على الظهور بمثل هذه الأناقة ، فقمصانهم — ذات الياقة البيضاء المنشأة — القادمة مباشرة من عند (السلكا) في باريس ، وطقومهم ذات الثلاث قطع ، العظيمة الأناقة ، تدهشها . وكانت تفضل أن تراهم في هيئة أكثر ثورية . لكن هذه فكرة صبيانية . ولكن بعد كل حساب ، نلاحظ أنه لا بدّ للمتآمرين من أن لا يظهروا كمتآمرين . ولا يمنع هذا من أن ترى هي أن أناقة المكان ، والجو الخملي ، والسيكار الفخم بيد كل منهم ، أشياء لا تتناسب مع المواقف الجذرية التي يتخذونها بعد قليل . وتجذب

أن أنطون سعادة وحده يبدو مستعداً للتضحية بكل شيء، خدمة لأفكاره. فبه يمكن أن تثق، وبوحيد بطبيعة الحال. وها هو يتحدث باسم الدروز:

— إننا على صلة دائمة مع إخواننا في سورية، ولدينا أسلحة، بيد أن الكثير من فلاحينا يترددون، فهم يخشون إذا ما ظهرت المملكة العربية السورية للوجود، أن يصبحوا أقلية لا صوت لهم ولا حقوق، غارقين في الأوقيانوس الإسلامي السني. فهم لم يسوا، بعد كل شيء، أن الانتداب الفرنسي هو الذي منح الديانة الدرزية وضعاً رسمياً. وتقوم الست نظرية بتذكيرهم بذلك!

ومع ذلك فإنهم يريدون الاستقلال. فالمهم إذن هو أن تُوحد قوانا كلها، ضد الوجود الفرنسي، فالشعب قد أرقى، والموقف أصبح ناضجاً.

وحقاً فإن إضرابات ربيع ١٩٣٥، كانت قاسية جداً. فالتدهور الاقتصادي والتضخم، للذان جاءا من أوروبا، أفرغا الجيوب، وقَدَّما مبررات وحججاً لرجال السياسة. ففي زحلة، انتهى إضراب اللحامين ضد فرض ضريبة جديدة على اللحم، إلى حوادث شغب كثيرة. وقد هاجم المتظاهرون مكاتب الحكومة فتدخلت الشرطة، وأطلق الرصاص، فأوقع كثيراً من الجرحى. وفي بيروت تطاول إضراب التاكسيات عدة أسابيع، بدفع ودعم، على ما يقال، من الشيوعيين. ثم جاء فحل محلَّه إضراب «المحامين»، المحتجين على فتح المحاكم اللبنانية أمام المحامين الفرنسيين.

ولكن قضية إدارة حصر التبغ هي التي أثارت استياء البورجوازية أكبر الاستياء، سواء أكانت مسلمة، أم مسيحية. فترخيص إدارة الحصر الذي صدرته فرنسا عام ١٩٢٠، والذي انتهى أجله هذا العام، يجعل الأوساط اللبنانية تلح لكي يعاد إليها، بل لقد تُظلم الإضراب عن التدخين.. غير أن المندوب السامي الفرنسي، عاد من جديد فمنح هذا الامتياز لمجموعة فرنسية، ولمدة خمس وعشرين سنة!

ويفرك المتآمرون أيديهم في البار ذي الأنوار الخافتة: إذ لقد بلغ الاستياء من الانتداب قمته، ويكفي أن ننظمه.

أما بقية النقاش، حول: من ندعو؟ وأين نجتمع؟ وأي نوع من أنواع المقاومة ندعو إليه؟ فإن سلمى لم تصغ إليه إلا بعض الإصغاء. ونظرت، معجبة، إلى وحيد، الذي أخذ على عاتقه، مع أنطون سعادة، إدارة العمليات. وهي تفهم الآن لماذا تحبه.

وعندما صحبته في السيارة، قال لها بصوته الخفيض: «إن المعركة ستكون قاسية، فهل أنت مستعدة للقتال معي؟» فتضع، بحماسة، يدها في يده، تأكيداً لصدق العزم.

وكانت الساعة تشير تقريباً إلى منتصف الليل، عندما عادت سلمى إلى البيت، ودخلت على رؤوس أصابع قدميها، وكانت أمها تنتظرها في الصالون. وبكل برودة تسألها عن صحة أمل، ولكن قبل أن يتاح الوقت لها للرد، قاطعتها أمها:

— وفري عليّ كذبك. فهذه هي المرة الثانية التي يقولون لي فيها إنهم رؤوك مع هذا الدرزي. فماذا بينكما؟

وعندئذ لا مجال لسلمى أن تضلل أمها، ولكنها في الأعماق تخفف عن نفسها، فقد أصبحت لا تطيق الإخفاء.

— هنالك، يا أبنديجيم، أننا متحابان.

فترفع السلطانة حاجبيها، بفقدان صبر.

— ليس هذا سؤالي. فهل يريد الزواج منك؟

— بالتأكيد.

وبدت لحظة ما، مترددة. فوحيد لم يتقدم قط بطلب رسمي، ولكن من البديهي أنه يريد الزواج منها!

— وإذن فلماذا لم تأت أمه لتحدثني بهذا الشأن!

— إنها تسكن بعيداً جداً، في عين الزلفا، وهي قرية في الجبل، وأظن أن صحتها لا تسمح لها بالسفر.

— جيد جداً. فغداً تأتيني بهذا الشاب، في ساعة الشاي.

— ولكن يا أبنديجيم.

— ليس هناك من «ولكن». فلماذا أن تطيعي، ولماذا أن لا تخرجي من البيت بعد الآن، إلا مصحوبة بزنبيل أو بإحدى الكالفتين. واعتبري أنك سعيدة إذا أنا استقبلت هذا الشاب. وهذا

حسن، لأنك وصمت نفسك، والله شاهد عليّ بأنّي كنت حملت بزواج آخر لابنتي الوحيدة، وعندما أفكر... أنه درزي! حتى ولا هو مسلم.

— ولكن يا أبنديجيم، إن الدروز مسلمون.

— إن هذا ما يدّعون. ولكنهم لا يراعون أركان الإسلام الخمسة. ثم إنهم يؤمنون بالتقمص، مثل الهنود. هيا. غيبي عن وجهي، أو أرفع راية الغضب.

وكانت المقابلة من أسوأ ما يمكن. فوحيد نزيه في مشروع زواجه بسلمى، ولكنه لا يقبل أن يفرض عليه شيء، وعندما تسأله السلطانة عن حياته، ومشاريعه، فإنه يجيب إجابة من يريد الهروب من الجواب، بكلمات مفردة، أو مقاطع من كلمة، حتى ليبدو من خلال ذلك عامياً. وما من مرة ذكر اسم سلمى. وبصورة آلية يداعب الشاة التي جاءت تهرّ على فخذه. وتعض السلطانة شفيتها، وتجد أكبر العناء في احتواء انفعالها.

ولقد حكمت عليه، من أول نظرة: إنه رجل لا يشعر بالمسؤولية، حالم! وهو يكره هؤلاء النسوة اللواتي يتسلطن على أزواجهن، ويسأل عما إذا كان ما يبدو لدى سلمى من طبعها الآن، هو علامة دالة على ما وراءها... ثم إن هذا البيت لا يشعره بالراحة، بل يرهقه. وهو لم يكن يتوقع الفخامة... لأنه يعرف أن الأسرة فقدت كل شيء، ولكن أن يجد على الأقل بعض الأشياء الثمينة، تشير إلى عظمته السابقة: كرسوم قديمة، أو فضيات جميلة، تكون بمعنى ما، عنواناً على هويّة. ولم يتخيل هذا الأثاث البورجوازي التافه، ولم يحلم بأن يرى أميرته في مثل هذا الجو... وعندما أسقط تفاهة المكان على مكانه، فقد شعر بصورة غامضة، أنه تُخدع. وعندما أتاحت له اللياقة الفرصة طلب الانصراف، مسروراً بما يفعل.

وتخير سلمى التي صحبتته إلى الباب، أنه مسافر غداً إلى الجبل، وأن هنالك قرارات هامة... وأن حضوره ضروري. فتندهش، إذ لم يخبرها بذلك من قبل؟ ويجب:

— إنني علمت بهذا قبل قليل. إنه رسالة تلقيتها هذا الصباح... أرجوك، لا تكوني حزينة. فالشوف ليست في آخر العالم!

— ومتى تعود؟

— لا أعرف. وربما خلال ثلاثة أسابيع أو أربعة، على الأرجح. وسأخبرك بذلك، متى عدت.

وتشعر سلمى بأنه يكذب.

— وحيد، أرجوك، قل لي الحقيقة. ألم تعد تحبني أبداً؟

فيضحك، ويبدو من جديد جذاباً، مع بعض السخرية.

— إن لديك فرط خيال، يا عزيزتي. ألا تعرفين كم أنت غالية عليّ؟

وتناول يدها، وبحركة أصبحت مألوفة يودع قبلة داخل راحة اليد.

— إلى اللقاء القريب!

ووقفت على العتبة، لتراه يمضي، وتتبعه بعينها، حتى آخر الشارع.

ولم يلتفت.

ومضى شهر، ولم تتلق سلمى أي خبر. وهي تعلم أن وحيد يكره الكتابة، ولكنها بدأت تقلق: فلعله مريض، أو جريح. ففي هذه الجبال، يسهل على الناس إطلاق الرصاص، ووحيد يضايق الكثيرين من الناس.

إلا... إلا أن تكون أمه قد استولت عليه ثانية، وأقنعت أنه بالدرجة الأولى لقبيلته، وأنها وجدت له خطيبة درزية...

وذات مساء، وخلال عشاء عادت، فلقيت فيه مروان وأمل اللذين كانت قد أهملتهما بعض الشيء في الأيام الأخيرة، وكانت سلمى تستمع مسرورة، إلى آخر حكايات العاصمة وإشاعاتها. فإذا باسم وحيد يذكر، ويجعلها ذلك تنتفض. إنها امرأة شقراء لم تكن قد رأتها قط، تتكلم بصوت عال هابط.

— أسمعتم بالخبر؟ إنه يتزوج.

وتسكت قليلاً، لتتذوق أثر ما قالت، فكف الناس عن محادثاتهم.

— ولا يمكن أن تحزروا مع من: مع صبية أمريكية تملك المليارات، وهي ابنة مدير إير آم

Air AM . وهي شركة طيران كبيرة . وبما أنه كان بحاجة إلى المال ، لكي ينطلق في السياسة ، فلقد عرف كيف يتدبر أمره !

وحيد؟ ... أمريكية . وشعرت سلمى بأن قلبها خرج منها .

وكان مروان أمامها ، ينظر إليها ، متوسلاً ، مُسلحاً .

لا تخف شيئاً ، يا مروان ، فأنا أعرف أنهم ينظرون إليّ ، ولن أجعل من نفسي ، مشهداً يستمتعون برؤيته . وأصلاً فإن هذا كله ، مستحيل ، ويجب أن تكون هذه المرأة قد أخطأت الرواية . وهذه أيضاً واحدة من « مرحات » وحيد . فهو مغرم بإطلاق الأخبار الكاذبة ، ليرغم الناس على الهذر ... ولكن ... تقول إنها رائته . فهو في بيروت ، ولم يهتف إليها ... وحيد ، يا وحيد!

وتغمض سلمى عينيها ، ويصاب رأسها بالدوار . فلا تملك تجميع أفكارها . وفجأة اقتنعت أن ماروته هذه المرأة صحيح .

ورافقها مروان وأمل في العودة ، وهما صامتان . وماذا يمكن أن يقولوا ؟ حقاً إنه لا مجال لأي شيء يقال .

وفي اليوم التالي ، انتظرت سلمى ، طول النهار ، وهي جالسة على مقربة من الهاتف . فهو سيهتف إليها ... ومن المستحيل ألا يطلبها ، وعلى الأقل ليشرح ما جرى ... فلم يكن هناك إلا هاتف واحد من أمل . إذ أكّدت ، مصعوقة ، أن الخبر صحيح ، وأجابت سلمى : شكراً دون أن تعرف على ماذا تشكر صديقتها ، ونخطوات تائهة اجتازت الممر ، ودخلت إلى غرفتها .

وتحدّدت على سريرها ، وعيناها مفتوحتان جداً ، وتشعر بأنها تحوم فوق الأرض . ولا شيء يؤلمها ، ولكنها تتساءل لِمَ فعل هذا ؟ وكان يمكن أن تفهم الأمر ، لو أنه تزوج من درزية ، فرضتها عليه اعتبارات سياسية . ولكن هذه الأمريكية ، ما شأنها ... هذه المليارديرة ... فهل يكون رجلاً عامياً يجري وراء مال المرأة ؟ وفي هذه الحال ماذا ينتظر منها ؟ وتذكر كل كلمة من كلماته ، كما تتذكر لحظات صمته ، خاصة ، ومختلف تفاصيل هذه الأشهر التي قضياها معاً ، يوماً بعد يوم . أو يمكن أن يكون قد نسيها ، وهو لم يكذب يتعد عنها ؟ أم أنه ضحى بحبهما ، لأنه كان بحاجة إلى المال ، لتابعة نضاله .

ولو أنه جاء يشرح هذا لها ، فقد كانت على الأغلب ستصدقه ، ولقبلت ... وربما كانت قد فهمت كل شيء ، إلا هذا الصمت ، وهذا الجبن ، وإلا أن يتخلى عنها دون أن يقول شيئاً .

وتعلّكها ألم يبدو لها أنه أليف ، كَألم جرح قديم ، جرح كنا نعرف أنه سينفتح ذات يوم ،
فنتنظره بفضول مرضي ، وخضوع هادئ .

وأمسحى وجهه وحيد ... لكن خيري بك ينظر إلى سلمى بلا مبالاة عابثة .

— لماذا نتهم الآخرين دوماً ؟ فلن تخلصوا عنك ، فالأرجح أن ذلك تم بسبب منك !

الأرجح ... ولكنها عبثاً بحثت ، وهي لا تفهم ما الخطأ الذي ارتكبته ، ولماذا تخلى عنها وحيد ،
كما تخلى عنها قبله أبوها .

وم هي مذنبه ؟ وأي قانون تجاوزت ؟ وبقبضة يدها تضرب جبينها : إن هنالك سبباً ولا بد .
هنالك دائماً سبب . أو أن العالم هو المجنون ، بلا حدود ، ولا قوانين . وهذا لا تستطيع ، بل لا تريد
أن تتصوره ، وتفضل أن تستسلم لهذه البداهة ، الغامضة ، على أنها مطمئنة : فهي التي كانت على
خطأ .

ومن على كرسيها ، كانت السلطانة تراقب ابنتها بقلق ، فمنذ أيام كثيرة ، كانت هذه تأبى
الطعام . وتبقى حبيسة غرفتها ، أو تمشي في الممرات . ولا بد من أن تتدخل ، قبل أن يدهماها المرض
فعلاً .

وتصارحها ذات صباح عندما بدا لها أن الفتاة أقل ذهولاً ، فتقول :

— ألا تظنين أن هذا الشاب قد كذب عليك : وكان عاشقاً ، وهذا مؤكد . ولهذا أنا معجبة
به من حيث أنه ملك الحكمة المناسبة ليقطعك عنه .

ويعلو وجه سلمى سيماء اللوم ، فترفع عينها نحو أمها .

— أيندجيم ، ليس لدي استعداد للمزاح .

— إني أكرر عليك القول : إنه كان يحبك . ولكنه لم يكن واثقاً من نفسه بدرجة تسمح له
بإرهاق نفسه بامرأة من طينتك . فهو بحاجة إلى امرأة مطيعة ، لا تطرح أي سؤال عليه ، إذا هو
غاب عنها ثمانية أيام في مهمة سرّية ، أو في رحلة صيد مع الأصدقاء ، أو لمعاشرة خليله ، فإذا عاد
استقبلته مبتسمة . وأنت لم تكوني تتحملين القيام بدور الزوجة الجمالة ، هذا ، مدة شهر واحد . إن
نساء أسرنا كنّ دائماً أفراساً حُرناً .

وكانت خديجة تنظر إلى ابنتها ، وهي تتكلم : أما هذه ، فكان وجهها مغلقاً ، وتنظر إلى

أطراف أصابعها . ولكن حتى إذا كان في الكلام بعض الكذب ، فإنه ضروري لإنقاذ ابتها وجعلها
تعود إلى الثقة بنفسها ، فتقول :

— إن هذا الشاب قد خاف . ولن تخلى عنك ، كما تخين أن تقولي ، فذلك لأنه كان يحبك
بإفراط ، لا لأنه لم يعد يحبك .

١٠

وفي ربيع العام ١٩٣٦، ربح الجبهة الشعبية الانتخابات في فرنسا. وشكّلت حكومة برئاسة ليون بلوم. أما في بيروت، حيث تتابع الأحداث باهتمام، فإن الناس يتساءلون عما إذا كانوا سيحصلون من هذه المجموعة «الاشتراكية» الجديدة، على الاستقلال.

ولقد أنجزت خطوة أولى: فمند ١٩٣٧/١/٢٠، حصلت البلاد على رئيس جديد، هو إميل إدّة، وهو الأول الذي انتخب بعد عشر سنوات. ذلك أن المفوض السامي، داميان دو مارتيل، الذي أعاد العمل بالدستور، على طريقته، مسمىً هو نفسه رئيس الدولة، وجاعلاً من البرلمان مجرد مكتب للتسجيل، أرغم، بحكم الاستياء العام، على السماح بالانتخابات.

ولكن هذا لم يعد يكفي اللبنانيين. فمند الآن تراهم يشعرون أنهم مستعدون لإدارة شؤونهم بأنفسهم، وهم لا يتحملون بسهولة تلك التضييقات والحدود المفروضة عليهم. وفي شباط من عام ١٩٣٦ قرّر البطريك الماروني، المونسينيور عريضة، أن يجمع مؤتمراً يضم المطارنة، فوضع هؤلاء بياناً موجّهاً إلى المفوض السامي، يطالبون فيه بالاستقلال الفعلي للبنان، وبوضع دستور جديد، خلال المدة الفاصلة، يضمن حرية الصحافة، والاجتماعات، وتأليف الأحزاب السياسية.

ولكن حتى الرئيس إميل إدّة، على كونه محبّذاً للانتداب — إذ كان يرى أن البلاد، المقسّمة بين وطنيين لبنانيين، ووطنيين عرب يطالبون بالوحدة مع سورية، ليست بعد من الاستقرار بحيث تستغني عن الحضور الفرنسي — كان يصطدم بسلطوية الكونت دو مارتيل.

وتسخر أمل منهما فتقول :

— لئن كان كل منهما يكره الآخر ، فذلك بسبب رئيسكا .

ورئيسكا دو كرشوف ، زوجة قنصل بلجيكا ، روسية بيضاء ، رائعة الجمال ، وقع الكونت في حبها ، وهام بها هياماً كبيراً . لكن الوسط السياسي — الاجتماعي ، الصغير الذي كان على علم بهذا الحب ، كان يتابع بتعطش كبير أطوار تقلباته ، ذلك أن رئيسكا امرأة متقلبة ، وكثيراً ما تغلق الباب في وجه الكونت الذي يصاب باليأس . ولا يجهل هذا كله إلا الزوج اللطيف « روبر تينو » والبشعة جداً ، الكونتيس دو مارتيل .

ولكن إميل إدّه أساء إلى رئيسكا إساءة بالغة . ويقال إن هذه عملت المستحيل لتعزيز ترشيحه ، ولا سيما لدى الكونت دو مارتيل . وحدثت المشكلة . فهذا الناصر للجميل ، لم يدعها إلى الغداء الذي أقامه في اليوم التالي ، لانتخابه ، لكل عظماء بيروت . وهذه أشياء لا تغتفر ، ويتهمس الناس في أن المندوب السامي شعر بأنه شتم وأهين كما أهينت حبيبته الجميلة .

وسلمى تعرف رئيسكا جيداً ، بل إنها عادت فرأت وحيد لأول مرة ، في حفلة عشاء عندها . إذ لم تحبس نفسها ، بسبب حزنها : بل على العكس ، وبدافع التحدي ، كانت تحضر كل البالات . وكانت الصديقات الطيبات اللواتي يتيأن ليقفن لها بعض كلمات المواساة ، كن يفعلن ذلك لحسابهن . فما بدت الفتاة في يومٍ ، متفتحة ، منتعشة كما كانت في مثل ذلك اليوم .

وفي ذلك المساء ، في الحين الذي كانت تأتي فيه متأخرة كالعادة ، وتدخل صالون الكرشوف ، كانت قد رأت ذلك الشخص الطويل الهامة ، الأليف ، مستنداً إلى المدخنة : فشعرت بأن قلبها توقف عن الخفقان ، فرئيسكا التي كانت تتحدث مع وحيد ، استقبلتها بالقول ، وربما ببعض الدهول :

— أظن كلاً منكما يعرف الآخر .

أما حولهما ، فقد توقف الناس عن الكلام ، وبجهد كبير ابتسمت سلمى ، ومَدَّت يدها لوحيد ، وقالت له بعد أن تحكمت في رجفان صوتها :

— كل تهنائي ، لقد علمت بأنك تزوجت .

وامتقع لون الرجل ، وقال كيفما اتفق كلمة شكر دون أن يجزؤ على النظر إليها . وفجأة

وجدته جباناً ، وبلا أفق . وعندئذ التفتت ، ضاحكة ، إلى ذاك الذي كان يقدم لها ذراعه ، ليرافقها إلى غرفة الطعام ، وشعرت بسعادة جديدة ، وبدت لنفسها خفيفة كزغب البط ، وقالت لنفسها : إن الحياة جميلة .

ووصلت أمل بعد هذا الظهر حاملة خبراً ضخماً ، فهي ستخطب لواحد من أبناء عمها آل الأطرش ، أحد أعضاء الأسرة الدرزية القوية ، المعروفة في سورية . وكانا لم ير أحدهما الآخر إلا مرتين ، منذ سنوات ؛ وهي تتذكر فتى طويلاً ، أكتافه عريضة ، وله ضحكة طيبة ، وأكبر منها بثماني عشرة سنة . وعبرت خالتها عن رأيها فيه ، فقالت : « إنه شجاع كأسد ، وواضح كالذهب » . وكانت هي التي تحرص على السعي لتحقيق هذا الزواج « قبل أن تموت » لا لأنها مريضة « ولكن في مثل عمري ، يجب أن يكون الإنسان مستعداً » . وهم يسكنون في دمشق ، جوهرة الشرق الأوسط ، وقلب العالم العربي ، وشاهد حي على ألق الخلفاء الأمويين .

— وعلى كل حال ، فإنه يجب على الفتاة أن تتزوج ، قالت ذلك أمل ، مع ضحكة خفيفة .

— وأنت يا سلمى ؟

— أنا ؟ مالك يا أمل ؟ إن العالم مفتوح أمامي . وأقول أحياناً لنفسني إنه يمكن أن أكون ممن يدخلن سباق السيارات ، أو قد أذهب فأعنى بالمجذومين . والمشكلة هي أنني أخاف من السرعة ، وأن المرض يصيبني بالهلع ... أما ملكة ؟ فقد جربت ، ولكن ذلك لم ينجح ، أو نجمة سينما ، فلم أنجح أيضاً ... أو عاشقة ، فقد كان النجاح أقل ! ... فإذا كان لديك فكرة ما ، فأنا مستعدة لتجربتها .

وسلمى تقول أي شيء كان ، لتغطية اضطرابها ، وتلوم أمل على أنها تركتها . غير أن هذا الزواج ، في الأعماق ، يرغمها على مجاهدة وضع كانت تهرب منه ، فقد أصبحت في الخامسة والعشرين وهي الوحيدة من مجموعتها التي بقيت عذرة ، لا لأنها ترغب في الزواج ، فقد غرر بها بالدرجة الكافية . ولأنها مزهوة بنفسها ، أو هي تخشى أن تتألم ، فإنها لا ترغب مطلقاً في تكرار الخيبة . أما أن ترضى بحجز حريتها ، فقط لوضع حد لحياة العزوبة ، فهذا مما هي غير مستعدة لقبوله .

يبد أنها لا تستطيع أن تتابع الحياة على هذه الصورة . وعندما تنأمل في السنوات الأخيرة ، فإنها تشعر أنها كانت تدور في الفراغ ، وأنها شغلت نفسها بالاستقبالات وبألف تفاهة أخرى ، لعدم

وجود ما هو أفضل. وهي رغبة أكثر فأكثر بترك بيروت : وعلى الرغم من مظاهرها كعاصمة ، فإنها قرية استنفدت هي ما فيها من وعود .

وليتها ، على الأقل ، تملك المال ... كانت إذن ستقوم برحلات ، وتضي فتزور باريس ، ونيويورك ، وهوليد ! لا وحدها طبعاً ، لأن زينيل سيكون معها . ومع الأسف ، فإن وضعهم المالي ليس قلقاً فقط ، بل على وشك أن يصبح مأسوياً ، فالحياة تصبح أغلى فأغلى . وعلى الرغم من توظيفات سورين آغا ، فإن عوائدها تتضاءل من شهر إلى شهر .

وقد خطر ببال سلمى أحياناً أنها تستطيع أن تعمل ! فهناك بعض السيدات البورجوازيات ، على ما يقال ، يعملن . وهي لا تعرف منهن أحداً ، ولكنها سمعت الناس يقولون ذلك . فلو أنها اقترحت ذلك على السلطنة ... حقاً إنها لا تجرؤ على تخيل رد فعلها . ثم ، وعلى كل حال ، ماذا تعرف أن تفعل ؟

وسألت بلهجة مثيرة :

— هل تعتقدين بأنهم يقبلونني كخادمة ؟ فأنا أعرف كيف أطرز ، وأنشئ باقات زهر رائعة .

فنهضت أمل ، وأخذت سلمى بين ذراعيها .

— يا عزيزتي ، لا تكوني شديدة المرارة ، إن هنا على الأقل عشرة رجال لا يطلبون إلا أن تقبلي بأيٍ منهم زوجاً ، أوليس بينهم واحد يرضيك ؟
— ولا واحد .

وتخفيفاً مما قد يبدو في جوابها من ادعاء وغرور ، أضافت تقول :

— الحقيقة أنني أختنق في بيروت . ولي رغبة في أن أمضي إلى الطرف الآخر من العالم ، أي أمريكا مثلاً ، إذ لا أستطيع العودة إلى استامبول .

وتنظر بعينين لامعتين ، إلى صديقتها ، وتقول :

— أحب أن أغير نسق حياتي ، يا أمل . فالحياة هنا مفرطة الحلاوة . أتذكرين كم كنت

مثالية، ولم كان لدي من الطموح؟ أما الآن فلم أعد إلا «امرأة تغشى بيوت الناس، في الحفلات والاستقبالات وبدأت الآن أكره نفسي».

وتظاهرت أمل بأنها مُهتمة بسير حداثها وغامرت بالسؤال:

— أياكون هذا كله بسبب وحيد؟

فانفجرت سلمى ضاحكة.

— ولكن لا... أي خاطر خطر ببالك! إن وحيد قد سقط من عيني كثوب اهترأ، إلى الدرجة التي أتساءل معها، أهو ذاك الذي كنت أحبه أم هو النضال الذي كنت أتخيل أن أقوم به إلى جانبه. كلا... أتريين؟.. إني لست عاطفية... ولكن أي رجل يتقدم لي لأشاركه حياته في مشروع ضخم، سأتيه، بلا ريب، إلى آخر العالم... يعني أتي سأتابع المشروع، لا الرجل!

— إني أعبدك. إنك الشخص الأكثر رومانتيكية بين كل من صادفتهم!

ومن غير أن تترك لسلمى الوقت الكافي لكي تغضب، قامت فقبلت سلمى على خدها، ومضت.

وجاء اليوم مروان في سيارته الحمراء، ليصحب سلمى إلى المدينة، في قضاء حاجاتها. فمئذ عدة أسابيع، لم تعد ترى سائقها الرسمي: فأورهان أبحر... إلى ألبانيا. والحقيقة أن غضب مصطفى كمال دام طويلاً، ثم عادت العلاقات فاستؤنفت: وهكذا فإن الأمير عابد، صهر الملك هناك، فكّر بأن ابن أخته هذا يصلح تماماً لأن يكون ضابط مرافقة لجلالته، زوغو الأول، بدلاً من أن يكون سائق تاكسي في بيروت.

وبشوق وحنين رأت سلمى ابن عمها المفضل يسافر إلى هذه الألبانيا التي طالما حلمت بها. وقد ذهبت لتأتي بالكتب والمجلات التي كانت قد أطلعت عليها بحماسة المستجد، منذ أربع سنوات، والتي لم يطاوعها قلبها قط في رميها.

— إن هذا يخفف بعض ما أثقلت به جزار مكثبي— على ما كانت قد قالت وهي تجهد لتبدو لا مبالية، على حين أن زينيل الذي لم ينس الأسف على هذا الزواج الذي لم يتحقق، كان يستنزل غضب السماوات والله، على هذا الطاغية الذي حال بين ابنته الصغيرة، وبين أن يتحقق مشروعها ذاك.

ولكنها في هذه اللحظة من بعد هذا الظهر الخريفى ، رأت أن ألبانيا بعيدة جداً . وما كادا ينعطفان في زاوية الشارع ، حتى خلعت قبعتهما ، وألقت رأسها على المسند الجلدي . آه ، كم تحب أن يعث الهواء بشعرها ! وكم هي على ما يرام مع هذا المروان . فهذا ، على الأقل ، غير متمسك بالمبادئ . أما خيرى ، فلو أنه رآها بهذه الحال ، إذن لأراها من آياته عجباً ، ولمضى ينقل لأمه خبر ما حدث .

— لقد طالما حَلِمْتُ بأن يكون لي أخٌ مثلك ، وأخي لا يقوم بأي شيء من أجلي ...
قالت ذلك وهي تنهد .

فأجاب مروان محتجاً :

— أنت ظالمة ، أفقّدين أنت ، إلى أي حد ترهقينه ؟

واستنكرت سلمى :

— أنا ، أرهقه . أو هي خطيئتي أنا إذا كان بطيئاً كالرخويات ؟

ويتسم مروان . فهو لن يناقش ، لأنه يعرف أن من المستحيل ، أن يفهم الإنسان العاصف الحيوية ، أن للأصداف مزاياها أيضاً . وفيما يتصل به هو ، فإنه لا يتعاطف مع خيرى ، لكنه ذلك اليوم ، وعندما سمع بخبر خطبة أمل ، رآه يحتفظ برياسة جأشه ويتدّرع بكرامته ، بصورة لا يخفي معها بؤسه . وقد أشفق عليه .

وأتى الاثنان قضاء حاجتهما في باب ادريس ، في مركز المدينة ، ثم إن مروان اقترح أن يذهبا إلى بيت أمل ، حيث يتذوقان أطيب مشروبات بيروت . وعندما وصلا إلى ساحة المدفع ، توقفا بسبب مظاهرة تسير هناك : كان فيها خمسون شاباً تقريباً ، يلبسون الشورت والقمصان الزرقاء ، ويمشون مشية عسكرية .

فقالت سلمى ، على سبيل الاقتراح :

— تعال لنرى .

وعندما نزلا من السيارة ، اختلطا بالصبية الذين ينظرون إلى ما هناك ، وهما يتبادلان التعليقات الساخرة .

— أومرة أخرى، ميلشيات الجميل؟ فمنذ أن ذهب هذا الرجل، إلى برلين، بمناسبة الألعاب الأولمبية، لم يعد هنالك حدٌ لغروره.

— أتعرفين كيف يسمي رجاله هؤلاء؟ إنه يسميهم الكتائب! والفوهرر بطله. ويدّعي أن منظمته رياضية بحتة، وغاياتها اجتماعية. أما في الواقع فإنه يريد تنظيم الشباب اللبنانيين على طريقة الشبيبة هتلرية، الشبيبة التقية والقاسية، والمغالية في التعلق بوطنها.

— وماذا يعني ذلك، فنحن جميعاً متعلقون بأوطاننا؟

— لا تخطئي، فبالنسبة لهؤلاء الفتيان، فإن الذين يريدون الوحدة مع سورية، أي نصف الشعب، هم لبنانيون فاسدون. ولهذا فإنهم لا يقبلون عناصرهم إلا من الوسط الماروني، تقريباً، على الرغم من أنهم اجتذبوا بعض المسلمين.

— هذا مضحك. والأفضل أن يساعد أباه في الصيدلية.

— الصيدلية؟ أية صيدلية هذه؟

— تلك التي ترينها أمامك، في مدخل الحي، والخاصة بالموازنة بل إن مكان هذه الصيدلية... المتميّز، هو الذي جعل الناس يلقبون صاحبها الأب جميل «بملك القميص الإنكليزي»!

فيضحك كل الناس.

— وماذا يقولون؟.. وهذا هو السؤال الذي تطرحه سلمى على مروان.

— لا شيء، تعالي.

فيأخذ بيدها إلى السيارة، وعليه سمة الغم.

وفي شارع رستم باشا كانت السلطانة تنتظرهما نزعاً. ولكن سلمى، على أكبر دهشة منها، لأنها ترى أن حسن الضيافة لدى أمها يصل أحياناً إلى حد الهوس، سلمى، هذه المرة، تلاحظ أن أمها لا تدعو مروان إلى البقاء لتناول الشاي. وبعد عدة دقائق من الحديث المهدب، استأذن مروان بالانصراف.

وما كاد الباب ينغلق وراءه . حتى دعت السلطانة ابنتها ، وأخبرتها بصوت مرح جداً ، مما هو غير مألوف لديها ، بأنها تريد أن تحدّثها بأشياء جدّية . وهذا النوع من المقدمات ، يجعل سلمى عادة ، تقف حذرة . ولكن أيندجيم اليوم تبدو على أحسن حال ، مزاجاً .

— يجب أن تفكري ، يا بنيتي بأن أملك تهمة أسوأ الاهتمام بمستقبلك ... لا ، لا تقاطعيني ! فكل صديقاتك قد تزوجن . وأمل نفسها على وشك الزواج . والحقيقة أنني تلقيت في هذه الأيام الأخيرة عدة طلبات ، لم أخبرك بأي منها ، لأنني كنت أأبي لك أن تكوني زوجة ، لرجل لا على التعيين ، لمجرد أنه أرستقراطي . وكنت أريد لك زوجاً لائقاً بمرتبتك ، وبجمالك . ولقد بحثت مدة طويلة ، واليوم ربما ...

وهنا تقطع جملتها ، كالمثل الذي يريد أن يلاحظ آثار ما يقول . ولكن لما رأت سلمى تظلم في صمتها ، فإنها تتابع حديثها ، بشيء من التحذلق :

— وربما وجدت اليوم ما أبغي .

وكانت تنتظر أن تتلقى من ابنتها سؤالاً ما ، أو على الأقل علامة تدل على الاهتمام . ولكن سلمى ظلت صامتة . لاريب أن ابنتها تعودت إدهاشها دوماً ، فمرة بالنار ، ومرة بالجليد ، مما لا يمكن التنبؤ به ! فتصاب ببعض الحيرة ، وتعود فتلع :

— فماذا ترين في ذلك ؟

وتتندد سلمى ، وتقول : أيندجيم ، هل يجب حقاً أن أتزوج ؟

— أي سؤال . ولكن بالتأكيد يجب أن تتزوجي ، إلا أن تفضلي البقاء عانساً ؟ ولا تقولي لي إنك ما زلت تبكين على ذلك الدرزي ! هيا ، سلمى ، بعض الجد ! إنك لم تعودي في ذلك العمر الذي تنقلب فيه الفتاة تقلبات غير منتظرة . وعليك أن تبني مستقبلك ، وأنت تعرفين جيداً أن هذا ، بالنسبة إلى المرأة ، يمر بالزواج .

وتخرج من حقيبة يدها غلافاً أزرق طويلاً .

— هاك الرسالة . وأظن أنه سيهكم . إنه من صاحب السعادة مولانا . شوكت علي ، مؤسس الحركة الهندية لدعم الخلافة . وهو ، على ما تذكرين ، الذي كان الوسيط في زواج بنات عمك ، بيلوفر ، ودورو شيفار ، مع أبناء نظام (المهراجا الكبير) من حيدر آباد ، أكبر دول الهند .

ومولانا رجل صموت ، وهو مخلص لأسرتنا . وهكذا فقد اتصلت به . وقد مضى على ذلك ما يقرب من سنة ، بل لقد أرسلت إليه صورتك . ولكن لما لم أتلّق خبراً منه ، فقد نسيتُه تقريباً . وإني هذا الصبح أتلقي جوابه . فهل تحبين أن تعرفي محتواه ؟

وأجابت سلمى ، بلهجة اللامقتنعة ، إلى الحدّ الذي جعل أمها تلفها بنظرة مستنكرة :
— بالتأكيد ، أئندجيم .

ولكن السلطنة تمتنع عن القيام بأي تعليق قد يثيرها ضدها : ذلك أن المهم هو أن تصغي . ثم يجب بعد ذلك أن تقنعها بلقاء الشاب ، على الرغم من أن ذلك لن يكون مهمة سهلة في الحالة النفسية التي هي فيها .

— إن سعادته يكلمني عن راجا في الثلاثين من عمره ، غني بطبيعة الحال ، ولكنه كذلك مثقف وعصري . ولقد قضى نصف حياته في إنكلترا ، في إيتون Eton ، ثم في الجامعة في كمبريدج ، ويسمى (أمير) وهو يحكم دولة بادالبور ، غير يد عن الحدود النيبالية : ولكنه يقضي أكثر الوقت في قصره في لوكنوف Lucknow ، إحدى أهم المدن في الهند . ويوضح سعادته أنه من أسرة مشهورة ، تنحدر بخط مستقيم من حضرة حسين (أي حضرة الحسين) ، حفيد النبي . أما أجداده ، فهم من أوائل الفاتحين العرب الذي وصلوا إلى الهند في القرن الحادي عشر .

وماذا أقول لك أكثر من أنه رأى صورتك ، وأنها أغرته ؛ وقد أرسل طلباً بالزواج بالشكل الرسمي . وبطبيعة الحال فقد أجبت بأن عليكما أن تتلاقيا . لكنه ، حالياً ، مشغول بمعركته الانتخابية ، إذ سُمح لأول مرة منذ أن صارت الهند تحت سيطرة الإنكليز ، سُمح بالانتخابات . ويجب أن تجري في آخر السنة ، وسيأتي إلى بيروت ، مباشرة ، بعد ذلك .

وتقول سلمى بلهجة حازمة :

— ليس عليه أن يلقي هذا العناء .

— أرجوك ، كوني عاقلة ، اقبلي على الأقل ، أن تريه . ولن نتحدّث لأحد حول هذا الموضوع ، بحيث أنه إذا جاء ، ولم يعجبك ، رُدّ على أعقابك بكل حرية . ولكن ربما حلا لك ؟ إذ ليس من المألوف أن نجد كل هذا الرصيد في شخص واحد . فلأكثر الأمراء الهنود ، عقليات متخلقة جداً ، على حين أن هذا ، قد رُبّي في أوروبا ...

— أيندجيم ، لقد أسأت فهمي . ولقد قلت : ليس عليه أن يأتي . إذ أنني مستعدة للزواج منه .

ولا شيء يعيد سلمى عن عزمها ، لاتحذيرات السلطانة القلقة من هذا العزم المفاجيء ، ولا رجاءات زينيل ، ولا بكاء الكالافات . إذ تبقى صامدة كالحجر ، وتندesh من قلق الذين حولها ، لا سيما وأن أكثر « الزيجات » التي تمت لأفراد العائلة ، كانت حصيلة ترتيبات مسبقة ، ورغم أن الحالات النادرة الأخرى لم تكن مكلفة بالنجاح العظيم ، أليس كذلك ؟

ولا تقف السلطانة على هذه السفاهة الأخيرة ، لأنها تشعر أنها تكاد تفقد أعصابها . ولكي نحصل على تعديل ما في موقفها ، ربما كان من الأفضل أن لانصدمها . والسلطانة التي لم تطلب قط في حياتها ، الشيء نفسه مرتين ، هاهي الآن تبذل قناطير من الصبر ، لكي تحاول إقناعها .

— فكري ياسلمى ، فأنا لم أكلمك عن الراجا إلا لأخرجك من بؤسك ، وأبرهن لك على أن هناك رجالاً يستحقون الاهتمام ... لا لكي تندفعي إلى زواج في الطرف الآخر من العالم ، في بلد لاتعرفين عنه حتى الآن شيئاً .

— لقد فكّرت ، أيندجيم . فإذا أنا بقيت في بيروت ، فسأصاب بالجنون ، إني بحاجة لتغيير صورة حياتي . وكأ كنت تقولين لي عند الحديث عن وحيد : يجب ألا نخلط بين الحب والزواج . وهإن كل ماقلته لي عن هذا الراجا ، يبدو مقنعاً ، فلمَ الماطلة ؟

وتصغي السلطانة خديجة إلى حديث ابنتها ، مسحوقة . فهي تعرف طبيعة ابنتها الهوائية ، وحساسيتها المفرطة ، وميلها المزعج إلى الانتقال من جانب إلى آخر ، دون الاهتمام بالنتائج . وهي تخشى أن تفسد حياتها ، بهذه التقلبات المزاجية . ولكنها وهي تستمع إلى المنطق البارد في محاكمات ابنتها ، والتي تتناول الحجاج التي قدمتها هي نقطة فنقطة ، ماذا عساها أن تجابهها به ؟

— إذن فليكن ماتشائين ، مادمت قد اخترت ، ومادمت قد بلغت الخامسة والعشرين ، فإن من واجبك أن تعرفي ماذا تفعلين . ولكن ، على الأقل ، وخلال هذه الأشهر التي يكون فيها الراجا مشغولاً في الهند ، تكاتبا ، وحاولا أن يعرف كل منكما الآخر ، فنحن لن نذيع الخبر ، ولكن تذكرني ياسلمى ، شيئاً واحداً : فعندما تتزوجين فإنه لا يسعك العودة إلى الورا ، ومادمت قد وَعَدْتِ بكامل حريتك ، فلا بدّ من الوفاء بالوعد ، حتى ولو رأيت أنك أخطأت .

وكان الراجا يكتب مرة كل أسبوعين ، بانتظام رأت سلمى أنه غير طبيعي ، على الرغم من أن

الأم السلطانة تجده من دواعي التفاؤل . وما يكتبه هو نوع من المذكرات التي يهيمن فيها الحديث عن الحوادث السياسية التي تهرز بلداً كالهند مأخوذاً بحمي الاستقلال . ويشعر الإنسان لدى قراءته أن الرجل مهمتهم قبل كل شيء ، بإطلاع الفتاة على المشاكل الكبيرة القائمة في بلده ، وعلى المصاعب والأفراح التي تحملها إليه مهمته ، كرئيس حكومة ، وهو يركز بشكل خاص ، على أمله هو ، وبعض أصدقائه ، المثقفين مثله في الخارج ، بقمع الظلامية بالتدريج ، وانتزاع الأفكار المسبقة ، والوصول ذات يوم إلى بناء وطن حديث .

أما عن ميوله ، وعن حياته الشخصية ، فهو لا يتحدث إلا قليلاً . كما لو أن الحديث عنها شيء ثانوي أمام المشاكل التي تتخبط فيها بلده . وسلمى التي كانت ، في البداية ، تقرأ رسائله ، بفضول ، أميل إلى الشك ، بدأت تهتم بهذا العالم الغريب الذي يصفه لها ، بكل هذا الهوى ، كما أخذت تحلم بالدور الذي يمكن أن تلعبه إلى جانبه ، فيه .

ولإنها لمتننة منه على أنه لا يبدو عاطفياً . ففي مثل هذا الزواج ، المرتب سلفاً لاعتبارات خارجية ، لا مجال للحديث عن العواطف . وهي لا تلقي في روعها أنه أحبها حباً عاصفاً ، من أول نظرة منه إلى صورتها . أما الشيء الذي أغراه ، فهو ، على الأرجح ، وقبل كل شيء ، فكرة الزواج من أميرة عثمانية . ذلك أن مسلمي الهند ينظرون إلى الأسرة الأباطورية ، وكأنها تمثل الله على الأرض ، أما بالنسبة لمن يعمل أو يريد الانطلاق في السياسة ، فإن الزواج من هذه الأسرة ، ليس بالرصيد اليسير . وأما من ناحيتها هي ، فعليه أن يعرف أن وضعه وثروته ، كانا بالنسبة إليها كفتاة ، عوامل حاسمة .

وبشيء من السخرية ، المخلوطة ببعض الغضب ، تذكر سلمى تلك المبادئ التي ربيت عليها ، سواء أكان ذلك في أسرتها ، أم لدى راهبات بيزانسون : « فأن يفقد الإنسان ثروته أو موقعه ، فذلك لاشيء مادام يحفظ بالشرف » . وحتى هذه الأشهر الأخيرة ، كانت تريد الإيمان بذلك ... وهي مدينة به إلى وحيد : من حيث أنه جعلها تحتك بالواقع — ولو بقسوة .

وانقضى فصل الشتاء بهدوء ، وكانت سلمى تهيئ سفرها . وعلى الرغم من نصائح أمها ، فإنها قد أطلعت بعض صديقاتها على أنها مخطوبة لراجا . وأسرع الصديقات فقلن ذلك لغيرهن . فالهند ، بثروتها الأسطورية ، وأمرائها ، تحمل الإنسان على أن يخلم كثيراً . وهكذا فإنه لم يعد لأحد أن يتألم عليها ، بل صارت النساء تغار منها ، حتى إنها تلقت رسالة من وحيد يهنئها فيها على خطبتها ،

جاء فيها قوله : « آمل أن تكوني قد سامحتني . وأنت لا تتخيلين كم أن هذا القرار ، الذي أملته الضرورة ، كان صعباً عليّ ، فأنت المرأة الوحيدة التي أحببتها في حياتي ، ولن أشفى من الشقاء الذي أصابني من جراء فقدك » .

إنه لم يتغيّر : ومرة أخرى لا يتحدث إلا عن نفسه ، وببطء أحرقت الرسالة مع بعض الأسى ، والكثير من الاحتقار .

وعلى الرغم من أنه كان على الزواج أن يتم في الهند ، بسبب المنصب الرسمي الذي يتبوّؤه الراجا ، فإن السلطانة قدّرت أنه ، على الأقل ، سيأتي إلى بيروت ليأخذ خطيبته . ولكنه شرح في رسائل طويلة ، محزنة ، كيف أن وضعه السياسي ، الدقيق بشكل خاص ، يحول دون ترك بلاده لعدة أشهر أيضاً . وكان على الزواج أن يتم في نيسان / أبريل / فهل كان يجب تأخير موعده ؟

ولكن سلمى رفضت التأخير بوضوح — رغم إلحاح أمها التي تخاف أن تتركها ترمي بنفسها في مثل هذه المغامرة ، حتى من غير أن ترى الرجل الذي سيصبح شريك حياتها . ومادام الراجا لا يستطيع أن يأتي ، فلتسافر هي إليه مع زينيل ، ومع السيدة غزاوي التي تقدّمت لتكون السيدة المرافقة . وتشعر السلطانة ، خلال ذلك ، أن ابنتها الصغيرة خائفة مثلها ، من هذا العالم البعيد الذي قرّرت الحياة فيه ، ولكن منذ الآن لا شيء ولا إنسان بقادر على أن يغيّر رأيها .

وستمضي الأيام الأخيرة في حمى التحضيرات النهائية ، التي بفضلها ينشغل الناس عن عواطفهم . بيد أن سلمى ، لحظة السفر ، تدخل إلى الصالون ، لكي تودّع أمها . ولم تستطع السلطانة حبس دموعها : إنها مسنة ، ومريضة . ثرى هل يقدّر لها يوماً ما أن تعود فترى ابنتها ؟ وتضم سلمى بين ذراعيها ، بأكبر قوة لها ، وتقول :

— يا غاليتي ، هل أنت متأكدة تماماً ؟

— أوه ، أيندجيم !

وتدسّ سلمى رأسها في كتف أمها ، فتشعر أنها ترتعد ، ولكنها تبقى حيث هي لتستشق رائحة النرجس التي رافقت طفولتها .

— أيندجيم ، إنك تعرفين جيداً أنه يجب أن نرحل ، وأنه ليس هنالك من حلٍ آخر .

وانتصبت ، ونظرت كل من الامراتين إلى الأخرى طويلاً ، ويعنف امّحت معه السنون ،
أصبحتا ، من جديد ، كما في الأزمة الأولى ، مختلطتين إحداها بالأخرى ، في اكتئال دافئ .

— يا بنيتي الصغيرة ...

وتغمض سلمى عينها ، ولا سيّما أنها قرّرت ألا تدع مجالاً لتأثير الحنان ، ووجهه .

وينعومة ترخي قضيّتها ومعانقتها ، ونحى لا مزيد عليه تُقبّل يدي أمها الجميلتين .

— سأعود ، أئندحيم ، لا تخافي . انتظريني .

ومضت بسرعة ، كما لو أنها كانت تهرب .

القسم الثالث

المسند

— ولكن أين هو إذن قطار المهرجا؟

ويبدو لسلمي أنها ما تزال تمشي منذ ساعات في هذا العفن المشمس، وفي هذا الصخب من الألوان والأصوات وفي هذه الفوضى الغريبة التي تهدد في كل لحظة أن تؤدي بها، لولا هذا الحاجز القوي، من حولها، والمؤلف من حوالي عشرة حراس في غاية الضخامة، ومن ذوي الشوارب أيضاً. ونحن في شهر آذار / مارس /، والجو حار، ومحطة بومباي تشبه مركز ألعاب فرسية، في حالة الجنون، أكثر منها محطة أولى في شبكة السكك الحديدية التابعة للإمبراطورية البريطانية الفائقة العظيمة؛ فهناك تحت القباب القوطية بين تيجان الصلصال الرمي، والأعمدة الفيكتورية المنحوتة نحتاً يملؤها بالأزهار، جمهور صاحب يزدحم، صاماً أذنيه عن النداءات الخنساء للباعة الصغار، باعة الحمص، وغير مبال بالرائحة الكريهة لأطواق الياسمين المخلوطة ببقايا العرق والبول.

وتشعر سلمى بالاختناق، ولكنها لا تريد أن تكون في أي مكان آخر، مهما كان الثمن: ها هو إذن وطنها الجديد، وبعيداً جيداً تقوم أبهاء الرخام الأبيض ونوافير الماء في فندق تاج محل، حيث أخذت منذ نزولها من الباخرة، لتستريح. وهي تشعر الآن أنها وضعت حقاً رجلها على أرض الهند. فتحاول، وعيناها جاحظتان، أن تسجل شريط الصور التي تتصادم، تحت الشمس، في خليط عنيف من الألوان: فيها القرمزي في العمائم العريضة لهؤلاء الحمالين الذين يحنفون تحت أهرامات قلقة من الأمتعة: وفيها الأصفر الفخم في ثياب «الزهاد». وفيها الأحمر والذهبي في

« ساريات » الزوجات الحديثات العهد بالزواج ، وكثرة من « المتسولين » الذين يتزاحمون حول البقع البيضاء التي تنشئها الكرتاه (أو القمصان البيضاء المصنوعة من الموسلين) ، كرتاه المسافرين في الدرجة الأولى .

وبدا لها أنها على وشك الانفجار من شدة الجمال ، والبشاعة ... ولم تعد تميّز شيئاً أمام هذا الشقاء المحمول بأشد الروعة ، وهذه الكثرة الساذجة والمفرطة القسوة بأن واحد : أولم تر مند قليل شيخاً عجوزاً يقع ، والجمهور الجريء يتابع تقدمه ، كما لو أنه يتحرّك في حلم أحد العبدان ؟

ترى ماذا وراء هذه الجباه القائمة ، وهذه العيون الحادة ، التي تتفحصها ؟ لقد شعرت بالاضطراب ، فالتفتت إلى رشيد خان ، الرجل الثقة لدى الرجا ، والذي جاء لاستقبالها لدى وصولها من بيروت ، كأنما هي تسأله ، ولكنه ابتسم مطمئناً ، أمام سؤالها الصامت (المضمر) — ثم كيف لها أن تصوغ سؤالاً مطلقاً كهذا ؟

وقال :

— لا تخافي شيئاً ، يا صاحبة السموّ ، فالهند صدمة لكل قادم جديد ، ستتعودين .

ثم أضاف ، كما لو أنه يقول لنفسه :

— بمقدار ما يستطيع الإنسان التعوّد على ما لا يقبل التفسير ... وفي آخر الرصيف ، هنالك حرس مدجّجون بالسلاح يلبسون لباسهم الرسمي الأزرق ، الذي يحمل شعار دولة بادالهور ، وهم يقومون على حراسة عربة قطار خاصة جاءت من أجلهم ، وكان حولها عناقيد بشرية تحاول عبثاً أن تأخذها عنوة .

واستولت على سلمى دهشة ، كبثتها : فقد كانت تنتظر قطاراً كاملاً ، كقطار بنتي عمها نيلوفر ودورو شيهفار ، زوجتي أميرى حيدر آباد ، ولم تعد تندش من أن يجبرها رشيد خان بأن أمامها ثلاثة أيام وليلتين من السفر ، ضرورة لاجتياز ثلاثة آلاف كم ، هي التي تفصل ، بومباي عن لوكنوف : فهذا القطار البطيء الزحف ، والمسمى بشيء من التفخيم ، اكسپريس ، يجب أن يتوقف في كل قرية !

وبصورة غامضة بعض الشيء ، شعرت بإهانة وجّهت إليها ، كما حدث البارحة ، عندما لاحظت لدى وصولها أن الرجا لم يكن موجوداً .

وتنظر إلى مرافقها الذي يتسم ، ملاطفاً ، وهو أبعد ما يكون عن ملاحظة العاصفة التي تختمر ، فتقلقها بلادته أكثر وأكثر : ومن المؤكد أن أمين سر الرجا ، يرى أن كل شيء على ما يرام .

أتراها ضلّلت ؟ لقد كانت تحسب أنها ستستقبل كملكة — أوليس خطيبها برئيس دولة ، في مثل مساحة لبنان ؟ ثم إن مندوبه مولانا شوكت علي إلى بيروت حدّثها مطولاً عن الثروة الخرافية للأمرء الهنود ، وعن القصور الكثيرة ، وعن الصناديق المفعمة بالأحجار الكريمة ... وقد جعلها هذا الوصف الذي أعاد إليها ذكرى الفخفخة التي عاشتها في طفولتها ، جعلها تحلم ، وعزّز قرارها .

وها إن كل شيء يتبخّر في غبار هذه المحطة ، على قدم هذه العربة المتمايلة ، وهي العربة التافهة المقدّر أنها ستحملها إلى المجد ...

أما داخل العربة ، فإنهم يتأيلون ، ويترجحون . وها إن الخدم المعتمّين يندفعون من مرقة العربة ، متطلعين بفقدان صبر إلى رؤية رائيتهم^(١) الجديدة . ومن خلفهم تتكاثر الأصوات الحادة لنساء يكدن يختنقن من الأعطية السوداء التي تلفهن وتحجبهن .

— يا صاحبة السمو ، هؤلاء هن حشمك . وقد حرص الرجا على أن يأتين ليكنّ في مرافقتك . ولكن ليس هن الحق بالخروج ، فلنصعد ، أرجوك ، إن السفر بادئ عما قريب .

وتتنفس سلمى في ظل العربة ، على حين أن القطار يهتز . أما المكان فمرح : ومغطى بخشب الأكاجو الذي رصّع بنحاس متألق ومصابيح من الكريستال . أما المقاعد المخملية والستائر الحريرية الكثيفة فتبدو وكأنها مصنوعة لإنكلترا القائمة أكثر مما روعي فيها هذا الطقس الشديد الحرارة . ولكن هنا ، كل التجهيزات تأتي من المتروبول الذي يشحن بسخاء إلى مستعمراته كل ما يرى أنه أصبح قديم الدرجة .

وأمام الفتاة ، هنالك نصف دزينة من النسوة اللواتي افترشن غطاءً أبيض ، مُدّ على ظاهر الأرض ، وأخذن يتفحصن الرائي ، ويتبادلن التعليقات بصوت أجش بعض الشيء . أما وقد تخلصن من بُرك... حتن ، أي من هذه الخيمة السوداء التي كانت تجعلهن شبّهات بالغبان ، فقد ظهرن في فساتين متعددة الألوان ، وبدت حناجرهن ، وأذانهن ، والسواعد مغطاة بالذهب . وكن ينظرن بدهشة غير راضية إلى يدي سيدتهن العاريتين ، وإلى عنقها المحلى بعقد من دور واحد من اللآليء .

(١) الرائي ، أو رائى : هي زوجة الرجا في لغتهم .

وتبتسم سلمى ، المندهشة بعض الشيء: فكيف تشرح لهؤلاء أن مثل هذا التراكم ، لديهم ... ولكنهن لا يدعن لها المجال . ويدورة واحدة ، خلعن عليها ، هذه أساورها ، وهذه حلق أذنيها ، وها هي الآن مزينة كوثن معبود . ومن سعادتهن ، أخذن يصفقن بأيديهن ، ويقلن :

— روبسورات ، باوت روبسورات .. أي هي جميلة وجد جميلة .

وهذه هي الكلمة الوحيدة من اللغة الأردنية التي تفهما لأنها سمعتها تُعاد مئة مرة ، على طريقها ، منذ وصولها . لكن هذا الشناء لا يخفف من استيائها من الشعور بأنهن يلعبن بها كما يلعبن بدمية . إلا أن الحشم يفعل ذلك بسداجة جعلتها أخيراً تشترك في الضحك معهن ، من جراء ذلك .

ليت أمها كانت تراها ! وكالفاتها ! ما أكبر الفرق بينهما وبين أولئك النسوة اللواتي عرفتهن في البلاط العثماني ، كحشم ونساء مرافقات . أولئك ما كنّ يجروُن ، ولو كن يعرفنك منذ الطفولة ، على العبث بك بمثل هذه الحرية ! ومع ذلك فإن مرافقاتها الجُدُ لسن بمسرورات : ذلك أن الطقم الحريري الذي تلبسه سلمى ، وهو صناعة باريسية ، من أرق ما هو من نوعها ، يبدو هن ، وكأنه يؤذن بشّر . أوليس الأبيض لون الأرامل ؟ ولقد نهضت أصغرهن سناً ، وهي مراهقة ذات خدين مدورين ، واستلت من إحدى الحقائق فستاناً طويلاً ، من لون الفوشيا الموشى بالفضة . وعلت تتممة استحسان ، تحية لمبادرتها ، وكأنها قالت : هذا هو الثوب الذي يليق بمن ستكون زوجة عما قريب ! وعلى الرغم من احتجاجات سلمى ، التي يعتبرنها نوعاً من الخجل ، يتهيأن خلخع الطقم الذي عليها . ولكن وُجد أنّذ من يقرع الباب . وبلمحة عين ، طارت خلية الأزهار العديدة الألوان ، إلى هذه « البركات » وحولتها إلى غريان .

وعلى عتبة العربة ، كان رشيد خان واقفاً : وكان في عينيه لوائح إعجاب ، سرعان ما احتجب . وبكل احترام يسأل :

— هل ترغبين بشيء ، يا صاحبة السمو . فمرافقتك السيدة غزاوي ، وزينيل آغا يستريحان في العربة المجاورة . وهما يريدان أن يعرفا ما إذا كنت بحاجة إلى شيء ما ، منهما ... — شكراً خان صاحب .

وتلاحظ أن هيئة سكرتير الراجا تدل على أصله الأرستقراطي ، وسلمى ، المتعودة منذ طفولتها على عادات القصر ، لا تحذر من معاملته كمجرد مستخدم .

— إني لأرغب، إن كان هذا ممكناً، إلا في شيء من الهدوء.

ذلك أن غرائب هؤلاء السيدات قد أرهقتها، وهي تطمح إلى أن تبقى وحدها. ولكن أنى لها أن تقول لمن ذلك بدون أن تجرحهن؟ فيتسم رشيد خان.

— سأقول لمن إنك بحاجة إلى أن تنامي.

وعلى الرغم من رفض الحشم، واستنكارهن— إذ من المستحيل أن تبقى الراي وحدها، كأبي بائية؛ فإذا هي نامت، فعليهن أن يكنّ هنا للسهر على نومها—، فإنه يخرجهن من العربية، بلطف.

وتتمدد سلمى بكل طولها، وتمطى، وبعد أن تخلصت من شنوف أذنيها الثقيلة، ومن العقد الذي كان يثني رقبته، هاهي تهز خصل شعرها الحمراء، وتعرض جبينها المنسدى إلى المروحة الضعيفة.

ومن خلال النافذة، كانت تمر الحقول المحروقة بالشمس، وفيها فلاحون نصف عراة وراء ثور مهزول، يدفعون سكة محراث بسيط يعود إلى ما قبل التاريخ. أما في القرى التي تسقف فيها البيوت بالنقش، فتلاحظ نسوة سوداً، مهزولات، جالسات القرفصاء، مهمكات بصنع لبنات يلصقنها بالجدران لجعلها تجف، ثم ينقلنها في سلال عميقة يضعنها بشكل متوازن على رؤوسهن. وسلمى تنظر إليهن وهن ملتفات بسوار (ج: ساري— لباس الهنديات) من ألوان لامعة، فتراهن رقيقات، منتصبات القامة، يتقدمن بهيئة شاحخة، وتفكر بأن عدداً لا بأس به من الملكات يمكنهن أن يشتهين صورة مشيهن. وأبعد من ذلك، وإلى جانب بقرات بيضاء، ذات قرون مصبوغة بالحناء، نجد جواميس سوداء تمشي متعثرة داخل مستنقع: حتى ليظن الإنسان أنهن خصيان قصر ضويلة باهتشمه، يقومون بالحراسة حول أزهار الحريم البيضاء.

«استامبول، يا جميلتي، أراك يوماً ما؟ في بيروت كنت قريبة منك. وفي الليل أحلم بأني أعود إليك، أما اليوم فأني أبعد، فأنا ذاهبة لأعيش في عالم غريب، كما لو أنني يمست من أن ألقاك».

ومن وراء النافذة، تصبح الحقول، ومزارع الأرز غامضة. وبدأت مناظر أخرى، وقرى جديدة تمر لتراها بنت صغيرة، حمراء الشعر «لطيانة» في زاوية قطار آخر كان منذ ثلاثة عشر عاماً، يجتاز تركيا ليحملها إلى المنفى..

وفجأة انتصبت سلمى. فهي لن تن باستمرار، كالأميرات العجائز، خالاتها وعماتها! إنها

شابة ، أتخاذة ، ولديها من القوة ما هو أكثر من كل أبناء أخوالها مجتمعين . هؤلاء الذين بمضون أوقاتهم في الشراب ، والتأمل في إمكانية ثورة غير محتملة الوقوع ، وهي ستربح ! ولكن ماذا ؟ ليس ذلك بواضح . ولكنها تعرف فقط أنه يجب أن تعود فتحد مكانها ، وما من إنسان أحرها على ترك عذوبة لبنان ، ولطفه ، بل إنها هي التي قرّرت أنها بحاجة إلى غرس بعض الجذور ، وإنشاء وطن لها ، ومملكة تكون فيها ملكة ، يحبا الجميع .

ولم تعد تؤمن بحب رجل ما — فما من لحظة شفيت من آثار خيانة أبيها ، وما جاء تخلي وحيد عنها إلا ليفتح جرحاً قديماً — إنها تريد أن تُحسب من شعب بكامله . إن هذا معنى أن تكون ملكة ، لا كما يتخيل السّدج ، أي أن تحاط بالثروة والتعظيم : بل أن تحاط بالحب .

وكانت السلطانة تقول ، ليست الفخفخة بمفيدة ، إلا من حيث أنها تحمل الجمال والأحلام إلى البائسين ، كما لو أن جنية طيبة تحنو على عذابهم ، لا كهذا الموظف الكئيب ، أو كامرأة تعمل في دور الإحسان ، وعلى وجهها من الكآبة ما يحلو معه لمن تُساعده أن يقوم هو بمواساتها ! ولكن المساكين لا يعون الهدية التي لا تقدر ، تلك التي يقدمونها هم للأمرءاء : فهم بحاجة إلينا ! ويجعلوننا نشعر بأننا ضروريون لحياتهم .

وعلى الرغم من شدة الحر ، فإن سلمى ترتعد : ترى كيف سيستقبلها شعب بادالبور ؟

ويحاذي القطار الآن الغات Ghats ، أي هذه السلسلة من الهضاب التي تقطع الهند من الغرب إلى الشرق . وهنا يصبح العشب أكثر خضرة ؛ وتقع العين على قطعان من الأغنام والماعز ترعى ، محروسة ، براعٍ له عمامة أرجوانية . وبعيداً عن ذلك ، في مكان ضائع في وسط الحقول ، نجد معبداً صغيراً من الحجر الأبيض ، محاطاً بأعلام تتموج على هوى الريح ، وهو يتموج كالسراب .

وهذه الآن تلك الساعة التي تسبق الغسق — ساعة الهدوء ، والعذوبة ، والانطواء على النفس ، فقرّبت سلمى وجهها من عوارض الحديد التي تحرس النافذة . وبشراهة تننفس أوائل نسمات الهواء الرطبة . فهي تذوق كل لحظة ، كل انطباع جديد ، وتمتنع عن التفكير بالوجه الذي ينتظرها في آخر الرحلة .

لكن خيبة الأمل التي أحسّت بها ، منذ وصولها ، عندما لاحظت غياب أمير ، لم تتبدد .

أوليس هو أيضاً على عجل ، للقائها ، أو أنه يكفيه أن تكون سلطانة ؟ أوليس هذا الزواج نوعاً من البيع والشراء ؟

« وأحس ، ناداً أنستطيع أن ألومه ؟ إني أتزوج ماله أنا » وبعضتها ، أن بعضه حصل تبعها . وبرادها رعة في البكاء « إن هذا الأمر سحيق ، محس لم يلق قط . وعلى ذلك من حافل . »

وعسا حاولت أن تتعقل ، فهي لا تستطيع أن تكبح جماح شهقات السكاء التي تهـ . . .
تسعر أنما وحيدة ، وحيدة . . . وماذا يجدي أن يكذب الإنسان على نفسه . لأن ما الناس سعا
وقحة ؟ والحقيقة أنها روماسكية لانسفاء لها .

ولقد حلمت بهذا الرأجا ، اللامع والشجاع . واهتزت معه بحذاء . . . يروبو على . . .
مالديه من مشاريع ومطامح وإصلاحات يريد لها لبلده . ثم — ولم تحب ذلك — لقد غرّها جماله .

ومن علية من المخمل ، أخرجت رصيعة ، وبدأت تتفحصها برصانة . وتلاحظ أن العينين
القائمتي اللون لا تنتهيان من الانشداد إلى الصدغين ؛ وأن الأنف الناعم ، مقوسٌ بعض الشيء ، وأن
الشفيتين البضتين تبدوان ناعمتين فوق حفرة الفم الغريبة بعض الشيء . ومنذ شهرين أي منذ جاءها
من عند أمير رسول من بادالبور ، وأعطائها هذه الصورة ، شعرت بأن شيئاً من رعشات اللذة ،
يغشى جسمها . وعلى الرغم من أنها كانت تريد أن تكون باردة وحسوبة ، فإنها تعرف الآن أن
السحر الغريب الذي ينساب من هذا الوجه ، الشبيه بوجه إله شرقي ، قد استولى عليها وأتم إقناعها .

ولكن لِمَ اكتفى بأن يرسل سكرتيه ؟

كم هو مسكين رشيد خان ، لقد كان لطيفاً ، وغريباً إلى حد كبير . وعندما وصلت جاءها
هو محملاً بباقة ضخمة من الزهر ، ثم أسمعها دفعة واحدة جملاً من التمنيات ، والمباركة بالوصول
بالسلامة ، باللغة التركية ، وكان واضحاً أنه حفظها عن ظهر قلب ، لهذه المناسبة . ولكن بدلاً من
« التحيات والاحترامات » فإن الذي وضعه على قدمي سلمى هو قلبه الملتهب ، وعندما لاحظ تعابير
الدهشة على الفتاة ، أدرك فوراً أن أصدقاءه لعبوا معه هذه اللعبة . فاحمرّت وجنتاه بقوة جعلتها
هي تضحك ، وذاب الثلج بينهما ، ومنذ تلك اللحظة أصبحا صديقين .

وردت هذه الذكرى إلى سلمى مزاجها الحسن . فهذا الزواج سيكون ناجحاً جداً : أوليس
لديهم كل شيء لكي يجعلوني سعيدة ؟

واستمرت الرحلة ستين ساعة... وكانت أيامها خانقة، ولياليها شديدة البرد، وكان على الطريق عشرات من القرى، كلها شبيهة بجماهيرها المتعددة الألوان، وباعتها الصغار، باعة الشاي والفطائر، وبفقرائها، بشكل خاص، أي بالمتسولين، الذين يتعلقون من خلال العوارض، بكمّ سلمى، ويلقون عليها نظراتهم الحادة. أما هي، فتسأل، والحنجرة منها مخنوقة، تسأل هذه العيون المهووسة الآتية من عالم تجهله، أتراها تنظر نظرات المجانين أو نظرات الحكماء؟ ومن يستطع أن يجيب؟ ورغبة منها في التخلص من هذا الإغراء الذي يأخذ بتلابيبها، تضع في الأيدي الممدودة إليها بعض قطع النقود، أما هم فإنهم يستمرون في تأمل هذه الإلهة البيضاء المذهّبة، المنبثقة من نيرافانا عليا، ثم يظّلون مسمرين هناك، مدة طويلة، بعد أن تغيب هي عن الأنظار.

— سنصل إلى لوكونوف، خلال ساعتين.

غير أن القامة العالية، قامة رشيد خان، التي ظهرت من كوة الباب، جعلت سلمى ترتعد. فلقد كانت الرحلة من الطول بحيث أنها فقدت خلالها كل معنى للزمن. «أوصلنا إلى لوكونوف إذن؟» وبدأ قلبها يخفق بقوة. فتتوسل إلى سكرتير الراجا بنظراتها، فشعر هو بالتأثر من نظرات هذا الوجه القلق. ومرة أخرى، يطمئن.

— كل شيء سيجري على ما يرام، ستين.

ما أطيبه من رجل! وتمنحه أعذب بسماتها، لا لتشكره فقط، بل لترى في عينيه تلك الشعلة الصغيرة التي تقول لها: إنها رائعة وتعرف كيف تسحر.

— لعلك تلتطف بدعوة السيدة غزاوي إلّى بسرعة.

وفي الخارج، كانت أولى شعاعات الشمس ترعش حقول القمح، ولم يعد المجال يتسع للأحلام، إذ ليس أمامها إلا ساعتين حتى تتهيا: وهي تريد أن تبهر أميرها الساحر. وقلما بقيت سلمى كل هذه المدة لتصفّف شعرها، وتضع زينتها. ولكنها على الرغم من جهود السيدة المرافقة، تجد أنها مخيفة! وقلّما ترددت أمام الفساتين المنشورة بمقدار ما ترددت هذه المرة، وكل ذلك لكي تتعجب أخيراً وتقول:

— ولكن أين هو عقلي، إن الساري هو ما يجب أن ألبسه!

والساري، بطبيعة الحال، هو الرداء الوطني لبلدها الجديد: وهي تلبسه تكريماً للخطيب

الذي ينتظرها في المحطة، مع كل حاشيته، وبياناً للصحفيين والجمهور الفضوليين المجتمعين لاستقبالها، أنها منذ الآن غدت هندية ...

ودخل القطار إلى المحطة، أما في الخارج فهناك الضجيج والصراخ المعهودان. ومن قلة الصبر أصاغت بأذنها: وهي تجدد عناءً في البقاء جالسة في هذه العربة التي خطر ببال رشيد خان أن يسدل كل ستائرهما. وفجأة ثارت ضجة في العربة، أهو أمير؟ وشعرت بأن قلبها يتوقف. لكنه لم يكن إلا الرشيد.

— لحظات أخرى أيضاً، يا صاحبة السمو، ريثما يهبون البردة^(٢).

— ال: ماذا؟

ولا يجيب الرجل، وكأنه مزعوج. والسيدة غزاوي تتمتع بجانبها أن هذا كله غير طبيعي، فتسكتها سلمى.

ومنذ أن وصلت هذه اللبانية إلى الهند، لم تنقطع عن التأفف، لأنها مستاءة، على الأرجح، من أنهم لا يهتمون بها الاهتمام الكافي.

ولكن هاهنّ النساء الهنديات المرافقات، يظهرن من جديد: أما هنا فإنهن يستعدن كل حقوقهن التي موبن فيها بشكل مخجل، خلال هذه الرحلة، وكوجه الراهبات القديمات اللواتي يستقبلن، بكثير من الطيب، راهبة جديدة، يمددن لسلمى جبة سوداء طويلة (كاغول) شبيهة بتلك التي تغطي أجسامهن من الرأس إلى القدمين.. فاندعشت سلمى مما يفعلن، وسألتهن بنظراتها. ولكنهن يحطن بها، ولا يتركنها.

وتصرخ هي: لا، لا، لا!!!

ولمّا كانت صرختها حادة، فقد انطلقت بقوة. فاندفع رشيد خان إليها مسرعاً. وكانت سلمى في زاوية من العربة، ترتجف، من شدة الاستنكار، وتحاول أن تمرّق هذا الحجاب إرباً إرباً. وكانت النسوة اللواتي يحطن بها يتشاورن في نوع السلوك الذي يجب أن يلجأن إليه. أما السكرتير، فقد وجد أكبر العناء في الاحتفاظ ببرودة دمه أمامهن. لقد تمت الرحلة على ما يرام، إلا أن هؤلاء الغيبات على وشك أن يفسدن كل شيء! فماذا سيظن القصر إن وصلت الخطيئة باكية!

(٢) البردة: وهي ستارة تفصل النساء عن الرجال. لكنها أصبحت تعني كون الإنسان محبوساً أو سجيناً.

ومع أن الرجل في العادة مجامل جداً، فقد أمرهن، مع ذلك، بصوت قاطع بالخروج.
بعد شيء من التمرد التشكلي، عدن فخرجن، وفي ذواتهن أنهن جرحن، أو جرحت كرامتهن، دون
أن يسيير الاحتجاج بصوت عال، أنهن يُمنعن من القيام بواجبهن مرةً أخرى، وعندما بقي وحيداً
مع سلمى واساها رلطف الحو:

— هذا لا شيء يا صاحبة السمو، فأُتوسل إليك أن تهدئي نفسك، ولن تكوني بحاجة إلى
مصح هذه الحركة (الرفع)^(٣). أفتشعرين بأنك على مايرام للنزول؟ فكل شيء جاهز لاستقبالك.
ولاحظت: سلمى، من باب العربيه، أن يساطين طويلين، ملونين، قد مُدّا: وفي آخر هذا
ممر، كانت هنالك سيارة تنتظر. وهكذا فإن الأميرة نستطيع مغادرة القطار دون أن تُرى.
ولما كانت مذهشة، فبصعوبه ما رأت رشيد حان ينحني لها.

— إلى اللقاء، يا صاحبة السمو، وليحفظك الله.
وعندما التفتت، كان هو قد غاب عن الأنظار، وحلّت محله سيدة قصيرة سمينة،
تسبب نفسها بالقول: بيجوم نُصرة. وتملأ يديها بالقبل.

— هوزور، يا صاحبة الشرف، إن هذا أجمل يوم في حياتي، — وقالت ذلك بلغة إنكليزية
مبسطة. — وكأن سلمى فهمت أن هذه الشخصية المزعجة هي زوجة حاكم دولة بادالور.
غير أن سؤالاً كان يتردد على شفتيها، وهي تعلم أن عليها أن تظل صامتة. ولكنها لم تستطيع
صوام.

— أين هو الراجا؟

— ماذا؟ هوزور! — وبدت المرأة القصيرة، وكأنها منزعجة — سيدتي، لن تستطيعي رؤيته
في الزواج. ولكن اطمئني — ذلك أنها لاحظت على الفتاة سيماء خيبة الأمل — فحفلات الزواج
تتم بسرعة كبيرة، خلال أسبوع واحد تماماً. ويانتظار ذلك، ستعيشين في القصر لدى الأخت
حبرى لسيدنا، الراني عزيزة.

في إحدى زوايا السيارة الضخمة (إيزوتا فراشيني) شعرت سلمى، المجردة من كل قوة،

^(٣) في الأصل حد بكلمة دكة مثل أنها تحبف لكلمة برقع.

بأنها لم تعد تسيطر على خيبة آمالها . ومن كل السيارة الفخمة البيضاء ، حتى العاديات والأضواء المذهبة ، لم تلاحظ ، بصورة خاصة ، إلا الستائر التي تغطي النوافذ ، تماماً كما كانت الحال في عربات استامبول المغلقة ، أيام طفولتها . وقليلًا قليلًا كانت تشعر بأن الغضب يشتد : وهذا الذي كانت تأباه في الثانية عشرة من عمرها ، يجب عليها أن تقبله الآن ، بعد كل سنوات الحرية هذه ، ولا مجال للبحث فيه ، ولكن هذا كله ليس سوى إنذار كاذب : إذ لقد رأت بنات أعمامها ، نيلوفر ودورو شيفار ، في صورهما ، كل يوم في الصحف ، وهما تُدشنان المعارض ، أو ترأسان بعض حفلات العشاء ، ولم تحلم بهذا حلمًا . فتحاول أن تطمئن نفسها ، وسدّ المنافذ على الرعب الذي بدأ يستولي عليها . إلا أنها تجد صعوبة في التنفس . ولا تملك أن تمتنع عن تذكر نظرة الإشفاق التي كانت تلمحها في عيني رشيد خان ، وصمته المتلجلج ، تجاه بعض أسئلتها . فلأول مرة ، منذ وصلت إلى الهند ، تشعر بأنها أخطأت خطأً فاحشاً .

وتباطأت السيارة قليلًا . فرفعت الستائر بعض الشيء رغم احتجاجات مرافقاتها ، لترى قيصر باغ « حديقة الملك » . إنها مربع كبير من المساحات المعشبة ، والمرتفعات المزهرة — وهي أكبر ، فيما يقال من اللوفر والتويلري معاً — وحولها تقوم القصور الأميرية .

وقيصر باغ ... الحديقة التي نشأت من حلم « واجد علي شاه » ، آخر ملك لمنطقة أود Oudh ، وهو موسيقي وشاعر ، أرغمه الإنكليز على التنازل عن عرشه ، عام ١٨٥٦ ، دون أن يفهم لماذا . ولما كان ميالاً إلى الفنون ، أكثر منه إلى السياسة ، فقد شاء أن يجعل من عاصمته الأعجوبة الثامنة في العالم ، وأن يجعل من قيصر باغ فرساي أخرى له . ولقد أنشأ ، من أجله ، ومن أجل نسائه الأربعة ، هذه السلسلة من التريانيويات ، من الحجر الأصفر ، وزادها بهجة بشرفات وقناطر مكشكشة ، ومزينة بكثرة برسوم من عجينة المرمر الأبيض أو الأصفر الفاتح ، أو تراب سيين Siene ، على طريقة الروكوكو ، الأصفى ما يكون .

وكان ينبغي أن يكون هذا كله قليل الذوق ، على ما تفكر سلمى ، ولكنه بالعكس ، رائع حقاً . إنه لطيف ومرهف ، على صوة المجتمع ، الذي شاء بدلاً من أن يقاتل ، أن يسترخي ، ويترك نفسه لحكم أولئك الناس ، من لابسى الجاكيت الحمراء ، والبرابرة الذين جاؤوا من الغرب .

أما قصر بادالبور الذي تسكنه سلمى ، فهو واحد من هذه التريانيويات الباروقية [(أي على طريقة فن الباروك baroque)] ، أي ذلك الفن الذي يتميز بالإكثار من التزيينات والألوان ، والمنحنيات غير المتناظرة] .

وتشرح البيجوم نُصرة لسلمى أن هذا القصر هو المسكن المدني، للراجا، وموطىء قدمه في لوكنوف، وهي اليوم مركز إداري بريطاني، تتعلق به نحو من خمسين دولة. وعلى مقربة منا يسكن النواب دالبور، الذي يملك أجمل اسطبل في المدينة. وأبعد منه بقليل راجا ديلواني، المشهور في تنظيم معارك السمانى، العجيبة. وأمانا مهراجا ماهدabad، وهو من عشاق الشعر الكلاسيكي. وعندما تذكر البيجوم نُصرة أسماء هذه الشخصيات الهامة، فإنها تسرّ جداً، كما لو أن مجرد تنشق الهواء نفسه معهم، ومعرفة عاداتهم تجعلها كفرد من أفراد أسرهم.

ومن حسن الحظ، أن السيارة توقفت، وكانت سلمى قد أضجرت بهذا الهذر الذي لا ينتهي — وهي على عتبة حياتها الجديدة. فتشعر بالحاجة إلى الخلوة مع نفسها. وأمامها عادت البسط الملونة فانبسطت، وفي الأخير الأخير، وفي ثقب من السور، أمام باب عظيم وقف خصيان أسودان كثيبان جاثيان، يكتسان الأرض بعمامتهما.

هاهم إذن خصيان طفولتها... وشعرت سلمى فجأة بأنها عادت خمس عشرة سنة إلى الوراء. ولو لم تكن أمامها هذه السراويل الواسعة (الشالفار) والكرتاه الزرقاء اللون التي تعوّض عن الاستامبولينيات القاسية، إذن لظنت أنها في قصر ضويلة باهتته. ولكن ما إن صعدت على السلم الحجري الهائل، حتى تبدّد هذا الإحساس. إذ تعود الهند، فتفرض نفسها بهذه الشرفات المنحوتة، كالدانتيل، وهذه الشرفات المنفتحة على الفناء الداخلي، حيث تجري المياه من النوافير جرياناً غنائياً، وبصورة خاصة، بهذه المجموعات من النساء اللواتي يتلاصقن ليقبلن يدي الراني الجديدة، أو ليمسكن بطرف ساريها، بأشد المسكنة والتواضع، في حين أن أطفالاً نصف عراة يحدّقن فيها بعيونهم الواسعة السوداء المكحلة. لكن البيجوم، تدفعهم لأنه لا بد من السرعة، ذلك أن الراني عزيزة تنتظرهما.

وراني عزيزة... هي ابنة حماتها المقبلة، وتريد سلمى أن تعرف المزيد من المعلومات حولها. ونُصرة لا تطلب إلا هذا، فتقول:

— إن راني هي أخت غير شقيقة للراجا. وهما من أمّين مختلفتين. وهي أكبر من أخيها بخمس عشرة سنة. وعندما فقد أبويه، وهو صغير، في حادث يكتنفه الغموض، كانت له بمثابة الأم. إنها سيدة كبيرة، ولديها من الذكاء مثل ما للرجل! وفي عمر الرابعة عشرة، عندما أشرف أميرنا على الموت مسموماً، على يد عمه على الأرجح، عمه الذي كان له حق الحكم كرئيس للدولة، حتى بلوغ ابن أخيه سن الرشد، قرّرت راني عزيزة أن ترسله إلى إنكلترا للدراسة، وأخذت على عاتقها

تسيير شؤون القصر . وكان القيّمون على الشؤون المالية يخافونها أكثر بكثير مما كانوا يخافون من الراجا العجوز الذي لم يكن يطالب قط بأي حساب ، معتبراً أن هذا يحط من شأنه .

وتخفّض البيجوم نُصرة صوتها ، فتقول :

— وهم يأملون أن يكون سيدنا الشاب أقل محاسبة لهم . فهذا المسكين إنما عاد حديثاً ، بعد غياب اثنتي عشرة سنة . وهؤلاء الأوغاد يخططون لاختلاس أمواله . ومن حسن الحظ أن أخته الراني هنا .

« وأنا ، لن يحسب حسابي أبداً ، إذن » ومن دون أن تعرف سلمى هذه الراني ، فإن حدسها يقول : إنها لن تحب رايني عزيزة .

وكانتا قد مشيتا أكثر من ربع ساعة ، عندما دخلتا إلى غرفة ذات سقف عال : ووجدتا هناك نصف دزينة من النساء ، جالسات على الأرض ، يثرثرن ، وهن يكسرن جوز التنبول (من فصيلة الفلفليات) بكسارات من الفضة . فلما وصلت سلمى أثارت موجة من الاستغراب والعجب : إذ أنهن يحطن بها ، ويضممنها بين أذرعهنّ ، ويُشدنّ بجماها . ولما كانت مذهولة ، ومطمئنة بحكم حرارة الاستقبال ، فقد سمحت لنفسها بالانطلاق مع هذه المجموعة الضاحكة : ثم يفتح لها ستارة أخيرة من الحرير وتُدخل إلى قاعة واسعة مزخرفة بموزاييك من الصدف ، ويمرايا على صورة العصافير والأزهار . وهناك وجدت سلمى مجموعة نساء جالسات على سُرُرٍ من الجبال ، ذات أرجل من الفضة ، وهن يتسامرن ، ويمضغن البان pān ، أي الحلوى الوطنية التي تُصنع من جوز التنبول ومن بعض أوراق مرّة ، أو أنهن ينتشين بشرب نوع من التبغ المعطّر ، من أنابيب النرجيلة ، الطويلة ، المصنوعة من الكريستال . وفي آخر القاعة ، وعلى سرير مرتفع ، تلمع أرجله الذهبية ، في الظل ، كانت هنالك امرأة تستريح بين وسائدّها ، على حين أن عبيدين يهزّان فوقها مراوح عريضة من ريش الطاووس .

وعرفت سلمى مباشرة ، من خلال تعابير الوجه ، أنها أمام الراني عزيزة ، وهي ما تزال جميلة : فقسماتها حادة ، وعيناها عميقتان ، وفمها متعاضم ، لا تبلغ بسمتها أن تخفيه .

— تعالي واجلسي بجانبني ، يا بنيتي .

أما الصوت فغنائي ، وأما الضمة فباردة . وبلغت إنكليزية ذات لهجة غريبة ، تسأل الفتاة عن رحلتها ، وهي تتفحصها من الرأس حتى الأقدام .

وانتهت من ذلك إلى القول :

— إنك جميلة جداً — لكن الصوت يرتفع ، كما لو أنها تريد أن تسمع الجميع ماتقول —
وعليك أن تتعلمي لبس الغارارا (تنورة طويلة تلبسها المسلمات) . أما الساري فهو لباس أتباع
الديانة الهندية . ونحن ، هنا ، مسلمون .

واحمر وجه سلمى حتى لكأنه كله دم : أوئذَكر هي بأنها مسلمة ؟ وهي حفيدة خليفة
المسلمين ! فلو أنها صفعتها على وجهها ، لما أذلتها أكثر مما فعلت .

وتلاقت نظرات امرأتين : فمنذ هذه اللحظة تعرف كل منهما أنها عدوة الأخرى .

ثم حمل إليهما بعض الحلوى التي صنعت من اللوز والعسل ، وشاي مشرب بالسكر .
« لتحلية حموضة الاستقبال على الأرجح » على ما فكرت به سلمى ، وهي تبلل به شفيتها . وبدأت
الرائي تسأل عن صحة السلطانة أمها ، وحياتها في بيروت ، فأجابت دون انتباه كبير . وعندما رأت
أن الحديث يطول ، غامت بهذا السؤال :

— عفوك ياسيدي ، لكنني متعبة من السفر . أفيمكن أن انسحب إلى غرفتي ؟

فارتفع حاجبا الرائي ، كجواب على هذا الطلب .

— ولكن غرفتك هنا ، يا بنيتي ؛ فخلال هذا الأسبوع ، ستسكنين معي . ولكن ماذا بك ،
أليست الغرفة واسعة بشكل مناسب .

وحملت الخادومات « غارارا » أخضر ، زمردياً ، فأعفاها ذلك عن الجواب .

خذي هذا ، وغيري به ثيابك ، فهذا اللون يناسبك إلى أعلى الدرجات . وأكثر من ذلك أنه
لون الإسلام ...

وأجابت سلمى مجروحة :

— إني أعرف ذلك .

— وإذن فأنت تعرفين كذلك أن أسرتنا تنحدر من النبي مباشرة ، عن طريق حفيدة
الحسين . ونحن شيعة . أما أنت فسنية بطبيعة الحال — وتتصنع أنك انتهد ، بصورة مدروسة —
ولكننا ، على كل حال ، مسلمون جميعاً !

« هذه الأنعى ، على ماذا تريد أن تبرهن ؟ على أنني لست إلا عربية ، وأنها هنا تظل ذات الكلمة العليا ؟ » .

غير أن مزاج سلمى لن يقاوم طويلاً رغبتها في الحمام . فتتذكر أباريق الفضة ، والماء الساخن المعطّر ، والرغوة ذات الألوان الناعمة ، وزيت العنبر في زجاجات الكريستال : أي كل مراسم الحمام ، أيام طفولتها . فما أحلاها لذة بعد قاعة الحمام العادية في بيتها ، في بيروت . فأغمضت عينها ونسيت حتى المكان الذي هي فيه ، واستسلمت لأيدي الإماء الخبيزة ، فانترع الشعر الفائض من على جسمها ، ودلكت ، وصُفّف شعرها ، وُزّنت . ولم تكن مزعوجة من الصورة التي تراها لنفسها في المرآة ، ماعداً أن ... هذه الخصل ! ولكن أين هي إذن السيدة غزاوي ؟

وأجاب الرائي ، مطمئنة :

— لا تقلقي عليها . لقد أخذت تستريح . وهي تسكن في الجهة الأخرى من البهو ، بعد الفناء الثاني من جناح النساء .

— كيف ؟ إن هذه مرافقتي ! ويجب أن تبقى دائماً معي !

— أوليس لديك ما يكفي من الخادومات ؟ يمكنك أن تحصلي على عشرة ، أو عشرين ، وبقدر ما تريدن . وإن لم يعجبك ، فسنبعدهن ، ونأتيك بغيرهن .

وشعرت سلمى بأنها على وشك أن تبكي . فالسيدة غزاوي وزينيل هما صلتاها الوحيدتان مع الماضي . وبدونهما تشعر بالضيق . ولكنها تفضل أن تموت في مكانها ، على أن تعترف بضعفها . وهنا تظهر بسمّة صغيرة على شفتي الرائي ، فتسأل :

— أولستِ على ما ينبغي معنا هنا ؟ نحن أسرتك منذ الآن : ويجب أن ننسى الباقي .

وتسكت سلمى . وقد سجّل الخصم نقطة . فهل في وسعها أن تقضي ثمانية أيام مع هذه المرأة ، وتحت بصرها الثاقب ، السيء النية ؟ تصبرين إذن ثمانية أيام ، وأمير يكون هنا ، وستشرح له ما يعنيه ، وتساعدها . وبانتظار ذلك ، لعل رشيد خان ... بطبيعة الحال . هذا هو الحل ! فكيف لم تفكر به من قبل ؟

وتنتصب ، وتسأل بصوت تريد أن يكون واثقاً من نفسه :

— أيمكن أن نخبر رشيد خان ، بأنني أود أن أكلمه .

— تُكلمين من ...؟ اعرفي، يا أميرة، أنه إذا كان سكرتير أخي قد ذهب لاستقبالك في بومباي، فذلك لأنه كان لابد من رجل لمواكبته. ولكن لا مجال لك بعد الآن لرؤيته ثانية. فالرجال لا يستطيعون الدخول إلى الزنانا (جنات النساء).

وبحجة الإرهاق، نزلت سلمى إلى الحديقة، وسحبت الوشاح، الذي كان يحجب عنقها، بعض الشيء. إنها تحتنق. سجين، إنها سجين. وكعبياء رمت نفسها في الفخ. ولكن الوقت مازال يسمح بالخروج منه. وستعود عن عزمها. إذ ليس في وسعهم، على كل حال، أن يحتفظوا بها عندهم، بالقوة! وجلست على العشب، وحاولت أن تسترد أنفاسها. فإذا بيد توضع بيدها. — لا تخشي شيئاً، هوزور. فالراي ليست بهذا السوء. إنها تريد فقط الحفاظ على التقاليد. وبدون ذلك فالاجتمع كله سينهار.

وكانت هذه امرأة الحاكم التي لحقت بها، وعلى وجهها المستدير نظرة حلوة.

— اصبري، أسبوعاً فقط. إن زوجك المقبل رجل عصري، كإنكليزي تقريباً! ومتى كنت معه، صرت حرة، ستكونين السيدة الأولى. ولن يكون للراي عزيزة ماتقوله. وهي تعرف ذلك جيداً ولهذا فإنها تبدي المارة، أسبوع واحد، هوزور. لا شك أنك تستطيعين بذل هذا الجهد.

وتفكر سلمى: انها على حق. وإذن فلن أدع نفسي تمّحي، بسبب هذه المرأة. وقلوب طيّب تبسم. إلا أن توترات هذا اليوم كانت عنيفة. وعلى شفيتها، كانت البسمة ترتعش. ونسيت مقامها كأمية أمبراطورية، واستسلمت للبكاء.

وخلال الأسبوع السابق للزواج، كانت سلمى على وشك أن تدع كل شيء، مرات عديدة. وكان الذي يثبتها في موقفها — ولعله أعظم تأثيراً من فكرة الأمير — هو أن الراني تلعب بها، وتحاول أن تدفع بها إلى النهاية، فقط لتحملها على الرحيل.

وهي بالتأكيد تكرهها. فقررت أن تفتح بذلك البيجوم نُصرة، وباستثناء الراني، فإن هذه هي الوحيدة التي تتكلم الإنكليزية. وعلى الرغم من مظاهرها المغرورة والتافهة، فإن سلمى اكتشفت لديها حساً سليماً قوياً.

وتردّدت امرأة الحاكم. فإذا هي تكلمت، فقد اختارت معسكرها. ولما كانت أول من استقبلت الفتاة، فإنها تعتبر نفسها حاميتها. لكن الراني قوية، ولا تسامح على شيء. وعلى هذا فبالقرار الذي ستتخذه البيجوم نُصرة في هذه اللحظة، سيتعلق وضعها في المستقبل، هي وزوجها. فهل تكون الأميرة من المهارة بحيث تبحث الراني؟ أوليست الزوجة بأكثر تأثيراً من الأخت؟ ولكن البيجوم تكره أن تغامر بشيء. ومع ذلك، فإن عليها أمام إلحاح سلمى، أن تتخذ هذا الموقف، وتتوكل على الله.

— لا ريب أن هذا كله بسبب من بارفان Parvin. قالت ذلك وهي تنهد.

— بارفان؟

— إن بارفان هذه هي ابنة أخت الراي عزيزة . وقد ربّتها الراي في القصر ، كأنها ابنتها هي . وكثيراً ما تساءلت عما إذا كانت تتصرف تجاهها ، بدافع من عواطف الأمومة — وعلى كل حال فقد حددت عن الزواج لكي تكرّس نفسها لأخيها وتهم بحسن سير الأمور في القصر — أو قولي إن بارفان لم تكن إلا أداة طيّعة تنعّمها لكي تستخدمها ذات يوم .

ولكنها إذ ترى وضع سلمى الحائر ، مضطرة إلى الإيضاح ، فتقول :

— بلى ! إن كل الناس هنا ، كانوا يعرفون أن بارفان كانت مهيأة لكي تتزوج الراجا . وكان هذا ، برأي الجميع ، اختياراً موفقاً . فالبنت جميلة ، مثقفة ، فضلاً عن أنها من العائلة الأميرة . ولما كانت قد ربّيت في القصر ، فهي تعرف التراتب والأعراف . ولم تكن لتنشأ هذه المشاكل التي تطرح بصورة لاهيصة عنها ، مع زوجة آتية من بيت آخر ، وأسوأ من ذلك ، من مدينة أخرى . وبصورة خاصة ، فإن الراي كانت تعرف أنها من خلال بنت أختها المدينة لها بكل شيء ، ستظل محتفظة بسلطانها كله ... ولكن هانحن ...

وتتردّد البيجوم ، فهي تخشى أن تجرح سلمى . ولكن لما كانت هذه تحرص على أن تعرف ..

— ولكن هانحن أمام تدخل مولانا شوكة علي . أوه ، أنا لا أقول ، إن مؤسس الحركة الداعمة للخلافة رجل متميّز ، ولكن تدخله قلب كل المشاريع . ولأنه يحلم بتعزيز علاقات الطائفة الهندية الإسلامية بالخلفاء العثمانيين ، فإنه يضع في رأسه ، أن يزوجه براجانا ، الذي يعتبره كواحد من الآمال السياسية لجيله . ولا ريب أن هذا شرف كبير لبنت بادالبور . أما بالنسبة للراي عزيزة ، فهذه مصيبة . إذ ليست القضية كلها أن ابنة أختها أزوجت ، ولكن راي بادالبور الجديدة ستكون غريبة ، فلا تستطيع التحكّم فيها ، ولا محققها ، كما كان يمكن أن تفعل لو أن الراجا أحبّ أية امرأة إنكليزية . ولكنك بحكم لقبك ، وشأن أسرتك و ... طبعك السلطوي ، الذي لا تستطيعين إخفاءه رغم عظيم لطفك ومجاملتك ، فإنها تعرف أنك سرعان ما تحتطفين منها مكانها .

وأحسّت سلمى بأن حنجرتها تنقبض . فهي التي كانت تظن أنها منتظرة بلهفة ، ومرحب بها ، تفهم الآن فجأة ، إلى أي درجة توقع الاضطراب ، لافي الراي وحدها ، بل في كل هذا المجتمع الصغير الذي يحلم ويحيى تبعاً لقوانين لم تتغير منذ قرون . ومن جديد ، يلاحقها الإحساس بأنها مستبعدة ، مكروهة . أستكون إذن دوماً ، وفي كل مكان ، تلك الغريبة ؟

ومن حسن الحظ أن زيسيل والسيدة غزاوي هما هنا ، ليسلياهما . فلقد عادا وظهرا في اليوم

الثاني لوصولها، بتأثير من رشيد خان على ما يبدو. ولكن كيف عرف هذا الأخير أن سلمى طلبتهما؟ وكيف يُعرف كل شيء في هذا القصر الكبير؟

ومنذ الآن يمضي الثلاثة أكثر أوقاتهم في زاوية من هذه القاعة الكبيرة، ويتناقشون باللغة التركية والضحك، مما يثير الرائي عزيزة بعنف، لأنها تشعر بأنهم « يجاكرونها » أو يستفزونها. وقد حاول رشيد خان، بواسطة زينيل أن يُهدئ الفتاة ويجعل سلوكها معقولاً.

— كل شيء في الهند، يقوم على الصبر، والتسامح. أما الثورة والتمرد، فلا يجديان شيئاً. فأظهري أنك أوسع حيلة من الخصم.

— ولكن لأيّ سبب يجب أن أخفي نفسي؟ لقد تعودت أن أحارب على المكشوف، على ما فعله الأتراك دوماً!

وارتتش الخصى.

— إنك تريدان القول: كما فعله الأقوياء، وكل أولئك الذين يستطيعون الأمر، لأنهم الأقوى، على حين أن على الضعفاء، أن يظهروا المرونة، والحكمة، وقلة الشرف أحياناً، من أجل سلامتهم. وليس هذا بمشرفٍ. ولكن ليس لهم الخيار. ولست واثقاً أنك أنت، يا أميرة، تملكين الآن هذا الخيار!

وتحسب سلمى أنها تدرك في لهجة هذا الخادم العجوز، نوعاً من التشفي. ولكن لا! وماذا عساها أن تتخيل في كلامه؟ إن هذا الزينيل يشعر بأنه يتحمل أكثر مما يطيق، هو أيضاً، بحكم هذا الجو المعادي الذي ترعاه الرائي.

بيد أن هذه الأخيرة تحسن تدبير أمورها. وتنسى سلمى حقدها عليها، لأنها مشغولة بالاختيار الصعب بين مختلف الحلّي، التي حملها إليها كبار باعة الحلّي في البلد. وفي لبنان كانت تشهد اختفاء المجوهرات التي كانت تعجب بها، على أمها، وهي في الأيام الجميلة من حياة الأمبراطورية، واحدة بعد أخرى، وكانت تحسب أنها لن تملك في حياتها ما يقارنها جمالاً. وهاهي قصة الجنبيات تتكرر من جديد، وتنتفتح لها العلب التي تكمن في داخلها أنهار من الماس الأزرق، واللاّلى، والزمرد، من النوع الصافي جداً، وكلها تنتظر أن تعجبها.

وهكذا تنتقل بينها، من الواحدة إلى الأخرى، مُجَرَّبَةً، مرة العقود، ومرة أخرى، تلك المعلقة الذهبية، دون أن تقف على أي منها. ومن حسن الحظ أن السيدة غزاوي موجودة

لتنصّحها . فهذه المرأة ذات روح عملية ، وستعرف كيف تقف على الحلّي الأعلى قيمة ، والحجارة الكريمة الأكثر جمالاً ، متجنّبةً تلك القطع البسيطة التي كانت سلمى ، بحكم ذوقها ، ونفياً للطمع ، تود أن تأخذها .

وتهمس في أذنها بقسوة ، قولها :

— لا تنصّرني كالطفلة ، يا أميرة . فالخلي بالنسبة إلى المرأة هي ضمانها الوحيد . وكان يجب أن تعرفي هذا من قبل .

وترصى سلمى وهي تنهد ، أن تجرّب على عنقها ورسغها ما يشبه أن يكون حسابها في المصرف ، بدلاً من هذه الروائع الصغيرة الناعمة التي كانت تناسبها أكثر من غيرها .

وتهمس الراي :

— أولاً تريدني حقاً ، شيئاً آخر ، في الحين الذي كانت فيه العلب يتكّسد بعضها فوق بعض .

وتجاه هذه اللهجة الساخرة ، تردّد السيدة غزاوي . لكن الفتاة اهتمت ، وقالت :

— لست بحاجة إلى أي قطعة من هذه الحلّي ، وفي وسعك أن تستعيدني جميعاً .

— هدئي روعك ، يا صغيرتي . وسواء أرايت أنك بحاجة إلى هذه المجوهرات ، أو لا ، فإنك ستحمليني . وأنا لا أريد لزوجة أخي ، أن تظهر وكأنها فقيرة مسكينة .

وعندئذ خرجت سلمى عن طورها .

— في هذه الحال ، قولي لأخيك أن يبحث له عن زوجة أخرى . فأنا لم أعد أتحمل ملاحظاتك المفعمة بالكراهية .

واستدارت نحو زينيل لتقول له :

— أخبر رشيد خان ، فوراً أن يحجز لي مكاناً في أول باخرة تمضي إلى بيروت ، وبانتظار ذلك ليجد لي غرفة في فندق .

وعرفت من المسرة التي لا تكاد أن تخفي ، على وجه الراي ، أنه لا يمكن لأحد أن يسعدها سعادة أكبر . وفي حرب الأعصاب هذه ، رأت أنها تنفجر . ولكن صار يستوي عندها الماء

والخطب . إذ لم يعد لها من رغبة أخرى غير العودة إلى بيروت ، وإلى بساطة العيش وكرامته في دار أمها . ففي هذه اللعبة ، لعبة النفوذ والمال ، لاحظ لها في الوقوف على رجلها .

وفي اليوم التالي عُرف أن الراي عزيزة مريضة ، وأنهم وضعوها في الطرف الآخر من الزينانا ، وأنها لا تريد أن ترى أحداً . ولن تعرف سلمى أبداً ماذا حدث ، إلا ما تعلّق بأن الراجا غضب ، ولأن أخته اضطرت لمسايرته لأول مرة .

وقد أفاد تمرّد سلمى ، في رفع نفوذها ومقامها ، أكثر من كل ما كانت قدّمت من مجاملات كثيرة . فالنساء اللواتي لم يكنّ يتعرفنّ إلا على الراي ، ويتبنّين بصورة عمياء عواطفها الطيبة والسيئة بنفس القوة ، صرن — خلافاً للعادة والتقاليد ، التي تقضي ألا يكون للشابة الزوجة أي صوت في الميدان — صرن ينظرن إليها وكأنها هي سيدتهن الجديدة .

وجاء بعد الصاغة باعة البروكار ، والحرير ، والدانتيل ، يعرضون ما عندهم . وفي البهو كان كل هذا العالم الصغير يشتغل في التفصيل ، والخياطة ، والتطريز . إذ يجب أن يتهيأ جهاز العروس ، خلال خمسة أيام ، وهو عادة يهيأ خلال سنين كثيرة ، بصورة مسبقة ، وأن تُهيأ الغرارات (الملاءات الخاصة بمسلمي الهند) والشيكان كورتاه Chekan Kurtah ، أي هذه القمصان المصنوعة من اللينون الناعم ، الناعم ، والتي يمكن لفراط النعومة أن تدخل في خاتم ، وأن تكون جاهزة تلك الروبوتراه Ruputrah — أي فرو الكتفين المحلّى بالذهب والآلي — التي تخفي الأشكال التي تكون وراءها .

وما من مرة بذلت هؤلاء النسوة ، الكسولات في العادة ، مثل هذا المجهود . ولقد طلبن مساعدة القريبات والجارات ، وتحولت الزينانا كلها إلى معمل ، إذ لا يكفي أقل من مئة مجموعة من الثياب ، كجهاز أساسي . أما بالنسبة إلى أميرة الأحلام هذه ، التي لا يكل أحد من الحديث عن جمالها ، فهل تعتبر ثلاثمئة منها مجموعة كافية ؟ ولكن النساء الأكبر سناً يروين ، مع تكمشيرة استصغار ، أن جدة الراجا الحالي ، لم تلبس مرتين نفس اللباس ، وأنها عندما ماتت بعد عشرين سنة من الزواج ، كانت هنالك عشرات من الحقائق من جهازها لم تفتح بعد : أما ثلاثمئة غارارة ، فهذا بؤس كبير !

واشتدت المناقشات : ترى هل كان يجب تأخير الزواج لكي تعامل الراي المقبلة ، كما تستحق ؟ فهذه سلطانة ، حفيدة خليفة ، تشرّفنا بالانضمام إلى أسرنا ، ويقدم لها جهاز واحد ؟ مسكينة . ترى ماذا نعمل ؟ والراجا يأبى أن ينتظر يوماً واحداً إضافياً . فلقد أصبح قليل الصبر .

«كواحد من الإنكليز». وتشكو العاملات. ولكنهن في الواقع يحتنقن من شدة الزهو. ذلك أن هذا الزواج يضع بيت بادالبور على نفس المستوى الذي استقرت عليه أسرة نظام^(١) أي الملك الأغني والأقوى في البلاد. وما من امرأة لا تعرف بالتفصيل، حياة الأميرتين نيلوفر ودورو شيفار؛ وعمما قريب سيعرفن كل شيء عن حياة سلمى.

والواقع، أن الأسرة المغولية طردت من دلهي، على يد الجيش البريطاني، منذ قرنين، وأن مسلمي الهند يعتبرون الأسرة العثمانية، كما لو أنها أسرتهن المالكة. ثم إن عظمة الأمبراطورية التركية، كعظمة سلطنة المغول، واستهم مدة طويلة وعزتهم عن الإذلال الذي يلقونه عندهم. وعندما هدّدت الخلافة في تركيا عام ١٩٢١، فإن الجماهير المسلمة في الهند، ثارت على المحتل البريطاني، في حركة من العنف لا سابقة لها. ولقد دعمها غاندي، وتبعه الهنود في الدعم، وكان ذلك بداية للمظاهرات الكبرى التي قامت من أجل الاستقلال.

وهناك فتاة واحدة تبقى بعيدة عن كل هذا الصخب. إنها ممتلئة، والبشرة من لون الحليب، والشعر الأسود المزيّن جيداً، ينزل على ظهرها حتى منخفض الكليتين. ولهذا فهي تعتبر هنا، ما اصطلاح على تسميته، باسم «الفتاة الجميلة»، على الرغم من أنفها المدوّر بعض الشيء، وذقنها الثقيلة، ولقد بقيت سلمى مدة طويلة، قبل أن تفهم أن أهم معيار جمالي، هو بياض البشرة، وأن المرأة التي تملك أنعم القسمات، تعتبر بشعة، إذا كان لون بشرتها قاتماً. وهذا انتباه كبير يمنع اللون الذي يكشف — على ما شرحوه لها — نبالة الأصل أو عاميته، بأكثر من أي شجرة نسب. ذلك أنه إذا كان غزاة الهند، من آريين، وعرب، ومغوليين — كلهم بيض البشرة، فإن السكان المحليين كانوا سمرها. ومن هنا جاء التعادل، الراسخ بقوة في الوعي العام، وهو أبيض «عرق السادة». وأسود «عرق العبيد».

وعلى مرأى من سلمى، أدارت الفتاة وجهها، بشكل بيّن، بارز.

«تري؟ ... بلى حتماً، ويجب أن تكون هذه نارفان. وفي هذه الأيام الأخيرة، دُهِشت من أنها الوحيدة، خلافاً لغيرها، التي لم توجّه إلّي الكلام. مسكينة هذه الصغيرة!.. لقد ربيّت على فكرة الزواج بالراجا الحلو، وعلى الأرجح فإنها كانت تهواه. وإلا قادمة جديدة، ليس لها من ميرة، إلا أنها من أصل محترم، هي التي تحرمها من تحقيق أحلامها!».

(١) نظام: ملك. ولم يكن في الهند إلا نظام واحد، هو نظام حيدر آباد.

« وماذا سيكون من أمرها؟ كانت موعودة لرجل، ثم اطرّحها بعيداً، فمن يريد أن يتزوج بها الآن، وأية أسرة مناسبة ستغامر بطلبها للزواج، على حين أنها، كما يقولون «مُلَوَّنة» بحكم رغبة إنسان آخر. وفي ذهنهم الضيق، أنها ليست عذراء تماماً! ».

وعبثاً ستحاول سلمى أن تتقرّب من الفتاة، وأن تبتسم لها، وبدء حديث معها. فلم تحظ منها بنظرة. والشفقة أمر لا يناسب ذوق بارفان. وتنتهي سلمى بالعدول عما تريد، مع وعي من أغدقت عليهم النعم، وأن الناس لا يقصدون طيبهم، حق التقدير.

ومشاغل سلمى كثيرة في هذه الأيام. وعندما كانت تتجول في الممرات، لاحظت بهلج أنهم كانوا يهيمون غرفة عرسها، في وسط الزينانا، تماماً إلى جانب غرفة الراني. وهكذا فإن هذه الأخيرة، يمكن أن تراقب على راحتها كل حركات العروسين.

— ترى هل الراني التي أتزوجها، أو هو الراجا؟

وهكذا انفجرت ذات صباح، عندما انجھت إلى امرأة الحاكم.

— أوليس في هذه البلاد مكان للحياة الخاصة. ففي تركيا عندما كانت إحدى السلطانات تتزوج، كان لها قصرها، وخدمها، وكانت مستقلة.

— أرجوك، هوزور. إن هذه تفاصيل. وكل شيء سيم على ما يرام. وبفضل من الله، ليس عندك إلا بنت حماة، واحدة. ولو أنه كان عندك حماة، فإن أعظم الأزواج حباً لم يكن ليستطيع عمل شيء، ضد إرادتها... ولكن لِمَ تريد أن تكوني وحدك؟ وهل في الحياة شيء أتعس من ذلك؟ فهنا، عندما تنشأ لنا مشكلة فإن الأسرة تنضم إلينا في تقديم المساعدة، وحل المشكلة بالنيابة عنا.

وصرخت سلمى مزعوجة:

— أما هذا فلا، وعلى الأقل اتركوا لي مشكلاتي.

ورأت البيجوم أن من الأفضل أن تغيب عن وجهها:

والتدليك شيء لا مثيل له لأمراض الروح، كما هو كذلك بالنسبة لأمراض الجسم. وتقتنع سلمى بهذا مرة أخرى. ففهموها، تحت الأيدي المرنة والناعمة تتطاير مرقاً، وتصبح تفاهات. وبلدة كبيرة تترك إمامها يدهن جسمها بمعجون أصفر، معطر، يتألف من حبوب الخردل الممروث

بالخليب، والتوميريك Tumeric وستة أنواع أخرى من البهارات المطحونة جيداً، وبنشارة خشب الصندل وأنواع نادرة من العطور. وبهذا المعجون يطلى جسمها من القدمين حتى جذور الشعر. ثم يُفرك جسمها به فركاً قوياً، حتى يصبح كل ميليمتر من جسدها كالساتان النقي، وحتى تفوح مسامها كلها برائحة علوية. ولا يسمح لها خلال خمسة أيام بعد ذلك أن تغتسل. وقد ذهبت احتجاجاتها على ذلك، أدراج الرياح. ذلك أنهم قالوا لها يجب ترك المرهم العجيب، الذي يحتفظ به للزوجات الجدد، حصراً، حتى يدخل في اللحم، ويصفي الدم. وفي صباح يوم الزواج، وعندما يسمح لها بالإغتسال في الحمام، ستخرج منه رائحة، كالفراشة التي تولد في الشرنقة بعد نضج طويل.

وجلست في طقم لها على السرير ذي الأرجل الذهبية، إلى جانب الراني عزيزة، التي عادت هذا الصباح باسمه، لتقول لها: «ما أشدني فرحاً برؤية أميرتي الجميلة!» ولكن سلمى عادت تتوقع في أحلامها. وكيف يمكن أن تتحمل الأيام الطويلة التي تفصلها عن عرسها، أو تتحمل، بصورة خاصة، تلك النظرات الفضولية والتعليقات المختلفة، من النساء اللواتي يأتين لزيارتها؟ وعندئذ جاء كل من هو عظيم من شخصيات لوكنوف، ليتعرف على السلطانة الشابة التي ستبقى ساعات طويلة، جالسة، لا تتحرك، من أجل هذا الاستعراض، وعيناها لا تنظران إلا إلى الأرض. وفكّرت في البداية أنها ستُجنّ، ثم تذكّرت الاحتفالات الطويلة في ضويلة باهتشة، وبدأت تروي لنفسها قصصاً، على نحو ما كانت تفعل خلالها، من قبل، أو على الأصح، تروي لنفسها قصتها هي، ذلك أن كل ما عدا الذي يمر بها الآن، يبدو لها تافهاً. وهي لا تتعب من توقع اللحظة التي ستلتقي فيها بأمر لأول مرة: سيأخذها بين ذراعيه ويقبلها طويلاً حتى تشعر بالدوار. وستكون عيناه كمحيطات قاتمة، وصوته أجش بعض الشيء عندما يقول لها: إنه يحبها...

«راني بيتيا^(٢) قد وصلت».

وعندئذ تنطلق صرخات فرحة في جوانب البهو. ولكن ماذا يحدث أيضاً. ها هي غائبة في حلمها، مستندة إلى كتف أمير الذي يداعب شعرها. فتغمض سلمى عينيها، وتتعلق بعناد بالصورة اللامعة، فلا تكاد تشعر إلا بيد خفيفة، تأخذها من ذراعها، وبصوت يقول، بلغة إنكليزية صافية:

(٢) بيتيا أو Bitia هي فتاة المنزل.

— انظري إليّ، أبا Apa. أنا زهراء، أختك الصغيرة وجئت على ركبتيها، فتاة نحيلة تبتسم. فترتجف سلمى. وصحيح أنهم حدّثوها عن أخت للراجا، أصغر منه بعشر سنين، موجودة الآن في بادالور لدى جدتها لأُمّها، المريضة. فتفحصت وجهها العريق، وعينها الحالمتين. يا الله، ما أجملها من فتاة. وكَم هي شبيهة بصورة أمير. لكن زهراء، من جهتها، لا تخفي إعجابها، وتقول: — إنك جميلة!

ومن فرط الحماسة، تقبل على يدي سلمى وتملؤها بالقبل. فتصيب سلمى الدهشة. ولكن قليلاً فقليلاً، وفي جو الحر الذي يفيض عليها، وفي عاطفة الراحة التي تحل محل ما كانت فيه من توترات، في الأيام الأخيرة، تشعر بأنها في هذا العالم الغريب وجدت أخيراً، صديقة لها. وفي الأيام التالية ستقوم زهراء، بما لها من جاذبية، ومرح، بتمهيد صعوبات كثيرة أمام سلمى. لقد رُئيت على يد معلمة إنكليزية — وهذا ما قضى به أمير، رغم التقاليد التي ترى أن الدراسة المعمقة، تأتي بالبلاء إلى الفتاة، وهي مولعة بالأدب الأجنبي. إذ لقد قرأت كيتس Keats، وبيرون، وستاندال، وبلزاك كله، وعلى الرغم من أنها لم تخرج قط من الزينانا، إلا في عربة مغلقة تأخذها إلى زينانا أخرى، فإنه يبدو أنها تعرف الدنيا.

وفوراً أدركت انفعال سلمى، المحصورة بين هؤلاء النسوة، وبذلت أقصى مجهود لكي تذهب معها لتتنزها في الحديقة الداخلية، من دون أولئك المرافقات الكثيرات الهذر. وكان خصي واحد يتبعهما، على بعد مناسب. فأزاحت سلمى الغطاء الموسلين الذي يعتبر ضرورياً لستر الشعر، حتى في مثل هذا المكان المعزول، وعادت تشعر أنها تحيا وتشم رائحة الدنيا.

وفكرت سلمى، في غمرة اضطرابها، أن تُسرّر لهذه المراهقة العجيبة النضج، بما يشغل بالها من أمير، ومخاوفها، وآمالها. ولكن سرعان ما أدركت أن تجربة زهراء، الناشئة عن قراءة الكتب، تضرر تحتها في الواقع براءة كاملة. فالفتاة تحب أخاها حباً يشبه العبادة، وهي مقتنعة أن سلمى يجب أن تكون أسعد امرأة في الدنيا من حيث أنها ستكون زوجته. وهي لا تفهم أن يكون هنالك أي تحفظ، بل يجرحها هذا إن وُجد من يعرب عنه. ولن تكون سلمى أنانية إلى الدرجة التي تدخل معها الاضطراب إلى قلب هذه الطفلة. فتحتفظ لنفسها بمخاوفها.

وفي هذا الصباح أوقظت سلمى على شعاعات الفجر بضحك بعض الفتيات. وكان الجو لا يزال رطباً، والباسمين، على طول الشرفة، يعطر الجو. ولكن لِمَ هي تعيسة؟ والنهار جميل!

أبا، استيقظي، وهاتي يديك ورجليك لكي نرسم عليها بالحناء كل بشائر السعادة.
وافتحني عينيك على أجمل يوم في حياتك!

وكنّ فرحات، وبدأن عملهن حول السرير، وهن يغنّين أغاني الحب بصوت خفيض،
وهي أغاني يبغي، تقليدياً، أن ترافق تجميل الزوجة قبل زواجها. وفي الحين الذي كنّ فيه يقمن
بعملهن بدقة، ويرسمن على راحتيها رسوم الآرابسك الحمراء. كانت سلمى تنظر إليهن كما لو أنها
تحضر مشهداً لا يعنيتها ولا يتعلق بها... وكلما حاولت أن تهتم بالحفلة التي هي بطلتها، كانت
تستولي عليها أكثر فأكثر مشاعر اللاواقعية.

وكما لو أنها في الحلم، ترى الرائي عزيزة تقترب، وتربط في رسغها سواراً ناعمة من القماش
وتنطق ببطء تلك العبارات التي كرّستها القرون:

— أعطيك هذه السوار. وهي تحتوي على أرز يحمل إليك الهناء والسعادة، وعلى عشب
يؤمن الخصب، وخاتم من الحديد، هو ضمان الوفاء.

وتحركت أوتار قلوب النساء، فسكتن: إنهن يتذكرن.

وفجأة دوت ضربات ضخمة قرعت على الباب البرونزي الذي يفصل الزينانا عن أجنحة
الرجال. وتندفع الفتيات بصرخات الفرح، وفي يدهن وردة: إنه الخطيب، وهو يحاول أن يدخل
ليخطف الجميلة، وهن مكلفات بدفعه عنها بضربه بعنف بالأزهار. وبعد محاولة أو محاولتين غير
ناجحتين، يتراجع الخطيب مكلاً بالسخرية، ويعود إلى أقربائه ومعارفه، المجتمعين في «الإيمامبارا»
العائلية، وهو معبد من الرخام والموزاييك، مجاور للقصر، حيث يحتفل احتفالاً دينياً بالزواج.

ولقد تُركت سلمى وحدها في غرفة تقع فوق بهو النساء. وهناك تستعرض الخطيبة عادة،
وهي محاطة بأعز صديقاتها، تستعرض ذكرياتها كمراهقة، وتذرف بعض الدموع على الحياة التي
ستتركها. ولكن صديقات سلمى بعيدات و... هي لم تعد تحب البكاء. وفي الطابق الأدنى، يصل
المدعوون تباعاً. ومن الغرفة، يسمعونهم يعجبون أمام روعة الهدايا المعروضة في كل واحدة من
الصالات الخمس. ذلك أن العادة تقضي بأن يقيّم كل قادم كرم أسرة الزوج، تجاه الزوجة
الصبية. فالخلي والفضيات، والآنية الكريستال، والخرائر تتراكم، كأنها أوامد غرور. أما النساء فإنهن
يقصدن، ويرنّ؛ ذلك أن حفلات الزواج مما يعلّق عليه خلال سنين، وأجيال: وهنا تقوم أو تتحطم
سمعة الأسر.

تري كم يجب على سلمى أن تنتظر . إنها لا تعرف شيئاً عن ذلك . والسيدة غزاوي ، الجمالسة إلى جانبها تضيق ذرعاً ، لا سيما وأن ضجة غسل أدوات المطبخ المشيرة إلى بدء حفلة الطعام ، تصل إليها . وتعبّر عن ذلك بقولها :

— إن هذا مخجل . فكل الناس يستمتعون ، ويحتفلون ، ويتركونك وحدك ! إنهم برابرة . فاعدلي يا أميرة عن هذا الزواج اللامعقول . فما يزال أمامك متسع من الوقت .

— اسكتي !

ولم يكن مزاج سلمى يسمح لها بالاستماع إلى شكاوى مرافقتها ، على الرغم من أن أعراف البلد تبدو لها ، هي أيضاً ، غريبة جداً . وتتساءل ، داخل نفسها : « لماذا لا يأتي أحد لمساعدتي على تمهية نفسي . إذ يجب أن يتم النكاح مباشرة . ومتى سيحسونني ، ويزينوني . وكل هؤلاء النساء مسرورات بالالتقاء ، والكلام مع بعضهن : أمن الممكن إذن أن ينسوا العروس ؟ » ...

— استيقظي يا آبا^(٣) ، فالمولوي^(٤) يصل عما قريب . وزهراء هي التي تقول هذا بصوتها الشفاف .

وتقوم النساء حول سلمى بإسدال ستائر واسعة ، حتى لا يراها الشيخ . ولكن أين هو الخطيب ؟ وبدأت زهراء تضحك من قلق الفتاة .

— مالك ، يا آبا ؟ غداً سترينه .

غداً ؟ إن سلمى لم تعد تفهم ، ولكن لم يعد هنالك وقت لطرح الأسئلة . وتنتظر فترى في الجانب الآخر من الستارة ، صخباً عنيفاً ، وهمساً ، وسعلاً . وأخيراً ، ومن داخل الصمت ، يرتفع صوت أجش ، يتلو آيات من القرآن . ثم يتوقف . وفجأة تسمعه يناديها ويقطّع كل كلمة من كلامه ، ويقول :

— يا سلمى بنت خيري رؤوف ، وخديجة مراد السلطانة . هل تقبلين بأمر ، بن أمير علي من بادالبور ، وعائشة سليم آباد ، زوجاً لك ؟ هل تقبلين ؟

« كلا ... لا أريده » .

(٣) أبا APA هي الأخت الكبيرة .

(٤) المولوي : رجل يشرف على عقد الزواج . والمولوي من يعقد القران .

وتظن سلمى أنها أعلنت صوتها فيما قالت . ولكن النسوة بقين كما هن ، حولها . وضافت صدرأ ، وبدأت تبحث بعينها عن زهراء : فلا تجد أمامها إلا الراي عزيزة بوجهها القاسي . وعليها أن تجيب . وفجأة تلاحظ أنها حتى الآن كانت تمثّل ، تمثّل دور الخطيبة ، ولكنها في الحقيقة ، كانت تحتفظ بقرارها لآخر لحظة ، عندما تستطيع أمام الشيخ (المولوي) أن ترى أمير ، وتقرأ ما في نفسه من خلال عينيه ...

فهل خدعوها ! ... أو أنها خدعت نفسها وأخطأت ؟ فعادت إلى ذاكرتها ، ونبشت فيها ، وهي غير مصدّقة ، وتذكّر : هذا صحيح ... ففي التقاليد الإسلامية الأصيلة لا يجتمع الخطيبان إلا بعد النكاح : وكل منهما يتعهد للشيخ ، قبل أن يكون قد رأى الإنسان الذي سيكون زوجه ، بأنه يقبله ، ويحفظ له الوفاء ، ويعامله بالحسنى . أما في البلاط العثماني ، فالأمر مختلف ، ولهذا فقد كانت تفكر ...

— سلمى هل تريد أن تقبلي « كزوج » .

وعاد الصوت يتكلم ، أولاً يدعون لها لحظة لكي تفكّر ؟ وتشعر بأن النسوة حولها يضحكن ملء أفواههن ، ويسخرن بنظرات عيونهن . « لعلهن ظننّ أني خائفة ؟ » .

— بلى أريده .

أتراها ، هي سلمى ، التي تكلمت ؟ ولقد أعاد الشيخ جملته ثلاث مرات . وثلاث مرات سمعت نفسها تقول : نعم ، بصوت المصمم ، حتى إن النساء بدأن ينظرن بعضهن إلى بعض وكأنهن يقلن : أي أسلوب غريب يستخدم ، لدى فتاة تتزوج !

ولكن الحفلة كلها لم تدم أكثر من خمس دقائق . والآن يسرع الشيخ ليذهب إلى « الإمامبارا »^(٥) حيث ينتظره الخطيب ، وأهله ، وأصدقائه ، وهم يلبسون « شرواني » الاحتفال . وتبعته النسوة ، بحكم الفضول . ذلك أنهن من خلال سلام خفية ، يستطعن الوصول إلى البهو الدائري ، المحاط بمشربيات ، تطل على المعبّد . ومن هناك يستطعن أن يرين دون أن يُرين .

ولم يبق إلى جانب سلمى إلا زهراء . فأخذت يدها ، بصمت ، كما لو أنها كانت تفهم . وبقيتا هكذا ساعات تحلمان : وعندما بدأت الأشباح ، بعد تأخر طويل ، تعود إلى غرفتها ، قامت

(٥) الإمام بارا ، أو الإمامبرا : مسجد شيعي ، ويكون أحياناً جزءاً من القصر أو لاحقاً له .

زهراء فأشعلت مصباحاً من النحاس ، وبدأت تنشد ، بنعومة ، بعض قصائد جلال الدين الرومي ، الصوفي ، وهي قصائد لم تعد سلمى تسمعها منذ تركت استامبول ، ولو أنها تعرف كل بيت من أبياتها :

إن حبك يجعلني أغني كالأرغن
وأسراري كلها تنكشف لمجرد لمسة من يدك
ذلك هو المعنى العميق لعلاقتي بك
ووجودي المتعب كله يشبه قيثارة
إذ لا وجود بيني وبينك إلا أنا ولأنت
وأي عرق لمست مني ، يجعلني أتألم
ومن العدم مضت قافلتنا ، تحمل الحب .
وخمرة الوصل تضيء ظلمتنا ، إلى الأبد .
تلك خمرة لا يحرمها دين الحب .
وستظل شفاهنا مبتلة حتى فجر العدم .
والحق أننا روح واحدة ، أنا وأنت .
ونحن نظهر ونختبئ أنت في ، وأنا فيك .

وها هو نور مصباح الزيت يترنح . والجو صامت بشكل غريب ، ونامت سلمى بعد أن هدأت نفساً .

« وهذا هو الماء أخيراً ! » ولم تعد سلمى تستطيع انتزاع نفسها من هذه الرطوبة التي تنساب فوق جسمها كله . ذلك أنها منذ أيام كانت تحلم بها ، فتشعر بأنها تحيا من جديد ، وترتشف من اللذة . أترام الماء فعلاً أم هو انتظار أمير الذي يوقعها في الاضطراب على هذه الصورة ؟

ومن جديد ، عادوا فدهنوا جسمها بالعطور ، وألبسوها الغارارا ا عمراء والمذهبة ، غارارا المتزوجات . وعلّقوا بعنقها وأذنيها ، عدداً كبيراً من الحلي الماسية ، ووضعوا في زنديها عشرات من الأساور الذهبية ، تملؤها من الرسغ حتى المرفقين . بل إن رجلها أثقلت بسلاسل ذهبية ، وكذلك باهماها فقد جعلها يلعبان بالأحجار الكريمة . ولم يعد ينقصها إلا الماسة الوحيدة التي توضع في الأنف الأيمن ، والتي لا تكون العروس جميلة إلا بها . ولكنها قبل ذلك ببضعة أيام ، عندما جاءت النساء ليثقبن أنفها ، صرخت صرخات احتجاج ، كانت من القوة بحيث أنهن تركنها ، وتخلين عن عملية الثقب .

ولكن الشمس قد علت في الأفق، وهان سلمي، مزينة كوثن معبود، وغارقة في غراتها القاسية من كثرة التطريز، تنتظر. فهي جاهزة. فهل يتفضل راجاها الجميل، بأن يأتي أخيراً؟

ولكن سلمي ليست مستعدة تماماً تماماً. ذلك أن امرأة تقترب منها، ماسكة بيدها، مسكة دينية، وشاحاً من الموسلين الأحمر، مغطى بستارة من الورد والياسمين، فوقها أشرطة مذهبة. وهذا هو وشاح الزوجة، الذي سيغطي وجهها، طيلة حفلة الزواج. وتشعر سلمي أنها تكاد أن تختنق، تحت هذا الحجاب المثلث، ولكنها تعرف اليوم أنها لا تستطيع أن ترفض هذا الشيء الذي يرمز إلى الصفة العذرية.

وبدأت الفتيات تغني. ثم تأتي يدان قويتان ترفعانها وتنقلانها بنعومة، كأنها صرة صغيرة من اللون القرمزي والمذهب، إلى ما تحزر أنه سيكون الفناء المركزي للزينا. ومن خلال حججها ترى كرسي العرض يتبوأ منصة. وبألف عناية يضعونها فيه. وبدءاً من هذه اللحظة، لم يعد يجوز لها أن تأتي بحركة، ولا أن تنهد أبسط التنهد. إذ يعتبر أنها ليست شيئاً آخر غير الرقة، والضعف، والاستسلام والانتظار.

ثم يزدحم حولها النساء والأطفال. ولما كانت الراني عزيزة راعية الاحتفال العظمى، فإنها ترفع من حين لآخر، قسماً من الحجاب لتسمح للمتفرجات، أن يرين جمال سلمي، ويعجبن به. فيقبلن عليها، ويصطدم بعضهن ببعض، ويقيمن. لكن سلمي التي اشتد احمرارها من الخجل، تشعر أنها في معرض، بين نخاسين، يقدرون قيمتها، لا سيما وأن كل امرأة تقوم بعد أن تتفحصها بوضع بعض القطع الذهبية تحت قدميها، تبعاً للعادة، على أن يكون عددها فردياً، قمعاً للشياطين.

وتبتسم سلمي ابتسامة مسكينة، محاولة أن تدفع الدوار عن نفسها، فتسمع من يقول لها:

— اخفضي عينيك، فالعروس المتواضعة لا ينبغي لها أن تضحك!

والراني عزيزة، في قمة الاستنكار: «إن هذه الحمقاء الصغيرة على وشك أن تفضحن. أولاً تفهمن أن من قلة الحياء أن تعرب عن سعادتها، لدى انتقالها من حياة العزوبة إلى الحياة الزوجية. وكذلك فإن من المعيب أن يظهر عليها شيء من البؤس، لما في ذلك من إساءة لأسرتها الجديدة؟» ومع ذلك فإن هذه أشياء بسيطة يسهل فهمها.

ويزداد الحرّ أكثر فأكثر ، فتتنفس سلمى بعناء : وهذا الصراخ ، وهذا التزاحم ، وهذه الروائح القوية المختلطة برائحة العرق ، كل ذلك مما لم تعد تحمله ... وتشعر بأنها على وشك الإغماء .

ترى كم ظلّت مغمى عليها ؟ إنها لا تعرف . ولكنها عندما استعادت وعيها شعرت بأن رأسها ينفجر من الأصوات الحادة ، والضربات الصماء . وأن النهار حولها يشتد ظلاماً . كانت تناضل ضد الغثيان ، بأكبر العناء . ففتحت عينها : ورأت على بعد عدة أمتار كتلة ضخمة تتألق في قمته نقطة ، وتغلق مدخل ساحة الزينانا . وفي جو الصمت الكامل ، كانت الكتلة الرمادية تميل بهدوء وببطء . وانتهزت فرصة انشغال الناس عنها ، فرفعت جانباً من الحجاب . فوجدت أمامها الفيل الملكي ، المغطى برسوم متعددة الألوان ، وبالبروكار ، وعلى أطرافه تتألق الأساور الذهبية . ثم ركع بثقل ، في حين أن شكلاً طويلاً القامة يظهر من الهودج ، ووجهه مغطى بحجاب من التول ، والياسمين والورود .

... أمير !

وكانت النساء ترش على قدمي الراجا ، ذلك الماء الذي تحممت به الخطيبة ، ثم انسحبن باحترام . فتقدم بخطوات خفيفة إلى الكرسي العرائسي ، حيث تنتظره سلمى ، ويجلس بجانبها ، مع الحذر من أن يمسه . أما هي فإنها لا تراه ، ولكنها تحسّ بأنفاسه ، القصيرة نسبياً . أليكون في مثل حالها من الهيجان ؟

ولقد غطوهما بشال واسع ، يخفيهما عن أنظار الناس : وفوق رأسيهما كانت تقف امرأة تحمل القرآن ، وبين أرجلهما وضعت مرآة . وفي هذه المرآة سيرى كل منهما الآخر لأول مرة .

« أترفع حجابها ؛ إنه ينتظر هو أيضاً ليرفع حجابها . وأخيراً سأراه ، فيمّ أخاف ؟ » .

وتتابعت على أنظار سلمى صور مخيفة : فتحت حجاب زوجها ، يخفي وجهه كوجه القرد ، تظهر عليه حبات الجدري ... كما لو أنه مخلوق عجيب . وهي تحسّ ، وتعرف أنها تحسّ . فكيف لم تحزّره من قبل ؟ ولهذا رفض أن يقابلها قبل الزواج ! أما الصورة . فهي مزيفة وقد أرسلت لمجرد الإقناع .

وما من مرة ظهرت لها يدها ثقيلة إلى هذه الدرجة ، عندما جمعت كل قواها ، لتحملها إلى حجابها . ولما لم يكن أمير ينتظر إلا هذه الإشارة ، فإنه أسرع ، بحركة خفيفة ، فكشف هو حجابها . أما في المرآة فإن وجهه الحار كان ينظر إلى عيني زمرديتين مبللتين بالدموع .

ولم تنتظر سلمى نهاية الصلاة . فما إن شعرت أن الحفلة انتهت حتى وجدت نفسها بين أيدي نساء يسكنها ، ويضعنها على الهودج إلى جانب زوجها .

ومن خلال الستائر التي كانت تحجبها عن الأنظار ، ها هي الآن ترى مسيرة المدعوين : فهناك نواب^(٦) ، وراجاهات متألقون بما عليهم من حجارة كريمة ، فوق فيلتهم المجللة على ظهورها بما ينبغي لها في الحفلات الرسمية ، يتبعهم حملة أعلامهم ، وأصحاب الرماح ، وخدمهم بثيابهم الرسمية . وتأتي الخيول العربية بعدهم حاملة البورجوازية الصغيرة الآتية من المنطقة كلها . وأخيراً تمر أوركسترا ، بلباسها الأحمر وبناطيلها البيضاء ، على طريقة الصيادين الذين يلاحقون الفرائس بكلابهم ، وكل منهم وضع شعراً مستعاراً ، ذُرت عليه مساحيق ناعمة بيضاء . وكان فيها ضاربو الطبول ، والصنوج ، والأبواق الطويلة الفضية ، وأصحاب القيثارات . وبإشارة من المايسترو بدأ هؤلاء يعزفون سمفونية عجيبة ، يخلطون فيها بين الموسيقى المحلية وبين الألحان الآتية من أعماق إيقوسيا . وبعد أن توقف الموكب قليلاً ، تحرّك مصحوباً بهتاف الجماهير التي جاءت لتستمتع بالمشهد . وبصورة عامة فإن اللحظات الأعظم تأثيراً هي تلك التي تترك فيها العروس بيت أهلها لتلتحق نهائياً بالبيت العائلي الجديد ، أي بيت زوجها . ولكن سلمى لا تملك هنا بيتاً عائلياً ، ولذلك تكتفي المسيرة بالدوران حول الحديقة خمس مرات ، لتعويض رمزياً عن هذا الذي فات .

ورفعت سلمى الحجاب عن وجهها ، وهي على الفيل ، بعيدة عن الأنظار الطفيلية وعن النقاد . ونظرت إلى زوجها ، مندهشة ، سعيدة . وهو أيضاً لم ينس أن ينتهز الفرصة ، فتخلص مما وضعوه على رأسه من المزعجات ، وابتسم لها كالمواطء معها . فغمر الفرح قلب المرأة الشابة : يبدو إذن أنه يفهمها ، ويعرف كم هو صعب أن تتحمل هذا كله .

وتوقفت الفيل . ثم ركع ببطء ، في الحين الذي وضعوا على جنبه السلم الذهبي . أما الخدم والحشم فإنهم (أو إنهن) ينتظرون سلمى ، في الطابق الأرضي ، لكي يحملوها إلى الأجنحة المخصصة لها . وتحاول هي أن تتخلص منهم ، وتريد أن تمشي . ولكن أمير ، الذي كان وراءها ، يتدخل ، قائلاً :

— إن عليك أن تحترمي التقاليد !

وكانت هذه أول جملة تبودلت بينهما . ولن تنساها .

(٦) النواب : كان الملوك المسلمون في الهند يسمون في العادة نواباً . ولكنهم في مقاطعة الأود ، كانوا كثيراً ما يسمونهم « راجا » كالمملك الهنود .

أما الغرفة الزوجية فإنها اختفت تحت كوم الأزهار ، وهناك صوان من الفضة ، وضعت فيه فواكه ، وسكاكر ، صُفِّت كأهرامات . أما في محارق العطور ، الموضوعة في جهات الغرفة الأربع ، فيُستهلك المسك والصندل . وفي الوسط ، ينبسط السرير ، هائل السعة ، مزِيناً بالساتان الأبيض ، وثنيّات من الدانتيل . وتفكر سلمى قائلة لنفسها : «إنه سرير مناسب جداً لخليلة» ، متذكّرة عند ذلك أعظم المنتجات الهوليودية .

وكانت النساء حولها يعملن . فغَطَّنَها بقططان من الحرير . وأخذن يُمَشِّطُن شعرها الأحمر الذي لا يتوقفن عن الإعجاب به . ويردّدن قولن : «الشمس الغارية التي تحيط بالقمر ، وتكون في موكبه» ، مشيرات بذلك إلى لون بشرتها الأبيض ، «الساطع البياض كهذا الكوكب في الليل» .

وكانت العروس جاهزة منذ مدة طويلة . فاستندت إلى وسائدها وأخذت تنتظر . ترى ماذا يفعل أمير ؟

وكانت النساء جالسات ، على الأرض ، حول السرير ، يتحادثن ويمضغن البان الذي يبصقنه بدفقات كبيرة حمراء في الآنية الموضوعة هنا وهناك . وفي كل مرة ، كانت سلمى ترتعش من هذا البصق . إذ لن تستطيع أبداً الاعتياد عليه ! والنساء يضحكن « ترى هل يسخرن منها ؟ » .

إن الوقت يمضي — فماذا يعني أن تبقى وحدها في هذا السرير الكبير ؟ وفي غمرة هذا الإذلال ، كانت سلمى تعض شفتيها : إذ يجب ألا تكشف عن اضطرابها !

وبعد ساعة كاملة ، يظهر أمير أخيراً . لقد كان عند أخته ، الراني عزيزة ، التي كان لديها مشكلة مستعجلة يجب حلّها . ولكن سلمى خلال ذلك مجروحة . وكانت المشكلة مستعجلة . خلقت من لا شيء على الأرجح ، لكي تستبقي أخاها ، وتبرز سلطتها ، علناً ، تجاه الزوجة الجديدة ! وعلى حين أن النساء كن يخرجن من الغرفة ، وهن يتمازحن بسرور ، حول الليلة التي ستأتي ، كانت هي تبكي وترسل العبرات والزفرات :

ووقف أمير على جانب السرير ، ونظر إلى امرأته الشابة ، بقلق ، وتسأل :

— ماذا هناك يا عزيزتي ؟ هل أنت مريضة ؟

وكانت سلمى تفوق ، ورأسها مختلف بين الوسائد .

— إذن سأستدعي طبيباً .

— لا ، لا تستدع أحداً.

واحمر وجهها كثيراً . ثم انتصبت . وإذن فهو لا يفهم شيئاً !

ويتردد أمير . فماذا يفعل ؟ يبدو أنها غاضبة . ترى هل قال شيئاً أزعجها ؟ لقد كانت تبدو سعيدة جداً منذ قليل . وهو يشتهي أن يضمها بين ذراعيه ، ويواسيها ، ولكنه لا يجرؤ : فمن المؤكد أنها ستدفعه عنها .

« لِمَ هو هنا واقف ينظر إليّ ؟ إني أشعر ببرد . فلو أنه أخذني إلى صدره ، وقبلني ، وأدفأني ... » .

ويفكر هو في نفسه :

« ... كم أبدو غيباً ! إن المسكينة مرعوبة ، فقط » .

إنها تعتقد ، على الأرجح ، أنني سأنقض عليها ، وأتمتع بحقوقى ... وهي لا تفهم أنني أحترمها . فسأنتظر إذن حتى تتعود عليّ . ولدي كل الوقت .

وجلس على حافة السرير .

— كان هذا اليوم مرهقاً . وبك حاجة إلى النوم . ولن أزعجك .

ودهشت سلمى ، ونظرت إليه : « أيسخر ؟ وهل هي إلى هذه الدرجة قليلة الإغراء ؟ وهي التي طالما حلمت بهذه اللحظة ... ما أغباني ! بيد أنها كانت تعرف أن هذا الزواج ، ليس بزواج حب : حسناً . إنه يُفهمها بكل بساطة أنها لا تعجبه ! » .

وبشجاعة ترفع كتفها ، وكأنها لا مبالية ، وتقول :

— حقاً إني منهكة . مساء الخير .

والتفت بالأغطية في الجانب الآخر من السرير . فيتند أمير . كان يتمنى ، على الأقل ، أن يرى بسمة ، أن يسمع كلمة فيها عاطفة . تشير إلى أنها تقدر رقتة . وبدوره يتمدد ، بلطف ، حتى لا يزعجها . فمنذ أشهر وهو يتأمل صورتها ، وينتظر أن يكون بقرها ... ولم يتصور قط أن ليلة عرسه ستكون بهذه الصورة .

— ٣ —

وتدخل الشمس من خلال ستائر النوافذ . وحول السرير ، أشباح تتحرك ، صامته . فتمس سلمى وهي ما بين النوم واليقظة :

— أيندجيم ؟ ليلى هانم ؟

وتجيبها وشوشات وضحكات مخنوقة ، وتدرجياً تتذكر : فهي ليست في بيروت في غرفتها الزهرية . بل هي في الهند ، ومنذ البارحة هي امرأة متزوجة . ولكن ماذا تفعل هنا هؤلاء الخادومات ؟ ولماذا لا يتركنها وحدها مع أمير ؟

وتمدّ ذراعها بوهن ، وتلمس الأعطية .

« أمير ! » .

ولما استيقظت تماماً ، انتصبت واقفة .

— أين هو أمير ؟

واقتربت الساء ، وهن يتبادلن غمزات العيون والتعليقات المسلية . وتشعر سلمى أنها تخمر : فكيف استطاعت أن تترك نفسها تتصرف بهذا الشكل ؟ في استامبول ، كانت الكالافات ، يوزونها على أنها مفرطة الاندفاعات : « ففي السعادة ، كما في الشقاء ، تبقى الروح النبيلة رصينة »

على ما كنّ يقلن . وكنّ يقدّمن خديجة السلطانة ، كمثل . ولكن البنيّة ، رغم إعجابها بأمرها ، لم تكن تستطيع الامتناع عن التفكير بأن الروح النبيلة كان فيها من النبل ، أكثر مما فيها من الروح .

ولقد أقلقها غياب الأمير : فهل هو غاضب ؟ بيد أن البارحة مساءً ، وبعد أن أطفئت الأنوار ، اقترب منها وداعب شعرها . وبهذه الحركة وحدها تبدّد كل التوتر المتراكم . فتهدت تنهداً عميقاً ، ووضعت رأسها على كتف زوجها . وبقياً مدة طويلة يستمعان ، في السكون والصمت ، لقرقعة المروحة . ثم ... لا بد أنها نامت .

ولكن ماذا فعل هو ؟ ... أظلم يداها ؟ أو ... ؟ وفجأة تشعر أن أنفاسها تنقطع : ترى بينما كانت نائمة ، أكان يمكنه ؟ وخلسة مدت يدها تحت الأغطية ، ومسّت بطنها ، ومسّت على عضوها . ومن شدة قلقها ، سألت جسمها . فلا تشعر بأي شيء غريب . ومع ذلك ... « يارب ، كم يزعجني ، هؤلاء النسوة ، إذ يدرن حولي ، ولا أستطيع حتى ... » .

أما هؤلاء التسع ، فليس لديهن مثل هذه الصور من الحياء . فشددن من جهة ومن أخرى ، وأخذن الغطاء العرائسي : فإذا به ناصع البياض .

وثار الاستغراب ، وقيلت تعليقات تعبّر عن خيبة الأمل . واتجهت النظرات جانبياً . واشتدت حمرة سلمى ، فلجأت إلى منضدة زينتها ، وتظاهرت بتجاهلها . لكنهن ابتعدن عنها ، وهن يصرخن ، وحملن معهن برهان العفة ، إلى جناح الرائي عزيزة .

ولما كانت العروس مقسّمة النفس بين الخجل والغضب ، فقد أخذت تنقل ، بصورة محمومة ، جملة الفراشي وزجاجات العطور ، وعلب البودرة من مكانها . ترى ماذا سيفكرون ؟ أنها لم تعجب زوجها ؟ أو أنها ليست عذراء ؟ وهذا أسوأ . فحملها ما هي فيه من الاضطراب على صب غضبها على الدانتيلات التي تغطي طاولة زينتها . وأخذت ، بصورة آلية ، تمزقها إرباً .

— آبا ، ماذا تفعلين ؟

وظهرت زهراء على العتبة ، وأسرعت الخطى باتجاه سلمى .

— ماذا حدث ؟

وسألتها سلمى :

— أين هو أمير ؟

ولما اطمأنت إلى أن هذه هي المشكلة كلها، بدت وكأنها تخفي بسمه. « ليس في الأمر إذن إلا هذا. كم تحبه، ولما يمض إلا ليلة واحدة بينهما » فتجيب :

— إنه مضى لرياضته في الركوب على الحصان، كما هي حاله كل يوم بين الساعة ٦ والساعة ٨، قبل أن يصبح الجو حاراً.

— ككل صباح !

وأصاب سلمى الامتعاض.

— كنت أحسب أنه في يوم عرسه ...

وأخذت عيناها تلتهبان. فيستولي على زهراء الاستغراب من جراء ذلك. وتقول :

— إن للرجل ملء الحق، إذا كان يريد ...

ولكن الأكثر من الاستغراب، كان الإعجاب الذي يجعلها مندهشة : « ما أجملها، كأمبراطورة أوديت ! ».

— لماذا لا تأتين معي لزيارة الزينانا — قالت ذلك لكي تحوّل مجرى العاصفة — فأنت لم تري حتى نصفها.

وتتردد سلمى. فهي تحب أن تخرج. ولكنها لا تجرؤ، لاقتناعها بأن كل الناس لا يتحدثون إلا بهذا الغطاء الملعون ... لا، فحقاً هي لا تشعر بأن لديها من الشجاعة ما يكفي لمجابهة الوجوه الساخرة، أو المشفقة، أو المتّهمة ..

وتلح زهراء فتقول :

— إن مدعوأتنا سيكنّ سعيدات جداً بلقاءك، وهن يسكنّ في الجناح المقابل لأجنحة الراني عزيزة — وأشارت إلى هذه بحبث — هيا، تعالي !

وأخذت بيد سلمى، ومضت بها من خلال ممرات لانهاية لها إلى جزء من القصر، لم تكن تعرفه. إنه متاهة من القاعات المفصولة بأفنية داخلية، ومصاطب، يصل إليها الإنسان بسلاسل ملتفة. وأخيراً تصلان إلى بهو دائري ذي أقواس تنفتح على الغرف.

وفي كل غرفة تقيم أسرة. فمنذ متى يعيشن هنا؟ ومن هن هؤلاء الجدّات ذوات الشعر
المُحمّر بالحناء، وهؤلاء النساء المخاطات بأطفال؟

وكانت زيارة سلمى هن نوعاً من الهدية الملكية. فيحطن بها، ويتنازعهن. أما الأطفال الذين
ومم' بدور المخبر الهام، فقد أطلقوا سيقانهم للريح، ليبثوا الخبر. وتوافدت نساء أخريات من الأجنحة
الشمسية، في فوضى فرحة. وأخذن يتنازعن على شرف أخذ الراي إلى مكان إقامتهن، لكي يقدمن لها
النساي. ولو أن زهراء غير موجودة—وهي الديبلوماسية مجسّدة—لقطع الطريق على هذه الضيافة
المستبدة—لكان على سلمى، المرهقة، أن تقبل ما يقرب من مئة فطور صباح.

ولكن الفتاة تمضي بها. لتقف على كل غرفة مدة تطول أو تقصر، تبعاً لأهمية صاحبها،
المقيمة بها. فلا تدخل الغرفة إلا إذا كانت المرأة الساكنة، الجالسة على السرير، قريبة، أو ممثلة
لأسرة نبيلة.

ومن هؤلاء من وصل منذ أيام كثيرة أو قليلة لحضور حفلة الزواج، ولكن كثيرات يقمن هنا
منذ أشهر، وأحياناً سنوات. وكُنّ قد جئن بمناسبة عيد ما، وبقين، لأنهن وجدن أن المكان
مناسب لهن، ولأن القيام هنا بزيارة، كما هي الحال في الشرق كله، يتضمن معنى التكریم والتشريف.
وكلما طالت الزيارة، كان الاحترام أو التكریم أكبر. ومن هؤلاء النسوة، من يستقر بهن المقام طول
الحياة، لأنهن عجائز، أو أرامل. وفي بداية الأمر، وعندما يقابلن سيدة البيت، وهذا ما يحدث كل
يوم، ينبئن عن سفرهن القريب. وعندئذ تستنكر الراي هذا القول، وتساألن لماذا؟ هل هنّ غير
سعيدات؟ أو لم يُهتم بهنّ الاهتمام الكافي؟ ولهذا يبقين أكثر بقليل، لإرضاء لها. ومتى مضت بضعة
أشهر، يصبحن جزءاً من البيت: وسيكون غريباً، ونوعاً من الشتيمة، أن يرحلن.

وهناك أيضاً قريبات الأسرة الفقيرات، مع أطفالهن. وهؤلاء يقمن بكامل الحق. ففي مثل
هذه الأسر الأميرية، حيث الملكية لا تتجزأ، وحيث الابن الأكبر يرث كل شيء، كثيراً ما يكون
أبناء الأعمام البعيدون، في حالة الفقر المدقع، ويكون من واجب الرجا أن يقوم بالإنفاق عليهم.
إما لتأمين دراسة الأبناء، أو لتجهيز البنات. فإذا رغبوا، في الإقامة الكاملة، فإن على الرجا أن
يضمن لهم الإقامة في هذا القصر، الذي كان يمكن أن يكون قصرهم، لو أراد الله.

وسلمى، بالنسبة لكل هؤلاء النسوة، تصبح مباشرة بنتاً من بناتهم، بحكم بساطتها،
ولطفها، أكثر مما هي راني جديدة. فيضممنها إلى صدورهن، ويضعن أيديهن على صدغيها،

ويلححن في جعلها تقبل الجلوس في غرفتهن . ولكن زهراء تظل متصلبة . فلا ينبغي أن نسيء إلى التراتب ، أو نفسد حكم التسلسل .

أما الشاي ، فلا تقبل إلا لدى الراي العجوز ، راى كريمبور . التي يحكم ابنها واحدة من أكبر دول « المناطق المتحدة » ولدى مرضعة أمير ، وهي امرأة « درويشة » بشكل واضح . فأعجبت بها سلمى مباشرة .

ولقد دامت هذه النزهة ما يقرب من أربع ساعات . وبفضل زهراء ، لم ترتكب سلمى كثيراً من الأخطاء ، لأن زهراء كانت تعينها على فهم ما يجب أن تفعله في كل منها . وأتى لها أن تعرف ، أمام هذا الفيضان من الأسماء ، والألقاب ، وعلاقات القرى ، أو الصداقات القديمة ، كيف نقدّم التحية باحترام ، ولن نبتمس بعاطفة ، ولن نخني الرأس ، بمودة ؟

وعندما عادت أخيراً إلى جناحها ، سقطت منهكة . إذ لقد لقيت الكثير من المحبة ، والتعاطف والعفوية . فشعرت بالدفء النفسي ، ولم تحب هي أن تُحب ! إنها لم تر مثل هذا ، منذ بدأ المنفى ...

ولكن أمير لم يعد بعد .

فهو يصرف شؤون الدولة . وكما تقول زهراء : لديه بعض الصعوبات الآن .

كان ينبغي أن تخفف من خيبة أمل سلمى . وبصورة خاصة أن لا تثير مخاوفها . وأن لا نقول لها إن الفلاحين ، في شمالي الهند كله ، بدأوا ، بتشجيع من حزب المؤتمر ، بالتمرد ضد كبار الملاكين ، الذين يقفون في أكثرهم ضد سياسة غاندي الذي يعتبرونه شيوعياً .

ولكن شؤون الدولة ، في هذا اليوم ، قليلة الأهمية ، في نظر سلمى . ذلك أن الفرح الذي كان يعمر قلبها ، قد تبدّد : ففي اليوم الثاني لعرسها ، ترى زوجها يتركها ، ويهملها .

وستبقى ، طول بعد الظهر ، وهي تنتظره . ولما كانت مقتنعة بأنه سيعود في ساعة القيلولة ، فإنها تحمّمت ، وتعطرت كأحسن ما ينبغي . ولكن جاء موعد الشاي ، ولم يظهر بعد . ومن شدة الألم ، تظاهرت بأنها تقرأ . ولن تقبل ، بأي ثمن ، أن تسأل : أين هو ؟

وهبت ريح ناعمة . فقالت سلمى لزهراء .

لنخرج يازهرًا . إن بي رغبة في الذهاب إلى المساجد والإمام بارا .
وسُرت زهراء بهذه القوى التي لم تكن تقدر وجودها لدى زوجة أخيها ، فاستعجلت ،
وقالت للخصي :

— يا سليم ، اذهب واطلب من الرائي عزيزة ، أن تعطينا أية عربة تريدها ... دون أن تفهم
لمادا تنظر إليها سلمى نظرة سوداء .

وبطبيعة الحال ، لا بد من ساعة تقريباً لكي تكون العربة جاهزة . ورأت الرائي ، أن رغبة
الأميرة « غريبة » ولكنها أوضحت بصوت عال ، أنها لا تريد أن ترفض طلباً من أي نوع للعروس
الجديدة . إلا أنها تتصرف كما لو أن العثور على عربة بين الدزينة التي يملكها القصر ، مسألة شبه
مستحيلة . أما السيارات فإن استعمالها لا يمكن إلا بعد الاستئذان من الراجا .

وعندما خرجتا ، كان النهار قد بدأ يهبط . فاتخذت القصور والمساجد لوناً ذهبياً ، كما أن
الأعشاب ، المسقية منذ مدة قليلة ، كانت تعطر الجو . وكانت الأقسام المزهرة ، والأحجار
المقصوفة على صورة حيوانات عجبية ، والبحيرات الرخامية ، والأكشاك المضأة بثقوب في
الأعمدة الناعمة ، تبدو وكأنها تنتظر زوّاراً من غير المحتمل أن يجيئوا .

وتتقدم العربة ببطء ، متجاوزة قبري نواب ، تقي خان ، وزوجته ، ولال باراديري ، القصر
المصنوع من الحجر الرملي الأحمر ، حيث كان ملوك الأود Oudh يستقبلون الأمراء والسفراء ، والإمام
بارا الصغيرة ذات القباب الأنيقة ، وكل هذه القصور الناعمة تبدو كأنها تتفتت كأناجم معزوفة
رومانتيكية ، من خلال الحدائق الساكنة .

أما « مسجد الجمعة » فيبدو وكأنه يطل من مكان عال على المدينة . ولقد بني على هضبة ،
وسط حقول السليج أو اللفت . وأغرقت سلمى بهدوء المكان وجماله ، فطلبت من زهراء أن تقفا
هناك للصلاة .

وتجيبها زهراء :

— إن هذا مستحيل ، يا آبا ، إذ ليس لنا الحق .

— ليس لنا الحق في الصلاة؟

— ليس لنا الحق في الدخول . فالرجال وحدهم يذهبون إلى المسجد . أما النساء فيصليهن في

بيوتهن .

— ما هذا الهراء؟ وقفزت سلمى من العربة، ونسقت حجابها، وكأنسان صم على الشهادة دفاعاً عن عقيدته ضد تأويلات علماء الدين، استبعدت الحشم اللواتي أردن الوقوف في وجهها، وقالت في نفسها: إن من الجميل أن تمنع حفيدة خليفة، من الدخول إلى مسجد!

وكانت الساحة الخارجية خالية. فقد غابت الشمس وأصبحت السماء الشفافة تحيط بسلمى، بالركة والعدوية، والعصافير ترقزق، محتفلة بقدوم الجو الرطب. وهناك نجمة في السماء تتألق.

— لا إله إلا الله، يا إلهي، لأنك أنت اللامتناهي، والخالد. ولا شيء يوجد بغير إذنك.

فجثت سلمى على ركبتها. وكانت الكلمات التي طال تكرارها، تنفجر في إطار هذا الجمال، وهذا السكون، وتغمرها بضياؤها. فهدأت، ولم تطلب شيئاً، وانفتحت للحظة الحاضرة.

ولم تر ولم تسمع الشبح الذي كان يصخب قريباً منها. وفجأة تشعر أنها تشد من كمها. فإذا بها، أمام ذبابة ضخمة سوداء تكثر من الحركات. فتغلق عينها. ويعود الهدوء. ولكن المولوي المستنكر، بدأ يصرخ.

فانتصبت سلمى، إذ كيف تجرأ هذا الحمار على قطع صلاتها وخشوعها؟

— أأكون أنت شيطاناً. ففي كل البلاد الإسلامية تفتح المساجد للنساء. أو تجهل أن فاطمة بنت نبينا، كانت تصلي في الكعبة، إلى جانب الرجال؟ أفما كان محمد، نبينا الكريم، يسمح به؟ ثم تجرؤ أنت، أيها التعيس على معارضته؟

ونظر المولوي، المندهب، إلى هذه الشيطانة البيضاء، هذه الكافرة التي تلوث بمجرد حضورها ذلك المكان المقدس. فماذا تقول، وتصرخ؟

— ترجمي له، يا زهراء، ترجمي كل كلمة!

وتهز سلمى وهي في منتهى الغضب، ذراع الفتاة.

— قولي له انهم بمسكنتهم، ومكرهم، وطيشهم، هو وكل من هم من جنسه يسيئون إلى ديننا. وعدا ذلك، أي حق لهم في أن يوجدوا؟ ففي الإسلام لا يوجد وسطاء بين الله، وخلقه، ولا رجال دين. والهداة الوحيدون المعترف بهم، هم كتابنا المقدس، وحديث النبي. فالمولوية، والملايات، والأئمة كلهم منافقون، دجالون، يستغلون جهل الشعب، ليفرضوا أنفسهم عليه. ومنذ أسبوع وهي تكظم غيظها. وأخيراً وجدت قضية لا جدال فيها لتفريغ هذا الغضب. واكتأب المولوي، وتراجع، في الحين الذي كانت فيه تتذوق حلاوة غضبها.

وعندما عادت إلى القصر، صعدت مباشرة إلى جناحها، من غير أن تمرّ بالراني لتحياتها، مما كان مناسبة للمريبات ليستعجلن في إشاعة الخبر، والتعجب من هذه الفعلة النكراء. فوجدت سلمى أمير يروح ويحيء داخل الغرفة.

وسألها بلهجة لم يستطع جهده أن يخفي ما فيها من غيظ.

— أين كنت؟ كنت أنتظرك!

— وأنا انتظرتك يوماً كاملاً. ولقد خرجت ساعة واحدة فقط.

وسكت أمير، متأماً من أن سلمى، أمام الآخرين، لم تنتظره بصبر، كما ينبغي لزوجة شابة أن تفعل. وهو لا يقول إن لديه مشكلات خطيرة. فما هذه بالتي يُتحدث عنها لامرأة، وليس متعوداً أن يزرر صورة استعماله لوقته. لكن فقدان الصبر لدى سلمى يسوؤه، كما لو أنه نوع من عدم الثقة.

«... ترى لماذا قالت له ذلك؟ إنه سرعان ما بدا كطفل أئب على فعل قبيح». «لقد قضيت النهار كله وأنا أحلم به. وعندما يكون أمامي، لا أزيد على أن أشتمه. آه. يجب أن أطلب منه الصفح، وأن أقول له كم قاسيت لغيابه!...»، وبانتباه، تثبت نظرها على رأس حداثها... «كيف أفهمه؟ أليست قلة صبري برهاناً على الحب؟».

وفكر أمير، ويقول في نفسه: «كم كانت جميلة ليلة البارحة وهي نائمة. إن جمالها جمال طفلي، يختلف عن ذاك الذي نلقاه هنا لدى نساءنا». وكان قد بقي يقظاً يتأمل هذه البراءة، وهذه الرقة. والآن يراها غاضبة وهو لا يعرف لماذا؟ ولقد وُجدَ من حدّره، وقال له: إن للأتراك

مزاجاً غضوباً، على النقيض مما لدى الهنديات من مطاوعة... ولكن عم يبعث هناك؟ إنها عصبية فقط. وكل شيء هو جديد عليها. ويجب أن نترك لها الوقت الكافي لكي تتعود...

لقد صرّف الأمور بسرعة، ليعود فيرى امرأته الشابة، سعيداً بما ينتظره من ليلة طويلة معها، ليلة، يقترب فيها كل منهما من الآخر، ويتضامان.

وعلى الرغم منه ينهض، ويقول:

— إنك متعبة. وأتركك لتستريح. أفتريدين أن يُقدّم لك طعام العشاء هنا، أم تفضلين تناوله لدى أختي، التي تدعوك إليه؟

وهنا كانت سلمى على وشك الصراخ: «ولكن إلى أين تريد أن تذهب الآن أيضاً؟» إلا أنها عادت فتهاست، وتعض شفيتها وتقول:

— سأتعشى هنا. شكراً.

ومضى. أما هي فظلت جامدة، تنظر إلى الجدار الأبيض أمامها، أي الجدار الكثيف الذي يفصلها عن أمير. فيصيبها إحساس بوجود ورطة، وعذاب لا جدوى فيه. ترى لِمَ كان من الصعب علينا أن نلتقي؟

— يا أميرتي المسكينة، يا بليلي المعبود، كم يهملونك هنا، هؤلاء البرابرة!

هكذا تتألم وتتوجع السيدة غزاوي. وكانت قد تنبأت بأن هذا الزواج سيأتي على عكس ما يُنتظر منه! ولقد عرفت ذلك منذ اليوم الأول. وماذا عساه أن يكون مشتركاً بين حفيدة سلطان، وبين أناس لا يملكون ما يدفعون به أجور قطار؟ وتعرف سلمى أن السيدة غزاوي تبالغ، وتكره الهنود، وخاصة أولئك الهنود الذي لا يبدون تجاهها الاحترام، الذي كان لها الحق فيه، باعتبارها بيضاء. والعادة، أنها تسكتها. ولكنها اليوم تريد أن يُوجد من يرثي لحالها.

وكان زنبيل واقفاً في زاوية الغرفة، ويداه متصالبتان باحترام، على بطنه. وكان يراقبهما. «أي خطأ ارتكبناه عندما جئنا بهذه المجنونة. فهي تسمم كل ما تمسك به. وربما جعلت الشمس تتخاصم مع القمر. وكنت قد حدّرت السلطانة. ولكن سلمى ألحّت. ولقد أحببت هذه المرأة الداهية، التي حزرت مباشرة نقطة الضعف في هذه الصغيرة: فهي تريد أن تُمدح، وأن تُعبد، كما

لو أنها ما تزال أميرةً أمباطورة في البلاط العثماني . فإذا لم نوقفها عند حدّها ، فإن هذه الغزاي ستصل إلى غاياتها : أي تهديم هذا الزواج ، والعودة بسلمى إلى بيروت . ولكنني لن أسمح بذلك . إذ أن سلطانتني ستتخطم من جراء ذلك » . فقالت سلمى :

— لننتعش نحن الثلاثة ، في بهوي الخاص .

وقرّرت سلمى أن تنسى أمير وأن تتمتع بما يتاح لها . وهذه أول مرة يكون فيها هؤلاء الثلاثة وحدهم ، بعيدين عن الأنظار ، وعن التعليقات الضاغطة ، وأول مرة منذ وصولها إلى الهند ، تشعر فيها بأنها حرة .

— هذا المساء ، لنحاول هذا المساء أن نحتفل . وممنوع أن يكون الواحد منا حزيناً أو جدياً !

وتصفق السيدة غزاي ، وتقول :

— برفو ! ها هي أميرتي الشجاعة . « من المؤسف أن هذه المسكينة ليست إلا سنيّة ، على حين أننا شيعة ... » — وتقول هذا مقلّدة صوت الراني عزيزة .

ويضحك الثلاثة : إن اللبنانية هي مقلّدة عظيمة — بالفطرة .

أما العشاء فقد كان مرحاً جداً . وكانوا يتذكرون فيه الذكريات الحسنة . ويضعون برامج رحلات : تبدأ بيروت لرؤية السلطنة ، ثم بباريس . والآن ، وما دام المال ليس بعقبة ، فإن عالماً من اللذائذ ، يفتح أمام سلمى . أما أمير ؟ فإنها ستقنعه . فهي عندما تريد أن تسحر إنساناً ، فما من إنسان يستطيع أن يقاومها .

ومن جديد تشعر بأنها شابة ، غير مبالية . بل لم تعد تفهم لماذا كانت ، منذ قليل تعيسة ... والآن لا تريد إلا أن تغني وترقص .

— سأضع هنا معزفاً (بيانو) . وسننظم حفلات موسيقية ، وبانتظار ذلك ، هيا ، زينيل ، جئني بقيثارتني !

وهذه آلة ناعمة وعريقة ، قدّمها لها عازف قيثارة ، أندلسي ، ذات ليلة في الكريستال Christal ، علبة الليل الأنيقة في بيروت . وتعود سلمى إلى عالم أحلامها ، وتذكر الزمان الذي كان فيه الرجال يستطيعون أن ينحنوا احتراماً لجمالها . كم يبدو هذا بعيداً ...

— لنغن، ولتذهب الكآبة إلى جهنم!

وها هي سلمى واقفة، ورجلها مستندة إلى كرسي. فتعزف بعض الأنغام. ويرتفع صوتها الحار، الآن جيداً: «لي حبان: حب بلادي، وحب باريس...» جوزفين بيكر وتينو روسي لم تراهما إلا على شاشة السينما، ولكن مرات عديدة، بحيث أنها تحفظ عن ظهر قلب كل أغانيهما، وكل لحن من ألحانهما. «آه كاتارينيتا بللا»^(١)، تشي تشي «وهنا أصبح صوتها مداعباً» اصغ إلى الحب يناديك، تشي، تشي، ولم الرقص الآن، آه، آها آه... آه يا جميلتي، كاتارينيتا!». وكان رفيقها سعيدين، يصفقان بالأيدي على النغم.

— صمتاً.

وها إن وجهين منذهلين، يظهران وراء الستارة، وهما أمتان من إماء الراي. وعندما رأتا الأميرة تغني، فإن عيونهما تجحظ، غير مصدقتين ماتريان. فأشارتا لها بالتوقف.

لكن سلمى، الهازئة، تعود وتغني، بأقوى مما كانت تفعل: «لو أنني كنت عرفت، في ذلك الزمن، آه، آه، آها آه، يا جميلتي كاتارينيتا».

فهربتا. وجاءت اثنتان غيرهما تحاولان إسكات سلمى، ثم اثنتان أخريان دون أية نتيجة أخرى غير تمادي سلمى في عزفها، وعلى صورة أقوى فأقوى. ففي هذا المساء تريد سلمى أن تغني، وأن تتحدى الأرض كلها!

— ماذا يجري؟

ورن الصوت، وجمدت سلمى في مكانها. ذلك أن الراي عزيزة قد دخلت، وحملت فيها.

— إني أتسلى، يا أختي. وقد تعودت أن أعزف بالقيثارة وأن أغني. وليس لديك اعتراض، على ما أفترض.

— أما أنا فليس لدي أي اعتراض. ولكن يجب أن تحسبي حساب الجهلة المحيطين بنا. فعندهم أن الموسيقى والغناء علامات على الحياة المنحلة. أما أن يتعاطاها أشخاص محترمون، ونساء كيفما اتفق، فهذا مسموح به — فلو كنوف مدينة مفتوحة للفنون. أما أن تفعل رانيتهم هذا، فإنه يعتبر فضيحة!

(١) كاتارينيتا: تصغير لكاترين، وبيل، الجميلة، باللغة الإيطالية.

— ليأخذهم العجب ، وليفعلوا ما يروق لهم ، فأنا لا آتي أمراً إذأ .

— إن ماتسمينه «أمراً إذأ» مسألة نسبية ، يتغير مع تغير خطوط الطول والعرض . فأنا أعيد عليك القول : إن العزف على الموسيقى هو أمر غير مقبول : فإذا فعلته ، فإنك تجرحين الأعراف . ولن يحترمك الناس بعد ذلك . سينعكس عدم الاحترام هذا على أمير نفسه . وهذا مما لا أسمح به .

— وهذا الإنذار واضح : فاختاري : فإما القيثارة ، وإما الزواج .

— هيا . كوني عاقلة — وعندئذ تصنعت الراني عزيزة بعض اللطف — ، فحياتك في طريقها إلى التغيير . فاعرفي كيف تستفيدين من مزايها ، الكبيرة حتماً ، وكيف تقبلين بعض ما فيها من محاذير .

وخرجت قبل أن تستطيع سلمى الرد .

ومن ناحية أخرى ، ماذا كان يمكنها أن تقول ؟

وعلى الرغم من أنها تكره الراني عزيزة ، فإن عليها الاعتراف بأنها ، في هذه النقطة بالذات ، يمكن أن تكون على حق . ولكن ماذا كانت تعني عندما أشارت إلى «المزايا الكبيرة» لهذا الزواج ؟ وهل كانت تشير إلى المال ؟ وهل هذا هو السلاح الذي سيظهره ضدها ، مرة ، ثم مرة أخرى ؟ وطار عندئذ ذلك الفرح بحفلة الغناء . ولم يعد في قلب أحد متسع للهو . وترجو سلمى أصحابها أن يتركوها وحدها . فهي راغبة في النوم .

وتحلم ... أن زوجها الجميل قد تسلل إلى السرير ، إلى جانبها ، وأنه خلسة قبّلها على الصدغ ، وأنها ، باندفاع ذاتي ، فتحت له ذراعها واحتمت به ... فما أنعم جسده ، وما أجمل رائحته ! وها هو يداعبها ، ويقبلها على خديها ، وعنقها ، وكنتفها ، هامساً لها أنه يحبها . إنه سريع الاندفاع ، ومؤثر عاطفياً ، كجرو صغير . فتشتبه أن تضحك . وهل يضحك الإنسان وهو نائم ؟ ولكن عندئذ ...

وفتحت عينها . فإذا أمير أمامها ، منحن عليها ، والوجه متوتر ، يضيئه ثقبان لامعان . إنه يشبه ملاكاً عابساً .

— أمير !

وتمدّ يدها . فهل يراها . وعيناه غريبتان ، غامضتان ، كمرآتين . فلماذا يظل جامداً ؟

وهست همس الشاكي :

— أمير، أحبني .

وهي لا تعرف جيداً ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام . ولكنها تعرف أنها بحاجة إلى الاطمئنان ، وأن تدفع عن نفسها بالكلمات ذلك الشر الذي تُحس أنه يحوم في الجو .

فأمسك بيديه الطويلتين ، الباعنتين رقبته . وبدأت أصابعه تلهو على العنق المشيق ، ثم تنطلق ، ببطء ، وتهبط ، وتستبعد الدانتيلات ، وتحيط بالثديين ، وتداعبهما ، و ...

— كلا !

وبقفزة واحدة ، انتصبت ، فرأت على صدرها خمسة خطوط حمراء . وتنظر إلى زوجها : إنه مجنون ! لقد تزوجت مجنوناً !

لكن أمير خفض جفنيه . وعندما عاد فرفعهما ، كانت عيناه قد فقدتا مالهما من بريق معدني ، وكانت هنالك بسمه حارة تضئعهما . فيتمم تحيلاً :

— عفوك ، يا حبيبتني . إن جمالك أفقدني رشدي ، ولقد انقضى زمن طويل وأنا أحلم بك ...

وأخذها بين يديه ، وهزها . وبنعومة ، بل وبخجل تقريباً ، يملأ الخدوش بالقبل .

— لا تلوميني ، فهذه العلامات هي علامات الهوى . وقليلات هن النساء اللواتي يستطعن التفاخر بإثارة مثل هذه العواطف ! إنني للحجل ، وفي الوقت نفسه أنا سعيد . فما من يوم شعرت فيه كما أشعر الآن .

وكانت سلمى تلاحظه ، من خلال جفونها الطويلة . ويبدو حقاً ، كأنما داخله الاضطراب ...

و قليلاً ف قليلاً ، ولشدة مادوعبت ، ارتخت منها المفاصل ، وهو ينظر إليها بكثير من الحب ، حتى لقد أخجلها أنها ملأت نفسها بالشك فيه .

وابتسمت له ، وقالت :

— أحبك .

فيضمها بقوة إليه ، كما لو أنه يخشى أن يفقدها . وهي بحاجة إلى الحنان . وعندما كانت طفلة ، كانت كالفاتها تؤنبها عندما كانت تندفع ، نحوهن ، لتفعمهن قبلاً . ذلك أن مثل هذه الصور من القرب ، لم تكن مألوفة في البلاط العثماني . وكان أبوها ، في أحسن حالاته ، يكتفي بضربات خفيفة على خدها : أما أمها ، فقد كان تقبيل أطفالها على الجبين ، غاية الغايات في إظهار عواطفها .

وتنزلق سلمى ، بنعومة ، إلى النهر ، لتحملها العاصفة البطيئة . وهبت ريح دافئة ، أفسدت ترتيب خصل شعرها ، ورفعت قميصها ، وداعبت بطنها . وكان الظلام دامساً . لكن بعض النجوم تراقص أمام عينيها .

لكن ألماً حاداً جاءها ، فأخرجها من حلمها . فإذا فوقها أمير ، والوجه متشنج ، والعينان مغفلتان . فهل يتألم هو أيضاً . وتحاول أن تتلمص . ترى ماذا يفعل ؟ ولماذا يستمر ؟ إنها تتألم . وصرخت :

— توقف .

ولكنه لا يسمعها ، فيغشاها الهلع . فتكثر عليه من ضربات يدها ، وخمشات أظافرها ، طمعاً بإزاحته عنها ، ولا يبدو أنه لاحظ من ذلك شيئاً . فلما أصابها الإرهاق عادت فارقت على وسائدها والدموع تعميها ، اندهالاً ، أكثر منه ألماً : ولأول مرة في حياتها ، كان عليها أن تعنو للقوة .

وبدرت شكوى ، وتوجع : وارثنى أمير . أما سلمى ، فبدأت تحاول ، بعصبية ، أن تتخلص من هذا الجسم الضخم الذي يسحقها . وليس لديها إلا فكرة واحدة : هي الهروب ، والاعتسال ، الإغتسال من الدم والعرق ، ومن هذا التلوث .

فدفعته عن نفسها ، وهرعت إلى الحمام ، وفتحت صنبير الماء ، وغسلت نفسها بغضب ، كما لو أنها تريد أن تنتزع نفسها من هذا العار . أفيمكنها يوماً ما ، أن تتطهر منه ؟ أوهذا هو الحب ؟ كلا . إن هذا مستحيل . فالرجل الذي يحب امرأة ، ينظر إليها ، ويكلمها برقة ، ويسأل عما تشعر به ، ويظل قريباً منها في كل لحظة . وكانت سلمى قد قرأت الروايات الفرنسية الممنوعة . وفاجأت مسارات النساء المتزوجات ، فيما بينهن ، وهي تعرف .

وكان إحساسها إحساساً بالغثيان . ولكنها لا تشتهي البكاء .

وهذا الدم لا ينقطع عن السيلان . ويخيّل إليها أنها لن تقف عن غسل هذا الجسم ، الذي أصبح ، فجأة ، مقرفاً لها ، وأن بها رغبة مجنونة ، لمعاقبته ، واجتثاث ما فيه من أسباب هذه الشناعة .

أتراها ماضية إلى الموت ؟ إن كان هذا الدم نزيفاً ؟ أو إن كان أمير قد قتلها ؟ ولحظة ، وتدع نفسها تُعلّل بالفكرة اللذيذة . فأني انتقام ! وأي جمال : إنها بيضاء في كفنها الأبيض ، وأمها الغارقة في الدموع ، وسلمى منقبضة القلب برؤيتها تبكي . « اعفي عني ، أئندجيم ، فأني لم أفعل ذلك عامدة ... » كم سيتألمون ... هؤلاء المساكين ...

وخلف الستارة ، كان هنالك صوت قلق :

— يا غاليتي ، هل تشعرين بألم ؟

— كلا ، كلا ، أنا آتية .

وبسرعة جاءت بالقطن ، وبقميص نوم جديد ، وبخاصة لإخفاء الجرح . فهي لن تمضي ، إلى حد المطالبة بالحب .

وها هو متمدّد على عرض السرير ، وبلذة شهوانية ، يبتسم لها ، غير واع للمأساة التي أثارها .

— هل أنت سعيدة ؟

فتهز رأسها ، وتبعد عينيها ، مما يعزوه هو إلى خجل رائع .

— تعالي إليّ ، واجلسي بقربي .

فیشدّها برقة ، وتطاوله ، ساكنة ، ملبّية ، كما لو أن عضلاتها وأعصابها قد هجرتا ، فيمرّ يده على بطنها . فترتعش . ويضحك مسروراً . ويظن أنه عاد فجّدّ رغبته .

— لحظة ، واطركني أستريح قليلاً !

فتحمرّ وتتمتم : « ولكنني لم ... » .

فيضحك بقوة أكبر . وكم تكره هذا النوع من الاكتفاء .

— إن هذا البطن سيقدّم لنا صبية جميلين ، أليس كذلك ؟

وتشعر بالتعب اللامتناهي . إنها عاجزة عن الإحساس حتى بالألم . ولا تملك إلا ما يكفي للإحساس بما هي عليه منذ الآن : إنها بطن لإنجاب ورثة لدولة بادالبور ... وهي لا تثور ؛ بل إنها لا تفهم ، كيف أنها ، وهي سلمى ، قد وصل بها الأمر إلى هذا . وفيما يشبه الضباب ، تسمع «أناها» القديمة ، تجيب ، كما لو أنها تريد الانتقام :

— أصبية جميلون ... أم بنات حلوات .

وكان الرجل المتمدّد بجانبها يضحك من جديد .

— بنات ، إن كان هذا يعجبك ، ولكن بعد ذلك ؟

وتحس إحساساً واضحاً أن هذا ليس مزاحاً ، بل أمراً .

وتتأمل ، وهي مفتونة ، هذه العيون التي تمتطي ، بصورة بطيئة جداً ، ولا تقف عن التمثطي ، وهذا الوجه الذي يرق ، حتى ليكاد يصبح مثلثي الشكل ... وفجأة تصرخ صرخة : وتجد أمامها الإله كوبرا ، مهتداً .

ولما كانت غير قادرة على القيام بأدنى حركة ، فإنها تشعر بالنظرة التي تشدها أو تسحبها ، سحباً بطيئاً لا يكاد يحس به . فماذا تفعل ؟ أتقاوم ، أو تختبئ في أعماق ذاتها . فتجمع قواها كلها ، وتضغط قبضتيها ، وتنجح ، وهي ترتجف من شدة الجهد ، في خفض جفניה . وهاهي قد أنقذت .

ومن بعيد بعيد يصل إليها صوت هازيء .

— يبدو أنك مرهقة ، يا عزيزتي . فاسمحي لي أن أنسحب .

ويحنى رأسه إحناءة لطيفة . وغاب عن الأنظار .

والكوبرا^(٢) ؟ هل اختفت ؟ أو ستصبح مجنونة ؟ ...

(٢) الكوبرا ، حية ضخمة تسمى الصل بالعربية .

٤

وخلال أسبوعين، ستلتقى سلمى، الجالسة على السرير، ذي الأرجل الذهبية، زيارات القريبات، والصديقات، والجارات، والنساء الطيبات اللامتناهيات العدد، والقادرات ليلاحظن عياناً سعادتها. أما اللواتي كنّ قد رأيتها قبل الزواج، فإنهن لا يحرمن أنفسهن من الإشارة إلى أنها ازدادت جمالاً إلى حد كبير: «لقد كانت شاحبة اللون جداً، فانظرن الآن خديها الورديين، وعينيها اللامعتين، وانتفاخ شفرتها. وحتى مختلف أجزاء جسمها، فإنها أصبحت أكثر امتلاء! حقاً إن الحب يصنع المعجزات، وراجاهنا الجميل هو في الحقيقة، ساحر، في هذا المجال!».

ويضحكن، ويتمازحن، ويغبطنها، وهنّ يمضغن البان المغطى بقشرة فضية ناعمة. ويعلقن على مجوهراتها، واحدة، واحدة. وعلى ماحولها. وحقاً فإن من واجب العروس الجديدة أن تعرض أجمل قطع جهازها، وأن تعرض نفسها، بتواضع، للأنظار. وعلى سلمى أن تغيّر ثيابها عدة مرات في اليوم، لإرضاء فضول النساء المفرط.

أما الراي عزيزة، المتألقة، كما لو أن الناس يحتفلون بانتصار شخصي لها، فتأمر وتطلب: «ها إن أكواماً من «البالاكي جيلوريان» — وهي مخاريط من الكريمة الطرية، المحشوة بالجوز والمعطرة بالهال — والحلوى، والموتانجان — وهو مرعى مصنوع من لحم الجدي — وكل أنواع الحلوى المخصصة لطعام العرس، تقدّم، مرصوفة بشكل فني، على صوانٍ من الفضة المطلية بالذهب.

وبعد أن توجه الدعوة إلى النساء سبع مرات — ولو كنوف تفخر بأنها تطبق التقاليد المعروفة في

الهند، أفضل تطبيق — يقمن ويتناولن الطعام. ويمكن أن يعرف الإنسان من خلال سحناتهن الفرحة، أن طبأخي القصر لم يسيئوا إلى سمعتهم.

وتنظر سلمى، بشهية، ولكن دون أي وهم، إلى ما يقدم من هذه الأشياء الرائعة: ولما كانت مفعمة القلب بالسعادة، كزوجة جديدة، فإنها تعتبر أنها فقدت الشهية.

ومن حسن الحظ بالنسبة إليها، أن هذه الاحتفالات ستختصر بعض الشيء، لأن فترة الحزن، في شهر محرم، ستبدأ قريباً، والحزن هنا هو الحزن على مقتل الحسين، حفيد النبي، عام ٦٨٠، مع أسرته كلها، على يد جيش الطاغية يزيد. وسيبكي المسلمون الشيعة سبعة وستين يوماً على ذاك الذي يعتبرونه الوريث الروحي للنبي محمد — ذلك أن الخلفاء الثلاثة الأوائل، المبجلين جداً لدى السنة، هم مجرد مغتصبين في نظرهم.

وخلال سبعة وستين يوماً، لا تشهد العين احتفالاً، ولا حلياً، ولا ثياباً ملونة، بل تشهد مسيرات جنازية، ومجالس، أي اجتماعات للصلاة، يقوم خلالها مرتلون، موهوبون للألم، بانتزاع طوفانات من الدموع، يذرفها الحضور، وهم يتذكرون مأساة كربلاء، وفضائل الشهداء. وتشتهر لوكنوف، في الهند كلها، بالجمال الواخر، لهذه الاحتفالات.

وفي هذه السنة، يبدو السير هاري ويغ، حاكم «المحافظات المتحدة» كثير القلق. ذلك أن الفترة الممتدة بين يوم ٩ و ١٠ محرم، التي تصل فيه الاحتفالات إلى قمته، تقع في موعد الهولي، أي العيد الهندي الكبير، عيد الربيع، أو مهرجان الألوان. وهو يخشى أن تقع الاصطدامات بين الطائفتين.

غير أن سكان لوكنوف أناس مسالمون. فهم يعلنون حبهم للذة، وشكهم في كل ما يؤخذ مأخذ الجد — ولا سيما في السياسة والاضطرابات التي مازالت تعصف بالهند منذ بضع سنين، لم تصل بعد إلى هنا. والواقع أن عدداً كبيراً من الناس المسلمين يأسفون على وقوع هذا التزامن الذي يحول بينهم وبين المشاركة المعتادة، في المهرجان الهندي، الذي يرشون فيه بعضهم باللون الأحمر والوردي، وهما من الألوان المثيرة للتفاؤل. ثم إن الكثير من الهنود يأسفون لهذا التزامن، لأنه يحرمهم من متابعة مسيرات شهر محرم، كمشهد في جزء، وكتقديس، في جزء آخر، لشهيد من شهداء العقيدة. أما أن هذه العقيدة ليست عقيدتهم، فأمر غير مهم: فهم مقتنعون أن مختلف الأديان ليست إلا «طرقاً عديدة توصل إلى الحق ذاته».

ولكن الانتخابات الأولى التي ستم لإقامة حكومات محلية ، كانت قد هزّت البلاد كلّها ، في هذا الربيع من عام ١٩٣٧ على حين أن مؤتمر جواهر لال نهرو ، والرابطة الإسلامية التي يتزعمها محمد علي جناح ، يتجاوبان حول تأليف هذه الحكومات . ويمكن لأي حادث ، أن يثير الانفجار .

وهكذا فقد قرر هاري ويغ تطبيق القرار رقم ١٤٤ — القاضي بتحريم حمل السلاح والعصي ، وتعزيز الشرطة ، ومنع الاحتجاجات والمسيرات . ولما كان منع الاحتفالات الدينية ، غير وارد ، فقد عمد هذا الرجل لشراء بضعة أطنان من الأسلاك الشائكة ، من الجيش ، ليستطيع بواسطتها تحديد مناطق المظاهرات ، لكلا الطائفتين . وهذه فكرة عبقرية ، كما أكد له مساعدوه الهنود الذين لم ينس استشارتهم .

ويعرف السير هاري الهند معرفة جيدة ، لأنه يمارس فيها وظيفته منذ عشرين سنة . وخلافاً لأكثر مواطنيه الذين يجعلهم الحرّ ، والرطوبة ، وبخاصة هذه المجموعات من الأجساد الهزيلة ، ذات العيون الشديدة اللعنان ، لا يطبقون الحياة ويوقعهم في المرض ، فإنه هو بالذات ، يحب هذه الأرض الغريبة التي وصفها ذات يوم ، عندما جاءه شيطان الشعر « بأنها ماسة سوداء في قلب الأمبراطورية » .

ولكن كان تعيينه حاكماً على لوكونوف ومنطقتها ، شرفاً ودليلاً على الثقة — ذلك أن المناطق المتحدة ، مع الله آباد ، مدينة نهرو ، وآلبغار ، الجامعة الإسلامية الكبرى ، تقع في قلب الحياة السياسية الهندية — فإنه من الناحية الاجتماعية نوع من القبر . وكان السير هاري ، ولا سيما زوجته ، الليدي فيوليت يفضلان بومباي ، أو دهي ، أو كالكوتا . ذلك أن الإنكليز استطاعوا في هذه المناطق ، أن ينشئوا لجماعتهم ، مركزاً خاصاً بهم ، فيه ما يكفي من الغرائب ، وحتى الهنود — أي الذين يترددون عليهم ، وهم أبناء الجامعات البريطانية في أكثريتهم — هم أكثر ... أو أقل ... ولنقل أقل هندية !

وبالمقابل فإن لوكونوف ظلت هندية بشكل مخيف . والغريب أنها تفخر بذلك . ويأسف السير هاري على ذلك ، لا سيما وأن هذه المنطقة ، كانت في الماضي مركز الإشعاع الثقافي ، في شمالي الهند ، وحلّت بذلك محل دهي التي تُخلع ملكها « المغولي الكبير » عن عرشه ، على يد الجيش البريطاني . وقد اشتهرت باحتفالاتها المهيبة التي يظهر فيها الفنانون الأكثر شهرة ، واعتبرت كلؤلؤة الحضارة (غانغا — جامني Ganga-jamni) المسماة كذلك تبعاً لاسم نهرين يجتازانها ، هما الغانج

والجامنا، أي نهر الذهب ونهر الفضة. وهكذا كانت لوكونوف ترمز إلى انصهار التقاليد الهندية والإسلامية، وشجعت على ذلك من قبل الطبقة المهيمنة الشيعية.

أما اليوم، فإنها ليست أكثر من عاصمة محافظة، حتى ولو كان راجاتها ونوابها، وهم من كبار هواة المباريات الشعرية، والموسيقية، يحتفظون لها بألق ثمين ومتخلف.

ولا يحضر السيد الحاكم هذه الاجتماعات التي تطول فيها الموسيقى إلى ما لا نهاية، والتي تغنى فيها بعض القصائد المرتجلة، بصوت وحيد النغمة، فتسكر الحضور، الذكور حصراً، إسكاراً عاطفياً عظيماً.

ولقد أراد السيد هاري، في بداية إقامته في الهند، بدافع الفصول، وكذلك بحكم حسن النية الذي جعل مواطنيه يسخرون منه، أن يتدرب أو يتثقف ثقافة هندية. وعلى الرغم من أنه يملك معلومات جيدة عن لغة الأوردو، فإن هذا الشعر يظل مغلقاً عليه؛ إما لأن التعابير المستخدمة، أعلى من مستواه، أو لأن ما فيه من صور، لا يذكره بشيء، أو يبدو له مضحكاً. أما الموسيقى فإنها كانت تجعله شديد الرغبة في النوم.

وسرعان ما تبين أنه لا يكفي أن يريد التعرف على الأذواق والاهتمامات، وطرق الحياة الهندية، لكي يكسب مودة الهنود، وأقل من ذلك، احترامهم، فهل هذا نتيجة لمئة وخمسين عاماً من الاستعمار، علمتهم الإعجاب بالقيم الغربية، وصور حياتها — حتى ولو كانوا أحياناً وبصورة لا تتوقع، يثيرون على العبودية العقلية؟ أو نتيجة لنوع من الاعتداد بالنفس، يجعلهم وربما على حق، يعتقدون أن الأجانب لا يستطيعون أن يفهموا ما يتفتح في أعماق نفوسهم، التي غذيت خلال آلاف من السنين بالتقاليد وصور التفكير المختلفة.

«وكل واحد في مكانه»: ذلك هو المبدأ الذي كان ينظم المجتمع الهندي في كل الأزمنة والعهود.

وأوضح مثال على ذلك، هو نظام الطبقات، الذي لا مهرب لأي هندي منه، مهما يفعل. ولقد عدل السير هاري عن فهم هذه «الحمية القدرية». فأن يولد الإنسان من طبقة نبيلة، أو أن يكون رجل دين أو محارباً، أو أن يولد من فئة «اللامساس»، كل ذلك إنما هو نتيجة، تبعاً للفيذا، أو الكتابات المقدسة، نتيجة لأعمال قام بها الإنسان في حياة سابقة: وإذن فهذا عدل. وليس التمرد على هذا، عندئذ، إلا نوعاً من الكفر، ولا يمكن أن يؤدي إلا إلى مصير أسوأ، كأن

يعود الإنسان فيولد دودة أرض ، أو حشرة . وبالمقابل ، فإنه إذا عاش الإنسان حياته كعضو من أعضاء طبقة « اللامساس » بصورة وجدانية ، وقبول العار والبؤس ، برزانه ، ضمن لنفسه في حياة لاحقة ، طبقة أكبر حظاً .

وهذا الوضع راسخ في العقلية الهندية ، بحيث أن المسلمين ، الذين تقوم ديانتهم ، كالديانة المسيحية ، على المساواة — تأثروا بهذه العقلية ، ونحن واجدون لديهم نوعاً من تقسيم الطبقات : فالإنسان إنما يكون من الأشراف ، أو الأجلاف ، تبعاً لكون أجداده من الفاتحين أو من المهتدين من الطبقة المنحطة .

أما مثالية الشاب هاري ويغ وأفكاره الديمقراطية ، فليس لها سوق في الهند . ولقد انتهى ويغ هذا إلى الاعتقاد بأنه من الأفضل أن تكون الأمور على هذه الصورة ، ضماناً ، لاستقرار المجتمع ، وإلا فإنه سينفجر .

لكل مكانه : ومن العبث أن يحاول أحد رجال جلالته ، أن يفهم هندياً ما ، كما كان من العبث في الماضي ، أن يحاول السيد فهم العبد . وليس هذا عبثاً فحسب بل هو خطر . ولكن هذا لا يمنع أن تكون العلاقات « ودية » بمقدار ما يعرف كل واحد ، إمكانيات اللعبة وحدودها . ومن فضل الله أنهم عديدون أولئك الهنود المنتسبون إلى الطبقة العليا ، والذين فهموا جيداً هذا النوع من « معرفة كيف يكون العيش » .

ولئن كان السير هاري ، في لوكنوف ، يفخر بأنه أنشأ لنفسه شبكة هامة من العلاقات الشخصية ، خلافاً للكثيرين من زملائه الذين لا يتصلون بالسكان المحليين ، خارج علاقات العمل ، والاستقبالات الرسمية ، ويتجنبون الاتصال بهم . ولما كان ذا عقل منفتح ، فإنه يستنكر هذه النزعة العرقية ، لا سيما وأن بعض الهنود ، إذا وضعت لون بشرتهم جانباً ، يمكنك أن تنسى أنهم هنود ! وأكثر هؤلاء أرستقراطيون رؤساً في إنكلترا مثل راجا جهراباد ، رئيس الحزب الوطني الزراعي الذي يجمع كبار ملاكي الأراضي ، والذي هو « جنتلمان » كما ينبغي ، ويحسن تنظيم رحلات لصيد الفمور ؛ ومثل نواب ساربور الذي لا يقدم لك في عشاءاته إلا الشمبانيا الفرنسية ، أو مثل راجا بادالبور ، ذي الذكاء اللامع ، الذي نجح بأن يكون عضواً في الجمعية التشريعية ، وأن يتزوج في الوقت نفسه أميرة عثمانية !

ويطيل السيد الحاكم سحبته من الغليون ويقول في نفسه : « إن هذا الأمير ما أحسنه من رجل ! يجب أن أدعوه ، فأنا شديد الحرص على معرفة سلطاته » .

ودخل الهودج في الطرق القائمة، وهو يتأيل بخفة، تبعاً لسرعة خطا الحاملين، ومرونتها. وسلمى تلاحظ: هذه الليلة هي الليلة التاسعة من شهر محرم، ليلة موت الحسين، والمحاربين الآخرين، في معركة كربلاء. ومضى نصف سكان المدينة باتجاه الإمام بارا الكبير، لكي يتذكروا، ويبكوا، ويصلوا. وآلاف من الأتقياء من القرى المجاورة قد هرعوا إليه أيضاً. ذلك أنه ما من مكان في الهند يحتفل فيه بمحرم بمثل هذه الفخفخة والحفاوة، كما يحتفل في لوكنوف، مركز الإسلام الشيعي: منذ أن جعل منها ملوك الأود عام ١٧٢٤، الذين هم من أصل إيراني، عاصمة لهم.

وعلى بعد ما يقرب من مئة متر من الإمام بارا الكبير كانت الجماهير المحتشدة كثيرة العدد، إلى الدرجة التي اضطرت معها حملة الهودج إلى التوقف. وكانوا قد حاولوا أن يجدوا لأنفسهم طريقاً بالصراخ، وضربات الأرجل، والأكواع، ولكن حق المرور اليوم لا يعمل به؛ فالأمير، وساقى الماء سواء: وكل منهم واحد من المؤمنين. وعلى الرائي والبيجوم النبيلة التي ترافقها أن تمشيا على الأقدام.

وسرت سلمى بهذه المناسبة، واستعدت للقفز على الأرض عندما وجدت من يذكّرها بواقع الحال:

بُركتك، يا أميرة.

واستطاعت البيجوم يأمين أن توقفها في الوقت المناسب. فأية فضيحة، لو... أنها وسط كل هؤلاء الرجال، كشفت وجهها! فدمدمت، وهي في الوقت نفسه مزعوجة وخجلة، دمدت تقول:

— لقد نسيت، فأنا غير معتادة.

فابتسمت مرافقتها.

— ستتعودين على هذا بسرعة، ولا سيما عندما تكتشفين أن بركتنا هذه، هي في الواقع من أدوات الحرية.

أداة للحرية، يكون هذا السجن من الحرير الأسود، المفتوح على الخارج بهذا المستطيل المشبك الذي يصل إلى مستوى العيون؟ فماذا تريد أن تقول هذه المرأة المدهشة؟

فأخذت البيجوم بيد سلمى، وقالت لها:

— كوفي وثيقة . فأنا أعرف كم تصعب عليك هذه الحياة ، ولكن أنا هنا لأساعدك عليها .
فهل نكون صديقتين ؟

فتحملق فيها بعنف . والعينان الزرقاوان — الرمايتان تدهشان عندما تكونان في وجه قائم .
فهل هي جميلة ؟ إنها تلفت النظر على كل حال . وهي في الخامسة والثلاثين تقريباً ، طويلة ، نحيفة ،
خلافاً للنساء هنا ، اللواتي ما إن يتزوجن ، حتى يتضاعف وزنه . وهي تقدّم للراني صورة امرأة
قوية ، لا تستطيع سلمى أن تعرف ما إذا كانت تغريها أو تقلقها . أما أمير نفسه ، فيبدو أنه يضعها
في مقام عال من الاحترام ؛ وهي زوجة أفضل صديق له .

وقام الحمالون بإحاطتهما بسور ، بأجسادهم ، حتى وصلتا إلى الفناء الواسع ، وهو مكان
مقدس ، بدءً منه ينفصل النساء والرجال ، كموجتين سوداوين ، ليحضوا إلى الصلاة .

وفي الداخل ، ينتصب الإمام باراً بكل أضوائه . وله واجهة تزينها مئات الأقواس ، وهي تتألق
بثرياتها المذهبة ، وشمعداناتها الكريستال . وفي كل عام مرة ، ينتزع القبر من غيبوته ، وينفض الغبار
عنه ، ويُزَيَّن ، ويُجَمَّل ، كملكٍ يوم تنويجه . وذلك للاحتفال بانتصار التضحية والموت .

«إمام حسين ، إمام حسين !» .

ويشتد الانفعال لدى الجمهور الحزين ، أجش كشهقة البكاء ، وحراراً كصرخة حرب .
ويضرب الجمهور كله بقبضتيه الصدور في نسق بطيء يتسارع شيئاً فشيئاً ، ويتمدد ، ويتحرر :
فالأجسام لاهثة ، والوجوه منتشية ، وهوى ينطلق فجأة :

«إمام حسين ، إمام حسين !» .

وهكذا يتضخم الصخب ، ويتسارع ، وتقطع أجزاءه ، ويدور حتى يبلغ خرجات المآذن ،
وحتى النجوم ، ويدخل إلى أعماق القلوب . وترى نادمين يمشون ببطء في طريق تلتهب
نيرانها ، كما لو أنهم يمشون على بسط من الحرير . إنها إحدى معجزات الإيمان ، ويحبس الجمهور
أنفاسه ، وهو مأخوذ بما يرى .

ويقوم مولانا ، من أعلى منبره ، بفرض الصمت ، ويجمع الحضور كلهم في راحة كفه ،
وبصوت قوي يُذكر بالهنيئات الأخيرة لحفيد النبي ، وبالمعركة الأخيرة ، والبطولة ، والدم المنبجس من
ألف جرح ، ثم بضربة الرح ، الأعظم إساءة للدين ، والأبعث على الارتياح ... ولما كان الجمهور معلقاً

بشفتيه، فإنه يتنهد، ويتوجّع، وينفجر باكياً، ويكاد يخنق. فيهدده، ويهدئه، ثم يصلبه من جديد، ويمضي به إلى أقصى درجات الألم.

وبعد ذلك تظهر جمال مسرّجة بالسواد. فأَيُّ بؤس! إنها جمال القافلة الشهيدة، إذ أن كل الرجال ماتوا، حتى إنهم لم يوفروا طفلاً في الشهر السادس من عمره، والنساء، نساء أسرة النبي، أصبحن سجينات...

«يا حسين!» وهاقد عاد الانفعال، أصم، وحشياً. وتنهال الأيدي ضرباً على الصدور، وتدخل الأظافر في اللحم، وتصل المأساة إلى أعلى درجاتها — فما من عذاب يوازي أبدأً مثل هذا العذاب.

ولقد ناضلت سلمى بكل قواها. وكانت في البداية تتطلع باحتقار: «ذلك هو الهذيان الشيعي، اللا معقول، المستري. ومن حسن الحظ أنه لا متيل لهذا عندنا، نحن أهل السنة». ثم تصبح ساخرة: «فلو أن صديقائي الفرنسيات يرينني!» وتستدعي عون كل الذكريات البيروتية الحلوة، لتقاوم بها الرجفة المتسللة خفية إلى جسمها، لتضغطة، وتستنفذ موارد عقلها النقاد، وتدفع اللا احترام إلى حد الكفر. ولكن عبثاً، فهي لم تعد تطيق دفع الدموع التي تسيل من عينيها، وتعميها. ولكن لماذا؟ لماذا؟ وماذا يهمها من أمر الحسين! فهي لم تفكر بتقليده بشكل خاص، في أي يوم. ولو أن المسيح أو بوذا هما اللذان كان الجمهور يحتفل بهما، بهذه الحماسة، إذن لبكت، على الأرجح، مثلهم... لكنها لم تعد تحاول أن تراقب نفسها، وعدلت عن كل تفكير، فيغمرها الهيجان، ويذهب بعقلها، كطوفان يقذف كل شيء أمامه. وكذلك لم تعد تشعر بأنها أجنبية. فهي جزء من هذا الجمهور، منصهرة في هذا الجسم الكبير الذي يخفق، محمولة إلى بعيد جداً عن نفسها، بسلام.

ويطلع الفجر، ليضيء الوجوه الكامدة، المرهقة. وانتهى العيد، ويجب أن يعود الإنسان ليستريح، خلال بعض ساعات فقط، قبل أن يعود من جديد.

— يا عزيزتي، لا مجال لأن تخرجي. فالليلة الماضية كانت شيئاً مختلفاً. ذلك أنه ما من أحد كان يستطيع أن يراك في الظلام، ليعرفك. ثم لنعترف بأنني قبلت، لأن البيجوم يسمين كانت ترافقك. فهذه امرأة ذات عقل. وعندما تكون معك أعرف أنه ما من شيء مزعج يمكن أن يحدث. أما اليوم، فلاهي ولاسيده أخرى من المجتمع تغامر بالسير في الطريق.

— ولكن المسيرة على ما يبدو ، عظيمة .

— الحق أن مواكب الدول الأميرية ، ودولتنا خاصة ، رائعة . غير أن المشهد يفسده وجود الجماعات المتوحشة ، والمخلوقات البدائية ، التي تعرض نفسها ، تماماً ، وراءها . وأخيراً أقول : إذا كنت حريصة على الحضور ، حقاً ، فاجلسي بشكل مريح في الشرفة الرئيسية : فمن وراء المشربية ، يمكنك أن تلاحظي المشهد على راحتك . وستأتي أختي الكبيرة لتنضم إليك ، بالتأكيد . ولأمر لا أفهمه تماماً ، يبدو لي أن النساء يحبن رؤية الدم .

وقبل أن يتاح لسلمي أن تجيب ، ترك الراجا المجلس . فتهز كتفها . لا ريب أنه لو رآها تبكي ، في الليلة الماضية ، فإنه كان سيظنها مجنونة ! فأني كائن غريب هو . أفحقاً هو غريب عما يثير شعبه ، وقليل الحساسية تجاهه ، بمقدار ما يدع الناس يظنون ؟

لكن الشرفة قد امتلأت بحشم الراي عزيزة . ومنذ الساعات الأولى للصباح ، أقبلن عليها بسرعة ، حتى لا يفوتهن شيء من الاحتفال . وها هن ينتظرن ، وعيونهن تلمع ، والشفة شرهة . وكانت سلمى تودّ أن تُعفى من ذلك ، ولكن مقام الشرف ، المحاذي للراي عزيزة ، يعود إليها ، كواجب ، وعندما تظهر الراي ، بحلتها السوداء ، فإنها لا تستطيع إلا القبول بدعوتها الخرساء .

ومن بعيد ، كأن يأتيهن صوت المزامر الجنائزية . وها هي الفيلة تتقدم مجلّة بالسواد ، ومعها سحابة من الغبار . وعلى ظهورها يهزّ حَمَلَةُ الأعلام ، ألوان الدول الأميرية ، وكذلك يهزّون الأعلام التي غُئِمت في حقول المعارك ، لتتنقل بورع من جيل إلى جيل .

ثم تأتي مجموعة الجمال ، بخطواتها البطيئة ، وعليها الفرسان ، وهم يحملون الأعلام المقدّسة المطرّزة بآيات من القرآن ، وفوقها يد برونزية كبيرة مفتوحة . أفتراها يد العباس ، أخي الحسين غير الشقيق ، الذي ذهب ليأتي بالماء للمحاصرين الذين أجهدهم العطش ، فإذا به تقطع يده الاثنان ؟ أم تراها الأصابع الخمس لليد نفسها ، من حيث هي رمز للخماسي الشيعي : محمد ، وفاطمة ابنته ، وصهره علي ، وولده الحسن والحسين ؟ ترى من يستطيع الجواب ؟ وماذا يهم ذلك كله بالنسبة لحماسة الجمهور الذي يزدهم ... ؟

ويلاحظ الإنسان بين ما يراه ، شيئاً له علاقة باللون . فأفراد الجوقة يلبس كل منهم جاكيتة حمراء ، أما العمامة فهي من الموسلين الأسود . ونراهم يمرون ويبسطون شكواهم المأتمية — وهي

شكوى رتيبة، ملحّة — ليفسحوا المجال للزولزيناخ حصان الحسين، الرائع، والوحيد، والمصطبغ
سرجه بالدم. وتراه يمشي، والرأس هابط، وهو منك، وبأس.

وينفعل الجمهور لهذا المشهد، فيندفع ليلمسه، باعتباره آخر رفيق للإمام. ثم يزدحم
الجمهور مرة أخرى، ليمس «التأزيات» العليا... وهي نماذج لقبر الحسين في كربلاء مصنوعة من
الشمع الملون، أو من الورق المذهب والفضي، ويمس المهد المحمر الذي كان فيه ذلك الطفل
المقتول، والأعلام المصبوغة بدم الشهداء. فهو بحاجة إلى أن يفعل بما عانوه أثناء النزاع، ويتصور
تضحيتهم. وعلى حين أن بعض الحفظة يقلدون ويغنون موت الأبطال فإن الجمهور يئن ويتألم ضارباً
صدره بالأيدي أو بالسياط.

ولكن هاهم الآن النادمون، وفيهم الرجال الناضجون، والمراهقون، والأطفال. فتراهم عراة
الجدع، يمسكون بأيديهم سياطاً من السلاسل تنتهي بخمسة أمواس أرهف حادّها حديثاً.

ووقف هؤلاء، أمام الشرفة.

ويهتف الجمهور

— إمام حسين!

ويجيب:

— يا حسين!

وباندفاع واحد، تقع السلاسل على الظهور العارية، فتقص اللحم قصاً، وينبجس الدم.

— يا حسين! ثم يضربون أنفسهم أكثر فأكثر بالسياط على نسق الهتاف. فتصبح الجروح
أعمق، ويسيل الدم، وينزل الدم على السيقان، ويشكل بقعاً سوداء على الزيت.

— يا حسين!

فينهار رجل ويقع، أصفر كالموت، ثم رجل آخر، كطفل تقريباً. وسرعان ما يحملوهما على
حمالات مرتجلة. وتتضاعف الضربات، ويجلد النادمون أنفسهم بعصية، لاهتين، أعموا وأصموا عن
كل ما هو غير عذابهم، ومحاولتهم اليائسة، في إعدام الجسد، والوصول إلى «الحال» الذي ينشئون
فيه وحدة مع الواحد.

ترى هل سيتوقفون عن فعلهم هذا يوماً ما؟ إن سلمى تلتف على نفسها، وأعصابها متوترة، ولا تستطيع أن تزيح بصرها عما تشهد، وفي فمها طعم الدم، وإحساس بالقتل. ترى هل هي مقبلة على الإغماء؟ وإلى جانبها الراني عزيزة، لا يتحرك فيها شيء، وتغمس شفيتها في كأس من الشاي، على حين أن تبعها، يشرح المشهد، ويعلق عليه، ويُمص كمية من السكاكر، ومعاجين الفواكه. وتنهض سلمى، تريد أن تخرج. ويبد قوة وحتى من دون أن تدبر رأسها، ترغمها الراني على الجلوس.

— لم ينته المشهد بعد، ويجب أن نرى كل شيء، حتى الأخير.

وقالت ذلك كما لو أنها تصدر أمراً، والعينان نصف مغلقتين، وابتسامة غريبة ترتسم على شفيتها.

أما في الخارج، فإن الجماهير سكنت، وابتعد أولئك الذين كانوا يعدّون أنفسهم، ربما يستعيدون أنفاسهم، ويمسحون جروحهم، قبل أن يعودوا إلى احتفالهم المشؤوم، تحت شرفة أخرى، حيث توجد نساء أخريات ليشاهدنهم بفضول، وهنّ يقضن بعض قطع الحلوى.

— إمام حسين.

وفي هذه المرة، لم نعد تجاه هتافات مجد، ولا حرب، بل نحن أمام همس، وارتجاف طويل، مشوب بالاحترام والخوف. وظهرت مجموعة صغيرة من الرجال، وسيوفها مشهّرة. فيسكت الجمهور، بينما كانوا هم يستغرقون في التأمل.

«قصر، أولئك الذين سيموتون...». فتبرز سلمى رأسها. وعلى وجهها علامات الغضب. ترى لماذا تضايقها هذه الجملة؟

وبحركة دقيقة، تضرب السيوف الجماجم، فتجرح فروة الشعر، ويسيل الدم على العيون، والأنف، فيعمي ويخفق. وبصمت ترتفع الأذرع، وتضرب من جديد، فتزداد كمية الدم السائل. فلا يكاد الإنسان يتبيّن من الوجوه شيئاً، غير العينين، اللتين كأنما قد خرجتا من مكانهما أو جحظتا. وانزلق سيف، فذهب بأذن، وأصبحت ثقباً أسود يخرج منه الدم. أما الجماهير المذهولة، فإنها تحبس أنفاسها.

وفي الضربة الثالثة للسيف، انهار رجل، ككتلة لا حياة فيها، والوجه على الأرض، والجمجمة مفلقة.

ويُدوي صفير حاد . فإذا بجماعة من الجنود تشق الصفوف بضربات سياطها . واندفعت ، فجرّدت من السلاح أولئك الناس الخبّلين ، ووضعت القيود في أيديهم ، ودفعتهم إلى عرباتها العسكرية وتحركت هذه قبل أن يفسح المجال للجمهور المندهب ، للقيام بأي رد فعل .

وتعلّق الراي قائلة : كان من الواجب أن يتوقع هؤلاء ما حدث . فقد منعت الحكومة هذه المشاهد ؛ فهناك موتى أكثر مما يجب في كل عام . ولكن ماذا نستطيع أن نمنع ، على أولئك الذين يريدون أن يموتوا .

إن هذه فلسفة لا معنى لها أبداً ، بالنسبة إلى سلمى التي كبا لونها ، واستبدت بها رغبة التقيؤ ، فمضت إلى المبصرة المرسعة .

— أية فكرة غريبة ، أن يختار هذا المساء لكي يدعونا ! أولاً يعرف السير هاري بأن هذا اليوم يوم حزن كبير ؟

وجلست سلمى أمام منضدة زيتها ، فأثقت زيتها ، وعطّرت ثوبها . وكان مزاجها مزاج العصفور : فهذه أولى طلعاتها منذ زواجها ! وسخر أمير من هذه الدعوة ، قائلاً :

— ربما كان هذا نوعاً من المزاج الإنكليزي ... قال هذا وهو يعقد ربطة عنقه للمرة هـ* .

ففي هذا المساء ، اختار أن يلبس لباسه الأوروبي ، ذلك أن الدعوة ليست استقبلاً رسمياً ، بل هي عشاء بين أصدقاء . وهو يشعر بالراحة أكثر ، مع هذا اللباس . وبالمقابل ، فإن سلمى تضع ساريها ، وهو نوع من الحرير الثقيل الأزرق من بيناريس Bénaires أما الغارارا ، مهما تكن فخمة ، فتكون في غير محلها ، لأنها تقليدية أكثر مما يجب ، ولعلها خرجت من دائرة الاستعمال . وفي المدن الكبرى ، أصبح المسلمون المتطورون يهملونها ، لصالح اللباس الهندي ، كاشفين بذلك ، عن أفق واسع ، يقنّده أمير ، من حيث هو رجل حديث ، وعلماني .

ويظهر مسكن الحاكم ، في آخر حديقة كبيرة ، متألّفاً بأنواره . وكان على مدخل الدرج حرس معتمون ، ووجه كل منهم كأنما قد من مرمر قائم ، إنهم يؤلفون سياجاً . وهؤلاء هم السباهي من جيش

* في الرياضيات : الحرف هـ يدل على عدد كبير .

الهند، المنحدرون من أولئك الذين ثاروا عام ١٨٥٧. في هذا المكان نفسه، في لوكنوف، وذبخوا رجال المعسكر الإنكليزي، مشيرين بذلك إلى بدء المعارك التي ألهمت شمالي البلاد كله.

وتساءلت سلمى؛ وهي تتأمل النظرات الخالية من التعبير — بم يفكر هؤلاء؟ ولبن يحضون الولاء؟ وكيف يستطيعون عام ١٩٣٧ أن يخدموا تحت إمرة البريطانيين، والبلاد كلها ملتهبة، تطالب بالاستقلال؟

لكن السير هاري ويغ لا يثير أي شك حول هذه النقطة. ويوضح فكرته وعلى فمه، ابتسامة مأكرة:

— إن هؤلاء الرجال مخلصون لنا. وأصلاً، فإن الهنود رجال مسالمون، وعندما يتقاتلون، فإنهم يفضلون القتال فيما بينهم.

وتندهش سلمى، لأنه ما من رجل بين هؤلاء الحاضرين احتج. بل اكتفوا بالضحك: وهي تشعر بالحجل نيابة عنهم.

وبدأت السهرة بداية حسنة: إذ قدّم الكبد المعجون وخمرة السوترن، وطير التدرج المسقي بخمر البورغواني المسكر. ذلك أن السيد الحاكم يحسن الاستقبال، ثم إنه حسن التصرف مع النساء. إلى أبعد مدى. وكانت سلمى قد نسيت تقريباً، أن مصاحبة الرجال، شيء سار جداً، وخاصة عندما تشتعل في العيون تلك الشرارة الصغيرة، فتشعر من جديد أنها امرأة.

ولكن لماذا بدأ الحضور يتحدثون في السياسة؟ إن السير هاري الذي وجدته منذ قليل رجلاً ذكياً، بل ورائعاً، يبدو لها الآن كثير التفاخم، مفرط الثقة بكفاءته. أو لا نراه يتحدث الآن حول شهر محرم، ويتجرأ أمام هؤلاء الأمراء المسلمين، بنعت الإسلام كله بالتعصب، لا الشيعة وحدها؟

أما الراجا جهراباد الذي يتباهى بأنه يعرف بصورة أرق من أي إيقوسي، المصدر الصحيح لأي نوع من أنواع الويسكي، فإنه لم يكذبه، ولكن ما خطب راجا «ديلواني» ونواب «شاربور»؟ إن هذين «الجنتمانيين» اللذين تمثلتا كل العرّات البريطانية مازالا مع ذلك يلبسان زوجتيهما البرداه التقليدية تماماً. وقد لزما الصمت، ممتعضين، أمام ملاحظة الحاكم السير هاري ويغ.

— وأنت يا أمير، أنت الذي أعتبرك أنا فكرياً عقلاً، ما رأيك في الموضوع؟

— إن شعبنا ما زال جاهلاً، أيها السير، ولهذا فإنه يغالي في التعلق بدينه؛ إذ لا مرجع له غيره ليستند إليه... وأخيراً، أقول إنه لم يكن له من مرجع آخر، حتى هذه السنوات الأخيرة.

وسكت. وأية حاجة هناك، لأن يزيد في الإيضاح؟

ويتجابه الرجلان بالنظرات. فيتردد الحاكم، ثم ينحاز إلى الضحك.

— يا عزيزي، لو أن الذين يطالبون بالاستقلال، كانوا يشبهونك، فلن نتردد في الرحيل، مطمئنين إلى أن بلدينا يقيان صديقين، يشتركان في المصالح نفسها، وفي المثل الأعلى نفسه. أما مع المتطرفين الذين يقودون الآن ما يسمى بالحركة الوطنية، فإن علينا واجب حماية شعبك من نفسه.

وحنى أمير رأسه، حنية خفيفة.

— إن هذا لإفراط في الطيب من جانبك، ياسيدي الحاكم.

ولكن شاباً يجلس في آخر الطاولة كانت سلمى قد لاحظته، لأنه الوحيد الذي يلبس الشرواني. بدأ يتدخل في الحديث.

— أيها السير. لقد أعجبنا بوجوه الحبيطة التي اتخذتها، لمنع المجاهبات الإسلامية الهندية. ولكن هل فكرت بأن عيد الفصح سيأتينا خلال يومين؟ فهل حُدَّت مسيراته بأسلاك شائكة؟ ولقد تكلم الرجل بأكبر الأدب والتهذيب، وبأشد صور البراءة. لكن الحاكم الذي احمر وجهه، أجاب بجفاف:

— ليس لهذا أي دخل في الموضوع.

وتعص سلمى شفيتها. وتنظر إلى الشاب الذي يجلس في آخر الطاولة، وتبتسم له، وتنطلق إلى النقاش، بصوت عذب.

— يا صاحب السعادة. أصبح أن النادمين في إسبانيا، ينزلون إلى الشارع، ويضربون أنفسهم حتى يسيل الدم، احتفالاً بذكرى موت المسيح، كما يحبون هنا ذكرى موت الحسين؟ وبدأ السير هاري يتأثراً، استنكاراً.

— المسألة كلها هي في اللوينات، يا أميرة. وأخشى أنها تخفى عليك، في هذه النقطة.

وكانت تلك طريقة رائعة في إغلاق باب المناقشة. ذلك هو مصدر الدم البريطاني البارد: فلديهم قناعة هائلة بتفوقهم، بحيث لا يشعر أحدهم أنه بحاجة إلى المناقشة. فلو أن الحاضر هنا، أمام الحاكم، فرنسي... — وتفكر سلمى بأولئك الذين عرفتهم في بيروت — إذن لتفجر. ولما كان أقل ثقة من هؤلاء، بنفسه، فلربما قاتل من أجل الإقناع، وربما كان مضحكاً، ولكن ما أكثره قرباً إلى النفس؟

— وكيف رأيتم آخر لعب البولو؟

— البولو... حقاً، لم نكن نفكر به، من حيث انشغالهم بمناقشة التوافه. وفجأة، أخذ الجمع يشارك في الحديث، حتى لقد نسي الحاكم غضبته المزاجية الأخيرة.

وكان العشاء يوشك أن ينتهي. وكالعادة انسحب الرجال إلى قاعة التدخين، وانسحبت النساء إلى البهو الصغير، حيث قدمت الليدي فيوليت البابونج.

وفيما عدا سيدة البيت، ما كانت هنالك امرأة بين هؤلاء النسوة، تعرف من هي هذه الشابة الرائعة، ذات اللهجة الفرنسية، الذي أبدى تجاهها الحاكم أرقى صور الاحترام. وعلى كل حال فقد دعاها «أميرة» وهذا يكفي ليرَوها «ساحرة». ويجب أن ندعوها. فليس لدينا هنا إلا القليل من التسليلات.

وكانت هنالك سيدة صغيرة شقراء، أكثر جرأة أو أكثر فضولاً من غيرها، فغامرت بهذا السؤال:

— أمن زمن بعيد يا أميرة — وكَمْ هي حلوة هذه الكلمة إذا لفظت! — تركبت فرنسا؟

ودهشت سلمى، ونظرت إليها، وأجابت:

— ولكنني لم أذهب قط إلى فرنسا.

وعندما لاحظت دهشتها جميعاً، أضافت قائلة:

— أعتقد أن لهجتي هي التي تحمل على هذا الظن. والحقيقة أنني رُبيت في بيروت.

وتنهدت امرأة وقالت:

— آه، بيروت، إنها باريس الشرق الصغيرة. وحقاً فلقد نجح الفرنسيون بتمدين هذه

المدينة . فلعل أباك ، على الأرجح ، هو أحد كبار الموظفين ، أو هو دبلوماسي ، أو لعله ضابط ؟

وأجابت سلمى ، دون أن تفهم ماذا يعني هذا الحديث .

— أظن أن أبي لم يفعل قط في حياته شيئاً آخر غير الاهتمام بأحصنته .

وصادقت السيدات على قولها هذا ، وقلن : طبعاً ، فهو أمير ...

— إنه ليس إلا داماداً ، ولكن أمي سلطنة .

داماد ، سلطنة ، هنالك شيء غير منسجم في هذا الكلام ، فلعلها تسخر منا ! ...

— وإذن فلست فرنسية ؟

— طبعاً لا ، فأنا تركية .

تركية ! وتتجدد الأفواه ، محتقرة : تركية ! لقد ضحكت علينا تماماً . ولكن أين مضت لتحصل على هذا اللون القيشاني ، فالأتراك أقرب إلى السواد . وهذا معروف . لا ريب إذن أن أمها اقترفت الإثم ، مع واحد من جنودنا ، عندما كنا نحتل استامبول ...

وتصدت امرأة أكثر طيباً من الأخريات ، لإنقاذ هذه الصغيرة المسكينة من هذا الوضع الحرج .

— تريدان أن تقولي إنك تركية من أصل إغريقي ، ومسيحية ؟

— لا ، أبداً ، فأنا تركية مئة بالمئة — وقالت سلمى مستنكرة .

— وجدي هو السلطان مراد .

ولكن هذا لا يؤثر أبداً في الحاضرات . إذ لا يصل أي مسلم ، في رأي هؤلاء البريطانيات البورجوازيات الإنكليزيات ، إلى كعب حذاء أي بريطاني ، حتى ولو كان سلطاناً .

وترق لحالها السيدة الطيبة ، فتقول لها :

— وماذا تفعلين هنا .

— لست هنا وحدي . أنا متزوجة .

— وإذن فيمكن أن تكون ممن يزار . لا بد أن زوجها فرنسي .

— إني متزوجة من راجا بادالبور .

أمزوجة من واحد من السكان المحليين ! طبيعي ، إذن ... هي تركية ... ومسلمة فوق ذلك . فماذا كان يمكن أن تأمل أكثر من هذا ؟ فيدرن إليها ظهورهن . وفجأة ظهرت أشياء شخصية جداً بينهن ، فهن يتحدثن عنها . أما السيدة اللطيفة ، فإنها لم تعد تجرؤ على توجيه الخطاب إليها ، خوفاً من استنكار صديقاتها ، فتعود إلى تطريزها .

وحتى في بيروت ، وفي المدرسة الفرنسية ، لم يحدث قط أن كانت ضحية عرقية صريحة إلى هذه الدرجة ، فكظمت بسمة عندما فكرت بأن نساء الموظفين من نوع هؤلاء ، ما كن ليحلمن ، وهي في استامبول ، بالاقتراب منها . إن هذا حقاً لغريب ...

غريب ؟

وفجأة لم تعد واثقة من ذلك إلى هذه الدرجة . وكان من حظها أنها رُئيت في المستوى اللائق بمكانتها ، وبعرقها . ولكن ماذا سيكون من شأن هؤلاء الذين أدخل في روعهم ، جيلاً بعد جيل ، أنهم متخلفون ؟ هؤلاء الذين أقنعوا بأن لون بشرتهم ، وعقيدتهم ، وصورة حياتهم المختلفة ، كانت تجعل منهم أناساً دون مستوى البشر ؟

ولم تعد بسلمي رغبة في الضحك . فحتى الآن كان الأوروبي ، ذلك الخصم الذي نحاربه بأسلحة متكافئة ، أو متكافئة تقريباً . أما أننا غلبنا على أمرنا ، فذلك أمر يتعلق بأمر مشخّصة ، قابلة للقياس — كأن تكون عُذُّدُنَا (أو عِدَّتُنَا) أقل ، وتجهيزاتنا أدنى ، واقتصادنا خراباً ، أو أن نكون قد ارتكبنا أخطاء استراتيجية ، أو سياسية . أما خلال هذه السهرة ، فقد اكتشفت العار ، والفضيحة الكبرى : فهناك شعب يخضع ، لأنه ، في أعماق نفسه ، مقتنع بأنه أدنى ، حتى ولو أعلن العكس ، شعب يقول إنه يريد الاستقلال ، ولكنه أضاع روحه ، ولم يعد يطمح لشيء آخر غير التشبه بالسادة الذي يدعي أنه يريد التخلص منهم .

إنها تحتقرهم جميعاً : « أمير » وزملاءه ، الذين تشبهوا بالبريطانيين ، والسير هاري الذي يشرفهم بمودته ، والليدي فيوليت التي تريد ، في هذه اللحظة ، أن تكلمها ، كرمأ منها ونبلاً . وما من مرة شعرت بمثل هذه الكراهية .

ويقول لها أمير ، في السيارة التي أقلتَهما إلى القصر .

— انتبهي ، يا عزيزتي ، لقد ابتسمت لهذا الشاب الهندي ، وبكل براءة . وأنا أعرف ذلك .
ولكنك لا تعرفين هؤلاء الناس ، فقد يقدرّون وراء ذلك أشياء .
هؤلاء الناس ...

ولم تحدث مشاجرات في لوكنوف ، لدى قيام مهرجان هولي Holi وبالمقابل فإنها كثرت في المدن والقرى المجاورة : ففي « باتنا » و « باريلي » و « راتنا غاري » ، وفي كل مكان آخر ، تجابهت الطائفتان ؛ هنا لأن عازفاً هندياً عزف بقيثارته وطنبوره أمام الجامع ، في اللحظة التي كان فيها المؤمنون يصلّون ، وهناك ، لأن شباناً متحمسين في عيد الربيع ، رشوا التازيات بالألوان . أما الحادث الأخطر فقد وقع قرب أورانغاباد ، عندما قام ثمانية هندي مسلحون بالعصي والمداري ، بمحاصرة قرية مسلمة ، حيث ضحّى القوم بثور على شرف أعياد محرم . وقد أنقذت القرية في آخر لحظة على يد الشرطة . ولكن عشرين رجلاً جرحوا أو قتلوا . ويدين الرأي العام المسلم نهرو بهذا ، لأنه صرّح أنه « لا يستطيع احتمال المرور أمام مسلخ ، وهو يدعم جميع الذين وجدوا ذلك أمراً مخيفاً » وهو كذلك يتهم غاندي نفسه لأنه لم يقل شيئاً ، كما لو أنه لا يدعو إلى ترك العنف ، إلا أمام الإنكليز .

فمن الطرفين تزداد الضغائن ، والتعصب ينمو ويزداد .



ها هو النهار قد أدبر إلا قليلاً، والشمس الموشكة على المغيب تذهّب ماء البحيرات . وهذه سلمى متمددة على الرخام الأبيض، لتسعد بلحظات الجو اللطيفة . ولم تعد الخادّات بعد الآن لتزعجها في هذه الحديقة الداخلية، الأخيرة بعد أفنية النساء . فجعلت لنفسها منها معبداً . فهنا تحلم، وهنا تبكي، وأحياناً تكتب الرسائل إلى أمها، تتحدث لها فيها عن سعادتها .

واليوم، هو الذكرى الشهيرة لزواجها: فلقد مضى شهران، شهران فقط! ... وعندما أخذت الكآبة تستبدّ بها، انتصبت واقفة . لتساءل فجأة عما تعمله هنا، وما تعمل بحياتها ... هنالك شاي ... ثم شاي . وعشرات من النساء اللطيفات، ممن لا ترغب في أن تحدثهن بشيء، وهناك بسمة زهراء، ولعبة الورق مع الراني، ثم ... أمير، أمير في النهار، وأمير في الليل، هذا الراجا المغربي، الجنتلمان الكامل، المنشغل بالسياسة، وإدارة شؤون دولته، وهذا الجسم القاتم، الصامت، الشره، اللامبالي ... فمنذ صدمة الليلة الأولى تعوّدت، تلك الكلمة الفظيعة ... ولكن ماذا تستطيع أن تفعل، إذا كان زوجها أصماً، وأخرساً، وأعمى .

وها هي تسمع وقع خطوات على البلاط . من يجرؤ ؟

— آه زينيل، يا زينيل الطيب، لم هذه السحنة الحزينة ؟

— اهم، يا أميرة . فالسلطانة وحدها في بيروت ... وصحتها ..

مسكين هذا الزينيل . كم هو قلق ! إن لدى الأيندجيم ، كالفاتين تحيطانها بكل حب ، ولكن منذ بدأ مرضها ، أصبحت وكأنها ولده . لكن المرأة الشابة لا تملك أن تكبت رغبتها في مناكاته .

— أتريد أن تتخلى عني ؟ ألم تعد تحب سلماك ؟

فيحمر خجلاً ، ويعض شفتيه . فتأسف هي .

— ولكن لم أنت هكذا ، كنت أمزح . فأنا أيضاً أريد أن تعود إلى بيروت . وأكون أكثر اطمئناناً إذا عرفت أنك بقرب أمي .

فينظر إليها ، ويبدو وكأنه يائس .

— ولكن أنت ، يا أميرة ؟

— كيف أنا ، أيها العجوز المغرور ؟ أتظن إذن أنه لا يستغنى عنك ؟

وضحكت ضحكة كأنها خارجة من حنجرتها .

— أفلا ترى كم أنا محاطة ، ومدللة . فقل لأيندجيم أي زوجة تغمرها السعادة .

فتدمع عينا زينيل .

— عديني إذن ، أنه إذا حدث ما لا يرضيك ، أن تعلميني به ، عندئذ سأعود مباشرة .

— أعدك . ولكن توقف عن تعذيب نفسك ، وإلا فإنني سأستاء . وعندما أستاء ... أوه ،

زينيل ، إنك تتذكر غضباتي عندما كنت صغيرة . كنت تقول : إن أنفي يتناول ، وإنني أوشك أن أشبه السلطان عبد الحميد ... كان ذلك جذرياً ، وكنت أهدأ ... تعال ، واجلس بجانبني ، وقل لي : هل تظن أننا سنعود فيرى كل منا الآخر في استامبول ؟

فيسكت . وهو يعرف أنها لا تنتظر جواباً ، وأنها بحاجة فقط إلى من يشاظرها ذكرياتها . وهو هنا الشخص الوحيد الذي يربطها بالماضي . ولهذا فإنه سيكون عسيراً عليها ألا تفتقده . ولهذا ، أيضاً ، فإن من الأفضل أن يسافر .

— كنت على وشك أن أنسى . إن السيدة غزاوي تريد أن تكلمك .

— هل تريد هي أيضاً ، أن تسافر .. لها الحق ، فليس لديها هنا ماتعمله .

ذلك أن اللبنانية أتعبت سلمى بنقدها، وشكاواها المتابعة. ومنذ أن أنبتها زهرة تأنياً صريحاً، على أنها تزرع الشقاق، لجأت إلى الحرد. والحق أن سلمى تريد أن تبقى وحدها. فحياتها هي هنا منذ الآن. وهي تدع الحنين للضعفاء والأغبياء. وهي تريد أن تناضل؛ فهناك الكثير مما يجب عمله في هذا البلد، والكثير مما يجب عمله للشعب. وماذا يهم أن تكون هنالك الراي عزيزة. فالراي، الآن، هي هي.

وكاد أن يفوتهما القطار. فهناك حقبة ضاعت، ثم وجدت، في آخر لحظة، فلم تتح المجال للكثير من البوح العاطفي. وهاهما الآن مستقران في عربة القطار. وتقف سلمى في حَرّ مايو الخانق على الرصيف، وقفة مستقيمة، وتبتسم لهما. ولم يفهم أمير لماذا شعرت زوجته بالحاجة إلى مرافقة «خدمها» إلى المحطة. مسكين أمير!

— إلى اللقاء يا أميري...

ومن النافذة، كان زينيل وعيناه منتفختان من كثرة البكاء، يهز منديله. وينطلق القطار، ويزداد سرعة. «إلى اللقاء، إلى اللقاء!» وكانت حنجرة سلمى منقبضة، فهل انقبضت لأنها سافرا، أو لأنها لم تسافر...؟

— لا تكوني حزينة، فلديك هنا أصدقاء.

وأخذت اليبجوم ياسمين يدها، وضغطت عليها برقة. فالتفت سلمى، وكانت قد نسيتها، مع أنها استطاعت الذهاب، إلى المحطة، بواسطتها. وهي التي حملت زوجها على إقناع الراجا.

— إني أفهم ما تعانیه من الاضطراب. فكل شيء هنا هو حديد جداً بالنسبة إليك. وأمير طيب جداً، ولكن طبعه ليس بليّن. تعالي لعندي كلما شعرت بالوحدة، فأسعد أنا بزيارتك. وتفكر سلمى: «كم هي مخلصه. والغريب أنها، في البداية، لم تكن توحى بأدنى ثقة».

وفي الأيام التالية، ستكثر سلمى من زياراتها لليبجوم ياسمين، لفلة مالديها من الأعمال، في البداية، ثم لأنها وجدت المسرة في هذه الزيارات. فالجو لديها لا يشكو من توترات القصر، ولا تنقصه المتعة.

والبيجوم، ذكية، وطَّلعة. وقد عرفت كيف تجمع حولها، دون أن تهتم بالمرتبة الاجتماعية، عدداً من السيدات المثقفات. وهي نفسها لا تنتسب إلى الطبقة الأرستقراطية، ولكن إلى أسرة من الجامعيين والكتاب المشاهير، وزوجها هو المحامي الأول في لوكنوف، بلا منازع. وقد حَصَّل ثروته بجهده الشخصي. واليوم تتمتع هذه الأسرة بثروة ضخمة. وكل ما في بيتهم الأنيق من أُنُشَاء كبيرة أو صغيرة يبرهن على ذلك. ولكن على الطريقة الحديثة، الموفرة لشروط الراحة، لبورجوازية لا يعينها أن تنقيد بقيود الماضي. ولولا أن البيجوم تضع البرداه على جسمها — ولا يأتيها إلا النساء، فإن في وسع سلمى أن تظن وهي عندها، أنها في بيروت.

ولقد سعد أمير بهذه الصداقة الجديدة. فامرأته الشابة بدأت تتلاءم، وتنسجم مع الناس، وتتلاءم مع العادات. وقد أصبح هو نفسه، في هذه الأيام مشغولاً عن زوجته، لأن شؤون الدولة، تستغرق القسم الأكبر من وقته.

ورغبة من حزب المؤتمر بكسب أصوات الفلاحين، فإنه بالفعل قد قام بإثارتهم على الأمراء، الذين صوَّروهم كأعداء للإستقلال. وقد كَثَّف المؤتمر دعايته في المحافظات التي تقف طبقتها الحاكمة، المسلمة في أكثريتها، ضد السياسة التي تعتبرها خطيرة، لقيامها على الديانة الهندية، أو النزعة الهندية، وتؤيد بنوع من ردِّ الفعل، سياسة الرابطة الإسلامية بزعامة محمد علي جناح.

ولقد تمرَّد فلاحون كثيرون على حكامهم، وأبوا دفع الضرائب. بل لقد نهبوا في المقاطعة المجاورة لبادالبور، احتياطي القمح. أما بادالبور، نفسها، فتبدو، في الوقت الحاضر، على الأقل هادئة. لكن الشرطة السرية التي تعمل لحساب الراجا، أخبرت، أن مجهولين قاموا، في القرى، بعقد اجتماعات سرية.

وتندش سلمى التي انتهى زوجها إلى البوح لها بهوميه، وتقول له:

— لماذا لا تذهب أنت نفسك لتحكم على الموقف، وتحدث مع الفلاحين؟

وكان ردُّه الضحك من مثل هذه السذاجة أو البراءة. وعَلَّق قائلاً:

— أتكلّم مع الفلاحين؟ ولكن لأقول ماذا؟ بأنهم يلعبون بهم؟ إنهم لن يصدقوني. وقد يقضي هذا على التوازن الذي لا يزال قائماً، وربما أبرهن لهم على أنني قلق. وفي الحال سيسفيدون من ذلك: فالناس الأكثر انقياداً وخضوعاً، يصبحون وحوشاً إذا كشف السيد عن بعض الضعف. وكنت أظن أن تاريخ الأمبراطورية العثمانية، قد علّمك ذلك.

— إنه علّمني، بشكل خاص، أنه لو كان السلطان أقرب إلى الشعب، فإن هذا الأخير لم يكن ليسمح لأمثال مصطفى كمال بالتمرد عليه، وسلب عرشه منه... وأنا أخشى أن تكرر هنا نفس الخطأ!

ومحركة رقيقة، غير منتظرة، انحنى أمير على سلمى وقال:

— إنك ترين أي طاغية، أليس كذلك؟ ومع هذا، فقد كنت أكثر متالية منك، من قبل...

وقد يكون مما لا بدّ منه أن تقع حوادث أكبر خطورة من بعض الاضطرابات المهنية، أو بعض التمردات الفلاحية... أي حوادث لا يمكن أن نتخيلها سلفاً، حتى تعدل لوكنوف عن حياة المرح. وهذا الظرف، الآن، هو موسم معارك الطائرات الورقية. فمنذ أسبوعين تجري معركة عنيفة تستهوي المدينة كلها. فمما من أسرة أميرية، ولا بيت أرستقراطي، لا يشاركان فيها. ولوكنوف معروفة بهذه المبارزات التي تدوم أحياناً عدة أشهر، والناس يأتونها من بعيد لمشاهدتها.

وفي شرفة الهجوم ياتمين المغطاة بسجاد من خراسان، يدور نقاش حاد بين نساء، يراقبن السماء. ومما من مرة رأتهن سلمى في مثل هذه الحماسة. فيُري بعضهن البعض الآخر «طيارة» راجاه مهران المطرزة بهذب من الذهب الخالص، ومزينة بقطع نقدية من ذات العشر روبيات: والإنسان الذي يصل إليها، يحفظها عنده؛ وهذه هي القاعدة. ولقد أضاع عدة مئات من نوعها في هذا الموسم. ولما كانت مزينة بهذه الصورة، فلا ريب أنها تكون أثقل من غيرها. وليست طياراته لكي تريح، بل لكي تكون الأجل أمام عيون المدينة التي تفهم من ذلك درجة غناه، ومستوى كرمه.

وقالت إحدى النساء: «يقال إن الرجل قد أشرف على الإفلاس تقريباً، وأنه سينتهي كما انتهى النواب يوسف علي خان».

يوسف علي خان! لقد دخل هذا الرجل في الأسطورة منذ أن قام، قبل خمس عشرة سنة، ببيع ثمان وأربعين قرية، ليتابع الإنفاق على اصطبله: وكان يملك مئة ألف «طيارة» وكان في كل عام يتحدّى لوكنوف كلها ليأتي منها من يحاربه هو وحده. ولقد استمرت أعظم مباراة له ستة أشهر. وكان قد خطر بباله أن يربط بذنب «طياراته» مصاييح صغيرة كيلا يكون عليها أن تتوقف في

الليل . ولقد أورث ابنه ديوناً كثيرة كما أورثه هوايته ذاتها : فهو يشارك في كل المباريات ، ويحتل فيها مكاناً بارزاً . ولكن أصدقاءه الصميمين يقولون إنه لا يفعل ما يفعل إلا على سبيل الاحترام لأبيه ، حتى لا يقال بأنه يتنكر له . ولقد تزوج واحدة من بنات عمه . وهي عنية جداً ، لكنه في سبيله إلى أن يبذّر ثروتها .

وكثيرون أولئك الذي بدّدوا أموالهم في هذه اللعبة . ذلك أن إنشاء « طيارة » عظيمة إلى هذه الدرجة يكلف أموالاً طائلة . وعلى الرغم من أن الدين الإسلامي يحرم الرهان ، فإن الناس يراهنون على أموال طائلة . أما هؤلاء الذين يفلسون في هذه المراهقات فإنهم يقبلون ذلك بصورة فلسفية ، ذلك أنهم متى كسبوا الشعبية والاحترام ، فسيظلون مكرّمين مبجلين طيلة حياتهم ، في أرفع الأوساط مقاماً في المدينة .

وتفكر سلمى : « إن هذا ليبدو وكأنه سخف مضحك » ومع ذلك فإنها لا تملك دفع الإغراء الذي يداخلها بمنظر هذه الطيور الكبيرة ، الملونة ، التي تتحرك في السماء بهذه النعومة ، ثم تنقض فجأة على الخصم ، وبحركة ماهرة تقطع الجبال التي تصله بالأرض . وتجذ من يشرح لها أن فن إنشاء الطائرات قد تطوّر : فلم تعد الطائرات أمتن وأخف فقط ، عاماً بعد عام ، بل إن الجبل أصبح أخطر بكثير مما كان ، وأقتل لمن يريد قطعه . إذ يغمسونه في بياض البيض ، وتوضع فيه قطع صغيرة من الزجاج ، ذات أطراف حادة ، كشفرات الخلاقة ، مؤذية بشكل مخيف .

— وقدماً ، كان الناس يكتفون بتطير طائراتهم ، كما تقول البيجوم ، وكانت غايتهم الوحيدة هي الجمال . وكان منها ما يحمل صورة بعض المشاهير . وكان الهنود ، بصورة خاصة ، يحبون أن يُصوِّروا عليها آلهتهم . ثم جاءت موضة (درجة) المعركة ، من دلهي ، وتبينناها نحن . وأرجح الظن أن ذلك حدث ، لأن هذه المعارك هي الوحيدة التي يمكننا القيام بها .

وكانت المجموعة الموجودة من النساء اليوم مختلفة عن تلك التي تعودت أن تراها عندها . وهي تتألف من بنات ونساء الطبقة النبيلة من الأود . وتعجب سلمى من أن تكون للبيجوم كل هذه الشعبية في أوساط مختلفة جداً . ويقول أمير إنها ديبلوماسية ممتازة ، وعون رائع لزوجها ، ويقول ... ولكن كيف يعرف ذلك ؟ وعندما طرحت سلمى هذا السؤال عليه ، ضحك .

— إن الهاتف ، يا عزيزتي ، آلة شيطانية يدينها مولويونا ، وتأتى النساء المتدينات حقاً ، استخدامها . وهنّ على حق ، على الأرجح . وقد يدل الصوت أحياناً على أكثر مما يشير إليه الوجه ، وربما جعل الإنسان يحلم ... فلا تغضبي ، ولا تستائي ، ذلك أن علاقتي مع صوت البيجوم ليست

إلا علاقات مهنية ... وكما تعرفين، فإنني على اتصال دائم بزوجها، لا لأنه أفضل أصدقائي وأحسنهم، بل لأنه كذلك مستشاري القانوني.

وطبيعي أن سلمى تعرف هذا. ومع ذلك فإنها تشعر بشيء من الغيرة. فمن بين هؤلاء النساء اللواتي يضعن البرداه، من لها من القوة والتأثير ما يحسدنها عليه الكثيرات من الأوروبيات. وأزواج هؤلاء ممن يشاركون في الحياة العامة بنشاط، وتألّق، ويتخذون قرارات هامة، والحقيقة أن نساءهم هن اللواتي يناورن، ويحركن. ولما كنّ خصوصاً مجهولات مختبئات وراء الحجاب، فإن ذلك يزيدهن نجماً وتأثيراً. إن تعطشن للسلطة هائل، وذلك لأنهن يعتنن في حلم، مامن حقيقة تعترضه. وأزواجهن ليسوا إلا الأدوات الطيّعة التي تسمح لهن بالسيطرة على العالم.

وقد جاء من يحمل إلى البيجوم علبة فضية، مطعّمة بالذهب. وهذه هي علبة البان Pân، أي الأداة التي لا يستغني عنها أي بيت هندي. وهي مقسّمة إلى علبات عديدة توضع فيها كل المواد الضرورية لتحضير هذه الحلوى الوطنية. والهنود لا يستغنون عنها. ويوجد من يدّعي أنه إذا أراد الإنكليز حقاً شلّ الحركة المطالبة بالاستقلال، فليس عليهم إلا أن يقضوا على حقول التبّول betel : وخلال أربع وعشرين ساعة بعد ذلك سيستسلم الشعب كله.

ولم تفهم سلمى قط ما في هذا النبات الليفي والمر، من إغراء. وهي تنظر إلى الراني عندما تختار بعناية أوراق هذا النبات الأكثر خضرة، وتدهنها بشيء من الكلس، ثم بالكثا Katha، وهي معجون نباتي يُستمدّ من قشرة تعطي للبان لونه الأحمر، ومرارته العظمى، وتضيف بعض قطع نويات الببتل (التبّول)، وقبضة من التبغ، وحبّتين من الهال، وشيئاً من الأفيون، فيما يرى بعضهن، وأخيراً تطوي ورقة التبّول، على صورة مخروط كامل، تقدمه بأصابعها المرفهة، للمدعوات، التي تود تكريمهن بشكل خاص.

إن مضغ البان عادة ترجع في أصولها إلى الهند القديمة، ولكن لم تعرف شهرتها الكبرى إلا في بلاط ملوك المغول، على الأرجح. وعندما كان يريد السلطان أن يعرب عن تقديره للخدمات المؤداة له، كان يقدّم وريقات التبّول، بالإضافة إلى هدايا أخرى فخمة.

لكن سلمى تفضل الهوكاه Hookah. فتستند إلى أرائكها، وتتمتع بلحظات غريبة ولذيذة. وما من مكان غير لوكنوف، دتخت فيه مستحضراً في مثل هذه العظمة. إذ ليس التبغ مخلوطاً بتفل قصب السكر فحسب، مما يعطيه طعماً قريباً بعض الشيء من طعم العسل، بل إنه يخلط بعد ذلك بهارات وعطورات مختلفة، يحتفظ معلمو (الكار) بأسرارها.

وتنظر سلمى ، من خلال جفونها المغمضة نسبياً ، إلى النساء المتحدّدات قريباً منها . وقد أرغمن الحر على خلع أكثر ملابسهن . وبعضهن رائعات . فيمشطن شعورهن الطويلة المزينة ، وتدلّ كل مهن الأخرى ، سيقاناً ، وأذرعاً وأكتافاً ، بالحرية التي يبيعها غياب أنظار الرجال . ويتأزحن ، ويتادلن مسارات سعيدة .

وهناك امرأة شابة ، تجلس لوحدها بعيدة قليلاً عنهن ، فتراقبن ، مستمتعة . ولها لون بشرة أبيض ، وعيناها فاتحتان . ويقال لسلمى ، إن هذه هي الزوجة الجديدة لراجاه خامبور الذي اختارها لجمالها ، على الرغم من أنها ليست من أسر الأمراء . ويضفن إلى ذلك ، مع تكشيرة خاصة ، أن أمها إنكليزية . وعندما التقت نظراتها بنظرات سلمى نهضت وجلست بجانبها . وقالت لها :

— كنت أشتهي أن ألقاك . فكيف تشعرين بحالك هنا ؟ ألسنت شديدة الضيق بغربتك ؟

وفوراً تتعاطف سلمى مع هذه الراي الصبيّة ، لأن لها وجهاً محبباً ، طلقاً ، وكذلك ، لأن الأخرى يتجاهلنها ، على الأرجح . وتشتي سلمى أن تسألها عما إذا كانت تلقى بعض العناء من كون أمها إنكليزية ، وعما إذا كانت لا تشعر بأنها مقسّمة بين أصليها : ولكن التجربة علمتها أن الحساسيات العرقية في الهند ، عنيفة . وهي تخشى أن تجرحها .

— يجب أن تأتي لعندنا . سترين حماتي وهي امرأة خارقة للعادة ، هاوية سياسة ، وإحدى كبريات المعجبات بمحمد علي جناح ، والرابطة الإسلامية . وهي لاتضيع وقتها في اجتماعات من هذا النوع ، وتقول ، إن لنا ، نحن معاشر النساء دوراً يجب أن نلعبه في مستقبل هذه البلاد .

وتسأل سلمى :

— ألا تحتفظ بالبراه ؟

— بلى ، بطبيعة الحال . وماهي أهمية ذلك ؟

وسلمى لاتفهم . إن الهجوم قد قالت لها الشيء نفسه ، في آخر مرة . وهاهي قادمة .

— أهكذا ، يا صديقتي السيئة ، تستولين على ضيفة الشرف عندي ! تعالي إذن واجلسي بجانبني ، يا أميرة !

ويبرز شيء من الاستياء ، من وراء اللهجة المحبّة . ترى هل هي غيري ؟

وبدا الليل يهبط . وتحمل الخادومات مصباح الزيت ، ويَضَعْنَ الصواني الكبيرة من أجل العشاء . وتبدو « الطائرات » في السماء ، كأنها كرات من النار .

— انظري ، كم هو جميل هذا المنظر !

وتلف يدا البيجوم خصر سلمى ، من فرط الهيجان :

— انظري إلى هذه الطائرة الصغيرة ، كم هي سريعة . وأرى أنها ستقضي حتماً على هذه الكبيرة . ها قد حصل . ولقد سبق أن قلته لك !

وكانت ترتعش حماساً . لكن سلمى المذهولة ، تحاول برقة أن تتخلص منها . ولكن البيجوم تشدد قبضتها عليها ، وهي لا تريد أن تسيء إليها . وهي تلوم نفسها ، في أعماقها ، على هذا الضيق : فهل أثرت تربية الراهبات ، وجعلت هذه المخاصرات غير طبيعية بالنسبة إليها ، أو معيبة ؟ ومن الجهة الأخرى ، فهي ترى أن هذه الحرية طبيعية جداً ، وكذلك الحركات الناعمة المتبادلة بين النساء ، بلا خلفيات مقلقة ، بل إن هذا هو الأسلم نفسياً ! لقد أفسدت المسيحية حقاً كل شيء . وفي الإسلام لا حجل من الجسم . إذ إن معنى الخجل يضمّر الإساءة للخالق ...

ونهضت البيجوم ، بخفتها المعهودة ، لكي تهتم بضيفاتها الأخريات . وخجلت سلمى من أنها شكت ، ولو للحظة ، في نقاء صداقتهما .

اركضي يا أحصنتي الجميلة ، أسرعي ، وأسرعني أكثر !

وكانت العربة الأنيقة تجري في ممرات قيصر باغ ، خلال الحدائق المزهرة ، والقصور النائمة في خدر ساعات القيلولة . أسرعي ، فما من شيء نقوم به ، غير تنفس الهواء ، من خلال النوافذ . والساعة ليست فوق الرابعة ، وما بعد الظهر سيطول . وسلمى ذاهبة إلى أميناباد ، لتختار فيه باقات الورد . لأنها هنا هي الأنضر عوداً .

ودخلت العربة من الباب الغربي ، إلى أزقة المدينة القديمة وكانت الخيل تمشي مشية بطيئة ، متجنباً الباعة الصغار الجالسين القرفصاء بين سلال فواكههم ، والأبقار النائمة بكل عظمتها على قارعة الطريق . وإلى جانب هذا كله ، هنالك أطفال نصف عراة يلعبون ، جارين بين الدواليب . وسوق أميناباد ، ساحة واسعة ، محاطة ببيوت ذات لون أصفر ، منمّقة ، تحملها أقواس ،

تحتمي بها مئات من الدكاكين . وهذا هو المركز التجاري الأول للمدينة ، والأحفل بالزبائن ، والأكثر بضائع ، إذا نحن استثنينا ، بطبيعة الحال ، سوق هازير غانج ، حيث توجد المخازن الأنيقة ، التي تباع البضائع المستوردة ، ولا يزورها إلا الإنكليز . وتحب سلمى التجول في أرجائها ، والانتقال من دكان إلى دكان ، والنظر فيما تراه ، وقد تطلب أن ترى بعض الحاجات ، فيأتي لها صاحبها ، ويضعها أمامها . ويحدث أحياناً ألا تشتري منها شيئاً . وما من أحد ينزعج من ذلك . تلك هي العادة هنا . فالزبائن من النساء ، هن طبع متقلب . وهذا حق معترف به . ويسعد التجار الكبار أن يبرزوا مواهبهم ، أمام وجه بهذا البياض .

ذلك أنه إذا كانت سلمى قد قبلت أخيراً بالبركة (البرقع في الأصل) فإنها متى دارت في زاوية القصر ، تراها وقد حَلَّت الأشرطة ، ورفعت الحجاب ، فتحولت الخيمة المخيفة السوداء إلى ثوب طويل ، الحقيقة أنه أنيق . أما الخادمة التي ترافقها في زياراتها ، فإنها شديدة الحذر من أن تقول كلمة واحدة حول ذلك ، لأنها تعرف أنها ستسرح فوراً . ولقد اختارتها سلمى لخدمتها الشخصية ، لأنها كانت جديدة ، وغير واقعة تحت تأثير الرائي عزيزة . وما من شيء قيل بينهما . ولكن الأميرة تغدق عليها الكثير من الهدايا الصغيرة .

ولا يوجد في السوق اليوم زوار كثيرون . ونصف الدكاكين مغلق . وكانت سلمى لا تعرف أن هذا اليوم يوم عيد . فشهر محرم لا ينتهي إلا غداً . وكان هنالك ، في حديقة غير بعيدة عن الجامع ، رجل يخطب ، محاطاً بمجموعة كثيفة من الناس ، مشدودة الانتباه إليه .

وفجأة ، وفي الطرف الآخر من الساحة ، دوت بعض الصرخات . وظهر بعدها حوالي المئة من المسلحين بالعصي والهاويات . وعلت أصواتهم ، وقلبوا معروضات الدكاكين ، وبدأوا يضربون بصورة عمياء من يلقونه من كهول ، ونساء ، وأطفال . أما في الحديقة الصغيرة فقد وقف أفراد المجموعة . وانتظمو بهدوء ، وانتظروا الهجوم .

— هوزور ، أسرع وتعال .

وشدَّ السائق المرعوب سيدته من الكم . ونظرت سلمى حولها ، فوجدت أنهم وحيدون . ففي بضع ثوان خلت الساحة ممن فيها ، وأرخت أصحاب الدكاكين ستائر دكاكينهم . وبسرعة ، دخلت الأميرة في العربة . وكان ذلك في الوقت المناسب . لأن الحجارة بدأت تتطاير ، وسمع الناس بعض الطلقات . فخافت الأحصنة وعلا صراخ السائق ، وبدأ يضرب أحصنته بالسوط . ومن خلال

النافذة الصغيرة المشبكة رأت سلمى بعض البيوت تحترق، وأناساً يركضون في كل الاتجاهات، كما لو أنهم أصيبوا بالجنون. وماهي إلا ثوان، حتى تحولت السوق، إلى ساحة قتال.

واندفعت الأحصنة، وعلى أفواهها الزبد، ولم يُعَد في وسع السائق أن يضبط حركتها. أما في الطرق، فإن المارة الخائفين، يرتدون إلى جدران البيوت ويحتمون بها. وأما سلمى فإنها تغلق عينيها، وتنتظر الأسوأ. وأخيراً توقفت العربة، وظهر من النافذة وجه السائق، ولكنه شاحب اللون، يتصبب منه العرق. ومن الزاوية الأخرى، كانت الخادمة تشهق من البكاء. فإذا كنا نريد تجنب الأسئلة واللوم، فسيكون من الأفضل ألا نعود إلى القصر في هذه الحال.

— لنمض إلى بيت البيجوم. فبيتها ليس بعيداً. ولكن قل لي يا أحمد علي، من ذا الذي هجم، الإسلام أو الهندو؟

— إنهم المسلمون هوزور، كلهم مسلمون. ولم يكن هالك هندو.

فاستاءت سلمى، وأعادت سؤالها. وعندها أن هذا الرجل اشتد خوفاً، فلم يعد يعرف ماذا يقول.

— إنهم مسلمون، وأؤكد لك، هوزور، ولكنهم ليسوا بمؤمنين حقاً. وهالإنهم يقتتلون منذ يومين في حارات تشوك القديمة، ولكنني لم أقدر قط أنهم سيصلون حتى إلى أميناباد، القرية جداً من القصور.

— ولكن لِمَ يقتتلون؟

— إنهم السنة الذين بدأوا، فقد هاجموا مظاهرة دينية شيعية، مدّعين أنها تشتم حضرة عمر، الخليفة الثاني. ووقع على ما يظهر، حوالي عشرين قتلاً، ومئات من الجرحى. فهم لم يوفروا لا النساء، ولا الأطفال. وقد أحرق قسم من تشوك^(١)... وبطبيعة الحال، فإن الشيعة لم يسكتوا! وفي الوقت الحاضر، فإن حي تشوك لا يسمح فيه بالدخول والخروج. ولكن ما من أحد يعرف لماذا تأخر تدخل الشرطة إلى هذه الدرجة...

(١) التشوك: حي من أحياء لوكنوف الشعبية.

وحزنت سلمى حزناً عميقاً، والتفت على نفسها في زاوية العربة، كما لو أن المجاهبات بين الهنود والإنكليز، وبين الهنود والمسلمين، لم تكن كافية. فلتقم الحرب إذن بين المسلمين والمسلمين. ولم يكن ينقصنا إلا هذا.

وفي هذه الفترة الأخيرة من العصر، كان صالون ييجوم يأسمين على درجة متميزة من النشاط. ذلك أن الصحف أشارت إلى النتيجة التي اقترنت بها رواية حب، كانت منذ أشهر، من شرق الأمبراطورية إلى غربها، تغذي كل المحادثات، وتوقع الخلاف بين الأصدقاء، وتقسم أفراد كل أسرة، وتحمل على البكاء، والحلم، والحماسة، والاستنكار حول ما يتصل بهذه الشجاعة، أو ذلك الجبن، أو ذلك الاحترام لما هو أنبل شيء في الإنسان، ولما هو إساءة لله وللواجب: وهي تنازل إدوار الثامن، الملك — الأمبراطور عن عرشه، إكراماً لعيني امرأة أمريكية طلقت مرتين، وقراره النهائي بالزواج منها «في جو خالص الصميمية» يوم ٣ حزيران في قصر كاندي Candé، في فرنسا.

وعندما دخلت سلمى، كانت هنالك امرأة بضّة تشرح أن الحب... الحب! «وماذا تعلم عن الحب؟» وجلست من هذا الجمع، على طرف بعيد بعض الشيء، مهتاجة، ويدهشها أن ترى هؤلاء الهنديات يبدن اهتماماً وتعاطفاً مع الحياة الخاصة، لأسرة، مازالت منذ مئة وخمسين سنة، لا تملك زمام الأمر في بلدهم فقط، بل تقيم جيشاً، يوقف، ويسجن، وأحياناً يقتل من يتصدى لسيطرتهم.

وفي هذه الأيام الأخيرة، وعلى حين أن مجاهبات دامية تقوم بين الهندوس والمسلمين، فإن الموضوع الرئيسي للمناقشات، كان يظل يدور حول علاقات الحب الإنكليزية، وكانت سلمى تستنكر ذلك أشد الاستنكار، ولكنها تسكت، أدياً منها. أما اليوم، فقد أفرط القوم، فتنفجر: — وماذا يهْمنا من هذه التفاهات! فانظرن إلى ماحولكم، وفي مدينتكم، وتحت نوافذكم: فالناس يقتتلون فيما بينهم، وأنا عائدة من أميناباد، حيث كنت أكاد أشنق.

وتخونها أعصابها فجأة. وهي تكاد تختنق، فتحيطها النسوة من كل جانب، وتوثى بالماء البارد، والأملاح... وتندesh النسوة، ويستنكرن. إذ إن مثل هذا الأمر لم يحدث منذ ثلاثين سنة، أو منذ منعت في عام ١٩٠٨ القراءة العامة لتاريخ الصحابة، وهي نصوص سنية، تحكي فضائل ومزايا الخلفاء الأول، «مما تعتبره الطائفة الشيعية إساءة لشهادتها، وترد عليه بقراءة التبراة Tabarrah التي توضح أن هؤلاء الخلفاء كانوا مغتصبين» ولكن ماذا يجري الآن؟ ولِمَ هذه الاضطرابات من جديد؟

غير أن البيجوم يسمين تنظر إلى راني خامبور الجديدة نظرة قاسية ، وتقول :

— وهذه لعبة أخرى للإنكليز ، على ما أفترض : وهي أن يثيروا الانقسامات بين الهنود لكي يقولوا لنا ، عندما نطالب بالاستقلال ، إنهم يريدون أن يقدموه لنا ، ولكن شريطة أن نتفق أولاً فيما بيننا .

وترد الراني ، بهدوء ، فتقول :

— إن هذا ، فيما أرى ، هو حيلة أو خدعة يقوم بها حزب المؤتمر ، الذي له مصلحة في أن يختلف المسلمون ، ويعجزوا عن تنظيم أنفسهم لكي يدافعوا عن مصالحهم ، ضد الهيمنة الهندية . ولنلاحظ الآن أن زوج الراني شاهينا ، هو أحد مسؤولي الرابطة الإسلامية ، وزوج البيجوم ، هو أحد المسلمين النادرين الذين يعملون في إطار حزب المؤتمر . ويرى أن الشيء المهم هو التحرر من الإنكليز ، وأن الهنود ، فيما بعد ، سيسون المشكلات الطائفية . وهكذا فإن النساء يعكسن بالحجج السياسية ، ما يقوم بين أزواجهن من منافسات شخصية .

وحباً بإزالة التوتر ، من الجو ، تسأل إحدى السيدات عمن سيذهب من الأمراء إلى لندن لحضور حفلة تتويج الملك الجديد . وفجأة تنسى النسوة السياسة ، ويذكرن ، وعيونهن لامعات ، أسماء المهرجات غوالبور ، وباتيالا ، وجيبور ، وليندور ، وكاريوتالا ونظام حيدر آباد طبعاً ، وهؤلاء كلهم سيشكلون وفداً ، برئاسة المهرجا المعجوز بارودا . وتفكر سلمى بأن نيلوفر ودورو شيفار ستحضران أيضاً . وهي تتمنى أن يدعوها الإنكليز ، لكي تهنينهم عن طريق رفض الدعوة . ولكنها تعرف أنها لن تحظى بهذه المسرة . فتلوم أمير بسبب ذلك من حيث أنه ليس أميراً إلا على دويلة صغيرة .

وفي ١٢ مايس (مايو) ، وهو يوم تتويج الملك جورج السادس الذي يحل محل أخيه إدوار السابع ، تردهي لوكنوف بأنوارها وباقات أزهارها . وفي ذلك المساء سيكون استقبال الحاكم حافلاً ، وسيجتمع لديه الأرستقراطيون ، والوجهاء ، ليقدموا له التهانى ، ويتمنوا السعادة والازدهار للملك — الأمبراطور .

وقرع أمير الباب على سلمى ، وهو في شرواني الغالا ليسألها :

— أما زلت غير جاهزة . أسرعى . إذ ستأخر !

وتجيب سلمى :

— اذهب وحدك . فأنا لن أرافقك .

فصعق الرجل من هذا الجواب . فأية حشرة قرصت زوجته ؟ إذ لا يمكن أن نوجّه هذه الإهانة للحاكم .

— ألا تفهم ؟ أما أنا فأني لا أفهم كيف يمكنكم أن تحضروا هذا الاستقبال . فكل خطاباتكم ضد الاستعمار الإنكليزي ، والنضال من أجل الاستقلال ، ليس إلا كلاماً . ومتى صفق الحاكم بيديه ، انطلقتم أنتم إليه ساجدين ، وهالكم تحتفلون بتتويج السيد الأجنبي ، الذي تدعون بالكلام أنكم تريدون التخلص منه . بنفس الحماسة التي كنتم ستحتفلون بها لو أنه من دمكم ، أو لو أنكم اخترتموه أنتم !

فاحمرّ وجه أمير . وتقدم بخطوة نحو هذه المرأة التي تشتمه . فهل سيضرها ؟ ولكنه يمسك عن ذلك ، ويضغط قبضتيه .

— إنك تخلطين ، يا أميرة . فالهند ليست تركيا المحتلة . وقد عمل الإنكليز الكثير لتنمية هذا البلد . غير أننا نعتبر ، ببساطة ، أننا كبرنا بدرجة كافية لأن نحكم أنفسنا بأنفسنا . ولسنا في حرب ضدهم . بل نحن نتفاوض على نقل السلطات ، في أفضل الشروط الممكنة .

— أو تسمي باسم المفاوضات هذا الواقع الذي يتجلى فيه أن الإنكليز يجلسون ، ويقتلون كما يشاؤون ؟

— إن هذا بسبب هذا المجنون الذي يسمى غاندي ، هذا المهووس الذي يستمر في عزمه على زج الشعب في المعركة ، على حين أن كل شيء يمكن أن يُسوّى بهدوء بين أناس محترمين .

وبعد أن يتوقف عن الكلام قليلاً يسألها :

— أولاً تريد أن تأتي معي إذن ؟ حسناً .

ويخرج غاضباً ، وبصورة غامضة ، نسبياً ، غير مرتاح .

٦

في الماضي ، كانت الرحلة من لوكنوف إلى بادالبور تستغرق ثلاثة أيام ، ثلاثة أيام لاجتياز مسافة مئة ميل على النسق البطيء للفيلة التي ترفع علم الدولة ، والمتبوعة بهوداج يحملها ثمانية عبيد أقوياء ، وجمال تنوء بأحمالها .

وكانت القافلة تبدأ رحلتها عند الصبح . ثم تتوقف في منتصف النهار متى اشتد الحر ، وصعب احتماله . وكان الخدم ينصبون في أرض البرية خياماً واسعة ، ويغطون العشب ببسط مزهرة . وكانوا ينامون حتى غياب الشمس ؛ ولا يمشون في رحلتهم إلا مع غياب الشمس ، ورقة الجو . أما الحرس المسلحون فكانوا يؤلفون سياجاً على طول الموكب الذي يتقدم ، تحت النجوم .

أما اليوم فإن المسافة تقطع في أربع ساعات بسيارة إيزوتا فراشينى البيضاء ، الفسيحة كهو صغير مع باره ، وطويلاته المصنوعة من الأكاجو ، وما يحتاج إليه لتقديم الشاي ، وزجاجات الكريستال الملأى بماء الورد . وتأسف سلمى على ما كان لرحلات الماضي من شاعرية عظيمة ، مما لا يزال بعض الأمراء المسنين يحنون إليها . ولكن الراجا رجل عصري . فهو يحب التنقل بسرعة ، وبصورة مريحة .

ومع ذلك فإنهم يتسامحون الآن مع التقاليد ومع متعة الشعب . فتقف السيارة على مسافة ميل من حدود الدولة لكي يتاح للفيلة الملكية ، التي رحلت منذ الفجر ، من قصر بادالبور ، أن تصل إلى السيارة ، وأن تواكبها .

ويشرح أمير لزوجته، بكل فخر، أن بادالبور التي لم يعد فيها مع عاصمتها ذات الثلاثين ألف ساكن، إلا حوالي مئتي قرية، كانت في الماضي إحدى أكبر دول الهند.

— لكن الحروب التي لا تحصى التي قام بها أجدادي ضد ماهرات ديكان Mahrattes Dekkan، ثم ضد الإنكليز، قد أنهكتنا. وما من مرة خنعنا للقوة. وفي عام ١٨٥٧ فقد جد أبي ٢٦٠٠ قرية ومساحة تعادل مساحة سويسرا. وقد أشار الجنرال الإنكليزي في ذلك العهد، ضمن مذكراته، إلينا، فقال: يجب ألا نطمئن مطلقاً، وبأي حال من الأحوال، إلى راجاهات بادالبور: «فسيظهرون أنهم يقبلون سلطتنا، ولكنهم سيتمردون دوماً».

ويضحك أمير، وهو يشعر إلى حد ما بالحنين.

— إن كلامه هذا هو شهادة على أجدادنا، بل أجمل شهادة... ولكننا بعد عدة سنوات، كنا ننتقل لنصبح في حماية العرش^(١).

وكانت السيارة تنزلق تحت الأقواس المجدولة بالأزهار، مسبقة بستة فيلة محلاة الظهر بالذهب، بينما كانت أوركسترا الراجا، تعزف نشيد الدولة. أما الجمهور، المتجمع على طرفي الطريق، من هندوسيين ومسلمين مختلطين، فكان ينحني، بلا صراخ ولا هتافات: وفي مثل هذه البلاد التي تعج بالضجيج والسكان، يكون الصمت أفضل احترام نقدمه للآخرين.

وكان الراجا جالساً في مقدم السيارة، فلا يتحرك. ونظراته تتجه إلى الفضاء البعيد. وماذا يهم، إن كان الإنكليز منذ قرن تقريباً، قد أصبحوا سادة البلد الحقيقيين، وما دام يظل هو، بالنسبة لرعاياه، السيد الشديد القوة الذي يهب كل الخيرات، ويطبق مختلف العقوبات. وكانت سلمى في المقعد الخلفي، محجوبة بستائر البروكار الثقيلة والتي لا يستطيع الهواء تحريكها، تراقب هذا الشعب الذي هي ملكته، والذي لا يمتلك الحق في رؤيتها.

ويصل الركب إلى أطراف العاصمة، فأصبح الجمهور أكثر كثافة. وكان تحت القوس المصنوع من الحجر الأحمر، والذي يتحكم في مدخل المدينة، رجل عجوز يرفع يده عدة مرات إلى

(١) إن الذي حدث ما بين عام ١٨٥٧، تاريخ أول تمرد ضد الإنكليز، وتاريخ ١٩٤٧، سنة الاستقلال، هو أن أكثر الدول الهندية انتقلت إلى الإدارة البريطانية. وكان عليها أن تدفع الضرائب. ولم يعد لها الحق بأي جيش لها. ولئن كان الراجاهات قد استمروا، فذلك لكي يضمنوا مسيرة دولتهم أمام الحاكم الإنكليزي.

جبينه ، كإشارة احترام ثم يفتح كيساً ، ويرمي بملء قبضتيه روبيات من الفضة ، مثيراً بذلك تجمهراً كثيفاً . وأمير ذو الوجه الشبيه بالمرمر آنئذ ، يبدو وكأنه لا يرى شيئاً . ولكن سلمى تسمعه يتمم :
— أي عطف يرجوه هذا المجنون العجوز حميد الله ، لكي يكشف بهذه القوة عن كرمه ؟

واتجه الموكب إلى الشارع الرئيسي ، الممتلئ الجانبين بمخازن مزينة بأشرطة هي أعلام الدولة . وفي كل مكان ثرى صورة الراجا . ومن الشرفات ، ترش النساء السيارة بوابل من حب الأرز ، رمز الازدهار والخصوبة ، وهن يصرخن : « راجاه صاحب زينداباد ! — أطال الله حياة راجانا ! » ، وتفيض الحماسة ببعضهن فيتهفن « راني صاحبة زينداباد — أطال الله حياة رانيتنا » . وبسرعة يشار إليهن بالصمت : فأني عار ! وكيف يستطيع هؤلاء الفاقدان المخ أن يقلل من الاحترام ، إلى الدرجة التي يشرن فيها علانية إلى زوجة ملكنا ؟ أولاً يستاء هذا منا ويحقد علينا لهذا السبب ؟

وخرجت السيارة من المدينة ، واتجهت نحو القصر الواقع على مسافة عشرة أميال . وحتى القرن الماضي ، كان راجاهات بادالبور ، يسكنون القلعة القديمة الموجودة وسط المدينة . ولكن حدث ذات ليلة صيفية — إما كعمل إجرامي ، وإما نتيجة قلة الحذر — حدث حريق . قضى على الحصن ، وعلى جزء من الحارة القديمة التي كانت تحيط به . وحرصاً على الأمن ، من جهة ، وحباً بالهدوء من جهة أخرى ، أمر راجاه تلك الأيام أن يبنى له قصر في الريف أمام البحيرة التي يكثر حولها النيلوفر .

وهناك جدران عالية تحمي القصر ، وتحجبه عن الأنظار . وفي وسط الحديقة المغولية تنتصب أقواس بيضاء ، وشرفات مثقبة الجدران متوجة بإفريز من السيراميك الأخضر والذهبي يصور سهاماً موجهة إلى السماء ، وقرون خصوبة ، وطائفة من الحيوانات الفخمة أو المفيدة ، كالطوايس ، والتمور ، والأسماك . والقصر محاط من جهاته الأربع بشرفات ومصاطب تطل على الحقول والقرى . ومن بعيد ، يلاحظ الظل الأزرق لأولى سلاسل جبال الهملايا . وعلى شيء من البعد عن القصر الرئيسي ، نجد ثلاثة قصور أخرى ، تبدو الآن مهملة . وكان الراجاه العجوز قد خصص بها زوجاته وزوجات ورثته . أما الآن فهي تستخدم لاستقبال المدعوين .

وأحبّت سلمى مباشرة ، جوّها الجديد ، وهذا البياض الهادئ ، وهذه المساحات المزروعة بالأزهار والتي تجتازها أفنية ضيقة من الموزاييك ، يجري فيها ماء شفاف ، وهذه الممرات المظلمة والمزروعة بنباتات عطرية ، وهذه الأشجار ، أشجار التمر العالية التي تمتد نحو السماء كطيور شعناء .

وأمام القصر ، اصطف الحرس بثيابهم الرسمية وأدّوا التحية . وهم حوالي خمسين جندياً ، بجاكيتات وعمائم زرقاء ، وشوارب ملصّعة جداً ، يسكون بأيديهم بنادق من نوع موزير ، تعود إلى القرن الماضي . وكان ينحني احتراماً في أول الدرج جيش الخدم — بثيابهم البيضاء التي ازدادت جمالاً بالحزام الأزرق وبالعمامة — فمن جهة نجد السّواس ورجال الفيلة ، والطباخين ومساعدتهم ، والحلاقين ومديري الخدم العاديين ، بل لقد اصطف معهم ، ولكن في صف متأخر قليلاً ، الكناسون وناقضو الغبار ، والمساحون . ومن الجهة الأخرى من الدرج ، تقف النساء ، ووجوههن مكشوفة ، على أكبر دهشة من سلمى . ولكنهن لا يزدن على العشرين ، ما بين وصيفة ، وخادمة غرف ، وغسالات ، لكنهن جميعاً قد حجزن لخدمة الراي الجديدة .

— هوزور ، أي سعادة ، أي شرف !

وانقضت كتلة من الحرير الأحمر على سلمى ، وملأت يديها بالقبل ، إنها البيجوم نُصرة ، زوجة حاكم بادالبور ، تلك التي كانت قد استقبلت الأميرة يوم وصولها . أما زوجها الديوان فيجب أن يكون هذا السيد الرزين ، الذي يلبس الشرواني الأسود ، والذي يتحادث مع أمير . ولكن لِمَ لم يعني ؟ على ما تساءلت عنه سلمى ؟ . وقام في خاطرها أنها شفافة ؛ إذ ما من رجل من الحاضرين ، أصحاب المقامات أو الخدم ، بدا عليه أنه يراها . وهذا موقف تكريم واحترام ، بلا شك ، ولكن المرأة لا يمكن أن تدفع عن نفسها ، ذلك الشعور المزعج ، الذي هو شعورها بأنها غير موجودة بالنسبة إلى هؤلاء . ويجب أن تتعوّد على ذلك . وكيفما كان الأمر فإنها تفضل هذا كله ، على لبس البراكاه ! ففي بادالبور ، ليس لبس السجن الأسود ، بالأمر الضروري ، كما هي الحال في المدن حيث على الآباء والأزواج أن يحموا نساءهم من النظرات الغريبة . أما هنا ، فما من شخص ، يجرؤ على التفكير بأقل صلة معها . فهنا ، ليست سلمى امرأة ، بل هي الراي .

وتأتي البيجوم نُصرة فتستعجلها .

— تعالي ، هوزور ، فالراي سعيدة شديدة الحرص على معرفتك . وعليّ أنا واجب تقديمك . ولن يكون مناسباً أن تذهبي إليها مع الراحا . وعلى الزوج وامراته ألا يظهرها معاً . فهذا معيب . وعندما تكون المرأة موجودة مع حمايتها ، ثم يُعلن عن قدوم زوجها ، فإن عليها أن تحجب وجهها وتخرج ، قبل أن يدخل .

والراي سعيدة ، هي جدة أمير . ولقد بقيت خمسة عشر عاماً أثناء غيابه في إنكلترا ، وهي

تصرف شؤون الدولة من وراء البرداه (البردة) على حين أن الراي عزيزة كانت تهم بقصر لوكنوف .
إنها امرأة سيدة ، كما يقال . ولكن سلمى ، هي أيضاً ، تحب أن تعرفها .

وصعدت سلمى على الدرج الرخامي ، ومعها البيجوم نُصرة . من هنا هوزور — ، وتجتاز بهو الاستقبال الصغير ، المفعم بالمقاعد ، والقنصليات المصنوعة من الخشب المذهب ، ثم قاعة المجلس ذات الأثاث الشرفي الذي يتألف من دواوين واطقة ، وسجاد عجمي ، وطاولات من كشمير ، وأخيراً تصل إلى قاعة العرش القديمة . وكانت البيجوم ، تفخر بأن تلفت نظرها إلى المقعد الضخم ، المصنوع من العاج الذي نُحتت عليه مشاهد من رحلات الصيد والحرب ، والمحاط بأعمدة صغيرة مجدولة تسند قبة من الخمل الأزرق . وتسكت سلمى ، فقلماً رأت شيئاً في مثل هذه البشاعة ، وتقضي بانتباهها إلى صور الأجداد التي تملأ الجدران ، وكان كل راجاهات بادالبور هنا ، منذ عهد أقدمهم الذي وصل إلى العرش عام ١٢٣٠ حتى والد أمير ، الذي مات عام ١٩١٢ . وإنه لغريب أن يتشابهوا إلى هذا الحد . وتنحني سلمى لترى هذه الصور من قرب ، وفجأة تعض شفتيها ، حتى لا تنفجر ضاحكة : فكل هؤلاء الملوك ، خلال سبعة قرون من التاريخ ، قد رسموا بيد الرسام نفسه ، ويسمى عزيز خان . فإما أن هذا الرجل قد عاش مدة طويلة ، بصورة استثنائية ، وإما أن والد الأمير أحس ذات يوم ، لسبب مجهول ، بالحاجة إلى إنشاء هذه المجموعة من الأجداد ، ولكنه نسي أن يمحو اسم الرسام أو توقيع . إنه كبراء من جهة ، وسذاجة عجيبة من جهة أخرى ... فهل إن أمير ... وتكبت سلمى هنا شعوراً بعدم الارتياح . كلا . فما من مرة فكرت «بأمير» في مثل هذا الإطار ، أو في مثل هذه الحدود .

— اقتربي يا بنيتي .

ولأول نظرة ، كان إغراء العجوز لسلمى كبيراً ، وكانت تلبس أشياء بيضاء ، كما ينبغي للأرامل ، وبدون أي حلية . والتألق الوحيد المطل على المرأة فيها هو أن في شعرها المردود إلى الوراء ، في كعكة خلف الرأس ، مشطاً مزيناً بالأحجار الكريمة من الفيروز الأزرق ، وهو اللون المفضل لدى الشيعة .

— تعالي ، تعالي قبليني !

وكانت عيناها تتألق داخل الوجه الصافي الملطّف بألف تجميدة تزينه كوشاح ناعم . ويجب أن يكون أصلها من كشمير على ما حسبت سلمى . فما من مكان آخر ، تجد فيه نساء بهذا

البياض. فليَم ذهب الراجاه الراحل يبحث عن امرأة في مثل هذا البعد، على حين أن العرف في أيامه، وأمن الحدود، كانت ترجح الزيجات بين دول متجاورة؟

وانحنت باحترام. فتنهضها الجدة، وتضمها لصدرها الواسع. وتشم سلمى رائحة زهرة الحلوة. فتحس بأريجها اللطيف. وتشعر بأنها عادت إلى البيت.

— كنت أخشى ألا تكوني إلا جميلة... — وأخذت الراي بدقنها، وبدأت تتفحصها طويلاً — ولكنني أرى أنك أكثر بكثير من هذا. وأمير محظوظ. وهو بحاجة إلى امرأة مثلك. ستساعدينه، أليس كذلك؟ وستطمئنيه عندما لا أكون موجودة لأقوم بذلك؟

أأطمئن أمير؟ لا بد أنه بدا على وجه سلمى شيء من الدهشة.

— إني أعرف عمّ أتكلم. فلقد نقص أمير الحب وهو صغير. ومنذ أن كان عمره ست سنوات، لدى موت أبويه، كان محاطاً بندامي كانوا يملقونه في حضوره، ويسخرون منه في غيابه. وكان يشعر بذلك بوضوح، دون أن يفهمه. فلقد كان طفلاً حساساً ومبكر الذكاء. وكنت الوحيدة التي لا تطمع بشيء منه. وحتى أخته عزيزة كانت تبذل جهدها، في أن لا تعارضه أو تناقضه، لخوفها أن يتذكر ذلك في المستقبل...

ولكن الصدمة الرهيبة وقعت يوم كان في الخامسة عشرة، إذ قام عمه، الذي كان أمير يحبه حباً جماً بمحاولة لتسميمه، طمعاً بأن يستبد وحده بالحكم. وخلال أسابيع كان يبكي ويعيد بلا انقطاع: «أنا لا أريد أن أكون راجاه. وسأسافر بعيداً بعيداً، أي إلى حيث لا يعرفني أحد، وحيث ربما وجد من يحبني لذاتي».

وترنّج سلمى: فكم من مرة تمّنت، هي أيضاً أن تكون يتيمة، بلا اسم، ولا أصل، لكي تثق بأن الناس يحبونها لذاتها.

وتابعت الراي كلامها، فقالت: «وفي ذلك الحين، قرّرنا أن نرسله إلى إنكلترا: من أجل أمنه الشخصي، أولاً، ومن أجل توازنه العقلي: ذلك أن موت أبويه الذي كان يشعر به وكأنه يعني التخلي عنه، بصورة لا شعورية، وازدواجية الخلل، وخيانة عمه، وفوق ذلك كله، حب بائس، تعيس لابنة عمه التي كانت «تتنج» له، وتعطي مواعيد لشخص آخر غيره، إن هذا كله انتهى إلى أن يفقد ثقته بنفسه، وقدرته على النضال، على حسن تقبله للخيبة، وبالجملة فقد كاد أن يفقد ثقته بنفسه كرجل».

«وعندما تركنا، كان مراهقاً حذراً، أعصابه سريعة العطب. فعاد إلينا راشداً، نشيطاً، متحمساً، وفي الوقت نفسه كان متزنأً، عقلياً... وربما أكثر مما يجب. ولديّ انطباع دائم بأنه يلجم نفسه، وأخاف أن يتأثر بفرط حساسيته. أفيكون الصدع ما زال باقياً؟ أو أنه تعلم أن يخفيه فقط؟ يا أميري المسكين، كم أتمنى أن يسمح لنفسه بأن يكون سعيداً!».

وكانت الدموع تنهلّ من عيونها، وسلمى تنظر إليها.

— عديني بأنك ستساعدينه!

ولقد أصبحت الحرارة خانقة، في آخر شهرنا هذا حزيران / يونيو/. وكانت الحيوانات والناس تنفحص السماء، التي تبقى زرقاء، تبعث على اليأس. وستبقى زرقاء خلال عدة أسابيع أيضاً، ولا يمكن أن نأمل، بصورة معقولة، هبوب الرياح الموسمية بهذه السرعة. ما لم ينظر الله بعين الرحمة إلى هذه الحقول المحروقة، وهذه الأرض التي تتشقق، وهذه المخلوقات المرهقة التي تجر نفسها جراً، في هذا السعير.

وعشرين مرة في اليوم تغمر سلمى نفسها بالماء، في هذا الحوض النحاسي الكبير، المملوء بالماء البارد. وهذه فترة حلوة تشعر فيها بالراحة، وبأنها عادت إلى إنسانيتها من جديد. ولكن ما إن تخرج حتى تتبخر حبيبات الماء الباقية على جسمها، وتجدد نفسها مرة أخرى في هذا الجو الجهنمي.

وتتمدد على السرير، وتظل حريصة على أن تتحرك أقل ما يمكن، وتمد وجهها، بشراة، إلى هذا الهواء القليل الذي يصدر عن البانكا، أو المروحة القديمة، التي تتحرك باليد، بواسطة الحبيبات، عن طريق صبي، يجلس القرفصاء، خارج الغرفة. ومع ذلك فإن الكهرباء موجودة في القصر. إذ منذ أن عاد أمير من إنكلترا جهزه كله بمراوح ضخمة من الفولاذ، من آخر وأحدث النماذج. ولكن الكهرباء لم تعمل إلا يوماً واحداً بعد وصولهم، وفقدت سلمى كل أمل في أن ترى مراوح السقف تتحرك. أما الآن فإنها هناك لكي تنكد عليها العيش.

ومع ذلك، ورغم شدة الحر، فإن سلمى تحب بادالبور، أكثر بكثير مما تحب لوكتوف. فالحياة هنا بسيطة، بعيدة عن «مسكنات» الرائي عزيزة، والهدر والمؤامرات. وعلى رغم المشاكل الحكومية، يبدو أمير أكثر ارتياحاً. وفي الصباح الباكر، وعندما يكون الجو لا يزال لطيفاً، يمضيان معاً لنزهة على ظهر الحصان في الحقول والغابات. وقد تصحبهما زهراء أحياناً، وترى ضحكتها

الشفافة تتلأأ نوراً. وهكذا تأخذهم نشوة الحرية، ويعدون بأحصنتهم، ويراهم الفلاحون يمرون، وهم مندهشون.

وهذه هي المرة الأولى التي يقيم فيها الراجاه في بادالبور أثناء الصيف. والعادة أن هؤلاء الذين يستطيعون الهرب، يهربون من الحرارة الخانقة الموجودة في السهل الهندي — الغانجي، ويلجؤون إلى مصايف هملايا الأنيقة. بل إن نائب الملك وحكومته كلها، ينتقلان، ليستقرّا في مقراتهم الصيفيّة في سريناغار SRINAGAR، عاصمة دولة كشمير.

أما هذه السنة، وبتأثير حزب المؤتمر، فإن الأرياف كلها تتحرّك. ولقد رأى أمير أن من الأفضل أن يبقى بين رعاياه، ويبحث مطالبهم، لأن لدى فلاحه بادالبور ما يشكونه، بشكل خاص، ذلك أن حاكمهم رجل عادل وأكرم من أكثر ملوك الدول المجاورة: فإن كانت المواسم سيئة فإنه لا يطلب الضريبة كاملة، وإذا استدان بعضهم ليزوج ابنته، أو لأن المرض أصابه ومنعه من العمل، فكثيراً ما يقوم هو بتسديد الدين، للمدين في القرية، الذي يتقاضى الفوائد على ما يدينه. ولكن حدث أن جاء بعض الناس منذ عدة أشهر، من المدينة، ومن يعرفون القراءة والكتابة، وأدّعوا أنه لم يعد يجوز أن يدفعوا الضريبة، وأن للفلاحين الحق بالاحتفاظ بمحاصيلهم حتى آخر سنبله من الذرة الصفراء، وحتى آخر حبة من القمح. وبديهي أنه ما من أحد يصدق مدّعاتهم، وما من إنسان يجرؤ على مفاتحة السيد بكلامهم هذا. ومع ذلك فإن هذا الكلام نفسه يدعو للتأمل.

وبانتظار ذلك، يكتفي الناس بالادعاء أن المطر والبرد، والحر، والجفاف هي السبب في امتناعهم هذا العام عن دفع الضرائب. وهكذا، فإن الراجا، يقوم كل صباح، بعد أن يكون قد جمع مجلسه، وناقش مع الديوان، وأمين المال، ورئيس الشرطة، ماتجب مناقشته، بفتح بابه للجميع. فلا يكون أحد بحاجة إلى طلب المقابلة: وكل من يرغبون في المقابلة، من مُلاك، ورؤساء قرى، وفلاحين بسطاء، يمكنهم أن يأتوا لشرح مشكلتهم، وطلب مساعدة الراجا، أو تحكيمه في تسوية النزاع.

وتحب سلمى أن تنظر إلى أمير، وهو يستقبل رعاياه. وبصمت تنزلق، وتتسلل إلى الشرفة، وتراقبه. فهو يجلس تحت الشرفة الرئيسية، لابساً «كرتاه» بسيطة من الموسلين المطرّز بلآلئ ناعمة. ولديه خادمان معلمان يحركان له الهواء. على حين أن هنالك ستة حراس مسلحين، يظلون واقفين وراءه. وهذا أمر يتصل بالديكور، أكثر مما هو حاجة ضرورية، على ما يرى أمير — إذ يجب ألا يخيب آمال الشعب. فهو على كل حال، يأتي ليرى راجاهه.

وفي هذا الصباح ، دهشت سلمى لأنها رأت امرأة بين الشاكين . فماذا جاءت تفعل هنا ؟
إذ أن القضايا تُسوّى دوماً بين الرجال . وهإن القسم الأدنى من وجهها مغطى بقماش أسود .
ينزل مستقيماً ، بصورة غريبة . وهذا أمر كريبه ، لا سيما وأن الفلاحات لا يضعن حجاباً ، وذلك لأن
عليهن ، أن يفرغن ، مع الرجال ، لأعمال الحقل . ثم إن الحجاب والبقاء في البيت ، أو البعد عن
الناس ، رموز تدل على الوضع الاجتماعي ، وتبرهن أن المرأة ليست بحاجة للعمل .

وهناك حول هذه المرأة ذات الحجاب ، رجال يقومون بحركات ، وإشارات ، ويبدو أنهم
يتشائمون . ثم يأتي رجال آخرون فينضمون إليهم ، وكل منهم يروي قصته ، ويقول رأيه . أما المرأة فإنها
تتصاغر جداً . وبكل رزانة ، يطرح الراجا بعض الأسئلة ، ويصغي . وأخيراً يصدر حكمه : التفرغ
ثلاث روبيات . وهكذا يهدأون ، وينسحبون ، وتتبعهم هذه المرأة التي تجري وراءهم ، خرساء لا تقول
شيئاً .

وتسأل سلمى الحائرة :

— ماذا حدث إذن ؟ وذلك عندما يعود أمير أخيراً فيصعد إلى الغرفة .

— آه ، لا شيء عظيم الأهمية . إذ يتهم الرجل زوجته بأنها كانت تخونه ، وعقاباً لها ، قطع
أرنية أنفها بضربة سيف . وهي تقسم أغلظ الايمان أنها بريئة . وجاءت أسترها تتظلم .

وتنظر سلمى إلى أمير ، بهلع .

— كيف ؟ أتغرّمهم ثلاث روبيات كمقابل لأنفها المقطوع ؟

— إنها تتخلص من ورطتها تخلصاً حسناً . إذ لو صدق عليها الاتهام ، لكان قتلها دون أن
يكون لي الحق ، في إدانته . وهذا هو العرف .

— ولكن إذا كانت بريئة .

— إنها على كل حال متهمة ، من حيث أنها أيقظت بسلوكها شكوك زوجها ، وأساءت
بذلك إلى شرف زوجها .

فنظرت سلمى زوجها وحملت فيه ، وقالت في نفسها : إن هذا غير ممكن ! إنه رجل
ذو فكر حديث ، متطور ، درس في إنكلترا ، في أحسن المؤسسات ، ثم يصادق ويوافق على أنواع من
السلوك من مخلفات القرون الوسطى . ويلاحظ هو اضطرابها .

— لم يكن في وسعي أن أصدر حكماً آخر . ولو أنني كنت أشد قسوة مع الرجل ، فإنه مامن إنسان ، حتى المرأة وأسرته ، كان يمكن أن يفهم ذلك .

— ولكن يجب أن تفهمهم ذلك . فأنت وحدك في الوضع المناسب للتصرف بهذا الشكل !

— أأغيّر تكوين عقليتهم ؟ إنك تمزحين ولا شك . إذ لا بد من قرون ليتم ذلك . وأصلاً ، فمن أنا لكي أستطيع الحكم على قيمهم ، وقانون الشرف لديهم ، أو أتصدى لتغييرها ؟ وكل ما أستطيع فعله ، هو أن أحاول أن يحترموها .

— ولكنك لا تستطيع أن توافقهم على ذلك ؟ وهنا أصبح صوت سلمى مضطرباً .

وأحابب الراجاه ، وهو ينظر إليها من طرف عينه :

— اطمئني يا عزيزتي . إني أفضل أن أراك ميتة على أن أراك بدون أنف . وهؤلاء الناس لا يفهمون أي شيء من مفهوم الجمال ! أما حول الكثير من النقاط الأخرى — وهنا يلهو بمسبحته العنبرية الحبات ، وعليه هيئة الحالم — فأنا غير متأكد بأنهم مخطئون ...

وتقع قرية أوجبال على مسافة ميل واحد تقريباً من القصر . ومن الشرفات ، تستطيع سلمى أن ترى البيوت المصنوعة من اللبن ، وسقوفها المصنوعة من القش والطين ، والأفنية الداخلية التي تجلس فيها النساء القرفصاء ، أمام النار ، ويحضرن الشابتيس ، أي فطائر من القمح إذا أكل معها البصل ، شكّلت القسم الأساسي من الطعام اليومي .

ومنذ أسبوع ، وهي في بادالبور . وباستثناء النزعات على ظهر الحصان ، مع أمير ، فإن سلمى لم تخرج عن حدود القصر . ولذلك فهي تشعر وكأنها منفية عن الحياة الحقيقية ، تلك التي تدور هناك ، في هذه القرية التي يقوم بها النساء بعملهن بين الأطفال ، الذين يلعبون وحيث يجتمع الرجال حول كأس من الشاي ويتناقشون إلى ما لا نهاية ، في حين أن فتيات ناعمات ، وعلى رؤوسهن إناء من النحاس يتوازن تماماً مع حركاتهن ، يذهبن ليأتين بالماء ، ويتبعهن من بعيد شباب وكأنهم غير مباليين .

وفي الأيام الأولى ، كانت الجدة ، وسحر الريف ، وهذا القصر الأبيض ، واللذة في أن تكون سلمى هي الرائي ، بلا منازع ، وليست تلك الغريبة التي تقبل بعض نزواتها على مضض . ولقد

تمتعت بهذا كله متعة كاملة . أما الآن فإن الزمن يطول عليها ، لا سيما وأن زهراء عادت من جديد إلى لوكنوف لمتابعة دراستها !

وتريد سلمى أن تعمل .

ولكن كيف ؟

ونصحتها الراني سعيدة التي أصغت إلى حديثها حول هذا الموضوع ، بأن تبدأ باستقبال النساء بعد الظهر ، لأنهن يكنّ مشغولات قبل ذلك بأعمال البيت ، أو بأعمال الحقول .

— أخبري الناس ، أن كل أولئك اللواتي يرغبن بالهجيء لعندك فإنك مستعدة لاستقبالهن ومساعدتهن ... وتضحك وتضيف ، قائلة : إنه سيكون لديك جمهور كبير ، فلا تعرفين أين تديرين رأسك ! ولكنك على حق ، لأن هذا هو واجبك كراني . وأنا نفسي عملت هذا في الماضي . أما الآن فأنا عجوز ، جد عجوز .

وكأن الحزن غطّى لحظة تلك الزرقة العنيفة التي في عينيها .

— إنهم أبناؤنا ، على ما ترين ، وهم ينتظرون كل شيء منا . وكنت أتمنى أن أعمل أكثر . أما في زمن الراجا زوجي ، فلم يكن هذا موضوع بحث . وفيما بعد ، تضاءلت حماستي . وأما أنت ، فإنك شابة ، وقد رأيت العالم . وفي وسعك أن تغيّري الكثير من الأشياء . وهكذا أستطيع أن أموت هادئة ، مطمئنة ، وأنا عارفة بأن النساء والأطفال في بادالبور ، لن يهملوا أبداً .

وكما تنبأت الراني سعيدة ، فإن البهو الذي طلبت إعداده في الطابق الأرضي ، لم يكن يفرغ أبداً . إذ تصل القرويات في أية ساعة من النهار يشأنها ، ومع كل واحدة مجموعة أولاد ، فيجلسن على مقربة من الراني ويحدثنها بقصص لا تنتهي ، ولا تفهم منها شيئاً . وهكذا فقد طلبت مساعدة البنت الكبرى للبيجوم نُصرة ، التي تعلّمت الإنكليزية في مدرسة الراهبات ، أفضل مؤسسة في لوكنوف . ثم عيّنت خادمتين لتقديم الشاي ، مما أثار الكثير من الاحتجاجات والحركات المزاجية . ذلك أنهما إن كانتا فخورتين بخدمة الراني الشخصية ، فإن من المحطّ بكرامتهما هي أن تشغل نفسها بهؤلاء القرويات القدرات والبدائيات . ولكن سلمى بدت عنيدة . ذلك أن قانون الضيافة

يقضي أن يقدم هؤلاء النسوة الآتيات لرؤيتها كأس الشاي على الأقل، هذا الشاي المشرب بالسكر، والمغلي مع كميات من الحليب، والذي يرشفه بكثير من المتعة واللذة.

ومنهن من يأتين من قرى بعيدة. ومن أجلهن فرشت أرض غرفة كبيرة، يستطعن فيها قضاء ليلتهن قبل العودة. فيجدن أنهن هناك في راحة، لا يشتهين معها الرحيل، ولا سيما أولئك العجائز اللواتي لا زوج لهن ولا أولاد، تحب العناية بهن. أوليست الراشي أمهن وحاميتهن؟ وعندئذ بدأت سلمى تنظر بعين القلق إلى القصر الذي يمتلئ بالناس. وكذلك أمير فإنه أخيراً سيرى ذلك. ويغضب، ويطردهن. فما العمل؟ فأسرّت إلى الراشي سعيدة بما في نفسها، فبدأت هذه تضحك.

— ولكن يا بنيّتي، إنهن لا يستطعن الرحيل قبل أن تقدّمي لهن هدية صغيرة! فحضّري علماً من الورق المقوى فيها بعض الكباب والبوري^(٢)، وأضيفي خمس روبيات، وأفهميهن أن هذه هدية الوداع.

— ولكن، ألن ينزعجن من ذلك؟

— ينزعجن؟ أية فكرة؟ بل بالعكس، سيُسَرّفن، وأنا واثقة أنهن سيحتفظن بالعلبة ليرينها لجارّاتهن. فاجعلي عليها شريطاً أحمر يكون عقدة حلوة، فهذا هو لون السعادة...

السعادة... أوعلمكن، هؤلاء النساء اللواتي يأتين طول النهار إلى القصر، أبسط فكرة أن هذه وجوداً، أي للسعادة؟

وكلهن يقلن، بعضهن بعد البعض الآخر، ما لديهن من مآسي الفقر. فهذا الطفل الوحيد تأثر بالبرد وأصبح على وشك الموت، رغم صلوات البراهمين. وهذه بنت طلقت لأنها لم تحمل. ويقال إن في المدينة سيدات طبيبات. ولكن أين نجد المال لهن؟ وهذا الذي يقرض بالربا، والذي هنّ مديونات له بخمسين روبية، يهدّد بالاستيلاء على البيت. وينظرن إلى الراشي، مفعمات بالأمل: إذ يبدو أنها طيبة جداً، ولا بدّ أنها ستساعدهن.

وفي الأيام الأولى، لبّت سلمى الطلب، فدفعت هنا ٢٠ روبية، وهناك ٣٠. وهذا قليل من أجل تخفيف شقائهن. ثم إنها فهمت أن موكب البائسات يكبر، وأن هذا شقاء لا آخر له، وهاوية لا قرار لها، وحتى لو فتحت صناديق الدولة، على فرض أن لديها صناديق فإنها لا يمكن أن تكفي.

(٢) حلوى مصنوعة من السكر والقشدة.

وإذن فهي عاجزة . وتفهم أنها عاجزة عن حل المشكلات التي لا تخصى والتي تغمرها . فكيف يمكن إفهامهم أنها لا تستطيع مساعدتهن جميعاً ؟ إنهن لن يصدقنها ، ولن يقلن شيئاً ، ولكن سيحسبن أن الراي ككل الأغنياء ، وأنهن أخطأن عندما وضعن آمالهن فيها ، وسيحملن فيها بنظرة حزينة ، مستسلمة ... إنها نظرة الفقراء ، الذين تعودوا ذلك .

وقال لها أمير ، ذات مساء ، عندما أسرت إليه بما في نفسها ، بلهجة حزينة :

— لكنك ستعودين ، مثلنا جميعاً . وهذا هو الأكثر مأسوية : فأفضلنا ينتهون بأن تقسو قلوبهم . وماذا عسى الإنسان أن يفعل غير هذا ؟ أينفي نفسه ؟ أم ينتحر ، أم يسكر من الصباح حتى المساء ، حتى لا يرى وضعاً ، إن هو نظر إليه مواجهة ، جعله محوئاً . وما من محاكمة ، ولا شيء مما تعلمناه ، وفيما نؤمن به ، وفيما يُكوّننا من حيث أننا كائنات إنسانية ، ما من شيء يمكنه أن يرر هذا العذاب ، وهذا النزاع اللامتناهي لشعب كامل .

« وعندما كنت طالباً في إنكلترا ، كنت أظن أن الاشتراكية هي الحل . وكان أصدقائي يسخرون مني ، ويسمونني « الراجاه الأحمر » وعندما عدت ، أيقنت أنه ما من أحد يريد التورة ، وأن الفلاحين أقل رغبة فيها من الآخرين . ففرون من العبودية والعجز أقنعتهم أنهم مهما يعملوا ، فما من شيء سيغيّر » .

— إن هذا خطأ ، لأنهم ينقادون للمهاتما .

— فعلاً . وهم على خطأ . إن غاندي ، في نظريته ضد العنف . هو حتماً أفضل حصن استطاعت بورجوازية « الأعمال » أن تجده ، لمقاومة الثورة الاجتماعية . ولهذا فإنها تموّهم بهذا السحاء ، هو وحزبه ، من أجل هذا ، وبطبيعة الحال من أجل طرد الإنكليز الذين يهيمنون على اقتصاد البلاد ويمنعون هؤلاء البانياس (كبار التجار الهنود) من أن يملؤوا جيوبهم ، بقدر ما يريدون . ولكن لا تنوهمي : إذ متى رحل الإنكليز ، فإن الشعب سيجد نفسه في مثل الشقاء الذي كان فيه ، مع إضافة واحدة ، هي أن الذين يستغلونه هم أناس من نفس اللون ..

— وحالياً ، فإن الذين يستغلونه ، هم أناس من نفس اللون ، مثل كبار الملاكين ، والأمراء ...

وأجاب أمير وهو يملّس عينيه بخبث :

— فعلاً، هم أنا وأنت. وإذن؟ فماذا تنتظرين حتى تتركي القصر، وترتدي ساريّاً من «القطن» وتذهبي فتنادي بالمساواة والثورة، في أوساط الفلاحين؟ إنهم سيظنون أنك مجنونة، وينتهون، على الأرجح، إلى قتلك! ... فصدقيني، ليس الأمر بهذه البساطة التي نتمناها... فالتضحية الشخصية يمكنها أن تسُرنا، ولكنها لا تنفع في شيء، إن لم يكن في زيادة الشر شراً.

— ألا تصدقيني؟ — ويهر كنفه — حسناً، جرّبي، وسترين!

ولاحظت سلمى أنه كان بين النساء اللواتي يزرنها بانتظام، فتاتان، رائعتان. ولعل أكبرهما في السادسة عشرة من عمرها، وتلمع التيككا الحمراء^(٣) الخاصة بالنساء المتزوجات، فوق جبينها. أما الثانية، فهي لا تكاد أن تكون إلا مراهقة في بداية المراهقة. وهي تضع «ساريّاً» أبيض، من دون أية زينة. حتى ولا الأساور الزجاجية التقليدية التي تشعر المرأة الهندية أنها، تكون عارية، إذا لم تكن في يديها. وتستمر الاثنتان، ساعات، وهما تتأملان رانيتها. فحارت سلمى في الأمر، وانتهت بأن تسألها، عما إذا كانتا تريدان خدمة ما.

وتجيبان:

— كلا، كلا يا هوزور، إننا نرغب في رؤيتك فقط. فهذا يفرحنا، لأنك على درجة عظيمة من الجمال.

ثم تشرحان لها أن الكبرى، واسمها بارفاقي، متزوجة من رجل أكبر منها بأربعين سنة، وهو طيب النفس معها ولا يدعها تعمل في الحقول، وفي كل سنة، وبمناسبة الديوالي، عيد الأنوار، يقدّم لها ساريّاً من الحرير. أما الصغرى، أي سينا، فهي أرملة؛ وقد تزوجت في عمر الحادية عشرة، وفقدت زوجها بعد ستة أشهر تقريباً. وهي تسكن الآن لدى أسرة زوجها، وتتفرغ للأعمال المنزلية، ولكن لأعمال المطبخ، بطبيعة الحال... مسكنة هذه الصغيرة. وسلمى تنظر إليها بإشفاق. وهي لم تأت إلى الهند إلا منذ مدة قريبة، ولكنها تعرف المصير الذي يخص به الهنود، جماعة الأرامل. فإذا هن رزقن الحظ بالنجاة من السوتيه Suttée، التي تقضي بأن يحرقن في المحرقة إلى جانب أزواجهن — وهي عادة أبطلها الإنكليز منذ عام ١٨٢٩ بالقوة، ولكنها لا تزال

(٣) التيككا: إشارة تضعها الهنديات على الجبين، وهي تعني، بأن واحد، السعادة، وعين الحكمة. ولا يضعنها إلا المتزوجات.

مهيمنة حتى بعد مرور قرن كامل — ، فإنهن يعشن بقية أيامهن عيشة الباريا (المنبوذين) . ذلك أن الناس يعتقدون أنهم مسؤولات شخصياً عن موت أزواجهن ، نتيجة لخياتهن الزوجية ، التي ارتكبتها في حياة سابقة . ولما كنَّ غير طاهرات ، فإنه ليس هن الحق في الاقتراب من المطبخ ، وأقل من ذلك ، في المشاركة في الطعام — فيعطين البقايا — بل إنه ليس من حقهن أن يربين أطفالهن .

وتبتسم سينا ، وتقول : من حسن الحظ أي لم أرزق ولداً . ثم إن حماقي ليست سيئة جداً ؛ إذ إنها لم تحبسنني ، ولا حلفت لي شعري ، كما يفعل عادة بالأرامل . ولكن الأمر الذي ينقصني هو المشاركة في الأعياد . وكنت أحب الموسيقى والألوان ، ولن يقدر لي أن أحضرها ، ويقولون إنني نذير شر .

وتقول سلمى ، مستاءة ، مستنكرة :

— أية حماقة . تعالي واجلسي بجانبني .

فتتردد سينا وتلقي نظرة خائفة على النساء الأخريات . وتودّ لو وجدت بعيداً عن ها ، ولكن آتت لها أن لا تطيع رانيته؟ فتقترب ، مرتجفة .

وتقول امرأة تلبس الغارارا ، بصوت عال :

— مسكينة هذه الطفلة ! فعندنا لا تعامل الأرامل معاملة سيئة . بل بالعكس ، فنحن نرى أن من واجبها أن تتزوج من جديد . بل إن نبينا قدّم المثل : فامراته الأولى خديجة كانت أرملة .

ويعلو الهمس بين الحاضرات . وما من واحدة تجرؤ على التعليق ، أوليست الراني بمسلمة ؟

وتقدمت وراء سينا رفيقتها بارفاتي .

— هوزور ، لماذا لاتاتين أنت إلى القرية . فهناك عدد كبير من النساء اللواتي يردن أن يرينك ، ولكنهن لا يجرون على الاقتراب من القصر . ثم هنالك الأخريات ، جماعة اللامساس ، اللواتي منعهن رئيس القرية من المجيء لإزعاجك .

— جماعة اللامساس ؟

— بلى ، إنهن اللواتي لا يجوز الاقتراب منهن ؛ بل إن ظلهن نفسه يُلوّثنا . ويديهي أنك لن تستطيعي الذهاب لزيارتهم ، ولكنهن على الأقل سيرونك عن بعد ، وهذا وحده يسعدهن !

ولكن، كيف تقول لهذه الطفلة، وهي رانيتها، أنها لا تملك الحق في الخروج من دائرة القصر؟

— سآتي، يا بارفاقي. أعدك بذلك.

— لن تذهبي. وهل تعتقدين أنك ستحملين شيئاً إلى هؤلاء الناس، بالاحتلاط بهن. إنك ستجرحينهن، وتؤذين مشاعرهن، وهذا كل شيء.

— سأذهب.

فامتلاً أمير غضباً. ولكن سلمى قرّرت ألا تهادن. فهناك نساء، من أكثر النساء شقاءً، ينتظرنها. فهل يمكنها أن تخيّب آمالهن؟ أو أن تحملهن على الظن أنها غير مبالية؟

— نيلوفر ودورو شيفار يذهبن لزيارة المستشفيات والمياتم.

— ولكن لا القرى.

— بلي، ولديّ صور!

ولقد كدبت، ولكن ماذا يهم ذلك. فقد سجّلت نقطة. فكنائن نظام، موضع إعجاب الهند كلها؛ أما ما يعملنه، فما من أحد يجد فيه ما يلام.

ويتردد أمير.

حسناً، لنسأل الراني سعيدة، عن رأيها في هذا الموضوع. وهو واثق تماماً من حسن محاكمات السيدة العجوز. أولم تصرف شؤون الدولة، خلال خمسة عشر عاماً. وهي أفضل من يعرف ردود فعل الريفات اللواتي ييقن، في رأي أمير المقسم بين ثقافته الإنكليزية، وحساسيته الهندية، ييقن ألغازاً لا تكشف.

وتجيب الراني:

— لنذهب. فقد تغيّرت الدنيا هذه الأيام. وحتى أنا، كنت على الأرجح، سأرتكب عدداً أقل من الأخطاء، لو ذهبت فتحققت مما يقال لي.

فيقطب الراجا حاجبيه ، ويعجب لهذه الحرية في الرأي لدى جدّته ، التي لم تخرج قط من القصر . ولكنه تعهد بأن يعمل بنصيحتها .

فقال لسلمى بلهجة جافة :

— حسناً . ستذهبين ، ولكن سيصحبك حارسان مسلحان .



وتكتب سلمى لأُمها، فتقول: إنك لا تستطيعين أن تتخيلي ماهي القرية الهندية. فمن شرفات القصر، تبدو جدران الطين المدكوك، وسقوف القش والتراب، ذات شاعرية خاصة بها. ولكن إذا نحن اقتربنا منها... فأية رائحة حريفة تصدر عنها، فتمسك بخناقك، إنها رائحة الفضلات الإنسانية التي ستغوصين فيها، إن لم تحسني الانتباه. فالفلاحون يتخفون من فضلاتهم، حيثما كان، وفي أقرب مكان من القرية، إذا أمكن. وهم لا يتخرجون من ذلك، لأن هذا الأعمال طبيعية جداً، أليس كذلك؟ وهكذا فإنك عندما تمرين في هودجك، فسترين أنهم جلسوا لحاجتهم هذه، على طول الطريق، وعلى وجوههم سيماء التأمل العميق. ومع ذلك فإني لم أر بينهم امرأة.

وليس للبيوت من نوافذ. ولكن لها باباً صغيراً يطل على الفناء الداخلي، حيث يعيش كل الساكنين. وهذا الفناء يستخدم كمطبخ، وكغرفة طعام، وغرفة استقبال، وكغرفة عادية أثناء الصيف. بل إنه ليس في البيت إلا غرفة واحدة، أو اثنتان، إذا كان أصحابه أغنياء، وفيهما أو فيها يعيش الرجال والنساء بعضهم إلى جانب بعض، ومتزاحمين عندما يأتي الفصل البارد. ولكن الغرفة كبيرة بدرجة كافية، إذ ليس هنالك من أثاث، غير السرير الواحد أو السريرين من الحبال، وصندوق لحفظ ثياب الأعياد.

«ومن بعيد، كنت أستغرب أن أرى نساءً يقضين ساعات وساعات في عجن نوع من

الطين ، ويجعل منه مكعبات مبسّطة ، كن يلصقنها على جدران بيوتهن . وعندما تبيسُ هذه المكعبات في الشمس ، كن يكسّنها في الفناء ، على صورة أهرامات ، فنية تماماً ، على ما أعتقد . حسناً ، وهل تعرفين ماذا يعجنّ بأيديهن ، بكثير من العناية ؟ فضلات البقر ! ويبدو أن هذا من أحسن ما يستعمل كمحروقات . فيدفع الإنسان نفسه ، ويطبخ به . أفتضحكين ؟ ولكن ربما كنا نحن المضحكين ، بتقززنا من كل ما يخرج من الجسد .

« ويجب أن تقرأي في الصحف أخبار الاضطرابات القائمة بين المسلمين والهندوس . فاطمئني . إن القرى هنا هي نماذج للتسامح بين الطوائف . ففي مدينة أوجبال ٦٠٪ من الهندوس و ٤٠٪ من المسلمين ، وهؤلاء الناس يتعايشون بصورة سلمية . لاشك أن المساكن والآبار مفترقة ، فبعضها يقوم حول المسجد ، والآخر حول المعبد . ولكن الناس يتزاوون ؛ لا من أجل الغداء أو العشاء بطبيعة الحال ، من حيث أن الهندوس يعتبرون المسلمين غير طاهرين ، وأنا منهم ، ولو كنت رانيتهم . وعلى كل حال فإنهم مقسّمون في عدة طبقات ، وكل منها يعتبر الأخرى غير طاهرة باستثناء البراهمان المنحدرين من الطبقة العليا ، والذين يشتركون في الجو الإلهي ، ويسمون أنفسهم بانديت ، أو « العلامة » ، حتى ولو كانوا أميين .

« وفي أسفل السلم الاجتماعي توجد مخلوقات محتقرة من الناس جميعاً . وهم — بالكاد — كائنات إنسانية . وهؤلاء هم كل من كان خارجاً عن الطبقات hors Castes ولا مكان لهم في المجتمع . وهكذا كان يطلق عليهم اسم « اللامساس » ، وكل من أصيب بالاتصال بهم ، عليه أن يقوم بشعائر تطهيرية . ونراهم يقيمون حوالي القرية ، في أكواخ بائسة ، ويكلفون بالأعمال الموصوفة بأنها مخجلة كتنظيف المراحيض وتصلح الأحذية . وليس لهم الحق في الصلاة في المعبد ، ولا استقاء الماء من نفس البئر ، كالأخرين . فإذا جفت آبارهم ، وهذا ما كانت عليه الحال ، في الأيام الأخيرة ، فإن على النساء أن يقطعن أميالاً وأميالاً ليجدوا بئراً يستقون منها .

« وعندما ذهبت للمرة الأولى إلى القرية ، أثرت ثورة حقيقية عندما طلبت الذهاب إليهم لأراهم . وكنت أظن أنني أسرهم ولكنني أظن أنني أخفتهم ، لا من نفسي ، ولكن من أن ينتقم منهم الآخرون ، بسبب هذه المخالفة للقواعد . أما الآن فقد تعودوا . ليتك تعرفين كم هم ممتنون ، لا بما أحمله إليهم ، ولكن من وجودي بينهم ! وكم هم ناعمون لطفاء ! فما من مرّة قدّموا إليّ فيها كأساً من الشاي (مخافة أن أتلوّث بهم) .

« ولكي لا ألوث بيوت الآخرين ، تعودت ألا أزورهم إلا كآخر من أزور . وأظن أن هذا حل

المشكلة . ولأول مرة ، منذ وصولي إلى الهند ، أشعر أنني حقاً سعيدة . وأخيراً فأنا أشعر أنني نافعة ومحبوكة .

ومنذ الآن تذهب سلمى عدة مرات في الأسبوع إلى القرية ؛ وتحمل معها أدوية وثياباً وكذلك دفاتر وأقلاماً للأطفال . ولقد رُتبت الأمور بحيث يتركها الحرس ، بدءاً من باب الدخول ، ويذهبون ليشرّبوا الشاي مع القدماء .

وهكذا تتحرّر هي ، وتذهب فتجالس النساء ساعات وساعات . وتتنازع البيوت شرف استقبالها ، وعليها أن تكون شديدة الانتباه حتى لا تثير الحساسيات . ومع ذلك فإن لها من تفضلهن على غيرهن : كالثنتين الهنديتين اللتين كانتا أول من أوحى لها بزيارة القرية ، ولا سيما سينا ، الأرملة الصغيرة ، التي وضعتها تحت حمايتها ، ثم كانيز فطمة ، وهي مسلمة شديدة العزم ، حادة الذهن ، لا تتردد في إبداء رأيها حتى ولو كان ذلك يثير عليها نائرة الآخرين . وهذه المرأة ، ذات الجسم الضخم ، على وجه لا يزال ناعماً ، رزقت أحد عشر ولداً وبناتها التي عمرها أربعة عشر عاماً ، رزقت من جديد طفلاً . ولما كانت سلمى فضولية ، فإنها لم تتردد في سؤالها عن عمرها . ففكرت كانيز فطمة ، وقالت :

— أتذكر أنني كنت أبكي ، عندما تركنا أبي ، في بداية الحرب العالمية ، ليقاقل مع مفرزة إنكليزية . ويجب أن أكون يومئذ في الثالثة من العمر .

ثلاث سنوات في عام ١٩١٤ . تنظر إليها سلمى مذهولة فإن كلاهما في السابعة والعشرين من عمرها .

وذاق يوم جاءت كانيز فطمة وإحدى عشرة امرأة أخرى ، عليهن سمة التواطؤ ، وأخذن سلمى على حدة .

— راني «صاحبة» ، إنك تعرفين الكثير من الأشياء ، ونحن فلاحات مسكيات ، جاهلات .

وضحكت سلمى من هذه المقدّمة . ولقد أدركت منذ مدة طويلة أن هؤلاء النسوة يتفوقن على الكثيرات من المتفقات ، فيما يتصل بالحكمة ، ووضوح الرؤية . ولكن إذا نحن قلنا هن ذلك ، خطر ببالهن أننا نسخر منهن ، لأنهن يحتفظن بأكبر الإعجاب ، لأي إنسان يقرأ ويكتب . وتابعن حديثهن ، فقلن :

— نحن نريد أن تعيش بناتنا حياة أفضل من حياتنا . ولكن كيف يتأتى لهنّ ذلك ، إذا كنّ لا يعرفن غير عزق الأرض ، وطبخ الشاباتيس . وكان الراجاه العجوز قد أمر ببناء مدرسة للصبيان . والنتيجة الآن ، هي أن رجالنا يحتقرونا ، حتى ولو كانوا لا يعرفون إلا التوقيع باسمهم . فياراني «صاحبة» ، نريد نحن مدرسة لبناتنا .

وينظرن إلى سلمى ، وعيونهم تلمع بالأمل . فالمدرسة بالنسبة إليهن ، هي الحل لكل المشكلات ، أي الدخول إلى الجنة .

— وماذا يرى أزواجكن في هذا الأمر .

— إننا لم نقل شيئاً . ولو فعلنا ، لضربونا . فنجو ، بصورة خاصة ، أن لا يعرفوا أننا كلمناك في هذا الموضوع .

— وهل النساء الأخريات متفقات معكن في هذا الرأي ؟

— تقريباً كلهن ، ولكنهن يدّعين أن رجالهن لن يسمحوا لهن بذلك أبداً . ولكن إذا قرّر الراجاه ذلك ، فما عساهم أن يفعلوا ؟

وتعد سلمى بأنها ستكلمه في هذا الأمر . فأقبلت النساء يقبلن يديها ، من فرط حماستهن وفي رأيهن أن المشكلة محلولة . فبدأن يناقشن في التفاصيل . فأين تبنى المدرسة ؟ وكَم من الطالبات ؟ وأين سنجد المعلمين . وتؤخذ سلمى باللعبة : فكلما فكرت في الأمر أكثر ، ازدادت قناعتها بأن المدرسة ، هي فعلاً أحسن وسيلة لمساعدتهن .

وسلمى مستهامة الفؤاد بنشاطاتها الجديدة ، حتى إنها مساء ذلك اليوم ، عندما التقت بزوجها أمير ، وأحاطها علماً بالأحداث التي تهر العالم ، وقلقه من جراء ذلك ، وجَدَّت الكثير من العناء في الاهتمام بما قال . ومتابعته في كلامه . فنجاحات هتلر العسكرية ، والتهديد الذي يثقل

كاهل أوروبا، والحرب المدنية في إسبانيا، والمشروع الإنكليزي في تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، كل ذلك يبدو لها وكأنه يجري في عالم آخر، عالم ليس بينها وبينه أية علاقة. ثم إنها لا تفهم، ولم تفهم قط، أن يقلق الإنسان من جراء حوادث ليس له عليها أي سلطان. فتتظر إلى أمير، ببعض الشفقة، ويقول هو لنفسه، بشيء من الغضب، إن النساء هنّ حقاً حيوانات صغيرة معنيّات فقط بمحورهن.

لكن جحر سلمى الآن، هو بادالبور كلها، وهو الهند أيضاً. وهكذا فقد تخلّت عن لا مبالاتها عندما حدّثها أمير عن المواقف التي اتخذها حزب المؤتمر.

— إن رجال الرابطة الإسلامية، غاضبون، وذلك لأن المؤتمر قرّر تشكيل حكومات محلية مؤلفة حصراً من عناصره هو. ولكن الحزبين كانا قد اتفقا، في هذا الشتاء، على توحيد قواهما ضد الحركات الرجعية التي يؤيدها البريطانيون. وكان من المفهوم ضمناً أن يشارك منتخون من الرابطة في تشكيل الحكومة. وفيما يتعلق بلوكوف وحدها، على سبيل المثال، فإن من حق الرابطة أن تعيّن اثنين من الوزراء، من أصل سبعة.

ولكن رئيس المؤتمر، نهرو، يدّعي اليوم أن هذا الأمر مستحيل. وأن هذا لا يتفق مع قواعد حزبه، وأنه إذا كان يجب أن يوجد مسلمون في الحكم، فإن على هؤلاء أن يتركوا الرابطة، ويصبحوا أعضاء في المؤتمر. بل لقد كان من الوقاحة بحيث كرّر جملة المشهورة: «إنه لا يوجد إلا حزبان في الهند هما المؤتمر والحكومة (أي الإنكليز)، وعلى الباقي أن يكونوا تبعاً». وهو يأبى أن يفهم أن ذلك يسبب قلقاً للأقلية المسلمة.

ترى ماذا سيكون وضع هذه الأقلية في هند يقودها الهندوس؟ إن محمد علي جناح يطلب أن يُحدّد هذا الوضع بصورة مسبقة. ويجيبه نهرو بشيء من الاحتقار: إنه ليس هالك أية مشكلة بين الطوائف، وإن الرابطة الإسلامية ليست أكثر من منظمة من مخلفات القرون الوسطى، وليس لها أي مبرر في الوجود.

وماذا يقول غاندي؟

إن غاندي لا يدخل في مثل هذه التفاصيل. وهو يبحث عن الحقيقة: وفي كل صباح يقرأ الباغافاد-جيتا، والتوراة والقرآن. وعنده أن كل الناس إخوة. وتُحل كل المشاكل، إذا هم اتبعوا وصاياه، وبذلوا جهدهم في الوصول إلى النقاء الأخلاقي.

لكن « جناح » وعدداً متزايداً من المسلمين ، يدّعون أن المهاتما هو رجل كذاب ، يستخدم الدين لغايات سياسية . وأنا لا أظن ذلك صحيحاً . وعندي أن غاندي محنون ، يتابع تحقيق طويياء غير واقعية . ولكن هذا النوع من الطويياء مغر ، ومموده هو عظيم في الجماهير . إن غاندي هو الشرارة التي تشعل النار . أما المؤتمر فإنه يُحدّد بعناية ، نوع الطريق الذي يجب أن تسلكه هذه النار . والواقع أن غاندي لا يعي الصورة التي يستخدم بها .

وفي هذا المساء اجتمع كهول المدينة ، ودعوا إلى الاجتماع رؤساء الأسر . ودعوا الجميع ، مسلمين وهندوس ، باستثناء جماعة اللامساس بطبيعة الحال . إذ يحدث شيء خطير جداً ، في البلد ، لم تستطع النساء ، بالرغم من كل جهودهن ، أن يعرفن عنه شيئاً .

وكان الرجال حالسين ، يفكرون ، على أكياس من القنب . وكانت الهوكاه تنتقل من فم إلى فم . وما من إنسان يتكلم كيفما اتفق ، أو بخفة ، لأن القضية جدية ، ويمكن أن تكون لها نتائج خطيرة بالنسبة لمستقبل الجماعة .

— إن الزمان قد تغيّر . إذ لم أفكر قط أن أمراً كهذا قد يحدث ، في حياتي أنا .

— يحدث ماذا ، ياعم ؟ إنه ما من شيء قد تقرّر .

وقال آخر :

— منذ البداية عرفت أن هذا الأمر ستكون له عواقب سيئة . فهذه الطريقة في المجيء إلى القرية ، شيء جديد ، ما من رائي قد فعلته في الماضي قط . ولو أنها اكتفت بزيارة الأسر المحترمة ، لما ساءنا ذلك ، ولكنها تذهب وتجلس مع « اللامساسيين » لقد رمتنا بالعار ، وأصبحنا أضحوكة في القرى الأخرى .

وقبل الرجال وجهة النظر هذه ، وعليهم سمة الغضب .

ويعود أحد الحاضرين ، فيقول :

— إنها ليست بسيطة . إذ لم يحدث قط أن رائي قبلها اهتمت كما اهتمت هي بنسائنا

وأطفالنا ...

— نعم، إنها تهتم بنسائنا، وتزرع في عقولهم أفكاراً جديدة! وأصلاً، فمن يرجو الخير من واحدة إنكليزية؟

— إنها ليست إنكليزية، بل هي مسلمة.

— ربّما... ولكنها في الأعماق إنكليزية مع ذلك.

ونهض رئيس القرية وقال:

— أقترح أن نرسل وفداً من أكثر الناس حكمة، ليذهبوا معي ويكلموا الراجاه. وأوصي بالسرعة، قبل أن يتخذ القرار. إذ متى تأخرنا، فلن يكون أماننا إلا أن نطيع.

ويوافق الحاضرون جميعاً على اقتراحه: فشيخ القرية رحل يقظ. وهو يعرف كيف يجد الحلول حتى لأكثر المشكلات تعقيداً. فيختار بعض الرجال. ولا يناقش أحد في ذلك. إذ يعرف كل إنسان من هم الأكثر حكمة. وأخذوا يتيؤون، وقلوبهم مطمئنة: إذ إن الراجاه لا يمكن إلا أن يكون من رأيهم. وبالرغم من ثقافته الإنكليزية فإنه على كل حال، واحد منا.

— كان عليك أن تخبرني سلفاً. فماذا يكون وضعي، عندما يأتونني فيكلمونني عن «المشروع» وأنا لا أعرف شيئاً عن الموضوع؟

وخرج أمير عن طوره، إذ إن سلطته عيب، أمام فلاحيه، وبسبب من امرأة!.

— لقد حدثت الراي سعيدة بالأمر، وكنت على وشك أن أكلمك به.

ولكن الراجاه يمتنع عن السؤال عن رأي جدّته في الموضوع؛ إذ إن السيدة العجوز واقعة تحت سحر سلمى.

— وبديهي، ألي أكّدت للفلاحين أن ذلك لم يكن إلا فكرة عابرة، وأن عليهم أن يطمئنوا، بأنّها لن توضع موضع التطبيق.

فانتصبت سلمى، محمرة جداً من الحجل وقالت:

— ولمّ إذن؟

— لأن مجتمعتنا ليس المجتمع الغربي؛ فهنا لا تذهب البنات إلى المدارس.

— ولكنني لم أكن أنا الذي أثرت هذه الفكرة . بل إن الفلاحات هنّ اللواتي قلنّها لي .
ويرفع الراجاه حاجبيه ، مذهولاً .

— وهذا يعني أن الهند في طريقها إلى التغيّر . وهذا ما لم تُقنِعْني به خطب رجال السياسة .
ويتنهد .

— كنت أتمنى أن أسمع بهذه المدرسة . ولكن على الرغم من أنني الراجاه ، فإن ذلك لم يكن من سلطتي . ولقد شعرت من حديث الوفد ، أن الرفض كامل . فهم يظنون أن تعليم النساء يؤدي إلى تمردهن ، وفساد الأخلاق ، واختلال الأسرة ، وشقاء الأطفال ، وبكلمة واحدة ، يؤدي إلى خراب المجتمع . ولن أستطيع أبداً إقناعهم بالعكس !

« هيا الآن ، واكتفي بعمل الإحسان ، فهذا لا يحل شيئاً . إني أعرف ذلك ، ولكنني كنت حذّرتك : إنه لا يمكن أن نفعل شيئاً ضد إرادتهم . وعندي من القضايا الآن ، ما لا أحتاج معه إلى المزيد ... » .

ويشرح أمير لسلمى أن حكومة المؤتمر صوتت على قانون يمنع الأمراء ، وكبار الملاكين من طرد فلاحهم الذين لا يدفعون أجور بيوتهم .

— وهذا يعني أنه لن يكون لنا أية وسيلة للضغط عليهم ، وأنهم إذا قرّروا ألا يدفعوا ، فبين يوم وآخر ، ستفرغ خزائن الدولة ، لأنني أرفض أن أستخدم العنف .
وأخذ يُفَتّل شاربيه .

— إنه لأمر غريب حقاً ، فلقد كنت دوماً من القائلين بالإصلاح الزراعي ، بغية توزيع أفضل للثروات . لكنني لا أحتمل أن يفرض ذلك عليّ فرضاً ، لا سيما وأن أولئك الذين يقرّرونه ، أي الرجال الشرفاء من أعضاء المؤتمر والصناعيين ورجال الأعمال ، هم غالباً أغنى بكثير من أغنياء ملاكي الأراضي ، ومن ملوك الدول الصغيرة . ولكن بطبيعة الحال نحن الذين نُتَّهم بأننا المستغلون الحقيرون ...

وفي الأسابيع التالية ، بدأت قرى بادالبور تستقبل زيارات غريبة . وكان هذا يحدث مع هبوط

الليل . فيأتي رجلان أو ثلاثة ، ويطلبون مقابلة رئيس القرية ، وهم يعرفون اسمه . ويعرفون بأنفسهم على أنهم موفدو حزب المؤتمر ، حزب الحرية الذي سيطرد الإنكليز من الهند . تم يخرجون من حقائبهم الجلدية أوراقاً مسودة بإشارات صغيرة ، تحمل أختاماً فخمة . ويقولون إن هذه هي القوانين الجديدة التي صوّت عليها الشعب . ويطلبون دعوة رجال القرية ، ويشرحون لهم أن ساعة العدالة قد أوفت ، وأن عليهم أن يتمردوا على راجاتهم الذين يستغلونهم بصورة مخجلة ، وأن يأبوا دفع الضرائب . ولا يمكن أن يصيهم أحدٌ نأذى ، إذ إن القانون الجديد يحرم الطرد ، وحتى الملاحقة . فإذا حاول الراجاه أن يخيفهم ، فإن حزب المؤتمر القوي ، يهب لمساعدتهم .

ويصغي إليهم الفلاحون مذهولين ، وبعضهم يغيره الكلام ولكنهم يظنون كثيري الشكوك — إذ كيف يطعن الإنسان إلى قوم جاؤوا ولم يعرفهم أحد من قبل ؟ — ويطل البعض الآخر معادين : فكل هذه القصص لن تحمل إليهم إلا المزيد من المشاكل . والراجاه أقوى من حرب المؤتمر ، هذا فضلاً عن أنه ليس لديهم ما يلومونه عليه : فلقد ظهر دوماً أنه رجل عادل ، وحسن الفهم .

ويجب هؤلاء الغرباء :

— أليكون إذن راحاهكم عادلاً ؟ ولكن العدل يقتضي أن تكون الأراضي ملكاً لكم . وهذا ما يعدكم به حزب المؤتمر . ولهذا يكرهنا سيديكم ، ويدعم الإنكليز . وهو لا يريد للهند الاستقلال ، لأنه يعرف أنه سيفقد كل ممتلكاته ، وأنكم أنتم سترثونها منه . فقولوا لنا : ألا يغريكم أن تسكنوا قصره .

وأمام مثل هذه الفرضية ، يبدأ الفلاحون بالضحك . ولكن الحجج بدأت تؤثر في العقول .

— إن البرهان على أن الراجاه ضد الحركة الاستقلالية ، هو أنه تزوج من إنكليزية . فكيف يمكن أن يطلب طرد الإنكليز من الهند ؟

فيتهامس القوم : وبعضهم يوافق بصوت عالٍ .

ويتابع الغرباء القول :

— إن الذين يقبلون بدفع الضريبة ، ليسوا بأناس وطنيين . بل هم خونة للقضية . وهم يقضون لا على مستقبلهم وحده ، بل على مستقبل أولادهم ، وأحفادهم . هيّا . كونوا رجالاً !

وحزب المؤتمر سيساعدكم . وعليكم أن تتبعوا تعليماته بكل إخلاص ، لأنه لا همّ له إلا مصالحكم .

— بعد مصالحة طبعاً !

وفي الحقيقة ، فإن هذا الاستغراب أو التساؤل قد ذاع ، بما يرافقه من النقد الجارح . وهو يتألف من ثلاث كلمات . ولكنها كانت كافية ، فيفهم العريب الذي كان يتكلم ، ويحس بأن الفلاحين عادوا إلى الشك فيه ، والحذر منه ، فيحفّص صوته .

— وبطبيعة الحال ، فأنتم أحرار . ففكروا في الأمر ، وسأعود إليكم .

وهكذا ، فإن الفلاحين ظلوا عدة أسابيع ، يتناقشون فيما بينهم ، ويصغي بعضهم إلى بعض ، وترتفع أحياناً حدة النقاش . ثم ترسل وفود إلى القرى الأخرى لسؤالها عما تراه في هذا الموضوع . ولكنهم لا يصلون إلى قرار . ولا يبقى إلا القليل ، حتى يذهبوا ويسألوا الراجاه : فلقد بدا دوماً حسن النصح .

وأمر يعرف كل ما يجري ، في كل قرية ، إذ إن له جواسيس ، يسمونهم « أهل الثقة » . ولكن هل يقولون له الحقيقة كلها ؟ ربما كانوا يخفون عنه الخطر لكي يحسن الظن فيهم ، وربما ، على العكس ، يضخمونه ، لكي يعطوا لأنفسهم أهمية يحبونها ؟ ولقد اعتاد أن يلتمس النصح من سلمى التي تصلها الأخبار ، عن طريق النساء ، بصورة أوثق وأكثر إخلاصاً . وأكثرية هؤلاء تدين تردد الأزواج . إذ ليس هن أدنى علاقة بحزب المؤتمر الذي لم يسمعن عنه شيئاً قط ، ولا بالإنكليز ، لأنهن لم يرينهم قط ، ولأن سلطتهم ، شيء مجرد بالنسبة إليهن . أما الشيء الحقيقي ، بالمقابل ، والشيء الذي يؤثر في حياتهن كل يوم ، فهو قوة الراجا ، وطيبُ الراي . وهنّ عازمات على البقاء وفيات لهما ، كما كان عليه الحال لدى أمهاتهن وجداتهن ، والأجداد جملة ، منذ قرون عديدة . وكيف ينسى هؤلاء الحمقى ، من أزواجهن هذا كله ، ويَدْعُونَ للآخرين أن يقلبوا عقولهم ، بالأحاديث المنمقة ، لهؤلاء الغرباء الزائرين ؟ وسيعرفن كيف يرغمنهم على العودة إلى العقل !

وأخيراً جاءت الرياح الموسمية ، وبدأت السماء تتحلص من هذه الحرارة الثقيلة التي كانت ترقق الناس والحيوانات منذ شهرين . وانهالت الأمطار على القرى ، وثقبت سقوف القش ، وأغرقت ما كان داخل البيوت . وقامت النساء بوضع الصناديق وأكياس الحب على سقائف صنعها كيفما اتفق . ولكن على الرغم من كل هذه التدابير ، فإن الثياب وما آذخر من مواد التموين ، قد أصابها العفن ، وأفسدها بما لا إصلاح معه .

وأصبح الريف أسود، محزوناً. وأحياناً، وبين عاصفتين، كانت السماء تضاء بقوس كبير يختلط فيه لون البفسج، والذهب، والورد، وكان الأطفال يصفقون بالأيدي من فرط الفرح. ثم إن الشمس تعود فتظهر مداعة، محسنة. فتلمع الأوراق المغسولة من الغبار المتراكم عليها، وتسترد الطبيعة ألوانها، ويخرج الرجال لكي يتنفسوا الهواء الصافي، ورائحة الأرض الطيبة. فيبدو العالم وكأنه خلق من جديد.

وتستفيد سلمى من هذه الفترات الهادئة، فتعود لزيارة القرى، وتوزع الأغذية والتياب الناشفة، المُرحَّب بها أكثر من أي يوم آخر. ولكن لا مجال لاستخدام العربات في الطرق التي تحولت إلى مستنقعات. وإذن فلا بد من التنقل على الداندي وهو نوع من الكراسي يحمله أربعة رجال يعرفون في الوحل حتى الركب. وخلال ستة أشهر قصتها في الهند، مازالت تحس دوماً بالعار، عندما ترى كائنات إنسانية تقوم مقام الحيوانات. وحيوانات الحمل خاصة. ولكن الناس جميعاً، والحمالين على رأسهم يرون أن هذا عمل كغيره، وكان أمير قد أوضح لها أن الإفراط في التحسس لا يفيد إلا في جعل هؤلاء يفقدون ما يكسبون منه عيشهم. واقتنعت نصف قناعة، وقبلت ذلك، محاولة بالكثير من البسمات، والهدايا، أن تستر على آثامها.

ومع موسم الشتاء بدأت تظهر الزواحف والجُرذان السوداء، في القرى. وكان الفلاحون يطردونها برميها بالحجارة. ولكن لا يمضي يوم إلا وطفل قد عُصّر. وعلى الرغم من اللزقات، والمراهم التي يستخدمونها لهذه المناسبة والدواء الذي يصفه «الحكيم» أي الطبيب البلدي الذي يعالج بالنباتات، فإن الطفل لا يكتب له الحظ دوماً في البقاء على قيد الحياة.

وذات يوم، وعندما كانت سلمى تستريح، رأت كانيز فطمة تصل، ووجهها مضطرب.
— راني «صاحبة»، إن امرأتين قد ماتتا في القرية. ومنذ يومين كانتا تتقيآن قيثاً أسود. فليحمننا الله. وأظن أن هذا هو المرض.

— أي مرض؟

— المرض، هو دالك الذي لا نبرأ منه.

فنهضت سلمى، قلقة. إذ يجب أن تكلّم أمير بأقصى سرعة. فيصل هذا فوراً، ويسأل الفلاحة، ويطلب التفاصيل وكان وجهه يظلم أكثر فأكثر كلما أمعنت في وصفها لما يحدث.
وقال:

— يجب علينا فوراً أن نأتي بطبيب من المدينة ، وأنا أخشى أن يكون المرض هو الطاعون .

— الطاعون ... ؟

وتفاجأ سلمى بهذا الخبر ، وتجمد فرقاً منه . أهو الطاعون ؟ ... ولكنها كانت تظن أن هذا مرض تُحصّت به الأرمنه الغابرة ! وتعود إليها قصص العدوى الخيفة ، والمدن المصابة ، والجثث الملقاة على الأرض بالآلاف . وأخذت تنظر إلى كانيز فطمة ، هلعة : يجب الهرب ، والهرب بأقصى سرعة ! وعندما رأى أمير ما حل بها من الاضطراب ، أخذ يطمئنها .

— إن المرض خطير ، ولكننا لسنا في القرون الوسطى . والطاعون وباء مهلك ، ولكننا تعلمنا طريقة مكافحته : ونحن بحاجة إلى أدوية ، وتدابير صحية عنيفة . فهل تريدين العودة إلى لوكنوف ؟

— وأنت ؟

— يجب عليّ ، أولاً ، أن أهتم بوضع الأمور في نصابها ، ولا أستطيع أن أتخلّى عن فلاحيّ بلا عون مني ، ذلك أنني إذا تخلّيت ، فلن يكون لهم أدنى حظ في النجاة منه .

الهرب .

وتغلق سلمى عينيها ، إنها خجلة . ولكن الخوف أكبر .

— أحسب أنني ... أنني سأبقى .

ولكن ما الذي دفعها إلى التلطف بهذه الكلمات ؟ ذلك أن العكس هو ما أرادت قوله . وهذه صورة أخرى لزهوها الملعون ! أفيكون ذلك من جراء التعطف الذي برز في لهجة أمير ، أم من جراء نظرة كانيز فطمة ؟ ...

وستتذكر سلمى تلك الأيام التي تَبِعَتْ هذا النبأ ، كما لو أنها ليلة طويلة قضتها مع الكوايس . وكان الطبيب الذي جاء من المدينة شاباً . ذلك أن زملاءه الأكبر عمراً ، والذين أصبحوا من ذوي الخبرة ، لم يعد يعينهم أن يمضوا إلى الريف ، لا سيما إن كان ذلك من أجل مكافحة وباء في مثل هذه الخطورة . وهم لا يرون أي مبرر للمغامرة بحياتهم . ولكن الدكتور رضا (رزا) طبيب

متفرد. فهو يغلق عيادته مرتين في الأسبوع، ويذهب إلى القرى. وكان الراجاه قد سمع به، ورجاه الآن أن يأتي.

وبعد أن زرق سلمى بمصل — « موثوق نسبة ٩٥٪ » — طلب منها، كما لو أن الأمر طبيعي تماماً، ما إذا كانت تريد أن تساعد.

— وإلا فإنني سأحد الكثير من العناء في الدخول على الفلاحات: فأكثرتهن ترضى بالموت، وتفضله على أن يقوم رجل بفحصها. ولم أجد زميلة من الزميلات ترضى بأن ترافقي...

ويسغي أن يكون الدهول فد ظهر على سلمى. فابتسم، وقال بصوت عذب:

— وعلى كل حال، فأنت رانيتهن، وكما يقول المسيحيون عندما يتزوجون: « للخير كما للشر... ».

وقالت سلمى، على الرغم من أن جسدها يتأذى على هذه الفكرة: بلى.

وحلال أيام وأيام، كانت تتبع الطبيب، كآلة أوتوماتيكية، ويداها مغطاتان بالقفازات. وأدنى الوجه مستور بالقطن. وكانا يدخلان البيوت. ولسوء الحظ كان الأضعف مقاومة، من الأطفال والنساء، قد أصيبوا. وكانت وجوههم مصبوعة بلون قريب من البنفسجي. ويكادون يختنقون، ويبرزون برازاً سائلاً أسود. أما الرائحة فهي لا تحتمل. وتقف سلمى عن التنفس، من شدة الهلع. ويهدوء يتلمس الطبيب النبض، ويفحص الحنجرة، والإبطين، والأعين، ويشق الغدد التي يتفجر منها القيح، ويظهر الجروح، ويخفف العرق، ويشجع، ويطمئن. وعرضت كانيز فطمة وامرأتان أخريان أن تساعداه. فتتظر سلمى إليهما، بمسكن بالأحواض، ويغلي الماء، ويغسلن الصديد والبراز. أما هي فإنها تعجز عن القيام بأدنى حركة، فتتذكر استامبول، ومستشفى هاسيكي، حيث كانت أمها تأخذها معها لزيارة الجنود الجرحى. وتتذكر خوفها وغثيانها.

ولكن الدكتور رضا لا يراعيها.

— إني بحاجة إلى مساعدتك، فأعطيني الضمادات.

وينتظر. فتتقرب من السرير شبه مرغمة، وتقدم القطن لفائف التضميد.

— تفضلي بالبقاء إلى جانبي، وإعطائي الأدوية.

فتنقاد لما يطلبه منها، وكأنها مسحورة. وخلال دقائق تبدو وكأنها لا تنتهي، تراه يقبل على عمله برقة ونعومة. ثم إنه ينتصب، ولأول مرة تبتسم عيناه عندما يرى سلمى، ويقول: — ... شكراً.

فتهرز رأسها، وقد فوجئت بهذا الطبيب، وهذا الذكاء.

— كلا، إن عليّ أنا أن أشكرك.

وفي الأيام التالية، يراها تبقى إلى جانبه. وما من مرة طلب منها أن تمسّ المرضى، بل اكتفى منها بأن تكون هنا، حيث هو، للحديث معهم، والابتسام لهم.

وعندما مضى أسبوعان، كان الوباء قد أوقف. ومن ألفي قرية مات خمسون: إنها أعجوبة. فيقرر أمير عندئذ أن يعود إلى لوكنوف. أما الدكتور رضا فيبقى بضعة أيام أخرى في القرية لمزيد من الاطمئنان.

وفي صباح يوم السفر، جاء لتحية سلمى. فقالت له:

— أيمكن أن تصدقني. إني حزينة تقريباً أني أسافر.

— وأنا إذن! إنني أفقد أفضل ممرضة عندي!

ويتمازحان. لكن ضحكاتهما تبدو مزيفة. فلقد كانا قريين جداً، بصورة يندر أن توجد. ولكن كل واحد الآن مضطر للعودة إلى العالم الذي يخصّه. وعلى الأرجح فإنهما لن يلتقيا أبداً. وهو الأفضل — إذ ماذا عسى الراي والطبيب الصغير، أن يقول أحدهما للآخر؟

وكان المطر يسقط مدراراً، عندما تركت السيارة القصر. ومن خلال الستائر تنظر سلمى، والقلب منها منقبض، إلى الزول الساكن الواقف تحت هذه الأمطار.



— إنك لمصفرّة جداً، يا بنيّتي .

وتتفحص الراني ، بعينها الثاقبة ، وجه سلمى التي جاءت تقدم احتراماتها بعد عودتها مباشرة من بادالبور .

— أرجو ألا تكوني قد عُديت بالمرض ! أو أنك بالمصادفة — وكانت نظرتها تدقق في الزول الرقيق — في وضع ... ممتع ؟

وتتَنهّد الراني ، عندما لاحظت المرأة الشابة مالدی المرأة من دهشة وذ هول .

— أعتقد أن الأمر ليس هذا . إنه مضجر . فمنذ ستة أشهر أنت متزوجة ! وأنا أخبرك وأحذرك . فالناس قد بدؤوا يهذرون ...

ولكن لماذا تتدخل ؟ وفي أي شيء تتدخل ، وما لها ولهذا ! وعادت سلمى إلى غرفتها مستاءة . ذلك أنها لم تعد تتحمل هذا الجو الثقيل ، جو قصر لوكنوف وسوء نيّة بنت حماتها ، بعد نصف الحرية ، الذي تمتعت به في بادالبور . وهذه الشقة التي لا باب فيها ، والمفصولة بالستائر عن شقة الراني عزيزة ! لقد حان الحين ، لكي يقف هذا عند حده ! فتدعو الخصمي الذي يتناعس على مدخل الغرفة .

— امض وجئني بنجار، فوراً!

وبعد عدة ساعات، عاد الخصي ليقول: إن النجار ينتظر حارج القصر. وليس له الحق في الدخول إلى الزينانا. وكانت سلمى، في ثورة أعصابها، قد نسيت هذا الأمر التفصيلي، فمن يستطيع أن يساعدها؟ أما أمير فإنه مشغول مع مستشاريه، فهي لا ترى إلا رشيد خان، هذا الرشيد الطيب، الدائم الاستعداد لتقديم خدماته: ولا ينبغي أن تُعلم الراي شيء قبل أن يكون الباب قد وُضع. وبسرعة تخط سلمى كلمة.

— امض واحمل هذه الورقة إلى رشيد خان.

وينحني الخصي، ودون أي تأثر. وما من لحظة يكشف وجهه عن الدهشة من هذه الجريمة التي لا توصف. أتكذب الراي لرجل! فما من مرة في عهد السيد المرحوم، كان يمكن أن تحصل هذه الفضيحة. وأولاً، لأنهم في ذلك العهد، الذي كانوا فيه يريدون منع هذه العلاقات الخصوصية، كانوا لا يعلمون المرأة القراءة والكتابة، وهذا قضت حكمتهم.

وفي المساء، عندما جاء أمير، وخلا بزوجه مساءً، قال لها:

— يا عزيزتي، لقد أحدثت ثورة حقيقية. فما من مرة وضع هنا باب في القصر. وأكثر من ذلك فإن عدم وجود الأبواب يتيح للهواء أن يدور. وأختي الكبيرة مستاءة جداً. وهي تعلن لكل من يريد أن يسمعها أنها لن تسمح لأحد بأن يجعل القصر على مثال البيت الإنكليزي.

— ولكن هل أحصل على بابي هذا؟

— إن كنت تحرصين على ذلك حقاً، فإنك ستحصلين عليه. ولكن هل ترين أن هذا الأمر التافه جدير بأن تثيري عليك غضب الجميع؟

— أوتقول: إن هذا شيء تفصيلي؟ أولاً تفهم أن هذا يمس حياتنا الشخصية في الصميم؟ ويبدو أمير متأثراً، ولكنه غير مقتنع.

— ربما... ولكنك تعرفين أننا هنا لا نعرف معنى للحياة الخاصة. فنحن أسرة كبيرة. وأخيراً سنرى...

وبعد عدة أيام حصلت سلمى على بابها. ولكنها ستعرف عن طريق البيجوم ياسمين، التي

حالت لزيارتها، أمها مدينة لرشيد حان بذلك : فلقد أقنع الراجاه أن من الأفضل أن يقبل بهذه التوافه، حتى لا يضطر في المستقبل إلى القبول، بأشياء أخطر بكثير .

وهكذا فقد حلت في بهوا الصغير، تتدوق متعة الهدوء الذي عاد إليها . ولكنها ستحتاج إلى عدة أسابيع لكي تعلّم الخدم، ألا يدخلوا إلا بعد استئذان . وكثيراً ما يحدث أنهم يقرعون الباب بضمير مرتاح، ونفس مليقة بسلامة النية، ولكن بعد الدحول لاقله . أما الراي عريزة التي تعتبر أن هذا الباب إهانة شخصية لها، فإنها ستبقى عدة أسابيع دون أن توجه الكلام إلى سلمى، السعيدة بذلك جداً .

وعادت السيدة الشابة إلى زياراتها المألوفة لليجوم . وبدأت تدرك أنها مفرطة بعض الشيء في نزوعها إلى التملك، وربما آتت أن تخرج مع زهراء . ولكن هذه تدرس طول النهار : وحلال عدة أسابيع، يح أن تقدّم فحوصها . ولقد تابعت زهراء البرابج كلّها، من داخل القصر، مع أساتذة حصوصيين، وستذهب إلى الكلية، لتقديم الامتحان . ولكن سريطة أن تلبس البركاه، وأن يكون معها مربيتها . فالراحاه حريص على أن تتلقى أخته ثقافة قوية . ولئس كان هذا مما يُعاب عليه في الأوساط التقليدية، فإنه في الأوساط الأرستقراطية المتطورة، علامة على علو المستوى الاجتماعي . غير أنه لا يخطر في بال أحد أن تفيد هذه المعلومات المتراكمة أية فائدة، بل إن مفهوم الفائدة نفسه، هو أعلى درجات العمية .

وأمر الآن مشغول إلى أبعد حد بتهيئة اجتماع للراجاهات، والوواب، وكبار الملاكين الذين تناولتهم القوانين الجديدة حول حقوق الفلاحة والفلاحين . أضف إلى ذلك أنه، كعصو في الجمعية التشريعية، عليه أن يجابه طائفة من المشكلات الجديدة .

وكانت حكومة المؤتمر، قد اتخذت في غمرة الانتصار بعض التدابير اللامقبولة من جانب الشعب . ولقد فرضت على المدارس الذي يدرس فيها أطفال كل الأديان والمذاهب، أن ترفع علم المؤتمر . كما فرضت (الباندي ماتارام Bandé Mataram) نشيداً وطنياً . وهذا مما يثير غضب المسلمين الذين يعتبرون هذا النشيد شتيمة للإسلام، ولطائفهم كلها . والحق أن كلماته كانت قد استمدت من رواية بنغالية من القرن الثامن عشر، حيث كان الزامندار المسلمون يوصفون كطغاة، يستغلون الهنود . هذا وإن الأغنية نفسها نوع من الصلاة للأرض الهندية، الإلهة الأم . ويعتبر هذا لدى المسلمين شيئاً أشبه ما يكون بعبادة الأوثان .

وهكذا فقد سارت المظاهرات، في أنحاء الهند كلها، احتجاجاً على هذه التجاوزات . أما في

المدارس والجامعات ، فإن الطلاب يتضاربون . وفي مدراس ، اضطّر النواب المسلمون لمغادرة قاعة مجلس النواب .

— فهل علينا أن نفعل مثلهم ؟

لقد جمع أمير في بهو بعض أصدقائه من النواب . وكانت المناقشة حامية . أما على الموقف الصلب ، فإن بعض الناس يعترضون بالقول : إن نواب المؤتمر سيكونون سعداء جداً أن يجتمعوا فيما بينهم ، وسيصدرون القوانين التي يريدونها دون مجابهة أي اعتراض ، ويحبب الآخرون بالقول إن نواب المؤتمر ، باعتبارهم الأكثرية ، سيفعلون على كل حال ما يريدون ، ولا ضغط عليهم إلا الضغط المعنوي : أما إذا أوى نواب الأحزاب الأخرى ، حضور الجلسات ، وقالوا علناً لماذا لا يحضرونها ، فإن نواب المؤتمر الذين يريدون الاحتفاظ بصورتهم كممثلين لحزب كبير يُمثّل كل الطوائف ، سيكون عليهم أن يهادنوا .

وكانت سلمى ، الجالسة في بهو محاذ صغير ، تصغي بانتباه فتبارك المشروبات التي تتيح لها أن تسمع كل شيء أو تلاحظ كل شيء من غير أن تُرى . ولكن كانت موجودة بين هؤلاء الرجال ، فسيظنون أن عليهم أن يتحدثوا حديثاً سطحياً . ملائماً للآذان النسوية . وهكذا بدأت تفهم ملاحظة البيجوم حول فوائد البرداه . أولم تكن قوة النساء ، نساء السلطان ، اللواتي لم يكنن يخرجن من دار الحرم ، هي التي تؤثر ، وأحياناً تضع سياسة الأمبراطورية الخارجية ، جزئياً على الأقل ؟ ولكن كانت تربيته لدى راهبات بيروت ، قد جعلت منها امرأة أوروبية تقريباً ، فإنها ، هنا ، في الهند ، وفي هذا المجتمع التقليدي النسوي ، تفاجأ بالعثور على ردود الفعل الموروثة عن الأجداد .

وفجأة سمعت أصواتاً عالية ، جعلتها ترتعش . فاندعشت . ذلك أن أعنف المناقشات السياسية في لوكنوف ، لم تكن تخلو من المجاملات التي كانت بورجوازية بومباي ، أو دلهي ، تصفها بكونها تراخياً أو لامبالاة . فتقترب سلمى لكي تسمع بصورة أوضح . فتدرك أجزاء من بعض الجمل :

— « أعظم سرعة ، ولكن مع صبر أقل ... أحتج . إنه أكثر مقاومة . إنه حيوان أصيل رائع . ففي العام الماضي حصل على جائزة الحمال ... إنك لا تعرف من الأمر شيئاً ، يا عزيزي ، فالأقدر على المقاومة هي الكلاب السلوقية الأفغانية ذات الشعر الطويل ، ولكن الأسرع هي الكلاب الروسية ! » .

ولكن مال للكلاب الروسية ولسياسة المؤتمر؟ وتقرب سلمى أكثر أيضاً، فترى ثلاثة وجوه جديدة: راجاه حيهانراباد ونوابين من أصدقائه. أما راجاه حيهانراباد، فإنه أحد الأمراء الواسعي الثروة في المنطقة، وهو هاورٍ من هواة الكلاب الأصلية، وأحد منظمي المسابقة الثامنة والثلاثين للكلاب، التي ستقام قريباً في لوكنوف. ولقد كفى أن يتحدث هو عن الكلاب الأصلية، لكي ننسى القضايا السياسية وأن تطلق الأهواء، بين من متحمس لهذا النوع من الكلاب، أو لذلك النوع الآخر: نوع الكلاب الإنكليزية، أو الكلاب اللبرادورية.

وقالت سلمى: وهي تلتف على نفسها في مقعدها: «إنهم مجانين، فيهم من اللاوعي والخفة، ما كان في المجتمع العثماني قبيل سقوطه. وقد يمكنهم، كما كان يمكننا، إعادة توجيه الدفة، وتجنب الكارثة، ولكن هل هم فاعلون؟ وهل يفهمون شيئاً من القوى التي تهز الهند، بغض النظر عن الأحزاب السياسية. ولئن كانوا يفهمون، فهل هم أصحاب كفاءة؟ أو هل بهم من رغبة، في تغيير صورة حياتهم، لمجابهتها؟».

وتكاد سلمى أن تبكي من الغضب.

وردّ أمير في المساء، عندما التقيا ثانية:

— «مهما يقل لهم، فإن هذا لا يجدي. وهم لا يصغون».

ولقد بدا رجلاً حريصاً على الواقعية حرصاً خاصاً أمام ضعف المنطق الذي لوحظ لدى أضرابه. لكنه شاب، وقليل التأثير فيمن هم أكبر منه.

ويدت لسلمى مشاهد التمرد، أو الثورة.

— سيفقدون كل شيء، كما فقدنا نحن كل شيء قبلهم...

وفي الأيام الأخيرة من آب / أغسطس / ١٩٣٧، كان جواهر لال نهرو، زعيم المؤتمر، يصرّح علناً بأن غاية حزبه هي القضاء على الملكية الكبيرة وتوزيع الأراضي على الفلاحين.

وبعد ثلاثة أسابيع، اجتمع ثلاثة آلاف مندوب في القصر الأحمر في «لال بارادري»، وفيهم مهرجات كبار، وفيهم أشباه نبلاء، وهم يمثلون أرستقراطية الأرض في المنطقة كلها. والواقع أنهم يُمثلون المنطقة، وليس هناك من فدان، يملكه أحد غيرهم.

وتفكر سلمى التي كانت تشهد جلسات المؤتمر، من الشرفات العالية المطلة عليه، وتفكر... لو أن النار اندلعت في هذه القاعة، فإن مشاكل الفلاحين ستحل تلقائياً: فملايين الفدادين الموجودة بين أيدي المجتمعين في هذه القاعة، ستنتقل إلى أيديهم، هذا إن كان حرب المؤتمر يفي بوعوده.

وبصفته المضيف — وهو رئيس النادي الهندي البريطاني — يفتح راجاه حياً ناراد جلسته الأولى. وهو رجل عظيم الهامة، له بشرة بيضاء وأنف ينحني انحناءة حلوة على الذقن، فيقول:

— أصدقائي، مامن مرة في هذا البهو التذكاري، كان علينا أن نحل مشكلة في حطوة مشكلتنا الحالية. ولم نكن نفهم أن طبقتنا ماضية إلى الاحتناق، مع تفتح الديمقراطية، واستقلال المناطق. وكنا الرؤساء الطبيعيين لملايين من الفلاحين. ولكن هذا الآن موضوع ممرارة وجدل سبب الوعود الخداعة التي يقدمها هؤلاء الذين يعربون عن رغبتهم في الخير. وعلينا أن نتحد لمواجهة هذا الخطر، وأن نترك جانباً تلك المنازعات التي تضعفنا. وعلينا أن نقوم — إذا شئنا استرداد ثقة الفلاحين ووفائهم، وهم العمود الفقري لسلطتنا — نقوم بإصلاحات يرضون عنها.

وينهض زول يلبس البراكاه الأسود، في الجمعية ليقول كلمته. إنه «راني» مات زوجها، وهي الآن هنا، بكامل الحق، لكي تمثل دولتها، فتقول:

— إن الاشتراكية، والشيوعية والثورة تفرع أبوابنا وتهدد وجودنا. والوسيلة الوحيدة لصيانة هويتنا، هي أن ننظم أنفسنا كطبقة.

ويصادق الجميع على هذا الكلام. ويقوم شخص آخر فيقترح إنشاء ميليشيا من الملاكين الشباب، للدفاع عن البلاد، في هذه الفترة المتأزمة. فيقبل الاقتراح بالإجماع. ووجد كذلك من يوحى بإنشاء علم، كرمز للاتحاد الجديد: وسيكون ذلك محراثاً يجره جاموسان. فيصفق الجميع: العلم، هو تماماً ما نحتاج إليه!

ولكن من هو هذا الإنسان العجيب الذي يثير الفوضى ويررع المشاكل، ويدّعي أننا نحل مشكلاتنا بالأقوال، وأنه يجب علينا أن نتخذ فوراً تدابير مشخصة. ترى هو راجاه لأية دولة؟ وكيف؟ آه، إنه راجاه بادالبور، هذه الدولة الشمالية؟ وماذا يقول؟ أيقول إن علينا إذا تشنا ألا نفقد كل ممتلكاتنا، أن نقوم منذ الآن بتوزيع قطع من الأرض على فلاحينا؟ إن هذا الرجل مجنون خطر! إنه شيوعي! لا، إنه تعلم وتثقف في إنكلترا... يبدو أن الاشتراكية هناك، على الموضة،

بين الشباب ، ولكن ليس هذا عدراً لهذه الأفكار المريضة . فهو راجاه ، وليس من حقه ، أن يخون طبقتة .

وما كاد أمير أن ينهي كلامه حتى علت صيحات الاستكار ، لتخرسه . فعاد إلى الجلوس ، وقد ثببت همته . ففي هذا الجو من القوضى ، واختلاط الآراء ، والمسخرة ، حاول الرجل أن يُسمع الناس صوت العقل . ولكن هذا ، على ما كان يخشاه ، لم يُفد إلا بجعله هدفاً لاستكار الجميع . فيالأسف ! إنه كان عليه أن يحاول رغم كل شيء .

وفي الأعلى ، كانت سلمى تشعر بصيق . وفهمت فجأة أن أمير أصبح غريباً ، بين قومه . فأحلاصه وحماسه ، واندفاعه إلى فرض أفكار أحدث وأكثر حصوية اجتماعية ، وهي الأفكار التي كانت تعرض وتشرح أمام أصدقائه الأرستقراطيين ، الإنكليز في ايتون وكامبريدج . إن هذه الأفكار غير مقبولة في المجتمع الذي ينحدر منه ، والذي هو ، رغم كل شيء ، جزء منه .

وفي المساء ، عندما عاد مرهقاً ، قالت له ، بنوع من الخجل ، إنه يجب ألا يعدل عن أفكاره . فهو الرجل الذي يقول الحق . وهي معه . فينظر إليها ، ساخراً . ويقول لها :

— وإذن فسنبغي العالم ، نحن الإثنين . يالأسف ، ياعزيزتي ، إذا كان الإنسان وحده ، هو العاقل ، الصائب الرأي ، فهذا يعني أنه على خطأ . إن هذه هي إحدى القواعد المرة في الحياة الاجتماعية . ولقد حاولت إقناعهم ، فأخفقت . إن هذا مؤسف لي ، ومؤسف لنا جميعاً ... ولكن الشيء الذي أرجوك أن توفره عليّ ، — وينظر خلال ذلك ، إلى سلمى فائر الدم — هو شفقتك .

وخرج . « لِمَ أنا حرقاء إلى هذا الحد معه ؟ إنه مبقر حيّ صلب ، وسريع العطب ، كطفل تعيس . وما من لحظة يدع نفسه على سجيتها ، كما لو أنه لا يثق بي » .

وفي اليوم التالي ، جاءت الراني شاهينا لتأخذ سلمى إلى السينما . وهذه إحدى تسليات لوكنوف القليلة ، النادرة . والعادة أن الأفلام الإنكليزية والأمريكية تصل إلى سينا آكشيون هارزاتانج ، مع شيء من التأخر . وكانت غريتا غاربو ومارلين ديتريش في قمة المجد . وكان تيرون بورر وكلارك غابل ، يمثلان أحلام النساء ، كل النساء . وقد يحدث أن تفكر سلمى بالأيام التي قدّمت لها هوليود ، فيها ، عقداً . فهل هي آسفة عليها ؟ إنها لا تريد أن تطرح المشكلة .

ولقد اقترحت على زهراء أن تصحبهما ، لكي تستريح من العمل . فلم تعد الفتاة تقف على قدميها من شدة الفرح : فهذه هي المرة الأولى التي تذهب فيها إلى السينما . ويركب هؤلاء الثلاث في العربة التي تقف أمام مدخل القاعة ، المحجوزة للنساء وحدهن . وهناك ، يصعدن سلماً صغيراً ، حتى الشرفة الأولى ، ويجلسن في «لُوج» محاط بستائر ، لا تكشف إلا ساعة يَعمُ الظلام في القاعة ، ويبدأ عرض الفيلم . فإنه مامن أحد يراهن .

ويعرض فيلم الملكة كريستين ، وزهراء ممتلئة فرحاً وإعجاباً ولا يقف لسانها عن مديح غريتا غاربو التي تراها في مثل جمال سلمى .

وعندما عدن إلى القصر ، كان الجو مشحوناً بالتوتر . فقد أخطرت الراي عزيزة أن زهرا قد رافقت سلمى ، واندفعت بسرعة إلى أمير لتشكو له أن زوجته تفسد الفتاة .

وردت سلمى بقولها : إننا كنا في «لوج» ولم يرها أحد .

— ولكنها هي ، رأت رجالاً . وإني لأتساءل : كيف كانوا .

— رجالاً ، ولكن أين ؟

— كيف أين . على الشاشة ! وكانت الراي مرهقة بكل هذا القدر من سوء النية .

وبين المراتين ، كان أمير صامتاً ، مزعوجاً . فمئذ أسابيع وأخته تعيد عليه القول : إنه لا يجوز أن يترك لزوجته كل هذه الحرية ، وإن الناس بدؤوا يهزؤون به ، وأنه لا سلطة له على زوجته ، أكثر من سلطة الزوج الإنكليزي .

— إنها تنزهه حيثما كان ، والوجه مكشوف . ولم يسبق قط أن وُجد مثل هذا اللااحتشام والسفاهة في أسرتنا . إنها أجنبية . ولتكن . ولكن عليها أن تأخذ بعاداتنا . فافعل شيئاً ، يا أخي . ذلك أن القضية قضية شرفنا جميعاً .

لكن عندما عرض هذه الفكرة ، وهو نصف مقتنع بها ، وطلب منها أن تضع البركة ، تأبت عليه كما يتأنى الحصان الأصيل على اللجام الذي يريدون وضعه له .

— ليس هناك مجال بحث في هذا الأمر . فأنا أحترم البرداه ، ولا أخرج إلا في عربة مغلقة ، وأقضي وقتي بصحبة نساء يجعلنني أصرخ من الضجر . فلا تطلب مني ، زيادة على هذا ، أن ألبس هذا القفص الكريه . وأخبرك أنني لن ألبسه أبداً .

ومن شدة مألقي من هذه الحجة، رأى أمير أن يستشير في أمره رستيد خان .

— ليس الأمر أنني أحرص على أن تحتجب . ذلك أن النساء في أفضل العائلات يمتصن والوجه مكشوف ، كأن ذلك علامة على التربية الحديثة . ولكن الناس في لوكنوف كثيرون المحافظة على التقاليد وجاهلة .

يا صاحب السموّ، أظن أن الراي عزيزة مضطربة ، على غير حق . فكل إنسان هنا يعرف إلى أية أسرة عظيمة تنتسب روحتك . وبات عمها ، أميرات حيدر آباد ، سافرات يراهن الناس في كل مكان ، وما من إنسان يفكر بنقدهن . فإذا كنت سترعم الراي على لبس البراكاه ، فأنا شديد الخوف من أن ...

ويقف عن الكلام — فلقد صعبه الراجاه بنظراته — والاثنان يعرفان حدودهما : فإذا بدا أمير شديد القسوة مع الأميرة ، فإنها ستترك — وعلى الأقل مادام ليس لها ولد يستبقها . وإذا تركت الزوجة زوجها كان ذلك مخجلاً ، وبأى هو أن يتصور ذلك . وعلى الرغم من احتجاجات الراي عزيزة ، فإنه سيتساهل .

ثم إن لديه هموماً أخرى في رأسه . ففي المناطق التي يحكمها حزب المؤتمر ، تدهور الوضع في ثلاثة أشهر ، وخاصة في المحافظات المتحدة . حيث لا تزيد نسبة المسلمين عن ١٤٪ من مجموع الشعب ، ولكنهم يعتبرون بمثابة العقل والقلب ، من الإسلام الهندي .

ولكن القرار الذي صدر بفرض الكتابة الهندية في المدارس والإدارة ، إلى جانب الأوردو المستخدم منذ قرنين ، هو الذي يثير الناس . ومن جهة أخرى ، فإن كثيراً من الإدارات المدنية ، قد وضعت حداً لاستخدام العناصر المسلمة — ولا سيما في الشرطة ، حيث سرح الكثيرون ، بمبررات تافهة . وتعتبر الحكومة الجديدة أنها على حق في إقامة توازن يقابل نسبة المسلمين إلى الهنود ، أو نسبة هؤلاء الآخرين إلى المسلمين ، دون النظر إلى التقاليد والحقوق المكتسبة ، منذ قرون عديدة .

لكن الذي أشعل النار في البارود ، وخاصة في القرى ، هو حرص المنظمات الهدية ذات الاتجاه اليميني المتطرف على رد الإسلام إلى الدين الهندي . وعندها أن الأربعة والعشرين مليوناً من المسلمين ، هم في الحقيقة هنود اعتنقوا الإسلام ، بالإكراه ؛ وعليهم أن يعودوا إلى ديانتهم الأصلية . ويتضح رأيهم فيما قالته جريدة الميها صباح : « إن مسلمي اليوم ليسوا إلا معترضة . أما مستقبل الهند فهو في إقامة دولة وطنية هندية ، قائمة على أساس المؤسسات الهندية » .

ولا تعكس هذه المنظمات وجهات نظر حزب المؤتمر الذي يعتبر نفسه علمانياً؛ ولكنه لا يدينها. أما عاندي، فإنه في حماسته إلى الدعوة للرجوع إلى القيم الهندية الأصيلة، يصف بعض العناصر المتعصبة، من الزعماء، بأنها عناصر وطنية (مثل مالافيا). وهذا يكفي لريادة مخاوف المسلمين.

ولقد برهنت الأحداث الأخيرة لهم على أنهم أطلالوا الانتظار: ولقد آت الأوان لكي ينظموا أنفسهم.

وفي هذا اليوم، يوم الجمعة ١٣/١٠/١٩٣٧، تعج المدينة الهادئة، لوكنوف، بالحركة: ذلك أن محمد علي جناح سيفتح الجلسة الإستثنائية للرابطة الإسلامية. ولقد وصل حوالي ٥٠٠٠ مندوب لحضور هذا الاجتماع. وستسكن العناصر البارزة في قصور الأمراء، أما الآخرون فستُعد لهم خيامٌ منعقدة الألوان تنصبُ في حدائق قيصر باغ.

أما الذي نَظُم كل شيء، ودفع كل النفقات فهو الراحاه مهدياباد. وكثيراً ما رأته سلمى من بعيد؛ إنه صديق لأُمير على الرغم من أنه لا يشاركه نفس الآراء. والراحاه رجل تقوي، ومثالي. وهو يعيش عيشة التقشف، في غرفة واحدة من قصره الواسع. والأرض عنده مغطاة بأكوام وأكوام من الكتب: وبينها القرآن، والتوراة، والكتب المقدسة الهندية، لكن بينها أيضاً كتب ديكنز التي تجعله ييكبي، على ما يعترف هو، عندما تصف بؤس الشعب، الإنكليزي في القرن التاسع عشر، وكتب تولستوي، وهو مؤلف يشعر أنه قريب منه، ذلك أنه يشور، مثله، على الطبقة الإقطاعية، التي ينحدر هو منها. ويتغذى الراحاه بخبز الشعير الذي تخبزه له زوجته — وهذا، في رأيه، ما كان النبي (ﷺ) يأكله. وعندما يكون موجوداً في دولته، كثيراً ما يحدث له أن يساعد الفلاحين على فلاحه الأرض. بل لقد أقام مزرعة لتربية الأغنام، ويريد أن يتفرغ لها. ومثله الأعلى هو العودة إلى الحياة الريفية. ولكن جناح الذي كان واحداً من الأوصياء عليه، لدى موت أبيه مهراجاه مهدياباد، المحترم جداً، حمّله على الإقلاع عن هذه الفكرة. وقال له: «إنك ستعمل معي. وواجبك هو النضال من أجل تحرير الجماهير الإسلامية»، وهكذا فقد أصبح الشاب الذي كان يحلم بالطبيعة، والفنون، والفلسفة، أحد الركائز الأساسية في الرابطة.

وفي هذا اليوم، ذهب يستقبل جناح في المحطة. وعندما ظهر الزعيم، فإن حرس الشرف — وهو متطوعون، يلبسون القمصان الخضراء — لم يعد قادراً على ضبط الأمور، من كثرة

الجماهير التي جاءت لتراه، مردّدة الهتافات التي تقول: «ليعيش جناح! لتعيش الرابطة الإسلامية!»، بل لقد حملت السيارة التي كانت تقله على الأيدي، حتى أوصلته إلى الباندال^(١).

وكانت الباندال ملأى، تغص بمن فيها: وهرع المندوبون إليها من كل أطراف الهند. ويلاحظ بشكل خاص، وجود رئيسي وزراء البنغال والبنجاب — وهما مقاطعتان تسكنهما أكتية إسلامية — وقد جاء، على ما يقال، لدعم الرابطة. أما حول المنبر وفي الرواق المخصّص للشخصيات البارزة، فإن النساء يتزاحمن وراء المشربيات، من شدة حبهن لرؤية هذا المحامي القادم من بمباي، الذي أصبح في غضون سنتين بطل القضية الإسلامية.

ومحمد علي جناح رجل طويل، نحيف، شعره أبيض، ونظرتة ثاقبة. وبالتالي فإنه عظيم التأثير فيمن يراه. ونراه يتقدّم مستصب القامة إلى المنبر، ويظل واقفاً وراءه، وبدون أية حركة، يبدأ الكلام بصوته القوي، المؤثر. فيسحر الجماهير. وبغير مقدمات يضيّع بها الوقت عبثاً، يراه يمضي مباشرة إلى الهدف.

— يا إخوتي: عندما اتبع المؤتمر سياسة هندية بحثة، استبعد عنه الجماهير المسلمة، وخالف وعوده الانتخابية، ورفض الاعتراف بوجود طائفتنا، والتعاون معنا. والولاة الذين يعيّنهم لا يحمون الأقليات. وأعمالهم تثير المجاهبات بين الطوائف، وهي بالتالي تعزّز سلطة الأمبراليين. وعلى المسلمين أن يثقوا بأنفسهم، وأن لا يبحثوا عن سلامهم، في التعاون مع الإنكليز أو مع المؤتمر. وإن أولئك الذين ينضمون لهذا الحزب هم خونة.

وهكذا فإن القطيعة التي كانت تتخمر منذ عدة أشهر، قد أصبحت واقعاً تماماً.

أما في الخارج. فإن الجمهور يعبر عن معارضته بشعارات مناقضة مثل:

— جاني هند! لتحيا الهند.

ويرد الآخرون بهتاف آخر.

— تقسيم الهند.

(١) الباندال: حيمة واسعة متعددة الألوان، تنصب بمناسبة المؤتمرات والأعراس.

وهذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها سلمى هذا الاحتاف، الذي سيصبح في السنوات القادمة «هتافاً شائعاً» جداً.

وكانت فكرة الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، حول تجميع المسلمين في الهند، في كيان جغرافي مستقل، لم تشق طريقها بعد. بل إن جناح نفسه يعتبر أن هذه الفكرة غير جدية. ولكنها وسيلة حسنة لممارسة الضغط، ضد عناد حزب المؤتمر.

ويتقدم الآن إلى المنبر فضل الحق، رئيس وزراء البنغال. وهي دولة تضم ثلث مسلمي الهند. فيعلن أن حزبه، أمام الخطر، قرّر أن يندمج بالرابطة الإسلامية. وانفجر الهذيان. فيقرر الحاضرون أن شعار الرابطة سيكون علماً أخضر يتوسطه هلال أبيض، وأما النشيد الذي ألف لهذا المؤتمر، فسيكون نشيد الحزب، وصرخة الائتلاف بين كل المسلمين.

ثم صوّت المؤتمر بالإجماع على القرار المنتظر منذ مدة طويلة، وهو القرار القائل: إن رغبة الرابطة لم تعد الحصول على حكومة مسؤولة تماماً، حرة تماماً، بل هي الاستقلال. ولهذا فإن جناح يعلن عن صهر الحزب على أساس أكثر ديمقراطية: وعلى حين أنه كان يضم، بصورة خاصة تلك النخبة التي تعيش في المدن، فإنه منذ الآن، سيكون في كل قرية فرع للرابطة مفتوح الأبواب للناس جميعاً، ويستطيع كل إنسان أن ينضم إليه مقابل دفع مبلغ يساوي ثمن الروبية. وعيّن راجاه مهداباد، مسؤولاً عن هذا التنظيم الشعبي الجديد. ثم إن للنساء دوراً هاماً، يجب أن يقمن به: وهكذا فإنه سيُنشأ فرع نسوي تحت رئاسة راني نامبور العجوز.

وعندما انتهى المؤتمر، بعد يومين، كان كل إنسان يعي بأنه شهد ولادة حادث تاريخي: هو تحوّل الرابطة إلى حزب جماهيري، في وسعه منذ اليوم أن يستجيب لمطامح المسلمين في الهند. وفعل البرنامج الجديد في الشعب، ما يفعله السحر: فخلال ثلاثة أشهر، وفي المناطق المتحدة وحدها، افتتح تسعون فرعاً، وانتسب إليها أكثر من مئة ألف عضو. بيد أن نهرو يستمر في القول: إن الرابطة الإسلامية تدافع عن مصالح رجعية، ويصفها بأنها هسترية.

وبعد الحمى التي أثارها انعقاد المؤتمر، عادت لوكنوف فاستأنفت حياتها الطبيعية. ومع ذلك فإن المجاهبات والحوادث، تتكاثر في المدن والقرى. ولكن أخطر ما وقع هو المذبحة التي ارتكبتها الهنود عندما قتلوا أربعين لحاماً مسلماً كانوا مجتمعين في المعرض السنوي لباعة المواشي، في باليا.

وقد أثار هذا الحادث البربري، في عاصمة الولايات المتحدة، أكبر الاستنكار. وكانت

الصحف تبرزه في عناوينها الكبيرة. ولكنه سرعان ما نسي لصالح دورة البولو التي تبدو لامعة، هذه السنة. ثم إن الأرستقراطية كلَّها تنصرف إليها. وتنتهز الحكومة هذه الفرصة لتقرر إعفاء الفلاحين مما هو متأخر من ديونهم. ولم يصغ أحد لأولئك النفر من الملاكين الذين طالبوا برد فعل فوري: إذ لا مجال للإهتمام بقضايا مالية قدرة، عندما يتعلق الأمر بممارسة رياضة في هذا المستوى من النبيل!

أما في السينما فإن فيلم رماة البنغال — وهو فيلم يقوم على حوادث وقعت منذ قرن — يجعل الناس ييكون. وتعود القضية فتصبح القضية الأولى فيما تعالجه المجلات. والمشكلة عندئذ هي أن نعرف ما إذا كانت نجمة السينما، الجديدة، شيرلي تامبل، هي حقاً بنت صغيرة، أو قزمة في الخامسة والأربعين...

إن الشرف العظيم الذي توليا إياه سعادتكُم، وصاحبة السمو...

كانت قاعة الطعام في قصر جيها نراباد، تتألق بكل أضوائها. وكانت المشاعل، التي يحملها خدم معتمون بالبروكار، تتنافس مع مئات الشموع الموضوعة فوق شمعدانات فخمة من الفضة، تجعل الزمرد والماس يتوهجان لمعاناً وبريقاً.

أما زهرة الأود الناعمة، فهي هنا. فالراجاهات والنواب، حكام الدول الصغيرة أو الكبيرة، كلهم جاؤوا تكريماً للحاكم الإنكليزي السر هاري ويغ، وزوجته. وهما يقفان منتصبين على أفضل وجه، والذقن مرتفعة لفوق، وعلمهم جميعاً سيماء التفاخر اللامبالي الذي تهبه قرون من السلطة والضجر. ولكن السلطة لم تعد قائمة؛ فلقد قصت أظافر هذه الثمور الملكية؛ وبقي الضجر وزهو لا حدود له.

— إن أسرتنا قد خدمت العرش دوماً بإخلاص...

لكن راجاه جيها نراباد بدأ، بعد ما أزعج التهاني وأشار إلى علامات الوفاء، بدأ يتحدث عن تاريخ أجداده العظماء. وكان السر هاري يمسك نفسه عن التثاؤب بصعوبة كبرى: «تري إلى أي شيء يهدف من وراء ذلك؟ إنهم لا يستطيعون أبداً أن يطلبوا شيئاً بصورة مباشرة، وهذا مزعج جداً، آخر الأمر!». وإذا هو حكم على الأمر، من خلال فخامة الاستقبال — ذلك أن خمسين

أميراً جاؤوا لاستقباله على ظهور فيلتهم، وكان هنالك أربع أوركسترات، وعرض للرملة — فإن
الراجاه يريد أن يطلب خدمة هامة. «فلنأمل أن نستطيع تليتها له : إذ أُنّي لأريد أن أفقد واحداً
من أخلص حلفائنا» .

وشعرت الليدي فيوليت أن زوجها عيل صبراً. «فهازي لا يبدو أنه يستمتع . أما أنا فأرى
هذا العشاء ساراً جداً . وأحب أن أكون السيدة الوحيدة بين هؤلاء الرجال ، وأن أحس تحت
نظراتهم الملائى بالاحترام ، بما يشبه الارتعاش ... وهو يدّعي أنه ليس لي أن أعزّي كنتفي ، إلا
أنني لن أمضي إلى حد التهرج ، كما كانت تفعل المرحومة الملكة فيكتوريا ، بحجة أن الهنود ييقون
زوجاتهم سجينات ، محجوبات ! ولديّ فستان مزّط جميل ، وأحب أن يروه ! .. فأنا غزالة بين
هؤلاء الوحوش المدجّنين . ولكن هل استطعنا تدجينهم ، أم أبقيناهم مربوطين بالرسن ؟» .

— ... ولهذا فإننا نطلب من إرادتك الطيبة ، العالية ، الترخيص اللازم ، والتسهيلات
المناسبة لإنشاء هذه الطريق الخاصة التي تمضي من القصر إلى الطريق الكبيرة ، طريق لوكنوف —
دهلي . وسيكون هذا خدمة كبيرة لفلاحينا .

ولكن السر هاري يظل بكامل برودته ! «للفلاحين ظهر جيد ! والسكة الحديدية تكفيهم
بدرجة مناسبة ، مع عرباتهم الصغيرة . ولنرّ معاً ، واعترف معي : هل الطريق الذي تريده ، تريده
لفلاحيك أم لعرباتك الجميلة ، الرولز الاثنتا عشرة ، واللينكولن والبنكلي ، حتى لا يوسخها الغبار
والطين ؟ ... إنك تعرف ذلك ، وتعرف أنني أعرف . ولكن المشكلة ليست هنا : فإذا أنا لم أقبل
بإنشاء هذه الطريق ، فإن هذا الشيطان سيذهب ويتقرب من حزب المؤتمر ؟» .

وتحلق الليدي فيوليت في وجوه (الوحوش) : «فلهذا الراجاه الشاب ، راجاه بادالبور ،
عينان رائعتان : ومن المؤسف أنه تزوج هذه الحمقاء الصغيرة التي تملك الجرأة على التعالي علينا ، كما
لو أننا كنا «وحوشاً» . إن هذا هو العالم مقلوباً ، حقاً . ومناسبة الوحوش يجب أن أذهب بعد
العشاء ، فأزور هؤلاء النساء المسكينات . إنهن يمتن من الضجر وراء برداهاتهن . وستشعر الراني
بأنني أكرّمها ، وأنني لم أنسها » . وتنحني باتجاه راجاه جيها نراباد . ويتقطب الحاجبان ، غير أنها
أصلحت ذلك مباشرة ببسمة عريضة .

— ولكن كيف حدث ذلك ! وأي انتباه لطيف ! سأقول للراني ، مباشرة .

ونفض السر وينغ ، الرشيق القوام بطقمه الأسود ، الذي يُمكّل أعلى درجات الأناقة ، بين

كل هذه البروكارات. وكان كأس الشمبانيا في يده على استعداد ليشره بسكون على نخب ... ناظراً إلى الحضور تلك النظرة الأليفة، مع شيء قليل من التعالي، المميز لكل موظف بريطاني مقيم في الهند. وهو برهان واضح على الشعور بالتفوق، تماماً كهذا المحك الذي يكشف أين يوجد الذهب الحق، لأولئك التواقة العاجزين عن التعرف علينا.

— صاحب السعادة، أيها الأمراء ... بفرح كبير. إن هذا شرف عظيم ... الأمبراطورية ... جلالته ... مهمتنا ...

والليدي فيوليت تصغي إليه، بلا انتباه. « هاري يبالغ، ويلقي دوماً نفس الخطاب ... لو كانوا ينتبهون؟ إن هؤلاء الناس الملونين على درجة كبيرة من الحساسية بحيث ... على الرغم من أن راجاه جيها نراباد، متمدّن أحسن التمدن ... ولولا لونه، لأمكن أن يقال إنه إنكليزي. إذ حتى لدى هذه النخبة الصغيرة التي تُقِف في إيتون واكسفورد، فإن شيئاً ما يبدو نشازاً، فاللهجة مفرطة في إنكليزيتها، والحماسة مفرطة للعبة الكريكي، ولا سيما في علاقاتهم بنا، فإما أنها خاضعة كل الخضوع لنا، وإما أنها متعالية جداً علينا. إن هذا لأمر مدهش، حتى لكأنهم لا يستطيعون أن يكونوا طبيعيين! ».

وهمس الخصّي بشيء إلى الراجا، الذي ردّ بحركة تدل على الاستياء البالغ. وما كاد حديث الحاكم ينتهي، ويُحيا بتصفيق مهذب، حتى نهض، مشيراً إلى انتهاء حفلة الغداء ... ويتقل هؤلاء السادة إلى قاعة التدخين.

— هل يمكن لسماحتك، أن تنتظر قليلاً؟ إن الراني لسعيدة بزيارتكم، سعادة جعلتها تطلب منكم بضع دقائق لكي تنهى لاستقبالكم بشكل لائق....

وفي الطرف الآخر من القصر، وفي القاعة ذات الأقواس، كانت راني جيها نراباد، متمدة على ديوانها، وهي تتحدث مع رفيقاتها. وخلافاً للمراسم القاسية التي اتبعت في حفلة الغداء، كان كل شيء هنا يتم في أبسط صورة. ولما كان المدعوون كلهم من أصل أميري، أو صديقات، وأكثر الأحيان من ذوات القرابة، فإن الشكليات (الاتيكيث) هي أن يُستغنى عنها. فقد أنشأت قرون من الزواج داخل هذه الأرستقراطية، شبكة من العلاقات المعقدة والكثيفة، تغطي كل المنطقة، كشبكة من العنكبوت. أما أن تكون بعض الأسر أغنى أو أكثر حظاً من غيرها، فذلك أمر يعرفه كل إنسان، ومن غير المناسب أن يشار إليه، أو أن يجعل محسوساً. إلا أن الباتياس أي

هؤلاء التجار الذين يجرؤون على التنافس في الثروة مع الأمراء، هم وحدهم الذين يستطيعون التصرف بمثل هذه العامة ... ثم كذلك الإنكليز ...

ويأتي أحد الخصيان فيعلن عن وصول الراجاه. فيتفرق النساء، كالعصافير الفزعة، في الغرف المجاورة. ولا يبقى إلا الراني وبناتها. فيصل الراجاه، والعرق يتصبّب من تحت عمّته، ويبدو عليه أنه شديد الاضطراب.

— ماذا أسمع يا راني صاحبة؟ أتعانين من متاعب صحية، ثم لا يمنعك هذا أن تستقبلي الليدي فيوليت؟

— إنني على أفضل حال يا راجاه صاحب، ولكن منظر هذه ... الليدي ... — وهنا تُقطع الكمات بهيئة المصاب بالغثيان — يجعلني أمرض.

ولقد اعتاد الراجاه على نزوات زوجته. ولما كانت جميلة جداً، فإنها تستفيد من فرق العمر لتسلك سلوك الطفل المدلل. وهو لا يملك أن يرفض لها طلباً، في أكثر الأوقات. أما في هذا المساء، فإنها تتجاوز الحدود.

— أيمكنك أن تهيني زوجة الحاكم؟ وإذن فلن يغفر ذلك لنا أبداً.

— يغفر؟

وكأن استخدام هذه الكلمة قد ونحز الراني في جرحها. فمنذ أشهر وهي تجتر غضبها، وتكظم غيظها، وتتماسك حتى لا تنفجر؛ أما هذه المرة، فقد تجاوزت الحدود أيضاً!

— وأية حاجة بنا إلى مغفرتهم؟ هؤلاء الأشقياء الذين جرّدونا من السلطة، ووضعوا دولنا تحت الوصاية، ويكلفوننا كل عام بدفع الغرامات، تحت اسم الضريبة؛ هؤلاء السفلة، شريبي الماء الأسود، آكلي لحم الخنزير، الذين يغوون بناتنا، وبالإضافة إلى هذا كله يحتقرونا!

ولقد أمسكت في الوقت المناسب، عن القول: «يحتقرونك، أنت يا راجاه جيها نراباد، السعيد جداً بأن يكون، بين كل أمراء الأود، أفضل صديق لهم». آه، كم تكره هؤلاء الإنكليز! ولكن ليس تماماً لأنهم يحتلون بلدها — ذلك أن الحركات الاستقلالية التي تتنامى حالياً، تبدو لها تافهة — وعلى كل حال فإن الهند قلّما كانت مستقلة، ولم يكن حكم المغول بالطف، من حكم الإنكليز — بل لأنهم غيّرُوا لها زوجها. فأمرها، الفخور جداً بأصوله، وبالأعمال العظيمة

التي قام بها أجداده ، والمحاط باحترام أفراد رعيته ، لم يعد ، تجاه هؤلاء البيض الشديدي التعاضم ، إلا صبيّاً صغيراً شديد الاحترام ، كبير الانقياد .

ولكن لماذا؟ إنها لا تستطيع أن تفهم ، لاهي ولا صديقاتها ، ولا زوجات الأمراء المسلمين أو الهندوس ، الذي يرون ، بأكبر الاستغراب والمرارة « سيّدهم » يجمال الغريب . وكذلك هو حال هؤلاء الأزواج الذين تعلموا إكبارهم ، من حيث هم رجال وملوك حتى قبل أن يعرفوهم ، هؤلاء الذين شرفهم يضمن شرفهن وشرف أسرهن . ومن المرجّح أن تكون لديهم مبرراتهم . ولا يردن أن يشككن فيهم ، إذ لا يستطيعن أن يسمحن لأنفسهن بذلك . من المؤكد إذن أن هذا كله تم ويتم بسبب الإنكليز !

— لن أستقبل الليدي فيوليت !

— أرجوك ، ياراني صاحبة . كوني عاقلة ! فالطريق ...

وبلحظة فهمت .

— آه ياراجاه صاحب ، مالك لم تقل هذا من قبل ؟ إن كان هذا مجرد خداعها ، فالشرف يظل سليماً ! إذ كنت أظن أن لا غاية أخرى غير مَسَرَّتْها هي ...

والآن فإن الراجاه المذهول بأخلاق زوجته ، يحذر من مناقضتها ، وهو جد سعيد بأنه ربح المعركة ... فلو أنه شرح لها أنه ليس في نيته أن يخدع الحاكم ، وأن علاقتهما مبنية على مصالح متبادلة وكذلك على صداقة حقيقية ، وتقدير يُظن أنه متبادل ، فإنها ستكون قادرة على العدول عن قرارها .

وعندما دخلت الليدي فيوليت على الراني ، دهشت من أن تراها محاطة بنساء معمرات فقط . فتعلّل هذا الحادث ، بكونه علامة احترام : ولئن اختيرت الجذّات للقائها ، فلا ريب أنهم أرادوا تكريمها . وكيف يسعها أن تفهم أن الراني قضت على الصبايا أن ينسجن ؟ ذلك أن ظل هذه المخلوقة اللاأخلاقية نصف العارية ، إن وقع عليهن ، كرثهن بمصيبة .

والاستثناء الوحيد ، هو حضور راني بادالبور ، إذ أنها « تعرف الدنيا » وكذلك فإنه لا بد من مترجم . وكانت سلمى قد بدأت تتكلم الأوردو بشكل مناسب ، ولن تدع فرصة جميلة للتسلية كهذه تفوتها . وتهمس الراني قائلة :

— ما أظفه من انتباه، من ناحية سعادتك، أن تتفضلي بزيارة خادمتك في منزلها المتواضع. فأرجو أن تعذري ساقى المسكينة التي تمنعني من القيام لاستقبالك...

وتتساءل الليدي فيوليت داخل نفسها: «أكلهن يتألمن من سقهن؟» وذلك بعد أن لاحظت أنه ما من واحدة منهن نهضت لتحيتها، وبقين جميعاً جالسات. على مثال الراني، وتبتسم الراني محزونة، وتنحني حرم الحاكم لتقبيلها. وتلاحظ أنها تتراجع، فلم تمس شفاتها إلا الوشاح. «فكم هن خجولات، هؤلاء النساء المسكينات. إذ أنهن لم يعتدن أن نبيدي لهم، نحن الإنكليز، معايير المودة. ولقد وجدت أن من واجبات الشرف بالنسبة لي، أن أجعل نفسي، قريبة منهن، وأن أيسن لمن أتي أعترهن مثلي في القيمة. ويرى هاري أنني أبالغ، وأن على الإنسان أن يرغب الآخرين على احترامه. ولكنهن يثرن في الشفقة، لأنهن سجينات، مقطوعات عن كل شيء في العالم، وإماء في عالم الرجال!».

وتنطلق المناقشة حول المشروبات التي تصنع من المانجة: وحول الطقس الذي كان، والطقس الذي سيكون، وحول جمال ثياب البلاط، وحول صحة الأطفال. وتبحث الليدي فيوليت في رأسها: فأأي المواضيع يمكن البحث فيها مع هؤلاء النساء غير المثقفات؟

وعندئذ تقول الراني:

— إني أحب شعراءكم محبة كبيرة، ولا سيما اللورد بيرون بصورة خاصة.

وتعجب الليدي فيوليت، فتقول:

كيف؟ أتعرفين الإنكليزية؟

— أقرؤها، ولا أتكلّمها. ولكن اشرحي لي ماذا يريد أن يقول اللورد ميلتون في الفردوس المفقود...

— آه، إن هذه نظرية غامضة جداً حول الحياة والموت، وتقول الليدي هذا وهي تمنى أن تُفهم في مكانها، بدلاً من أن تعترف بأنها لم تقرأ قط ميلتون. وعلى كل حال فإن هذا الشاعر قد تجاوزه العصر؟.

— أحقاً؟

وتنظر إليها الرائي وعليها سمات الدهشة، وكأنها تقرأ في دهشتها هذه بعض السخرية. « فآية متحدقة هي هذه الرائي الصغيرة؟ وعليّ أن أضعها في مكانها! ».

— إن زوجك الراجا رجل رائع، فنحن نقضي الساعات في المناقشة معاً، لاسيما وأن زوجي لا يهتم أبداً بالأدب، ويدعنا وشأننا، يمضي في لعب الجولف.

— أعرف ذلك، فالراجا يقضي من الوقت عندك، أكثر مما يقضيه معي، بل إني لغيرورة من جراء ذلك. فهو لا يفتأ يحدثني عن الجميلة...

وتحتج الليدي، متواضعة:

— ولكن لا، أرجوك.

— ولكن بلى... الجميلة سارة! إن هذا هو اسم ابنة أختك، أليس كذلك؟

وامتقع لون امرأة الحاكم، وعضّت سلمى شفتيها. ولكن الرائي تتابع الحديث، بصورة طبيعية جداً، كما لو أنها لا تتكلم عن أشياء لها ما وراءها.

— إن الراجا يفكر في الزواج، ألم يحدثك بذلك؟

— ماذا... عن زواج؟

وبتأثير الصدمة، بدأت الليدي تتأنيء. ثم عادت فتماسكت، وقالت:

— أتوافقين على ذلك؟

— أوه، أنت تعرفين. إن عقلي واسع! وأظن أن هذا سيكون أمراً جيداً.

ويبدو الأمر من السخف، بالنسبة للسيدة لسيادة زوجة الحاكم، على درجة كبيرة، جعلتها تطلق ضحكة. أشقراؤها سارة تنزوج أحد السكان المحليين! إن هؤلاء الهنود لا يشكون في شيء، حقاً. ومن حسن الحظ أنها وجدت عذراً جاهزاً. فقالت:

— إني حقاً لمسرورة أن الراجاه قد فكّر بآبنة أختي. ولكنها ليست إلا في العشرين من عمرها. والفارق في العمر كبير، وأكبر مما يجب.

— كيف، إن ابني لا يزيد على الخامسة والعشرين عمراً.

— ابنك ، ولكن ...

— كيف أذهلت إلى هذه الدرجة؟ طبعاً ، أنت لا تعرفينه . ولا يسعك أن تقرري شيئاً دون معرفته اسمعيني . انظري أي يوم ، بعد الظهر ، أنت حرة فيه ، وننظم لقاءً . وأنا واثقة أنه سيعجبك . بل أي زوجين جميلين سيكونان ، وأية نتيجة حلوة للصداقة التي تربط بين أسرتينا . إن هذا برهان على أن البشر المتميزين يعرفون كيف يتجاوزون المستبقات السخيفة السائدة لدى الجمهور العادي

وتقف هنا عن الكلام ؛ ولكن سلمى أخبرتها ، بنظراتها ، أنها تسرف فيما تقول ، وأن الليدي ستنتهي حتماً إلى ملاحظة ما ينطوي عليه الحديث من سخرية .

ولكن هذه في حالة من الاضطراب يصعب معها أن تلاحظ أي شيء . ولم يعد لديها إلا فكرة واحدة : هي الهرب ! فأخذت قفازها وحقيبة يدها ، وأوسعت الراني ومن لديها ، شكرًا ، ووعدت بأن تعود قريباً جداً ، لكي تلقى الأمير ولي العهد ، وتقبل الراني ثلاث مرات ، وتقبل سلمى أيضاً ، بسائق الاضطراب ، وتمضي آية .

أما في البهو ، فقد تبع ذلك ضحك كثير .

وقالت الراني :

— لقد أصبحنا ، على الأقل ، واثقين بأننا لن نرى وجهها ثانية . ثم أضافت ، وعليها لوائح التقزز .

— هيا ، أحضروا لي قطعة قماش ، وماء الورد ! فأني هوس يتملك هؤلاء الإنكليزيات لكي يقبلوك .

وعندما رأتها سلمى تفرك بقوة جلدها لتمحو عنه آثار التلوث ، كانت تفكر بخالة أمها ، زوجة السلطان عبد العزيز ، التي كانت جرحت خدها جرحاً بليغاً بضربة سكين ، لتتطهر من قبله إحدى « الكافرات » . وهذه الكافرة ، بالمناسبة ، كانت تزور استامبول زيارة رسمية . وكان اسمها الأمباطورة أوجيني ، زوجة نابليون الثالث .

وكانت الإيزوتا فراشيني تمضي على الطريق الأغبر ، دائرة مرتين بعنف — إذ من يتنازل فيبطيء — حول قطعان الجواميس والجمال الضخمة ، والمسيرات الجنائزية ، والأبقار المقدسة ،

وموكب الخطيب المرح، الذي يمضي على حصانه الأبيض إلى بيت الصبية الموعودة. إنها معجزة دائمة هذه السيارة الفائقة السرعة التي تتسلل بسرعة ٥٠ ميل في الساعة، من خلال العوائق اللطيفة التي تنشأ عن الرحلات التي تم على الطريق الهندية الكبيرة، وتجعل مسيرة السيارة شبه مباراة في تجاوز العقبات.

ولكن جيهانراباد مضطر إلى تنظيم رحلة صيد للنمور على شرف الحاكم. فإذا كان يريد طريقه، فهذا أسهل الأشياء، على حسب تعليق أمير الذي يقول هذا ضاحكاً. إن هؤلاء يظنون أنهم جميعاً صيادون ماهرون (رماة ماهرون). فليتهم يعرفون كم نفعل لإصناء هذه الثمور المسكينة! ففي اليوم السابق ليوم الرحلة، تترك قريباً من مجاري الماء التي يردّها الثمور، جواميس صغيرة، عُلفت علفها مع كميات مناسبة من الأفيون. وفي الحالة التي لا يكفي فيها هذا، نضع دوماً حارساً، يختفي في غوية، ويطلق النار في نفس الوقت هو والحاكم العظيم. وهكذا فإن كل الناس يكونون مسرورين. أي الصياد الذي يصيد الوحوش، والذي يطلب تصويره، وهو يضع قدمه المنتصرة على جثة الوحش — والذي يحسّو رأسه فما بعد بالثب، ويجعل قلوب النساء تمتلئ بالهلع، من رؤيته — ثم ضيفه الذي لا يستطيع، في فرحه هذا، أن يأبى تقديم خدمة صغيرة له.

— هل تحتقرهم؟

فيرتجف أمير، ويحلق في وجه زوجته.

— الإنكليز؟ أنا لأحبه، ولكني معجب بهم، فلو أننا ملكنا نصف طاقتهم، أو صبرهم، أو انضباطهم ووفاءهم...

— وفاءهم؟

— تجاه الأباطورية. فمن أجلها تراهم مستعدين لكل النذالات. والخدمات التي يقدمونها لنا لا تتعارض أبداً مع مصالح العرش. وفيما عدا ذلك، فإن في وسعهم أن يكونوا قليلي الشرف، أما على مستوى إخفاء ما في النفس، الذي يسمى شرقياً، فإنه ليس عندنا ما نعلّمهم إياه. وأصلاً، فإن هذا ما يجعل العلاقات... مثيرة.

وتساءل سلمى:

«عندما يلعب القط مع الفأرة، فأين هو الهيجان المفرح لدى الفأرة؟ أولاً يلاحظون إلى أي

حيد يهزأ الإنكليز منهم ، ويستخدمونهم ؟ أما نساؤهم ، فوراء الحجاب ، تراهنّ واضحات الرؤية أكثر منهم . »

— وتكره راني جيهانراباد هؤلاء الإنكليز الذين يقدرهم زوجها تقديراً عظيماً . إذ تدّعي هي وصديقاتها أنهم أكثر بياضاً مما يجب ليكونوا كائنات بشرية . وهنّ يؤكدن أن أشجاراً ضخمة تحمل بيوضاً ، تنمو في جزيرتهم ، وأنهم يولدون هم من هذه البيوض .

ويرفع الراجا عينيه إلى السماء قائلاً :

— إن حماقة هؤلاء النساء ليست مما يقبل القياس !

— وبالمناسبة كنت أريد ، يا عزيزي ، أن أخبرك بأني تلقيت رسالة من واحد من أصدقائي القدامى من كامبريدج ، هو اللورد ستيلتون . فقد تزوج حديثاً من فيكونته هي الليدي غريس ، ويحبان أن يقضيا شهر العسل في الهند . وسيصلان إلى لوكنوف ، خلال بضعة أيام ، وينزلان في قصرنا . ويضيف ساخراً قوله : أرجو ألا تحول قناعاتك الوطنية دون حسن استقباهما .

« ما أجملهما من زوجين ، كم يبدوان عاشقين ! » . فقد راقبتهما سلمى ، طيلة السهرة ، بحنين ، كطفل وجد نفسه أمام حانوت مفعم بأشياء رائعة ومنوعة معاً . إن هذه الشقرة العابثة ، وهذا التفاهم الضمني القائم بينهما ، وهذه الضحكات تدخل في قلبها اليأس .

ومع ذلك فقد كان العشاء مرحاً جداً ، جاء فيه حديث لندن وباريس ، والمسرحيات الجديدة التي أصبحت مهوى الأفتدة . وحفلات البال الموسمية ، وأشير كذلك إلى آخر الفضائح . ويسأل أمير عن أخبار كل واحد ، ويدهش ، ويضحك . وما من مرة رآته سلمى مرتاحاً كهذه المرة ، بلا توتر ، وقد أذهلها أنه يعرف كل الناس .

وينبعا اللورد ستيلتون :

أن زوجها كان عنوان المرح في كل المجموعة التي كانت تشتمل على عدد لا بأس به من الشباب المرحين . ولكن أمير يتميّز بطريقة شعرية خاصة به في قلب أية سهرة مضجرة إلى مغامرة . وكان الناس جميعاً يتخاطفونه ، هذا إن لم نتحدث عن النساء اللواتي جننّ به !

أمير والمرح؟ إن سلمى لا تصدّق أذنيها. وأخذت تحلم: فلو أنهما تعارفا في لندن، فلربما تحابا. لربما؟... فما هي إذن الآن تلك العاطفة التي تصل بينهما. آه، لو أنه وافق على التخلص من هذا الدرع الذي وضعه على نفسه. ولكنه يدّعي أن الحب مرض في العقل. وفي المرة الوحيدة التي تجرأت فيها على سؤاله عن عاطفته تجاهها، أجابها بأنه يعجب بها ويحترمها. ولم تعد بعد ذلك إلى مثل هذا السؤال.

وها هي الآن تتجه ببطء إلى البيانو، الملجأ المبارك الذي تستطيع أن تعزل نفسها فيه دون أن يظهر أنها تهرب. وهذا البيانو، إنما هي مدينة به إلى تدخل رشيد خان، على الرغم من ثورة الرائي عزيزة.

أيها العزيز رشيد خان! لقد حظيت هذا المساء بمفاجأة سعيدة، هي أنها رأيته للمرة الأولى منذ وصولها إلى لوكنوف. وعلى الرغم من أنه أكبر عمراً، فإنه هو الآخر صديق لضييفها اللورد، الذي لم يكن يرى من مبرّر لغيابه عن العشاء. وكذلك فإن أمير لم يشعر بالشجاعة الكافية لكي يشرح لرفيقه القديم أنه هو ذو الفكر القوي، العقلاني المتحرر من المستبقات، كان يحتفظ بامرأته في البردها^(١).

وبدأت تداعب بأصابعها، أصابع البيانو العاجية وأخذت تعزف الضربات الأولى من إحدى ليليات (سم) شويان. فمن اكتئاب إلى أمل، إلى هوى يتحطم ويعود فيولد من جديد، مرتجفاً، عاصفاً، ثم من جديد يتجلى في شهقة بكاء، في شكوى مرهفة، كخذ وردة، أو كنقطة ندى تموت.

وكانت تحس على يديها، وعنقها، نظرة رشيد، الحارة الرقيقة إلى ما لا نهاية. وكانا خلال تلك السهرة يتجافيان، والآن فقط، الآن إذ يظنها ضائعة في أحلامها المنسجمة، يجرؤ أن ينظر إليها. وهي تقطع أنفاسها، لكي تتلقى كل جزيء من هذا الهيجان، وهذه العبادة، التي تجعلها تنفتح، وتُعطر، وتحيا مرة أخرى، كشعاعات الشمس على زهرة الحقل.

غير أنها مع ذلك، لاتبه، وهي تعرف ذلك، وهو بعيد عن أن يملك ما لزوجها من إغراء. ولكنها في هذه اللحظة لا ترغب إلا في شيء واحد: هو أن (تتلفل) بين ذراعيه، وأن تهدد.

(١) كثيراً ما كان الهنود المثقفون يحرصون على أن لا تظهر زوجاتهم بلا برداه أمام الهنود مع التسامح بذلك أمام الأجانب.

ولقد كان كافياً أن ينظر إليها بعينيه المتفهمتين ، المحبتين ، لكي يعود فجأة فيجد السلمى التي عهدها منذ ثمانية أشهر تقريباً ، أي تلك المرأة السعيدة التي كان يستقبلها في مرفأً بومباي .

لكن صوت اللورد عاد فاقتلعها من أحلامها .

— أمير ، ماذا ترى ، إن ذهبنا فأنهينا سهرتنا في نادي شاتر منزيل ؟ لقد قيل لي إنه مكان فخم ، لعله هو قصر من قصور ملوك الأود ، أليس كذلك ؟

واصفّر أمير ، وقال :

— لست عضواً في هذا النادي .

— لأهمية لذلك ، فأنا أدعوك . فالحاكم الذي زرته هذا الصباح كرّمني بأن أعطى اسمي للاستقبال .

وابتسم أمير قليلاً .

— إنك جديد على هذه البلاد يا إدوار . ولكنك مررت بكلكتوتا ، على ما أظن ، فهل ذهبت إلى يخت — كلوب ؟

— بالتأكيد ، وهو ممتع جداً .

— هل تعرف الفرق بين يخت — كلوب ، والشاطر منزيل ؟

وكان أمير يتكلم ببطء ، وهو يدير كأس البراندي في يده ، كما لو أنه غاب في لونه العنبري .

— حسناً ، ها هو الفرق : إن اليخت — كلوب في كلكتوتا محرم على الهنود والكلاب . أما في لوكنوف فإنهم أكثر تسامحاً : لأنهم يقبلون الكلاب .

وكان الصمت عندئذ عظيماً . ذلك أن العيون كلها اتجهت إلى اللورد الذي انفتح فمه تلقائياً من شدة الاستغراب . وما من مرة وجد اللورد نفسه في مثل هذا الحرج .

— إنك تمزح . لا بد أن هذا النظام لسكان البلد ، أريد أن أقول ... هو ، للشعب ، وليس لأناس من نوعك .

— وماذا تريد أن تقول ؟ وهل أنا في رأيك غير هندي .

— عفواً، يا أمير، إنك من أسرة من أقدم الأسر الهندية. وفي لندن كانوا يسمونك «الأمير». وكانت الدوقات تتنازع على لقائك واستقبالك...

— هذا في لندن. أما هنا فكما ترى.

وحار الرجل في أمره، ولم يجد ما يفعله غير أن يضع رأسه بين يديه.

— ويستغربون، مع ذلك، أن الهنود يطالبون باستقلالهم!.. إن كل هؤلاء الموظفين الإنكليز هم من جماعة السمانين! وعندما أفكر أنهم يجرؤون على احتقارك، والتصغير من شأنك... إن هذا مالا يتصور أي إنسان أنه يقع. تعال معي، وسندخل قسراً، ولن يجرؤوا على قول شيء، أو أنهم سيجدون من يتصدى لهم!

وينظر أمير إلى صديقه. ويردد. إذ ليس له أية رغبة في المغامرة بإثارة هذه الفضيحة. ولكنه عندما فكر بالأمر جيداً، وجد أنها ربما كانت الفرصة التي يحلم بها لإخراج السلطات. فاللورد معروف؛ ورغم صغر سنه، فإنه عضو بارز في مجلس اللوردات. فلماذا لا يجرّب؟ وعلى كل حال، سيخرج في النتيجة رابحاً. فإما أن صديقه يرغم الندي على قبوله، وينشئ بذلك سابقة تهز كيان الرأي السائد حول تفوق البريطانيين، وإما أنهم سيجبرونهم على الرحيل، وعندئذ تحدث الفضيحة. وفي مثل هذه المرحلة من النضال من أجل الاستقلال، فإن هذا النوع من الفضائح يمكن أن يكون رابحاً.

وفي هذه الليلة المقمرة، كانت الرولز تنزلق في الممر الرئيسي بين أشجار النخيل ذات الجدوع الفضية، وبين البانيات^(٢) التي يزيها عمرها عن ثلاث مئة عام. وكانت الواجهة الطويلة لقصر شاتر منزل مضاهه، كما أن القباب البرونزية المذهبة الثلاث، تتأنت. وتعجب الليدي أشد الإعجاب، وتقول:

— كم هذا جميل!

وامتنع أمير عن أن يوضح لها أن هذه القباب في الماضي كانت من الذهب الخالص، وأن مواطنيها قد... ترى كيف نقول الكلمة بتهذيب؟... وأخيراً، سرقوها.

(٢) أشجار كبيرة تسمى «نين البنغال».

ووقفت السيارة عند مدخل النادي الفخم، حيث تقف حوالي عشرين سيارة. وهناك ستارة من الخضرة والأزهار تهبط حتى الأرض، وتشكل كُنَّةً (أو طنفاً) لطيفة، معطّرة.

وأخذ اللورد بيد صديقه واتجه بعزم نحو المدخل، فإذا بالبواب يعترضهما.

— معذرة أيها السر، ولكنّ من الممنوع...

وبكل تعال، نظر إليه اللورد، حتى بدون أن يتوقف.

— هل تعرف مع من تتكلم؟ إنه لا شيء ممنوع عليّ!

وبحركة واحدة من يده، كنس اللورد القوانين، وهذا الحرثوم الذي يدعي أنه يريد ضمان احترامها.

وتفكر سلمى، وتقول في نفسها: «هذه بداية طيبة» وهذه أول مرة تجد فيها إنكليزياً محبباً. وما من شيء يروقها بقدر هذا النوع من التحدّي. وتشعر أن الليدي غريس، بجانبها تتيبّس وتتصلّب: ويقترب الجمع من الأبناء، وهناك مجموعة من خدام المطاعم والمقاهي، أقوى وأدعى إلى الخوف، من مجرّد بواب، لوحده.

وكانت قاعة الاستقبال الكبرى لشاطر منزل، مزدانة، هذا المساء، بالورود. وكان على المصطبة الصغيرة أوركسترا تعزف بنعومة. وهناك خدام معّمون يتسللون، حاملين صواني ثقيلة من الفضة، ملأى بزجاجات مختلفة الألوان. والطاولات في أكثرها مشغولة، وخلافاً للعادة، كان عدد النساء كبيراً. أما من الأحاديث، فلا تسمع إلا ضجّة صماء، أخفتت بالسجاد السميك، وبالزينة الخشبية التي تغطي الجدران.

وتفكر سلمى: «يجب أن يكون هنالك عيد أو احتفال ما، ولا فرصة مناسبة أكثر من هذه أو أفضل. وغداً سيداع الخبر في المدينة كلها». وها هي رعشة صغيرة تتجاز عنقها، ويدخل في روعها أنها تدخل حلبة.

وتوقف الناس عن الكلام، عند وصولهم. وبَدَتْ الموسيقى أقوى في إطار هذا الصمت. وتركزت الأنظار كلها عليهم. أما اللورد، فإنه يسأل عن الطاولة التي حجزها، وهو في أحسن أحواله. غير أن رئيس الخدم هناك، وهو إنكليزي من المدرسة القديمة، تقدّم نحوهم. ومرات عديدة فتح فاه دون أن يجرؤ على التلفظ بكلمة واحدة. فجاء زميلان لمساعدته.

— إن طاولتك هي هنا، ياسر، بعيدة قليلاً عن الأوركسترا ولكن...

ويرد اللورد، بكل تعالٍ:

— ولكن ماذا؟ إن لكم هنا أساليب غريبة!

— سر، إن هذا مستحيل... هذا الرجل الذي يرافقك... فقواعد النادي لا تسمح بذلك...

— إنك بدأت تزعجني، يا غلام. فراجاه بادالبور هو ضيفي. فإذا لم تحترموه، فكأنكم لم تحترموني.. فهل في نيتكم، مثلاً، أن تشتموني؟

ويدا رئيس الخدم مكتئباً. ومن دون أن يطيل النقاش، يذهب فيختمي.

ويجبل اللورد نظراته في الحاضرين، ساخراً، فلا يلقي نظرة: وكل واحد شغل نفسه بمحادثته.

— حسناً يا أمير، تعال نجلس. فالسيدتان ينبغي أن تكونا قد تعبتا.

وبعد لحظات، جاء خادم هندي لسؤالهم عما يطلبون. ذلك أنهم بعد التشاور فيما بينهم، قرروا لإرسال الأصغر بينهم: وكان قلمه يرتجف بين أصابعه. وهو يتجنب أن ينظر إلى الراجاه. وحوهم كان الناس قد بدؤوا يغادرون طاولاتهم: بعضهم يتصنع الصمت الجليدي، وبعضهم الآخر يعرب عن استنكاره. ولكن أحداً لا يجزؤ على أن يجابه هذا الشاب السليط الذي يبدو— وما أعظم العار— وكأنه يستمتع متعة كبيرة، على حين أن زوجته التي احمرّ خداهما، بقوة، تخفض عينها، وتلتزم بهذا الوضع.

ولم يكن قد استقر بهم المقام خمس دقائق حتى اقترب رجل في غاية التميّز، وهو في السموكينغ السكري اللون.

— أظن أنني أمام اللورد ستيلتون، على ما أعتقد. مرحباً بكم في الشاتر منزلي. أنا جيمس بيلي، رئيس النادي.

— تشرفنا يا سيد بيلي. دعني أقدم لك زوجتي الليدي غريس، وصديقي راجاه بادالبور ورائي بادالبور.

فانحنى الرجل باحترام، أمام السيدات، وتجاهل الراجاه، عمداً.

— إنه لشرف لنا أن نستقبلكم، ميلور، ونستقبل السيدتين. ولكن من المستحيل علينا أن نقبل هذا السيد في نادينا. ذلك أن هذا النادي لا يستقبل أبداً، أيّاً من السكان المحليين.

ولفظ الكلمة الأخيرة بوقاحة، جعلت سلمى تقفز من مكانها.

— السكان المحليين. ولكني أنا أيضاً من هؤلاء، بحكم زواجي من الراجاه. فهل يجب أن أفهم أنك تطردني أيضاً؟

فيعض المدير شفثيه:

— لا، يا سيدة، إن في وسعك البقاء إذا أردت.

وقاطعه اللورد إدوار، وهو أهدأ ما يكون. قائلاً:

— يا عزيزنا السيد بيلي. أعلم أننا باقون هنا. ما لم ترغمونا بالقوة على مغادرة المكان. ولكن تصوّر الفضيحة التي ستحدث من جراء ذلك.

— إني لآسف جداً، ميلور، ولكن عليّ أن أضمن احترام القواعد المرعية هنا.

ويتجابه الرجلان بالنظرات، وما من واحد منهما مستعداً للتنازل. لقد أصبحت القضية قضية شرف. أما الراجاه، فإنه يبدو كما لو أنه ليس شبيهاً في هذا النقاش، وهو يتجرّع البراندي رشفة بعد رشفة. والعيون كلها متجهة نحو هذه الطاولة. وهناك في إحدى الزوايا نحو من عشرة خدام ينتظرون.

وهذه هي اللحظة التي تختارها الليدي غريس لكي تتدخل.

— إدوار، إنني أشعر بالدوار... فالجء منا حار جداً... فأرجوك، دعنا نخرج من هنا، وإلا فإنني أكاد أصاب بالإغماء. ويلقي اللورد نعلته على زوجته الشابة، وهو يكظم ما لديه من فقدان الصبر.

فتبدو فعلاً وكأنها على حافة الإغماء. وراودته لحظة فكرة رجاء سلمى أن تصحبها إلى استراحة النساء، ولكنه يعدل عن ذلك: «أي نذل أنا، فعزيتي الغالية غير متعودة على مثل هذه المجاببات. وليس لي الحق أن آتي بها إلى هنا في شهر العسل. وأجعلها تتحمل كل هذه الرزايا».

وأسرع السيد ببلي، فقال :

— هل يمكنني أن أساعدك ؟

— كلا، بل بلى، اطلب لي السيارة. وبهذا ردّ اللورد عليه، حتى دون أن ينظر إليه.

— أي جبان !

والآن وقد عادوا، فإن سلمى تطلق العنان لغضبها. وهي لا تدري ما هو الشيء الغالب عليها، أهو المرارة، أم الغثيان. ذلك أن مسيرة العودة تمت في جو من الصمت اللامرغ. وأقسم اللورد أنه سيثير المشكلة في لندن. ولكن أحداً لم يجبه عن هذا— فهم جميعاً يعرفون أن هذه الشكوى في غير مكانها، إذا هو لم ينس منذ زمن طويل، ما لم يكن بالنسبة إليه، إلا شبه حادث. واقترب الجمع على كلمة: طابت ليلتكم، على كونهم يعرفون أنها لن تطيب.

ويدور أمير في الغرفة، وأسنانها يصطك بعضها ببعض. فمئذ أن دخلا النادي، لم ينس هو ببنت شفة. وتشعر سلمى أنه يكرههم جميعاً: أي صديقه الذي جرّه إلى هذه المغامرة وخانه لدى أول مبرر، وامراته هو التي خانتها أيضاً، دون أن تريد، بحكم هذه البشرة البيضاء التي جعلت لها حقاً في أن توجد في الناحية الأخرى من الحاجز.

وهي تتمنى أن تكلمه، وتقول له: إنه لا يمكن الرد على الاحتقار إلا باحتقار أشد. وهي لا تفهم، بعد كل هذه الإساءات أن يظل هو وأصدقائه من الأرستقراطية الهندية، يترددون على هؤلاء الإنكليز، وعقد عرى المودة بينهم. فمن أين جاء هذا التواضع الغريب، لدى رجال في مثل هذا الزهو بالنفس؟ ألا يرون أنهم لن يعودوا فيجدوا قوتهم إلا إذا هم أطرحوا، لا البريطانيين وحدهم، بل كل منظومة القيم التي يدعي هؤلاء أنهم يريدون فرضها على الناس، كما لو أنها منظومة عالمية.

فتسكت. وهي تعرف أنه في هذه اللحظة، لا يحتملها إلا ساكنة. ولكن ربما حسبها غير مبالية؟ بحكم الإساءة التي تلقاها... فتقترب، وتلمس ذراعه، فيتخلص منها بعنف.

آه، لا، دعيني هادئاً.

هاتان العينان مفعمتان بالكراهية . كما لو أنها هي العدو أو الند في مباراة سخيفة ، يريد فيها كل واحد أن يبرهن على تميّزه ، خوفاً من أن يسحق . فهي مجرمة ، هي أيضاً ، ومسؤولة عن هذه المهزلة التي بدأ يلعبانها منذ بداية زواجهما ، كل على الآخر — فهي تقدّم عراقة المنشأ ، وهو يقدّم الثروة — بسبب فقدان الثقة ، إذ أنهما ، لاهو ، ولاهي ، بقادريّن على الاعتقاد ، بأنه يُحبُّ ، لنفسه ، لذاته . فهل طمح هو ، مثلها ، إلى شيء آخر ؟ أو أن تسقط عنهما قشّرتهما الخارجية ، ويعود كل منهما إلى براءته الذاتية ؟ فلقد حبسها في دورها كأمية وامرأة جميلة ، وأم مقبلة لأولاده . وهو لا يريد منها ، شيئاً آخر ، وبصورة خاصة لا يريد منها تفهماً قد يكسر الدرع الذي صنعه لنفسه . بل إن هذا الدرع ، مما يجب عليه تعزّيزه . والحادث الذي وقع هذا المساء ، يبرهن لها على ذلك ، إذ إن اعتقاده الساذج بوجود الصداقة ، هو الذي جعل هذا الإذلال ممكناً .

وها هي سلمى الآن في سريرها الكبير ، تبحث عن النوم . وكانت قد أوشكت أن تنام ، عندما لحقها إليه أمير . أما أنفاسه ففيها رائحة الكحول . ومن دون أية كلمة ، تراه يبدأ مداعبته لها ، وتصعد يده الخرقاء على طول ساق المرأة الشابة . فتتصلب ، وهو يؤلمها ، فتحاول استبعاده .

وكان هذا أكثر مما يجب لكي يتفجر غضبه . أوهي تردّه عن نفسها ؟ سترى إذن ! وأحاط يديها بيديه القاسيتين ، ومدّدها على ظهرها ، واخترقها بعنف ، كما لو أنه يريد الانتقام منها . ثم استدار ، وبلحظة نام .

وتندھش سلمى ، وعيناها مفتوحتان جداً ، من أنها لا تبكي . فمئذ أشهر ، كانت بكّت طيلة الليل في مثل هذه المناسبة . أف تكون قد ييست إلى هذه الدرجة ، وصلّب عودها خلال ذلك ؟ أم أنها فهمت هذه الليلة غضب أمير ، واستوعبته ؟

هذا المساء ... فما من مرة من قبل كان يمثل هذه العدوانية . وما من مرة أراد عامداً أن يجرحها ... وعندما تراه جميلاً إلى هذا الحد ، تأخذ نفسها بالحلم ، وتتحيل تلك الضمات الحلوة ، اللامتناهية . وهو لا يعرف كيف يرضيها ، ولكنه أثار حساسيتها إلى أبعد مما يجب . ففي كل مساء تأمل وتيأس . وإن رغبته لمن القوة بحيث شملت كل أجزاء جسمها حتى في الساقين والركب والبطن .

ووحدها في الظلام ، تمسك نفسها عن الصراخ .

— ١٠ —

وكانت الشمس عالية في السماء، عندما استيقظت سلمى. ولا شك أن أمير كان قد خرج منذ مدة طويلة. ولكنها غير راغبة في النهوض، فهي تشعر بأنها متألمة جداً. ويقرع الباب قرعاً خفيفاً.

— هل أزعجك؟

إنها زهراء التي تأتي، كل صباح، لتكون معها على الفطور. ولقد تعاطفت سلمى مع هذه البنيّة التي تهزها براءتها، وتسليها. ولقد أصبح فطور الصباح، بينهما، كواحد من الطقوس التي لا تتخيلان بدء النهار بدونه.

وحينما كانت إحدى الخادومات تحمل صينية كبيرة، مترعة بآنية الفضة والبورسلين الناعم، كانت زهراء، على مألوف عاداتها، تستقر على السرير. وبدأت بقولها:

— لو تعرفين أي حلم غريب حلمت. كنا نتنزه معاً، ويدي في يديك. وفجأة تغيرت. فاكتنسى ثوبك بالأحجار الكريمة، وتألفت وأصبحت في درجة من الجمال بهرتني، ولم أعد أستطيع أن أراك. وكنت أتعلق بيدك، ولكنها صارت كقطعة من الجليد. وشعرت بأنك كنت تدفعيني عنك، فانفجرت باكية. وعندئذ استيقظت. وتصوري أنني كنت أبكي.

وتبتسم سلمى ، وتمطى .

-- أحقاً كنت جميلة جداً؟

فأمسكت زدراء بيديها وأخذت تقبّلها قبلات صغيرة . وقالت :

— أقل مما أنت في الحقيقة . أما الثانية ، فكانت تلمع ككوكب ميت . أما أنت ، فأنت النور ، الحار ، المذهّب . (وقالت وهي تعض على قطعة خبز مغطاة بمربى البرتقال) ، وأنت تعرفين . ولقد قلتة مئة مرة ، فقد كنت الأجمل .

وأخذت الاثنتان تضحكان . وكان هذا الإعجاب اللا مشروط ، قد أصبح موضوعاً للمزاح . حتى إن أمير نفسه قال : إنه عندما يريد شيئاً من أخته ، فيجب أن يتوسل إليها عن طريق زوجها .

وتنهّدت زهراء ، وقالت :

— إنني جد سعيدة . ولقد تغيّرت حياتي تماماً منذ جئت أنت . وقبل ذلك كنت أشعر بالوحدة ، ولم يكن لي من أفضي إليه سريرة نفسي . وكان أخي قليل الحضور في البيت ، أو أنه مرهق بالعمل فلا أريد أن أزيد عليه مشاكله .

وخلعت صندلها ، وتمدّدت على السرير بالعرض ، وأسندت رأسها ، اللطيف ، إلى القسم الأعلى من ردف سلمى . وبصورة آلية بدأت هذه تداعب الخصل السوداء ، والجبين المحدث الشبيه بجبين أمير . وأغمضت زهراء عينيها ، وأخذت تهمهم همهمة خفيفة ، تعبيراً عن اللذة ، ورفعت نفسها قليلاً ، ووضعت رأسها في القسم الأجوف من الردف الحار . فارتعشت سلمى ، وعرتها رجفة قلبتها ، واستبدت بها رغبة بمسك هذا الرأس الحريري ، والضغط عليه بقوة فوق بطنها .

وفجأة ، تركت هذا كله ، لتقول :

— تكفيني الآن هذه « الطفوليات » . فدعيني الآن ، لأن عليّ أن ألبس لكي أذهب إلى بيت الراني شاهينا .

فانتصبت زهراء مضطربة . فما من مرة كلمتها سلمى بلهجة قاسية كهذه . أف تكون قد قالت لها شيئاً أثارها ؟

ووقفت سلمى أمام المرأة . وكانت وحيدة . فأخذت رأسها بيديها ، وكانت تتنفس بصعوبة ،

لأنها ماتزال طائشة من هذه الدوخة التي كادت منذ قليل تغمرها . وكان عليها أن تجمع كل مصادر القوة في إرادتها كيلا تستسلم إليها . أما الآن فإن الجسد ينتقم : وجاءها مغصٌ ، فبِس لها بطنها ، وصلبها . وكان من العنف بحيث جعلها تبكي ، وحاولت أن تسترد أنفاسها شيئاً فشيئاً ، وأن تتحكم في الألم . وقليلاً فقليلاً تنزاح قبضة المغص ، وتركها بلا دم . وعندما رفعت رأسها ، عكست لها المرأة صورة واحدة مجهولة ، ذات وجه استولت عليه دوائر زرقاء ، حول العيون وعلى الفم ثنيات مرة .

وعلى مدخل قصر نامبور . كان هنالك نمران يستقبلان سلمى : عيوهما زجاجية ، وسوفهما مقروض بالعث بعض الشيء . ومع ذلك فإن عليهما سيماء الزهو . وجاءت السيدة المرافقة ، فقدمت اعتذارها : ذلك أن الراي صاحبة ، ليست مستعدة أتم الاستعداد . فهل تستطيع صاحبة السمّو أن تنتظر بضعة دقائق في البهو . وهم سيقدمون لها بعض المرطبات . فتقبل سلمى ، وهي سعيدة بأن تبقى وحدها ، بعض اللحظات .

لكن الصمت في هذه القاعة الكبيرة ، ذات النوافذ المغطاة بستائر ثقيلة ، مريح للأعصاب بالقياس إلى ما يشبه جلبة قفص الدجاج ، السائدة في قصر بادالبور . وتلاحظ سلمى فيه بعض الحزن الهادئ الذي يعيد إليها الاطمئنان . وتأتي خادمتان ومعهما فطور يكفي لاثني عشر إنساناً ، يكادون يموتون من الجوع ، ثم تغيبان بصورة لطيفة . وتندesh سلمى : فهذه أول مرة ، في اشند ، تقدّم لها هدية : هي الفرصة التي تترك فيها لوحدها . لا بدّ أن ذلك تم بحكم أن سيدة البيت نصف إنكليزية ، وعرفت كيف تفرض احترام الحياة الخاصة ، مما لا مجال لتخيّله في بيت هندي .

وعندما كانت تتذوق الشاي المعطّر ، بجرعات صغيرة ، بدا لها أنها تسمع شيئاً من الحركة وراء الستار الخشبي في آخر القاعة . فتصيحُ السمع : ولكن لا شيء . لا بدّ أنها أخطأت السمع . ومع ذلك ... إنها تحسّ حضوراً ، ويمكن أن تقسم أنهم يتجسّسون عليها . ولكن لندع هذا ، وسخرت من نفسها . ربما كان لهذا البهو سمة إنكليزية ، ولكن نحن ، رغم ذلك ، في الهند .

وقد يكفيها أن تقول : من هناك ، لكي تهرب المتجسّسة . ولكن هذا سيكون غير لائق في بيت صديق . وأصلاً ما الفرق في أن تراقب من وراء ستار ، أو أن تراقب والرقية قائمة بين قدميها ؟ يجب التسليم بذلك : ففي هذا البلد لا مجال للهرب من الفضول .

لكن ذلك الضحيح أصبح أقوى من قبل ، كما لو أن أصحاب العلاقة ، لم يعد يعينهم أن

يتخفّوا . ومن المؤكد أنه يصدر عن حفيف الحرير ، من غارارة ما . وقماشته ثقيلة تشير إلى أن صاحبتة من نوع متميّز ، لا من التفتا الخفيفة التي تلبسها الخادومات . وسلمى تنتظر ، محتارة . وفجأة تظهر يد نحيلة جداً ، فتعلق بالستارة ، وهي بيضاء وراء الحلك الأسود . ومن شدة الإغراء لم تعد سلمى تنزع عينيها عن هذه الراحة الساكنة ، التي لا يبدو أن وراءها يداً تدعمها .

— اذهبي !

ودوى الصوت ، شاكياً ، كأنه صوت امرأة عجوز . فترتعد سلمى . وهي لا تؤمن بالأشباح . ولكن هذا الحضور اللامرئي والمعادي ، وجو هذا الصالون الغريب ... فالتصقت بمقعدها أكثر وأكثر ، وثبتت نظرها على الزاوية المظلمة التي جاء منها الصوت ، وهذه اليد التي تبدو لها وكأنها يد شبح من الأشباح .

— اهربي ، اهربي بسرعة !

وها هو شخص يظهر ، وعليه شعر أبيض كالثلج يتموج على الكتفين . وكانت هذه المرأة تتقدّم بصعوبة كما لو أن الثوب المصنوع من البروكار الثقيل كان أكثر مما يتحمله هذا الجسد المرهق . وكانت العينان ذات اللون الشبيه بزهرة الدفلى ، تنظر إلى سلمى بإلحاح ، وكانت الشفاه ترتجف .

— اهربي يا بنيّتي ... فإذا تأخرت فسيكون ذلك بعد فوات الأوان .

واضطربت النظرة ، كما لو أنها غُلِّفت بالسحاب . وببطء بدأت ترجّح رأسها من طرف إلى آخر .

وأعادت قولها :

— سيكون ذلك متأخراً جداً ، جدّ متأخر

— آه ، أرى أن الماما جاءت تزورك !

ودخلت الراني شاهينا . فجاء صوتها الصافي ، ووجهها المرح ينتزعان سلمى من الإغراء المرضى الذي تركت نفسها تنجر إليه . ومن جديد تلوح الشمس من النوافذ .

وأمسكت الراني ، بحب ، يد السيدة العجوز .

— هيا ، ياماما ، أنت تعب . ويجب أن ترتاحي .

وترن الجرس . فتحضر امرأة .

— اصحبي البيجوم صاحبة إلى جناحها ، ولا تتركها وحدها ، ولقد قلت لك ذلك مئة مرة .

ثم عادت إلى سلمى ، وقالت لها :

— لإنني آسفة . فأنت شاحبة اللون . فماذا قالت لك أُمي لكي تخيفك بهذه الصورة ؟ إنها لم تعد تملك عقلها ، كما تعرفين .

وتهمس سلمى ، وهي تفكر ، بالقول :

— أتعقدن ذلك ؟ إنها أوصتني بالهروب من هذا البلد قبل أن يفوت الوقت .

— مسكينة أُمي . فلقد ذكّرتها بشبابها ، عندما وصلت إلى الهند ، كغريبة . ولقد أرادت أن تحذرك حتى لا تقع في ما وقعت هي فيه . ولكن الوضع مختلف جداً . فقد كان ذلك منذ أربعين سنة . وتغيّرت العادات بعد ذلك ، لاسيما وأنتك نصف شرقية ، وتفهمين ثقافتنا .

ويبدو أن الراني شاهينا تقوم بجهد لمتابعة حديثها .

— الماما كانت شابة إنكليزية ، بسيطة جداً ، ومن البورجوازية اللندنية . وكانت قد وقعت في غرام أبي الذي كان يتابع دراسته في الجامعة . وكان جميلاً ، غنياً ، ساحراً . فتزوجا . وبعد سنة من ذلك ، عاد بها إلى لوكنوف ، وإلى أسرة لم تقبلها قط ، من حيث أنها رأت أن من واجب الابن الأكبر أن يتزوج هندية .

وأحال أنها في البداية ، ظنت أنها بشدة اللطف ، والطاعة ، يمكنها أن تقضي على عواطفهم العدائية . ولكن سرعان ما أدركت أن ذلك مستحيل . وأنها ستعتبر دوماً تلك الدخيلة . فلم بقيت ؟ ولم قبلت حياة السجن ، التي كانت أقسى منها الآن ؟ لأنها كانت تحب أبي ؟ كان هذا صحيحاً في بداية الأمر . أما بعد ذلك ، فسرعان ما زهد بها ، لقد بقيت بسببنا نحن ، أولادها . وأبي الذي كان قلما يراها ، كان يثقلها بالحمل كل عام ، كما لو أنه كان يدرك أن هذه هي الوسيلة

الوحيدة لبفائها واستبقائها. ولقد ولدت سبع عشرة مرة. ولسنا الآن غير ستة، استطاعوا أن يعيشوا.

وبدا صوت الراي شاهينا كما لو أنه يتحطم.

— والأسوأ من ذلك، أنهم كانوا يأخذون منها الأولاد، ساعة ولادتهم. وكانت جدتي تأبى أن تربى واحدة إنكليزية، أحفادها. وكانوا يضعونها لدى نساء يخدمن في البيت، ويضعننا. ولم يكن لدينا الحق في أن نراها، إلا مرة واحدة في الشهر. وأنا أتذكر كم كنت أبكي، وأنا طفلة، عندما كانوا يفصلونني عنها بعد زيارة تدوم عدة ساعات. كنت أتخبط، وأعوي، وأشهق بكاء... وكانت هي، ترجوني، وعيونها مملأى بالدمع، أن أبقى عاقلة.

وكانت السيدتان تنظر كل منهما إلى الأخرى بصمت، في حالة تأثر شديد. ولكن هل تطوّرت الدنيا عن ذي قبل؟ إن سلمى لا تعتقد ذلك. ولكنها لن تدع نفسها تنقاد بهذه الصورة. وستعرف كيف ترغم الآخرين على احترامها.

واقترحت الراي شاهينا نزهة تقومان بها على سبيل التسلية، وتغيير الحديث، إلى هازرطانغ المركز الأنيق في لوكنوف، لكي تستعرضا واجهات المخازن أيام عيد الميلاد.

— إن مانراه جميل جداً. فالإنكليز يبذلون الكثير من الجهد، لكي يخلقوا الجو الذي يعرفونه في بلادهم. ولا ينقص إلا الثلج.

ولقد أضيء هازرطانغ بأكاليل من النور، فمن رصيف إلى آخر تتصالب هذه الأكاليل وتنشئ قبة ملونة وهناك أشجار نخيل قصيرة تتألق كأشجار عيد الميلاد في أحواض من الخشب.

وسلمى لا تأتي لزيارة هذا الحي، إلا نادراً على مثال النساء الهنديات. وهو حي يقصده البريطانيون حصراً، في أغلب الأحيان. وأكثر المتاجر، والمطاعم، ودور السينما تعود إليهم. والخدم، إن لم يكونوا من الإنكليز فهم إنكليز — هنود، أو هنود إنكليز.

وفي هذه المدينة المختلفة بأعيادها، يلاحظ الإنسان حركة شديدة. إذ تقف السيارات الطويلة أمام المخازن، وبعض العربات أيضاً. ولكن أحداً لا يرى هودجاً، ولا دولي، أي هذا الهودج المتواضع الذي له حاملان، ولا طناب ملونة يجرها حصان، تسمى هنا باسم التونكا. فوسائل النقل هذه، أي التقليدية والشعبية، تبدو لها في غير مكانها.

وتقترح راني شاهينا زيارة أخرى ، فتقول :

— مارأيك في أن نذهب إلى محل الطريق ابيضاء White Way . أريد أن أشتري شرائط ودانتيلاذ إذ سنجد كل البضائع المستوردة ، بدءً من القبعات التي تملأ هذا العام إلى المواد الضرورية لتحضير البودينغ .

وتقف بهما العربة تماماً أمام المدخل الرئيسي . وتخلصت سلمى من برقعها ، ذاك البرقع الذي لم تضعه قط إلا أثناء الخروج من قصر نامبور . فهنا أوروبا ، بالنسبة إليها ، وتشعر أنها في جو الحرية . أما رفيقتها فقد أسدلت حجائها على وجهها بكل عناية .

وعندما دخلتا المول ، اتجهت الأنظار كلها إليهما . ذلك أنه إذا كان الرجال يأتين طوعاً إلى معبد الأناقة هذا ، لكي يشتروا قمصاناً من عند هارولد ، وطقوماً من عند بوب وبرادلي ، أو أحذية من عند لوب Loeb ، فإن من النادر أن تغامر النساء بمثل ذلك .

والواقع أن العين لا ترى هناك إلا هنديةين أو ثلاثاً ، في ثيابهن الوطنية « الساري » . وهنّ المسلمات الوحيدات . وتحب سلمى أن تتأخر في جولتها هذه ، لترى التايورات ، وفساتين السهرة ، وحتى فرو الأعناق (الذي لا يوضع هنا) في رأيها — ولو أن هذا ليس رأي كل السيدات اللواتي لا يتوانين عن عرض دثار الثعالب ، أو مانطو الزيليلين . لكن الراني لا تشعر بالراحة فيما يبدو . فتأخذ بيد سلمى وتجبرها إلى جناح البياضات ، الموجود في آخر المخزن .

وتلاحظ وراء الكونتوار ثلاث بائعات ، شابات ، لطيفات في روبهن الحريري الأسود المحلى بأربطة عنق بيضاء . وعندما يلاحظ الإنسان لون، بشرتهن الشاحب ، لا سيما إذا أضاءه التزيين الخارجي ، وهجتهن في الكلام ، . . .أنهن إنكليزيات ، ولكن عيون الظبية ، والشعر الأسود ، يكشفان عن اختلاط الدماء .

وكان هؤلاء قد أنهين خدمة الزبائن ، فبدأن يتحادثن ، متصنعات أنهن لا يرين هاتين السيدتين اللتين تنتظران .

واعترضتهن الراني شاهينا قائلة :

— ياأوانس

فتتقدم أصغرهن عمراً ، متململة ، وتقول :

— ماذا عندكن؟ ولكن بلهجة متعالية، شادة على لهجتها لتكون في أصفى أسلوب أوكسوني .

وتنظر سلمى إليها مذهولة . ترى ماذا تظن نفسها؟ ولكنها تمسك عن التدخل : فعلى الراي أن تردّها إلى حقيقتها . ولكن يبدو أن هذه الأخيرة لم تلاحظ شيئاً .

— كنت أريد أن أرى آخر ماجاءكم من الشرائط والدانتيلات .

— من أي الألوان؟

— من اللون الزهري والسكري . فهل يمكنك أن ترينا ما عندك .

فترفع البائعة عينيها إلى السماء وتقول :

— إن كنتما تظنان أنه ليس لديّ ما أعمله غير هذا ، ف... فقولاً لي اللون الدقيق . ولا يخطر ببالكما أنه لا وجود في المتجر لغيرك .

وقفزت سلمى .

— إن هذا يكفي ، فاعتذري فوراً من الراي !

— ولكن....

— فوراً ، أو أنني أذهب مباشرة إلى مديرك ، وأتعهد لك بأنك ستسرحين فوراً .

فتتمم الفتاة كلماتها وتقول :

— إنني آسفة .

وتتابع سلمى حديثها وهي تنهجم غضباً ، فتقول :

— والآن أرينا كل ما لديك من دانتيلات ، وكل الأشرطة ، من كل الألوان ! ومع البسمة ، إن أردت . فمن تظنين أنك هو ، حتى تنصرفي بهذه الصورة مع نساء بلدك؟ فأنت إنكليزية — هندية ، أليس كذلك؟

وبدت البائعة مكتئبة . فملاحظة سلمى ليست بريئة . ففي الهند يعتبر الدم — الخليط ، علامة شبهة . ذلك أن الذين يولدون من هذا النوع ، يولدون من زواج عابر بين العاهرات والجنود

الإنكليز. ولهذا فهم محقرّون في البلد، وأذلاء تجاه الإنكليز الشديدي التعاطف على الهنود، فيستخدمهم الأولون، ويكرههم الهنود لأنهم يتعالون عليهم، ويسمونهم «بأشباه السود».

ولامت الراي شاهينا، سلمى على قسوتها، عندما خرجتا من المخزن، وقالت:

— هذه المسكينة الصغيرة! إنه لم يكن لك أن تكوني قاسية معها إلى هذه الدرجة. فهؤلاء «الإنكليز — الهنود» يعيشون في وضع صعب، ويقولون عن أنفسهم: إنهم إنكليز من الهند. وعندما يتكلمن عن أصلهن، يقلن «عندنا» فهنّ يردن أن يقلن: إنكلترا! حيث لا مجال، دات يوم، لأن يدهبن إليها. وهنّ لا يفهمن أنهن لن يقبلن أبداً من قبل الإنكليز الذين يصخرون «ببياض» ألوانهم. إنهن أجدر بالثناء منهن باللوم.

وتهز سلمى رأسها. لاشك أنها مخطئة، ولكنها لا تشعر بأي عطف على أولئك الذين يتنكرون لأصوهم. هي تتساءل عما إذا كان فهم الراي شاهينا لا ينشأ عن أنها هي نفسها نصف إنكليزية، لا «إنكليزية — هندية» بطبيعة الحال، ذلك أن هذا النعت مقصور على فئة محقرة. ذلك أن بعض الريجات التي تمت بين فئة من الأرستقراطيين الهنود وبين بعض الإنكليزيات، المنتسبات إلى أسر طيبة، زيجات ينظر إليها نظرة حسنة، على العكس من تلك. وهذه المرأة الشابة هي البرهان على ذلك: فقد نشأت من مثل هذا النوع من الزواج. واختيرت لكي تكون زوجة لراجاه نامبور. ولكن في الحقيقة، كيف تتحملة؟

— أرجو أن تسامحيني، إذا كنت متطفلة بعض الشيء، ولكنك تقولين دوماً: «هؤلاء الإنكليز هم كذا... وهؤلاء الإنكليز هم كذاك... ولكن ألا تشعرين أنت نفسك بأنك إنكليزية إلى حد ما؟

ووقفت الراي. ونظرت إلى سلمى ببسمة حزينة، وقالت:

— لا أنت ولا أنا سنشعر بأننا ننتسب حقاً إلى شيء ما. إن هذا عذاب دائم لا نستطيع إلا أن نحاول أن نجعل منه ثروة وإغناء. إذا كنا نملك القوة على ذلك! وكان سائق العربّة ينتظرهما على جانبها. فتتهيا الراي للصعود.

وتتوسل إليها سلمى، قائلة:

— لئمش قليلاً، فأنا بحاجة إلى التنفس.

— أتمشين في الطريق ؟ أولا تفضلين أن نمضي إلى «جديقة» (الريزيدانس)^(١) . سيكون ذلك أهدأ بالنسبة لنا .

ولكن كيف تشرح أن ماهي راغبة فيه هو الجمهور . ذو الوجوه المختلفة ، والغبار ، والبشاعة ؛ حتى ولو كان عليها أن تراحم على طريقها — وماذا يهم ؟ فهي تختنق في الجو المحمي الذي تحبس فيه ، وهي بحاجة إلى أن تعود فتغوص في الحقيقة . وهي بشيء من الانقباض في القلب ، تتذكر بيروت ، والحرية التي كانت تتمتع بها . وفي ذلك الحين ، لم تكن تتخيل قط أن مجرد النزهة في الشارع ، يصبح بالنسبة إليها مغامرة .

وعلى الرغم من احتجاجات المريتتين اللتين كانتا تصحبهما ، واللتين كانتا تصلحان وضع الحجاب على شعر سلمى ، ذلك الحجاب الذي يأبى إلا أن ينزل ، فهما ستمشيان بعض الخطوات . وفي كل لحظة ، كانتا عرضة لنداء الباعة الصغار الذين يملؤون الرصيف ، ويعرضون السكاكر ، ودقيق البخور ، وأكاليل الياسمين المعطر ، غير أنهما كانتا تتعرضان كذلك لجماعات من المتسولين المتضورين جوعاً — أكثرهم من النساء اللواتي يصحبن أطفالهن . وتعجب سلمى من أنها تراهن على درجة محترمة من النظافة ، مع شيء من الشعور بالكرامة ، غير مألوف ، لدى هؤلاء الذين يعيشون من الصدقات العامة .

وتشرح لها الراني شاهينا الأمر فتقول :

— إن هؤلاء فلاحات من القرى المجاورة . وكانت الجماعة فظيعة هذا العام : وبعد جفاف طويل طويل ، جاءت أمطار غزيرة سببت فيضانات رهيبة . وتلك المزروعات التي لم تكرر قد احترقت ، تلفت وهي واقفة . وهؤلاء الناس هم فقراء أكثر مما يجب ، لادخار بعض القوت ، من سنة إلى أخرى . وعندما تكون السنة خصبة ، فإنهم يعيشون عيشة الكفاف . وعندما تكون السنة جافة ، فإن أملهم الوحيد بالحياة ، هو أن يأتوا إلى المدينة يطلبوا الصدقات .

وعندئذ تشير إلى مريبتها ، بأن توزع المال الذي بقي من المشتريات على هؤلاء المتسولين .

(١) كانت الريزيدانس هذه الحصص القديم للجيش الإنكليزي . وقد هُدم عام ١٨٥٧ عندما شبت ثورة السبائي (أي ثورة بعض عناصر الجيش الإنكليزي في الهند) . وهم هود طبعاً .

فتسرع سلمى إلى تقليدها، وهي خجولة من ثيابها الفخمة المطرزة بالذهب. ولما شعرت النسوة بما لديها من الشفقة، تزاوجن حول هذه السيدة البيضاء، ودفعن نحوها أولادهن. بل إن واحدة منهن أبت الدراهم، وهي شابة. ولا بد أنها كانت حسناء، ولكن الإرهاق، والحرمان خطأً في وجهها أخاديد عميقة.

ونظرت إلى سلمى، نظرة بائسة، ووضعت في يدها يد طفلتها. وسألت سلمى:

— ولكن لماذا لا تأخذ الدراهم؟ وماذا تريد مني؟

— إنها تريد أن تأخذي ابنتها، لكي تنغذى. ويعتنى بها، وأن يكون فوقها سقف. وفي الماضي، عندما كانت تحدث المجاعات، كانت الأسر الغنية تحصل على أطفال هؤلاء، مقابل مبلغ صغير يُدفع إلى الأبوين، ثم يعملون القيام بمختلف الحاجات المنزلية. وكانوا بصورة عامة، يعاملون معاملة حسنة، ولكنهم ليسوا أحراراً في ترك المنازل التي هم فيها. وفيما عدا بعض الاستثناءات، فإن هؤلاء قلماً يفكرون بمغادرتها، لأنهم أصبحوا جزءاً منها.

«ولكن الإنكليز، منذ بضع عشرات السنين، منعوا هذه العادة، التي يقولون إنها عبودية متكررة، وربما كان ذلك صحيحاً. وعلى كل حال فإن هؤلاء النساء لا يفهمن لماذا نأى ما أصبح تقليداً، وربما حقاً، من وجهة نظرهن».

وحاولت بصوتها الناعم، ولهجتها الحازمة أن تشرح لهن ذلك، باللغة الأردنية جزئياً، وبلغتهن في الجزء الآخر. ولقد سمعت سلمى هذه المرأة تلفظ كلمة الإنجليزي (الإنكليزي) عدة مرات. ورأت أن الوجوه حولها تنغلق عليها.

— لمض فوراً، وإلا فإننا لن نستطيع ذلك أبداً، فسيتعلقن بنا ويشعرن بأنك الحلقة الضعيفة.

فتصعدان إلى العربة، في الحين الذي تقوم فيه المريبتان بإغلاق الأبواب. وصارت هؤلاء النسوة تنظر بحزن إلى رحيل هاتين السيدتين، بعد أن اعتقدن للحظة ما، أنهما قادرتان على انتزاع أبنائهن من الموت.

وعندما عادت سلمى إلى بيتها، حبست نفسها في غرفتها. فهي بحاجة إلى أن تبقى وحدها. إذ أنها لا تستطيع احتمال وأوة نساء القصر اللواتي يقضين وقتهن، في تذوق الحلوى. إنها

تكرههن . وتكره نفسها . وماذا تفعل أكثر منهن ؟ إنها بائسة — وأية مشكلة ! فعلى بابها ، نساء وأطفال يموتون من الجوع ...

وقال أمير :

— إن الإنسان يتعوّد ...

أبدأ ! . وليجعلها الله لا تنسى حزنها على هذا الشقاء ، وأن لا تنسى نظرات هؤلاء الفلاحات ، وهي نظرات مملأى بالأمل ، أولاً ، ثم باللوم عندما أغلقت أبواب العربة . وحتى اللوم لم يكن قائماً ، بل كان البديل هو الاستسلام — أي الاتهام الأقسى والأعنف من الشتيمة أو التمرد . وهو تمرد ليس لمن عليه القدرة ، ولا تخطر بباله فكرته . ترى هل يعرفن أن هن — كغيرهن — ألحق في الحياة ؟

وفي استامبول ، رأيت سلمى ، خلال طفولتها ، الشقاء ، وفي درجة من القسوة ، مثل التي تراها في الهند . ولكن هذا الشقاء كان بسبب الحرب التي كانت منذ سنين تعصف بالبلاد . كان ذلك « وضعاً استثنائياً » يناضلون ضده ، ويعرفون أنهم سيتغلبون عليه .

أما هنا ، ففي كل يوم ، يموت آلاف الأطفال من الجوع ، وهذا واقع مقبول ، متوقع ، داخل في عادات الناس . والعكس هو الذي يستغربه الناس . وتتساءل سلمى : من يعرف ؟ ربما أن الأغنياء تقوى شهيتهم لأنهم يعلمون أن الطعام امتياز ، وفرط السيمن علامة على الوضع الاجتماعي ؟ أو يكون هنالك لذة للأغنياء بالغنى ، لو لم يكن هنالك فقراء يذكرونك في كل لحظة ، بأنك من المحظوظين ؟

ويُفزع الباب .

— راني صاحبة ، لدينا متسولة مع ثلاثة أطفال . وهي تلح علينا لكي تقابلها . وأجبناها بأن هذا مستحيل . ولكنها تقول : إنها تعرفك وتأتى أن تتركنا .
— أَدْخِلْهَا .

فإذا بها أمام الفلاحة التي رأتها منذ قليل ، تلك التي رمت بابتها بين ذراعي سلمى . ولما كانت خائفة ، فقد وقفت على عتبة الغرفة . فتبتسم لها سلمى ، كأنها سعيدة بمقدمها . وسترّم

ما كان قد بدا لهذه المرأة، وكأنه اللامبالاة، أو قسوة القلب. وستأخذ هذه البنت الرائعة، وستعلّمها صور أداء الحاجات الخاصة بها، وستكون لها وحدها. ولن يأبى أمير ذلك عليها.

وفهمت الفلاحة. وبدأت تبكي من الفرح. فقد أنقذت ابنتها.

وأعلم الراجاه بالأمر. فجاء مسرعاً. وبكلمة شرحت له سلمى الموضوع. وقالت:

— إني أعرف أننا أمام مثل هذه المصيبة لانستطيع أن نفعل الكثير. ولكن لنأخذ هذه الطفلة على الأقل. فواحدة بزيادة، لا يشعر بها أحد في هذا القصر.

ويهنز أمير رأسه، وعليه سيماء الضجر.

— إني آسف. فهذا مستحيل. لأن القانون الإنكليزي يحرمه وسينقل الخبر إلى الإنكليز: فأنا غير واثق من جماعة القصر كلهم. وليس الذي يهمني هو القانون، بل النتائج السياسية التي ستترتب عليه في اللحظة التي يحاول فيها كل واحد تسقط سيئات الأمراء. وتخيلي ما يمكن أن يفعله حزب المؤتمر، إذا علم بأني أستخدم أطفال الناس كعبيد. إن الإنكليز سيرغمون على العسف بنا، حتى لا يتهموا بالتحيز للأرستقراطية على حساب الشعب. وسيرى قسم من الرأي العام البريطاني أن هذا وحده يكفي للبرهان على أننا لسنا أهلاً للاستقلال. لا، لا، حقاً، فأنا أريد أن أسرّ قلبك بالاستجابة لطلبك، ولكن الموقف، حالياً، حرج جداً.

ويشير إلى الفلاحة، ويأخذ من جيبه قطعة ذهبية من النقد. أما سلمى التي غشيها الاضطراب، فإنها لن تنظر إليهما وهما تغادران المكان.

وبعد عدة أسابيع، وعندما كانت سلمى، ومعها المربية، تشتري حاجاتها من سوق أمينا آباد، جاءت متسولة عجوز تدفع أمامها بنينة تلبس كيساً من القنب، تخرج منه يدان مقطوعتان. وترتجف سلمى وتقول: «هذه الطفلة المسكينة»، وتشير إلى المربية بأن تكون أكرم من العادة. ولكن البنينة لا تترك لها المجال، وتنقض على سلمى، صارخة صرخات صغيرة غير مفهومة؛ أما فمها المفتوح فيلاحظ فيه لسان مقطوع. فتراجع سلمى قليلاً. وقد أخافها الألم والكراهة اللذان يصدران عن العينين القامتتين، ولكنها تتناسك مباشرة وتقول: «كم أنا جبانة. إديبدو أن هذه الطفلة تقول لي شيئاً». وتبذل بعض الجهد، وتنظر إلى الوجه الصغير. فبدا لها أنها قد رآته سابقاً. ولكن أين؟

وفجأة ترى أنها مرغمة على إخفاء استغرابها . فتستبعد بيديها الاثنتين ، ذلك الشعر الأشعث ، وترفعه عن الجبين ، وتقف يملؤها الرعب : إنها هي ، هذه البنية الصغيرة التي لم تستطع في ذلك اليوم أن تؤويها عندها .

— ترى ماذا جرى ؟ وأين الأم ؟ هذا ما حاولت أن تستوضحه من الطفلة التي كانت تحملق فيها .

والتفتت إلى المرأة المعجوز ، وأخذتها من كتفها ، وهزتها قائلة :
من أنت ؟ وماذا حدث لهذه الطفلة ؟

وفجأة دفعتها المتسولة ، وأخذت منها البنت التي كانت تتخبط ، واختفتا معاً بين الجمهور . ولا جدوى هنا من الإلحاح ، فإنها لن تستطيع العثور عليها ثانية . وليس من أمل ممكن إلا عن طريق الشرطة .

وكان مركز الشرطة يجاور السوق . وكان العريف الهندي الذي يؤمن المناوبة ، يتأمل بفضول هذه المرأة البيضاء التي تلبس لباس الهنديات ، ولكنه لا يفهم سبب اضطراب المرأة التي كانت تكلمه .

— لكن فهمت جيداً ، يا ميم صاحب^(٢) ، فإن الطفل من أفراد أسرتك ؟
— لا ، ولكن ...

وإذن فلماذا أنت في هذه الحال ؟ وأين هي المشكلة . لكن كنت تهتمين بكل بائسي هذه البلاد ، فلا يمكنك العيش أبداً .

وتقاطعه سلمى المنزعجة ، وتقول :

— أنا لا أطلب رأيك . ولكنني أطلب أن تقوم بواجبك ، أي أن تأخذ بعض رجالك ، وتفتش السوق .

(٢) ميم صاحب . تسمية تطلق على النساء البيض . وهو تحريف للكلمة ، مدام صاحب ، مدام السيد .

ويهر الشريطي رأسه ويقول :

— حسناً ، سنحاول .

ولكن البنيّة لم يُعثر لها على أثر .

ويعلق أمير على ما حدث ، بعد أن أطلّعه عليه زوجته .

— كان ذلك مما يجب أن يتوقعه الإنسان . فهؤلاء المتسولون هم أشخاص محترفون . وهم ينشئون شبكة حسنة التنظيم . والشرطة تتلقى إتاوة منتظمة لكي تركهم وشأنهم ، وليس لها أية رغبة في أن تجلب لنفسها المشاكل .

— ولكن ...

ونخشيت سلمى أن تطرح السؤال ... ولكن كان يجب أن تعرف .

— ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهذه البنيّة ؟ أهو حادث مثلاً ؟

وينظر الراجاه بشفقة إلى امرأته الشابة .

— لماذا تسأليني عن ذلك ؟ لقد حزرت ... فهناك الكثير الكثير من المتسولين في الهند . ولكن يداً واحدة ممدودة لا تضمن ما يكفي من الموارد . وهكذا فإن بعضهم يشتري أطفالاً من أهلهم ، ليحتفظوا هم بهم . ومن أجل أن يستثيروا الشفقة ، يشوهونهم (فيقطعون أيديهم أو أرجلهم ، أو يعمونهم . الخ) إن هذه حادثة كثر أمثالها منذ منع الإنكليز العبودية .

واصفراً لون سلمى اصفراراً كبيراً ، وأمسكت بذراع زوجها .

— أمير يجب أن نفعل شيئاً .

وأظلمت عيناه السوداوان أكثر فأكثر . إذ إن أمير كان مرهقاً حتى الأعماق .

— ولكن ماذا نفعل ، أنعود فنسمح بالعبودية ؟ إنك تتخيلين الفضيحة التي سنكون ضحاياها « في العالم المتمدن » . فالتناس يعيشون على أفكار محنطة ، مصنوعة سلفاً . ولا يريدون أن

يروا الحقيقة . والشيء المهم بالنسبة للدولة ، هو أن الهند تبدو للعالم الخارجي بوجه مناسب .
« وصدقيني ، إن اللعبة مزورة ، ولا مجال لعمل شيء » .

— هل أُصيب الإنكليز ليلة البارحة ، بالحمّى ؟

هكذا طرحت السيدة الوصيفة السؤال على سلمى ، وعليها سيماء القلق : فنظرت إليها سلمى مذهولة وقالت لنفسها : « وماذا تريد مني هذه المجنونة ؟ وكيف أعرف أنا ، أن الإنكليز أُصيبوا بالحمّى ؟ إن هذا ، رغم كل شيء ، مبالغة ، ولعل من الأفضل أن تسألني عن أخبار صحتي ! » .

وكانت سلمى ، منذ البارحة ، مريضة . ذلك أن هيجانات الأسابيع الأخيرة قد نالت من صحتها . فهي تسبح في العرق ، وكأن رأسها ، على وشك الانفجار .

وعادت الوصيفة إلى الكلام ، فقالت :

— إن للإنكليز دوماً حدوداً حمراً . فلقد سمعتمهم يسعلون .

وانفجرت سلمى ، تقول :

— آه ، ولكن دعيني مرتاحة من هؤلاء الإنكليز ! وماذا يهمني من هذا الأمر ؟

فانفجرت زهراء الجالسة بجانبها ، ضاحكة .

— هددّي نفسك يا أبا . فهذه المرأة تتبع التقاليد : فهم يظنون أن الجمع بين الشر وبين اسم الأشخاص الذين نحبهم ، يجلب لهم الشر . ولهذا فإنهم لا يقولون : « هل أنت مريضة ؟ » ولكن

يقولون : « هل أعداؤك مرضى ؟ » والنساء اللواتي يكرهن الإنكليز في لوكنوف ، اعتدن على وضع كلمة الإنكليز ، مكان كلمة « العدو » . ولهذا ، فبدلاً من القول : هل أصابتك الحمى ؟ يقولون : « هل أصابت الحمى الإنكليز ... » .

ويقرع الباب : ذلك أن الحكيم صاحب ، قد وصل . وهذا الرجل هو طبيب الأسرة . وفيما ترى فإن له من العمر ما لا يقل عن ثمانين سنة . وكانوا البارحة قد حاولوا الاتصال به ، إلا أنه كان مشغولاً براحته الشخصية . فأرسل واحداً من مساعديه ، يحمل ثلاث حبات ، في قطعة من ورق الصحف ، وأعلم أنه سيزور البيت في الغد .

وكانت الخادومات يصخبن ، حول سلمى . وكانت اثنتان منهما قد أمسكتا بغطاء تقباه ، بعناية ، ثقبين مختلفي القطر . وبسطته بصورة عمودية على السرير ، فاخفيتا سلمى ، وزهراء ، كما أخفتا نفسيهما ، معاً ، إخفاءً تاماً .

وسألت سلمى المذهولة :

— ماذا تفعل هاتان ؟

— أرجوك يا أبا . ولكن يجب أن تستبقي البرداه .

— أبرداه ، من أجل رجل بهذا العمر ؟

وأجابت زهراء مذهولة من دهشة زوجة أخيها .

— إنه رجل على كل حال !

— وكيف يستطيع إذن أن يفحصني .

— إن الأمر بسيط جداً . إذ تعطيه يدك من الثقب الكبير لقياس نبضك ، والتحقق من ردود فعلك . أما الثقب الصغير فإنه يستطيع من خلاله فحص لسانك ، وفحص حنجرتك .

وعندئذ تدع سلمى نفسها تستريح على وسائدتها .

— حسناً ، أرجو مع مثل هذا الفحص ألا يكون لدي شيء خطير ...

ومن خلال الغطاء ، تلاحظ سلمى وصول الحكيم . ويبدو أنه يجد شيئاً من العناء في المتني على رجله ؛ فقد كان هناك صبيان يسندانه ، ويحملان سلتين مملوءتين بزجاجات كبيرة ، بألوان

مختلفة . ذلك الحكيم صاحب لا يداوي إلا بالطريقة الفيدية ، أي بهذا الفن الطبي المنحدر من الهند القديمة ، والقائم حصراً على شرب مشروبات هي نتيجة غلي بعض أنواع الأعشاب ، وبعض قشور جذوع الشجر ... وأوراقها .

وبنعمومة ، أخذ يقلّب يد سلمى ، ويطلب منها تحريك كل أصبع من أصابعها ، ويضع باهمه على شريان مفصل المرفق . وكان متى انتهى من عملية ما ، قطعها عن غيرها بكلمة « هم » . وبأوامر موجزة لمساعديه اللذين يخططان على الورق ، ملاحظات « المعلّم » .. وفي آخر الفحص يُخرج من إحدى جيوبه « مكشطاً فضياً » .

— هل توافق الراي صاحب على فتح فمها ؟

وبحركة سريعة ، يأخذ شيئاً من المادة البيضاء التي تغطي لسان المريضة ويشم رائحتها ، وحاجباه مقطبان . ويبقى بعد ذلك لحظة ، وعيناه نصف مغمضتين . وأخيراً ، وبصوت أجش ، يبدئ بتشخيصه :

— إن الكبد مسدودة تبعاً لتبيج في الأعصاب ، وهو انسداد يؤدي إلى تباطؤ في جريان الدم ، وطرح غير سليم للسوائل ، وبالتالي إلى حمّى وأوجاع في الرأس . وعلى الراي صاحب أن تأخذ زجاجة من هذا السائل الأصفر في كل ساعة بين ساعتين . وزجاجة من هذا السائل الزهري في الساعات الفاصلة . ولكن عليها ألا تخطيء ! أما في المساء ، فيجب أن تلع شيئاً من هذا الدقيق الأزرق ، مخلوطاً بضعفه من هذا الدقيق الأبيض . وكذلك الأمر في الصباح . وهذا علاج بسيط لمرض بسيط ، ستبرأ منه سعادتها ، عندما يبدأ القمر بالتناقص .

وتستنكر سلمى هذا كله ، منذ أن أدار الحكيم ظهره .

— ماهي هذه الوصفات السحرية التي يصفونها لي .

— صححي خطأك يا أبا . فلقد قدّم الطب الفيدي براهينه . وهي في أغلب الأحيان أكثر نجعاً من الطب الأوروبي . ففي العام الماضي ، شفيت من اليرقان في خمسة عشر يوماً ، على حين أن آخرين عولجوا من قبل أطباء إنكليز ، ما كانوا يستطيعون النهوض إلا بصعوبة بعد شهرين .

— وهذه القصة ، حول القمر المبدر ؟

— عندما يبدأ البدر بالتناقص ، تهدأ الأمزجة أو الأخلاط . وهذا أمر معروف ، على ما تقول

زهراء بأكبر الجدد . هيا أبا أريحني نفسك من هذا التوتر . فنحن محظوظون ، أتعرفين ؟ ففي أيام أمي ، لم يكن للحكيم الحق في أن يرى ، لا الذراع ولا اللسان ، وأقل من ذلك أن يلمس جسم المريضة . وكانوا يُجسرون من قبضة المريضة خيطاً كان هو يُمسك بطرفه ، وهو جالس على الطرف الآخر من الباب . وكان عليه أن يحزر من اهتزازات هذا الخيط ، درجة الحمى ، ويحدد تشخيصه .

— وأتخيل أن عدداً قليلاً من النساء ، كان يشفى من المرض ...

— وفعلاً ، فإنه كان هنالك موتى كثيرون ، كما ترى زهراء ، دون أن تلاحظ السخرية . ومن حسن الحظ أننا حققنا تقدماً كبيراً منذئذ !

واستغلت سيدات القصر مرض رانيتم لكي يهاجموا غرفتها . والباب الذي كانت سلمى تبقيه مغلقاً ، على أكبر استنكار منهن ، لم يعد ، وهو يضطرب تبعاً لتيارات الهواء ، إلا زينة لاجدوى منها ، وهن ينتقم منهن ، بضربات أقدامهن . وكنّ يسرعن بعطف كبير ، إلى التجمع حول سرير المريضة . ذلك أن أبسط مرض تصاب به الرائي ، كان بالنسبة لهؤلاء النساء اللواتي لا عمل لهن ، فرصة سعيدة ، ومناسبة للبرهان لها على إخلاصهن ، والكشف عن أهميتهن . وكنّ يتنازعن حول من ينبغي لها أن تحمل لها الدواء أول من يحمل ، ومن تصلح وضع الوسادة ، ومن تغسل لها الصدغين بماء الورد ، أو تدلك لها رجليها ، وهي تنشدها القصائد . وكنّ كالنحللات التي تئيدن ، وتشغل نفسها أمام ملكتها العاجزة عن المقاومة .

لكن وصول البيجوم ياسمين أنقذ سلمى من هذا الإفراط في الحرص . وكان قد مضى شهران على آخر لقاء بينهما ، مفضلة عليها زهراء أو راني نامبور . وكانت تقدر أنها متألمة من صمتها ، ولكن البيجوم تتصرف وكأنهما كانتا معاً البارحة .

وبسرعة قامت هذه السيدة القوية بطرد كل من كان في الغرفة ، وقالت :

— إن المريضة بحاجة إلى الهدوء . أفتردن قتل رانيتمكن بهذين الذي لا ينقطع ؟

وهكذا فقد استبعدت ، بلا رعاية لخاطر أحد ، كل من كان في الغرفة من خدم وحشم ، وردّت إلى الباب اعتباره .

— مسكينة يابنيتي . لا بد أنك مرهقة ! هيا . فاستريحى ...

وجلست على حافة السرير، حضوراً صامتاً، مهدئاً. وتغلق سلمى عينيها، وكأن هناك ملزمة (كباشه) تضغط رقبتها والجبهة.

— دعيني أدلكك، إذ يقولون إن لي يد الساحرة.

يد الساحرة؟ كان ذلك حقاً، فهي قوية وخفيفة، رطبة وساخنة معاً. وقليلًا فقليلًا، تضاءلت أوجاع الرأس ليحل محلها إحساس بالراحة. وبدأت سلمى تشعر بذلك، فكتفها، بل جسمها كله، قد استراح وكان منذ قليل يؤلمها ألماً شديداً.

وتوقفت اليدان الشفقتان، بسرعة مع الأسف!

ومضت الساحرة بعد قبلة صغيرة على الصدغ.

— والآن ستنامين. وأتركك، لأعود غداً.

وقد عادت في اليوم التالي. وكانت الآلام تغيب، تحت يديها الخيريتين وكانت الحمى نفسها تتضاءل وتتضاءل حتى لم يبق منها إلا بقية ضعيفة. وكانت سلمى، وعيناها مغلقتان، تستسلم لهذه العذوبة القاسرة، التي تستولي على جسدها كله، وكانت تأخذ العضو بعد العضو، وتعجنه، وتكهريه، ثم تهدئه، كما لو أنك تصب عسلاً في عروقها. فهي لا تعرف الآن أين هي، ولا من إلى جانبها، بل تشعر بأنها على أحسن حال.

وكانت اليدان، الخيرتان، تنزلقان على طول العمود الفقري، وتطيلان البقاء فوق الردفين، بجانب الخاصرة، كما لو أنهما تريدان الاستيلاء عليهما، ثم تأخذان بكل ساق على حده، فترفعانه، وتوقظانه بضربات صغيرة جافة. وأخيراً فإنهما تتركزان على الضفيرة، والمركز العصبي الذي يقع فوق الصرة.

وتشرح البيجوم الموضوع، فتقول:

— هنا يترآكم الاكتئاب، وأنت تحسّينه عندما تثارين من هيجان ما، فنعتقد معدتك، ويصبح التنفس عسيراً عليك.

والآن، وبحركة منتظمة، تمس اليدان البطن، بدوران خفيف، ثم بصورة غير محسوسة، تصبح أبطأ، وأشد تركيزاً. وتشعر سلمى بأن رعشة اعترتها. فاضطربت، وألقت نظرة على البيجوم. ومن حسن الحظ أنها لم تلاحظ شيئاً. إنها جديّة، منظمة، تتابع عملها.

وقد خجلت سلمى بعض الشيء . فما الذي يحدث لها حتى تُردّ هذه الصورة على مجرد التذليلك ، وتأخذ بأهداب الحلم ، وتتخيّل أن أمير هو الذي يداعبها ، وأن يديه هما يدا رجل حبيب ... يدان حساستان ، قويتان تنزلان من بطنها ، إلى الحرج العميق حيث يجري نهر المسك .
— أعطني عينيك ، يا روعي .

وبقفزة ، انتصبت سلمى ، وقد زال عنها السكر بسبب هذه الكلمات التي جعلت حلمها يتطاير كالشرر . وماذا تعمل ، وهي نصف عارية بين يدي هذه المرأة التي تترع جسدها قبلاً ؟ فتتملص منها فجأة .

— توقفني ! توقفني ! هل أنت مجنونة ؟

فأصلحت قميصها وبدأت تتأمل بدهشة ذلك الوجه الأشعث الذي يتوسل إليها .
— أرجوك . لا تعبني بي . إنك تعرفين جيداً أنني أحبك .

وفي هذه المخلوقة التي تُمدّ إليها يديها ، وقسمائها تشي بألمٍ فارق الحياء ، لا تستطيع سلمى إلا بكثير من العناء أن تتعرف على البيجوم المزهوة بنفسها ، والتي اعتادت أن تراها قادرة على التحكم في نفسها .

— أتعرفين ، يا سلمى ، أتعرفين فقط ما هو الهوى ؟

وكانت يداها ترتجفان ، ولكنها لا تعترف بأنها خسرت الرهان . إذ لقد طال الصمت عليها وطال . أما اليوم فإنها تتكلم ، وهذه الطفلة الحمراء التي تنظر إليها باشمئزاز ، على وشك أن تصغي إليها هذه المرة .

— لقد قضيت ليالي وليالي ، وأنا أحلم بك ، ثم قضيت أياماً وأياماً وأنا أتألم من بطلان آمالي . أفتفهمين الآن ، لماذا كنت أسرع إليك ، كلما ناديتني ؟ ومع ذلك فأنا لست من الذين تروقه خدمة الآخرين ! وأنت ... يا إلهي ، بأي لا مبالاة كنت تستقبليني ! ...

-- «أوتتذكرين عيد «الطيارات» ؟ فعندما كنت ألعب ، ضمنتك من خصرك ، فتراجعت عني ، وكان ذلك أسوأ من صفة . ومنذ ذلك الحين ، قرّرت أن أنساك ، كما لو أن الإنسان ينسى بفعل إرادته ... وأولئك الذين يظنون ذلك لم يحبوا قط ... » .

«ثم إني من جديد، في هذه الأيام الأخيرة، أخذت أأمل. وكنت تبدين سعيدة بأن تريني. وكأن جسمك يقول لي ما كانت روحك تأباه عليّ... أرجوك، لا تنفي ذلك، ولا تنحطني إلى مستوى الكذب! ولك الحق في إطراح حبي، ولكن ليس لك الحق، في الهبوط بالمرأة التي أحب، إلى مستوى البورجوازية الصغيرة المرائية! أوتظنين أنني لم أحس تحت أصابعي، بشديك، وبطنك، تهتز، ثم تعود فتهداً سعومة؟ وبسرعة هتف لي جسمك، وطلب مداعبتي، وكان يتجه إليّ، كما لو أنه يتضور جوعاً...».

وتعترف سلمى داخل نفسها «بأن هذا صحيح». ولكن لِمَ اقتضى الأمر أن تتكلم البيجوم، وأن تنتزعها من هذا الغسق ذي الألوان اللامحدودة. حيث كانت تدع لنفسها حق الانزلاق؟ أهو الزهو بالنفس، والحاجة إلى امتلاك ما هو أكثر من جسد؟ أو هو الهوى الذي يأبى أن يُسَخِّدَ ولكن أليس كل هوى يزهو بالنفس لا يقبل القياس، بحكم اقتضائه كلية الآخر؟ ولعن كانت قد سكنت... وبطبيعة الحال فإن كل شيء في غموض الحلم، يختلط، وينصهر دون ما اصطدام... لكن مداعباتها لم تدهش سلمى. وكانت، بلا ريب، تنتظرها منذ زمن طويل. ترى هل حُرِّضت عليها. أو كان ذلك بدافع الفضول، أو التحدي، أو الحاجة إلى تجاوز الحدود، أو اكتشاف مناطق جديدة؟ أو أن الأمر ببساطة أكبر، كان أنها تعرف كم ستكونان طيبتين...

أما منذ الآن فقد ذهب السحر، وتكوّرت سلمى على نفسها، وقالت بصوت جاف:

— إنك تهدين، فأنا أحب زوجي.

— حقاً؟ وهو، أيجبك؟

وانتقل صوت البيجوم من صورة التوصل إلى البرودة الكبيرة:

— إذن فانظري إلى نفسك في المرأة. فأنت تشبهين الزهرة العطشى. وعلى شفئك آثار الذبول. أهذا هو الوجه، والجسد المتفتح للمرأة التي تعرف أنها محبوبة؟ وأنا حيث ينبغي لكي أعرف أن (أمير) يهملك، وأنه تزوجك لكي يضمن لنفسه الذرية. أما حبه، فيمضي بعيداً عنك.

«إنها تكذب لكي تنتقم، ولن أطرح أي سؤال».

— لست بذات فضول!

وضاقت عينا البيجوم، كالحية التي تستعد للدغ فريستها. وهي تنظر إلى المرأة الشابة،

وتحملق فيها . وهي تعرف كيف تنتقم من هذه المزهوة بنفسها . سترزع في عقلها شكاً ، لن تستطيع أبداً أن تتخلّص منه .

— ألم تفكري قط بأن الصداقة الحميمة القائمة بين زوجك وزوجي ، يمكن أن تكون أكثر من مجرد الصداقة . لا ترتعشي ، فهذه الميول كثيرة الانتشار في مجتمعاتنا التي لا تعرف شيئاً ساراً ، كالملتبس ، والذي لا جدوى فيه ، والغريب ؟ أما نحن النساء ، فإننا اللواتي يلدن الذرية . أما كحبيبات ، فإننا نكون مزعجات ...

وهل لنا من خيار آخر غير السكوت ؟ إننا ممتلكات لأزواجنا ، ولكننا لانملك من الجنون القدر الكافي للاعتقاد بأننا نملكهم . وهم يحموننا ، ويهوننا أطفالاً ، ويقبلون بناتنا . وعندما كنت لأزال عروساً ، انتظرت ليالي لا تنتهي عدداً . وكنت أعبد زوجي ، بل كنت مستعدة لسّم الرجل الذي كان يفضلهُ عليّ ، بلا أدنى حرج ، لو لم يكن هنالك إلا رجل واحد . ولكنهم كانوا كثيرين ، متغيرين . فتعودت . والآن فقط ، أراني أتابع ، بشيء من المتعة مغامراته ، ولقد لاحظت — وتنظر الآن إلى سلمى ، وتشعر بلذة أن هذه توقفت عن التنفس — أقول لاحظت أنه أصبح وفيّاً ، منذ بعض الوقت .

— إنك تكذّبين !

ولم تستطع سلمى أن تمنع نفسها عن الصراخ : أمير بين ذراعي رجل ! إن هذه الفكرة تثير فيها الاضطراب . وهذه المرأة إنما تخترع أقاويل وأقاويل لكي تنتقم مني ، لأني رفضتها . إن ذلك مجرد غيظ من جانب المحب الذي لا يقابل على حبه إلا بالرفض والتأني .

— تكلمي بصوت أخفض من هذا ، يا عزيزتي ، إذ قد يسمع الخدم ما تقولين . وهنا تطبّق القاعدة الذهبية : فكل شيء مسموح به شريطة أن يبقى سراً . وهذا ما حاولت أن أشرحه لك ذات يوم عندما قلت لك إن البرقع الذي يخفيها هو أداة حريتنا . ولعلك بعد أن رفضته ستتعلمين أن تحسني تقديره .

وعاد صوتها فصار أجش .

— سلمى ، أنت تعيسة ، وأنا أتعذب لأني أراك هكذا ، ولأني أعرف كم نستطيع أن نكون سعيدتين معاً . وهذه ليست نزوة من ناحيتي : فأنا أحبك . فكّري في الأمر .

ونفضت، ومن جديد نراها تملك نفسها تماماً، وللحظة واحدة التقطت عيناها نظرات سلمى، ثم خرجت، محترمة جداً.

ويقترّب وجه زهراء أكثر فأكثر. وفي الحدقتين المشذرتين بالذهب، واللّتين تسعان إلى ما لا نهاية، كانت سلمى تنظر إلى نفسها، شعلة متراقصة حول الشجيرة، فتمد يدها، والوجه يبتعد. وتُديان ناهدان يأتیان فيمسان شفّتها الغضتين. وتحاول بلسانها أن تداعب منهما الحلمة، المنتصبة، الضعيفة، الرقيقة. ولكن زهراء تملص، خفيفة، وتمضي فتكّور على ركبتي أمير، وتقبلهما بشوق.

— تعالي، زهراء.

ترى لم تستمتع هذه الطفلة بتعذيبها؟

— تعالي، فأنت التي أحبها وها هذا أمير ينظر إليها بعين ساخرة، وماذا يهمها، إنها لم تعد تخاف. فلقد تجاوزت المرحلة التي يمكن فيها أن تنالها السخريات، والتهديدات. وما من مرة شعرت بمثل هذه الرغبة، التي تجعلها غير قابلة للتجريح. فضم هذه الطفلة بين ذراعيها، للحظة واحدة فقط، والانصرار فيها، والموت بسعادة، بعد ذلك، هو ما لا تطلب أكثر منه.

وتتردد زهراء: فمن تخار بين هذين الكائنين التي تحبّهما. فتأملهما، هذا مرة، وتلك أخرى، مدلهة. وينفصل ذراعها ببطء عن الصدر الواسع، وتمتد يدها إلى صدر المرأة الشابة، ولكن السيقان تنقلص، بعزم من لا يريد التساهل. ويصبح التوتر غير محتمل. أما الهواء فقد تضاعف، وسلمى تختنق. وهي تضطرب في هذه الرطوبة الكثيفة، وتتخبط، وحنجرتها تحرقها...

واستيقظت، مبلّلة بالعرق. شكراً لله. لم يكن هذا إلا حلمًا! إنها الحمى ولا ريب، والمشهد المهرق الذي كانت فيه البارحة مع البيجوم. إن عقلها المتعب، قد خلط كل شيء. ومن جديد تحسّ على شفّتها نعومة ثديي زهراء ويعود إليها، كهبة ريح ساخنة، اضطرابها ذلك الصباح عندما وضعت المراهقة رأسها الحريري في جوف وركها.

«زهراء، إنني أحبك، وأنا أعرف ذلك الآن».

ويدوي الاعتراف الذي تم في الحلم في أذنيها، كما لو أنها تلفظت به بصوت عال، مند قليل.

« كل هذا مضحك بسخفه . وهذا الطفلة هي مثل أختي ! » ... أخت بالتأكيد ... ولكن هل كانت تستطيع مقاومة يدي زهراء وفمها ؟

وهزّت سلمى حبل الجرس ، بغضب ، وأثبتت الخادومات اللواتي تدافعن ، مذعورات .

— هيثن لي حمامي بسرعة ، وأخبرن الراجا أنني أريد رؤيته قبل أن يخرج .

وهي لاتعرف تماماً ، لماذا ، ولكن يجب أن ترى أمير .

— تهنائي يا عزيزتي ، إن ألوان وجهك على أحسن ما يرام اليوم . وأرى أنه كان لأدوية حكيم وزيارات صديقاتك أثر طيب جداً .

ترى هل لاحظت تلك اللمعة الساخرة لعينيه عندما تحدّث عن « صديقاتها » ؟ ولكن ما أهمية ذلك . فالأمر الذي تريد أن تقوله له أخطر بكثير . وقد خطرت ببالها فكرته في الحمام ، وفرضت نفسها كالحل الوحيد لتجنب كارثة .

— أمير ، لقد حلمت هذه الليلة حلماً يدفعني إلى أن أكلمك ، دون تريث ، والقضية هي قضية زهراء .

— قضية زهراء ؟ ولكن بماذا حلمت إذن ؟

وتهز سلمى رأسها ، كما لو أنها تريد أن تبقى غامضة .

— إنه لا ينبغي أن نروي الأحلام السيئة ، وإلا فإنها يمكن أن تتحقق ، هكذا كانوا يقولون لنا ، أثناء الطفولة . فليكفك أن تعرف أنها كانت في خطر . ومن حسن الحظ أنه كان هناك رجل مستعد لإنقاذها .

— رجل ؟ أم أنا ؟

— لا ، بل رجل أكبر منك سنّاً ، لم أستطع أن أثبتّين معالم وجهه .

وبدا أمير يزداد نرفزة . وهو يكره هذه الأحلام المنبئة عن المستقبل ، لأنها عبث نسوي . وقد أدهشه ذلك من سلمى ، التي ظن أنها أقل سخفاً ...

— مازلت يا عزيزتي متعبة ، صدقيني . فليس هناك أي خطر يهدّد زهراء .

— ربما كنت على حق ، ولكنك تعلم كم أحب هذه الطفلة (لو كنت تعلم...) وأنا قلقة من شدة حساسيتها ، وسرعة عطيها ، ووحدتها . وعلى الرغم من الحب الذي نحيطها به ، فنحن لانستطيع أن نُعوّض عن الأهل ، أو عن زوج مثلاً...

وارتعش أمير .

— زوج ! أية فكرة هذه ... إنها ما تزال صغيرة جداً !

— أصغيرة ؟ إنها في السادسة عشرة . وفي هذا العمر ، في الهند ، تكون أكثرية البنات ، قد تزوجت .

ونفض الراجا ، واجتاز البهو بخطوات عصبية ، وهو يعلم أنه سيأتي يوم ينفصل فيه عن أخته الرائعة . ولكنه يكره هذه الفكرة . فهي الكائن الوحيد الذي يُعزّه حقاً . والموصول به بعواطف الدم والحب — مما لا يجتمع في العادة ، إلا قليلاً — وقد برهنت المآسي العائلية التي قلبت مجرى حياته على ذلك . ثم إن في صلته بزهاء — وهو يعترف بذلك — جانباً من الأنانية : فالمرافقة هي الشخص الوحيد في العالم الذي يحبه بلا تحفظ . وهو في نظرها إله — يجمع بين الجمال ، والذكاء ، والطيب الهائل — وعندما يشعر بشيء من النقص في شجاعته ، فإنه يتغذى من هذه العبادة .

وما هي الحال مع زوجته ؟ إنه يحبها بطبيعة الحال ، ولكن ليس له بها هذه الصلة الحميمة ، وهذا التواطؤ العميق الذي يمكن أن يكونا للإنسان مع امرأة لها نفس الأصل ، ونفس الدم .

— أو أزوجها ؟ ومع من ، فأنا أعرف كل أبناء الراجات ، وأبناء أصدقائي : فهم تافهون ، وأطفال مدللون ومغرورون . لم يخرجوا قط من منطقتهم . وهم يتخيلون أنهم مركز العالم . وما منهم واحد يصل إلى كعب زهاء !

— من يكلمك حول الشباب ؟ إن زهاء بحاجة إلى أن تُدَلّل . وستكون أغنى سعادة إن هي تزوجت برجل ناضج .

— ولكن الراجاهات كلهم تقريباً متزوجون . وليس من المعقول أن تكون أختي الزوجة الثانية أو الثالثة !

ويقطب حاجبيه .

— هنالك ، ولا شك ، راجاه لاراباد Larabad . ولكنه يميل إلى السكر ؛ وراجاه كوترا رائع ،

ولكنه تقريباً عجوز؛ ونواب داليور Dalior له عقل كعقل العصفور، كأييه. ومن غير هؤلاء؟ آه، نعم، نعم، هناك راجاه بيلينير Bilinir، ولكنه عاش بصورة غريبة، حتى إنه اليوم شبه مفلس. لا، حقاً ليس هنالك من شخص مناسب. ثم — وبهر رأسه بشيء من الغضب — لا أرى حقاً من ضرورة لتفصل عن زهراء.

— ومن يتحدث عن الانفصال؟

— وأخيراً، يا أميرة، أنت تعرفين عاداتنا: فالزوجة يجب أن تعيش لدى زوجها.

— ولكن كان منزل الزوج هو... هذا القصر؟

وينظر الراجاه، بانتباه، إلى زوجته: ترى هل ذهبت الحمى بتوازنها العقلي؟

— تصوّر أي فكرت برشيد خان. وأنا أعرف أنه ليس بأمير، ولكنه ابن أخت مهرجا بيال، إحدى أكبر دول الهند. وفيما يتعلق ببقاء الدم، فإن أحداً لا يجد ما يلومه عليه. ولكن هذا رجل ذكي، حديث، طيب إلى أبعد الحدود، وشرفه غال عليه. وأنت تعرف ذلك جيداً، إذ لقد اخترته ليكون أول مستشار لك. وسيكون لهذا الزواج مزايا كثيرة: إذ لن تفقد زهراء، ولا تغامر بأن تفقد رشيد.

وهذه الفكرة الأخيرة، هي آخر حجة بين يديها. فسلمى تعرف أن رشيد خان قد تلقى عروضاً من دول أقوى من دولة بادالبور؛ ثم إن رجالاً لا مجال للفساد عنده، وناجماً إلى هذه الدرجة، في الأوضاع المضطربة التي تمر بها الهند، بضاعة نادرة. وحتى الآن، فإنه رفض، بحكم الصداقة، لأمر، ولكن إلى متى أيضاً؟ والراجاه الذي يعتمد كل الاعتماد عليه، يرتجف هلعاً من فقدانه.

هاهي إذن قد سجّلت نقطة. فعاد أمير وجلس، ليفكر. وبطبيعة الحال فإن سلمى تحرص على أن تذكر اسم رشيد، وتحرص هي أيضاً عليه. ذلك أنه حليفها الوحيد في هذا القصر. وكثيراً ما دافع عنها أمام أمير. وهي قلماً تراه، ولكنها تعرف أنه يسهر على راحتها.

والواقع أن المرة الوحيدة التي تلاقيا فيها، منذ زواجهما، كانت يوم تلك الليلة المأسوية على شرف اللورد (ستيلتلتون Stilton) ولقد أحسست بعاطفته، ودُهِشت من أنها اضطربت لذلك. وفي تلك اللحظة شَعَرَتْ كم كانت متعطشة إلى الحب، وإلى أي حد شعرت بأنها معرّضة لأخطاره، كما هي حال زهراء ومالديها من شهوانية لا مبالية.

ويومئذ خافت . أما الآن فقد خطر ببالها أن تجمع بين هذين الإنسانين اللذين يجهلها ، أي أن تحتفظ بهما ، وتبعدهما في آن واحد . أفترأها أنانية شيطانية أن تلعب بحياة الآخرين كي تصون هي راحتها . ولكن لا . فليَمَ تبحث هنا ؟ وكلما فكرت في الأمر ، زادت قناعتها بنجاح مثل هذا الزواج . أما رشيد فإنها واثقة بأنه سيكون غراماً بهذه الزوجة الطفلة . أما هي ، سلمى ، فإن في وسعها أن تراه على راحتها ، لأنه سيكون جزءاً من الأسرة ؛ وأخيراً فإنها ستحظى بصديق يكون موضع سرّها .

— ولكن ماذا ترى زهراء في هذا ؟

لقد استعاد أمير برودة دمه . وشعرت سلمى بأن اللعبة قد نجحت .

— وكيف أكلمها في هذا الموضوع قبل أن أستمثرك ؟ وتنزعج من سؤاله ، كزوجة نموذجية .

وعلى أمير أن يعترف بأن هذا الزواج يغريه .

— وأخيراً ، ربما لم تكن الفكرة سيئة .

وتكبت سلمى بسمة . وحقاً فإن ربطها بضربة واحدة ، ذينك الإنسانين ، اللذين تحبهما أكثر من كل الآخرين ، أمر

ويعود الراجاه فيقول :

— بطبيعة الحال ، سيوجد من يوجه إليّ النقد بأنني لم أختبر لأختي أحد الأمراء . ولكن الوضع القائم الآن قلبي ، فمن يعرف ماذا ستكون غداً ... ؟ سأكلّم رشيد في هذا الموضوع . فهل تريدين أن تتولي أمر زهراء ؟ و ... — بحركة غير متوقعة — بدأ يداعب شعر سلمى — شكراً . إني لسعيد بأن تحملي أمور أسرّتنا على محمل الجدّ . إنك تصبحين امرأة هندية حقيقية !

ولكن سلمى تأخذ عليه أن يكون كبير الثقة إلى مثل هذه الدرجة .

— لاتريدي الكلام حول هذا الموضوع ، فالأمر واضح : أتريدين أن تتخلصي مني !

وكانت الفتاة تقوم بجهد يتجاوز طاقة الإنسان لكي توضّح صوتها ، وتحبس دموعها .

ومن الركبتين تبدأ رجفة تعمّ الجسد كلّهُ : فيتصلّب ، ويستقيم . ولكن المهم عندها ألا تنهار أمام هذه المرأة !

— زهراء ، بنيتي الصغيرة .

ورفعت المراهقة رأسها . وكان يتجلى في نظراتها الألم واللافهم : ترى ما الذي فعلته لكي تستحق هذه الخيانة ؟ وأية خطيئة ارتكبت حتى تُطرح من قبل من تبتها كأخت ، أو كأُم ؟ وهالإنها تشعر بالتمزق . وتعود فتجد نفسها يتيمة ، للمرة الثانية .

وتنظر إليها سلمى ، متأملة فيها ، ومضطربة مما قوبلت به . ذلك أنها لم تتوقع مثل هذا الأسى . وهذا اليأس ، ولم ترد أن تتوقعه .

— زهرا ، ما من أحد يفرض عليك شيئاً . وأنت التي تختارين ... وكل ما في الأمر أننا فكّرنا ...

ولكن زهراء لا تصغي إليها ، وتحملق في وجه سلمى ، هذا الوجه الذي كان يخفي الكثير الكثير من الرقة ، قديماً .

— قولي ... هل أحببتني يوماً ما ، أو أنك كنت تكذبن عليّ ؟

« أيتها البنت الصغيرة ، لو كنت تعلمين كم أحبّك ، وأن هذا لأنني أحبّك كثيراً ، ولكنك لا تستطيعين أن تفهمي ، وكَم أنا لم لأني أجعلك تتعدين » .

— زهراء ، لا تتصرفي كطفلة ، فأنت تعرفين الحنان الذي أشعر به تجاهك .

وبدت الجملة ثقيلة ، مستعارة . والمراهقة لم تشر إليها ، وسكتت ، وعلى شفيتها بسمه مرة . وسلمى في هذه اللحظة ، تهب الدنيا وما فيها ، لكي تأخذها بين ذراعيها ، وتقبّلها ، وتقول لها : إن هذا حلم سيء ، وأنها تحبّها ، وبدلاً من ذلك تسمع نفسها تقترح اقتراحاً :

— إن لديّ صورة لهذا الشخص . فهل تريدان أن تريها ؟

— ولماذا ؟ لقد قررتِ أنتِ وأقنعتِ أخي ، فليس لي ما أضيفه .

وتشعر سلمى بالغضب يجتاحها . فهذه الفتاة ، تلعب دور الشهيدة ، وتضعها هي ، زعيمة الحريات ، في الدور البغيض كزوجة الأب (أو الأخ) .

— ما من شيء قُرّر، وأنت تعرفين ذلك ! إنك حرّة في أن تفعلي ما تريدن .
ورفعت صوتها، وضخمت استنكارها، وتعلقت بهذا الغضب الذي تعرف أنه أفضل دفاع
ضد التعطف .

وظلت زهراء في صمتها . لكن المראה في نظرتها، تحوّلت إلى احتقار .
و قليلاً ف قليلاً تحطم غضب سلمى بين قدمي هذا الصمت . وسبق السيف العدل . وما من
كلمة تستطيع أن تمحو الأثر . فطرح الاختيار كان يعني نفيه . ومهما تقل سلمى من كلام، بعد
الآن، فإن المراهقة ستشعر أنها عبء زائد . وانغلق الباب وراء زهراء .

١٢

وتم الزواج على ما ينبغي . وكان أمير يتمدد على ديوان في البهو الصغير ، الذي هيء ، على مقربة من غرفتهما . وكان يتنفس براحة . فبعد ذينك الأسبوعين المرهقين ، اللتين تعاقبت فيها الاحتفالات والاستقبالات ، بلا انقطاع ، كان يتذوق الهدوء الذي عاد فوجده .

وهو سعيد . وإلى جانبه كانت زوجته الشديدة الحرص عليه ، تهيء له مضغة البان (قات) ؛ وكان هو يراقبها بارتياح ، وعيناه نصف مغلفتين : ذلك أنها كانت على أحسن ما يمكن ، خلال كل هذه الفترة ، التي بدأت مع ذلك بداية سيئة .

وكما توقع هو ، فإن إعلان خطبة أخته الصغيرة للرجل الموثوق عنده ، جعل المدينة كلها تتير الإشاعات والأقاويل ، على الرغم من أن الناس يتفقون على الاعتراف للخطيب بأنه « من العظم الجيد » على ما يقولون للدلالة على أصل نبيل . ولكن عندما رُئيت الأسرة الملكية كلها في بيال BIPAL ، تنتقل من أجل هذا الزواج — ومعها المهرجاء — وهذا تكريم لم يسمع به من قبل — وعندما لوحظت الهدايا الفخمة التي حملوها للعروس الفتية ، فإنهم نسوا بعض الشيء هذا الزواج اللامتكافى . وكانوا يحسبون ، أن الزوج هو الولد الأكبر للفرع الأصغر ، وأنه ليس للراجاء إلا ولدان لا يبدو أن صحتهما جيدة ، فلربما جاءت مصيبة ، ونال الزوجان الجديدان نصيبهما من الحلول محلها !

ولا يجهل أمير هذه الإشاعات ، ولا ما قيل عن أن هذا الزواج لم يتم إلا بعد أن استشير العرافون . ويضحك من ذلك ، ويحذر من التكذيب .

لكن المعركة الأكثر صعوبة ، كان يجب أن تتم داخل القصر : فقد كان يجب تهدئة الأخت عزيزة . ولم تجد سلمى أن من الضروري ذلك الفصل الذي شهد الرائي عزيزة تتهمها صراحة ، بأنها أرادت ، بحكم الغيرة ، إبعاد أخته . وعندما عدّدت سلمى مزايا رشيد خان ، وتحدثت عن السعادة التي سيعرف كيف يضمنها لزهراء ، أملاً بإقناعها ، فإنها اعتقدت أن الرائي ستخون نفسها .

— ومن تحدّث عن السعادة ؟ وهل يتزوج الإنسان لكي يكون سعيداً ؟ إن الناس يتزوجون لتخليد الاسم ، وإيجاد وريث للدولة ! مسكية زهراء ، إذ ليس عليها أن تعنى بمثل هذا .

وبعدوانية قاتلة ، حملت في سلمى .

— وعندما أرى أن هؤلاء اللواتي هنّ قادرات على تخليد الاسم ، لسن ، بقادرات على ذلك ...

وخرجت قبل أن تستطيع المرأة الشابة الجواب . وكانت سلمى ، على كل حال ، تتوقع صدور مثل هذه الملاحظة عنها . وهي تعرف أنهم بدؤوا يتهايمسون ، ويقولون ... فكيف لم تحمل ، وقد تزوجت منذ سنة تقريباً .

وحتى أمير نفسه ، يبدو أحياناً مشغول البال . ولقد علمت أن الرائي عزيزة نصحت أخاها بالزواج مرة ثانية ، وأنه ألزمها الصمت ، بصورة صريحة . وسلمى ممتنة منه ، ذلك أنها تتخيّل ماحول الراجاه ، من غمز ، ولمز ، وصمت مريب ، مما هو أسوأ من الكلام .

ولكن الشيء الذي رأيته أفسى عليها من سائر الأشياء ، إنما هو برودة زهراء . ذلك أن هذه الفتاة لم تعد تبدي تجاهها إلا اللامبالاة المهذبة . ودهشت سلمى من أنها تتألم من ذلك ، بهذه القوة ، كما لو أن القصر ، بدون ضحكات زهراء ، وثقتها ، وعطفها ، قد أصبح قصراً من الجليد ، لا حرارة فيه .

ولقد سافرا البارحة لقضاء شهر العسل . ويريد رشيد أن يعرف زوجته بأوروبا . وسيبقيان هناك ثلاثة أشهر . وقد ارتاحت سلمى لغيابهما : فمادامت زهراء ليست هنا ، فإن في وسعها أن تتخيّل أنها ستعود إليها .

ولكن أحلام يقظتها انقطعت بظهور أحد الخصيان الذي جاء يعلن أن بائع العطور قد وصل .

والعطور في حياة الراجاه أمر هام ، وليست بمتعة تافهة ، أو عابرة ، بل هي هوى حقيقي . ولديه في ذلك حماسة الباحث ، وصلابة المحترف ، والعاطفة الجمالية التي يملكها الخبير . وهكذا فإن سلمى استقبلت البائع ببسمة كبيرة ، وكان معه مساعد يحمل صندوقين جلدلين . وهو يعرفه ، منذ زمن طويل ، وكان يقدم خدماته لأبيه .

ويشرح أمير لزوجته المندهشة مما يبدو لها أنه تذوق نسوي بعض الشيء ، هذا الأمر ، فيقول :

— إن حب الروائح الذكية سمة من سمات الأسرة . وجددي ، المهرجانه ، كان صياداً خشناً وكان لا يكاد يعرف القراءة ، ولكنه كان من هواة العطور . وكان لديه منها أجمل المجموعات في الهند . وكانوا يأتونه من كل مكان بعيد ليتذوقوا هذه النسمات الإلهية ، التي كان بعضها موجوداً منذ مئتي سنة .

« ومن المؤسف أن هذه المجموعة قد ضاعت اليوم بفعل حريق مفتعل بالتأكيد . وذلك للإستفادة مما يسببه الحريق من هيجان وانشغال بال ، والاستيلاء خلال ذلك على هذا الكنز الخيالي . وأظن أن الحزن الذي استولى على جددي من جراء ذلك قد عجل في نهايته ، على كونه قد بدا ، لدى موت زوجته رواقياً ، إلى درجة تثير الإعجاب » .

وجاء البائع فوضع قماشة من المخمل الأسود ، وصَفَّ عليها عشرين زجاجة صغيرة ، بعضها صغير جداً . وكلها من روائع الأعمال الفنية . وكان بعضها من الكريستال المزّين بالذهب ، والآخر من الجاد (أو اليشب) أو المرجان المحفور حفرًا دقيقاً .

ويقول أمير : إن على الزجاجة أن تكون جديرة بالمحتوى ، لأكثر بكثير ، ولأقل . ولا بد من الانسجام بين الخارج والداخل . وهذا ما علمنا إياه حكمائنا ؛ وهم ، بطبيعة الحال ، يتحدثون عن الجسم والروح ، التي هي جوهر الإنسان . وهذه الروائح هي جوهر الطبيعة . فلا يجوز أن تحفظ في آنية تافهة .

ويمسك البائع ، بحركات تشبه حركات الكاهن الأكبر ، كل زجاجة على حدة ، بنعومة ، ويأخذ عصيته العاجية ، فيضع من محتوى الزجاجة ، كمية ضئيلة جداً على يد الراجاه . ويقوم هذا الأخير ، والعينان مغلقتان بشم الأريج . ويقول : أخ ، قلباً رأسه إلى الوراء ، كما لو أن لذة عذبة تغشاه — « أخ » . وبأصابعه ، المملأى بالخواتم ، تراه يداعب الزجاجات الثمينة ، وتضي دقائق طويلة

في تذوق هذه المتعة . أما البائع فينتظر باحترام . ولعله يستطيع الانتظار النهار كله ، لأنه يستمتع بملاحظة التقدير الذي يحيط بزجاجاته ، من قبل خبير مرهف .

وعلى أسف ، يعود أمير فيهبط إلى الأرض . وبحركة سريعة يشير إلى نصف دزينة من هذه الزجاجات . وينحني الرجل العجوز ، ويمنحه بسملة عطوفاً ، ويقول :

— سموك لا يخطيء أبداً ، وأنت تأخذ مني أجمل أولادي !

ويسخر منه أمير ، ويردّ عليه قائلاً :

— أيها الفاسق العجوز ، إنني أحسبك تخفي عني الأعظم شأناً . وتحفظ به لنفسك ، وهذا أمر أفهمه ، لأنني أشاركك في هوايتك ، ولكنني أحذرك ، فإن بعثها لغيري ، فلن أغفر لك ذلك أبداً .

وبفضول تلاحظ سلمى الصندوق الثاني ، الأكبر من الأول ، والذي لا يبدو أن أحداً يهتم به .

وتسأله سلمى :

— ألا يمكن أن نرى روائعك الأخرى .

— إن هذا ، يا صاحبة السموّ ، ليس جديراً بأمثالك . فهذه عطورات أقلّ قدماً ، أقدمها لزبائن أقلّ متطلبات من الراجاه صاحب .

— ولكنني لم أكن أعرف أن لقدم العطر أثراً في قيمته .

ويرد عليها الرجل ، وهو سعيد بأن يثقف بمادته ، نصيرة جديدة إلى حد ما . وهناك ، ولا ريب ، تلك الأصول التي تهب العطر ، رائحته النوعية ، كالمواد النباتية — من سوسن أو ياسمين ، وصبر ، وياتشولي — أو المواد الحيوانية ، من عنبر أو مسك أو طيب الزباد . وقلّما تكون الرائحة من هذه أو تلك . بل هي في الأعم الأغلب مقطر يتألف من مجموعة من هذه المواد . ولكن هذه الروائح ، سرعان ما تزول ، إذا لم تثبتها بصورة ما ، دون أن نفسدها !

«إنها نور جيهان ، الزوجة المعبودة ، للأمبراطور جيهانجير ، التي اخترعت طريقة المحافظة على هذه الروائح التي كانت تحب أن تسكر بها . فكانت تعطينها خلال أسابيع وأسابيع في زيت نقي

تماماً. وللأسف، فإن الطريقة الصحيحة ضاعت، على الرغم من أن بعض الخبراء وصلوا إلى إعادة اكتشافها جزئياً.

«والواقع أن تراث العطور قد قُضي عليه، في القرن الثامن عشر، عندما اتبعا الطريقة الغربية، في إضافة الكحول إليها. فهذا السائل العدواني الذي يزيد من شدة الرائحة في البداية، يُحوّلها تحويلاً تاماً خلال بضعة أشهر، ويقضي عليها خلال بضعة سنين. ولكنهم يستمرون في هذه الطريقة، لأنها صالحة للتجارة. إذ يمكن أن تنتج كميات كبيرة منها بسرعة.»

وتقلق سلمى من هذا، فتقول:

— ولكن إذا كانت الرائحة في البداية هي هي تقريباً، فكيف نعرف؟

— الأمر بسيط جداً، فانظري.

ويقوم البائع بوضع نقطتين على يدي سلمى، أخذهما من زجاجتين مختلفتين. ويقول لها:

— مدّي هذا السائل على بشرتك، ثم شمّي. فالرائحتان أصلهما من الزينب (المسك الرومي). فلا فرق إذن في الرائحة. والآن، انفخي على الرائحة الموضوعة على يدك اليمنى، إنها باردة، أليس كذلك؟ وهذا يعني أن الرائحة الأساسية ممزوجة بالكحول. ولكن انفخي على اليد الأخرى، وسترين أن الحرارة تبقى هي هي، ذلك أن الجوهر هنا نقي، وسيعطر جلدك خلال أيام وأيام، وعندما يكون في الزجاج، فإنه يحتفظ بأرجه خلال عشرات السنين، وحتى خلال قرون.

وأخذت سلمى تضحك: فهي لا تحتاج إلى كل هذا الشرح! ولكن عندما رأت ما دفعه زوجها للبائع، فهمت بأن الأمر عظيم الأهمية. إذ لقد دفع خمسين ليرة ذهبية.

ولكنها ستندesh أكثر عندما بقيا لوحدهما، ورأت أمير يصفّ الزجاجات بعناية كبيرة، إلى جانب مئات أخرى، في صندوق حديدي مخبأ في الجدار.

وشرح الزوج هذا الموضوع فقال:

— إن لبعض هذه الروائح قيمة كقيمة الماس، وعندي أنها أثمن من الماس أيضاً. والحقيقة أنها سحرية: فنقطة واحدة تكفي لتحويل يوم نشعر بأنه سيكون بائساً، أو عسيراً، أو رتيباً فقط، إلى عيد. وأحسب أن هذه الحساسية المفرطة تأتيني من طفولتي، حيث الرائحة العطرة كانت تشكل أحد العناصر الأساسية من حياة حلوة سعيدة.

— أسعيدة ؟ ومع ذلك فقد فقدت أبويك ، وعمرك لا يتجاوز السادسة .

— إني لأذكرهما بصعوبة . ولقد رُبيت على يد جدّتي ، وأختي عزيزة ، اللتين كانتا تعبداني ، هذه وتلك . ولما كانت أمي قد فقدت ولديها الأولين ، فقد ظنوا أنها تصيب بالعين . أما أبي فإنه كان مشغولاً جداً بأعمال الدولة بحيث لم يكن يتفرغ قط لتربية طفله . وأصلاً ، فإن الصبيان عندنا لا يغادرون الزينانا إلا في عمر السابعة . وبعدئذ يقوم الرجال على تربيتهم .

وتمدّد أمير على الوسائد إلى جانب سلمى . وأخذ يدخن الهوكاه ، وهو يتأمل آخر الشعاعات التي كانت تلهب قمم السرو .

— وكانت مرضعتي ، التي كنت شديد الحب لها ، تأخذني مرة كل أسبوع لزيارة أبوي . وأنا أتذكر تلك المقابلات السريعة ، والشكلية . وكان علي أن أسميها آبا هوزور ، صاحب السعادة ، أبي ، وأمي هوزور صاحبة السموّ أمي . أما هما فلا يسميانني أبداً «أمير» ، بل والي آهيد أي الأمير ولي العهد . وكان كل منهما ينادي الآخر ، ساركار ، أي صاحب السموّ . وكانت كل هذه الألقاب تضايقني ، وكنت أتعجل العودة إلى ألعالي في البيت .

وفيما بعد ، وعندما قضى أبوي نحبهما في حادث ، تولى أمري نساء القصر . وحتى عمر الخامسة عشرة ، كنت ألعب مع بنات الخادومات . وكنا نخترع ألف قصة . وفي أكثر الأحيان ، كنت أنا الملك ، وكُنَّ هنّ الراقصات . وكنت أحبهن بكل براءة .

« ولما كنت الوريث الذكر الوحيد ، فقد كنت مُدَلِّلاً جداً . وأتذكر بأنني كنت أرفض أن آكل ، وكانوا يأتونني بإحدى نساء الحاشية لتغني لي أثناء الوجبات . وهكذا فقد أحببت الموسيقى منذ عمر الخامسة .

« ولم يكن موضوع بحث أن أدخل الحمام وحدي . بل إن أربع نساء أو خمساً كنّ يعنينني ، ويغسلنني بالصابون ، ويُدلكنني ، ويعطرنني . وكنت أجِد ذلك ساراً جداً . وقد استمر هذا طول طفولتي ومراهقتي ، حتى سافرت إلى إنكلترا . »

وابتسم أمير عندما لاحظ الدهشة بادية على وجه سلمى . فقال لها :

— أروحك يا عزيزتي ألا تبدي مثل هذه الدهشة ، فأنا أؤكد لك أن ذلك كله كان يتم في جو كامل من العفة .

— هُم... وإذن فقد كنت تقضي وقتك في الدلال على يد هؤلاء النسوة؛ ودراساتك، ماذا كان شأنها؟

— في عمر السابعة، عينوا لي معلماً، ليعلمني البدايات. وبطبيعة الحال فإنه لم يكن يستطيع الدخول إلى الزينانا. ولهذا فقد كنت أقضي بضع ساعات كل يوم في الماردان خانة، أي في المكان المخصّص في القصر للرجال. غير أنه لم يكن يشغل ذهني إلا شيء واحد، هو العودة إلى رفيقائي في اللعب، ولم أكن أسرّ إلا معهن.

«وعندما كبرت، كنت أشعر تجاههن بعواطف رومانتيكية. ولكنني كنت أجهل ماذا تعني كلمة القبلية، أو ماهي القبلية نفسها. وعندما بلغت الثامنة، وجدت جدّتي أن عليّ بالإضافة إلى اللغة الإنكليزية والرياضيات، أن أتعلّم العادات والأعراف. ولما كان هذا مفروضاً على كل الشباب من ذوي الأسر المتميّزة، حتى وقت قريب جداً، فقد وطفوا لي بعض نساء الحاشية لتعليمي.

«وكنّ نساءً أكبر مني عمراً، وكنّ جميلات جداً، وعلى درجة راقية من التهذيب. وكنّ بحديثهن، وأساليبهن الحلوة، يعلمنني كيف أتكلّم، وكيف أجلس، وبالجملة كيف أصبح رجلاً أهلاً للإختلاط بالناس. وكان بعضهن ممن يعرفن الموسيقى، وبفضلهن تعلمت كيف أحلم على مستوى قصائد الغازال (الغزل؟) أي الشعر الكلاسيكي، ومستوى التومري، أي الموسيقى الكلاسيكية ذات الأسلوب الخفيف، أو حتى مستوى الراغا^(١). ولكن لم يكن موضوع بحث أن أغني أنا، أو أعزف على آلة: إذ أن على الأمير أن يتذوق التسلية والسمر، لأن يقوم هو تسلية الآخرين أو مساعدتهم.

«وكان بين هؤلاء النساء شاعرات معروفات؛ فثقفونني في الشعر، وهو فن اشتهرت مدينتنا لوكنوف به، ويمكن للرجال المنتسبين إلى الطبقة العليا، أن يمارسوه، من دون أن يؤاخذوا عليه.

«لقد كانت حياتي حليماً...

«وعندما بلغت عمر الثانية عشرة. رأيت جدّتي أن أبدأ الدراسة الجديّة. فأرسلوني إلى «كلية الأمراء». وفي كل صباح كان مربّي، وأستاذي في اللغة الإنكليزية، وأستاذي في الأوردو، والخادم الموظف لكتبي، والسائق بطبيعة الحال، يأخذونني إلى المدرسة. وكلما كان عليّ أن أعود

(١) موسيقى تعزير حسب أوقات النهار.

بعد الظهر ، كانوا يأتون ليأخذوني إلى القصر . ولم يكن لديّ أية فرصة للاتصال بصبية آخرين . ولكنني كذلك لم أكن أحفل بهذا الأمر . لم أكن معتاداً على رفاق ذكور ، ولم أكن أرتاح لذلك ، ولم أكن أحلم إلا بالعودة لنقاء رفيقائي ؛ وقررت جدتي أن يقوم مؤدبي بشرح «أمور الحياة» لي . وبدء من ذلك اليوم ، لم يعد لي الحق بلقاء صديقائي .

وعلى كل حال ، وبعد عدة أشهر ، قام عمي بدس السمّ في طعامي لكي يستولي هو على الدولة . فرني أن من الأضمن أن أرسل إلى إنكلترا المتابعة دراستي فيها .

وتنظر سلمى إلى أمير نظرة الإشفاق .

— تلك المتزمتة إنكلترا ! إيتون ، وكامبريدج ! بعد الحياة التي كنت تعيشها ؟ لا بد أن ذلك كان صدمة رهيبة !

— رهيبة ، لا أدري . فقد كان كل شيء جديداً ، محبباً . ولكن الواقع هو أنني لم أكن أعرف من أنا : أمير هندي ، أم لورد إنكليزي ؟

وتفكر سلمى : « يا مسكين يا غالي . ولا تعرف ذلك حتى الآن ! » ولكنها تحذر من أن تقول فكرتها هذه بصوت عال . فتكتفي بتقبيل يد أمير . وهو ، من غير أن يشعر أن هذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها عن نفسه ، ويثق بها ، يتأثر من هذا الحنان اللامألوف . فتتملكه مشاعر حب عميق ، ويشتهي أن يأخذها بين ذراعيه . ولكنه لا يجرؤ . فهو لا يريد أن يفسد هذه اللحظة الهائلة .

وكان منذ زمن طويل قد فهم أن الحب بالنسبة إلى زوجته هو نوع من السخرة ، لا تقبلها إلا لترضيته . وكانت خيبة أمله حادة . ذلك أن كل شيء في امرأته كان يهتف بالمتعة : في جسمها الرشيق ، وشفثها البضتين ، وعينيها العميقتين اللتين تضطربان أحياناً . ولكنه متى ضمّها إليه ، أو قبّلها ، أو زاد في مداعباته ، شعر بأنها تتصلّب . ولقد حاول مرات ومرات أن يوقظ شهوانيتها ، ويقسر لذتها ، ولكنه خاب مسعاه ، وبقي في اللعبة وحيداً . فانتهى إلى الحقيقة البديهة : وهي أن امرأته الرائعة ، إنما هي تمثال من الرخام !

ولما كان مشوقاً إلى ذلك ، فقد ترك ليدّه أن تضيق بين خصل شعرها الأحمر ، وتفتلها حول أصابعه . فوضعت سلمى رأسها على كتفه وكان شفيف السماء يجعلها ترتجف ، فتنتظر .

وانزلقت اليد إلى الثُقرة ، ولهت بالفص العاجي من الأذن ، ومست الحد ، وجوانب الشفتين :
والفتفت إليه ، مرتجفة ، وفي وسط الظلام الشاحب ، كانت تبحث عن نظراته .

أترأه ظن أنها تتهرب منه ؟ إنها لا تدري ولكن يده ارتفعت عنها ، وأخذ يتمطى ، وقال :
— ما أجملها من ليلة .

وأجاب بخشونة :

— انها ليلة من ليالي الشتاء ، وأعادت إلى كتفها وشاحهما الحريري . وأخذت تتأمل ، بشيء
من الحقد ، تلك اليد المغطاة بالخواتم التي يجعلها ضياء القمر تلمع . وفجأة عادت إلى ذهنها
تلميحات البيجوم ، بأنها لا تقوى على شيء ، باستثناء التعبير عن الغيظ . فإذا كان ذلك صحيحاً ؟
وإذا كان زوجها الجميل يفضل عليها ضمات رجل ؟ وإذا لم يكن يقاسمها المضجع إلا بحكم
الواجب ، لكي يحصل على وريث ؟ إن هذا يمكن أن يعلل تنقله بين اللامبالاة ، وبين الامتلاك
العنيف والسريع ... لا ، إن هذا مستحيل ! فتفز رأسها محاولة استبعاد هذه الصور التي تغزوها ،
وتشعر بالخجل . ولكن كلما أمعنت في استبعادها ، أمعنت هي في فرض نفسها .

وبقفزة ، نهضت .

— أكاد أختنق هنا ، وسأبحث عن مكان أرطب .

وفي ذلك الليل المضيء ، مشى سلمى من شرفة إلى شرفة ، حتى وصلت إلى الطرف الغربي
من القصر ، أي إلى جناح الشمس الغاربة . الذي يشرف على المدينة .

واستندت إلى عمود من الرخام ، وأخذت تتأمل لوكنوف الجاثية تحت قدميها ، وهي تضج
بأشباح مفضضة . وعلى مسافة بعيدة ومن فوق الأقواس الإكليلية ، وركائز المساجد ، المشيقة ،
نتصب الشبح الأبيض المتوج بالذهب ، شبح إمام بارا حسين آباد ؛ وإلى جانبه تلك الصورة التي
رسمها خيال مهندس كان في حالة هذيان ، أي ذاك « الباب التركي » الذي يندفع إلى السماء بما فيه
من آلاف زهرات اللوتوس ، وهي زهرات السلام ، التي تبدو في الليل ، كأعلام حروب وانتصارات .

إنها مدينة باروكية ، مخططة بالألوان ، كأنها خليط من الفخفخة المغولية ، والفوران الهندي ،
والتحذلق الفرنسي ، والبلادة الفيكتورية المذهولة كل الدهول أن توجد في مثل هذه الصحبة العابثة .
أما في النهار ، وتحت الشمس التي لا ترحم ، فإنها تبدو كواحدة من بنات الهوى ، شاخت ، ولم تعد

التياب الغنية المحيطة بها، تستر الانحلال والهرم. ولكنها في الليل تعود فتجد ألقها، وأربحها المرهف، وسحرها، والبطء المسكر في حركة من تظن أنها الأجل.

إنها الحبيبة التي يحلم بها كل إنسان، لوكنوف المسلمة، المتوحشة، السرية، الهويّة، لوكنوف الهندية، اللطيفة، المثيرة، لوكنوف التي تشتد شهوانيتها لتصل إلى حدود الصوفية، والتي تخفي صوفيّتها أعظم المتع، لوكنوف السريّة... الخفيّة...

وعندما انحنى على الدرايزين الحجري لتلك الشرفة، طار خيالها، من وراء هذه المدينة الخرافية، الغريبة، إلى عذوبة مدينة يهددها لونا اللازورد والذهب... اسمها استامبول.

— ١٣ —

— إنهم ذبحوا النساء والأطفال ، وأولئك الذين لم يكونوا إلا جرحى ، رموهم في الآبار . ثم أشعلوا النار في المنازل . ونحن من القلائل الذين استطاعوا الهرب . فلقد اختبأنا في أحد الحقول . وعندما حلّ الظلام ، زحفنا إلى الغابة . ثم مشينا ومشينا أياماً حتى وصلنا إلى هنا .

وكان الرجل يترنح من التعب . وكان إلى جانبه زوجته وطفلان صغيران ييكيان في صمت .

— هوزور ، ماذا ستكون حالنا ؟ إنه لم يعد لنا سلام ، في أي مكان .

فأجلسهم الراجاء ، وطلب أن يقدم لهم الطعام ، ثم بدأ يسألهم أسئلته بكل هدوء .

إنها مرة أخرى ، في ذلك التاريخ المؤلم للاضطرابات التي تقوم بين الطوائف التي كانت ، حتى ذلك الحين ، تتعايش دون كبير عناء . إنها اضطرابات تنشأ عن توافه ثم تؤدي إلى مذابح ، في جو التوتر الذي تنشئه وتغذيها الحركات المتطرفة .

وفي هذه القرية التي تسمى لاكمبور ، كانت فرقة ماهاصباح ، النشيطة جداً ، تهرب الأقلية المسلمة ، مدّعية أنها تريد ردها إلى دينها القديم ، أي الهندوسية . وكان المسلمون قد شكوا أمرهم إلى المسؤولين المحليين عن حزب المؤتمر ، الذين أبوا أن يصغوا إليهم .

وانفجرت المأساة لدى تشييع الجنائز في المسجد . وحدث أن تَوَقَّف المشاركون في عرس هندي ، أمام مدخل المسجد ، ليعبروا عن فرحهم ، بالضرب على الدفوف ، والمزامير ، والصنوج ،

بأقوى ما يستطيعون . فخرج إليهم فلاحون يطلبون منهم الذهاب إلى مكان آخر ليلهم ويلعبوا . وعندئذ وجهت الشتائم ؛ وأهين اسم النبي . فتطايرت الحجارة ، وسُحبت السكاكين ، وذهب الناس من الجانبين ليتسلحوا بالأوتاد ، والمذاري والمناجل . ودامت المعركة ساعات ، وعمّت كل القرية . ولم تصل الشرطة إلا عندما انتهى كل شيء .

ويتألم الرجل ، ويفرك يديه ، ويقول :

— هوزور ، لم نعد نحتمل ، نحن فلاحون فقراء . ولا نريد إلا أن نعمل ، فلم لا يتركونا نعمل بهدوء ؟ إن الهنود يقولون إن المسلمين خونة ، وأن راجاهاتنا أصدقاء للإنكليز ، وأن علينا أن نطلب بطاقة المؤتمّر ، وأن نحارب من أجل الاستقلال ...

« ولكن السياسة ، هوزور ، ليست من اختصاصنا . إنها من شأن رجال المدن ، والناس الأغنياء ، المتعلمين ، ونحن لسنا ضد الاستقلال ، غير أننا مع الإنكليز ، كنا أكثر أمناً . فما من مرة تجرأ الهندوس على مهاجمتنا ، على نحو ما يفعلون بنا منذ سنة ، بعد أن ربحوا الانتخابات ، وظنوا أنهم المسيطرون ... وهم أكثر عدداً منا بكثير ، فماذا سيكون شأننا ؟ » .

وبكلمات قليلة ، وصف هذا الفلاح الوضع القائم ، بأكثر من كل خطابات رجال السياسة .

وأمر لا يهدد نفسه بالأوهام : فلو أن المسلمين كانوا هم الأكثرية ، إذن لتصرفوا تجاه الأقلية الهندوسية ، كما يتصرف الهنود الآن . ولكن القضية ، بالنسبة إليه ليست من الحكم على الفضائل العائدة لكل دين من الأديان التي أنتجت ، خلال التاريخ ، فلاسفة ، وصوفيين ، وطغاة ، بل هي شيء آخر . وفي هذه السنة ، عام ١٩٣٨ ، تتكاثر الاضطرابات والمذابح في شمالي الهند كلها . لكن قرية لاهبور التي يعيش فيها هذا الرجل ، لا تعود إلى دولة بادالبور — ولم يأت هذا التعيس إليها ، لبحث عن ملجأ فيها ، إلا لأن أخاه طباح فيها — ولكنها تعود إلى الدولة المجاورة ، كالاباغ . وتكاد هذه الأخبار المنقولة من قرية إلى قرية ، والمضخمة بصور مختلفة ، أن تلهب الدول القريبة كلها .

وكان أمير من انشغال البال ، بحيث لم يجد بداً من مفاتحة سلمى بهذا الموضوع .

— إنه لا بدّ من اتخاذ تدابير لمنع النار من الانتشار . ويجب إخمادها بأقصى سرعة ، قبل أن يصبح من المستحيل أن نسيطر عليها . ولربما استطعنا أن نناقش هذا الموضوع في حفلة الاستقبال

التي يقيمها راجاه مهداباد . ذلك أن أرستقراطية الإقطاع كلها في المنطقة ، سواء أكانت هندية أم مسلمة ، ستكون حاضرة هناك . آه ، وأنا أعرف جيداً أن الحديث في أمور السياسة ، في مثل هذه الموشائيرا ، نوع من الجريمة . ولكن ليكن ما يكون . أنا سأثير الموضوع . إذ يجب أن يستيقظ هؤلاء الناس .

وهذه الموشائيرات أو الكونسيرات الهندية الضخمة التي يجتمع فيها نبلاء الأود كلهم ، هي الشيء الوحيد الذي يُرتَّخص به راجاه مهداباد ، في حياته الفقيرة الجديدة ، لا لأن كرم الضيافة واجب مقدّس فقط ، بل لأن هذه المباريات الشعرية التي يدعو إليها أرقى الفنانين في البلاد ، مناسبة للتلاقي بين الهنود والمسلمين ، والجلوس بعضهم إلى جانب بعضهم الآخر ، ليحلموا ، ويبكوا ، ويتقاسموا العواطف نفسها ، ويكونوا أخيراً أناساً فقط يشتركون في تقديس الجمال .

ومنذ قرنين ولوكنوف تفخر بأنها مركز هذه الحضارة الهندية — الإسلامية التي تضيء الهند كلها في الشمال . وهي نوع من التأليف بين ثقافتين ، يبدو أن كل شيء يجعلهما متعارضتين .

وقد بدأ هذا الرهان منذ ثلاثة قرون على يد « أبكار » أكبر الأباطرة المغول . فقد كان يجمع ، في بلاطه ، الفلاسفة ، والعلماء ، والصوفيين لكي يحاولوا معاً الوصول إلى الشيء النهائي : أي البحث في قلب المعتقدات المختلفة أي في قلب الهندوسية ، والبارسيين ، والإسلام ، والمسيحية ، عن تلك النواة الصافية التي تلتقي فيها جميعاً ، ثم تأسيس الدين الإلهي ، اعتماداً على هذه النواة .

وكانت هذه المحاولة العظيمة جداً ، قد أخفقت ، بعد خمسين سنة ، على يد الأمبراطور أورانغزيب الذي هاجم هذا النوع من المصالحة ، وأعاد فأقر الإسلام في كل ماله من صلابة وقوة . وفي ذلك الحين هرب المثقفون والفنانون من دلهي التي استقر فيها حكم القناعات المطلقة ، ولجؤوا إلى لوكنوف ، عاصمة ملوك الأود . وهي أسرة ملوك من الذين اعتنقوا المذهب الشيعي . وكانت مشهورة بألقها وغرابتها وكرمها .

ولكن لئن تميز ملوكها بتسامح « أبكار » فإن ذلك لم يكن حرصاً على البحث الصوفي بقدر ما كان نوعاً من الانتقائية المتشوّقة لكل صور التجديد ، وكل المسرات ، المسرات الحسية والمسرات الفكرية . وهكذا فإن لوكنوف ستصبح البوتقة التي تنصهر فيها العبقرية الهندوسية ، والعبقرية الإسلامية ، حيث تنضج أكبر منجزات الموسيقى ، والرقص ، والشعر ، وأكثرها نعومة .

وهناك وصلت اللغة الأردنية إلى أرقى أشكالها، كما بلغ الغزال (أي هذا النوع من الشعر الآتي من بلاد الفرس، بدءاً من القرن الثالث عشر) ذلك الشكل المتركز، الذي تقول العقول الحزينة إن وظيفته هي إخفاء ما في الفكر من نقص.

والغزل، أي الحديث مع المحبوب، هو ملك الموشائيرات. وقد تعلمت سلمى تذوق هذه القصائد، التي يكون فيها المحبوب هو الله أحياناً، أو حلم مجد، أو رنين أساور امرأة، أو الإطالة المتفرجة لعالم لا يريد أن ينكشف.

غير أنه يبدو لها اليوم أن من غير المعقول، وغير الطبيعي أن نطرب بالكلمات، على حين أن الاضطرابات الدامية تلهي القرى والمدن. وقد كافأها راني مهداباد التي لم تستطع الامتناع عن مكاشفتها بقلقها، ببسمة متساحمة، كتلك التي يقابل بها الأطفال العاطفيون الذين يراد تهدئتهم.

— فما العمل؟ ولكن، يا بنيتي الصغيرة، ما من شيء نفعله غير ما نقوم به الآن: أي عدم الدخول في مناقشات عقيمة، وأن نعطي، على مستوى كمستوانا، مثلاً على الانسجام والتساع. إنه يجب أن نعتقد أن هذا ناجع، لأن لكونوف هي المدينة الوحيدة في المنطقة، التي لم تقع فيها حوادث مؤسفة.

ومن خلال المشربة الرخامية المثقبة، أشارت هذه الرائي، إلى رجل طويل القامة، يحيط به كثيرون، وأرته لسلمى.

— إن هذا هو راجاه كالاباغ الذي حدثت في منطقته هذه الحوادث التي تخبريني بها. وهو محاط بأصدقائه الهندوس والمسلمين. وصدقيني أن التعرف على عقلية «الآخر» يؤدي بنا إلى احترام قيمه: وهذا هو السلاح الوحيد الذي نتوصل به لبلوغ السلام الحق. ولولا أن أمراءنا غير مقتنعين بما تختلف المعتقدات من فضائل ومزايا، ولولا أنهم، بسلوكهم، يبهنون لرعتهم يوماً، على ذلك، فعندئذ لن تقع بعض الاضطرابات التي تثير أسفنا، بل إن الهند كلها ستشتعل ناراً.

ولكن سلمى غير مقتنعة بقوة المثل. ولربما كان هذا المفهوم الأرستقراطي مقبولاً في عهد كانت فيه مراتب الناس لا تمارى، ولكن هل هو اليوم شيء آخر غير الوهم الذي تغذي به نفسها طبقة النبلاء التي لا تملك أية رغبة — ولا أدنى عزم — في تغيير قناعاتها، وصورة حياتها؟

وكانت تتابع بنظراتها حركات أمير، الذي كان يقترب من راجاه كالاباغ، ويحاول أن يكلمه، ولكن هذا الأخير يهز رأسه، وعلى وجهه علامة المتضايق المزعوج. ولكن أمير يلح عليه.

وعندئذ يأخذ راجاه كالاباغ، وهو يضحك، بيد أمير، ويمضي إلى مضيفه، ويرحوه أن يفصل بينهما.

وتحاول سلمى، ووجهها ملتصق بالمشربية أن تقرأ ما يدور من كلام على الشفاه. ولكن عبثاً. ومع ذلك فهي تحكم من خلال وضع راجاه كالاباغ، أنه يحاول تهدئة هذا الأمير الشاب العائد حديثاً من إنكلترا، والذي يبدو أنه يأخذ الأمور مأخذ الجد، بصورة مفرطة.

وانتهى أمير بعد بعض الاحتجاجات، إلى السكوت. فانحنى ومضى ليضيع في الجمهور. كشكل نحيف في الشرواني الحريري الأبيض، الشبيه بالآخرين والغريب عنهم في الوقت نفسه.

وترتجف سلمى. وتشعر بأنها تشهد نهاية العالم، وهي تلومهم على هذه العماية، وهذا الجبن، وهذه الرهافة المنحطة التي تقطعهم عن الحقيقة الواقعة، وتشلّهم.

أما حوهم، فإن النضال ضد الاحتلال البريطاني، بتأثير من حزب المؤتمر، قد اتخذ صورة الثورة الشعبية ضد كبار الملاكين والأمراء، المعتبرين كأصدقاء للإنكليز. ولما كانت الأرستقراطية، في منطقة الأود، مسلمة في أكثريتها، فإن المعركة الوطنية، التي أصبحت، صراعاً اجتماعياً، تتعزز، أو على وشك أن تتعزز بحرب دينية تستقطب الجماهير.

ويسود الصمت فجأة، ذلك أن المشاية^(٢) تكاد أن تبدأ. وكان الضيوف الشديدي الانتباه والمتكثرون على أرائك متفرقة فوق البسط الحربية السميكة، ينظرون إلى راعي الاحتفال الذي يتقدم نحو المنبر. إنه عجوز، حاد العين، تعترف به المنطقة كلها، كالسيد الأكبر في هذا الموضوع.

ذلك أن رئاسة مجلس المشاية ليست بالأمر السهل. إذ يجب أن يكون الإنسان حاد الانتباه، خلال ليلة كاملة، وأن يحمس الجمهور الذي يتألف من عارفين خبراء، متطلباتهم كبيرة بشكل خاص. وبين الثلاثين شاعراً الذين سيتتابعون في الوقوف على المنبر، بدءاً من غروب الشمس حتى اللحظات الأولى الصغراء من الصباح، يجب عليه أن يحسن الترتيب، ويقدم المتكلمين، على حسب درجاتهم، ويدخل الأقل كفاءة بين الأكفأ منهم، لحفز الاهتمام الذي قد يجفو، وأن يثير الحساسية، لا بدرجة مفرطة، بل بدرجة كافية لتجعلها يقظة. ويجب عليه أن يكون قادراً على

(٢) نظن أن أصل الكلمة هو عربي، وهو المساية. وهنا تعني المباراة الشعرية — الغنائية.

الابتسام لشعر تافه ، لكي يؤخذ الحضور بالوزن الشعري ، ولا يلاحظوا الغثاء ، ولا يذهلوا عن المتابعة .
وأخيراً يجب أن نقطر العسل ، ونجمع الحضور في راحة اليد . فإذا ما استسلموا ، مأخوذون بسحر
ما يسمعون ، فوجئوا بضربة ناعمة في القلب ، وملئوا حبوراً .

ويرتفع الغزل ، مشهياً ، ساحراً ، مدعوماً من وراء ستار ، بتأوهات القيثارة وضربات التابلا أو
(الدريكة) . وفي دلهي يكتفى عادةً بالإنشاد . أما في لوكنوف ، فإن الناس يفضلونه مُعَنَّى ، ولماذا
نحرم أنفسنا من التلذذ بالانسجام الذي يقوم بين الموسيقى والشعر ؟

وكانت سلمى قد عزمت على الاختفاء ، بحجة المرض . ولكن النظرة اليقظة في عين الرائي
استبقته في الحلقة :

— ابقِي ، فالشعر سيخفف عنك التوتر .

وعادت فجلست ، خجلة من أن قصدها قد حُزر بسهولة . وقليلًا قليلًا بدأت تنساق مع
جمال هذه الأشعار التي لا تفهم معناها ، والتي تبدأ بموسيقاها . وتحت قدمها أرض من
الشيروانيات ، تتماوج على أوزان القصائد كحبة من الذهب والفضة . فترى الناس يتذوقون
ما ينشد ، ويأخذ بهم الحنين وتطير بهم الدهشة . وتبلغ المتعة أعلى قممها ، عندما تقوم امرأة ، متنكرة
تحت براكاه سوداء ، وتغني ، بصوت أجش قصيدة تمزق عذوبتها شغاف القلب . إنها شاهناز
بيجوم ، وهي واحدة من أكبر الفنانين ، في صناعة الغزل . وهي لا تظهر بين الناس إلا محجبة ، لأنها
بنت أسرة محترمة ، على ما قيل لسلمى . ولكن هتافها ، يهز ، من خلال الحجاب ، بشدة أكبر لأنه
محاط بالحرمات ، والسر ، ويُحرِّك الخيال والحواس من أعماق الأعماق .

وها إن الليل ينقضي أكثره ، ونامت بعض البيجومات العجايز في الجناح المخصص للنساء .
وسلمى التي خدّرت بما سمعت ، لم تعد تدرك إلا الهمس المداعب الشبيه بخير ماء الساقية في مجراه
الحجري ، فهو خير من خلال تكاثف أوراق الشجر ينتشر بين الطحالب في أرض لا زرع فيها ، ثم
يقفز من جديد في شلالات بلورية .

وفجأة يأتي صوت واضح ، ويوقظها من حلمها .

«إني أنا الذات التي تقوم في قلب المخلوقات ، وأنا البداية ، والوسط ، والنهاية لكل
الكائنات» .

وسكتت الموسيقى، وغاب سيد المشاية وهما على المنصة مراهقان يلبسان الشرواني المصنوع من الكتان الأبيض ودونما حلي ويتجاها. ولكن هذه الكلمات تعرفها سلمى. إنها كلمات صوفي كبير. ولكن من هو؟ فتسأل جارتها، التي تحملق فيها، مندهشة:

— ولكن، يا أميرة، إن هذا هو الباغافاد— جيتا، الكتاب الكبير المقدس، في الديانة الهندوسية!

الهندوسية؟ إن سلمى لاتصدّق ذلك؛ فهذه الكلمات تعرفها منذ زمن طويل. وتنحني أكثر بقليل وراء المشربية؛ فيتابع المراهق نثر الكلمات الإلهية، وعيناه زائغتان في ذاته.

— إنني السيادة والقوة اللتين يملكهما كل من يحكمون، ويضبطون الأمور، وينتصرون؛ وأنا سياسة الذين ينجحون ويغزون. وأنا الصمت، صمت الأشياء الخفية، ومعرفة كل من يعرف.

أما رفيقه الجالس بصورة مستقيمة تماماً، ويداه مفتوحتان على ركبتيه، فإنه يتابع:

المجد لله الذي لا سابق على وحدته، إلا هو الذي هو الأول؛ والذي مابعد تفردّه، من بعد. إلا إذا كان هو التالي. فبالنسبة إليه، لا يوجد قبل ولا بعد، لا عال ولا هابط، لا قريب ولا بعيد، ولا كيف، ولا ماذا، ولا أين، ولا حالة، ولا تتابع لحظات، لا زمان ولا مكان، ولا من وجود متغيّر.

«إنه الواحد، والقاهر.

«إنه الأول والآخر، الباطن والظاهر.

«إنه يظهر في وحدته، ويختجب في تفردّه.»

وارتعدت سلمى... إن هذا من كلام ابن عربي، وهو من أكبر النصوص الصوفية في الإسلام.

وسيقول المراهقان، بهدوء تلك الكلمات المقدّسة، التي يرتد بعضها على بعض كالصدى، خلال القرون والقارات، وتردد الحدوس العميقة، الصادرة عن نفس الحقيقة.

«بعضهم يعبدوني في وحدتي، وفي كل كائن متميّز، وكل وجه من ملايين الوجوه

الشاملة . وكل وجود للمجد أو الجمال مما تراه في العالم ، وكل وجود للقوة أو القدرة ، ألا فاعلم أنه ألق ، ونور ، وطاقة مني ، نشأت من جزيء قوي ، ومن قوة عنيقة تصدر عن وجودي » .

« وما نفكر أنه غيره ، ليس هو ، ذلك أن القول بأن شيئاً ما ، يوجد بذاته ، يعني الاعتقاد بأن هذا الشيء قد خلق نفسه بنفسه ، وأنه لا يدين بوجوده لله ، مما هو بلا معنى (لأنه هو كل شيء) . فاحذر أن تؤمن بشريك لله ، من أي نوع ، لأنك عندئذ ستنحط إلى درك عباد الأوثان » .

« فبي أنا مُدَّ كل هذا العالم في سر وجودي الذي لا يفهم . والإنسان الذي يراني أنا في كل الكائنات ، ويرى كل الكائنات فيّ ، والذي يعتمد على وحدة كياني ويجني في كل الأحلام ، وكيفما كان يعيش ويعمل ، فإنه يعيش ويعمل دوماً فيّ أنا » .

« ذلك أن ما تحسبه شيئاً غير الله ليس شيئاً غير الله . ولكنك لا تعلم . وأنت تراه ، ولا تعلم أنك تراه . وعندما تحيط علماً بما هو نفسك ، تتخلص من ثنائيتك ، وتعلم بأنك لست بغير الله . ولقد قال النبي (ﷺ) ، من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

« والحكماء اليوغين الذين يحاولون معرفة ما في أنفسهم ، يرون الرب داخل نفوسهم » .

« ومتى انكشف السر لعينيك وعلمت أنك لست غير الله ، تعرف أنك غاية في نفسك ، وأنت لست بحاجة لأن تفتي نفسك ، وأنت لم تكن منقطعاً قط عن الوجود . وكل صفات الله هي صفاتك . ولهذا فإن من المسموح به لهذا الذي بلغ الحقيقة ، أن يقول : « إنني أنا الإله الحق ، أو يقول : الحمد لي ، وكم هي كبيرة قناعتني » .

« وعندما يصل إنسان بالتقوى إلى معرفتي ، ومعرفة من أنا ، وكم أنا ، ومعرفتي في الحقيقة كلها ، وفي كل مبادئ وجودي .. فإنه متى عرفني على هذه الصورة ، دخل في « الأنا العليا » . وإذا عمل كل الأعمال ، وبقي ساكناً فيّ ، فإنه يصل بعفوي إلى شرط الخلود الذي لا يهلك » .

وتترقق الدموع على وجه سلمى كله . ولا يهمها أن يراها أحد الناس على هذه الحال ، لأنها في سلام مع نفسها لم تكن في مثله منذ مدة طويلة .

وخلال اليوم كانت تتخبط في كابوس من العنف والبغضاء . ذلك أن مذبحة الفلاحين الأبرياء على يد مجموعة من المتعصبين ، أثار فيها لأول مرة ، فضلاً عن مشاعر التأذي البغيض واللافهم ، رغبة في الانتقام : ولئن كانت العدالة لا تملك الإحترام إلا إذا كان الإرهاب ثمناً ، فإنه ينبغي أن

نكون نحن الأقوى . وأن نُقتلُ ، حتى لا نُقتل . وكانت تشعر أن هذا « الحل اليائس » لا يمكنه إلا أن يؤدي إلا إلى مزيد من الشقاء ، ولكن ما العمل ؟

وكانت قد جاءت إلى هذه المشاورة ، آملة أن الحفلة الشعرية هذه ستوَجِّل ، وأن بين الناس الحاضرين من يتصدى لوضع استراتيجية دفاعية . فخاب أملها . ذلك أن المضيف أرى أن يجري أي نقاش .

وهاهو في آخر السهرة ، يقدِّم جوابه النير : فهذه الديانات التي يمزق أتباعها بعضهم — بعضاً ، تعبّر عن حقيقة واحدة . فواء الطقوس التي هي شكليات مضافة إلى الأديان ، لجعلها غامضة ولتتيح المجال لقيام الناس بعضهم على بعض ، تؤدّي كلها إلى الكائن الأعظم ، الكائن المطلق الذي ينحدر منه كل إنسان متكوّن . وهي تضغط علينا بأن لا ننسى ، في جنوننا التهديمي ، أن اللانهائي موجود فينا ، وأنها نحن الجمال ، والمعرفة اللامحدودة ، وذرة تافهة من التراب ، ولكننا ننطوي على العالم الأكبر ، لأنه جزء صغير من الله . ولكن هل نحن جزء ؟ كلا ! نحن الله ؛ فاللامتناهي لا ينقسم .

يجب ألا ننسى ذلك : فكيف إذن نأس من الإنسان ، ونرى أن الآخر هو العدو الذي يجب سحقه ، ليس إلا أننا أنفسه ، كما أنني أنا هو .

— إن هذا المسكين راجاه مهداباد على وشك أن يصبح خرفاً ! هذا ما يعلّق به أمير ، على طريق العودة . فما أغربها فكرة أن تنهي مشاورة برق دينية !
وانتفضت سلمى .

— ألم تفهم إذن !

— أفهم ؟ ماذا ؟

— لاشيء ... ليس الأمر بمهم .

وأدار رأسه ، متضايقاً من سكوت سلمى ، ومن لهجتها كملكة أسيء إليها ، تلك اللهجة التي تُسمع منها أحياناً .

وحردت سلمى في مكانها ، في آخر المقعد . وهي لا تشعر بتعاسة ، حتى ولا بالانزعاج ، تجاه

اللا فهم الذي بدا على أمير . ولكنها شعرت بتعب كبير ، أو بملل . وجربت أن تتذكر ما يقوله
الباغافاد — جيتا .

« أن أرى في الكائنات كلها ، وأن أحب فيها جميعاً » .

وتغلق عينيها ، وتتساءل : أتراها تصل إلى هذا يوماً ما ؟

— ولكن أين اختفت عائشة .

فمنذ أكثر من أسبوع لم تر سلمى تلك البنيّة التي كانت تأتياها كل يوم . ببعض الزهر لشعرها . إنها طفلة رائعة في السابعة من عمرها ، وصلت في الشهر الماضي ، مع أهلها الذين هربوا من الاضطرابات التي وقعت في قريتهم . ومنذ ذلك الحين ، والأسرة تعيش في القصر : فالأب يعين أخاه في المطابخ ، والأم تشتغل في أعمال الخياطة .

ولقد سمعت سلمى خادمة تروي أن هذه المرأة المزهوة بنفسها ، لا تشعر براحة ، في أن تعيش على حساب الآخرين ، وأنها تدفع بزوجها ، إلى العودة إلى القرية التي عاد إليها الهدوء . ذلك أن راجاه كالاباغ قد مضى هو شخصياً ليرى المسؤولين المحليين عن حزب المؤتمر . وحصل على ضمانات ، وبدأ المسلمون يعودون إلى بيوتهم ، وبينون من جديد ما كان قد أحرق . إذ ليس لهم في الدنيا أي مكان آخر يلجؤون إليه . فمنذ أجيال وأجيال ، كانت عائلاتهم تفلح هذه الأراضي التي يملكها الأمير . إلا أن لهم الحق في زرعها واستثمارها : فهم إذن في بيوتهم .

ثم ، أين يكونون آمنين أكثر ؟ في المدينة ، أم في الريف ، حيث تنفجر أعمال الشغب في كل لحظة ؟ وكيف يكونون آمنين إن لم يكن هناك سيد يتولى الدفاع عنهم . فما من شيء أدهى من أن يصبح الإنسان جوالاً بلا عمل ، وألا يتعلق بشخص معين ، وألا يكون له الحق في طلب الحماية .

وعلقت هذه السيدة على الكلام الذي سمعته بقولها :

— إن لهم الحق في ذلك . إنهم في مثل وضعي إذا أنا فكرت بالرحيل . فلقد أكلت أسرتي من ملح هذا البيت منذ خمسة أجيال . فكيف أستطيع أن أترككم ؟ ولكن الأم قلقة على عائشة . فعندما يصاب الرجال بالجنون ، فإنه يمكن أن تحدث أمور محزنة ، بشعة .

وكانت سلمى قد استمعت إلى هذا الحديث بأذن طائشة . فهي لا ترى لماذا تحب هذه الأسرة أن تعود . ذلك أنها تعيش هنا حياة طيبة ، وربما بشيء من الضيق ، لأنها تشارك أخوا الزوج منزله ، في الجناح المخصص للخدم ، قريباً من المستودعات ، فهل جعلتهم كمنشأهم يشعرون بأن المكان لا يتسع لهم ؟ ..

وكانت سلمى قد قالت في نفسها يجب أن أهتم بذلك ، وعادت إلى نص الباغافاد— جيتا وكتابات سري أورييندو التي طلبتها منذ اليوم التالي لتلك المشاورة . وحبت نفسها عدة أيام . وكانت تحاول ، من خلال هذا الكلام المختلف جداً أن تفهم ، وأن تعود إلى المنبع ، وأن تجد هي بنفسها ذلك الحدس الذي قلبها رأساً على عقب ، عندما حضرت ذات يوم في استامبول رقص الدراويش .

ولكنها اليوم ، وعدت بزيارة ماهاراني كارمپور Karimpour . وشهر نيسان / أبريل / هو الشهر الذي يسبق الحرارة الحارقة ، وهو شهر الأعياد ، فتتابع الاستقبالات التي يجب عليها أن تحضرها .

فأي غاراراذن ستضعها على جسمها ؟ لا بد على كل حال من طاقة من الياسمين . تظهر بها في منتهى البساطة ، فتدهش الناس بذلك .

وتعيد مرة أخرى ، قولها :

— ولكن أين هي عائشة ؟

إلا أن الخادمة التي تساعدتها في لباسها ، ابتسمت ، وبصوت الفرحه بما تسير به ، أعلنت الخبر الجميل .

— لقد زوّجوها .

— زوّجوها ؟

وتنظر إليها سلمى مذهولة . فلا شك أنها أساءت الفهم .

— بلى ! زوّجوها ، وزوّجوها زواجاً جيداً جداً ! لرجل أرمل في حوالي الأربعين من عمره . وهو تاجر غني من أحمد آباد . وهو يعرف كيف يعتني بها .

— يعتني بها ؟

وكادت سلمى أن تضحك .

— إن هذا جريمة . فهذه الصغيرة لا يزيد عمرها عن سبع سنوات !

وأجابتها الخادمة ، كما لو أنها تريد طمأنتها :

— لا تقلقي ، هوزو . فهو سيدعها تلعب بلعبتها . إذ من النادر أن يولد ولد قبل أن تبلغ البنت العاشرة أو الحادية عشرة .

ونظرت سلمى إليها ، بنوع من الرعب ... فعائشة لم تكن إلا طفلة صغيرة ، خيفة ، وليست واحدة من هذه البنات اللواتي نضجن بسرعة ، بقوة الشمس ، على نحو ما يتخيلهم الأوروبيون في تصوراتهم حول الشرق

— هيا اذهبي ، وجيئني بالأم فوراً .

وأمام أنواع اللوم التي وُجّهت إلى الأم ، لم تحن هذه رأسها . وبكل عناد ، كانت تنظر إلى الرائي . وكان في عينيها شيء من الحقد ، يكاد أن يكون تحدياً .

وانتهت سلمى إلى القول ، وهي منزعجة ، مشوشة :

— ولكن أخيراً ، لماذا لم تطلبي مني شيئاً ؟

— إن الرائي ساهيبا (صاحبة) مشغولة جداً بأشياء هامة ، فلا مجال لأناسٍ من نوعنا أن يتجرؤا ويزعجوها .

وكان الاتهام واضحاً : إذ لما انصرفت سلمى إلى دراساتها الصوفية نسيت واجب الحماية لهؤلاء النسوة ، وهؤلاء الأطفال ، المتعلقين بها . وبسبب أنانيتها ، ولا مبالاتها ، تعتبر هي المسؤولة عن مصير عائشة .

« فمن لا يتأثر بأي شيء ، حتى ولو كان يصيبه هذا الشر أو ذاك الخير ، والذي لا يكره ،

ولا يستمتع، هذا الرجل هو حكيم». فما هو رأيك، أيتها الصغيرة عائشة، بحكمة البراهمين؟ وما هو رأي ملايين البؤساء الذين يسكنون هذه البلاد؟ وعندئذ تلقي سلمى بنظرة حاقدة على الكتب المقدسة التي تعمر مكتبها. فتتجه إلى الخادمة وتقول لها:

— ضعي كل هذه في الخزانة.

وكانت رغبتها في البكاء، غضباً، كبيرة جداً. لا، إنها لم تصل إلى الزهد الأعظم الذي يتيح للإنسان أن ينصهر في الذات الإلهية، ولم تبلغ «هذا الصفاء النفسي الواسع والعذب، الذي ينفي كل هوى وكل حزن». وهي سعيدة بذلك. أو يمكن أن تتجرد، وتحلّق فوق مصائب الناس جميعاً، بحثاً عن السلام الشخصي؟ فبأي حق، ياربي، بأي حق؟

وبعصبية تروح ونجيء داخل غرفتها: «سيقال إني لأفهم من هذه الأمور شيئاً، وإنني لم أبلغ المستوى الروحي الضروري. وفي وسع الإنسان أن يفهم أخيراً كل شيء، وأنا أعرف ذلك جيداً، كل شيء، ولكن للإنسان الحق أيضاً في أن يأبى هذا الفهم.

— امض، سيكندر، يا ابني، لا توفره!

— اذهبي، يا حلوة، يا لؤلؤة عيني، اجعليه يجرب منقارك. بقوة، وبقوة أكبر!

وكان المدربون يُحَمِّسون المتبارزين بالصوت والحركة، في الحين الذي كانت تنطلق فيه الحماسة، وترتفع المراهنات. وما من مرة رأت سلمى المجتمع الراقي اللوكنوفي، اللامهم عادةً، ينفلت بهذه الصورة. وكان سُمانيان، ريشهما منفوش، والأظافر غاضبة، يتحدّى كل منهما الآخر، ويعلو الصراخ. وكانت العيون تلمع، والأيدي المثقلة بالخواتم تتشنج، والشفاه تتضاغط، في توقع قلق، ثم تنفتح لتطلق صرخات فرح أو أسف وغیظ. أما المبالغ المراهن عليها، فقد كانت ضخمة؛ ولن يستطيع بعض هؤلاء أن يفوا ديونهم، هذا المساء: وعليهم أن يرهقوا حلّي زوجاتهم! وماذا يهم! فالساعة الآن ليست بالساعة المناسبة للاهتمام بمثل هذه التفاصيل.

والشيء المهم في هذه اللحظة، هو المعركة. وعندما ترى هذه الأرستقراطية هذه الطيور منتصبة على شوكتها، وتحتصم بهذا العنف، وهذه الحمية الضارية، وهي التي لم تعد تحارب، بعد أن ضبظتها السلطة البريطانية، منذ قرن، وروّضتها، وعندما يرى هؤلاء الأمراء الذين تناعسوا في حياة

الترف واللذات ، جيلاً بعد جيل ، وفقدوا لذة الحرب ، تراهم يشعرون بغليان الدم في عروقهم ، ذلك الدم البطولي الذي مازالوا يحملونه من أجدادهم المغول . وهاهي الطيور الآن تنتصب ببسالة ، وتحمل على عدوها ، وتنقض دون اهتمام بالخطر ، وتضرب ضربات جريئة ، مميتة ... ذلك أن عليها إما أن تنتصر أو أن تموت . فشجاعتها بلا حدود ، وأمجادها عظيمة .

ولقد انفجر الدم على القماشة البيضاء . وذلك الطائر الجريح ، المستنزف القوى ، يتخبط بدمه تحت ضربات خصمه الهائجة ، ذلك الخصم الذي أقبل بمنقاره الحاد ، كالخنجر ، ليقضي عليه .

وتعلو صرخات الألم ، والبقع الحمراء تتسع ... عائشة ، أيتها الصغيرة عائشة .

ولقد عضت سلمى على شفتيها كيلا تصرخ . فهنا على هذا القماش الأبيض ، رأت الطفلة يسيل دمها ، وتخبّط ضد هجمات شيطانية ، رأتها وهي توشك أن تموت .

وحولها ، على المقاعد المخصصة للنساء ، كإن الهيجان في أعلى ذراه : وهؤلاء النسوة الرقيقات ، يتمتعن بهذه المعارك كما يتمتع رجالهن على الأقل ، ويتراهنّ على أساورهن الذهبية ، لعدم وجود النقد في جيوبهن .

وتأني ماهاراني كاريمبور Karimpour ، فتسأل سلمى :

— كيف تجدين هذه الألعاب ، أيتها الأميرة ؟ فلوكنوف مشهورة بمعارك سمانيها ، الأندر بكثير من معارك الديكة . فالسمانيات حيوانات مسالمة ، ومن الصعب أن نجعلها عدوانية ، وهذا يقتضي تدريباً طويلاً ، كما يقتضي موهبة كبيرة . إذ يجب أن نجعلها تجوع مرة ، وأن نداعبها مرة أخرى ، حتى تصبح هذه الطيور السمينة ، حيوانات قوية ومحاربة .

وتندهش سلمى ، وتسأل :

— ولكن لماذا ؟ ألا يوجد ما يكفي من الحيوانات التي تدفعها غرائزها . إلى القتال ؟

وقطّبت الماهاراني حاجبها أمام هذا السؤال المستهجن .

— عفواً ، يا أميرة ، فالفرن لا يقوم على اتباع الطبيعة ، بل على تغييرها ! ولم تكن معارك الفيلة التي كان أجدادنا يستمتعون بها ، إلا اختبارات للقوة الصرفة . وكذلك الأمر في المعارك الدقيقة جداً ، بين الثور والرينوسيروس . وماهي المتعة بأن نشهد مجابهة بين أعداء طبيعيين ! إن مجتمعنا بحاجة إلى

مسررات ولذائذ أكثر نعومة : أي إلى دفع الأصدقاء والمتحالفين إلى التخاصم ، وهذا هو الأمر الأصعب ، والأكثر إثارة !

وبدت ابتسامتها عندئذ وكأنها تحمل شيئاً من السخرية . وشعرت سلمى شعوراً واضحاً بأن مضيفتها لا تتكلم على السمائي ، بل على الكائنات الإنسانية . وتتساءل ما إذا كان ذلك تحذيراً أو مجرد اعتراف بالتسليلات اليومية في مجتمع يشعر بالضجر .

وتابعت الماهاراني كلامها ، فقالت :

— إن أهل لوكنوف لا يأخذون أي شيء مأخذ الجد ، باستثناء ألهياتهم . ذلك أننا مدينة قديمة جداً . ولقد عملنا كل شيء ولم نعد نؤمن بشيء هام . أفترين ذلك مدعاة للأسف ؟ إنني لا أظن ذلك . فهذا يوفر علينا السخف والذوق الأعوج في التخاصم من أجل أفكار نأخذ بها اليوم ، ونهملها غداً . ونحن نقدر ما تنطوي عليه المعركة من جمال . ولكننا لا نبحث لها عن مبرر : فهذه لعبة مثل غيرها . أفترين أنها انحطاط أرستقراطية تتضاءل قواها ؟ كلا . ذلك أن هذه العقلية تربتها سائدة في الشعب ، وحتى بين الفقراء . ولكن لما كانوا لا يملكون الكفاية من الدراهم لمشاهدة معارك الديكة ، فقد اخترعوا معارك البيض .

— معارك البيض ؟

— بلى ، إذ يضعون بيضتين ، الواحدة أمام الأخرى ، وتتم الرهانات ، ثم يلقون الواحدة على الأخرى : فالبيضة التي تنكسر هي المغلوبة بطبيعة الحال ، والدراهم التي روهن بها عليها ، تمضي إلى جيوب الذين راهنوا على التي لم تنكسر .

« ويرى الإنكليز أنهم مجانين ، وأن من الأفضل أن يأكلوا هذا البيض ، بدلاً من أين يفسدوه . لأنهم لن يفهموا من شعبنا شيئاً أبداً . وأية حقارة أن نرد هؤلاء ، بحجة أنهم فقراء ، إلى مجرد أنابيب هضمية ! فلندعهم يتمتعون ويحلمون ، كما يحلو لهم » .

وقد جاءت بعد معارك السمائي الآن ، استعراضات الحمام . ولما كانت النساء فضوليات ، فإنهن يزدحمن لكي يعجبن بآخر حوادث العام . وفي الشرق كله ، يغرم الناس بهذه الطيور التي تجمع الوفاء إلى الذكاء . وتتذكر سلمى بأنواع الطيور العديدة والنادرة التي كانت ترى لمسرة السلطان ، في قصر يلديز وضوالة باهتته . ولكنها لم ترق قط حمام عجيبة كهذه التي تراها اليوم :

فلبعضها جناح أخضر، وجناح آخر بلون زهري حار . ولبعضها الآخر ، على أعناقها أشكال زهرية ذات ألوان حلوة جداً .

وتشرح لها الماهاراني الأمر وتقول :

— لا تظني أن هذه ألوان مصبوغة . فذلك عمل تافه ولا يدوم طويلاً . وحتى تنشأ هذه الروائع ، كان لابد من اختصاصيين ينتزعون الريش ، ريشة بعد ريشة من الحمام ، ويضعوا مكانها ، ريشاً ملوناً من طيور أخرى ، أو من ريش وُضع أياماً كثيرة في حمامات صباغ نباتي . وتحفظ هذه الطيور التي زينت بهذه الصورة ، بريشها الضخم سنوات عديدة . وتباع بثمن غال .

وتقدّم عبدان يحملان قفصاً مذهباً . وبعد أن اتخذا احتياطات كبيرة ، أخرجوا حيواناً غريباً ، واندفع بعضهن حول سلمى يصرخن صرخات إعجاب . فإذا بالطير — يطير ويقف على كتف سيده ، الراجاه العجوز ، راجاه ويرغبور ، وهناك ، بقي ساكناً ، وأخذ يهدل لمدة طويلة . وعندئذ فقط أدركت سلمى أن الأمر يتعلق بطائر ذي رأسين .

وتتعجب جارتها ، وتحمس ، وتقول :

— أليس هذا عجباً ، فهل رأيت يوماً ما في البلاط العثماني حمامات لها أكثر من رأس ؟

ومن القفص نفسه ، يخرج العبدان نصف دزينة من هذه العجائب الثمينة ، فتنتقل من يد إلى يد ، ويمسونها بنعومة ، ويعجبون .

— أية مهارة هذه ! فالناس لم يصلوا إلى إنتاج مثل هذه الطرائف منذ عهد الملك ناصر الدين حيدر . وحقاً فما من بلد غير لوكنوف ، يستطيع فيها الناس أن ينتجوا مثل هذا ...

وسلمى التي ظنت أنها أمام غرائب أنتجتها الطبيعة ، تفهم الآن بدهشة ، أن هذه الحمام المزدوجة الرؤوس ، قد نشأت على يد الإنسان . وكانت جارتها لطيفة ، فشرحت لها العملية التي تبدو نظرياً ، بسيطة جداً .

— يكفي أن نأخذ حمامتين صغيرتين ، ونقطع لأحدهما جناحها الأيمن ، وللأخرى جناحها الأيسر ، ثم نخطبهما بقوة معاً . ولكن الأمر بعد ذلك يصبح صعباً ، لأن الطيور التي تعامل بهذه الصورة قلما تعيش . ويجب أن تحاط بأكبر العناية . وعندما يلتئم الجرح ، وتصبح الحمامتان في عمر النضج ، تعلّمان الطيران ، مما يحتاج إلى الكثير من الصبر والمهارة .

وتذهل سلمى مما تسمع، وتقول مستنكرة :

— أية وحشية !

ودهشت النسوة، وأخذن يحملقن فيها. وتصدّت واحدة منهن، وهي هندية، للجواب، وانحنت باتجاه سلمى، وقالت :

— أهذا أكثر وحشية من قتل الحيوانات لأكلها؟ وهل تعتقدن ذلك، يا صاحبة السمو؟

ولكن بـمَ تجيب؟ أتجيب بأن التشويه لتتلذذ العيون، شيء آخر غير القتل من أجل الطعام، وأن الفرق... الفرق... إنها لم تعد تعرف كيف تكمل جملة، فتؤثر الصمت.

وكا لو أنها تحلم، سمعت اللواتي حولها يتناقشن حول الثمن الذي يدفع لمثل هذه الغرائب : فنواب دالبور دفع ١٠٠٠ ر. روية، ولكن عبثاً... « يا عائشة، كم واحدة من نوعك يمكن إنقاذها بثمن واحدة من هذه الحمام؟ » وشاءت الماهاراني أن تخفف عنها كآبتها، فاقتربت منها، وقالت :

— هل تعرفين بأن بهادور شاه، آخر سلاطين المغول في دلهي، كان يملك آلافاً من الحمام، وأنه في كل مرة كان يخرج من القصر، كانت هذه الحمام تطير فوق رأسه في صفوف مترابطة، لحمايته من ضربات الشمس؟ أما الرجل الشاذ ماجد علي شاه، آخر ملوك الأود، فإنه كان يملك ٢٤٠٠٠، كان بينها نوع نادر جداً، ريشه من الحرير. ولقد اضطر إلى التخلي عنها عندما أزاحه البريطانيون عن عرشه، وفقد كل ثروته. أما أحفاده، فإنهم يعيشون في البؤس. وانظري الآن إلى هذا السيد العجوز، الذي يرتدي لباساً من الزبي القديم، أي ثوباً من البروكار المشني؟ إنه حفيده، الأمير شاهاد Shaad. وهو رجل لا يتراجع عن رأيه. وقد أتى أن يتعلم أولاده الإنكليزية خوفاً من أن يسوقهم القدر ذات يوم لخدمة المغتصب. وهكذا فإنهم بدلاً من أن يُعينوا في وظائف محترمة في الإدارة، يرهقون أنفسهم وعيونهم بتطريز أثواب الساري، بأجر تافه قدره ثلاث روبيات في اليوم الواحد... أي ما لا يكاد يكفي إلا بالجهد لطعام أطفالهم، ولا يكفي على كل حال، للعناية بالأميرة، أمهم، التي تقبل على الموت، من مرض السل.

— ولكنه يستطيع على الأقل أن يبيع الفيروزة الكبيرة التي تغطي تقريباً كل بنصره.

— أبداً. فهذا الحجر الأزرق هو آخر مورد له. وهو الذي يتيح له أن يعيش.

وتتخيل سلمى لحظة، هذا الأمير، يأكل دقيق هذا الحجر الكريم، كما كانوا يفعلون في الماضي، لتقوية رجولتهم، عندما يَسُفُون دقيق الآلَاء الناعمة، المحلول في الخل.
وتتابع الماهاراني كلامها، فتقول:

— إن هذا الفيروز هو الحجر الذي يجلب السعادة، في رأي الشيعة، وأهل التَّيِّب معاً. ويحمل أمراً حجارة كريمة من هذا النوع، جميلة جداً. وهذه الهواية للعب، التي كنت أتعُدُّ لك عنها منذ قليل، تفسح المجال لمعارك فيروزية. فإذا اجتمع الناس في مكان ما، اعتبر من يحمل أجمل حجر، هو المنتصر ويتملك كل الحجارة الأخرى. ولكي يساعد الناس الأمير شهاد Shaad، دون أن يجرحوا كرامته، يزورونه أحياناً وفي أصابعهم حجارة فيروز عادية، يفقدونها بطيبة خاطر لكي يسدّدوا عنه أكثر الديون إلحاحاً.

فأي مفهوم غريب للشرف! إن تركه زوجته تموت من قلة العناية، وحبسه أولاده في حياة بائسة، وحجبهم عن كل مستقبل، عوضاً عن التلاؤم مع الشروط الجديدة.... وبين هذين الموقفين — موقف المرونة الكبرى، والتذلل الخانع، هؤلاء الراجاهات، تجاه المحتل البريطاني، والصلابة التي لا تنحني لدى مثل هذا الأمير العجوز، تحار سلمى في أيهما هو الأسلم. ولكن أليس هناك من حل وسط؟ إن أولئك الذين ظنوا ذلك، وأخذوا به، ضاعوا في متاهة الحلول الوسطى التي تؤدي إليها كل صلة مع القوة المستعمرة، وجلبوا على أنفسهم أخيراً، حذر الهنود وحذر البريطانيين.

أوليس هذا هو الخطر الذي يترقب أمير، وهو الذي سبر، بأكبر الجهد، جوانب القوة والضعف لدى الخصم، والذي تملك بالصبر أسلحته، بأمل الانتصار عليه ذات يوم، أمير، الإنكليزي أكثر من الإنكليزي في الظاهر، والمقتنع بأن عليه أن يحارب هؤلاء على الأرض التي هو فيها، أمير هذا، الذي سيحضر غداً مع كبار أمراء الأود، حفلة الاستقبال الكبرى (الدوربار) التي سيؤزّع فيها الحاكم هاري وينغ، كما هي العادة في كل عام، الألقاب، والامتيازات على الخدم الأوفياء للعرش؟

وكان تحت الخيمة ذات الألوان الصارخة، المنصوبة في حديقة مسكن الحاكم، مجموعة متميِّزة — باللباس الرسمي، والشيرواني البروكار — تتبادل فيما بينها أحاديث لطيفة بانتظار سعادته.

وفجأة ، وفي نوع من التبادل بين قرع الطبول ، والصنوج ، الذي أرغم الرؤوس كلها على الانتصاب ، بدأت الأوركسترا ذات اللباس الأحمر المذهب ، تعزف النشيد البريطاني : ليحفظ الله الملك : إنها الساعة التاسعة والنصف تماماً .

وظهر الحاكم ، في اللحظة الدقيقة المعينة ، كما ينبغي لممثل من ممثلي جلالته ، وكان شاحباً في ثيابه الرسمية العظيمة ، السوداء ، التي كانت تلمع عليها أوسمته ، وظهرت الليدي فيوليت ، وعلى رأسها قبعتها ، وعلى يديها قفازاها ، ووراءها مجموعة من الحاشية والمساعدين والموظفين الملط ، الجرد ، في أرقى وأفضل أحوالهم .

ونفض كل الناس ، على حين أن السر هاري وزوجته كانا يتخذان مكانهما تحت القبة الذهبية ، وهي القبة نفسها التي كان يجلس تحتها ملوك الأود ، منذ أقل من قرن ، في العصر الخرافي ، لشدة ما يبدو بعيداً ، أي عندما كانت الهند لا تحكم بسلطة بيضاء .

ثم أعلن عن افتتاح الاستقبال .

« خان بهادور ... والرأي بهادور ، والسردار صاحب .. » بهذا دوى الصوت معلناً عن الألقاب الممنوحة مقابل الخدمات الطبية والمخلصة . وتقدّم اختارون فوق البساط الأحمر ، بعد أن انتفخوا شعوراً بأهميتهم ، وانحنوا باحترام أمام العرش حيث يتفضل بمثل الملك الأمبراطور فيقدم إليهم ، بكرم ، ذلك الوسام الذي يكرم حياة كلِّها لإخلاص ، لأنبيل قضية ، أي لذلك التحالف الذي لا ينفصم بين أمبراطورية الهند وبين العرش البريطاني .

وفي هذا العام ، مُنح عشرون لقباً ، بدءً من أكثرها تواضعاً ، وهو ما حصل عليه « خان صاحب » — السيد — « حتى أعظمها شأنًا ، أي لقب الفارس ، صاحب رتبة نجمة الهند » . ولقد كرم بعضَ الراجاهات بالإنعام عليهم بلقب المهرجا الذي يعني « الأمير الكبير » . وكان كل لقب يُمنح ، يُحيا من قبل الحاضرين بتصفيق خفيف . فيبتسم الناس ، ويهنيء بعضهم بعضاً .

فهل يمكننا أن نتخيّل ، أنه بينما كانت هذه الحفلة تتابع مسيرتها ، أي حفلة الولاء والتبعية ، كانت هنالك جماهير واسعة ، يقودها المهاتما غاندي ، تتمرّد على المحتل ، وكان الجنود البريطانيون يطلقون الرصاص على المتظاهرين ، وكان عشرات الملايين من المسلمين المتجمعين حول قيادة محمد علي جناح ، قد انضمّت إلى الهندوس ، مطالبة برحيل البريطانيين ، وإعلان الاستقلال ؟

الاستقلال ؟ كلمة تجمّع من أجلها ، منذ سنين ، أهل البلاد جميعاً ، وصارت شعاراً

يهتِفُ له كل قلب، وتحية الجماهير من كل صوب، ولا يستطيع الرصاص أن يقضي عليه، كما يعزّزه ما يُسفلك من الدماء يوماً بعد يوم. الاستقلال! إنه كلمة سحرية لشعب مضطّهد، يتوقع أجمل الوعود، في المستقبل، بعده.

وهنا، على هذا العشب المقصوص جيداً، وبين أحواض البيجونيا، تجلس النخب جلسة مهذّبة، معترفة بالجميل، أو شديدة الاحترام! ويظن الإنسان أنه يتخيّل. فهل هذا جبن أو لامبالاة؟

وفجأة تتمسّك سلمى رغبة غاضبة في شتمهم، هؤلاء القروء المروّضة جيداً، والتي لا تفكر إلا بتقليد سادتها. «تُرى كم يجب أن يحتقرنا الإنكليز؟» ولماذا قبلت المشاركة في هذه المسخرة؟ ولم أصرّ أمير على حضورها؟

وتبحث بعينها عنه، في الجانب الآخر من المساحات المعشبة. فرأته بين جمع صغير من أصدقائه، والأمرء الذين، كما تعلم هي، يدعمون الحركة الاستقلالية، ويُمَوِّلونها. فلم إذن هذه الازدواجية. ولم يحدث قط أن قبلوا بأي تميّز للتاج البريطاني، ولكنهم مع ذلك يقيمون مع المحتل أفضل العلاقات. أتراهم يفعلون ذلك ليحملوه على النوم، وضربه بعد ذلك بالخنجر في الظهر؟ إن هذا ما يدّعيه أمير الذي يُحبُّ أن يبرهن على أن الإنكليز أقوىاء جداً، وأنه ليس من السهل طردهم بالقوة.

— ولكنها كانت قد ألحّت مرة أخيرة قبل المضي في الطريق من أجل الوصول إلى الدوربار، وقالت: أحقاً هنالك حاجة ماسة لحضور احتفالات تؤذي السمعة إلى هذا الحد؟ — إن منظر تقاعس البعض منا، وتعاضم سادتنا، أمر مفيد جداً، وصدّقيني فيما أقول: إنه يغذي الكراهية.

ولقد رأت أن سلاميات أصابعه تبيضّ فوق القبضة الزمردية التي تعلقو سيف الحفلات الرسمية.

وفي هذا المساء، بعد الدوربار، يقيم الحاكم حفلة راقصة كبيرة، دعيت إليها أكثر شخصيات المنطقة. وسيكون فيها تقريباً حوالي ألفي مدعو، من هنود وإنكليز.

وقضت سلمى، كل ما بعد الظهر، في تأنيق نفسها، مهتاجة كفتاة تبدأ التعرّف على العالم. ومنذ وصولها إلى الهند، وهاقد مضى على ذلك أكثر من سنة، كانت هذه الحفلة الراقصة أول حفلة تحضرها. ولقد قرّرت أن تكون أجمل واحدة بين النساء لحمل هؤلاء الإنكليزيات اللواتي يتظاهرن بأنهن لا يعرفنها، على أن تصفر ألوانهم، من الغيرة.

وبعناية فائقة، اختارت «ساري» أزرق اللون، مطرّزاً بقطع صغيرة من الماس، وحقيبة يد قائمة، لإبراز بياض بشرتها. ثم أضافت إلى عنقها، وقبضتي يديها، وثنايا شعرها، بعض أحجار الزمرد التي تعرف كيف تتألق.

ووقف أمير على عتبة البهو. فما من مرة رآها جميلة إلى هذا الحدّ. فتراه يتأمل، بهو واعتزاز. ففي هذا المساء ستغار منها المدينة كلها. وما من أمير، وما من واحد من الإنكليز، يستطيع التفاخر بأنه يملك مثل هذه الجوهرة.

وينتصب قصر الحاكم عظيماً، أبيض، في آخر ممر لا ينتهي، محاط بأشجار النخيل. وعلى المدخل، الشديّد الإضاءة، يقف الحرس، بوجوه لا حركة فيها، تحت العمام السوداء والحمراء المزينة بشعار التاج البريطاني، ليؤدوا التحية. وفي أعلى السلم، يستقبل المدعوين أميناً سر سعادته، بالفراك الأسود والياقة المنشأة، على الرغم من الجو الحار في هذه الليلة من نيسان / أبريل. ولن يأتي السيد الحاكم السر هاري، والليدي فيوليت، مثلاً جلايتهما، إلا عندما يجتمع هؤلاء كلهم. وهناك عشرات من الخدم منتشرون بين المدعوين. وهؤلاء يوجّهونهم، من خلال الممر ذي الأعمدة التي تعلوها تيجان كورنثية، ذات لون زهري شاحب، إلى صالون الشرف.

وهذا البهو خليط جنوبي من الفيروز والذهب. يقف على أقواس ناعمة، تبرزها أكاليل من عجين المرمر. وفوقه، على عشرة أمتار من الارتفاع، يفتح بهو دائري قصير بين ألواح صغيرة تعلوها قباب نُحتت بنعومة كبيرة.

ويبدو المكان هائل الاتساع، بالرغم من الجمهور المحتشد فيه. وهناك تجد الفراك الأسود يختلط بالشرواني، وباللباس العسكري الفخم، الذي يميّز به جيش الهند: جاكيتات قصيرة، قرمزية اللون للضباط المشاة، أو زرقاء مطرّزة بالفضة، بالنسبة لضباط سلاح الفرسان.

وكان هناك عدد قليل ممن يحملن الساري على ما كانت تتوقع سلمى — ذلك أنهم قلائل فعلاً

أولئك الهنود الذين يقبلون أن يعرضوا نساءهم على الناظرين الغرباء . وبالمقابل نجد كثيراً من لابسات ثياب السهرة ، ذات الألوان المدهشة أحياناً . « وتفكر سلمى وتقول : إنه لغريب حقاً أن تستعير الإنكليزيات من هذا البلد ، حتى ألوانه الأكثر عنفاً ، كهذه الفساتين الشديدة الصفرة ، أو ذات اللون الزهري الحاد ، أو البنفسجي المعمي . أتراهن يبحثن عن إخفاء بلادتهن الطبيعية ؟ ولكن ماذا أتخيّل هنا ؟ أوليس كل ما هو إنكليزي « أعظم من كل شيء » ؟ فهذا الذي يبدو لنا نحن البشر العاديين ، تافهاً ، بشعاً ، لا يُحتمل ، ينبغي أن يبدو لهم قمة في التميّز . ومن هنا جاءت قوتهم : فليس لديهم حالات نفسية متميّزة ، ومهما يحدث فإنهم مقتنعون ، فإنه لا يمكنهم إلا أن يكونوا الأفضل . » .

— أميرة !

وبصورة لطيفة يدفعها أمير بالمرق ، لكن سلمى الشاردة في أفكارها ، لم تر الحاكم الذي وصل ، لاهو ولا زوجته ، وهما الآن واقفان ، في منصة الشرف ، في الحين الذي تعرف فيه الأوركسترا النشيد الوطني . أما حفلة التعريف ، وهي القسم الأهم من الأمسية ، فإنها ستبدأ عما قريب .

ويقوم المعرّف ، بذكر الأسماء والألقاب العظيمة للشخصيات الحاضرة . ويتقدم الأزواج ، الواحد بعد الآخر ، بين صفين من الفضوليين . ويُرى بعضهم وقد منح كلمة ، أو ابتسامة تلاحظ فوراً من قبل الحاضرين ، وتكون موضوع تعليقات لا تنتهي فيما بعد « تماماً كما كان يجري في البلاط العثماني ، ولكن بصورة ريفية طبعاً » ، على ما تفكر به سلمى ، مضيفة إليه حركة ما في وجهها ، تنمّ عن الاشمئزاز .

— صاحباً السموّ راجاه وراني بادالبور .

وساد الصمت ، حين كانا يجتازان الصالة الواسعة ، ببطء . وهما يلتفتان النظر بجماهما ، فاتجهت الأنظار كلها نحوهما ، مذهولة بما هما عليه من عظمة وسموّ .

وعندما وقفا أمام المنبر ، وابتسما ، برق هادئة ، للحاكم ، شعر الجمهور أنهما هما المضيفان الملكيان ، وأن السر هاري وزوجته ، هما من رعاياهما . وبحزر أمير ما تعنيه التمتة . فلو استطاع أن ينتصب أكثر ، إذن لفعل . ذلك أنه في هذه اللحظة أمبراطور ، وسلطانه ليست إلا التاج الإضافي المضاف إلى ألقابه وثرواته .

— يا عزيزي أمير ، تصوّر أنني كنت أقول لليدي فيوليت إنك أنت وزوجتك لستما جميلين فقط ... بل أنتما تجسّدان الجمال .

وامتقع وجه الراجا . ذلك أن الإشارة إلى جمال الزوجة ، شتيمة بالنسبة للهندي . ولا بدّ أن السر هاري يعرف ذلك . والحقيقة أنه ينتقم ، بمكر بريطاني تماماً ، من وقاحتها .

وألقي أمير ، بسرعة ، نظرة على من حوله . وفيما عدا المرافق العسكري ، فإنه ما من أحد يبدو أنه سيمع ما قيل . فيتنفّس الصعداء . ولكن الدرس حُفظ تماماً : فلن يغامر بعد الآن باصطحاب الأميرة لزيارة هؤلاء البرابرة !

ويخطر بباله عندئذ ، أن كل رجل حاضر يعرّي زوجته ، بعينه . فيشد قبضتيه : ويتمنى لو أن الناس جميعاً يرونها ، ولكنه لا يستطيع أن يخيّل أن ينظر إليها أحد . ويلاحظ عندئذ غاضباً مشيتها المثنية ، المتموجة ، وجسمها المياس المتفتح الذي يبرز الساري قسماته . فأين تظن أنها موجودة ؟ وعليه أن يوصيها ببعض الاحتشام . وفجأة ، يفاجئ نفسه ، وهو يتمنى أن تكون بشعة .

وانتهت حفلة التقديم . وتعزف الموسيقى فالساً لشتراوس ، وينحني الحاكم أمام الليدي فيوليت ، مفتتحاً البال ؛ وعلى الحلبة ، يظهر أوائل الراقصين . ومضى أمير للقاء أصدقائه ، تاركاً سلمى وحدها بلا رفيق ، جالسة بصحبة بعض النساء الثريات . وكانت قد أملت أن يدعوها للرقص ، ولكن الفكرة لم تخطر له على بال . فمنذ أيامه الحلوة في أكسفورد ، لم يمارس الرقص ، وعلى كل حال ، فما من رجل يوافق على عرض زوجته أمام الناس . أما الهندوس ، فيرون أن الرقص هو أمر خاص بالعاهرات .

وتنظر سلمى إلى الراقصين يلفون ويدورون ، وبها رغبة إلى الرقص ، وغيرة ممن يرقصن . وتنظر كذلك إلى النساء يضحكن وقد أسكرهن النغم ، واستسلمن لذراعي مراقصيهن . فالسمينات ، والهزيلات ، والبشعات ، هؤلاء اللواتي ليس هن أدنى حظ في أن يدعين إلى مثل هذا الاحتفال ، يكنّ في الهند أشياء نادرة ، يبحث عنها . وهنّ لا يتنازلن عن أية رقصة .

وتتابعهن سلمى بنظراتها . فأَي ظلم ! فهي هنا محكومة بالبقاء مع العجائز والعاجزات . فماذا يجدي عليها أن تكون الأجهل ، والأكثر فتنة ؟ إن كل الناس يستمتعون ، وما من أحد يعيرها الانتباه ، ما عدا بعض « النوريات » اللواتي يتعلقن بفارسهن ، ويلقن إليها ببعض النظرات الساخرة ، أو اللواتي يقعن مرهقات وسعيدات ، على كرسي ، ويتصنعن الدهشة أمامها :

— كيف ؟ أفلا ترقصين ؟ ولماذا ؟

وتحاول هي أن تتخذ وضع اللامبالية . ولكن هذا لا يخدع أحداً . فتلوم أمير على أنه تركها وحدها ، فريسة لهذا السم ، ولهذا السوء في النية . لقد اختفى . والأرجح أنه في بهو المدخنين . مشغول بالمناقشة ؛ وهو قادر على البقاء فيه الليلة كلها ، تاركاً زوجته تنتظر ، وتعاني من السخريّة .

ولكن ماذا لو تركت الحفلة ؟ سيكون ذلك فضيحة ؟ وماذا يكون من جرّاء ذلك ؟ أوليست لامبالاة أمير بها ، فضيحة أيضاً ؟ إن هذا الأمر مسجّم ، فيما تعلم ، مع العادات الهندية . ولكن أمير لا يستطيع أن يلعب باستمرار على الحبلين : فإذا هو اصطحبها إلى بيوت الإنكليز ، فليكن من الحياء بحيث يتصرف معها كرجل مهذب لطيف . وهؤلاء الأجانب يعتبرون أن موقفه تجاه زوجته برهان على اللامبالاة ، بل شتيمة وإساءة .

— أوتمنحينني الشرف ، يا سيدتي ؟

فارتعدت سلمى . ورأت أمامها شاباً ، شديد الشقرة ، يتسم لها . وعندما لاحظ دهشتها ، اضطرب عليه الأمر ؟

— أرجو أن تغفري لي جرأتي ، إذ لم نكن نعرف أحدنا الآخر وأنا أدعى روي ليندون . وقد وصلت منذ مدة قريبة إلى الهند . وعليّ أن أتسلّم وظيفتي غداً لدى سعادته . وأنا لأعرف أحداً هنا . وتساءلت عما إذا كنت تقبلين ...

وكانت سلمى على وشك أن تسمعه ما ينبغي له . ولكنه يبدو خجولاً جداً . فحملها ذلك على أن تبسم .

— أنا لأرقص ، أيها السر .

— حقاً ؟

واحمّر وجهه كطفل تلقى التأنيب . ولكنه لا يقول لها إنه يراقبها منذ مدة ، ورآها ملأى بالرضا في الرقص . فكّم كان غيباً عندما تخيّل أن هذه السيدة الرائعة ... فاعتذر بنوع من التمتعة ، وكاد يستأذنها بالانصراف ، لولا أنها أشارت عليه بالبقاء .

— تفضل فاجلس لحظة .

وكانت السيدات حولها لا يصدقن آذانهن . فأَي امرأة قليلة الحياء ، هذه الرائي ، هذه الرائي الصغيرة ! وبدأن يتبادلن النظرات ويترقبن الفضيحة .

« ترى كيف سيّد أمير ، إن أنا قبلت بمراقبة هذا الشاب ؟ » بهذا كانت تفكر سلمى وهي تسرّح النظر في هذا الشاب . « سيجعل من ذلك مأساة ، هذا أمر بديهي ! » وترى نفسها من جديد في لبنان ، في الليلة التي قضتها في البارحة جان دارك ، وتذكرت جنون وحيد ، عندما رآها ترقص مع ضابط فرنسي . وعلى كل حال ، فإن فكرة المأساة ليست ، آخر الأمر ، مما يسوءها ؛ فهذا يقلب بعض الشيء هذه الحياة المصطنعة التي بدأت ... تتعودها .

والشيء الذي أغراها لم يكن هو الرقص بالدرجة الأولى ، بل هو الخوف من أن تدع نفسها تُبتلع ، وغريزة البقاء ، التي جعلتها تنتصب وتقول : « هيا نرقص ! » .

فهل روي ليندون هذا راقص فالس استثنائي ، أو اللحظة المسروقة ، هي الشيء الاستثنائي ؟ وماذا بهم ! فتستسلم وعيناها نصف مغلقتين ، للعاصفة التي تحملها ، بسرعة ، ثم بسرعة أكبر ، وقد طاش عقلها من الموسيقى ، ومن كل هذه الشمس ، وهذه الزخارف الحلزونية المتألقة ، التي تترافق في السماء الفيروزية .

ولكن لِمَ توقفت الموسيقى ؟ إن اللا حركة جعلتها فجأة تترخ . فتقبض بيدها على ذراع مراقصها الذي يبدو أنه ابتعد عنها ، بدلاً من أن يسندها . فأصابتها الدهشة ، وفتحت عينيها ، فإذا بهما أمام أمير ، وقد امتقع لونه إلى أبعد الدرجات .

واستبعد أمير هذا الشاب بقفا يده وحتى من غير أن يلقي إليه بنظرة . فمثل هذه الأمور تُسوّى بين الرجال ، بعضهم مع بعض .

— ستقدم لي الحساب عن هذه الإهانة ، أيها السيد ، بدءاً من صباح الغد . وأترك لك الخيار في السلاح .

ودهش الرجل ، وبدأ يحمق في الرجل الذي يواجهه . فهل هو مجنون ، أو أن الأمر صار إلى ما صار إليه بمحض المصادفة ... ؟ واجتمع حولهم رهط صغير من الفضوليين ، ولكن ما من أحد سيغامر بالتدخل ، لأن الناس يفهمون خطورة الموقف ، ويتعاطفون مع الراجاه . بل إن في هذه القضية ما يحس شرفهم جميعاً .

— يا عزيزي الراجاه ...

ولفت صوت الحاكم كل الرؤوس . ذلك أن السر هاري أنبىء بما وقع . ورأى أن من المفيد أن يتدخل في الأمر ، هو بنفسه . إذ لا مجال لترك هذا الحادث السخيف — أي قصة امرأة ، كما هي العادة — ينقلب إلى مقتلة . وهو يجد نفسه مُحرجاً ، في أن يشرح لوالد ليندون أن وريثه قد هلك في مبارزة لأنه تجرأ ودعا امرأة متزوجة إلى الرقص معه . ذلك أنه لا يشك لحظة واحدة في أن الراجاه سينتصر فيها ، وهو يعرفه كرجل يحسن التصويب ، بصورة مخيفة .

وعدا ذلك ، فلو فرضنا أن الراجاه هو الذي قُتل ، فإن الأمر لا يكون إلا على درجة أكبر من الخطورة : ففي الجو السياسي الحالي ، سيكون قنبلة حقيقية . وستجعل الحركة الاستقلالية من الراجاه شهيداً اغتيل من قبل السلطة الاستعمارية ، لأنه أراد الدفاع عن فضيلة زوجته . وسيصبح الزوجان رمزاً للفضيلة ، بالنسبة لكل هذه الزوجات الهنديات ، ولشرف كل الأزواج ... مما يكفي لقيام ثورة .

وخلال ساعة كاملة ، بذل الحاكم جهده لتهديئة الراجاه . واستخدم كنوزاً من الدبلوماسية . ذلك أن البرهان على حسن نية الشاب دون اتهام الراني ، شيء يتطلب مواهب لا تتوفر إلا بصورة استثنائية . أما براءة ليندون فمؤكدّة . وكما شرحها هو ، بشيء من الخجل ، فإنه لاحظ امرأة شابة وحدها ، وكان يبدو أنها ضجرة . ولم يخطر بباله قط ... ويتقدم بكل ما لديه من قوة بالاعتذار ، وهذا ما أثار أمير أكثر فأكثر ، بدلاً من أن يهدئه . ذلك أنه يجب أن يوجد في هذا الموقف واحد مذنب : فإذا كان هذا الشاب يقول الحقيقة ، فهو مضطر إلى القول إن الراني هي المسؤولة الوحيدة ، وأنها أمام الألفي مدعو المجتمعين هذا المساء ، داست كرامته ، بصورة متعمّدة ! ليس له إذن من خيار . ويجب أن يقتل هذا الإنكليزي .

وبدأ السر هاري يفقد هدوء أعصابه : فكن أصر الراجاه على غسل العار بالدم ، فسيكون أسلم منطقاً وأكثر نجعاً ، إذا هو قتل زوجته ! ولكنه يكتفي بملاحظة أن حسن الحظ جعله بين أناس متمدنين ، ولولا ذلك لانقلب هذا الحادث إلى مأساة . وطبيعي أن هذا ليس خطأ الراني ، ذلك أن تربيته الغربية لم تهيئها للحياة في الهند . ومع ذلك ، فإنه إذا أمكن أن نشرح لها بعض الأشياء ...

وكأنما ضرب أمير على جرحه ، فانتصب قائلاً :

— يكفي هذا، يا صاحب السعادة. فهذا الأمر لا يتعلق بأحد غيري. ولن تكون هناك مشكلة: بل سأقضي عليها من جذورها.

وارتعد السر هاري: «أ يكون في وسعه أن يقتلها؟ أوه، وعلى كل حال، فإن هذا ليس بالأمر الذي يعنيني، وما دام الهدوء يسود في الخارج، فغير مهم ما بعده!».

— اعتباراً من اليوم لن تخرجي من غرفتك. وسيحمل إليك طعامك هنا. ومنوع عليك أيضاً أن تنزهني في حديقة القصر، أو أن تستقبلي صديقاتك: إذ ستعرفين كيف تقنعينن بإيصال الرسائل. ومنذ الآن ستضعين البرداه الأكثر احتشاماً.

وكانت الراني عزيزة، الواقفة بجانب أخيها، والتجسيد الحي للفضيلة، مبتهجة تماماً: فلقد توقعت هذا، وكانت قد عرفت أن هذا الأمر سينتهي نهاية سيئة.

ويتابع أمير كلامه، بصوت مرهق، فيقول:

— لقد كنت مفرط الطيب معك. وكنت أثق بك، وقد خنتني، وأذلتني. ولما كنت عاجزة عن السلوك بشكل محتشم، فإنك ترغميني على إرغامك عليه. ولا أفكر في أن أدع امرأة تهين شرفي.

وتركا الغرفة، وأغلقا الباب. وسمعتما سلمى يديران المفتاح.

أسجينة أنا إذن؟ كيف يجروون. سنشكو الأمر إلى العدالة، وإلى نائب الملك نفسه. وإذا كان هذا لا يكفي، فأمي في بيروت تعرف كيف تنير الرأي العام!

ويعود إليها منظر هذه المرأة العجوز، نصف المجنونة، التي كانت تهتف بها قائلة: «اهربي، بسرعة، قبل أن يفوت الأوان!» فيتملكها الرعب؛ فتندفع إلى الباب، وتقرعه. ولا من يجيب.

ولأول مرة، تخاف سلمى؛ فمن يستطيع أن يساعدها. إذ ما من إنسان يظن أنها سجين. وسيعرف أمير والراني عزيزة كيف يوجدان ألف مبرر لغيابها عن الاجتماعات العامة. ولن يعجب من ذلك أحد. ذلك أن النساء في الهند قلما يخرجن. وحتى إذا كان الناس في البداية يطرحون بعض الأسئلة، فمن سيفكر بالتحقيق عما يجري داخل القصر؟ وسرعان ما تنسى كما نُسيت أم راني

نامبور . وارتعدت سلمى عندما خطرت بياها هذه الفكرة . ولكن أبداً . وربما مائت ، ولكنها لن تدع نفسها تقبر حيّة .

— لا أستطيع، هوزور، فالراجاه ربما قتلني .

وتراجعت الخادمة إلى الوراق، وهي تهزّ رأسها، واليدان منقبضتان وراء الظهر؛ كلا، إنها لن تأخذ العقد الذهبي، ولن تحمل الرسالة. فالسيد سينتقم. وهو من القوة على جانب عظيم: إنه يعرف كل شيء.

— كلا، هوزور، إن هذا مستحيل...

ومن شدة التعب، تدع سلمى العقد يسقط. وقد بدأت تفقد الأمل، لأنها سجينه منذ ثلاثة أيام. ورغم الخوف، فإنها لاحظت في نظرة هذه الخادمة الصبية، التي جاءت حديثاً، شيئاً من التعاطف. ولكن الخوف كان الأقوى. فبأي عقوبة مخيفة هدّدهم أمير، حتى بدا الطعم عاجزاً؟

أمير أم الراي عزيزة؟ إنها الأخيرة حتماً، التي سَعدت بكونها استطاعت أخيراً أن تنتقم، وأن تكون السيدة من جديد. ولم يكن أمير لبفكر مطلقاً في أن يمنع عن سلمى خادمتها، أو ليكون من السخف بحيث يضع أمام باب غرفتها هذا الخصى الطويل الأسود، المسلح بسيف هائل، كما لو أنه غول مهزلة مكلف بإخافة البنت الصغيرة.

ومنذ تلك الليلة المشؤومة، لم تر سلمى زوجها، إذ لقد نقل حاجاته الشخصية، وعاد إلى

جناحه الذي كان فيه أيام العزوبة . ولو استطاعت أن تكلمه ، إذن لأمكنها أن تشبه عن هذا كله ، لأنه يحبها ، رغم كل شيء ، لكن اتصالاتها الوحيدة ، تمر بطريق الراني عزيزة ؛ فأخت الراجاه هي التي تراقب الأخبار التي تخرج من الزينانا . وهنا يكمن الخطر . وربما تركت سلمى نفسها تموت ، وأمير لا يعرف شيئاً عن ذلك .

وفي اليوم الأول ، صاحت صياحاً شديداً من الغضب ، والدهشة : ذلك أنها لم تكن تتصور أنهم سيحبسونها كحيوان مؤذ ، فلم تزد على أن بُح صوتها ، ومزقت يديها على الباب الخشبي الذي بذلت أقصى الجهد للحصول عليه ، هذا الباب الذي أرادته سميكا ، ليصون « صميمتها » ، فإذا به اليوم يخنق نداءاتها . وفكرت بأن تهرب من نافذة ما . ولكن النوافذ عالية أولاً ، ثم إنها محروسة من قبل حصي لا ينقطع ، ليلاً ونهاراً ، عن مراقبة ما يحدث .

ولكن سلمى قررت أن لا تنحني أمام أي شيء يشبّط العزم . وعليها في هذه المجابهة ، أن تحتفظ بكل قواها . ومع ذلك ، فكلما مرّت الأيام ، رأت أن الوضع الذي ظنته عابراً ، يفرض نفسه ، كحياة يومية لا تغيير فيها .

ولقد قال أمير : « لن نخرجي أبداً من غرفتك » . ولكن ماذا تعني هذه « الأبداء » ؟ وما من لحظة تتخيل أن هذا الوضع يمكن أن يكون نهائياً ؛ وعليها خاصة ألا تدع نفسها فريسة للربع ، كالليلة الأولى ، عندما أغلق الباب عليها . إن عليها ... وإن عليها ... إنها لم تعد تعرف ماذا يجب أن تفعل ، وماذا يجب ألا تفعل .

وتمرّ الأيام ، فترفض سلمى أن تأكل ، لأنها تريد الابتزاز — فمع الراني ، سيكون هذا عبثاً — بل لأنها لا تحسّ بالجوع ؛ ويكفي أن ترى الطعام لتصاب بالغثيان .

وعندما طلب الراجاه من أخته ، أن تزوده بأخبار زوجته ، أجابت هذه بأن العزلة الإرغامية ستكون طيبة النتائج عليها ، وأنها تفكر ، وأنها بدأت تفهم . فإذا تركناها تخرج الآن ، فسيكون ذلك جنوناً . إذ لن تزداد إلا تمرداً عندئذ ، تماماً كهذه الأحصنة الوحشية التي لم تذق النظام إلا قليلاً ، فلم تتعود عليه ، وتصبح بعد ذلك عصيّة على الانضباط . وعلى سلمى أن تفهم بوضوح ، مدى خطئها ، وأن تندم عليه . وإلا فإن العقوبة لن تجدي شيئاً .

ويجب أمير : وماذا لو أنني كلمتها ، وقلت لها إنني أعفو عنها هذه المرة وأنا إذا أعادت الكرة ، فسوف أطلقها ؟

وإنه لبعيد عن تخيّل ضحك سلمى ، إذا هي سمعته يقول ذلك . فهو لا يعلم أن الأميرات ، في الأسرة العثمانية ، هنّ اللواتي يطلقن أزواجهن ، إذا سمح السلطان بذلك . وما من مرة سُمح لداماد بالانفصال عن زوجته ذات الدم الملكي . إذ كان ذلك يعتبر إهانة للسلطان نفسه .

وليست سلمى من هؤلاء الزوجات الهنديات اللواتي إذا هنّ طُلّقن ، فإن هذا يعني الموت ، ذلك أن أسرة الزوجة لن تقبل بعودتها إليها . والبنت المطلقة ، هي العار بالنسبة إلى كل الأقرباء ، والبرهان على أنها خالفت القواعد التي تنظّم حياة الجماعة : وإذن فلم يعد لها مكان ، في أي مكان . وإذن فمن الأفضل للفتاة أن تقبل بشرط العبودية ، والخنوع ، لالزوجها فقط ، بل لأسرته كلّها ، بدلاً من أن تكون منبوذة .

والراني عزيزة أكثر فطنة ؛ فلقد أدركت مدى الزهو الذي لا يقدر ، لدى هذه الغريبة . وهي تتمنى ، أكثر من أي شيء آخر ، أن ترحل عنها هذه المصيبة ، العاجزة حتى عن إنجاب وريث للتاج . والحل الوحيد هو أن تمرض سلمى ، بصورة لاشفاء منها . ولكن هذا لن يكون سهل التدبير .

وبنظرة الأخت العطوف ، تداعب وجه أخيها ، المعذب .

— لا تخف . فأنا سأهتم بها على أفضل الصور . فإذا تدخّلت أنت ، فعلينا أن نستأنف بعد ذلك عملنا ، كأننا لم نفعل من قبل شيئاً . فصبراً : وخلال أسبوعين ستعود فترى الزوجة الأكثر حباً ، والأكثر إطاعة ، مما حيلمت به طول حياتك .

ومن يوم إلى آخر ، كانت سلمى تضعف جسدياً . ولقد حاولت أن تقسر نفسها على الطعام ، ولكن معدتها لم تعد تتحمل شيئاً . وحتى الشاي نفسها ، فإنها تسبب لها الغثيان . ورقبتها تؤلمها ، وعندما تنهض ، فإنها تترنح ، وتقع فريسة لصور مختلفة من الدوار . ولهذا فإنها تقضي أكثر الوقت وهي متمددة على سريرها . وسلمى التي كانت تحب القراءة ، أصبحت تعافها ، إنها لم تعد تشتهي شيئاً ، وهي تنتظر ، وتنتظر فقط . وفي البداية حاولت أن تكافح هذه المشاعر ، وهذه الإحساسات المزعجة ، التي كانت تضعها على حساب الحبس . أما الآن فإنها تدع نفسها تنهار ، وهي سعيدة بأنها لم تعد أسيرة التقيّؤات التي كانت ترهقها أشد الإرهاق .

وراسّولان ، الخادمة الصبية ، التي جاءت ذات يوم ، ورأت سلمى تعاني أزمة مرهقة بشكل خاص ، هي التي أوحّت لها بأن الطعام الذي يقُدّم لها ، هو الذي لا يناسبها ، على ما تقدّر .. ولم

تزد على ذلك شيئاً. ورأت سلمى أنها مجنونة إن هي تخيّلت ... ولكنها على مدى يومين، كانت تردّ الطعام كما جاء، وانقطع التقيؤ.

ومنذ الآن تكتفي سلمى بشرب الماء من الصنبور، وبيعض اللوز الذي تحمله راسّولان إليها، خفية. فتشعر أنها أفضل مما كانت. ولكن تعوزها القوة التي تساعد على النهوض، أو حتى على إصلاح زينتها. وهما هي ثلاثة أسابيع لم تخرج خلالها من غرفتها. ولكن تساوى عندها الآن الماء والخطب؛ وكأنها تشعر بأنها حائمة في السماء، فلا شيء يقلقها، ولا شيء يغضبها. وهي تحلم بأمها، وباستامبول، وبطفولتها. ويمرّ أمام عينها فيلم بألوان الباستيل، هو فيلم السعادة. فهي مطمئنة داخل نفسها، هادئة، ومستريحة، أخيراً.

— إن هذا جريمة! فمن أمر بهذا.

وفي وضع متوسط بين النوم واليقظة، تدرك سلمى أن حولها صخباً، وتسمع بعض الأصوات التي تكاد ترهق طبلة أذنيها. ولكن لماذا لا يدعونها تنام؟ فتشن، وتتحرك قليلاً، ثم تعود إلى الصمت، الذي هو الشرقة الدافعة التي تتكوّر داخل متعها.

وتقف زهراء الخجول أمام راني عزيزة، متهمة!

— لو أننا لم نختصر رحلتنا، لعدنا ووجدناها ميتة!

وحقاً، فإن طبيباً شاباً استُدعي على عجل لزيارتها، أكّد أن وضعها خطير: فعدة أيام أخرى بلا طعام، والقلب عندئذ يتوقف.

ووقف الراجاه، ممتع الوجه أمام أخته عزيزة التي تقابل أسئلة زهراء بالصمت الذي ينطوي على الاحتقار. ولكن أيهما هو المجرم؟ أهو أم هي؟ إنه يعرف أنها تكره سلمى، ومع ذلك فقد وكل إليها السهر عليها، وصدّق كلماتها المطمئنة، دون أن يحاول التحقق منها. أو كان ذلك خوفاً من التراخي، أمام دموع سلمى؟ أم اعتداد الزوج الذي أهيّن في كرامته؟ أم بحكم الحاجة إلى الانتقام؟

وبشيء من الضيق، ينظر إلى هذا الجسد الهزيل، وهذا الوجه الذي يشبه وجه العصفور، ويتخيّلها ميتة، ويجرب أن يتصوّر الألم الذي كان سيسحقه، لو ... ولكنه رغم جهوده هذه،

فإنه لا يشعر إلا باللامبالاة . فهو مستاء من ذلك : وإذا هو لم يشعر قط بهذا المرض الذي يسمى باسم « الحب » فإنه ، على الأقل ، شعر بالحنان تجاه زوجته .

وهذا الرجل الذي كان يسيطر بقوة على أفكاره ، لم يعد الآن قادراً على السيطرة عليها : فهو يرى جنازة عظيمة ، وحلال عدة أشهر سيبقى أرمل لا سبيل إلى مواساته . ثم إنه يقتنع بما يقول الأهل والأصدقاء — عندما يؤكدون ضرورة الوريث — فيتزوج ثانية ، بهندية هذه المرة ، شابة تماماً ، تعبده ، كإله . ويكونان سعيدين ، ويرزقان بأولاد كثيرين .
— أمير باي^(١) .

وتنظر زهراء بشيء من العتاب إلى أخيها الذي يتسم لها باغتيال .
— يقول الطبيب إن آبا بحاجة إلى ممرضة تبقى دائماً إلى جانبها ، ليلاً ونهاراً ، وتعلمها من جديد أن تتغذى . ويقول بأن العناية المناسبة تجعلها خلال أسبوعين تنهض على قدميها ... ولكن ينبغي أن تغيّر المنظر أمام عينيها ، وأن يكون لها نشاط يُخرجها من اكتئابها ، ويظن أنها أرادت أن تموت ، وأنه يجب أن نساعدتها على العودة إلى تذوق الحياة .
— يظن ؟ ...

ويكاد الراجاه أن يختنق من الغيظ — فمن هو هذا الغرّ الذي يجرؤ. على الظن ؟
— إن زوجتي سعيدة هنا تماماً ! فإذا انتهينا من هذا ، قلنا إن هواء الريف سيفيدها ، بلاريب . سنسافر إذن إلى بادالبور ، متى أمكن ذلك .
فبادالبور هي الحل . وعندما يعودون إلى لوكنوف ، فإن فضيحة البال ربما تكون قد نُسييت لدى الحاكم .

كل لحظة هي خطوة نحو الموت
نعيشها فارغة لجعلها تدوم
فلا نتحرك ، ولا نفعل شيئاً

(١) باي تسي الأخ الأكبر .

لكي لا نملحو شيئاً ، ولا نخطم
الوقت الذي يبقى أيضاً ،
وخاصة ، أن لا نقتل الحياة
ونحن نعيش .

ووضعت سلمى قلمها . ومن النافذة كانت تنظر إلى الصباح الذي يطلع ، وفي الأفق ،
وبعيداً جداً ، هناك ضباب يرتجف . إنها هضاب الهملايا الأولى ، الجبل المقدس الذي ينسحب إليه ،
ليعيش فيه أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة ، أي أولئك الذين لا يترددون في وضع حياتهم على كفة
الميزان ، ويغامرون بأن يفقدوا كل شيء ، كيلا يكسبوا شيئاً ، ويفقدوا حتى الأمل . ولكنها لا تملك
الشجاعة ، أو لعلها كانت تكون كذلك ، لو أنها واثقة ...

ومرة أخرى ، هذه الحاجة إلى الأمن ، وعقلية المحاسب هذه القائمة فيها ، والتي تفاخر بسة
قرون من الدم الأباطوري ! ومع ذلك فإنها لم تكن خائفة . بل إنها شعرت أنها هادئة إلى أبعد
مدى ، عندما اعتقدت أنها على حافة الموت ، وهي تحب أن تظن أن ذلك كان شجاعة ، ولكنها
تساءل عما إذا لم يكن ذلك ، هو التمتع الجبان ، بالوصول ، في نهاية الطريق المتعب ، إلى وضع
لا يعود في وسعها أن تضعه موضع التساؤل . حافة الموت ؟ ... إن هذه الكلمة لترنّ في أذنها بشكل
رائع الكمال ، بلا ثغرات ، ونهائي ، بالنسبة إليها هي ، التي لم تعرف قط كيف تعرف نفسها ، وأنها
طول حياتها حاولت أن تجد لنفسها هدفاً ، أو قناعة . آه ، ماذا لا تعطيه ، أو ماذا تحجب لكي
تكون مثل هؤلاء البطلات ، بطلات الروايات ، اللواتي يعرفن ، ماذا يردن ، ويناضلن من أجل
الحصول عليه ! وهي تدهش وتعجب من قوة طموحهن ، وعنف رغباتهن هذه التي يبدو كل شيء
لها أحياناً تافهاً .

وهذه اللامبالاة ، هل هي الحكمة ، والانفصال عن العالم ، عالم الظواهر ، الذي يبيننا عنه
الصوفيون ؟ إنها تريد أن تظن ذلك ، ولكنها أصفى فكراً من أن تُجامل . ذلك أن ملكة الاعتقاد ،
والانخراط في هوى ما ، قد فارقتها ، منذ سنين ، في ذلك اليوم من أيام الربيع التي فقدت فيه بلدها
وأبائها معاً . وهي تعيش إرواءً لرغبة الآخرين ، ولحاجتهم إليها ، فقط . ولهذا فإن بادالبور تبقى بالنسبة
إليها مبرّر وجود . وكل هؤلاء الفقراء الذين يتزاحمون حولها ، أتراهم يعرفون أنها بحاجة إليهم ، بأشدّ مما
هم بحاجة إليها ؟ ذلك أنها إذا كانت تعطيهم شيئاً من المال فإن نظراتهم المملوءة بالثقة ، وانتظارهم ،
تعطيها الحياة .

ولقد شعرت سلمى البارحة بدفء في قلبها عندما جاءت مساءً ووجدت القرويات مجتمعات لاستقبالها . وكانت سينا ، الأرملة الصغيرة ، تقف جانباً ، وراء الشباك ، وتبتسم لها . وقد أرادت النساء الأخريات طردها : ذلك أن الأرملة نذير شؤم ، وكان ينبغي ألا تقترب من رانيتها . ولكن سينا ، لمرّة واحدة ، قاومت ، وتعلقت بقضبان الحديد ، وهي تصرخ . فتركوها خوفاً من عين السوء . وخلال لحظة لم تتعرّف سلمى عليها : ذلك أن وجهها تفضن ، وهذه الصبية التي بلغت الرابعة عشرة ، والغضة جداً ، في العام الماضي ، ها هي الآن تصبح شبه عجوز . فأني حشد من العذاب ، والمعاملة السيئة ، أوصلاها إلى ما هي فيه ؟ وفكرت سلمى بأن تأخذها معها إلى لوكنوف : ولكنها تعرف أن سينا حيثما وجدت ، ستظل الأرملة ، وستظل مستبعدة .

وسألتها — وقد خاب أملها أنها لا تجد رفيقتها معها في الاستقبال — :

— ولكن أين هي بارفاقي ؟

وتجيب الأخرى :

— إن لديّ رسالة ، راني الصاحبة . فبارفاقي تتوسل إليك أن تساعدها . فهي لا تستطيع أن تترك زوجها لحظة واحدة . فهو مريض جداً ، ومنذ الشهر الماضي بدأ ييصق دماً ، ولم تُجدِ عليه شيئاً أدوية الحكيم .

— إن ذلك لحزن جداً . ولقد قالت ذلك وهي تشعر بالراحة نيابة عن بارفاقي إذا هو تركها ومات .

وقرّرت ألا تبقيها في بادالبور ، فريسة بين أيدي أسرة زوجها ، ومن حولهم . وستخرجها كما تخرج سينا ، من هذا الكابوس . وستجد الوسيلة لذلك . ففي الرابعة عشرة من العمر ، لا يمكن للحياة أن تتوقف .

أما بقية الليلة ، فقد قضتها سلمى في توزيع الهدايا المجمّعة في حقائب كبيرة حملتها معها من لوكنوف . وكان ذلك في البداية ، مجالاً لفوضى كادت أن تصل إلى حد النهب ، إلى أن وصل الخدم وأكثرها من الصراخ ، وضرب العصي ، حتى استقام لهم أمر هؤلاء النسوة ، وضبطوا الموقف ، وأفهموا النساء والأطفال أن هنالك من الهدايا ما يكفي الجميع . وأخيراً ذهبت كل امرأة إلى بيتها ، واضعة هديتها على قلبها ، وتركن سلمى مرهقة ، متعبة ، ولكن بعد أن نسمنت الانسجام مع نفسها .

وكان الليل قد أقبل ، عندما سمعت صوت حصاة أصابت ستار البامبو في غرفتها . ولم تنتبه في البداية لهذا الأمر . ثم تكرر الصوت ، فخرجت سلمى إلى الشرفة .

— راني صاحبة ؟

واندهشت سلمى ، وانحنت تبحث ، في ظلام الحديقة ، عن الشخص الذي يكلمها .

— راني صاحبة ، أنا بارفاتي .

ورأت سلمى ملتصقة بالعمود ، تماماً تحت نافذتها ، صورة الفتاة التي تولت هي حمايتها .

— بارفاتي . ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة . إن هذا أمر غير سليم . فقد كان في وسع الحرس أن يرموك بنارهم .

— ولكن لا . راني صاحبة ، إذ ليس على إنسان أن يعرف أي جئت . وكنت أريد أن أراك .

لا تخافي من شيء ، يا بارفاتي . وأعدك بأنه إذا جرى شيء ، ومات زوجك ، فسأتكفل بك .

— ولكن لا ، يا راني صاحبة ، إنهم يريدون ... (ذلك أن وصول أحد الحرس جعل بارفاتي تهرب) .

ولكن سلمى لم تعرف ماذا تعني هذه « إلانهم يريدون » .

وفي هذا الصباح عندما أعادت التفكير في ذلك الحديث ، لم تستطع سلمى أن تمنع نفسها من الشعور بشيء من القلق . فقد كانت بارفاتي مرعوبة . ولم تكن طمأنينة الراني لتجعلها تشعر بالأمن . ومع ذلك فإن سلمى تتذكر امرأة شابة ، متوازنة ، عاقلة . وقد دهشت من أنها وجدت « انفعالية » بهذه الدرجة . ويجب أن تسأل سينا إن كانت تعرف شيئاً .

وكانت الحرارة شديدة بعد الظهر . ولقد حلا لسلمى أن تقضي هذا الوقت مع الجدة ، جدة أمير . ولكن الراني سعيدة منذ آخر زيارة ، ظهرت وكأنها ضعفت كثيراً . فلم تعد تتبع ما يجري في الدولة .

وقالت الجدة ، مبتسمة :

— على أمير الآن أن يحل محلي ، وكذلك عليك أنت ، يا طفلي ، وكانت عيناها الزرقاوان تلتمع لمعة ناعمة ، ذلك أن جمالها الآن قد أصبح ذلك الجمال الأبيض ، والأملس الذي تتميز به

العجائز اللواتي يعرفن أن النهاية غدت قريبة، فينتظرنها بهدوء. وكانت سلمى جالسة على آخر السرير تتأمل الجدة بحنان. وكانت هنالك هالة من الرصانة تنساح من الرائي، وفي مثل هذا الإشعاع، تَمُحي الأسئلة والمشاكل، كنفايات لعالم يبدو فجأة تافهاً، غير واقعي.

وستبقى جالسة معها حتى الغسق، تنشق رائحة الغليسين الخفيفة، فلا تنصرف إلا إذا رأت أن العجوز قد نامت. فتتأخر بضع لحظات، لتغمر نفسها بهذا الصمت الذي يحدثها أكثر من كل الحكايات.

ولقد احمرت الأرض الريفية بشعاعات الشمس الأخيرة. وأمام المسجد، ينادي المؤذن للصلاة، ومن الطرق القريبة، كانت بعض الأشباح تسرع لتسبّح بمجد الله، شكراً له على اليوم الذي انقضى.

وكانت سلمى في الطرف المقابل جالسة بجانب أمير، على أعلى شرفة في القصر، مغمورة بالنداوة والسلام. وهذه هي أول مرة يجلسان معاً، وليس معهما أحد، منذ الأمسية المعهودة أمسية الحاكم. ولم يتعرّض أي منهما للذكر الأسابيع الماضية. ولن يتعرضا لها أبداً. فالشرح، والاعتذار، والعفو، كل ذلك هذر لا يحتمل، غير لائق، بأي منهما. إنهما جالسان في هذه الليلة الصيفية الجميلة؛ وهما يتدوقان، بصمت، هذا الهدوء الذي عادا فوجدها.

وبعيداً عنهما، وإلى جانب القرية، يلمح احمرار نار يعلوها دخان كثيف، كان الريح يحمل رائحتها الحامزة (الحريفة)، بنفثات متتابعة.

— أمير، أظن أنهم يحرقون الأعشاب السيئة، أم أن هناك حريقاً يندلع؟

— يا عزيزتي، لا هذا، ولا ذاك. إن هذه نار حرق الموق. فهناك إنسان مات. أولاً تسمعين التراتيل.

وحقاً فإن بعض أجزاء هذه التراتيل تصل إليها. أفيمكن الميت ذلك العجوز، زوج بارفاتي؟ وهل أصبحت هذه المسكنة حرة أخيراً.

وفجأة، تسمع أصواتاً في الحديقة. إنها أصوات إنسان يمر بين الأوراق، أصوات واخزة تصدر عن امرأة. وينهض أمير مباشرة، ويهتف بالحرس.

وما هي إلا ثوان حتى ظهر أربعة أجسام ضخمة تسوق أمامها الفريسة . وهي شكل صغير أبيض ، يتخبط وهو يشتمهم .

وتسأل سلمى ، عندما ترى الساري المحرق ، والوجه تجري فيه الدموع .

— سيتا ، ماذا يجري ؟

— بارفاتي ، راني صاحبة . بارفاتي . وتقول ذلك وهي تحرق . وكأنما خرجت عيناها من رأسها .

— ماذا بها بارفاتي ؟ ماذا هنالك ؟

فأخذتها سلمى من يدها ، وألحّت عليها بالأسئلة . ولكن الصبية ترتجف بقوة رجفاناً يجعلها عاجزة عن الكلام . فيجلسونها ، وتأتي خادمة فتغسل لها صدغيها بالماء البارد ، في حين أن سلمى ظلت تمسك بيدها بنعومة .

— هديّ نفسك ياسيتا ، يجب أن تقولي لي أين هي بارفاتي .

وتئن أنيناً ، وتخز عندئذ أكثر مما تسمع :

— هناك ، على المحرقة ... مع زوجها ... تحترق ...

فيرتعد أمير .

— إنها السوتيه Suttee ! هؤلاء البرابرة . ويجرّون أيضاً ! أيها الحرس ، إلحقوا بهم مباشرة . وحاولوا إنقاذها !

ووصل الحرس متأخرين : ولم يجدوا على مكان الحرق إلا شكلين أسودين يشرفان على التفحم ، وسط جمهور يصلي .

وفي الغد ، عند الفجر ، نهضت سلمى ، والوجه متورم من شدة البكاء .

— إنهم أرغموها . أنا واثقة من ذلك . ولم تنتحر قط . إنها كانت شديدة الحب للحياة . وكان موت هذا الرجل ، المتذمر دوماً ، خلاصاً لها .

— ربما ، ولكن كيف نبرهن ؟

ولما كان أمير سلطاناً مسلماً، فإنه يأبى التدخل في شؤون رعاياه الهنود .

— لقد جاءت إليّ بارفاتي لتطلب مساعدتي، ولم أفهم ... إذ لم أُنحِّل مطلقاً أن شيئاً كهذا يحدث ...

ولم تستطع سلمى أن تنام لحظة واحدة في الليل . وكان شبح بارفاتي يحوم حولها باستمرار، وهي تحاول أن تهرب من القتلة الذين كانوا يدفعون بها، رغمًا عنها، إلى المحرقة .

— أمير، يجب أن ننتقم لها، ونجعل منها مثلاً، ونمنع ارتكاب مثل هذه الحماقة في المستقبل . فادع إليك الأسرتين . واسألهما عما حصل . فلا بد أن يعترف أحدهم أخيراً . أتوسل إليك أن تفعل هذا !

— أخشى أنك تنشعنين لنفسك أوهاماً . ولكنني من أجلك سأحاول .

وها هم الآن يجتمعون أمام السيد . وجاء كل منهم فأنحنى انحناء مسّت الأرض أمام قدميه . ثم وقفوا، وعيونهم في الأرض — ذلك أن النظر إلى الحاكم مباشرة، يعني اللا احترام — وانتظروا .

وكانت الراني جالسة إلى جانب الراجاه . وكان حضورها هذا — كمخالفة استثنائية للقواعد — علامة مقلقة على أن هذه المجابهة ليست روتيناً عادياً .

ويكل انتباه، كانت سلمى تنظر إلى وجوه أعضاء الأسرة . وكانت بارفاتي قد حدّثتها عنهم، وأكثر، بحيث أنها ليست بحاجة إلى أسمائهم لكي تتعرف عليهم . فها هي الحماة . وهي عمجوز هزيلة تماماً، وأكثر تجاعيد، على وجهها، من امرأة بلغت المئة من العمر . والفم الذي فقد أسنانه، محمّر من مضغ التنبول . وها هما الأخوان، الثقيلان الجثة، المتضايقان من أيديهما الضخمة . ولم يأتيا معهما بالزوجات . وماذا عساهما أن تقولاً أفضل مما يقوله الزوجان أحسن منهما؟ وهناك أخيراً ذلك الصبي الوحيد لأبيه ذي الوجه المشرق، والبادي البلاهة، والشاب السفیه الذي كانت بارفاتي تشكو منه، ذلك أنه حاول عدة مرات، أثناء غياب أبيه، أن يغتصبها .

وأمام هذه الأسرة، وقفت أسرة المرأة الشابة . وهي مجموعة صغيرة كثيفة من الأقرباء، والإخوة، والأخوات . ولكن لِمَ يبدون وكأنهم مرعوبون؟ مادمنّا نريد الانتقام لهم؟

وكان الراجاه قد طلب أن يأتي الجميع : فهم تحت حمايته . وفي وسعهم دون خوف ، أن يتكلموا .

وخلال ساعة ، كان أمير يحقق معهم . أما العجوز ، فكانت تقسم ، وهي تبكي ، أنها فعلت كل شيء لإقناع كنتها بالآ تقدم على هذا الفعل . ولكن هذه كانت من اليأس ، بعد موت زوجها الذي كانت تعبه ، بحيث انتهزت أول فرصة من عدم الانتباه ، لتلقي بنفسها في المحرقة . وقد جرب الرجال إنقاذها ، منها ، وهم يغامرون بحياتهم . ولكن عبثاً . فبارفاتي التهبت مباشرة كشعلة . وعندما تذكرت العجوز هذا المنظر ، بدأت تئن وتغول ، وتنتزع الشعر من رأسها ، مقسمة بالآلة على ... وظلت كذلك حتى أمرها أمير ، بجفاف ، أن تهدأ .

ولقد أعجبت سلمى بهذه المهزلة : وبطبيعة الحال فإنها لا تتوقع من الجرمين أن يهتموا أنفسهم . وإذن فالحقيقة يجب أن تأتي من طرف الأسرة الضحية . ولكنها دهشت من أن هذه تلتزم الصمت ، بعناد . ولما أُلحَّ عليها بالأسئلة ، انتهت إلى القول : إن بارفاتي حدّثتهم عن مشروعها هذا . وصادق الآخرون على ذلك ، وهم يكون .

إنهم يكذبون . وسلمى مقتنعة بذلك . والأسوأ أنهم يكذبون ، ويعرفون أنها تعرف . فلقد لاحظت نظرات التواطؤ المتبادلة بين إخوة الميت : وهم يسخرون منها . ويسخرون من سيدهم . وانحنت ، باكتئاب ، على أمير .

— كيف نرغمهم على الكلام ؟

— إنهم لن يتكلموا إلا تحت السياط . وهذا ما أكرهه . ويقول زملائي إن الإنسانية وممارسة السلطة لا يمكن أن توجدا معاً . ولطالما رفضت هذه الأفكار المبسطة ؛ ولكنني بدأت أتساءل عما إذا كانوا ليسوا على حق ... ذلك أنني عندما رفضت استخدام القوة لإرغام هؤلاء على الكلام ، والاعتراف ، فإنني فقدت هييتي .

وانتهت القضية بالإعلان عن عدم وجود قضية . وبعد الكثير من التحيات ، والإعلان عن الولاء ، عاد الفلاحون إلى بيوتهم .

وظفح الكيل بأمر ، فبدأ يمشي جيئةً وذهاباً ، وهو يلعب بعصاه .

— كنت أعرف أن هذا الأمر سينتهي بهذه الصورة . ولكنك لم تكوني لتصدقيني . ولهذا فقد قبلت النزول عند إرادتك . وكنت على خطأ .

— ولكن لِمَ كذبت أسرتها هي ؟

— ولكن ماذا كان يجدي اعترافها . لقد ماتت ابنتهم ، فهل في وسع الكلمات أن تردّها إليهم حية ؟ ومنذ الآن تصبح ذكراها مقدّسة ، وستظهر بطولئها أقرّاءها على سبعة أجيال صاعدة ، وسبعة أجيال هابطة . فإذا هم أبوا الاعتراف بأنها ضحّت بنفسها ، فهذا يعني خسارة هذا المجد ، والقبول ضمناً بأن الفتاة كانت زوجة سيئة ، مما يُسوّد سمعة الأسرة ، ويحول دون زواج أخواتها الأصغر منها . وكانت الحكمة تقضي بعدم الكلام . ولو أنهم تكلموا ، لثم الانتقام منهم بمجرد أن أدير ظهري . ففي قرانا ، لا تنتهك قوانين الجماعة ، بلا عقاب ، حتى ولو كان الإنسان صاحب حق .

— وإذن فأنت لن تستطيع منع زوجات أخريات من أن يصرن إلى ما صارت إليه بارفاتي ؟
والتفت أمير إليها غاضباً وقال :

— إن هذه أعراف هندية . فمن أنا حتى أغيّرها ؟ وهل يجب أن أعذب فلاحيّ لإرغامهم على التخلي عن تقاليد مألوفة منذ آلاف السنين . وأفرض عليهم أخلاقاً أكثر « حداثة » ؟ وباسم من ؟

— عفواً ، أمير ... إن هذه هي البداهة ...

— في هذه البلاد مامن هو بديهي . أوتظنين أنني لم أفكر بهذا ؟ وفي البداية ، كنت أفكر بأنه يكفي أن يكون الإنسان شريفاً ، وأن لكل مشكلة حلاً عادلاً ! وهذا خطأ . وإن الأمور لتصبح سهلة جداً لو أن الاختيار يقوم بين أمرين ، أحدهما خير ، والآخر شر !

وأخذ رأسه بين يديه وقال :

— من يدري أين هو الخير ، وأين هو الشر ؟ إن الذين يعرفون ذلك هم إما الأغبياء ... وإما الله ...

« أما نحن ، الأمراء والملوك ، المكلفين بتصريف شؤون الشعب ، فهل يمكننا أن نحصل على هذه المعرفة .. إننا لسنا إلا مجموعة دجالين : والحقيقة أننا لا نعرف شيئاً » .

وخلال الأيام التي تلت السوئيّة وتلك المحاكمة المزعومة ، كان أمير يعيش في كآبة غاضبة .
ولقد زاد في كآبته ، أنه أمر بأن يطرد من القرية ، مجموعة من أصحاب الشغب المنتسبين إلى
الماهاصباح ، وهذه منظمة متطرفة تدعو إلى رد المسلمين إلى الهندوسية .

وشغل بال كبار رجال القرية . وجاؤوا لمقابلة الراجاه ، الذي غضب غضباً شديداً .
— أهؤلاء مناضلون سياسيون ؟ إنهم مجرمون ، فقط ، يريدون أن يزيدوا الحقد بين الطوائف .
وأنا لا أسمع بحرب بين الأديان عندي !

وكان قد أمر الحرس ، بتوقيف هؤلاء الرجال ، وتكبيّلهم بالقيود ، وإبصالحهم إلى حدود الدولة .
وما من مرة رآته سلمى في مثل هذه الحالة من الغضب .

— إن حزب المؤتمر الذي يعلن عن علمانيته ، يدع هؤلاء يتصرفون على هواهم (أو على
هواه !!) . إنه يلعب بالنار ، وغاندي نفسه — من دون أن يشعر ، وعندما يدعو إلى العودة إلى القيم
الهندوسية الدينية كسلاح أعظم ، ضد الاحتلال البريطاني — يشجعهم . وهو يهمل ، في حماسه ،
ورغبته في إعادة الهنود إلى حكم الراما ، الذي يعتبر هو وحكم الفضيلة شيئاً واحداً ، ويتجاهل
قلق ٨٥ مليون مسلم ، يشعرون أكثر فأكثر أنهم مهدّدون .

ويتنهد ، ويقول :

— إن هذا مجرد تخريب . ففي العشرينيات كانت أغلبية المسلمين ، تعجب بالمهاثما وتتبعه .
والآن وصل بهم الأمر إلى اعتباره ، مكاراً مخادعاً ، ينادي بالوحدة ، ولكنه يبيء في الواقع لبسط
سيطرة الهندوسيين الأكثرية ، على الأقلية المسلمة .

وارتعدت سلمى ، مستنكرة .

— إن هذا مضحك . فالمهاثما قديس ، وكل الذين عرفوه من قرب ...

— هدئي نفسك يا عزيزتي . ليست قضيتنا قضية حكم أخلاقي . فقليل الأهمية أن نعرف
ما إذا كان المهاثما غاندي يغش نفسه ، أو يخدع الآخرين . ذلك أن النتائج ، على كل حال ، ستكون
مخيمة . والمشكلة هي أنه يقيم عمله على « الكرم » و « التسامح » والحب الشامل . ولكن قولي لي أين
ترين الحب والتسامح في هذا البلد ؟ فلكل يوم حصيلته من الشغب والاضطرابات ، واغتصاب

النساء، والقتل. والمسلمون يخافون من الهنود، ويحتقرونهم؛ أما الهنود فإنهم يحملون بالانتقام لـ قرون من السيطرة الإسلامية، وبالقضاء على أسيادهم القدماء. وحتى الأقلية المسيحية، تجدينها قلقة. وهي تشكو من إرغام المسيحيين على العودة إلى دين الهندوس. وقد قرّرت، على مثال المسلمين، أن تطالب بدائرة انتخابية على حدة، حتى لا تتبدّد أصواتها في كلية الجماهير.

«ولكن نهرو وغاندي يتابعان العمل على أساس رفض كل شيء، مدّعين أنه لا وجود لمشكلة طائفية في الهند، أف يكون ذلك عن عماية، أو عن نية سيئة؟ وعندما يكون هنالك بدلاً من مئات القتلى، مئات ألوف، فماذا يهم أن يكون ذلك عن حسن نية أو سوء نية».

ولكن سلمى لا تريد أن تقتنع. وتقول:

— لماذا تلوم عنادهم؟ فجنّاح مثلهم عناداً. بل إن الرابطة بدأت تقول، إنها إذا لم تحصل على ضمانات كافية، فستطالب بدولة مستقلة للمسلمين. أوليس في هذا شيء من المغالاة؟

وبسخرية، ردّ أمير على هذا الاعتراض.

— إنه يجب أن نطلب الكثير، لنحصل على القليل. ولكن ما من لحظة فكر فيها جناح، جدياً، بتقسيم الهند. ولقد قال ذلك حديثاً لبعض الأصدقاء. ومع ذلك فإنه يلوّح بهذا الشبح، حتى يقدّم المؤتمر ضمانات كافية للمسلمين. الذين لن يجدوا، في دولة مستقلة لهم، أن هناك مواطنين من الدرجة الأولى، وآخرين من الدرجة الثانية. إن هذا هو الحرب العادلة.

وامتدت المناقشة مدة طويلة في الليل. وعندما يتكلم أمير عن المهاتما، تدرك هي أنه يتحدث عن محبٍ خاب أمله. وليس هو أول واحد تشعر بأن لديه مثل هذه المראה. وتدهش لذلك: ترى هل اتبعوا غاندي لأنهم يعتقدون أن الدين وسيلة لبلوغ مآربهم، وتحقيق غايات سياسية؟ أو لم يفهموا أن المهاتما يهدف إلى ما هو أعلى، وما هو أساسي؟.

— ١٦ —

إنها البداية الأولى للصباح. وسلمى جالسة على الشرفة المستديرة التي تستطيل بها غرفتها، وحدها. ولقد سافر أمير أول البارحة ليقوم بجولة في القرى الأكثر بعداً عن مركز الحكم. ولقد اتخذ هذا القرار، على دهشة من الوجهاء، وعلى الرغم من امتناع مستشاريه من الإدلاء برأيهم حول هذا الموضوع: فهذا غير لائق براجاه! إذ لن يكون محترماً بعد الآن! فما من أحد رأى سيده ينتقل من مكانه ليرى رعاياه. والصحيح أن على الفلاحين، إن كان لديهم طلب ما، أن يأتوا هم إلى القصر: ففي كل صباح — وهم يعرفون ذلك — تكون الأبواب مفتوحة أمامهم.

غير أن الفقراء جداً، أولئك الذين هم بحاجة إلى أكبر العون، كيف تكون معهم الروبيات التي لا بد منها للسفر؟ وكيف يتسع لهم الوقت عندما يكون عليهم أن يعملوا النهار كله، في أرض الجار الذي استدانوا منه بعض المال. وأصلاً، فكيف يكون المرابي، وشيخ القرية، من الغباء بحيث يتركونهم يغادرون القرية للشكوى عليهما.

وهكذا فإن الراجاه، في مقابلاته العامة، يرى الشخصيات بشكل خاص: كمعلمي المدارس، والتجار، وممثلي الباناشايات — أعضاء مجالس القرى — وقلماً يرى فلاحاً بسيطاً، ولا يرى أبداً عاملاً زراعياً. ويقول الوجهاء: «إن هذا النوع من الناس لا يحبون التنقل والسفر، وهم يكلفوننا بعرض مشاكلهم عليكم». وهذا صحيح... ولكن الراجاه قرّر أخيراً أن يقوم بهذه الرحلة. وسلمى، التي ما تزال نصف نائمة تتذكر صورة سفره على الحصان مع أولى شعاعات

الفجر . وكانت السماء قد أمطرت ، وفاحت رائحة الأرض العطرة ، كما هي الحال اليوم . وكان أمير فخوراً بنفسه ، ومسروراً منها لأنها هي التي دفعته إلى القيام بهذه الرحلة . وكان على أن يغيب أسبوعاً ، وحملها على أن تعده بعدم ترك القصر .

— إني أختي أن تحاول جماعة الماهاصباح (أو الماهاساباه) الانتقام . فضاعفت عدد الحرس . ولكنني أرجوك ، ألا تتجاوزي حدود الحديقة .

وكانت قد وعدته ، وسافر وهو مطمئن ، بعد أن أعطى توجيهاته للديوان ، أي للرأجيف ميترا العجوز .

وكان الجو لطيفاً بشكل رائع . وسلمى على كرسياها الطويل تتمطى بمتعة . أما في الشرق ، فإن السماء تتخذ ببطء لونها البنفسجي . وهذه هي اللحظة التي تؤثرها ، أي عندما تعود البراري فتولد من الليل ، مطهرة .

ومن بعيد ، يدوي صوت المؤذن . وفي الجانب الآخر من القرية تجيبه أجراس المعبد المكرس لدرغاه Durgah ، إلهة الخصوبة ، وتصعد أول سحب الدخان من الأكواخ . وتقوم النساء بتحضير الشاي المسكر والشاباتيس لرجالهن الذين يذهبون إلى الحقول ؛ ويضفن إليه ، إذا كان المحصول جيداً ، قطعة بصل ، وفليفلتين حمراوين ، من النوع الذي يحرق البلعوم ، ويصون من الأمراض .

وتكّد إليها إحدى الخادومات فنجاناً شفافاً مملوءً بشراب مذهب . وكانت سلمى ترشفه ، جرعات صغيرة ، وتتذوق طعمه ، وتفكر بأن العمل الوحيد الذي يعطي الحق للإنكليز بأن يُسمّوا باسم الإنسانية ، هو أنهم سرقوا من الصينيين الشاي ، ذلك النبات السحري الذي يسمونه تشاي Tchai .

وسلمى التي لا تشتهي أن تتحرك . وهي تنفس بنعومة ، منتبهة إلى عدم نسيان الصمت . وفجأة نذت صرخة جعلتها ترتعش ، وتبعثها أصوات تعجب حلقية . وترى أمام المسجد رجالاً مجتمعين وهم يقومون بحركات ، يرفعون معها أيديهم إلى السماء . ومن الجهة الأخرى من القرية ، وكنوع من الصدى ، تطرق مسامعها أصوات أخرى ، حادة ، عصبية ، وصنوج المعبد ، تستمر في الدوي .

— ترى ماذا يجري ؟ هل مات أحد ؟ هل وقعت جريمة ؟ لابدّ من إرسال أحدهم على جناح السرعة لتقصّي الأخبار .

وصعدت سلمى إلى الشرفة العليا، متبوعة برئيس الديوان الذي أبقظوه. فمن هناك تستطيع أن ترى القرية بكاملها. والخبر — وهو مأساة محيفة، وهذا مؤكد — قد انتشر. وفي بضعة دقائق، كانت المواقد النائمة قد اتخذت هيئة المعسكرات المقتطعة. أما في أفنية البيوت والساحات فإن الرجال يصحبون، على حين أن النساء المعلقات بأذرعهم، كأمن يتوسلن إليهم، وأن الأطفال الذين أخافتهم هذه الضجة اللامألوفة، يتعلقون بتياب أمهاتهم.

وعاد الحرس المرسلون يركضون، وعيونهم كأنها خرجت من تجاوبها، ليقولوا:

— إن المسجد قد اعتدي عليه: فقد وجدوا فيه خنزيرة وأربعة خنازير. والهندوس هم الذين قاموا بهذه الفعلة، مثارين على الأرجح، من قبل جماعة الماهاصباح. والرجال يتسلحون، وقد طار صوابهم من الغضب، وهم يريدون الانتقام.

وما كاد هؤلاء يسكتون، حتى وصل حرس آخرون، وهم يلهثون:

— إن الهنود على أهبة الحرب. فلقد وجدوا بقرة مذبوحة في المعبد وأقسموا أنهم سيقتلون المسلمين جميعاً!

وفعلاً، فإن سلمى تستطيع أن تلاحظ، في كل طريق، جماعات تتألف، وتنضم في كل دقيقة. ويتجمع الرجال حول المعبد وحول المسجد: سواء أكانوا شيوخاً أم شباباً، أي كل من هو قادر على استخدام عصا، أو مذراة.

— يا صاحب الديوان، يجب أن نفعل شيئاً ما، فوراً، وإلا فإنهم سيدبحون بعضهم بعضاً!

والتفت سلمى إلى الوزير الأول. ذلك أنه متى غاب الراجاه، فإنه هو الذي يصح مسؤولاً عن النظام. ويجب أن يجد وسيلة لإيقاف هذا الجنون!

ويحني الرجل العجوز رأسه.

— ماذا يمكن أن نفعل، هوزور؟ إنهم خمس مئة على الأقل، وليس لدينا هنا إلا خمسون حارساً، ينبغي أن يبقوا في القصر للمحافظة عليه في حالة قيام خطر.

وفوجئت سلمى بهذا الرد، واستنكرته، وقالت:

— القصر؟ من الذي يهدّد القصر. هيا أرسلهم إلى القرية. فليس لدينا دقيقة واحدة نضيعها.

وينظر صاحب الديوان إلى نهاية بابوحيه المذهّبين، ويقول:

— إن حراسنا قلائل، هوزور، فإن أرسلناهم دفعنا بهم إلى موت محقق. والراجاه وحده هو الذي يستطيع اتخاذ مثل هذا القرار.

— أو موت مئات من الفلاحين، والنساء، والأطفال يعتبر عندك كلاً شيء؟ وإذن فستقف لتراهم يقتل بعضهم بعضاً؟ فكر، يا صاحب الديوان. فأنا لا أحب أن أكون مكانك، عندما يأتي الراجاه، ويعلم بما حصل... وأمام هذا التهديد، تعيّر وجه الوزير وتغيّرت ألوانه، وتمتم قائلاً:

— سأعلم قوى الشرطة في لاريمبور. وليسوا ببعيدين عنا بأكثر من خمسة وعشرين ميلاً،
...

— أولاً تحسب الوقت اللازم لوصولهم؟ وإذن فسيكون وصولهم متأخراً جداً، وفات أوانه.
إسمع!

وعلا الصخب، وصار يشتد أكثر فأكثر. وكانت تتجمع من طرفي القرية جماعات كثيفة، وبدأت تمضي. وخلال بضعة دقائق، سيكونون بعضهم أمام بعض، وجهاً لوجه.

ويتمتم الوزير ثانية.

— إن الحل الوحيد...

وهتفت سلمى:

— حسناً، سأمضي أنا، وسأحاول تهدّئتهم. إنهم يحبونني. وربما أصغوا إليّ.

— أرجو ألا تفكري بهذا، هوزور. فهؤلاء الناس فقدوا عقولهم، وفي وسعهم أن يقتلوك!

— إني أصحبك، يا صاحبة السمّ.

وانبرى واحد من المجموعة، طويل القامة، يوحى شارباه بالرجولة. إنه سعيد أحمد، العقيد قائد الحرس.

— شكراً يا عقيد . خذ أيضاً أحد رجالك ، مع الطبل (أو الطنبور) .

— تحت أمرك ، يا مولائي .

ويردد لحظة ، ثم يقول :

— كنت أريد أن أقول لك أنني تصرفت تلقائياً ، وأرسلت رسلاً إلى الراجاه صاحب .
ويجب أن يصل إلى هنا ، خلال بضع ساعات ، مع قوى إضافية .

وضحكت العينان الزمرديتان .

— سأذكرك يا حضرة العقيد ، وأذكرك أنت يا صاحب الديوان .

وكانت الأحصنة الثلاثة تُعَدُّ السير في التراب . «أسرع ، باغيرا Bagherra^(١)» ، أسرع
أكثر ! » وكان المهماز يَحْمَشُ الجوانب القائمة للحصان الأصيل ، فيقف على قائمته الأخيرتين ، ذلك
أن سيده لم تعود على مثل هذا العنف .

واجتازوا المسجد دون أن يروا في طريقهم كائناً حياً . أما في الطرقات ، التي تعج عادةً
بالأطفال ، فإنه ليس فيها إلا كلاب صفراء تنتظر ، حتى ليظن الإنسان أنه في قرية أخلاها
أصحابها ، لولا أن الصخب يتعالى هناك .

— يا صاحبة السمّ ، يجب أن نمشي في الحقول ، وإلا فإننا سنحاط بالجمهور ، ولن يدعونا
نمرّ .

ويصلون أخيراً ، من خلال المستنقعات إلى الشارع الرئيسي ، وهو شريط طويل من التراب
الممهّد يصل الطرف المسلم ، بالطرف الهندوسي ، من بادال ر .

ويصلون في الوقت المناسب .

وكانت أمامهم جماعتان تتجاهاً ، مسلحتان بالمعاول والمناجل ، والهرارات ، والجراب . إنهما
جيشان يلبسان الخرق البالية ، والأفراد حفاة الأرجل ، خشنو الأيدي ، يظهر عليهم البؤس ،

(١) اسم الحصان .

والبغضاء، والاحتقار. لكنهم ارتقوا إلى مرتبة الجنود العاملين في سبيل الله، والمدافعين عن الإيمان، والقضاة، فيتقدمون للقيام بهذا الواجب، وهم الذين حنوا ظهورهم طول عمرهم، وتمرغوا بالوحل، وكانوا كآنية تمتلئ بالعرق.

وتراهم على خطوات قليلة بعضهم من بعض. وعما قريب ستتطاير الحجارة: بلي! وستكسر رؤوس: بلي، وستدخل الحِراب في الصدور: بلي! وسيموتون! ولكن ماذا هم؟ وفي هذه اللحظة، لم يعودوا مساكين، بؤساء، متعبين، مرهقين، بل هم أمراء.

ولكن ما هو هذا الطبل الذي يدوي، ويفسد عيد الانتقام؟ إنه شيطان أسود قفز في المكان الذي ما يزال يفصلهم، وعليه شكل أبيض يُخيّل عليه. وفاجأهم الدهول، وعرفوا أنها رانيتهم. وتمر بعض الثواني... وهي تعلم أنه ليس لديها إلا بعض الثواني لتسليمهم عن عزمهم، مستفيدة من ذهولهم، والصمت الذي ران عليهم، ولفهم جميعاً.

وصرحت سلمى:

— قفوا. لقد خدعوكم. فرجال السياسة يحاولون أن يوقعوا بينكم، ودفعوا مجرمين ليدنسوا أماكنكم المقدسة. فلا تقفوا في الفخ! ثم قالت بصوت حاولت فيه أن تدخل كل ما لديها من قوة إقناع:

— لقد عثمت دوماً جنباً إلى جنب، في انسجام ومودة، على ما كان عليه آباؤكم وأجدادكم قبلكم. فماذا يحدث لنسائكم وأطفالكم، وهم وحدهم على قيد الحياة، إن متم أنتم، وتركتموهم في البؤس والشقاء، وكيف سيكون حال أولادكم؟

وتردد القوم ونظروا إلى هذا الشخص المنتصب فوق الحيوان القائم. فلا يفهمون. فعمّ تتكلم؟ ومن هم السياسيون؟ وأي مجرمين؟ أما أولادهم، فهذا شأنهم.

— إننا من أجلهم نقاتل، لكي يستطيعوا أن يعيشوا بكرامة، وبلا خوف! ولكن من الذي تكلم؟ أهندي هو، أم مسلم؟ لكن الطرفين يصادقان. وبصورة تدريجية، قام الحذر مقام التردد. وتحاول سلمى أن تعود إلى الكلام. ولكن السحر زال. ولم يعد حولها إلا وجوه عدائية، ومهذّدة تقريباً.

— يا أصدقائي.

وتردّدت هتافات غطّت على صوتها، وفجأة نددت صرخة تقول:

— اخرجي يا أجنبية. ودعينا نحس نسوي قضايانا.

— أجنبية؟

وشعرت سلمى بضربة تصيب قلبها، وبانبهار. وكان أمامها رجل كهل أمسك بزمام حصانها.

— اذهبي من هنا يا صاحبة السمّ. فلن تستطيعي أن تفعلي شيئاً.

— ربما أسأؤوا إليك.

أسأؤوا إليّ... إنها الآن تود أن تضحك، ولكن عينها امتلأت بالدموع.

أما فيما بعد، فإنها لم تعد تتذكر، كيف تخلصت من الجمهور، وعادت إلى القصر. ولكنها تتذكر أن أحدهم مزق الطبل، وأن هذا أخاف العقيد.

ومنذ ساعات، والمعركة قائمة. وسلمى، الحزينة في غرفتها، لا تدرك منها إلا صخباً بعيداً، مقطعاً أحياناً بصرخة، بعواء كلب، ثم تأتي لحظات صمت، مخيفة، غير محتملة.

وظنت في البداية أن هناك هدنة، وأمّلت أن يكون الناس قد أفاقوا من جنونهم، وأنهم بعد أن تعبوا من إراقة الدماء، قرروا التفاوض. أما الآن، فإنها ترى المعارك قد حمي وطيسها، بعنف أكبر وأكبر. وإذن فعليها بعد الآن أن تخاف من لحظات الصمت. وتحذر فيها توسلات النساء وحشرجات الجرحى، والموتى الذين يحملهم الآخرون باكين، والتجمعات البطيئة، العنيدة، لأناس سليمين، يستعدون لمعركة أخرى، أعنف من الأولى. وعليها هذه المرة، أن تقضي على الخصوم.

ولم تعد سلمى تشعر بمرور الزمن، وتوقفت عن عد الدقائق والأميال التي يجب على أمير أن يقطعها رماً. ولم تعد تنتظره مطلقاً. فقد فات الوقت. وكذلك فإنها لم تعد تقوم بأي حساب محزن للأمل، ولا للإحصاء المهووس، لعدد الضحايا، في كل ساعة تمر، ولعدد الأحياء الذين...

فكل شيء قد تهدّم. وهي تعرف ذلك. تهدمت القرية، قريتها وتهدّمت الهند، هندها. ولم تعد إلا كومة من الحجارة. ويساورها البرد. هذه الأجنبية.

ودوت بعض طلقات الرصاص. ترى ماذا يجري أيضاً؟ ودخل صاحب الديوان، متألقاً.

— إن السيد قد وصل، هوزور.

— أين هو؟ ومن يطلق الرصاص؟

وينتصب الرجل العجوز، ويمنحها بسمه عريضة.

— إنه الراجاه صاحب! ولقد مضى إلى القرية، مع مئة من الحرس. ولن يقضوا وقتاً طويلاً!

ونهضت سلمى، بقفزة واحدة، إنها تحتنق.

— كيف؟ ولكن لماذا؟ لِمَ يطلق الرصاص؟ كان يكفي أن يكلمهم. ولربما أصغوا إليه.

— لقد حاول، هوزور. ولكن الفلاحين كانوا كالجنانين. فهو يكلمهم، وهم لا يسمعون شيئاً. وإذن فلا بد من قتل بعضهم. إن هذه هي الطريقة الوحيدة لحملهم على الإطاعة.

وتالت الطلقات، جافة، محتومة. وسلمى متكورة في سريرها، تسد أذنيها. فكل طلقة تدخل إلى جسمها، وتثقبه. أما أمير الذي كانت تنتظره لإنقاذهم، فإنه يكمل المذبحة. فأية فظاعة. ولقد كان في وسعه أن يهدئهم، وهي مقتنعة بذلك، ولكنه اختار العنف، الأسهل، والأسرع. وأمير الذي كان ينقد زملاءه باستمرار، وعلى الرغم من خطاباته الإنسانية الجميلة، أصبح الآن مثلهم! وهي تكرهه. لقد خان هؤلاء الرجال الذين كان يقول إنه الأب، بالنسبة لهم. ولقد خان الثقة والطموح الذي كان لكليهما، إلى إخراج بادالبور من القرون الوسطى، وتكوين حياة جديدة لرعاياه.

ولن تستطيع أبداً مساعدته على ما يفعل.

وفي هذا الصباح، كانت القرية تدفن موتاهها، في صمت حزين. فالطرق خالية. ويرى الإنسان أحياناً خيلاً رمادياً يتسلل من بيت إلى آخر، ليسأل عن جريح، أو ليلقي على ميت ما، تحية الوداع.

ومن شرفتها، كانت سلمى، الساكنة، تتأمل هذا المكان الذي طالما أحبته، والذي تعرف كل كوح من أكواحه، والذي تعرف أنها لن تعود إليه أبداً.

وعليها أن تسافر هذا المساء. فلقد جاء رشيد خان من لوكنوف ليصحبها في سفرها. وكان وصوله دعماً غير متوقع، لها، كما أن بسمته الطيبة، كانت نوراً تتعلق به في هذا الثقب الأسود، الذي تشعر أنها تنزلق فيه.

ولم تر أمير من جديد. والبارحة حبست نفسها في غرفتها. لكن غضبها تبخّر الآن، فلم تعد تشعر إلا بتعب كبير، وطين جراح في الرأس يقول باستمرار: اتركي البلد، يا أجنبية.

ولم تعد تبكي. ذلك أنها حتى في بيروت، في دير راهبات بيزانسون، كانت الطالبات يستبعدنها لأنها كانت «التركية». ومنذ جاء المنفى، صارت تسمى في كل مكان... «بالأجنبية».

أما هنا، في بادالبور، فلم يكن الأمر شبيهاً بما كان من قبل. فلقد اعتقدت أنها ستجد بلداً لها، وكان الفلاحون إلى حد ما أسرتها، وظنت أن تبنيها قد تم.

وأحسّت بيد توضع على كتفها.

— لا تكوني حزينة، يا أميرة، لأنك ستري أن كل شيء قد عاد إلى نصابه.

وأجابت سلمى دون أن تلتفت.

— شكراً يارشيد بك. وعندما تكون أنت هنا، فإن كل شيء يبدو وكأنه يسير إلى الأفضل.

— انظري، لدينا زوار.

وفعلاً، فقد كان هناك بعض الكهول، يلبسون التنورة الناصعة البياض (أي الدوبتس) وكانوا يجتازون الحديقة، ويتجهون إلى القصر.

— إنهم هنود ومسلمون معاً! ويبدو لي أنهم وفد. فماذا عساهم أن يريدوا؟

وأخبر أمير بأمرهم، فخرج يستقبلهم على الدرع الخارجي. فأنخوا انخاء كبيرة له، وقبلوا التراب بين قدمي الراجاه، الذي أخذهم بين ذراعيه، لينهض بهم. وعندئذ تكلم الأكبر عمراً، باسم رملاته، الذين وافقوا على ذلك، بالتمتة وهز الرؤوس. وتكلم طويلاً. ولاحظت سلمى،

مندهشة، إن أمير يبدو متأثراً. فيشكرهم، برزانة، ويقدم لهم الشاي التي يشربونها في صمت.

وقالت سلمى، وهي تلتفت إلى رشيد.

— كأنهم يعقدون حلفاً جديداً.

— إن الأمر هكذا إلى حد ما.

وكان هو أيضاً يبدو مضطرباً، بل مضطرباً جداً.

— إنهم جاؤوا لشكر الراجاه على أنه أوقف الشغب، وعمل كما كانوا ينتظرون أن يعمل. وهم واثقون أن لهم سيداً قادراً على حمايتهم، وحماية الطائفتين، بعدل وإنصاف. وطلبوا منه الصفع عن شكهم فيه، وأنهم فكروا بأنه يحمل أفكاراً مفرطة في صفتها الإنكليزية. أما الآن فإنهم سعداء. فلدولة بادالبور رئيس يعرف كيف يهتم بأولادهم، وأحفادهم. وفي وسعهم الآن أن يموتوا بسلام.

— ماذا؟ أجاؤوا ليشكروا على أنه أمر حرسه بإطلاق النار عليهم؟

ونظر رشيد إليها، وكأنه يلومها، وقال:

— أيتها الأميرة! لا تكوني قاسية بهذه الصورة، وأنا أعلم كم كان صعباً عليه، أن يتخذ مثل هذا القرار. ولكنه أراد إيقاف المجزرة. فاتخذ من القرارات ما لا ينسجم مع ميوله وقناعاته، ومع ما كان دوماً يدافع عنه. غير أن إنقاذ النساء والأطفال كان يتطلب قتل زعماء الشغب. ومسكين أمير. فما من شيء أقسى على النفس من القيام بعكس ما يظن الإنسان أنه العدل. وأنا معجب بشجاعته. ولا أظن أنني كنت قادراً على أن أفعل مثله.

١٧

إنها الآن وحدها أمام أبي الهول، الذي يطرح عليها، بقوة واحدة، ذلك اللغز النهائي: «فأيهما أفضل: أن يكون الإنسان ميتاً في عالم حي، أم أن يكون حياً في عالم ميت؟». وليس في وسعها أن تزيج عينيها عن ذلك الوجه الحجري. فهي تحاول أن تهدىء روحها التي تجن في الفراغ. ولقد استفاقت سلمى، وهي تتصبّب عرقاً. ذلك أن السؤال یرن في أذنيها بوضوح لا مجال معه للقول: إن ما رآته كان حُلماً، أو أنه يجب أن يكون الحلم بالمعنى الذي كان يفهمه القدماء: «كرسالة من الآلهة».

وفجأة تتذكر آخر جملة للراي سعيدة، التي ذهبت إليها لتبثها همّها، قبل أن تترك بادالبور: «إن السعادة هي أن نحب، قبل أن تكون في أن نُحَبَّ».

ولم تكن قد فهمت، وهي التي كانت قد عرفت، وهي فتية، عذاب حبها، من غير أن تُحَبَّ. وكان في وسعها أن تعيش ولو كان زوجها لا يبال بها، أما خيبة أملها في بادالبور... وكانت ترجو أن تغيّر حياة الفلاحين. فاطّرحوها جانباً، ونبذوها.

لكن الراي سعيدة التي أنبتتها بعطف، قالت لها:

— ولكن ماذا تظنين؟ فأمير وأنا معه، غرباء كذلك، بالنسبة لهؤلاء الناس. وسنظل كذلك حتى ولو تخلينا عن قصورنا وعشنا مثلهم، لكي نفهمهم بشكل أفضل، ونساعدهم

مساعدة أكبر . فذلك لن يكون في نظرهم إلا مهزلة ، وشتيمة . وعلى فرض أننا فقدنا كل شيء ،
فما من شيء يمكنه أن يحو ماضينا : وسيستمرون في الحذر منا ، وسيكونون على حق !

« فافهمي يا بنيتي : إن تغيير الإنسان جلده يظل شيئاً كالياً . ونحن نعتبره حقاً ، ونعجب
ونندهش إذا هم أبوه علينا ، ولكنك كأمية ، وإن فقدت ما كنت فيه من ثراء ونعم ، تظلين أميرة .
وكذلك الفلاح إذا اغتنى ، فإنه يظل ندلاً على كل حال ، وهم يعرفون ذلك ، في أعماق نفوسهم ،
وبسبب هذه الهوة التي لا يمكن اجتيازها ، تزينهم ينظرون إلينا نظرة الحقد .

« إنه لا يسعهم أن ينسوا هذا الحقد ، إلا إذا قتلونا جميعاً ، وهذه هي الوسيلة الجذرية لحذف
الفرق . ولقد أحسّ الشعب الفرنسي بذلك ، منذ بدأت السيدة المقصلة تعمل ليلاً ونهاراً : ولم يكن
الأرستقراطيون ، ولا الأغنياء ، هم الذين يريدون القضاء عليهم ، بل كانوا يريدون القضاء على هذه
النظرات التي تشعرهم بوجود هذا الفرق . ولسوء حظهم فإنهم ارتكبوا خطأ آخر ، هو أنهم لم يقضوا
على البورجوازية . بل لقد استطاعت هذه تنويعهم بخطبها الجميلة ، حول المساواة ، والإخاء . وعادوا
فاستيقظوا مع الأمبراطورية . »

وفتحت سلمى عينها بقوة .

— راني صاحبة ، لم أكن أعرف أنك ثورية !

— آه ، ولكني محافظة على أحسن صورة ، وأعتقد أن الله خلقنا في مكان ما ، لكي نقوم
بدور ما ، وكل محاولة لجعل هذا الأمر موضوع بحث ، لا بد وأن تفشل . ولكن أراد الشعب أن يحل
محلنا ، فعليه أن يعدّ العدة لذلك ، ويستغني عن الخطابات ، والتمرد . فإذا استطاع أن يكتسب المزايا
الضرورية للإستيلاء على الحكم ، والاحتفاظ به ، فإن السلطة تصبح من حقه شرعاً . والله القادر على
كل شيء ، والعادل كل العدل ، لا يملك إلا أن يسجل هذا الاهتزاز الخفيف على السلم اللا متناهي
لتغيرات العالم .

— ولكن أتى لهم أن يصلوا إلى الحكم ، بدءً من لا شيء ؟ فانفجرت الراني ضاحكة .

— أتقولين بدءً من لا شيء . تلك هي المجاملة الملائمة بالإحسان ! كنت أحسب أنك قلت
لإنهم رجال ، متلنا . فكيف وصلنا إذن نحن إلى الحكم ؟ ومنذ قرون ، كنا نحن أيضاً جماعة
مسكينة ... إن هذا قد يكلفهم بعض الوقت . فإذا هم وصلوا ، فهذا برهان على أن لهم الحق في
السلطة ، وبرهان على أننا فقدنا الفضائل التي كانت تتيح لنا الغلبة ، والقيام على شؤون الحكم .

وأنت الحديث متمنية ألا ترى ذلك اليوم الذي يدل على انخراط طبقتها ، هذا الانخراط المؤكد ، إلى الدرجة الأخيرة .

— ذلك أن الله عادل ، ولا تسقط عن الشجرة إلا ثمارها الفاسدة .

والعادة أن يأتي الباعة ، في « بعد الظهر هذا » ويحملوا معهم أفضل ما لديهم من الأقمشة . وكانت سلمى قد تلقت من باريس آخر مجلات الموضة ، وقررت أن تغير محتويات خزانها . وهي التي كانت ، منذ وصولها ، تتسلى بلبس الساري والغارارة التقليديتين ، وتلاحظ بمتعة أن صديقاتها الهنديات يحاولن أن يسبغن عليها بسمه « باريسية » ، بإضافة ثنيات ، أو التوشية بأحجار كريمة . لكنها تشعر الآن أنها متعبة وبها رغبة إلى أن تكون من جديد هي نفسها . وفي بداية أيامها هنا ، كانت تلبس ثياباً أوروبية عندما كانت تريد التأكيد على استقلالها تجاه أمير . واستمرت على ذلك حتى فاجأت الراجاه يُسِرُّ لرشيد خان أن تياب زوجته هي أفضل صورة لمزاجها في الساعة التي هي فيها . وشعرت بأنها سحيقة . وفي تلك الليلة نفسها ، كانت خزانها فارغة من كل أثر من آثار هذا التمرد الطفولي .

وكما كانت في بيروت ، عندما كان أبوها يتخلى عنها نهائياً ، ثم عندما خانها وحيد ، فإنها تجد في الخفة ما يهدى نفسها . فكل ما حاولت إنجازه ، في لوكنوف ، ثم في بادالبور ، لقي الخيبة . ولم تنجح إلا في إدخال بعض الاضطراب على عادات تقليدية قديمة ، وأثارت آمالاً لم تستطع أن تحققها ، ووصلت إلى إثارة العنف بين الطبقات ، والنزاع داخل الأسر ، حيث اعتقدت النساء لحظة ما ، أنهن يستطعن رفع رؤوسهن . وحتى الشغب الذي ثار بين الهندوس والمسلمين ، أليست هي المسؤولة عنه بصورة غير مباشرة . وهي التي حفزت الأمير على القيام بجولة في القرى البعيدة . ولو أنه كان هنا ، إذن لما حدثت المأساة . ولقد أرادت مساعدتهم ، فلم تزد على أن زرعت الشقاق ثم رحلت عنهم وتركتهم أتعس حالاً مما وجدتهم . وكان يجب أن ترحل . وحتى النساء اللواتي كنَّ يحببها ، فهمن ذلك : فما من واحدة طلبت بقاءها ...

وفي البهو المجاور ، سمعت أمير يتناقش مع صهره . وكان في وسعها أن تنضم إليهما — إذ لم يعد هالك من مانع يمنع الالتقاء برشيد — ولكن ليست بها رغبة في ذلك : إنهما يتحدثان في السياسة . ومن الغريب أن هذا النوع من النقاش الذي كانت مولعة به ، بدأ الآن يضجرها . ومع ذلك فإنها عندما تسمع اسم غاندي ، تصيخ السمع . ذلك أن هذا الرجل العجوز مازال يستهويها . وعلى الرغم من خيبات الأمل ، والتكذيبات التي تحملها كل يوم تلك الحوادث الدامية ،

فإنه يستمر في الدعوة إلى اللاعنف؛ فيصوم... ومتى صام، تسكن الجماهير، بشبه أعجوبة، وتعود إلى الهدوء.

ويقول رشيد خان:

— في هذه المرة فقد عاندي عقله. فهل تعرف ماذا كتب في آخر عدد من أعداد الهاريخان، بمناسبة الحديث عن اضطهاد اليهود في ألمانيا؟ إنه ينصحهم بعدم اللجوء إلى العنف، وهو الوسيلة الوحيدة للانتصار على النازيين.

— ما أتعس هؤلاء اليهود! إني آمل أن يناضلوا. وتخيل نتائج موقف كموقف غاندي، إنها لن تكون إلا مجزرة.

— والمشكلة أننا هنا، نحن أيضاً، أمام نازيينا.

ويتكلم رشيد خان، ولكن بصوت أجش، فيقول:

— هل سمعت تصريح ماهاصباح في مؤتمره في نقرور NAGROUR، إنهم يقولون أن مسلمي الهند، كاليهود في ألمانيا، هم أقلية لا تملك أي حق. ولم يُدن غاندي هذا الكلام، ولا نراه يثور على المسيرات التي تتادي بأن «الهند هي للهندوس». ولأعرف ما يدور في رأسهم. ولكني أقول إن المسلمين يتزايد خوفهم كل يوم، وأنا خمسة وثمانون مليون نسمة، أي أننا كتلة لا يمكن تجاهلها، وأن هذا كله، مما يخشى شوه.

«يخشى...؟» وتهز سلمى رأسها في بهوها الصغير. «إن هذا سينتهي إلى أبشع نهاية!» وهي غير بعيدة عن نسيان العنف، والبغضاء اللذين اكتشفتها معاً في بادالبور، بين فلاحين ما يزالون يعيشون معاً بهدوء منذ قرون. وكان يكفي أن يدخل الساحة تحريض سخيف، لكي يجبرهم إلى التذابح.

أما التحريضات، فإنها ستزداد، لتعجل بقرار سياسي، أو بمنعه. وإنه لمن السهل أن نجعل الميزان يميل باتجاه ما، بتحريك الجماهير الساذجة، بل إنه مفر جداً.

ولكن لم تهتم بهذا كله؟ فهي لا تملك من الأمر شيئاً. ولو كانت هندية على الأقل، لكانت تدخلت. ولكنها... أجنبية. ولقد أفهموها ذلك بوضوح. وعلى الأجنبية، في الإطار المتفجر القائم

حالياً، ألا تتدخل في السياسة، وعليها كذلك أن لا تتدخل لتغيير عادات متأصلة منذ القدم، وعليها يقوم التوازن الاجتماعي. والإحسان هو وحده الشيء المقبول. أما الباقي فهو ديناميت.

وكانت تأمل أن تقبل ذلك، ولكنها منذ الآن تنزل على حكم الواقع. فليست القضية أن بعض الفلاحين أطرحوها كأجنبية فقط، بل إنهم عبّروا بفجاجة عما يشعر به كل إنسان عادي. وبدأت تتذكر تقطيب الحاجبين، والشفاه المعضوطة عندما كان يحدث لها أن تعبّر — وبأية أناة — عن بعض سمات المجتمع الهندي. بل لقد سمعت، ذات يوم، من يقول: إذا كان هذا لا يعجبها، فليس عليها إلا أن تعود من حيث أتت. وكانت تظن أن هذا رد فعل شبيه برد فعل المرأة التي تشعر بالغيرة. أما الآن، فإنها عندما تصل بين هذه الأحداث المتناثرة، وبين نصائح أمير بالاعتدال، مما كانت ترى أنه ضعف، تفهم أنه كان يريد حمايتها من فرط حماسها، وصراحتها. وهذه مزايا تعتبر في الهند أخطاءً لا تحتمل، لأنها تهدّد النظام القائم الذي أنشأته الآلهة.

— راني صاحبة. لقد وصل الباعة.

— من؟

ومضت بضع لحظات قبل أن تعود سلمى إلى كامل وعيها.

— آه، بلى، البائعات... فليدخلن.

وهذا هو مجال المرأة وميدانها. لقد أوشكت أن تنساه. حسناً، فما دام كل شيء محرمًا عليها، فقد بدأت تشعر بأنها ستهوى الانشغال... بالزينة الفارغة.

وفي دقائق، فرشت الأرض بنماذج من الأورغاندي، والساتين، والخمّل الموشى — أي من أفضل ما يُصنع في أوروبا — ذلك أن مصانع النسيج الهندية، ذات الشهرة العالمية في الماضي، قد أغلقت منذ زمن طويل، لأن مصانع النسيج الإنكليزية لم تعد تتقبل أية مزاحمة. وقد جاءت الراني، راني نامبور، التي عادت حديثاً من السفر، لتساعد صديقتها في الاختيار. وأي اختيار؟ وهالإن سلمى تشير، وعيناها تلمعان، إلى القطعة بعد القطعة، حتى تألف من ذلك ما يُلبس كل نساء القصر. وما من مرة رأت الراني صديقتها تسرف كل هذا الإسراف؛ بل إنها لا تردّد، وتطلب بحماسة ما تطلبه، حتى اجتمع من ذلك أكوام من الحرائر، وضعت على الديوان، على أكبر مسرة من البائعات.

— ماذا ستصنعين بهذا كله ؟

— سأصنع ... فساتين . وهل في هذا البلد من شيء آخر أعمله . وما كادت الراي شاهينا تبدأ الجواب ، حتى أعلن عن وصول باعة الحلي . وهم الباعة الثلاثة الأعظم شأنًا في البلد . ذلك أن نوع حجاتهم ، وإتقان صناعتهم ، أمران ذائعا الصيت ، في الهند كلها . بل إن المحلات العظيمة في دلهي تأتي إلى هنا لتتموّن .

وأوضحت راي بادالبور أنها لا تريد إلا قطعاً من الدرجة الأولى . وكانوا يضعون بعناية ، عليهم المخملية ، ويصفونها تبعاً . وتسرع البائعات ، مبهورات : فما من مرة رأيين اجتماع مثل هذه الحلي الفخمة . فتشير سلمى إلى بعض العلب . ولاحظت راي شاهينا أنها لا تكاد أن تكون رأت محتويات هذه العلب . فانحنت بنعومة ، نحو المرأة الشابة .

— سلمى هل أنت مريضة ؟

ورأت عينيّن حزينتين تنظران إليها ، بصمت .

وبالغ باعة الحلي في تحياتهم ، واستأذنوا بالانصراف ، وتبعتهن البائعات مذهولات : فشرى الحلي ، أمر جدي ، لا يتم في بضع دقائق . وحتى ماهاراجي جيها نراباد ، على كونها الأغنى بين جميع زميلاتهما ، فإنها تخصص ساعات كثيرة لشراء قطعة حلي جديدة .

وفي هذا المساء ، ستعرف البلد كلها ، بفضل الإشاعات المتناقلة ، ما ارتكبهت الراي الصغيرة من حماقات . ولكن ما لا يعرفه الناس ، هو دهشة الراجاه نفسه ، عندما جاء باعة الحلي يقدمون له احتراماتهم ... وفواتيرهم . فمنذ أن صادق المؤتمر على القوانين الماضية ، أصبحت صناديق الدولة ، فارغة . ذلك أن الفلاحين يمتنعون عن دفع أجور أراضيهم . ومن الأمراء من يرشي رجال الشرطة ، ويستخدم القوة في الإرغام على الدفع ؛ أما أمير فكان يأبى ذلك دائماً .

وسرعان ما استعاد أمير انتباهه ، أمام باعة الحلي . ولكن هؤلاء كانوا قد لاحظوا اضطرابه .

— يا صاحب السموّ ، ما من شيء مستعجل . ونحن نعرف أن لدى سعادته ، أشياء كثيرة تشغل باله ... ولكن إذا كان يتنازل ، ويرضى أن يعوضنا ، نحن الناس العاديين ، عن هذا المبلغ الموقوف المحمّد .

ولكن الراجاه ، أوقفهم عن الكلام وسألهم :

— كم تريدون ؟

— لا شيء ، يا صاحب السمو . ونحن مستعدون للانتظار بقدر ما يريد . وإنه لشرف لنا .
غير أننا نطلب بعض التعويض : ١٠٪ ... بالشهر طبعاً .

« ١٠٪ فقط ، وبحسب الراجاه ، فيرى أن المبلغ سيتضاعف خلال عشرة أشهر . يالهم من قوم قذرين » .

— حسناً ، والآن أدعكم أيها السادة . فلديّ أشياء أخرى أفكر فيها .

وهكذا يطلق سراحهم بحركة مجاملة لا تخدع أحداً . فلأول مرة ، يجد راجاه بادالبور أنه تحت رحمة المرابين .

وكانت سلمى تجلس أمام المرأة تغني غناءً خفيفاً . وهي تشعر أنها مرتاحة ، وأنها ليست بحاجة إلى التساؤل عما إذا كان ذلك بسبب من راجاة الشمبانيا ، نصف الفارغة ، والموضوعة على منضدة الزينة . فمنذ أسابيع تغيرت صورة حياتها تغييراً تاماً . أي منذ قام أمير ...

وكان ذلك — وهو مما لا تنساه أبداً — في المساء الذي تبع شراءها كل هذه الحلوى . فقد وصل أمير ، ودخل غرفتها كأنه مجنون . وعندئذ انفجرت هي ، وصرخت وهي تقول : إنها تريد الطلاق ، والعودة إلى بيروت فوراً ، وإذا هو حاول منعها فستقتل نفسها ، وأنها لم تعد تطيق الحياة التي يجعلها تعيشها . فوقف جامداً مذهولاً .

— كيف ؟ إن لديك كل ما تريد وتترغب به . أما بالنسبة للحلوى ، فأنا أرجوك أن تكوني عاقلة .

وفي هذه اللحظة ، كانت قد كرهته .

— إنك لن تفهم أبداً شيئاً ! فأنا لا تعينني الحلوى ، ولا الفساتين ، ولا قصرك . فأنا بحاجة إلى أن أحيا ، أحيا ! ولقد قبلت بالأمر إذا خرج إلا لحضور اجتماعات الرانيات اللواتي يأكلن حتى يُتخمن ، ويتناقلن الأقاويل . قبلت أن أقضي وقتي بشراء التوافه ، وانتظارك . والمكان الوحيد الذي كنت أنتفس فيه ، وأشعر بأني أقدم خدمة نافعة ، هو بادالبور . وقد امتنع هذا عليّ ، أيضاً ...

وأخذت تبكي ، ولم تعد تستطيع التوقف . وعبثاً حاول تهدئتها ومواساتها . ولكنه لم يكن يجد ما يقول . وكان يعلم أن هذا ليس بحزن بنيّة صغيرة ، تكفي بعض الكلمات لكي يُنسى . فقد

كانت سلمى مرتبطة عاطفياً ببادالبور، مثله تماماً. وأعجب هو بإخلاصها، وصبرها، ولكنها أرادت تحقيق ما أرادته بأسرع مما ينبغي. ولكن أيمن القول: «بأسرع مما ينبغي؟» لا ريب أنهم كانوا سيطرّحونها على كل حال، ولو انتظرت مدة أطول.

وعندما أخبر الراجاه رشيد خان بما كان من أمر سلمى، وما بلغته من اليأس، نصحه هذا قائلاً:

— يجب حتماً أن تسليها. فامضوا هنا وهناك، وتسّلوا، وتنهّد الراجاه، وعلا صدره قليلاً، كتعبير عما هو فيه من حرج. وقال:

— أنخرج؟ إن هذا مستحيل. فبنات الهوى وحدهن...

— إني لا أطلب منك أن تمضي بها إلى بيوت مواطنيك، وذلك لأن من المؤسف أننا لا نزال ننظر إلى المرأة كفريسة جنسية. فامض بها إلى بيوت أصدقاءك الإنكليز! فمنهم من تطيب عورتهم دون أن يكونوا عرقين في الظاهر. وسيسعدون باستقبالكما، وستجد الرائي، شيئاً من جو بيروت. وهذا يساعدها على استبعاد الأفكار السوداء من رأسها.

ومنذ ذلك الحين، صاروا يخرجان كل مساء تقريباً: ولكن لا إلى استقبالات كبيرة، بل إلى عشاءات، يلتقي فيها الناس على أساس المودة. وتغلبت سلمى على مستبقاتها، وانتهت إلى ملاحظة أنه يمكن للإنكليز أن يكونوا لطيفين، ممتعين، وأحياناً فكهين. وبين أصدقاء زوجها من هم مولودون في الهند، وهم يحبون هذا البلد بقوة، ويعتبرونها بلدهم، وكثيراً ما يعرفونها أكثر من الهنود.

وهذه هي حال الميجر روستيك الذي دعاهم إلى بيته هذا المساء. ويقول أمير إن جدّه وصل إلى كلكوتا عام ١٨٥٠، شاباً وعيّن كإداري في شركة الهند الضخمة. ولكن مزاياه الكثيرة، وقدرته على الصبر، وبرودة دمه، التي صُقلت بعناية في إيتون وكامبريدج، جعلته يرتقي درجات السلم بسرعة، في الشركة. وفي عام ١٨٥٨ تزوج من بنت العقيد، الذي تميّز، في العام الماضي، بقمعه ثورة السباهي (الفرسان) في لوكنوف. وكان ولدهما غيدون المولود في بومباي، والذي تُقّف في إيتون وكامبريدج، قد قرّر أن يحتدي حذو جدّه لأمه وعاد إلى بلده الأصلي كضابط في جيش الهند. وكان الوقت يومئذ وقت هدوء. وكانت السلطة الإسلامية قد استؤصلت، وجُرّدت أكثر الأسر من أملاكها لحساب أولئك الذين ظلوا على ولائهم تجاه البريطانيين، وانعزلت

انعزالاً عنيفاً ، وبلا جدوى ، على حين أن الهندوس الذين لم يتغيّر عليهم شيء إلا وجه السيد ، كانوا يتلاءمون أفضل التلائم مع الموقف ، ويتعلمون الإنكليزية ، وينشئون لأنفسهم مكاناً في المجتمع الجديد .

ولم تتح الظروف لغيردون أن يُبرز مواهبه العسكرية . وبالمقابل فقد عرفوا كيف يستخدمون معلوماته عن اللغة الأردية ، التي هي لغة مربيته ، وخدمه ، الذين رافقوا طفولته : وهكذا فقد أصبح ضابطاً في المخابرات ، مما جعله يكثر التردد على مختلف الأوساط الهندية والإسلامية ، ويغدو واحداً من أفضل من يعرف التيارات التي تهزّ البلاد . لكن الوقت لم يتسع له لنقل معلوماته إلى ابنه إدوار ، لأنه مات ، وعمر هذا لم يتجاوز الثامنة ، لكنه نقل إليه حبه للهند وقناعته بأن على الإنكليز مسؤولية أخلاقية تجاه هذا البلد ، الغني بإمكانياته ، والمغري بتنوع أراضيه وسكانه . والبلد الذي يجب إحلال السلام بين مختلف فئاته ، وتربيته وتثقيفه لإصلاحه ما يسمى بالمندنية الحديثة .

ويشك أمير في صديقه روستيك ، أنه ، هو أيضاً ، عميل للمخابرات ولكن هذا لا يزعجه إلى أكثر من الحد المناسب ، ذلك أن الإنكليز جميعاً هم كذلك ، بل إنهم يرون أن من مصلحة سكان الهند ، أن تتوقع ما قد يحدث لديهم من أعمال طائشة ، يمكن أن تؤدي إلى ردود فعل عنيفة . وهكذا فإن الميجر والراجاه يتفاهمان ، وكل منهما يعرف آراء الآخر . ولما كان كل منهما يحتل موقعه ، فإنهما يقبلانها كشيء طبيعي .

وفي هذا المساء سيدور الحديث عن الخبر اللا متوقع واللامعقول : فلأول مرة ، يتقدّم فرع من فروع الرابطة الإسلامية ، هو فرع منطقة السند ، بطلب تقسيم الهند ، إلى دولتين ، وبشكل واضح ، إعطاء الاستقلال للمسلمين .

ويعلق الميجر قائلاً :

— ما كان لهذا الفرع أن يتقدّم بطلبه هذا ، من دهن موافقة جناح . فهل تظنون أن هذا رائز أو تهديد ؟

— أعتقد أن هذا ، بكل بساطة ، نتيجة لتصاعد الاستياء الشعبي ، الذي يرغم « جناح » على أخذه بعين الاعتبار . إذ لقد فقد المسلمون ثقتهم بإخوتهم الهندوس . ثم إن عدد الذين يرون أن فكرة « الباكستان » أو « بلاد الأتقياء » التي اقترحها الشاعر إقبال ، منذ عشر سنين ، والتي كانت تبدو آنذاك غريبة ، يزداد أكثر فأكثر ، لأنها ربما كانت الحل الوحيد .

— وأنتم تطلبون الاستقلال ! ولكن يا عزيزي أمير ، في اليوم الذي نرحل فيه ، ستندلع الحرب الأهلية ! فاعترف أن مواطنيك ليسوا مهيعين بعد لهذا الاستقلال . وإذن فابدؤوا بالاتفاق . ثم نستطيع نحن بعد ذلك أن نناقش الأمر .

ولكن أمير لا يجب بأن هذه الانقسامات إن لم تكن من صنع الإنكليز فإنها ، على الأقل ، قد زادت حدة عن طريقهم ، أملاً بإضعاف الحركة الاستقلالية . ويكتفي بهز كتفيه ، قائلاً :

— دعونا نسوي مشاكلنا لوحدها . أف يكون هذا إفراطاً في المطالب ؟

وكانت سلمى ، داخل نفسها ، توافق أمير : فهؤلاء الأوروبيون مقتنعون دوماً أنهم يعرفون ، أكثر من صاحب العلاقة ، ما يحسن له ، وبه . ولا يكتفون بفرض قوانينهم السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، بل إنهم يريدون فرض صورة تفكيرهم . وأخطر هؤلاء ، هم الذين يحبون الهند ، كهذا الميجر روستيك ؛ خلافاً للواقعيين الذي يتخلون عن الهند ، عندما لا يكون الموقف في مصلحتهم ، فأولئك سيحاربون حتى النهاية ، بل ويضحون بأنفسهم ، لكي يفرضوا خيراً لا يريده الناس لأنفسهم .

« وهذا تماماً ، ما فعلته في بادالبور . لقد كنت مقتنعة ، أنا أيضاً بأنني كنت على حق ، وأنه توجد قيم عالية ، شاملة . أما الآن فإنني لم أعد أعرف ... فهل هنالك نقطة واحدة لا جدال فيها يمكن أن نعود فسنى ما نريد بناءه ، بالاعتماد عليها ... وما هي ؟ وحتى احترام الحياة ، هو أمر قد تكون له نتائجه المشؤومة » .

— إن هذه المسكنة مثقلة نفسياً ، ولعلها فكّرت حتى بقتل نفسها .

وارتعدت سلمى ، ولاحظت النساء ، اللواتي يتحادثن ، أمامها . ولكن لا . فلن يتحدثن عنها . أما الانتحار ... فإنها قد فكّرت فيه في الأيام الأخيرة ، وتخيّلت كيف تكون ساعاتها الأخيرة ودقائقها الأخيرة . بعنف مؤلم ؛ ولقد عاشت هذا النزاع مرات عديدة ، ولكن هل كان في نيتها العزم على الانتحار ؟ الحقيقة ، أن ما تحبه ، هو أن تذوق الموت ، وتلتف به ، وتتبدّد فيه ، حتى ولو كانت تشعر بأنها تخدع نفسها وتخدع الآخرين .

— أقترح أن نترك هؤلاء الرجال يتحدثون في السياسة ، وننتقل نحن إلى البهو الآخر .

وتقبل السيدات بذلك : إذ سيقطن لبعضهن أشياء ممتعة . فسلمى تحب لوسي ، سيدة المنزل . وهي فرنسية قصيرة القامة ، ملأى بالحياة ، وتحب الصراحة في القول : ولا يضجر الإنسان في صحبتها ، أبداً .

وبصورة طبيعية ، أخذت يد سلمى .

— يا عزيزي ، يجب أن أعترف لك بأني غيرة .

— ؟

— فأنا لست الوحيدة . ذلك أن زوجك أحد الرجال الأكثر إغراء ، بين من عرفتهم . إن حظك لكبير : ويجب أن يقوم بأعمال رائعة !

وبدأت النساء جميعاً يضحكن ، مسرورات بهذا الفجور . وخلال العشاء سالت الشمبانيا بسخاء . وشعرت النساء بالحاجة إلى الإفضاء بما في أنفسهن ، وإلى المسارّات . ومن غير لوسي تستطيع الإصغاء لمن ؟ ذلك أن لهذه الفرنسية فن الحفز ، وهي نفسها لا تخفي أنه كان لها عدد غير قليل من العشاق . وتدّعي أن احتقار الحب ، هو نوع من الشتيمة الموجهة إلى الخالق .

أولم يكن المسيح نفسه يشعر بعاطفة ما ، نحو المجدلية ؟

وأخذت المدعوات يبتسمن ، أمام ما رأيته من انزعاج سلمى : فهذه الراي الجميلة ، ساحرة ، خجول كفتاة لم تتزوج . وهنّ أبعد ما يكون الإنسان من التفكير بأن ما يسمينه خجلاً ، إنما هو الجهل . أوليس الشرقيون معروفين بأنهم عشاق كبار ؟ والمسلمون بشكل خاص — أولم يضرب لهم النبي المثل ؟

— أوصحيح أن كل شيء بين الأزواج مسموح به ، عندكم ، كل شيء ؟

وتنظر سلمى إلى هذه السمرء الحلوة التي تطرح عليها هذا السؤال الغريب ؟ ترى ماذا تريد أن تقول ؟

وتدخلت المضيفة قائلة :

— عفوك يا آرماند . دعي صديقتنا هادئة ، وحديثي . عن هذا « الابن العم » الذي يبدو أن له تجاهك بعض العواطف ؟

— عواطف ؟ ويضحكن من جديد . وتطلب لوسي من النادل أن يترك لها الشمبانيا هناك ، حتى يكون في وسع السيدات أن يشربن على حريتهن ، ويهذرن على راحتهن .

ويشعرن بشيء من نشوة السكر ، وهذا سار جداً . وهذا الذي يظهر من جرأتهن يعطين

الانطباع بأنهن قويات ، مستقلات ، متواطفات فيما بينهن على أزواجهن ، الذين يُحدث بعضهم بعضاً بمغامراتهم الناجحة ، بمجرد أن يدرن لهم ظهورهن . وهم لا يتخيلون مطلقاً ، أن زوجاتهم ، مثلهم في ذلك . ولماذا لا يقابلنهم بالمثل ؟ ولا يخطر في بالهن أبداً أن يتركهن ، أما أن يخدعنهم ، بالفعل ، أو بالكلام ، على الأقل ، كيف يقول الإنسان هذا ؟ .. فذلك قضية مستوى ، وكرامة . وهذا ارتواء رائع ، لا سيما وأن رجالهن لن يشكوا فيهن أبداً ، وأنهن ، لهذا ، يخدعنهم ، بصورة مزدوجة .

وتتناول سلمى كأساً من الشمبانيا ، لتخفي اضطرابها ، ولكن من غير أن تضع كلمة واحدة من المسارات المتبادلة . وهي تذكر ، يوم حفلة حمام قصر أورطاكوي ، صور الضحك ، والتوريات التي كانت تثير خيالها ؛ ولكن لا شيء قيل مطلقاً يومئذ . ولا شيء يشبه ما تقول هؤلاء السيدات اللواتي يلبسن الحزام على خصورهن ، ويضعن القفازات الطويلة على أيديهن ... فيستولي عليها شيء من الحقد فجأة : فهل ستشيخ دون أن تعرف هذه اللذة التي يتحدثن عنها ، والعيون مغمورة بالدموع ، كما لو أنه لا شيء في الدنيا يقارن بها ؟ إن هذا سيكون إجحافاً كبيراً ، وهي جميلة ، وتعرف أنها تُشتهى ، وهي تشتهي أمير ، زوجها الجميل ، الذي يحسدها عليه جميعاً . فهل يجب أن تصارحه ، لا ، إنها لن تجرؤ على ذلك أبداً .

وتعود فتشرب الشمبانيا .

ولن تكون سلمى بحاجة إلى الكلام ، بعد ذلك . ففي هذه الليلة ، جاءت مخلوقة مجهولة لتجر أمير إلى ما وراء أحلامهن الأكثر جرأة . وهي امرأة شرهة وكريمة ، عبدة في المتناول ، وكاهنة علمية بالتضحيات الغامضة ، والهذيان المتأنية ، وهي تتخترع ألف مداعبة ، ولا تعرف أين تضل يداها ، وشفتاها ، وجنسها ، ولا تعترف بهذه الشكوى الغريبة التي ترتفع من أعماق حنجرتها ؛ وهما معاً ، سيدعان المجال لنفسيهما أن تسبلا هوى ، ويهتزا معاً ، ويفوصا في أمواج خفية ، بعيداً ، وجد بعيد عن ظاهر الأرض ، وفي أعماق أحشائها ، محمولين بنهر أعمى ، يقتل أو يهب الحياة ، تبعاً لما يدع الإنسان نفسه تنساق إليه . وهما الاثنين ، يمضيان ، مرتجفين ، من خلال زخات العاصفة التي تغمرهما ، باتجاه الشمس التي انبثقت فجأة ، وفجرتهما ألف نيزك ونيزك ، وفي مطر من النجوم .

... يا حبيبي ، أنت حبيبي ... المختبئ وراء اسم الزوج ، لم أعترف عليك من قبل ؟ يداي كانتا

تحرزائك ولكني لم أكن أجزؤ... فكل شيء كان سيصبح أكثر ساطعة، بدون هذا الاحترام، وهذا الاحتقار لجسدنا.

وكان النور يدخل كطوفان إلى الغرفة. والعينان ما زالتا مغمضتين. فتمد ذراعها إليه — آملة أن تشعر بوجوده — أوليس هذا الصباح مختلفاً عما كان؟ إن هذا هو صباحهما الأول... فلا تعثر إلا على برودة الغطاء. فتعيد يدها إلى تحت الوسادة، وتظل تحلم.

وتحلم بالراجاه الغامض، الذي وقعت في حبه هذه الليلة، بالسيد الذي استبقت رغباته، وحزرت، كل خلعة، وكل توقع أو انتظار من جانبه، كأنهما صادران عنها. وعندما تذكرت بعض المداعبات، التي قامت هي بها، أو استقبلتها هي منه، شعرت بحرارة تلفها، بما يشبه الرجة في بطنها... فيتفتح جسدها كله... وتعود فتنام.

واستيقظت قبيل الظهر، ونادت الخادومات: ليهيئ لها الحمام، ولينسقن شعرها، وليعطرنها، بسرعة! وكأن حدسها يقول لها: إن أمير قادم. واعتذرت عن دعوة تلقتها من راني جودبار Jodbar — ذلك أنها ترغب في أن تكون وحدها، لكي تفكر به، وبهم، وستنتظره طيلة ما بعد الظهر، ولكنها للمرة الأولى، تجد في الانتظار عذوبة. إنه سلفاً شيء من حضوره هو. وتلذذ بهذا الشعور الجديد بأنها خاضعة، يملأ السلام نفسها، بسعادة. إنها سعادتها بأنها ملك له.

وعندما جاء وقت العشاء، لم يحضر أمير. فبدأت سلمى تقلق: وكان دائماً يخبرها عندما يتغيّب في المساء. وهكذا فقد جلست أمام البيانو، لتهدئ به عصبيتها. وأخذت تعزف النغمات الأولى من المريا؛ فيستولي عليها السحر الحزين لرافيل Ravil^(١) ولم تعد يداها، وأحلامها، هي التي تهب الحياة للموسيقى، بل إن جسمها كله، حيث كل نغمة ترن كمداعبة، وكأن تحليقات بلورية، جادة، تقلب كيائها.

— ها أنت يا حلوتي!

ويقف أمير على العتبة. وينظر إليها، مثبتاً عينيه عليها، فتحزر سلمى فيها، وهي لا تصدق، نظرات الكراهية.

— كيف؟ ألا تأتي المرأة فتقبل سيدها؟

(١) رافيل: موسيقي فرنسي (١٨٥٧ — ١٩٣٧)، والمريا من ألحانه.

وأمسك بكفتيها، وبحث عن شفتيها، وتحس هي رائحة الخمر. إنه سكران. فتخبطت بين يديه مزعوجة، وحاولت التخلص منه، ولكنه يمسك بها بقوة.

— آه، لا. لا تصنعي هذه الحركات! واحتفظي بوضعك كأمية مستاءة، لآخرين غيري!

ودهشت، ثم جمدت في مكانها. أترأه أصبح مجنوناً؟

— إني لست أنا الذي سينزعج من حسن تصرفك. فأنا أحب النساء اللواتي ينطلقن، كما فعلت مساء البارحة. وكان يجب أن أكون سكراناً بدرجة مناسبة، لأنني ظننت أنني دخلت مع واحدة أخرى، واحدة من هؤلاء العاهرات الخبيرات في منح اللذة. وتخيلي، يا أميري، تلك الدهشة التي اعترتني عندما اكتشفت أن هذه المرأة هي زوجتي.

فانحنى له، ساخرة لاذعة.

— ويجب أن أعترف بأنك أخفيت لعبتك، إخفاءً جيداً. وعندما أفكر بأني، خلال سنتين، أبيت أن أخرج براءتك، يتبين لي كم أني كنت غيباً.

وتشعر سلمى كما لو أنها سحقت، فتتنظر إليه وقد وهن منها العزم، وتعطلت لغة الكلام، ونضبت الينايع. وفي بضع ثوان أتت رياح الصحراء، فقضت على السهول الخضراء.

وعندما جاء يأخذها، بعنف، محاولاً أن يذلها، تركت نفسها بين يديه، كما لو أنها فقدت رشدها من شدة الذهول. ولن يحتاج حتى إلى إرغامها على ما يريد، لأنها انقادت له طواعية.

— هوزور ، هوزور ، أرجوك . استيقظي !

وعبثاً حاولت راسولان أن ترفع الستائر ، وأن تركّز السعال ، وأن تفتح وتغلق أبواب الخزائن ، واحداً بعد آخر ، وأن تصدم الطشوت والأباريق بعضها ببعض فوق الأرض الرخامية لقاعة الحمام ؛ بل لقد غنّت بصوتها الهزيل ، وانحنت على السرير ، فوق سيدتها ، إذ لقد ظلت هذه تكتفي بالأنين وتخفي رأسها أكثر تحت الوسادة . وبدأت راسولان تضطرب . وهإن ساعة الظهر قد مضت ، ومضت معها ساعة أخرى أو أكثر على إلحاح أمير بأن يكلم الأميرة . ولم تعد تعرف هذه الخادمة من أيهما تخشى الشر أكثر : أمن غضب سيدتها ، أم من غضب سيدها ؟

وجثت على ركبتيها على قدم السرير ، وأخذت تتأمل الخصل الحمراء ، وهي موزعة ما بين النزق واليأس ، فإذا بها ترزق الإلهام ، وتقول :

— هوزور ، اسمعي هذا الخبر المخيف — وبدأت تفصّل المقاطع واحداً بعد آخر ، لتقول كل كلمة :

— إن ملك تركيا قد مات !

فإذا بالوسادة تطير من خلال وجهها ، وإذا بالعينين الخضراوين يتبثنان عليها .

— ماذا تقولين ؟ وأي ملك ؟

— إنه ملك تركيا، هوزور . أولاً تسمعين المؤذن . فمذ الصباح بدأ المؤذنون ، يدعون الناس للصلاة .

واستيقظت سلمى يقظة كاملة . وانتصبت : لقد مات إذن الخليفة عبد المجيد ؟ وفكرت ، وتذكرت تلك اللحية البيضاء كالثلج ، وتلك النظرة البنفسجية التي كانت تخيفها عندما كانت صغيرة . ولقد مضى أربعة عشر عاماً لم تره خلالها ، لأنه في فرنسا ، وفي نيس بالذات ، اختار أن يقيم بلاطه في المنفى . وهي لا تحسُّ بحزن — لأنها لم تكن تحبه قط — بل بشيء من الحنين فقط ، كما لو أن موت آخر خليفة ، كان يؤذن بموت الأمبراطورية ... وكان قصر ضوالة باهتته ، ببياضه العجيب ، يترأى في مياه البوسفور . وكانت تتقدم بنت صغيرة ، من خلال الأبهاء التي يُسمع فيها حفيف آلاف أوراق الكريستال ، وسط هالة من الثياب الرسمية الفخمة ، والحلي المتألقة ، إلى العرش الذهبي الذي يجلس عليه أمير المؤمنين ، ظل الله على الأرض .

— إنك تبدين غارقة في الأحلام ، هذا الصباح ...

وهكذا دخل أمير ، وعليه شرواني أسود ضيق .

— ها ، إني أرى . إنك علمت بالخبر . وسيبدأ الاحتفال في غضون ساعة . في المسجد الكبير . فهل تعدّين نفسك لحضوره .

أي سؤال ؟ بطبيعة الحال سأحضر . فلم تبدو مندهشاً ؟

أوه ، لا شيء ... كنت أعرفك ملأى وطنية ، ولكنني لم أكن أعرف فيك هذا الاحترام للجنرال .

— الجنرال ؟

— طبعاً ، الرئيس ، مصطفى كمال .

— أكمال هو الذي مات ؟

وانفجرت سلمى تضحك بعصية ، وتركت نفسها تغوص بين وسائدها .

— « ملك تركيا ! ... » ، وأنا الذي كنت أظن ... إن هذا مضحك جداً ، وبطبيعة الحال لن أشارك في الاحتفال ، ولن أذهب لأصلي من أجل كمال .

وتلقي بنظرة على الشرواني الأسود .

— وأنت لن تذهب ، على ما أتأمل !

وبدت نظرة الراجاه باردة جداً .

— إنك تنسين ، يا أميرة ، أن الجنرال مصطفى كمال ، بالنسبة لنا ، نحن الهنود المسلمين ، يعتبر بطلاً . إذ لقد حقق لبلده ما نحلم نحن بأن نحققه لبلدنا : فلقد طرد الإنكليز من بلده . وفي كل المدن الهندية اليوم ، تمتلئ المساجد بالمؤمنين الذي يكون ويصلّون على روح هذا البطل .

وثبت سلمى عليه ، نظراتها ، محتقرة :

— ولكن أنت ، أيها السيد ، كيف توفّق بين حماسك لمصطفى كمال ، وبين حبك للأسرة العثمانية ؟

ولا يمكن أن تكون الفكرة أوضح من هذا . فهي تهمه بأنه يلعب على الحبلين . وفي وسعه أن يصفعها ، بلذة كبيرة وفرح ، ولكنه يملك سلاحاً أقوى .

— كنت أعتقد أنك ، كعثمانية ، ستكونين على الأقل معترفة بالجميل للجنرال ، لأنه أنقذ بلدك . ولا تنسي أنه لولاه ، لما بقي أثر لشيء اسمه تركيا .

— إن هذا خطأ . فالسلطان نفسه طلب إلى الجنرال تنظيم المقاومة ، في الأناضول ، من حيث أن عليه هو أن يبقى في استامبول ، رهينة بيد الإنكليز ، الذين هدّدوا بتسليم المدينة إلى الأغارقة ، إذا هو لم يُعقّل سلوكه . وكيف تفهم أن كمال أثار الجماهير ، في البداية ، باسم السلطان ، ولكنه عندما لاح له النصر انقلب عليه . وكانت اللعبة عندئذ سهلة عليه ، في السكوت عن الاتفاق السري المعقود ، واتهام الباديشاه بأنه استسلم للعدو . وفي كل مرة كانت سلمى تحاول فيها أن تكشف الحقيقة حول هذه الفترة من تاريخ بلادها ، كانت لا تلقى إلا نظرات مشفقة ، وبسمات متكلّفة ، وكانوا لا يصدقونها ، ويظنون أنها تريد الدفاع عن شرف عائلتها . وفهمت أخيراً ، بمرارة ، أن المنتصر وحده ، هو الذي يملك أن يفرض حقيقته .

ولكن ما شأن أمير ؟ فما من مرة تخيّلت أنه ، وهو زوجها ، يمكن أن يفكر أن السلطان قد خان ، وأنه يعتبره هو وأسرته ، كمجموعة من الجبناء... واشتدت عندئذ رغبتها إلى التقيؤ . فهي لم تعد تتحمل نظراته الساخرة أو هذه « الكذبة » التي يتهمها بها ، مصحوبة بصفحات كثيرة من

الاحتقار . آه . لقد وجدتها ، أو وجدت تلك الوسيلة لحبسها ، هي المتمردة ! وما هي جدران الزينانا بجانب هذه النظرة التي تسجنها ، وهذه القناعة الباردة التي يتحطم عليها كل احتجاج أو تكذيب . فتسكت ، مرهقة : فهذه الصورة التي يملكها عنها ، وهذا العار الذي يحاول أن يجللها به ... ما عساها أن تجد كردُّ عليهما ؟

وإذا ... وإذا كانت تأبى عليه حق الحكم عليها ؟ وإذا كان المجرم والمجنون ، في أعماق زنازنتيهما ، يطرحان القيود المطمئنة ، للإتهام المقبول ، وللندم ، وإذا كان يجزؤون على اتهام متهميهما الفضلاء ؟ ... إن عيون الميدوز لا تُذهل إلا أولئك الذين يؤمنون بقوتها .

ورفعت سلمى رأسها ببطء ، ونظرت إلى أمير ، وشعرت بأن مشاعر الانتصار تغزوها تدريجياً ، فتقول له ببسمة هادئة :

— حسناً . عندما تكون في صلاتك ، فإني سأدعو أصدقائي لتناول الشمبانيا للاحتفال بهذا الحادث السعيد .

وتقلصت اليدان الناعمتان ، واستدار أمير عنها ، دون أن يقول شيئاً ، ولربما اعتقد أنها تمزح .

وأرسلت بعض خدماها ، مع رسائل منها ، إلى لوسي وزوجها الميجر وإلى راني نامبور ورشيد خان وزهراء . وأقامت سلمى في بهوها مائدة مزهرة ، تعلوها ، في سطول الفضة ، ست زجاجات من الرودير ROEDERER الزهري اللون ، وهو الشمبانيا المفضلة في ليايها البيروتية . فمن أجل الاحتفال بالذي مات احتفالاً لائقاً ، لا بد من علامة تدل على الاحترام ، بمعنى ما ...

على الاحترام ، لذلك الذي خانهم ؟ بلى ، ولكن بأية مهارة ، وأية برودة ! إنها تكرهه ، هذا الروزور الذي طالما حملها على أن تحلم . ومع ذلك فإنها لا تملك إلا أن تعجب بجراته ، وعدم وجود أي حاجز أخلاقي لديه ، وهذه مزايا لا بد منها لكل من يريد أن ينتصر .

« لا يمكن أن يكون للمرأة طفل ، وأن تبقى عذراء » إن هذه الجملة ترن في أذني سلمى ، وتستعيد صورة أمها في قصر أورطاكوي ، يوم مات السلطان عبد الحميد : فأمام الأسرة المجتمعة ، كانت تقدم احترامها لذلك الذي كان قد حبسهم جميعاً حوالي الثلاثين سنة . وكانت تنصح أبناء

أخيها أن ينسجوا على منواله، وليس على منوال جدّهم، السلطان مراد الخامس، الشديد الحساسية، والمغالي في الإحساس بالشرف، مما لا يستقيم مع لعبة السلطة.

— يا أميرة؟

وكان رشيد خان يقف على العتبة. ولما كانت شاردة في ذكرياتها، فإنها لم تسمع خطوات دخوله. ماذا؟ أهو أيضاً يلبس الشرواني الأسود. وينوع من المجاملة، تبسم له.

— دع عنك، يارشيد بك، هذه الشكليات، ألسنا الآن أحياناً وأحياناً؟ أين هي زهرا؟

— في المسجد... وأنا عائد منه. ورأيت أن أمرّ بك لأعتذر عن حضور حفلتك.

— ولماذا؟

— سلمى، أرجوك، انتهي من هذه اللعبة. إنها لا تناسبك.

وجلس رشيد إلى جانبها وحملق فيها بقلق.

— إن عليك ملامح التعاسة منذ بعض الوقت، فما الذي لا يستقيم لك؟

«أوه، ما أجمل أن أنطوي بين ذراعيه، وأدعه يهزني، وأصبح من جديد تلك البنية الصغيرة التي تناسى...». ويتضاعف سحرها.

— أي خيال خيالك؟ ألا تعلم أنني المرأة المدكّلة أكثر من كل امرأة أخرى في العالم، والمحبوبة أكثر منهن جميعاً.

وأخذ رشيد يدي سلمى، وبدأ يضغطهما بقوة. فتنظر إليه مندهشة؛ فما من مرة قبل ذلك تجرباً على مثل هذا، ويبدو أنه مضطرب جداً.

— كم تغيّرت... فالفتاة المتحمسة التي كنت أستقبلها في بومباي، ولم تمض بعد سنتان، أين هي الآن؟ سلمى، إن عليك أن تقاومي: فأنت في الطريق إلى تهديم نفسك...

— وما أكبرها خسارة!

— أتوسل إليك، إن كنت تحبيني قليلاً..

ثم سكت، فبقيت صامتة، تراقبه: أيعن، حقاً، أنها تحبه كأخت؟ وحركة واحدة تستطيع

أن تردّه إلى رشدّه، وتنتقم من أمير ومن زهراء معاً. ومن زهرا؟ إن (أمير) ليس أخيراً إلا رجلاً، وما من رجل يستطيع الآن أن يخيّب أملها، على حين أن زهرا! ... وتفهم مرة أخرى من الألم الذي يعتريها فجأة، كم أحببت تلك المراهقة، وحماسها، وبراءتها، ونظرتها المستهامة، ولم تلومها الآن على هدوئها، واستقرارها الغبي كامرأة متزوجة، وعلى هذه السعادة الممتلئة غبطة، والمتركزة حول بطن ينتفخ.

فأسندت خدها، على الكتف العريض.

— خذني، رشيد بك، إني لم أعد أحتمل.

ترى أقالتها له؟ أم فكرت بها تفكيراً؟ وماذا يهمّ. فهذه يد تمس شعرها مهدئة، وهي يد تذكّرها بتلك اليد الأخرى، منذ زمن بعيد. وفي شهقة بكاء، شدّت نفسها إليه، وأحاطته بذراعيها.

— لا تتخل عني أبداً!

وأخفت وجهها المبلل بالدموع في عنقه، ولم يعد لها إلا رغبة واحدة: هي أن يحملها، دون أن تسأله عن شيء.

وقالت له، لكي تأسف مباشرة على ما قالته، في جوها المضطرب:

— إني أحبك.

فأخذها من ذقنها، وتناول منديلاً، ومسح لها دموعها كيفما اتفق؛ واصفرّ لونه.

— سلمى، أنا أيضاً أحبك، فمنذ رأيتك تنزلين من هذا المركب الكبير، وأنت فيما كنت فيه من الضياع، والرقّة. ولكن ذلك كان مستحيلاً: كنت تأتين لتتزوجي صديقي. والآن...

— الآن...

— ربما كنت أحبك أكثر، الآن، ولكن...

— ولكنك لا تحبني بدرجة كافية!

فصدرت عنه ابتسامة مرّة.

— هذه هي قصة حياتي: فكل الناس يحبونني، ولكن ما من أحد يحبني بدرجة تكفي ليستبقيني عنده...

— وأمير؟

فابتعدت سلمى قليلاً. وشعرت فجأة بأنها متعبة جداً.

— إنك تعرف جيداً أن أمير تزوج أسرتي.

ومضى رشيد، حائراً. وهي تلوم نفسها على أنها جعلته تغيساً، على حين أنه الوحيد الذي لم يقدم لها إلا الخير.

وتنظر في المرأة إلى نفسها، فتري وجهاً ازداد هزالاً، وعينين محاطتين بالزرقة. وصحيح أنها تغيرت— أو اكتهلت؟ ربما. أما الخدّان المدوران اللذان كانا يدخلان اليأس إلى قلبها عندما كانت تحلم بالتمثيل في السينما، فقد تجوفاً، ونعمت، كما لو أنها منحوتة نحتاً، وشفتاها اللتان كانت تراهما رقيقتين أكثر مما يجب، على سبيل التضاد مع الخدّين، فيبدو أنهما تفتحتا، وهي تحب صورتها الآن، هذه الصورة التي تشبه فيها... المرأة المشؤومة... أو الحيوان الجميل، كما يقول أمير.

ها هي الساعة وقد بلغت السادسة. ولم يصل بعد أي مدعو. وهي تعلم الآن أن أحداً لن يأتي. والأرجح أنهم ظنوا أنها تقيم هذه الحفلة، على سبيل الإثارة، أو الانتقام الذي لا يعرف الخجل— أو هي خسة من يجرؤ فيتحدى ميتاً! إنهم لم يفهموا شيئاً: فهل من رجل هو أغنى حياة في يوم، منه، يوم موته؟ وهل هو أعظم في يوم ما، منه عندما تسيل الدموع فترفع من شأن أصغر انتصاراته، وأقل حركاته الإنسانية وزناً، وتمحو سقطاته، ومسكناته، وأكاذيبه؟

وبنوع من عمى أولئك الذين يبقون، نلاحظ أن الإنسان الذي يموت، يبدو كأننا استثنائياً لعدة ساعات، أو عدة أيام، أو المدة الكافية لنضوب الدموع.

وفي هذه اللحظة التي يفرض فيها مصطفى كمال نفسه، ضخماً، عظيماً، وجدت سلمى أنها تريد مجابته، وأمام بعض الشهود، ليكونوا حكاماً في هذه المباراة، اللامتعادلة فعلاً، بشكل مستغرب. ولكنهم لم يأتوا، وخافوا هذا التدنيس. وهذا الاحترام الذي يعلنونه، ينبغي أن يكون رقيقاً

جداً، إذا كانوا يخشون أقل الأذى. بل إن سلمى لأشد احتراماً له؛ ولم تكن تستبعد الهزيمة. ولكن البدء بهذه المعركة كان في ذاته نصراً...

إنها تجابه هذا الذي فجّر حياتها في كل أنحاء العالم، أو هذا الذي قدّر لها مصيرها، كالخالق، دون أن يفكر حتى بوجودها، وغيّر حياتها، في كل تفاصيلها، وبالدرجة الأولى طريقة شعورها، وأسلوب تفكيرها. ولقد حطر ببالها أحياناً أن تكون له شاكراً: فيعد كل حساب، تراه هدم لها عشها، وأرغمها على أن تطير. ولكنه في الوقت نفسه، عندما استولى على الجانب الذي يخصّها من السماء، حطّم لها جناحها.

والمنفى... أترأه كان يخشى إلى هذه الدرجة، تلك الأسرة، حتى اضطر إلى نفيها؟ وكان، مع ذلك، قوياً جداً، كقوة أولئك الذين لا يغامرون بخسارة أي شيء. وهؤلاء الذين لا يملكون أي ماضٍ، هم بحاجة إلى أن يشعروا لأنفسهم حاضراً. وهي تحسده على هذا التعطش إلى القوة: ذلك أنها هي التي تتيح الغلبة، أكثر من الشجاعة والذكاء. وهذا ما كان ينقص السلاطين العثمانيين، كما نقص هؤلاء الأمراء الهنود الذين لا يتنازلون أن يقاتلوا، وشيئاً فشيئاً، يرون أنهم يغلبون على أمرهم: ذلك أن عدداً غير قليل من القرون، كان كافياً لإرواء عطشهم.

وهكذا تتجدد المجتمعات ويتغيّر من يملك السلطة. فهي لا تؤخذ بقدر ماتدع نفسها تؤخذ، بنوع من الكسل من جانب الذين لم يعودوا يؤمنون بها بدرجة كافية.

وكما كان يريد التسلط على الحكم، أكثر من السلطان. ولكن هل مست الحاجة إلى طردهم، ومنعهم نهائياً من مسّ أرض وطنهم، وقلع الأموات منهم، بحيث أنه لم يعد لجشهم الحق في الاستراحة على شواطئ البوسفور الهادئة؟...

فهذه الصباحات الشفافة في استامبول، وشوارعها الضيقة، المحاطة ببساتين مغلقة، وبيوتها الخشبية، ومساحدها البيضاء، وصورتها المرتجفة في مياه القرن الذهبي... ترى بأي حق استبعدهم كمال عن هذا كله؟

وكان الأمير الوارث قد تنازل عن العرش، بالنسبة له ولسلالته؛ فحبس في قصره، وروقب، وأحيط بالجواسيس لتسجيل أبسط أحاديثه شأنًا، ولم يعد إلا شبح خليفة. فالحكومة، والموظفون، والجيش، والبلد كله، على ما كان يقال، كانت كالية. وإذن فيمّ كان الرجل يخاف؟ وهذا الذي سمى نفسه أبا الأتراك، أكان، ياترى، يخشى أن يرفض الشعب هذه الأبوة؟

وهذا هو السؤال البسيط جداً الذي كانت سلمى تريد طرحه عليه — فهي تدعو الجنرال الميت، أمام شهود، كما حدث في الماضي، عندما دعا الفارس أمير المؤمنين إلى مائدته. لقد كان في وسعها أن تنتزع منه الحقيقة. فالملوك لم يعودوا بحاجة إلى الكذب.

وهذه كأس أخرى من هذه الشمبانيا الرائعة. وفتحت سلمى الزجاجاة الثانية. وأخذت، بشيء من الختان، تنظر إلى السائل المذهب الذي يسيل، ذلك السائل الذي يساعدها على نسيان خيبة أملها في بادالبور، ويتيح لها أن تتجاوز الغثيان الذي يملكها أحياناً، عندما يحاول أمير... ولم يعد أحدهما يكلم الآخر تقريباً. ويبدو لها أنه يريد تحطيمها، وسحقها. في كل ليلة، عندما يعودان من هذه العشاءات الحلوة، حيث تطيش من كونها امرأة، جميلة ومشتهة، يعاقبها هذا الأمير. إذ أنه يهال على جسمها، ويستمتع به طويلاً، وبصمت.

وبالتدريج بدأت تذوق هذه العبودية؛ وبدهشة كبيرة، واستغراب كبير، وجدت أنها كانت تحب هذا الخضوع. وكشيء فاقد الإرادة، مطاوع، كانت تستسلم إلى متعة مجهولة كانت تدعها مرهقة. وقد أزعجها ذلك، من حيث أنها لا تستطيع أن تقبل أن يخونها جسمها، وأعلامها، وأنيبها، وصراخها... فمن أين جاءت امرأة الليل هذه التي تستمتع بالعبودية ليلاً، فلا تستطيع في الصباح أن تذكرها إلا وترى جسدها يرتعش منها، وتحترقها بكل كيائها تماماً كما كانت تحترق نساء الحريم، المنصرفات إلى اللذة وحدها، تلك اللذة التي يقدمها للسيد. إذ ما من شيء مشترك بين هذه المخلوقات وبينها. فهي مزهوة بنفسها، طموح، وليست كهؤلاء النساء..

وجلست سلمى أمام المرأة، ورفعت كأسها، بنفاخم، وقالت: «على كأس مصري المجيد!»، ثم بدأت تضحك، وتضحك... آه، كم تتألق هذه الشمبانيا، فرحة! وكَم تريق من العذوبة في الرأس! إنها «رجل لطيف» لا يثير مشكلة، وهو يهزأ من المآسي، ويسخر من كل ما هو جدي. إنه حليفها. فهي تحيطه بالخمل، وهو يحممها، ويعلمها شيئاً فشيئاً أن لا أهمية لأي شيء. لا أهمية مطلقاً. حتى ولا موت أعدى أعدائها. وكَم كانت حمقاء منذ قليل عندما أرادت تحدي مصطفى كمال! ومرة أخرى بدت الحاجة إلى تبرير نفسها، والبرهان للآخرين أن... أما الآن، فإنها لم تعد تكثر بالآخرين، وما يفكرون به، بهؤلاء الحمقى الذين يتخيلون أنهم يفهمونها، على حين أنها تشعر بأكبر العناء في... وتتنبه، وتتأمل في المرأة: أهي أميرة — أم عاهر؟ أميرة — أم من بنات الهوى؟... ولم لا. فإذا استثنت أمها، وهي بنت السلطان، أفلم تكن جداتها جميعاً، إماءً، هن أجمل من في الحريم، وأكثرهن خبرة في شؤون المتعة، وحسن تقديمها؟ أو لم

يكنّ يصلن إلى قلب السلطان ، ويصبحن في عداد زوجاته ؟ ولقد تحدّث الناس عن ذكائهن ، ومهارتهن ، وقدرتهن على حبك المؤامرات ، ودسّ الدسائس ، وهي مزايا لا شك في ضرورتها للوصول إلى المركز الأول ، وضرورة أكثر للبقاء فيه ! ولكن يجب أولاً ، أن تُحسن الإغواء : ففي البلاط العثماني كانت مسألة الجنس هي الفن الأول الذي يجب أن تبرع فيه . وإذن ففي عروق سلمى يجري دم ثمانية وثلاثين سلطاناً — أي ستة قرون من الحكم المطلق — وكذلك طبعاً ستة قرون من بنات الهوى . وهي تنحدر ، بدرجة متساوية ، من هذين الفرعين : وهي في الحين نفسه ملكة وأمة معاً .

وجاءت يد فجعلت قميص المسلمين ينحدر ، ويسلق . وهما ثديان أبيضان يمتدان باتجاه المرأة ، واهتز الوركان الناعمان بتأثير المداعبة : وخيط من الشمبانيا يجري على طول البطن ، ويتناثر نقاطاً مضيفة ، في حين أن يدين عصبيتين تطويان الخصر الرقيق ، وتصعدان نحو العنق ، والكتفين ، وتتجولان في هذه الندوة ، وهذه الحرارة ، وهذه العذوبة المسكرة ، وهما يدان تعرفان كيف تتملقان ، يدان ، تستسلم إليهما وهي لاهثة .

ولكن ما هاتان العينان الحزبتان اللتان تحملقان فيها — هاتان العينان الطويلتان الزمرديتان ؟ إنها تود أن تمحوهما . وألا تعود فتراهما — وألا يوجد إلا هذا الجسد المشتى إلى هذا الحد — ولكنهما تلتحان . إنهما عينان من المارة غريبتان عن الحفلة — عن العيد ، وما من شيء غير شراب الذهب يحملهما على الاختفاء .

وتشرب ، ورأسها متدل إلى الخلف ، جرعات طويلة ، ملقية بنظرات عينها أحياناً إلى المرأة ، حلسة . ولكن العينين باقيتان هناك . وهما عنيدتان ، وتعرفهما . ولكي تقتلها ، يجب أن تشرب أيضاً . « سلمى : إنك في الطريق إلى تهديم نفسك ... — ولكني يا رشيد بك ، أعيش ، أحياء ! انظر كم أضحك ! لست خائفة ، ولست خجلة . لأنني امرأة . انظر » .

واحتجبت العينان في المرأة . وجاء فم فرسم قبله . وهما إن جسماً عارياً هبط وانهار .

كم أشعر براحة ... ترى هل أنا ميتة ؟ إن الدنيا ظلام ، فهل هم قبروني إذن ؟ وبدا أمير كأنما طار صوابه عندما وجدني ، وكان هنالك دم . ذلك أني عندما وقعت ، فلا بد أن كأس الشمبانيا قد انكسر وجرحني ... أما بعد ذلك ، فلم أعد أذكر شيئاً ، ولا بد أن أمير قد بكى ... كان عليه أن يحني ، رغم كل شيء . ما أدعى ذلك إلى الأسف .

— اسحبي عنها عصابتها . وأظن أنها ستستيقظ !

ورفعت يد رقيقة النقرة ، وبألف حذر ، سحبت القماش القاتم ، وردّت سلمى إلى النور . ولكن كم تشعر بثقل جفניה .

ولاحظت ، وعيناها نصف مغلقتين ، صورة الراي شاهينا ، الجالسة في آخر السرير ، وهي تبتسم .

— ولكنك غضة كوردة . فبعد الليلة التي جعلتنا نقضيها عندك ، هانحن في الأوج . آه ، يا عزيزتي . إن في وسعك أن تفخري بأنك جعلتنا نقلق قلقاً بالغاً . وكان أمير قد جُنّ تماماً . وأي تفكير قادمك إلى حبس نفسك في غرفتك ! كان يجب أن نصل إليك عن طريق الشرفة . وكنت ملقاة على الأرض ، مغمى عليك . وظن زوجك المسكين أنك أصبت بأزمة في القلب . ولهذا بيّست له أن هناك ثلاث زجاجات من الشمبانيا . واضطررنا إلى جعلك تشربين مقيماً . وجعلناك تنامين وعلى رأسك خرقة تحتوي قطعاً من الجليد والحشائش . وهذا شيء حاسم في مثل هذه الأحوال . فكيف أنت الآن ؟

— أشعر الآن أنني خفيفة ... مغسولة ... كأني جديدة . أوه ، رايني شاهينا ، إن هذا عجيب ، إذ يبدو لي أن كل شيء حولي يعيش ويحيا !

ونهضت ومشّت ثلاث خطوات ثم عادت فوقعت في السرير منهوكة القوى . وجاءت الراي شاهينا فجلست قريباً جداً منها ، وقالت :

— سلمى ، إنك بحاجة إلى تغيير جوّك ! فهذه السهرات الطويلة ، وهذه الأيام التي تقضيها في السرير ، لا تعود عليك بأي خير ، لقد أصبحت نحيلة بشكل مرعب : ويقول أمير ، إنك لا تأكلين شيئاً ، وتكتفين بالشرب ، إنك في الطريق إلى ...

— إلى تهديم نفسي ، إنني أعرف ذلك ، ولقد وجد من يقوله لي !

— سلمى ، اتركي لوكنوف ، لعدة أسابيع . اذهبي لرؤية أمك . وحاولي أن تستعيدتي ثقتك بنفسك ، وأن تقرّري ماتريدينه حقاً .

— ماذا أريد ؟ ... وهل لي من خيار ؟

وأخذتها رايني شاهينا بنعومة ، من كتفها .

— إن الإنسان يملك دوماً هذا الخيار . والمشكلة الآن هي : هل لك الشجاعة على الاختيار ، والإصرار عليه ؟ وعلى كل حال ، لا يمكنك أن تستمر في الحياة على هذه الصورة . فاستفيدي من هذه الأزمة ، ومما يبدو أنها تعطيك من القوة والطاقة : ابتعدي لمدة ما .

وتنظر سلمى في المرأة ، وتلاحظ تفاصيل وجهها الكآبي ، وتنهد :

— لن أستطيع أبداً أن أتقدم بهذه الصورة لأمي ، إنها ستفهم فوراً ...

— إنها ستفهم وستساعدك .

— أنت لاتعرفين أُمي . فلقد عاشت أسوأ الأحداث ، وظل رأسها عالياً . وهي تحتقر الضعف . وأنا لا أجرؤ على تخيل نظرتها إليّ ، عندما تراني في هذه الحال .

— عفوك يا سلمى ، إنها أملك ، وهي تحبك !

— إني أختي أنها لاتحب إلا الصورة التي صنعتها لنفسها عني ...

« الواحد من أجل الكل ، والكل من أجل الواحد ! » حروف حمراء ، على أرضية بيضاء . والعلم الضخم يقطع طريق قيصر باغ ، على حين أن أصوات الأبواق تنفجر في كل مكان . وها هم الخدم ، في ثيابهم الرسمية ، يبعدون المارة ، ويرغمون الباعة الصغار على جمع معروضاتهم : وتصل المسيرة ، فيفسح المجال للسادة ! والأبقار وحدها تستمر في اجترار طعامها في وسط الطريق ، غير مبالية بالتوسلات .

وحرك الضجيج فضول سلمى ، فانطلقت إلى الشرفة : فرأت السماء تعج بالأعلام ، ويسمع الناس من بعيد صهيل الخيول ، وصي الفيلة ، وتتموج ، مقابل الشمس ، مظلات مذهبة ومفضضة فوق رؤوس المشاركين في المسيرة التي تتقدم ببطء . ثم يلاحظ الناس مجموعة الفيلة الملكية ، المغطاة الظهور بقماش من البروكار : وعلى رأسها الفيل الأبيض فيل راجا نامبور ، الذي يجلس في هودجه المزركش بالأحجار الكريمة . وحوله تنتشر اللافتات التي كتب عليها :

« الوحدة ضد البولشفيك » ، و « الراجاوات والمهرجاوات موحدوا الكلمة للدفاع عن الشعب » .

ويتبعه أُنْداده ، من أمراء وزاميندارات ، جاؤوا من كل مكان من المحافظة : وهامهم يسرون ، بفخفخة كبيرة ، للاحتجاج على القوانين الظالمة التي تبناها حزب المؤتمر ، هؤلاء الشيوعيون الذين يحاولون دفع رعاياهم المخلصين إلى التمرد . ولقد خطرت هذه الفكرة « لنقابة الراجاوات » التي قرّرت هذه المظاهرة ، وهي أول مظاهرة معدّة للتأثير في حيال شعب موزّع بين دعايات خفية مغرضة .

ولقد تشكّلت هذه النقابة في لوكنوف ، قبل عدة أشهر ، أثناء انعقاد جمعية ، كانت تضم عدة مئات من صغار الحكام ، وقررت القيام بالنضال . وقام رئيسها راجا نامبور بإلقاء خطاب صُفّق له طويلاً . وكان يلح فيه على ضرورة الوحدة لمحاربة الحكومة الجديدة : « إن علينا أن ننسى خلافاتنا ، وأن نكون مستعدين لكل التضحيات للحفاظ على وضعنا التقليدي المشرف كرماء » . ولقد اتحدوا جميعاً ، ذلك الشعار الذي تروقه جرائته الثورية ، بمقدار ماتصدمهم : « الواحد من أجل الجميع ، والجميع من أجل الواحد ! » . وما من أحد يؤمن به حقاً ، ولكن ماذا يعني الشعار ؟ إن عليه فقط أن يرنّ جيداً في الأسماع .

— المجانين !

وخرج أمير ، وراء سلمى ، ليقف على الشرفة . وكان ينظر إلى زملائه ، ووجهه متقلّص .

— ترى ألا يفهمون ما يضحك الناس في نشر كل هذه الفخامة لإعلان أن الدولة تودي بهم ؟ إن هذا نوع من الإثارة والتحريض ! ولقد حاولت أن أشرح ذلك لهم ، فلم يريدوا الإصغاء إليّ ، وأجابوني ، قائلين : « إن شعبنا طفل لا يحترم إلا القوة والفخامة . فإذا بدا لهم أن علينا سيماء الضعف ، فإنه سيحاول سحقنا . وبالمقابل ، فإننا إذا أظهرنا قوتنا ، فإنه يخشى أن يعصي أوامرنا ، ويخرج عن طاعتنا ، ويتردّد في الانقياد لتعاليم المؤتمر » . وعبثاً ما قلته لهم إن الشعب في سبيله إلى التغيير ، وأنه بدأ يعي حقوقه ، فلم أنجح إلا في حملهم على توجيه الشتائم إليّ . ثم إنهم اعتبروني عميلاً للإنكليز !

وكان في صوت أمير من المرارة ما تأثرت به سلمى . فهذه أول مرة منذ أشهر ، يصارحها بما عنده . وتريد أن تقول له : إنها تفهمه ، ولكنها لا تجرؤ على ذلك . فمنذ تلك الليلة التي سكرت فيها ، قام بينهما نوع من القبول بحالة واقعية . فهما يعيشان الواحد ، قريباً من الآخر ، بوضع الجمالة ، واللياقة ، ولكنهما غريبان ، أحدهما عن الآخر . وهو لم يوجّه إليها أي لوم ، ولم يطرح عليها أي سؤال ، واكتفى بنقل أمتعته إلى أجنحته القديمة . وانقطع نهائياً عن الاتصال بها ، ولم يعد يحاول

أن يمسّها، فخفف ذلك عنها، كما لو أن الحمى الشهوانية التي استولت عليهما، وتجاها وشقيا وغرقا فيها، جانبتهما الآن، فجأة، فلم يعودا يذكرانها تقريباً.

وكأنما اتفقا ضمناً على بعض الأشياء. فهما لا يخرجان مطلقاً، وهي نفسها لم تعد راغبة في أن ترى أحداً. وهي تستغرب أن تراه — وهو الذي كان حريصاً على أناقته — يتجول في أنحاء القصر بالبيجاما، ويقضي أيامه في تدخين الهوكاه، ويلعب بالشطرنج بصورة لا متناهية، مع بعض النواب أو أصدقائه الحميمين.

أما الآن، فقد بدأت تفهم.

وأمر يظل يتكلم، كما لو أنه لا يستطيع أن يمسك على الفأض من مرارته.

— إن بعض الأمراء لم يعودوا يحبوني. ويعتبرون أنني خنتهم، وأني عندما أردت أن أتنازل عن بعض حقوقي، فكأنما تواطأت مع المؤتمر. وحتى مع بعض الأصدقاء القدامى، لم أعد أستطيع النقاش. فهل أنا الذي يخطيء عندما أحسب أن الديمقراطية هي الوسيلة الوحيدة لتقدم الهند؟

وشدّ على قبضتيه، وأخذ يزرع القاعة جيئة وذهاباً.

— وأتساءل أحياناً عما إذا كانت هذه السنوات التي قضيتها في إنكلترا لم تكن لعنة. ففي البداية كنت أتمثل أفكارهم، لكي أحسن محاربتهم، ولكنني تغيرت، على غير وعي مني. وانتها إلى إقناعي بأن قيمهم شاملة، وأن الأخلاق كانت «بيضاء»! أما الآن، الآن، فلم أعد أعرف... إني أكرههم، وفي الوقت نفسه أشعر أنهم على حق، ضد أفكاري أنا... ومن هنا جاء انتصارهم. وأغلب الظن أنهم سيزاحون عما قريب، ولكنهم في الحقيقة باقون — وهنا يضرب على جبينه — هنا في أدمغتنا، في أدمغتنا كبعض. فنحن جميعاً الذين سنتولى قيادة الأمور في هذا البلد، لأننا تلقينا ثقافة حديثة، ترى من نحن؟ نحن هنود قادرون على الفهم، وعلى تحقيق مطامع شعبنا؟ أم أننا نسخ سيفة عن الإنكليز تفخر بأنها حققت الاستقلال، ولكنها ستعمل على إدامة العبودية؟

«وأنت أيضاً، أنت إذن، تشعر بأنك أحنبي؟»

وفي تلك الليلة، نام أمير وسلمى معاً، وتحابا بنعومة، كما لو أن كلاهما يحاول أن يواسي الآخر.

— لا ، يا عزيزتي ، إنك لاتستطيعين الخروج . فهناك مظاهرات في كل حي أميناباد .

فمنذ أكثر من شهر ، فرضت الحكومة تطبيق (المادة ١٤٤) وهي تقضي بإعلان حالة الطوارئ نصفياً ، لكي تمنع الهنود والمسلمين من التخاصم فيما بينهم . وكانت لوكنوف قد بقيت حتى ذلك الحين ، هادئة نسبياً . ولكن المذابح في المدن والقرى المجاورة ، زادت التوتر بصورة خطيرة . وعلى الرغم من التدابير البوليسية ، فإن الناس كلهم يتظاهرون : فالطلاب المسلمون يتظاهرون ، لأنه يُرفع على سطوح المدارس علم المؤتمر ، ويُمنع علم الرابطة من أن يكون إلى جانبه أو مكانه . والفلاحون يتظاهرون ، لكي تقوم الدولة بإرغام الأمراء على احترام القوانين الجديدة التي صدرت لمصلحتهم ، والأمراء يتظاهرون ، لكي يعلنوا رفضهم ، وجماعة اللامساس يتظاهرون لكي يسمح لهم بالذهاب إلى المعبد ليؤدوا الصلاة — وهذا حق يجردهم منه الهندوس — والمسلمون يتظاهرون لأنهم يقسمون على تربية ذات طابع هندوسي ، والهنود يتظاهرون ، لأن المسلمين يعاندون ويستمترون في ذبح البقر وأكلها .

وحتى الآن ، أمكن تجنب المجابهات ، ولكن إلى متى تظل الأمور على ما هي عليه الآن ؟ وكان المستأثرون يستخدمون استراتيجية اللا عنف ، ضد المؤتمر ، تلك الاستراتيجية ، التي ظهر نجعها ضد المحتل البريطاني ، فيكتفون مؤقتاً بالتظاهر ، والمسيرات . ويوماً بعد يوم يزداد عدد المساجين ؛ ولم يعد في طاقة الشرطة أن تجابه الموقف .

وتفقد سلمى صبرها .

— يجب أن أخرج . ولاتنس أني سأسافر إلى بيروت في بحر أسبوع ؛ وعلى أن أشتري هدايا لأمي .

وهذه أول مرة ، منذ زواجها ، تعود فيها إلى لبنان ، وترى السلطنة . وهي من السعادة بحيث لا يستقر بها المكان . وتنوسيت كوابيس الأشهر السابقة . وعادت تأكل بصورة طبيعية ، ولا تفكر في الشمبانيا أبداً . وقليلًا قليلًا تغيّرت نظراتها ، ولم تعد يظهر فيها القلق ، كما أن وجهها لم يعد كالمقطعة المبقورة .

ولقد تطوّرت العلاقات مع أمير . وخلت من العنف والآسي . وتعلق سلمى على موقفها هذا ، فتقول : « نحن تماماً كزوجين قديمين » ساخرة من جهة ، ومندهشة من أنها تشعر من جراء

ذلك بشيء من التخفف من همومها . وهي تذوق الآن بحلاوة هذه اللامبالاة ، المريحة جداً ، على كونها شعرت ببعض الخيبة في آمالها ، لأن أمير يتقبل هذا الوضع بكثير من اليسر .

غير أنها لم تعد تشتت أن تطرح الأسئلة على نفسها ، ولم تعد تفكر إلا في بيروت ، والبيت الأبيض الذي يحس الاستقبال ، وابتسامات أمها ، ودلال الكالافات ، وعبادة زينيل ، وأصدقائها ، وإلى كل شبابها الذي ستعود فتلقاه !

— هوزور ، هذه رسالة لك . هذا ما يقوله الخصي بصوت خشن بعض الشيء .

وكان على الصينية الفضية ورقة زرقاء صغيرة . إنها برقية من بيروت .

وتصيبها الحيرة ، وتنظر إلى أمير .

— حسناً ، يا أميرة ، افتحي ! لا ريب أنها من السلطانة التي تؤكد أنها ستكون في استقبالك لدى وصول الباخرة .

— تؤكد ؟ ولم تؤكد ؟ طبعاً سيكونون في استقبالي . ولعلمهم يكونون قد هيأوا حفلة ، لاستقبالها . فهذه هي العادة هناك . وحسن الضيافة شيء مقدس : فكل الأعمال تتوقف ، ويسرع الأصدقاء إلى المرفأ وأيديهم عامرة بطاقات الزهر .

وتقلب سلمى البرقية مرة بعد مرة بين أصابعها . وبالاستناد إلى خاتم البريد ، فقد ظلت البرقية أحد عشر يوماً حتى وصلت إلى لوكنوف ، وقد مضى أسبوعان تماماً على إخبارها هي بأنها قادمة ...

وتتنفس نفساً عميقاً ، وتمزق الغلاف الأزرق ، بحركة دقيقة .

« السلطانة ماتت هذا الصباح قف كلنا ملتاعون قف نفكر فيك قف بكل وفاء . زينيل » .

وتروي زهراء لسلمى فيما بعد أنها كانت قد سمعت عويلاً ، فأسرت ورأتها ممزقة الوجه ، ضاربة جبينها بالجدار . وحاول أمير وإحدى الخادومات أن يمنعوها عن هذا ، ولكنها كانت تدفعهما برفس من أرجلها . وظنت زهراء أنها أزمة جنون . فقد كان وجه سلمى دامياً ، ولم تكن تسمع شيئاً .

وكانت زهراء ، المختنقة حزناً ، قد رأت أخاها يمسك بالكوداك التي كانت موجودة على

إحدى الطاولات ، ويستعد لأخذ الصور . وما كاد يأخذ الصورة الثانية ، حتى كانت هذه المرأة التي ظُن أنها صماء عمياء ، عن كل ماهو غير ألمها ، قد تجمّدت ، ثم انقضّت ، كاللبوة ، على الرجل ، ولكنها قبل أن تصل إليه سقطت على الأرض ، مغشياً عليها .

وخلال أسبوع ، كان الخوف كبيراً على عقلها . وتتابع أحسن الأطباء في البلد لزيارتها . وعالجوها بخليط من الأفيون وبعض الأعشاب التي يعرفونها هم وحدهم أياماً بلياليها ، حتى استطاعوا حملها على النوم . وكانوا يقولون : « إن الألم المفرط الشدة ، لا ينبغي أن يُجابه مباشرة ، وإلا فإن العقل يتمرد ويهرب . » . وكانوا يشرحون هذا بقولهم ، إنه يجب لتهدئة آلام النفس ، أن نعدم الشعور ، وإبقاء الجسم في مستوى الحياة النباتية ، وحتى إضعافه ، كيلا يجد الألم ، عند اليقظة ، ما يتغذى به .

« ترى كيف استطاع ؟ إني لن أسامحه أبداً » .

وبالتدريج كانت سلمى تخرج من هذا الضباب المزعج الذي كان يحيط بها منذ أيام . وكانت أول حركة لها تعبّر عن الاستنكار ، استنكار موقف هذا الشيطان الذي لم تعد تقول : إنه زوجها ! فكيف جرؤ ، بدلاً من مساعدتها ، على السخرية منها ؟ وهو يعرف تماماً ، كم كانت تحب أمها .

وعندما قضت أئندجيم نحبها ، استقر في ذهن سلمى ، أن طفولتها ، وشبابها ، هما اللذان ماتا . وأصبح ماضيها كله مهدداً بالزوال ؛ إذ لم يعد هنالك من شخص يتذكر معها ، ويتذكر بها — فهما لحم واحد ، وذكرة واحدة . وكانت عيناها عينيها ، وكانت أنفاسها تتملك العالم ، وتعيده إليها ، مدجّناً ، مرحباً بها . وكانت شهقاتها تخنقها . وهي لا تقبل هذا التخلي عنها . وماذا كان يُهمّ ، إذا كانت لم تر السلطانة منذ سنتين : إذ إن مجرد معرفتها بأنها موجودة على قيد الحياة ، كان يشد من عزمها . « فيماذا كانت تفكر حولي ؟ » وماذا كانت ستفعل لو كانت مكاني ؟ وهكذا كانت تتساءل دوماً ؛ ذلك أن أمها كانت باستمرار إلى جانبها ، حتى هذه الأشهر الأخيرة التي حاولت فيها أن تنساها ، إذ ما كانت لتحتمل نظراتها ، أو لعل نظراتها هذه هي التي لم تعد تحتملها ؟ ولم تكن لتجد فرقاً بين الأمرين ، إذ حتى إذا كانت تتمرد في بعض الأحيان ، فإنه كان بينها وبين أمها هذا النوع من الحلول ، وهذا الاتفاق على الشيء الأساسي .

ولقد قتلتها ... بلى إنها هي ، سلمى ، التي قتلتها ؛ وخلال هذه الأشهر المجنونة التي كانت

تحاول فيها تهديم نفسها، كانت تهدم السلطنة في الحقيقة. والعلاقة التي كانت تصلها بأُمها، علاقة الحياة الأقوى من قرب المكان، على كونها ضعيفة إلى درجة اللامبالاة، هي التي تحطمت الآن. وقد ماتت أمها من جرّاء ذلك...

وكانت قبل ذلك بكثير، قد قتلها بضربات صغيرة، أو قل جرحتها تماماً كالشجرة التي قلمت فتقص منها بالتدرّج، تلك الأغصان، التي تحجب النور أكثر مما يجب. ولقد بدأ هذا، منذ زمن طويل. وحتى في استامبول، وهي تتذكر ذلك: فهذا الحقد الذي شعرت به يوم كانت تلعب دور السلطان، وبدأت تمن في ضرب أحمد الذي كان يمثل دور الجنرال اليوناني؛ كان قد أثار في السلطنة أعظم الاستياء وحملها على أن لا تصغي لمبرراتها، وحبتها في غرتها. وكان ذلك عقوبة غير مهمة بالقياس إلى اليأس الذي شعرت به، يأس الطفل، وهو يواجه ظلم هذه الأم، تلك الأم التي بلغت درجة عليا من الكمال.

وفي لبنان... كانت قصة رسائل الأب التي كانت السلطنة تخفيها عنها — لمصلحتها — ثم بعد ذلك فرضها على ابنتها أن تتزوج من أحد الأمراء، فرضاً صامتاً، ولكنه لا يلين. كل ذلك كانت سلمى تنقاد له دوماً، ولكنها رغم هذه الإطاعة — أو بسببها — كانت تتمرد في أعماق نفسها.

أَيكون أمير إذن قد فهم ذلك قبلها؟ أو هذا هو المبرر لسلوكه المستغرب؟ وهل اكتشف من وراء الألم، تخففاً من عبء كانت تحمله، وتخفيه حتى عن نفسها، وهي تعول أكثر فأكثر، وتشكو ياسها؟ وهل كان يملك كل هذه الرؤية الواضحة التي تنشأ عن تجربة طويلة في التنكر، أو في التباس العواطف، ليلاحظ في جنون سلمى ومحاولتها جرح نفسها، تلك الحاجة إلى أن تعاقب نفسها، لأنها لم تتألم بما فيه الكفاية؟

ويرتجف صوت زهراء قليلاً، ويهتف:

— آبا، إن أمير ياي يريد أن يراك. ولقد رفضت البارحة، وقلت له إنك ما تزالين متعبة جداً. أما اليوم... آبا، فإنه لن يصدقني... إنه يبدو تعيساً جداً. وهو لا يفتأ يكرّر أنك قد مرضت، بسبب ما ارتكبه بحقلك من الأخطاء. فأرجوك، آبا، إنه لشد ما يحبك!

— أيعبني؟ حسناً... إن كان يحبني فسيستظر حتى أكون أنا راعبة في رؤيته.

وتسند رأسها إلى الوسادة، وتغلق عينيها: إذ يجب ألا تدع نفسها تلين، أو أن تتساهل.

فإذا كان عليها أن تعيش هنا — وأين ستذهب الآن؟ — فإن عليها أن تفرض هي القواعد التي تناسبها . فلقد قضت حياتها كلها، وهي تحاول أن تعجب الآخرين، وكانت تريد أن تكون الفتاة الصغيرة التي تعشق، والزوجة التي يذوب الزوج من حبه لها، والرائي التي تحترم . أما بعد الآن ، فقد انتهى هذا كله ! وذهب مع السلطانة ، ذلك الكائن الوحيد الذي كان يمكن أن يفرض عليها قانونه .

وكأنما وُجد من يحمل سلمى على التتهد ، من مكان بعيد ، فنفخ لها صدرها : إنها حرة ! ولأول مرة تشعر بأنها حرة تماماً .

ومضى أسبوع ، ولا يزال الغثيان الذي يعتريها ملازماً لها ، ويستبقها في سريرها . وقد فرض الحكيم صاحب حمية قاسية ، لأنه يُشخص بداية يرقان : ففي البلد حالياً ، عدوى من هذا المرض .

— أيرقان ؟ ما أكثره حقاً . فما كنت في أي يوم من الأيام ، مثلك الآن ، تورّد وجه !

وجاءت لوسي لتزور سلمى ، وعندما تحدثت هذه عن معاناتها ، ظهر عليها لوائح من فهم .

— أولاً يكون ذلك ، على الأرجح ... حادثاً سعيداً ؟

وارتعشت سلمى .

— حادثاً سعيداً ؟ كلا ، بالتأكيد . إن هذا مستحيل !

وعضت سلمى شفتيها ، أمام الدهشة التي ظهرت على صديقتها : ولا يسعها على كل حال أن تشرح لها أنها منذ أشهر ، وخاصة منذ أن سكرت احتفالاً بموت كمال ، لم تعاشر أمير ... لا ، بل فعلت ذلك ... مرة واحدة . وكان ذلك مساء مظاهرة الأمراء . فقد كان يبدو تعيشاً جداً ، فتلاقيا ... كطفلين ضائعين ، على ما كانت تقدر . أفيمكن أن يكون هذا قد تم ... في تلك الليلة ؟

وتقرر لوسي أن تتولى الأمر بنفسها بعد أن رأت ما رأت من دهشة سلمى ، واضطرابها .

فقالت لها :

— سأرسل لك طبييتي بعد هذا الظهر . وهي امرأة متميزة ، وأرجوك أن لا تظهرني بهذه السحنة اللئيمة : فليس بالمصيبة الكبرى أن تنتظر المرأة طفلاً .

وبعد أن ضمّت سلمى إليها، قليلاً، خرجت وهي تنفجر ضحكاً.

وما كادت الطيبة تترك الغرفة حتى هُرعت النساء إليها، وكخلية من النحل تزاوجن حول السرير لتهنئة سيدتهن الراي. فمنذ سنتين، وهنّ ينتظرن ويراقبن أدنى الشحوب في وجهها، وأقل علامة من علامات التعب، ولا يرين شيئاً مما يتوقعنه، ففقدن الأمل. وكن يتألن، ويقلن: ما أكبرها مصيبة أن تكون امرأة بهذا الجمال، وهذا النبل، ولا يكون لها حظ في الإنجاب! ... وماذا يستطيع السيد أن يفعل، فيما عدا الطلاق؟ وكثيرات كن أولئك الطامحات، المختارات سلفاً، ليكن البدائل نياية عن الأميرة — فالراي عزيزة لم تعد تريد أية غريبة.

ولكنه الآن هنا، ذلك الوريث، والسيد المقبل، أخيراً، أو تقريباً هنا. ومن شدة الفرح، والاعتراف بالجميل، تراهنّ يقبلن يدي الأميرة، ويُنقّلن حبات المسبحة، وهنّ يتمتمن الأدعية التقليدية بهذه المناسبة.

وسلمى، المتمددة في سريرها، لا تراهن، ولا تسمعهن، وتتأمل في الطرف الآخر من الغرفة شعلة الشمعة التي تتردد في لفظ آخر أنفاسها. وهذه هي اللحظة التي تفضلها، أي لحظة النضال الشجاع للهب الذي يأبى أن ينطفئ. وعندما كانت طفلة، كانت تحبس أنفاسها وتثبت نظرها عليه، لكي تدعمه بقوتها. وعندما كان يموت، كانت تبكي في بعض الأحيان.

وانطفأت الشمعة. فأحسّت سلمى على خديها ببرودة رطبة. ماتت ... أيندجم ماتت في اليوم نفسه الذي وهبت فيه حياةً تحل محلها، كما لو أنها كانت تزول لتخلي لي المكان، أو كما لو أنني انتظرت اختفاءها، لكي آخذ مكانها ...

ولقد حَسَبْتُ، ثم حسبت حساباتها، وما من شك رأته ممكناً: كان ذلك في مساء اليوم الذي ماتت فيه أمها صباحاً ... فكأن للجسد من هذا العلم السابق، ما لا تدركه عقولنا ... فقبل أن تعرف هي، عرف هو. وفجأة لاح لها أنه مادامت أمها تعيش، فهي، سلمى، لا يمكنها إلا أن تكون بنتاً. أما الأم فكانت السلطانة؛ ولم يكن في وسعها قط أن تأخذ مكانها.

أولاً تراها تعود إلى الهديان من جديد؟ فالاعتقاد بأن جسدها كان يمتنع عن الإنجاب، حتى ذلك اليوم الذي أدرك فيه على بعد آلاف الأميال، تلك العلامة التي تسمح بأن يفتح؟ بيد أن الحقيقة

وبتردد، وخجل، وضعت يدها على بطنها. فالحقيقة، هي هنا الآن، وهذه المرة لا تستطيع، وكذلك لا تريد أن تهرب منها! ويكل انتباه، تتحسس، رجفة ما تحت راحة يدها، فيبدو لها أنها تدرك عالماً يفتح. فتغلق العينين، لتغرق في السعادة.

— يا عزيزتي، إن هذا أمر رائع!

وأقبل أمير مبتهجاً، مثألقاً، واقترب من السرير، وبدأ أنه شديد الاضطراب: وكأنما كانت قد أساءت الحكم عليه، ولكنها لم تفكر قط بأنه سيشارك بهذه الصورة في سعادتها.

— إنه يجب أن تعني بنفسك، لاسيما، وأني أريد من ابني...

«ابني...؟» ولم تسمع سلمى نهاية الجملة. وفجأة تصلبت وقالت لنفسها: «ولكنه مجنون، إذ لا علاقة له بهذا الذي يوجد داخل جسني، وما لأحد من علاقة، إنه ابني فقط!» وبدأت ترتعد من الخوف: إنهم لن يأخذوا منها وليدها! وليس لهذا الرجل الذي شاركها مضجعها أن يدعي لنفسه حقاً فيما حصل! فتنظر إليه محمقة، وبعدوانية: فكل ما حصل هو أنه كان زوجاً مقبولاً، وحبیباً سيئاً، أما أنه كان أباً؟ ولكن هل كان أباً لولدها؟ وبصورة عزيزية وضعت ذراعها حول بطنها، وضغطته قليلاً. فهو القلعة التي تنزل، وتتحصن، وتحمي الكنز الثمين الذي يترقبه الأجنبي، ويطمع فيه.

ذلك أنها، فجأة، لم تعد تشعر أنها «الأجنبية» ولم تعد تشعر أنها «زائدة»، فهي هنا، مغروسة الجذور في هذه الأرض التي استقر في ذهنها فجأة أنها جزء لا يتجزأ منها، وأنها مشدودة إليها بألف جذر، فهي الطين الأسمر، والعشب الذي يتثنى من أثر الرياح، وهي الغابة العظيمة والحرارة الهادئة لهذه النهاية لأُمسيتها هذه.

وقليلاً فقليلاً عادت إلى هدوئها، واندهشت من أنها خافت إلى هذه الدرجة: فهذه الحياة في أعماق بطنها، من تراه يستطيع أن ينتزعها منها؟ وفي وسعهم أن يتحدثوا، ماشأوا، فهي لا تسمعهم. بل إنها لا تفهم حتى تلك الأهمية التي كانت تمنحها لن، من قبل، كما لو أن وجودها يتعلق بما يقبل، وما يقرن، أو كما لو أنها قوقعة فارغة.

وعلقت نظرتها بالرجل الجالس إلى جانبها، فتبتسم له، غير مبالية.

— ولكن إياك إياك أن تأكلي السمك . فهذا يجعل بشرة الرضيع بشرة بشعة ! عليك أن لاتعطري نفسك بعد الآن ، ولا تتزيني ، ولا تضعي على شعرك زهراً ، فهذا كله يتبر حسد الجن ، ويمكنهم أن ينقموا على الطفل ، ويجعلوا حظه أسود .

وتعدّد البيجوم نعمة ، بلهجة هادئة ، مجموعة الوصايا والممنوعات — مما يحب أن تعرفه كل امرأة حامل — وكانت النساء حولها يوافقنها بهز رؤوسهن . فمن غير الجدة يمكن أن ينصح الراي ؟ فأحفاد أحفادها لم يعودوا يحصون ، وكلهم على درجة عالية من القوة والجمال ، وهذا برهان على أن أمهاتهم عملن بدقة برأي الأجداد أو الجدات .

وهكذا فلكل ساعة من النهار ، وكل مناسبة أو ظرف ، نظام دقيق ، ينبغي أن يراعى . ثم إنه يكفي أن يفكر الإنسان قليلاً لكي يفهم . لكن صبايا هذه الأيام لا يثقن إلا بالطب الإنجليزي (الإنكليزي) ، ويحسبن أن الوصفات القديمة قد تجاوزها الدهر ، وأية مصيبة ! وهانحن نلاحظ نتائجها الكارثية : فالإجهاضات تنكاثر ، وهؤلاء الأطفال الذين يولدون نصف مشوهين ، وطفل نشأة ، الذي غطّي نصف وجهه ببقعة شبه بنفسجية ... على أنهم قالوا لها ، مع ذلك ، إنه اعتباراً من الأسبوع الحادي عشر ، ينبغي ألا تأكل الشوندر .

وكانت سلمى تصغي ، مكتئبة ، وتطرح بعض الأسئلة ، لتسّر من حولها . ومع ذلك فقد كانت رعاية هؤلاء السيدات تمس شغاف قلبها . فمئذ أن انتشر الخبر ، بدأت تصبح قبلة الأنظار ، والموضوع الرئيسي لكل المحادثات ، والآمال ، والقلق . وأصبح القصر يعيش على نسق رغائبها ، وكل واحدة فيه لا تنتظر إلا أن تقدّم خدمة . وحتى الراي عزيزة التي أمرت بأن يغلف كل صحن ، وليس الصحن الرئيسي وحده ، بالورق المذهب ، ذلك أن الذهب — وهذا شيء معروف — يهب القوة للأم ، ويقوي عظام الـ « بيبي BEBÉ » الجنين .

ولو أنها في وضع عادي ، لاستاءت أكبر الاستياء مما تحاط به ، أو يقال لها ، أو توصى به . أما الآن فإن ذلك يطعمئها . فلولاها لما كانت متأكدة من أنها حامل . وعبثاً سألت كل مساء ، المرأة ، واستوضحت بطنها ، وثديها ، فما رأت أنها تشعر بشيء . وحتى الغثيانات ، فإنها قد تباعدت . أتكون الطيبة قد أخطأت ؟ فقلقت سلمى ، وأصبح أقل ماتشعر به من الوجع ، موضوعاً يشد منها الاهتمام .

ومئذ الآن ، نراها تقضي أكثر يومها ، متمددة على السرير المترجح في بهوها الذي أعيد

تنسيقه ليكون مناسباً للغرض . ومن هناك ، لا ترى إلا قمم الأشجار ، وزوايا من السماء ، من خلال أوراق الشجر . ولم تعد لها أية رغبة بالخروج ، وأقل من ذلك أن تقوم بزيارة الصديقات ... وصار كل ههما أن تحبلم .

لئن كان الجنين صبياً ، فسوف تسميه سليمان ، باسم جدها الشهير سليمان الكبير أو العظيم . وستريه بصورة يصبح معها ملكاً عظيماً . وسيقوم بإصلاحات جريئة ، سيفهم الشعب أن هذه الإصلاحات تتم من أجله ، وسينقاد له . وقليلًا فقليلًا ، وبالتدرج ، سيحرر النساء ، ذلك أنها تكون قد جعلته حساساً لما يعانيه من شقاء . وكل ما كان أمير يتردد فيه ، لأنه متقاسم بين ردود فعله الإقطاعية ، وقناعاته الليبرالية ، وكل ما حاولت هي ، الغربية ، أن تفعله ، فلم تنجح ، سيحققه ابنها . وستكون إلى جانبه لتنصحه . وهما وحدهما ، سيغيران صورة الحياة في بادالبور ، وينشئان دولة عصرية ، تحسدها الدول الأخرى ، وتجرب أن تقلدها . وسيكونان رائدين ، ويرهنان أن الهند ، من غير أن تفقد روحها ، ومن غير أن تنسج على مثال الإنكليز بالضرورة ، ستصبح بلداً عظيماً .

وإذا جاء المولود أنثى ؟ ...

هنا (يتأرجح) تفكير سلمى ... ذلك أن ذكريات الحبس في البيت ، والبراكاهات السوداء ، والزواج ، والأطفال ، تحتشد في نفسها . والبنت ... المحجبة ، والمبيعة ... فترتجف .

وفي الأيام التالية ، تعود الفكرة إليها ، فتعذبها . ترى كيف لم تفكر بالأمر قبل الآن ؟ فجميع الناس في القصر واثقون أن المولود لن يكون إلا ذكراً ، وأنها هي نفسها مقتنعة . ولكن إذا كان بنتاً ، فماذا يفعل أمير ؟

ولكي تطرح عليه السؤال ، اختارت أمسية بدا فيها حسن المزاج بشكل خاص . فارتعد كما لو أنها تشتمه ، ولكنه سرعان ما عاد فتهاك .

— بنت ؟ حسناً . سأجد لها العريس الأغنى ، والأنبيل ، في الهند كلها !

— وإذا لم تكن تريد الزواج ؟

فنظر إليها مندهشاً ، ثم بدأ يضحك .

— أية فكرة ! أرى الناس بنتاً لا تمنى الزواج ؟ إن الزواج هو غاية كل امرأة ، وشرط

سعادتها . وهي مخلوقة لكي تنجب الأطفال . وأنت نفسك ، يا عزيزتي ، ومند أن صرت حاملاً ، بدأت تتألقين .

وتسكت سلمى عن الجواب . فليس هذا هو الوقت المناسب لإغضاب أمير ، ولكنها بحاجة إلى أن تعرف .

— وإذا كانت بنتاً ، فهل سيكون عليها أن تضع الحجاب وتبقى سجيّة ؟
ويهرز أمير رأسه ، وعليه هيئة المثقل بالهم .

— سلمى ، لماذا تطرحين عليّ هذه الأسئلة . أنت تعرفين أنه يجب ... وإلا فإن سمعتي وسمعتها ، ستمرغان بالتراب . فما من شخص يقبل أن يستقبلها لديه ، ومجتمعا لا يمزح حول فضيلة النساء . ولكن اطمئني . إنها لن تتألم من ذلك ، ذلك أنها لا تكون أبداً قد عرفت ، ولا يتاح لها أبداً أن تعرف شيئاً آخر .

« اطمئني » ... ولكن هذه الملاحظة المعدّة لتهديّة سلمى ، أزعبتها : فابنتها لن تكون قادرة إذن على تخيّل الحرية ! وهذا مستحيل ، فهي لن تلد ابنة ليجعلوها سجيّة . وطفلتها لن تكون واحدة من هؤلاء الفتيات الصغيرات النفوس ، المحدودات ، اللواتي ينحصر أفقهن في خير الأسرة . بل ستكون امرأة قادرة على العمل ، وستساعد رفيقاتها على التحرّر من الضغوط التي ما فتئت منذ قرون تعمل لخلق ذكائهن ، وإرادتهن . إن ابنتها ستناضل ... ولا يمكن معاملتها كأجنبية . ذلك أنها ، هي على الأقل ، سيكون لها الحق في أن تناضل .

ولكن هل ستكون لها رغبة في ذلك ؟ وهذا التمرد الذي يسكن سلمى ، ترى هل تكون قادرة على نقله إليها ؟ أو يمكن أن تُفهم الظلم ، لمن لم يعرف العدل ؟

وسلمى يخيفها ما للهند من وزن . وينعومة ، ويوماً بعد يوم ، تضعف الحماسة ، والقدرة على الاستنكار ، وببطء ، وبلاضجيج ، تقضي على الإرادة ، بقضائها على الرغبة .

وتتساءل :

« كيف سيكون لابنتي ، هذه القوة ؟ فأنا التي عرفت الحرية ، ينطبع في ذهني أحياناً ... »
وتتردد سلمى ، حول هذه الكلمة التي تحتقرها ، ومع ذلك فإن من الصحيح أنها منذ بعض الوقت ، بدأت تتلاءم . إذ لقد وصل الأمر بالمرأة الشابة ، القليلة الصبر ، الصلبة العقيدة ، العنيدة ، إلى أن

تفقد الراحة التي تحيط بها ؛ وتشعر بأنها محمية . وقليلًا قليلًا تنزلق إلى حب الرفاهية ، على كونها تهدد نفسها بالتوهم بأنها لا تزال هي ، هي .

وقد قرعت جرس الإنذار عليها ملاحظة صدرت عن إحدى الخادومات ، إذ قالت :
— نحن سعيدات جداً ، فرانيتنا تغيرت كثيراً . إنها الآن امرأة هندية حقيقية .

وعادت إليها الآن صورة أم راني شاهينا . فقد كانت صورة الهزيمة ، والتعاسة ، ذلك أنها استغنت عن حبها للمغامرة ، والأهواء ، لكي تبقى قريبة من أطفالها . ولكنها لم تقبل قط هذه الخيانة لنفسها ، وأخيراً هربت ... إلى الجنون !

« سافري ، أنقذي نفسك . فما فاتك الوقت بعدا ! » إن هذا الصوت الأجش یرن في أذني سلمى . ويومئذ لم تأخذ هذا التحذير مأخذ الجد ، معتبرة أنها قادرة على مقاومة أي نوع من الضغوط .

والإنسان يقاوم القوة . ولكن هل يقاوم الرقة والنعومة ؟ فشعرت سلمى فجأة بالخوف . وهي تعلم أنه ما من شيء أكثر خطورة من هذا الدفء السار ، وهذه الغبطة المرتوية ، التي يسميها الناس باسم السعادة . وتكاد هي أن تقع في مصيدها ، إما بحكم التعب ، أو ربما بحكم فقدان الأمل . ويجب أن تسافر ، وتهرب ، قبل أن يفوتها الوقت . وستهرب لأنها بائسة تعيسة ، بل لأنها لا تريد هذا النوع من السعادة .

— وإذن فماذا اخترت؟ أباريس، أم لوزان؟

وتجمّدت أصابع سلمى على البيانو. والتفتت باتجاه لوسي: ترى كيف استطاعت هذه الشيطانة أن تحزر؟ وحباً بإخفاء اضطرابها، نظاهرت بأنها مشغولة بتأمل حجرة من الياقوت الأحمر، غير المصقول، قدّمه إليها أمير منذ قليل، وتمتعت:

— السفر؟ ليس موضوع بحث، في حالتي أنا!

— في حالتها! ...

ورفعت الفرنسية عينها إلى السماء، كما لو أن الكيل قد طفح بها.

— أولاً يقال إنك أول امرأة في العالم تنتظر مولوداً؟ ففي مثل حالك هذا، يجب أن تسافري، أما فيما بعد، ففي الأمر بعض المغامرة. فالأطباء، حول هذه النقطة، متفقون، لمرة واحدة: قبل الشهر الثالث. وأظنك لا تريدين أن تلدي هنا، على كل حال؟

— ولكن بلى سألد هنا ... فلماذا؟

— إنها حلوة حلوة، ولكنها مجنونة تماماً، يا عزيزتي، ما من إنسان يتحمّل الولادة في هذا المكان الحقيق! ذلك أنه إذا حدث بعض التعقيد، فهل تظنين أن حكيمك الذي لا يفرّق بين

الحمل والبرقان ، يستطيع أن ينقذك من الورطة ؟ والآن لا يوجد مكان للولادة إلا في باريس أو لوزان .

وتكبت سلمى بسمه كادت أن ترسم على شفثها ، وهي تفكر في كل الذاهلات في أنحاء العالم ، مم تجرأن على الولادة في غير هذين المكانين ؛ ولكن لسنوية لوسي ، جانبها الحسن ، لأنها ربما جاءت ، دوغما قصد ، لتقدم لها حلاً للمشكلة .

فمنذ ليال عديدة ، لم تعد تنام : أفبقى أم تسافر ؟ ولئن كان صبيّاً ، فليس لها الحق في أن تحرّمه من السلطة ، ولكن إذا كانت بنتاً ، فماذا تفعل ؟ أما أن تترك القصر ولوكنوف ، فليس ذلك بالأمر الصعب — ويكفي أن يشتري الإنسان بضع خادّات — ولكن أتترك الهند ؟ ولقد تخيّلت أنواعاً من السيناريوهات — كالتنكر والحصول على أوراق مزيفة — ولكن أمير يقيم السماء ويقعد الأرض ، لكي يجدها ، ويرسل تعليماته إلى الحدود كلها .

ولكن إذا هي سافرت إلى فرنسا ، رسمياً ، لكي تلد فيها ، ثم أبت العودة ، فمن يستطيع إرغامها عليها . ففرنسا بلد اللجوء ، وأرض الحرية . وهناك لا يستطيع الراجا أن يفعل شيئاً ، ضدها .

— إن رانيات بادالبور قد وضعن دوماً مواليدهن في القصر . وهذا الذي كان يصحّ بالنسبة لنساء أسرتنا ، ينبغي له ، على ما تخيّل ، أن يصحّ بالنسبة لك .. يا أميرة !

ولقد دوى اللقب في فم الراي عزيرة ، كما لو أنه ضربة سوط : فجراً هذه الغريبة أمر لا حدّ له ! ومن حسن الحظ أن واحدة من الحشم حدّرتها مما يحاك لها . وقد وصلت في الوقت المناسب ، وكان أخوها الأحق على أن يوافق هو أيضاً .

أما الراجاه ، فكان يتمنى أن يوجد في أي مكان في العالم غير مكانه الحالي . وسواء أوافق على رأي أخته ، أم على رأي زوجته ، فإنه ضامن على كل حال ، لأنه لأشهر عديدة سيسمع شكاوى كثيرة ، وسيكون تجاه مزاج غاية في السوء . ولكنه ، في الأعماق ، غير مستاء من تدخل أخته الكبيرة ؛ ذلك أنه هنا تجاه أمور نسوية ، بعد كل حساب . وكان هو نفسه ضدّ هذه الرحلة ولكنه ربما انتهى إلى الاقتناع : فقد استطاعت سلمى أن تشعره بالقلق عليها ...

وخطرت بباله فكرة، حملت الجميع على القبول، إذ قالت :

— لنأت بطبيب إنكليزي إلى القصر . ولكن لم يوجد واحد مناسب في لوكوف ، فإننا نأتي بواحد من بومباي أو من كلكتا . وهكذا فإننا نحتاج لكل احتمال ، ونحترم التقاليد . ذلك أني أعترف بأن ملكاً لبادالبور يجب ألا يولد في الخارج . وفي هذه الأوقات العصيبة ، ويستطيع بعضهم أن يجد في ذلك مجالاً ، لانتزاع كل مشروعية عنه .

وعندما ارتاح إلى هذا الحل الذي لا يفكر في إعادة البحث فيه ، مضى إلى سبيله واختفى ، دون أن يعير انتباهاً لسحنة زوجته المذهولة أو أن يصغي إلى احتجاج أخته التي ترى أن أميراً مسلماً يجب ألا يولد على يد واحد كافر .

وكان لابد من أحداث خطيرة، حتى يعدل الراجاه عن قراره . ففي شهر آذار /مارس/ من عام ١٩٣٩ ، عندما كان هتلر قد ضمّ إليه تشيكوسلوفاكيا ، وكانت الديمقراطيات الغربية تتساءل ، في الحين الذي كان فيه المهاتما غاندي يقترح على الطرفين معاً ، نزع السلاح بصورة متوافقة ، نزاعاً سيفتح ، بالتأكيد ، عيني الهر هتلر ، ويُفقد السلاح الذي بين يديه ^(١) ، كانت لوكنوف تشهد تصاعد التوتر بين طائفتيها السنّة والشيعة ، المتعاديّتين ، تاريخياً .

وكانت النقطة التي أثارت الخلاف هي « الماد والصحابة » وهي قصيدة مدح للخلفاء الثلاثة الأول ، تصرّ السنّة على إنشادها علناً ، وهذا ماتحتج عليه الشيعة ، وتراه صورة من صور الإثارة والتحدّي : ذلك أن هؤلاء الأخيرين يعتبرون هؤلاء الثلاثة مغتصبين ، على حين أن علماً وحده هو الوحيد الذي يحق له أن يرثه ، ويقوم مقامه .

وفي ١٩٠٥ ، وبعد الاضطرابات التي وقعت فيها عشرات الضحايا ، أمر الحاكم الإنكليزي بتحريم إنشاد ماد والصحابة . ولكن منذ أن أصبح حزب المؤتمر في الحكم ، بدأت جماعة السنّة تطالبه بإلغاء هذا التدبير « الظالم » ويحتجون ، في مطالبتهم هذه ، بأن الشيعة ينشدون « التباراه » التي يعتبر السنّة ، أنها مسيئة لذكرى خلفائهم .

وهناك سياسيون هنود يؤيدون السنّة الذين هم أكثر من الشيعة بثلاث مرات ، آملين ، من وراء ذلك ، أن يكسبوا أصواتاً أكثر في المؤتمر . أمّا أن هذا يمكن أن يثير الاضطرابات ، فهذا

(١) مقابلة نيويورك تايمز ٢٤ آذار ١٩٣٩ .

آخر همومهم: أوليست كل معركة تقوم بين المسلمين، تضعف الرابطة الإسلامية وزعيمها المكروه (جناح). وعندما شعر المسلمون بأن الحكومة مترددة، بدؤوا في الأسابيع الأخيرة يكثرون من المظاهرات، ويوقف منهم المئات، والشرطة التي ينبغي لها أن تجابه هؤلاء المستائين بالإضافة إلى كل الآخرين، لم تعد تطيق هذه المواجهة.

وفي يوم ٣١ آذار / مارس، قرّرت الحكومة، على عجب واستغراب من الجميع، أن تستجيب لمطلب السنّة. وهكذا فإنّ الماد والصحابة يمكن أن تنشأ في كل مكان، وكل لحظة، شريطة أن تخبر السلطات المحلية بذلك. فثار الرعب فوراً. إذ يجابه رجال الشيعة السنّين بالصلوات والحجارة، في شوارع لوكنوف. وكانت المجاهبات الكبرى تقع أمام الإمام بارا، وتطلق الشرطة الرصاص، فتوقع القتل والحرى. فتقرّر الحكومة منع التجول، ولكن أحداً لا ينقاد لقرارها. وصار أصحاب الدكاكين يرخون الستائر الحديدية على متاجرهم، وتتوارى أكثريّة السكان، وتطوف في المدينة فئات مسلّحة. وخلال عدة أيام أوقف آلاف من المسلمين، دون أن يكون لذلك أي أثر آخر، غير زيادة الشغب والاضطراب. بل إن مجموعة من المسلحين، تصل إلى مقر المجلس، وتعتقل رئيس الوزراء الذي لا يؤذى، ولكنه امتلاً رعباً. وقرّرت النساء أن الوقت قد حان لدعم الرجال، والتظاهر في الشارع، محجبات ببركاهن السوداء. وكان سبعة آلاف شيعي قد دخلوا السجون، وبضع مئات من السنّة؛ فإذا تدخل الهندوس في الأمر — في مثل هذا الجو المشحون والمكهرب — فإن كل شيء ممكن الوقوع. ولكن حتى الجيش لن يكون في وسعه منع الحرائق والمذابح.

وتقع كيسر باغ (أو قيصر باغ) على مقربة من سوق آمينا آباد، أحد الأمكنة الكبرى لقيام المعارك. وقام الراجاه بتعزيز الحرس. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل هؤلاء الرجال القلائل، إذا ماهاجت القصر الجماهير الغاضبة؟

وفي بداية هذا الربيع، مامن إنسان في لوكنوف يستطيع التنبؤ إلى أين ستمضي هذه الاضطرابات. ولا يريد أمير، أن يغامر بأي شيء. وعليه أن يبقى. أما زوجته الشابة فستسافر. ذلك أن أعصابها سريعة العطب، وهو يخشى عليها من الأذى، وهي في حالة الحمل. وإذا لم تكن لوكنوف آمنة، فما من بلد في الهند يمكن أن يكون كذلك. والحقيقة أن إرسال سلمى إلى فرنسا، ليس بالفكرة السيئة، إذ سيرسل معها زينيل الذي لم يعد له ما يعمل في بيروت بعد موت السلطنة.

الجو مشحون بالغبار وبالحرارة الجافة في منتصف شهر نيسان /أبريل/. ومحطة لوكنوف، تقضي يوماً عادياً، مع جماهير حاملها المتصورين جوعاً، ومتسولها الذين يرافقون، إلى البهو الكبير المبني بالحجر الرملي، أولئك المسافرين الغارقين في عقود الزهر المحيطة بأعناقهم.

وتقف الإيزوتا فراشيني البيضاء المذهبة أمام الباب الفيكتوري الهائل، المحاط بأجنحة مغولية. وهناك حرس يحيطون بها، ويحملون شارات دولة بادالبور. وهم يحمونها من فضول الجماهير، التي تحاول من خلال الستائر الدمشقية، أن تلمح الرائي ذات الشعر الذهبي.

ذلك أن الخبر انتشر منذ أول الصباح، عندما جاء خدم القصر ليقيموا مرأ طويلاً من البروكار، تستخدمه الأميرة لكي تصل بصورة بعيدة عن الأنظار إلى العربية الملكية. وكان جمالها قد أصبح أسطورياً في المدينة؛ ولكنهم قلائل جداً أولئك الذين رأوها. ولكن ما نقلته الخادومات من وصف لهذا الجمال، ظل يثير خيال الناس. ثم إن كرمها مشهور أيضاً. ومن يدري ما إذا كان سفرها سيكون مناسبة لتوزيع بعض المال؟ وتنطلق من الجمهور المزدحم بعض التهافتات بحياة الأميرة، وبعض الأدعية الطيبة...

وكانت سلمى الجالسة إلى جانب أمير، قد عيل صبرها، فتبذل جهدها لكبت عواطفها. إنها لم تعد تعرف أبداً لماذا كانت تريد السفر، بهذه الحماسة. ذلك أن الرحيل عن القصر كان تجربة قاسية لم تكن لتتخيلها، وهي التي كانت تعلم بتركه منذ مدة طويلة. وكل المبررات التي كانت تظهر لها واضحة، تبدو لها الآن تافهة. ذلك أن العواطف الحارة التي أحيطت بها في الأيام الأخيرة، والحب الذي شعرت به لدى هؤلاء النساء والأطفال، الذين يظهرون فجأة من كل زوايا القصر، والذين كانوا يتعلقون بثوبها، وهم سيكون، كانت نزيهة. إنهم لم يريدوا أن تسافر. وكانوا يتوسلون إليها أن تعدل عن السفر. وكانت العجائز تسمينها «الأم» وهن يضغطن على يديها بأصابعهن الضعيلة اللحم. أما الأكثر شباباً فإنهن كنّ ينظرن إليها بسحنة تعيسة، كما لو أنهن يلمنها على أنها تتخلى عنهن.

وعندما عرفن أخيراً أنهن لن يثنينها عن عزمها، وعندما قال الراجاه بصوت قاس، إن الأميرة، يجب أن تسافر «لأسباب صحية»، فقد حرصت كل واحدة على أن تقدم لها هدية صغيرة، وهي جزئىء صغير منهن كان على رانيتين أن تحمله معها، وأن تحميها في هذا العالم الذي لم يكن يستطعن تحيّل، لأنهن لم يكنّ هناك للقيام بهذه الحماية. وعلى الرغم من نصائح أمير وقوله، إن هذه الأباطيل مزعجة جداً، فإن سلمى لم تشأ أن تتخلى عنها. لأن معنى ذلك أن تخون

ثقتن، وهذا وحده سيجلب عليها الشقاء. وهكذا فقد وضعت المناديل المطرزة، والخصيات ذات الألوان الغريبة، وقطع الخشب المنحوتة، في حقيبة تحملها إلى باريس. وإذا حدث أنها شعرت بالوحدة هناك، فليس عليها إلا أن تفتحها لتمسّ وتنفس شهادات الحب هذه.

— نحن جاهزون، ويمكننا أن نمضي.

وقفز أمير خارج العربة. وتدهش سلمى وتقول: «ما أكثر ما هو جزع (فاقد الصبر)، حتى إن من يراه، يظن أنه مستعجل في أن يراي أرحل...». وهي تعلم أن هذا غير صحيح، وأنه مغلوب على أمره، وأنه يفعل كل ما يستطيع لإخفاء ما هو فيه، ولكنها تحقد عليه، لرفضه أن يترك أمره لله، وهذه الرصانة التي يبدو بها معها، كما يديها مع الأجانب. وتلك المرات القليلة التي بدا فيها مكشوف القناع، جعلها في الأيام التالية، تدفع ثمنها ببرودة مضاعفة.

ومخططات خفيفة، سبقها الراجاه في هذا الممرّ الحريري الذي سلكته، منذ سنين، بالاتجاه المعاكس. كانت يومئذ تصل، مخطوبة، متألفة بالأمل الذي تحمله، وتتقدم بثقة لكسب زوجها الجميل، ووطنها الجديد.

والآن... فإنها تستمر في السير إلى عربة القطار المصنوعة من المعدن، والخشب، التي ستنقلها بعيداً عن أولئك الذين يعرفونها، والذين يحبونها على طريقتهم. وكانت تمشي بعدها زهراء، زهراء تلك الفتاة النحيلة التي أحببتها من أعماق قلبها والتي لا تسامحها على أنها قد أصبحت هذه المرأة الهادئة والسمينة. ولكن ربما كان عليها، بالعكس، أن تكون لها شاكرة للتحذير من أثر السعادة في المرأة، في هذه البلاد... وكان وراء زهراء رشيد خان، رشيد الأمين، الذي تابع كل شيء وفهم كل شيء منذ وصولها. ترى هل يحزر أنها ربما كانت تسافر نهائياً؟...

وفاحت رائحة ياسمين قوية، فانزعجت من أفكارها. ووصلوا جميعاً إلى العربة النيلية المطلية بألوان الدولة. وكان على الدرجات الموصلة إلى القاطرات طاقات زهر بيضاء يُعطرّ الجو أريجها اللطيف. ثرى من هو الذي فكر بأن يصحبها بأزهارها المفضلة؟ وأجابت زهرا مبتسمة، عن سؤالها الصامت بقولها: إنها باقات أمير. وعندئذ فاضت الدموع التي طال حبسها، من عيني سلمى. أهو أمير إذن... ولكن لِمَ جعلها متأخرة إلى هذا الحد؟ أترأه استطاع، أخيراً، أن يعبر عن شيء من الحب، لأنها مسافرة؟

ودخلت العربية ، مضطربة ، وتقدمت نحوه . ولو أنه في هذه اللحظة طلب منها البقاء ، إذن لرمت نفسها بين ذراعيه .

ولكنه اكتفى بالنظر إليها ، وتراجع ، بصورة لا يُشعر بها .

وفيما بعد ، ستره يفكر كثيراً في تلك اللحظة التي مهما تكن الرغبة التي تشده إلى روجته ساعتئذ ، فإنه لم يستطع تجاوز المنعكس المكتسب ، أو القاعدة الذهبية التي تحول بين الأزواج المسلمين ، وبين أن يُبدوا شيئاً من العلاقة الحميمة التي تربطهم بزواجهم ، على أنه لا يوجد ، في هذه المرة ، إلا أفراد الأسرة ، وزينيل الذي وصل لتوه من بيروت ، وبعض الخادmates ... ثم امرأته الشابة التي تتوسل إليه ، بصمت ، أن يقوم بحركة ما ، للتعبير عن عواطفه .

وأخذت سلمى ، وهي ترتجف ، كأس الشمبانيا التي تفضل أمير ، باعتباره زوجاً محبباً ووفياً ، بتقديمها لها . واستعاد برودة دمه ، وطلب أن يُشرب على صحة الأميرة ، وحسن تمام الرحلة ، وحسن الإقامة بفرنسا . ولكنه لم يشر قط إلى التعاسة التي يسببها له غيابها ، ولا إلى الأمل باللقاء القريب . وكذلك لم تلمح على وجهه مطلقاً ، لوائح الهيجان .

ودوت صفارة رئيس المحطة لتعلم الناس بحركة القطار الفورية ، فقطعت حفلة الوداع هذه . وفيما عدا زينيل الذي وصل لتوه من بيروت ، فإن الناس المودعين جميعاً نزلوا إلى الرصيف . وكان أمير آخر من بقي . أتراه سيقبلها ؟

وبنعومة ، ينحني أمامها ، كما لو أنه سيغيب عنها لعنة أيام .

— إلى القريب العاجل ، يا أميرتي .

— أمير !

ونادته ، فالتفت إليها . ونظر كل منهما إلى الآخر ، لمدة طويلة ، وبألم . وشعرت هي بأنهما لن يلتقيا أبداً ، وأنها أبداً لن تعود فترى الهند .

وانحنت من نافذة القطار الذي تحرك في طوفان من الدخان ، وثبتت نظراتها على ذلك الزول الأبيض ، الواقف على الرصيف ، الذي يتعد ، ويتعد ، ويغيب

القسم الرابع

فرنسا

—٩—

٢ نيسان / أبريل / ١٩٣٩

«إني أكتب إليك يا محمودي ، من باريس ، التي ها نحن نقيم فيها الآن ، أنا والأميرة سلمى ، منذ أسبوعين . بلى ! إنك لا تحلم ، إنه زينيل الذي قرّر أن يظهر من جديد بعد خمسة عشر عاماً من الصمت .

«لا تلمني إذا كنت لم أجب عن رسائلك العاطفية التي كنت ترسلها إليّ بعد افتراقنا . لم يكن ذلك نوعاً من اللامبالاة . كنت أشعر أنه كان من العبث أن أحرك الذكريات السعيدة القديمة . أما بالنسبة إليك ، وقد كنت فتى في أول عمرك : فقد كان عليك أن تنساني وتنشئ حياة جديدة .

«أما من جهتي أنا ، فإني لم أكن فارغ البال . إذ كنت أكرّس وقتي كله ، وطاقتي كلها ، وأفكاري جميعها لهذه الأسرة التعيسة الذي جعلني القدر مسؤولاً عنها ، ولا سيما ... كنت أكرّس نفسي للسلطانة خديجة التي كانت رغم شجاعته لا تستطيع تجاوز صدمة المنفى ..

«إن سلطاني ... لا أستطيع تذكرها من دون أن تطفّر الدموع من عيني ، وتغشي على بصري ، ولقد مضت الآن عدة أشهر ، على رحيلها عنا ... ولقد اعتقدت أنني سأصبح مجنوناً من الألم ! ومنذ أن أصابها المرض ، تقاربنا أكثر ، ولم تكن توليني ثقتها فحسب ، ولكنها كان تمنحني هدية ، لا تقدّر بثمن ، هي مودتها وعطفها .

« لقد كان رحيلها، بالنسبة إليّ، وأنا أستطيع الاعتراف بذلك الآن، نهاية قصة حب طويلة جداً. ولكنك على الأرجح، كنت قد حزرت ذلك منذ زمن طويل.

« وعندما دخلت في خدمتها، في قصر تشيراغان، حيث كانت سجيناً مع أبيها، سرعان ما وقعت في حبّها. ولم يكن عمري يزيد عن خمسة عشر عاماً. وكان يمكن أن تكون أمي. ولكنني شعرت بأنني أنا الذي يجب أن أحميها. فلقد كانت حزينة جداً! وحلال سنوات كثيرة، كانت تأمل باسترداد حريتها، ثم انتهى بها الأمر إلى اليأس من ذلك. فجدران هذا القصر هي التي ستكون قبرها. ولم تكن تطيق أسرها: وكانت بها رغبة جامحة إلى الحياة، حتى لقد ظنت أنها ستقتل نفسها ذات يوم.

« وأعلمت بذلك الطبيب الذي كان يرسله السلطان عبد الحميد، مرة كل أسبوع، إلينا. وعجب هذا الرجل كل العجب من جرأتي. ولكنه اضطر إلى مكاشفة جلالته، بهذا الأمر، ذلك أنه تقرّر بعد عدة أشهر أن يزوجوا السلطانة.

« وكنت أمر عندئذ بأسوأ حالات القلق، ذلك أنني كنت أخشى أن انفصل عنها؛ ومن حسن الحظ، وضعوني في سلة جهازها. ومنذ ذلك الحين لم أتركها قط.

« ولكن هل كنت سعيداً بذلك؟ كلا، بل كنت أغار من زوجها، حتى فهمت بأنها كانت تكرهه أكثر مني، وكنت أغار من الباشا الجميل، زوج نعيمة السلطانة التي كانت تغار به عينيها، حتى اكتشفت بأنها لم تكن تبحث إلا عن الانتقام من السلطان عبد الحميد. وفي هذه الناحية كنت أساعدها بكل حماسة. فقد كان انتقامها انتقامي، لأننا كنا نحن الاثنين، من ضحايا هذا السلطان الذي كان المسيحيون يسمونه «بالسلطان الأحمر».

« ولكن ذاك الذي لم أستطع تقبله قط، كان زوجها الثاني، خيري رؤوف بك الشديد الإغراء. إذ كيف تستطيع امرأة بهذه الرقة، وبهذا الذكاء أن تقع في حب هذا الرجل المغرور الذي لم يكن يحب غير نفسه؟

« ولقد تأملت من ذلك ألماً شديداً. وكانت، مع ذلك، قرية مني أكثر منها في أي وقت آخر. ذلك أن السعادة كانت تجعلها طيبة القلب. وكنت أكره طيب القلب هذا، وهذه الملاحظات التي تسمح لنفسها بها، كعلامة على ثقفتي بي، كما كانت تظن، وهي في الحقيقة علامة على اللامبالاة. وهكذا فإنه عندما كان يغيب زوجها، كانت تستبقيني إلى جانبها، مع نساؤها، في

بهوها الصغير . واعتادت ذلك . وكانت تتمدد أمامي ، وتحل قميصها ، وتمشط شعرها الرائع ، وتطلب مني أن أحكي لها أحاديث القصر وما فيه من غمائم . وكانت تضحك ، وتضحك ، ورأسها منقلب إلى الوراء ، بكل ما تستطيع من قوة ... تلك الذاهلة ! تماماً كما لو أنني ، رغم كل شيء ، لم أكن رجلاً . وكما لو أنني لم أكن أحس بأية رغبة . وكان وضعها كوضع حشمها ، أيام اشتداد الحر ، أي أمهن كنّ نصف عاريات ، وكان وضعهن ذاك يصرخ بي ، بما يكفي لفلق رأسي : « أنت مخصي ، ولست إلا مخصياً ! » .

« وعندئذ كرهتها ، ورجوت الله أن يعاقبها على سعادتها الوقحة . وقد تقبّل دعائي ... بأكثر مما كنت أستطيع تخيّل . فأية فظاعة ! وكنت في ذهولي ، أستنزل اللعنة على تلك التي كنت أحبّها أكثر من حياتي ، إذ لم يعد هنالك من أمل بالعودة إلى الوراء .

« أما في بيروت فقد كنت سعيداً ، مع ذلك . إذ لقد جعل المنفى منا ، أسرة واحدة ، وكانت السلطنة تركز إليّ أكثر فأكثر . لأني كنت الرجل الوحيد في البيت .

« وأنا أحرز الآن ابتسامتك . ولكن ، أيها البريء المسكين ، هل تظن أن رجولة الرجل تقوم على إنزال بعض قطرات ذات لون كثيف ؟ وأصلاً كيف تعرف أنت أنني لست قادراً على ذلك ؟ لقد حدث أكثر من مرة أن يد الحكيم وهي تقوم بعملها البائس ، ارتجفت ، بحيث أنه شعر بالشفقة .

« وعلى كل حال ، فقد كنت شاباً وسيماً ، ولم يكن لي من العمر إلا ثلاث عشرة سنة . وأنا أتذكر الآن ذلك الربيع ، وذلك الوقف بجارة شقراء ، وبأحلام ومداعبات خرقاء ، غريبة ، وبذلك القسم من جسدي الذي كان يبدأ الحياة ، مشعاً على جسمي كله ، رجفات حلوة ، عذبة .

« وكنا نسكن الريف . وكان أهلي فلاحين صغاراً . وكان لديهم بعدي ستة أطفال . وعندما وصل رسل السلطان لعندنا ، تلك السنة ، كما في كل سنة ، فإن أبي — لا سامحه الله — اختارني للرحيل معهم . وكان يحلم أن يصبح ابنه الأكبر رئيساً للوزراء ، أو على الأقل ، موظفاً عالي الشأن في ديوان الصدر الأعظم ، آملاً أن لا تعاني أسرته أي نوع من الشقاء بعد ذلك . وطبعاً ، لم يكن الوحيد الذي تصرّف بهذه الصورة ! فمنذ قرون كان أجمل الأطفال وأذكاهم ، من جميع أطراف المملكة ، يختارون ، لكي يتقنوا ، في مختلف مدارس القصر ، وكل حسب مواهبه .

« ترى هل فكر أن هنالك من الوظائف العظيمة التي طمع بها لي ، وظيفة ، كانت فيها « القوة الجنسية » هي الأعظم شأنًا — ذلك أن من يتحكم في الحريم ، يتحكم بقلب السيد وعقله .

ولكن بأي ثمن ! ولم يكن بحيث يجهل ذلك . وما زلت أسمع صرخات أمي ترن في أذني ، كما لو أنها كانت تستبق الإحساس باقتراع شيء من لحمها .

« ولكن لماذا أقص عليك هذا كله اليوم ، على حين أنك كنت تتمدد إلى جانبي ، وترجوني أن أكلمك عن حالي ، وتستاء من رفضي ذلك ، وتظن أن ذلك ضعف ثقة ؟ ربما لأنني أصبحت عجوزاً ، ولأنني في هذه المدينة ، لأعرف أحداً أبادله الحديث . فأمرتي كثيرة الأصحاب ، وهي تخرج كل يوم . وأنا بذلك سعيد . ذلك أني عندما عدت فلقيتها بالهند ، بعد سنتين من زواجها ، أخافني ما كانت فيه من بؤس . أما أنا ، فلأول مرة ، منذ تركت استامبول ، أشعر بأني معزول جداً .

« وإنني لأستطيع الآن أن أبوح لك بما في نفسي ، لأنني أعرف أن فراقنا أبدي ، وأن ضعفي تجاهك لا يزيدك قوة عليّ ... بلي ، لقد خفت منك ، على طريقي أنا ، وخشيت من شبابك الفياض ، ومن جمالك اللذين كانا يذكراني بما كنت عليه أنا . كنت أخاف أن أتبدد في إغراء صورتي التي عدت فوجدتها . وكان الإشفاق عليك نوعاً من الإشفاق على نفسك ، ولم أكن أستطيع أن أسمح لنفسي بذلك . فكيف تظن أنني شققت طريقي في مثل هذا البلاط الفظيع ؟ إنني فعلت ذلك بالقضاء بلا شفقة على ما آسف عليه ، وأحلم به . ذلك أني في البداية انتهيت جيداً لما فعلوه لي ، كموضوع للضحك والسخرية ، والاحتقار ، وكذلك ، وهو الأسوأ ، كموضوع للشفقة . وكالكثيرين منا ، أردت أن أموت .

« والشفقة ... كانت بالنسبة إليّ كما لو أنهم يبقرونني ، أو كما لو أنهم ، إذ ينظرون إليّ كمخصي مسكين ، يعودون فيخصونني ثانية . وكثيراً ما كنت أرتاح إلى جعل الآخرين أشقياء لكي أستطيع ، أنا بدوري ، أن أشفق ، وأرد على الشتيمة ... وكنت أكره السعداء ، الواقفين من أنفسهم ، ومن الحياة ، بكل إمكاناتها المتاحة . ولهذا كنت أكره الشباب ، ولم أكن أشعر بالتعاطف ، إلا مع أولئك الذين كانوا يمضون في طريقهم إلى الموت ، والذين إذ يعرفون ذلك ، كانوا يلاحظون أثره في جسدهم كله ، ومسيرته الباردة في كل أنحائه .

« أتراني أحببتك ، لأنك كنت بائساً حقاً أكان في وسعي ، أن أحب مراهقاً عزيز الجانب ؟ ... وإذا كنت مخصياً منذ الطفولة ، فإنك كنت ستجهل كل شيء من عالم الرغبة ، وكنت أمام طلبك الملح ، أبذل الجهد ، لكي أفهمك ذلك . وكلما زدتك حديثاً ، كان وجهك يزداد اغبراراً ، ذلك أنك كنت تفهم أنك فقدت ثروة لم تكن قط قادراً على تخيلها . وكنت تصغي إليّ بحزن ورغبة ، كذلك الأعمى منذ الولادة ، فإنه يغار من ذلك الذي عمي بمحض المصادفة ، أو

عرضاً ، والذي يستطيع متى تجاوز يأسه ، أن يعود فيتصور عالماً أجمل بما لا يقاس من العالم الذي عرفه .

« وكنت أرسم لك ، بالألوان الأكثر إغراءً ، تصاعد الرغبة ، وقوتها ، وبسمة اللحم الذي يشعر بقرب تفتحه ، والدم الذي يصعد إلى الرأس ، ويجعل الحدود زهرية الألوان ، ويدخل البريق إلى العينين ، والسائل الخفي الذي يربط الشفاه ، ويجعل البشرة أرق وأنعم ، والأعضاء فاترة ، إلى درجة الدوخان : مما يعني القناعة بأن الإنسان ليس إلا شيئاً واحداً هو والعالم في استجلاء الجمال ، وأنه هو الحياة ، الخالقة والمخلوقة معاً ، بل والإله نفسه .. للحظة على الأقل .

« الإله ؟ كنت تفكر بأني أبالغ . وربما كنت أبالغ . لكن هذا كله لم أشعر به ، بل توقعته في ألعابي كمرهق . ولكن لما كنت منذ ذلك الحين ، لا أزيد على أن أتخيّل ، فإني كنت أخترع لنفسي المتعة العظمى ، تلك التي كنت أنصهر فيها ، وأختلط ، مع اللانهائي . وربما عُذِّبت لهذا السبب ، وبهذه القوة ... ولو كان لي أن أتمتع ، إذن لتمتعت بشكل صغير ، عادي ، على نحو ما يتناول الإنسان طعامه اليومي ، ككل اللاواعين .

« إنهم لا يعرفون ، وأنا أعرف . وأعرف المتعة من الأعماق ، لأنها حُجبت عني ، على نحو ما يحدث عندما نرغب في امرأة ، فنعرفها أكثر من تلك التي نملكها .

« وأولئك الذين يدّعون أن الرغبة عمياء لا يفهمون منها شيئاً : فهم يتكلمون عن الدافع العابر ، لا عن الرغبة العميقة التي يمكن أن تكون تملكاً أكمل من التملك نفسه .

« وربما حسبت أنني أهذي لكي أعزي نفسي عن أنني لا أستطيع الامتلاك — امتلاك المرأة . ولكن اعرف أنه لم تعد لي به من رغبة . ولقد ملكت ! ملكت المرأة الأجل والأنبيل والأعظم فضيلة ، وملكها بالعقل والقلب .

« ولقد ملكتها أكثر من أي إنسان آخر . وكنت ألاحظ كل رعشة من ارتعاشاتها ، وأهتز معها . وكانت عواطفني على مثال عواطفها ، كما لو أنني جزء منها ، لا كشخص مستقل ... بل كما لو كنت فيها ، أو كما لو كنت أسكن جسدها .

« ولقد مزقني موتها . ولكن لا تخف ، فأنا لا أدع نفسي تنهار . ومنذ الآن ، لديّ أميرتي ، وعلّي حمايتها .

«وليتك تعرف كم أصبحت جميلة ، سلماي ... ويخطر ببالي أحياناً أنني أعود فأرى السلطانة أيام تألقها ، على الرغم من أنها في الواقع مختلفة جداً . إن ما فيها من سرعة العطب ، يهزني وشيئاً غير مكتمل ، وكأنه يتردد بين الضحك والبكاء . وحتى عندما تتظاهر باستقلاليتها ، أكبر التظاهر ، فإنني أشعر كم هي بحاجة إلى عجزها زينيل . فأنا الوحيد ، منذ الآن ، الذي يصلها بماضيها . وهي تعرف أنني سأبقى وفياً لها ، حتى الموت .

«أما أنت ، يا محمودي ، فإن لي طلباً عندك : فإذا أنت تلقيت هذه الرسالة ، فأرجوك ألا تجيبني عنها ، وبصورة خاصة ، ألا ترسل صوراً . فأنا أريد أن أحتفظ داخل قلبي بغضاضة جسدك ، ونفسك كمراهق . وربما بدا لك ذلك كعلامة على أنانيتي الشيطانية ، هذا إن لم تفهم إن هذا هو البرهان ، على طريقتي أنا ، أنني ما أزال أحبك .

زينيل — زينيلك

— بائعة الماهاراني^(١) من فضلك !

وفي البهو الأبيض المذهب ، في متجر نينارشي NINA RICCI ، حيث تتبادل النساء آخر الأقاويل ، بانتظار افتتاح معرض الثياب الربيعية ، في ذلك البهو كان على الحضور جميعاً أن يتلفتوا برؤوسهم : ذلك أن امرأة شابة دخلت لتوها ، إلى المتجر ، متبوعة برجل مسن ، يلبس قميصاً أسود ، وتبدو شاحبة في ساريها الأزرق . أهى ماهاراني ؟ إنهم كانوا ينتظرون امرأة جميلة قائمة اللون ، كملكات جودبور Jodhpour أو كابورثالا Kapourthala . ولكن هذه الماهاراني تبدو وكأنها فرنسية ، لولا خدائها المرتفعان قليلاً ، وعيناها المشدودتان إلى صدغيها بعض الشيء ؛ لا بد أنها روسية .

وتهمس امرأة متميزة جداً ، لجارتها ، فتقول لها :

— ولكن لا ، يا عزيزتي ، تصوّري أنها تركية ! ولقد قابلناها عرضاً ، في آخر عشاء لدى أسرة النوواي Noailles . أما زوجها فهو مهرجاه بادالبور وهي - ولة في شمالي الهند .

— إنه كبير بعض الشيء عليها .

(١) كان الفرنسيون قد اعتادوا أن يطلقوا اسم المهرجاه والماهاراني على الأمراء والأميرات الهند حتى ولو كانوا راجاه ورايني أو مجرد نواب .

— لم تحزري، إن ... أخيراً إن الشخص الذي يصحبها ليس بزوجها.

وخفضت السيدة صوتها، على حين أن جاراتها المرتبكات، يمددن آذانهن.

— إنه ... خصيها.

وتنهال الهمسات، غير مقتنعة بصدق هذا القول: «أية بربرية!» فهذا أمر يجعل الإنسان يرتجف استنكاراً. وعندئذ تنسى السيدات كل قواعد التهذيب ويحملن بهذين الزوجين الفاضحين.

— ولكن تلوح عليها لوائح الرقة! أما هو فلا يبدو أنه بائس. وعلى الغالب، فإنه لا يلاحظ مافيه من نقص. فهؤلاء الشرقيون متعودون على هذا الأمر. ومع ذلك، فإن التجرؤ على الظهور مع الخصي، أمر لا تنقصه الوقاحة.

لكن وراء هذا النقد كان يكمن الإعجاب الممتلئ بالغيرة: إدا لا يحدث في كل يوم أن نصادف شيئاً في مثل هذه الغرابة، حتى في باريس التي يرى الإنسان فيها ما هبّ ودبّ ... وكانت الكثريرات يفكرن بالنجاح الذي يحصلن عليه، لو أنه أمكن، في إحدى الليالي، أن نعرض هذه الماهراني الحلوة ... متبوعة بخصيها طبعاً!

ولما كانت سلمى تجلس بصورة جانبية، فإنه لا يبدو عليها أنها تلاحظ الفضول الذي أثارته؛ والواقع أنها تتمتع متعاً كثيرة. ففي باريس، ومنذ مدة شهر تقريباً، تعودت أن تكون الشخص الذي تتجه إليه الأنظار في كل مكان، وعليها أن تعترف بأنها تحب ذلك حباً جماً! وخطر ببالها أنها في بيروت من جديد. ولكن الحفلات اللبنانية، التي كانت تبدو لها رائعة جداً، تكاد أن تعتبر ريفية في باريس. فالرهافة والتنوع في المتع هنا، هي بحيث لا يعرف الإنسان أين يحشر رأسه فيها. وهي تشتت أن تذوق كل شيء، وأن تعرف كل شيء. وماذا يهمها أن يروق لبعض الناس أن يعجبوا بسواربها وخصيها؟ إنها لم تعد تلك البنت الغضوب التي كانت تحرص أشد الحرص على أن تحب، بل هي امرأة الآن، وامرأة غنية! وطبيعي أن تكون لديها رغبة ملحة إلى الحياة المفتوحة بعد سنتين مما يشبه السجن، في الهند.

ومنذ وصولها إلى باريس، استأجرت شبه شقة في بلازا آتيني وطبعت باسمها بطاقات تعرف بها — وهي مفيدة، ولكنها غير كافية — وسرعان ما لاحظت ذلك — لمن أراد التعرف على المجتمع الباريسي.

وهاهي «الساعة الزرقاء» و «النسيم» و «وردة الرمال»... وقد بدأت معارض الأزياء. وها قد بدأ الاستعراض الأول. فعلى المنصة تظهر العارضات، فيمشين رشيقات، ويدرن، وينزلن، ويملن على اليمين، ثم على اليسار، ويظهرن مفاتن الثوب — أو مفاتهن — من كل ناحية.. وهنا تعود سلمى فتفكر بماري لور، عدوتها القديمة الحميمة في مدرسة راهبات بيزانسون في بيروت. إذ يفضلها بدأت تستقبل، في الحفلات.

ومع ذلك فإن المراهقتين كانتا تتزاوران، في بيروت. وقد تعلمتا بعد مجاهدة قاسية، أن تحترم كل منهما الأخرى، وعرفت كل منهما ما لدى الأخرى من زهو، وعزة نفس، وشجاعة قلب. غير أنه لم يكن بينهما، فيما خلا العلاقات المدرسية، أية علاقة. فكثيرة هي الأشياء التي كانت تفصلهما في هذا اللبنا الذي كان الفرنسيون فيه، هم الحكام، والسادة.

وكانت ماري لور هي التي غادرت لبنان أولاً. وبعد أن أقامت في الأرجنتين مدة ما، عادت لتعيش في فرنسا، وتزوجت بالكونت دوسيير، وهو من الأسر النبيلة أيام الأمبراطورية — أمبراطورية نابليون الأول — ومن كبار الأغنياء. وقد جاءته الثروة من زيجات تمت بين أجداده وبين عدد من فتيات الأوساط المالية، وأوساط الصناعات النسيجية في الشمال. ولكن هذه الماري لور لم تنس «التركية الصغيرة»، وكانت ترسل إليها كل عام، بطاقة تهنئة برأس السنة. ولهذا فقد كان طبعياً، وسلمى تصل إلى باريس لأول مرة، ولا تعرف أحداً في العاصمة، أن تهتف إليها.

وكانتا لم تلتقيا منذ عشر سنوات، فلما تلاقتا، وجدتا أنهما صديقتان قديمتان، كما لم تكونا في أي يوم من الأيام.

وقامت ماري لور، بكل مالباريسية الأصل من اعتزاز بنفسها وبما حولها، بتعريف سلمى على «بلدها». وعلمتها، بشكل خاص، ما لا بدّ منه لتتفتح لها أبواب المجتمع الراقي الصعبة. إذ لا يكفي أن يكون الإنسان مشهوراً أو غنياً. بل يجب أن نعرف في أي مساء، وعلى أي طاولة عشاء لدى ماكسيم، يجب أن نكون حتى لا نلقى أناساً مزعجين، بل أصدقاء مثل الروتشيلد، أو الويندسور «الذين هم البساطة نفسها». ويمكن أيضاً، بعد العرض الفني أن يذهب الإنسان مرتاح البال، فيأكل طعاماً خفيفاً لدى فيبر، وهو «مطعم — مشرب» يقصده الرومانتيكي، الوحيد، شارل بوايه. وما لم يكن الإنسان ميتاً، فإنه لا بدّ من أن يُرى في حفلات السباق في شانتيي، الأخيرة والأكثر أناقة في الموسم، وأن يضع على رأسه أغرب قبعة يشتريها من عند غالوا أو سوزي روبو. أما ما يحتاج إليه الإنسان من مشتريات، فليس هناك إلا مكانان ممكنان: شارع السلام

La rue de la Paix وساحة الفاندوم Vendôme . وبالمقابل فإنه ليس محرماً أن يذهب الإنسان هو ومجموعة من الأصدقاء، ليعاشر السفلة في البول بلانش Baule blanch ، حيث توجد أوركسترات سوداء، تحملك ترقص البيغوين Beiguine . ولكن حتى هناك، وهناك خاصة، يجب على الإنسان أن يحتفظ بكرامته . ثم إن هذا كله لا يجدي شيئاً، إذا لم يعرف الإنسان، لدى استقبال ما، كيف يحسب ساعة وصوله تبعاً لأهمية المدعوين الآخرين، وكيف — وهذه بصورة خاصة — كيف يتناسى الثناء على عشاء سيدة المنزل، الذي لا يمكن إلا أن يكون المجلّي دائماً، وأن يرسل إليها، منذ اليوم التالي، ثلاث دزيئات من الورد من عند لاشوم Lachaume ، كما لو أن هناك مواضع كثيرة، غير مكتوبة، تعتبر بمثابة كلمات السر لفتح الأبواب، وتؤلف ما يسمى «بالمراسم» التي لا يجوز عدم التقيد بها، تحت طائلة أن يصنف الإنسان في عداد «سكان الأقاليم» أو في عداد «الأغنياء الجدد»، وهذا ما هو أسوأ . فإذا وضع الإنسان في هذا التصنيف، فإنه مهما يبذل من جهد، لن تقوم له قائمة .

وكثيرون هم الناس الذين قد يعطون نصف ثروتهم ليتعلموا ما تعلمته سلمى من ماري لور، في عدة أسابيع . غير أن على الإنسان أن يستحق هذا التعليم . والحقيقة أن على الإنسان إذا أراد أن يتعلّم، أن يعرف سلفاً، هذا الذي سيتعلمه . ولكن كانت ماري لور كريمة إلى هذا الحدّ مع سلمى، فذلك لأنها كانت واثقة بأن تلميذتها ستشرّفها، بإتقان ما تعلمته منها . وذلك لأن هذه كانت تملك ما لا يمكن أن يُنقل بالتعليم، أي الصفة المحبّة التي لا تخلو من بعض البعد، والتهذيب اللا متناهي، مع المرح، وهذا الشيء الذي لا يقلّد، والملاحظ لدى الأشخاص الكرّمي الأصول . وهكذا فإنها كانت تصحب «لؤلؤتها الشرقية» إلى كل مكان، وتعرّف أصحابها بالمهاراني، على ما كانت تدعوها، عندما كانت تقدمها . أما أنها أميرة عثمانية، فإن ذلك لم يكن موضوع بحث قط، ومن كان يتذكر يومئذ ألقى الأمبراطورية العثمانية؟ — وبالمقابل فإن الهند كانت تجعل الناس يحلمون، بثرواتها الخرافية، غرابة أمرائها، أولئك الأمراء الذين لم تكن تسوّد وجوههم، وغرابة أطوار ذلك الإنسان، نصف العاري، الذي كانت له طريقة يستحيل تقليدها، في السخريّة من هؤلاء الإنكليز الذين كان الفرنسيون يكرهونهم، على الرغم من معاهدات التحالف الجديدة .

وكانت الأبواب الجديدة الرائعة الحلوة، تتتابع في العرض . فهذا الروب اسمه «العشب الوحشي»، هذا الثاني اسمه «حلم القمر» .. الخ . وكانت العارضات يظهرن وكأنهن يرقصن . وما أجملهن في هذه التورات التوجيهية التي تبرز من تحتها تنورات داخلية من الدانتيل وتسرع سلمى، فتسجّل على دفترها بعض الأزياء؛ ولكنها عما قريب ستجد الحيرة كبيرة، فيما عليها أن

تختار ... أفنتشرها جميعاً؟ إن ذلك سيكون جنوناً، ولكنها تحب أن تكون مجنونة. ففي الأشهر الأخيرة التي قضتها في الهند، ظنت أنها تغرق؛ أما الآن فإنها تريد أن تنسى، وتدع نفسها تسكر بمرح هذا الربيع الباريسي، حيث كل إنسان يتناسى الأخبار الواردة من الشرق، ولا يفكر إلا بقضاء أوقات ممتعة.

ولم تشغل بالها أخبار احتلال ألبانيا من قبل الجيش الإيطالي، ولا هرب الملك أحمد زوجو والملكة جير الدين، إلى اليونان، ولا أعارتها إلا انتباهاً خفيفاً ساخراً، فلقد كان يمكن بسهولة أن تكون هي المنفية مرة أخرى (لأنها رشّحت طبعاً كزوجة لأحمد زوجو). أما الحرب، فإن بعض المتشائمين كانوا يعتقدون أنها آتية لا ريب فيها، وأنها ستلهب أوروبا كلها. ولكن أحداً لا يصغي إليهم. وطبعاً لو أن الرئيس دالادييه لم يملك الحكمة اللازمة للتوقيع على معاهدة تحالف مع هتلر في ميونيخ، فإنه كان يمكن أن يخاف الإنسان. ولكن كل شيء قد سُوي الآن، لحسن الحظ. وفي وسع الإنسان أن يرمي عن كاهله الأفكار السوداء، وأن يستمتع بازدهار المسرحيات والاستعراضات، التي تجعل من باريس، تلك العاصمة الرائعة للعالم كله.

وتظل ماري لور تصحب سلمى إلى كل مكان. ولأول مرة رأت المرأة الشابة صالة راقصة؛ فأعجبت بجوزفين باكر وموريس شوفالييه، هذين الكوكبين اللذين كانا يؤلفان جزءاً من عالمها في لبنان واللذين كانت تعرف كل أغانيهما عن ظهر قلب. أما اليوم، فإنها تفضل عليهما هذه المريضة التي تلبس ثوباً أسود، ويلقبها الناس باسم «الأم الشحورة la Môme Momeou» والتي تقسر دموع السامع بصوتها المؤثر؛ وكذلك هذا الشاب الأشقر، وهو شاعر مجنون، الذي كان آخر منحزاته الناجحة، أغنية أصبح يردددها الجميع بعنوان Ya d'la gaie (هناك فرح).

ولئن كانت سلمى تخرج في كل ليلة، فإنها بالمقابل، كانت تكرّس بعد ظهر كل يوم لهوايتها القديمة، أي السينما. ولقد افتقدتها في لوكنوف أكبر افتقاد، وحرمت منها، فجعلها ذلك تذهب كل يوم تقريباً، مع زينيل، إلى إحدى قاعات السينما الكبرى، مثل بيارتيز والكوليزيه. وكانت البارحة قد رأت فيلم «رصيف السحب Quai des Brumes»، ووقعت في غرام جان غويان، عندما همس بصوته الأجش، يقول: إن لك عيوناً حلوة، أتعرفين T'as de beaux Yeux tu sais، لهذه الغلامه، الممثلة الجديدة ذات النظرة المقلقة.

ويدعي بعض أصدقائها الباريسيين، أنها تشبه ميشيل مورغان، ظانين أنهم يسرونها. آه، لو كانوا يعرفون أي نوع من الذكريات كانت تحركه هذه الملاحظة، ولم أسفت أحياناً، على أنها لم تقبل

عقد هوليود، الذي كانت تفضله على موقعها كملكة . ولكن هل كان لها الخيار ؟ ففي ذلك الحين كان مصيرها كملكة ، يبدو لها واجباً ، ولم يكن في وسعها أن تأباه من دون أن تسيء إلى ذكرى أجدادها الذين ضحّوا بكل شيء في سبيل القيام بواجبات السلطة . ولكن أكان ذلك واجباً ؟ وأين هي الحدود ؟ إنها لا تعرف . أولاً يختار كل منا طريقه ، و « واجبه » ، تبعاً لحاجته الأقوى ، أو الأكثر إلحاحاً ؟ ولقد طالما اعتقدت سلمى أنه كان يجب التعالي فوق الحاجات ، ولكنها بالتدريج فهمت أنه يجب أن نعيش هذه الحاجات ، لا لأنها حيوية ، بل لأنها ممتة . ويجب أن نعيشها لتخلص منها .

— حسناً ، يا صاحبة السمو ، ترى كيف تجددين مجموعتنا ؟

وبهذا الكلام ، بدأت الأولى ، الأنسة أرماند ، حديثها ، مقترية من زيويتها العظيمة : فمنذ بعض الوقت ، كانت هذه تبدو لها حاملة . ولقد حان الوقت لأخذ الأشياء مأخذ الجد ، وأخذت ، بزلاقة لسانها ، الحلوة ، تمتدح جمال الترصيع ، ونعومة التطريز ، وبصورة خاصة ، جرأة الخط الجديد الذي يعلو بقيمة الأنوثة :

— وخلافاً لبعض الخياطين ، فإن السيدة نينا ريتشي تحب النساء ، وتأتى أن تجعلهن مضحكات بدعوى التفرد والأصالة !

ولكن سلمى لا تسمعها . بل هي تنظر إلى العروس التي تتقدم في لباس أبيض يتألف من القماش المحرّم والتولة ، في الحين الذي ينفجر فيه التصفيق . فأغراها ماترى ، وتابعت بعينها هذا البياض المشع ، وتبكي في داخل نفسها ، على فتاة تلبس الغارارة الحمراء أو المذهّبة ، والوجه مختبئ وراء ستارة من الورد ، وهي عروس صغيرة ترتجف وسط الضحك وقعقة الصنوج ، بانتظار ذلك المجهول الذي سيصبح سيدها عما قريب .

وفي هذا اليوم ، بعد الظهر ، كان لسلمى موعد مع ماري لور ، لدى السيدة كادول ، أشهر صانعة مشدّات في باريس . وهناك تتزاحم الأنيقات ، ليؤخذ قياسهن ، فيجعل خصر هذه أضيق ، ويُعلّى بصدر هذه أكثر . ذلك أن السيدة كادول هي التي ابتكرت « سلة ريكاميه » أي أول مشدّ أثداء مدعّم ، يمكنه أن يجعل الثديين أكثر استدارة ، وأقوى .

ومع أن سلمى حامل في الشهر الثالث ، فإنها ليست بحاجة إلى هذه الحيل ، التي تكيّف الجسم على صورة أرقى من صورته الفعلية . ذلك أنها ما تزال نحيلة الجسم ؛ ولقد صحبت صديقتها

بداعي الفضول وحده ، ولأنها تريد أن تعود مرة أخرى وحدها . وما من إنسان هنا يعرف أنها تنتظر مولوداً ، ومن دون أن تعرف لماذا ، فإنها لم تقل ذلك لماري لور . والواقع أنها تشعر بارتياح كبير ، من الوجهة الصحية ، حتى إنها نسيت حملها تقريباً . وحتى غثياناتها في الأسابيع الأولى ، زالت تماماً . أما الهند وأمير ، فإنهما يبدوان بعيدين جداً . ويخيل لها أحياناً أنها كانت تحلم خلال هاتين السنتين . إنها تشعر بأن عمرها الآن عشرون عاماً ، وأنها تبدأ الحياة .

وعندما أنهت الصديقتان مشتريتهما ، ذهبتا تشربان الشاي في الريتز Ritz . والمكان ، كالعادة ، مزدحم بمن فيه . ولكن انطوان النادل الأول ، يعرف كيف يجد طاولة لزبائنه المألوفين . وكانت ماري لور تتذوق بعض الحلوى ، عندما تذكرت أن تسأل سلمى عن الساري الذي ستلبسه هذا المساء . إنه سيكون أنيقاً جداً ، على ما تقول . والـ Lady Fellows مضيفة مرهفة الذوق . وهي تملك منزلاً كبيراً خاصاً ، وفيه أوركسترا ، فإذا انقضى العشاء ، ففي وسعهما أن ترقصا .

وتقول سلمى :

— إنني أحب أن أأدشن « الروب » الذي اشتريته من عند Lanvin ذلك أن له ثنيات « درابيه Drapé » غير عادية .

وتقاطعها ماري لور ، وكأنها أغضبت غضباً شديداً ، وتقول لها :

— أروب يا عزيزتي ؟ إنك مجنونة . البسي من عند لانفان في لوكنوف ، إذا كان يشتهي قلبك ، أما هنا فإن عليك أن تلبسي كماهاري . وإلا فإن كل الناس سيشعرون بخيبة الأمل . فماذا ؟ إنها ماهاراني في ثوب مسائي ؟ وأنا كيف تكون عيني من عيونهم ؟ إن الليدي فيللو تظن أنني أمزح معها مزحة سيئة .

وبدت سلمى ، كأنما خاب أملها أيضاً ، وقالت :

— كنت أظن أنني ، في باريس على الأقل ، أستطيع أن ألبس ككل الناس ...

— ولكن ألا تفهمين أن كل هؤلاء السيدات يحسدنك ، فقط . لأنك مختلفة عنهن ؟ عفوك يا سلمى . إنك في باريس منذ شهر ، ومع ذلك فإن الناس لا يتحدثون إلا عنك ؛ أفتظنين أن أوروبية ما ، حتى ولو كانت جميلة جداً ، تستطيع الوصول بسهولة إلى مثل هذه الشهرة ؟ إن المجتمع

الباريسي قاس جداً، ولكي يحتل فيه الإنسان مكاناً ما، يجب أن يكون قد وُلد فيه، أو أن يُسَلِّي، أو أن يجعل الناس يحملون!

وعندما نهضت ماري لور طبعت على جبين سلمى قبلة.

— إن علي أن أهرع إلى الحلاق. فألى المساء. ولاتنس خصيَّك. ولن يصحبك إلا إلى مدخل القاعة، ولكن يجب أن يراه الناس.

ولم تجب سلمى، بل عادت فتكوَّرت في مقعدها. «مسكين أنت يا زينيل!» ومن حسن الحظ أنه لا يفهم الفرنسية كما ينبغي، ليعرف أي دور يطلب منه أن يلعبه... فهؤلاء الباريسيون هم فعلاً غير معقولين! إذ لم يحظر بياها قط أنهم سيبتهجون إلى هذا الحد بخصيَّها. وهي من ذلك بين طرفين هما الغضب والاحتج، ولكن ماذا تفعل؟

إن زينيل، حتى وهو في الستين من عمره، ما يزال يحتفظ بهيبة واضحة، وعندما قدَّمته في البداية، على أنه أمين سرها، فإنها اصطدمت بابتسامات ساخرة، وتقول الناس الأقاويل. إلا أن ماري لور، حياءً بإنقاذ محميَّتها، أسرعت وحكت الحقيقة.

ماري لور... إن سلمى بدأت تتعب من هذه المساعدة المتسلطة، فهي لم تترك الهند وجو القصر الخائق، لكي تخضع لمواضعات باريس، ونزواتها. وليكن ما يكون، فإنها هذا المساء لن ترضي صديقتها ولا الليدي فيللو Fellows. وفي هذا المساء لن تصحب معها زينيل.

«أي نذل!»

وثبت سلمى رأسها، عن ذلك الرجل الذي كان يحملق فيها، وهو جالس أمامها. واتجهت إلى الجار الأخير الذي على اليمين، الماركيز الشاب، ماركيز دو بيلارد، وتصنَّعت أنها تتحرَّق شوقاً إلى قصة آخر سباق في لونغشان، الذي كاد أن يفوز فيه حصانه الأصيل راكام بالمرتبة الأولى. أما على يسارها، فإن الأمير فوسيني — لوسينج Faucigny-Lucinge، وهو فارس كبير، من نظام مالطا، يروي حكاية المعارك التي خاضها أجداده ضد الكفرة. وما من لحظة خطر بياله أن الماهاراني الجالسة بجانبه، أميرة من أميرات هذه الأمبراطورية العثمانية التي حاربها أصحابه، حرباً لا هوادة فيها. ولو علم ذاك، إذن لما برىء طول حياته من هذه الغلطة. ذلك أنه جنتلمان من الطراز الأول.

وبالمقابل فإن هذا الرجل الذي يحملق فيها منذ بداية العشاء، ولا يريد أن يذهل عنها لحظة،

حتى بدون أن يوَحِّه إليها الكلام، ليس يجتلمان قطعاً. وهي تتمنى لو أنها كانت تؤمن بخجله، ولكن لا يبدو عليه أنه لمن النوع الذي يذهب بعقله، جمال امرأة فتانة. ثم إنه ليرز بين هؤلاء الحضور المتميزين، وكأن المكان ليس مكانه. إنه رجل مرَّع القامة، والفك فيه فك رجل قوي الإرادة. ومن الواضح أنه يصلح للأحاديث المرفهة التي تتم أثناء العشاءات الباريسية، أقل بكثير مما يصلح للجولات البحرية، أو للغارات في صيد الخنازير.

إنه أمريكي. وهذا ما فهمته سلمى عندما تم تقديم الناس بعضهم لبعض. فأخذت تملّس أنفها، متعالية عليه. ترى هل هو كوبيوي؟ بلى إنه من نوع الناس الذين ليس لديها ما تقوله لهم. والشيء الوحيد الذي يقف ضد هذه الفرضية، المريحة، هو هذه الأيدي الطويلة، الناعمة، التي تميّز الأرستقراطي، وكذلك هاتان العينان الحادتان، الوقحتان، لرجل اعتاد السيطرة. أما النساء الأخريات الموجودات على الطاولة، فيبدو أنهن يرتحن إليه؛ وما من مرة رأت سلمى هذه المرأة الطويلة المشوّهة التي اسمها الكونتيس دونيفيل de Neuville تهتم برجل بهذه الصورة، أو هذه الحمقاء إميلي فياني Vianney التي تضحك من كل قلبها لأقل حديث يصدر عنه، وتصرخ صرخات نورس يثيره هواء البحر.

وسرعان ما أرهق سلمى هذا العشاء. فهي تجد نفسها وحيدة، غريبة عن هذه الطرائف. وتودّ لو عادت إلى بيتها... وتتخيّل نفسها في بادالبور، في ضوء الصباح الأول، جالسة مع الفلاحات حول كأس من الشاي، وهن يتكلمن، ولا ينتهين من الكلام، وكن من أشياء يجب أن تقال، وكن من مشكلات مزعجة، وآمال حلوة، ودفع يتبادلنه... ففي بادالبور، لم تكن تضجر أبداً... «ولكن ماذا أتخيّل أيضاً؟» فأمرّت سلمى يدها على جبينها. بادالبور... لقد أوشكت أن تموت منها.

— مليون، هذا شيء رسمي. ساقاها مؤمنة مقابل مليون واحد.

— وصدرها.

— عشرة فرنكات...

وتضحك السيدات ضحكاً خبيثاً. ذلك أن مستانجيت Mistinguette — إذ أن الحديث يدور حولها — تفوز حالياً بنجاح باهر في الطاحونة الحمراء؛ وما من شخص هنا له مأخذ على هذه

النجمة. ولكن المهم هو أن تضحك. ولكي تقول نكتة حلوة، لا بأس أبداً من خيانة أفضل أصدقائنا.

وتبقى سلمى صامته، لأنها لا تحسن التلاؤم مع حرية اللغة التي تميّز هذه الليالي الباريسية، وتندesh بصورة خاصة من السهولة التي تتقبل بها هؤلاء النسوة الرقيات، أن تعرى مثيلاًهن، ويُقيّمن لدى هؤلاء الحاضرين.

وعندما تقرّب أنفسها من صحنها، تحسّ من جديد هذه النظرة الرمادية، التي تقف عندها. ثم إن الأوركسترا بلباسها الاحتفالي تأتي أخيراً لتحتل محلّها على المنصة المرتجلة، داخل الصالون المستدير الكبير. وكانت الليدي فيللو قد أعلنت عن سهرة حميمة: وحقاً فإنه ليس هناك إلا مئة مدعو، يعرف بعضهم بعضاً، كما يقال، منذ المهد. وإذن فيستمتع الناس فيما بينهم، دون احتشام كبير.

ويسبغ الموسيقيون على الحفلة اللون السائد، بعزفهم «الشامبيرلان»^(٢) التي أطلق عليها هذا الاسم، اشتقاقاً من اسم نيفيل شامبرلان، الوزير البريطاني الأول. وهذه الأوركسترا هي التي يشرف عليها ري فانتورا RAY VENTURA الذي أنشأها منذ فترة قليلة. فيرقص الناس مصحوبين بمظلة، هي مظلة (شامبرلان) التي يعلقونها على يد من يريدون انتزاع مراقصته منه. ولكن الطرافة التي تنال إعجاب كل الناس، هي «اللامبثوك Lambethwalk» التي جاءت مباشرة من وراء الأطلنطي. ففي ربيع ١٩٣٩، كانوا يرقصونها على الطريقة الألمانية، ويتزهزون ويتخرجون عندما يهتفون: آين فولك، آين ريخ، آين فوهرر، آين فيغ Ein Volk, Ein Reich, Ein Fuhrer, Ein Weg «أي شعب واحد، بلد واحد، رئيس واحد، خطوة واحدة».

ولقد ضحكت سلمى وزميلها في الرقص ضحكاً كثيراً. ولما كانا قد تعبنا بعض الشيء، فقد استرخيا على الفوتويات الموضوعة حول طاولات صغيرة، مزينة بزهر السحلبية. وكأنما يشعران بالخفة، بصورة لذيدة، فالحياة الآن جميلة، وباريس بلد باركتها الآلهة.

— أيمكن أن تمتعني السيدة بمراقصتها؟

— تمتعني؟ ولم تكن سلمى بحاجة إلى رفع عينها لتحذر من هو هذا الذي يكلمها بمثل هذه

(٢) هذا الوزير الأول هو الذي وقّع مع هتلر معاهدة استسلام تبعته الحرب.

الخفة . وكانت تريد أن تأبى عليه ذلك ، غير أنها لا تفعل ، احتراماً لجلسائها ، وخشية أن ينشأ عن ذلك بعض الجلبة . ثم إن هذا الرجل يحيرها . وهي تشتبه أن تعرف ماذا يحتبىء وراء هذه النظرة .

وكان الرجل أطول مما كانت تتخيل . وهي تشعر أنها نحيلة بين ذراعيه . وهذا الانطباع يقلقها ، ويجعلها تتصلّب . وليته على الأقل لا يضصّها بكل هذه القوة ... فليس من التهذيب في شيء أن يضصّها بهذه الصورة ، حتى وكأنه يريد ابتلاعها . وتحاول عبثاً أن تبعد هذا الجسد الذي يلتصق بها ، وهذا الجذع القوي الذي بدأت تدرك أطرافه من خلال ساريها الموسلين . أما هو ، فيحتفظ بصمته ، ويستمر في الرقص . فتشعر سلمى بشيء من الحرارة في جسدها ، وفي الوقت نفسه تحزر النظرات المصوّبة إليها . « إن هذا غير معقول ! إذ يبدو أن في استطاعته أن يضاجعني علنياً ! » .

ومحركة جافة ، خلصت سلمى وجهها المضغوط على طرف كتفه : فلتتكلم ، ولتقل أي شيء لا على التعيين ، لإرغامه على النظر إليها ، والتخفيف من ضغط ضمّته . فسألته :

— هل أنت في فرنسا لمدة طويلة ؟

وحملت عيناه الساخرتان الرماديتان في وجهها .

— لماذا تسألين أيتها السيدة النبيلة هذا السؤال ؟ وهل تفضلين أن أبقى ؟

وغضبت سلمى ، وحاولت أن تدفعه عنها ، ولكنه من جديد شدّد عليها قبضته . وشعرت بأنها تختنق ، ولكن من الغضب هذه المرة ، وبكل قوتها وضعت كعب حذاءها على رجله .

فتركها بصورة مفاجئة جداً ، أوشكت معها أن تسقط على الأرض ، وهما الآن يتواجهان . فتتنظر إليه بخوف : ترى ماذا سيفعل ؟ واكتفى الرجل بالابتسام ، ساخراً .

— أي مزاج !

ثم أراد أن يلقي عليها سؤالاً ، في حيرة الباحث في مشكلة يريد أن يحلّها بأي ثمن :

— اسمحي ، أيتها السيدة ، لمجرّد رجل فان أن يطرح عليك السؤال الذي مازال في ذهنه

منذ عدة ساعات . فلقد لاحظتكَ طيلة العشاء ، وأنت تتدلعين على هؤلاء التوافه الذين يحيطون بك . فقولي لي هل يسليكَ حقاً أن تلعي دور « الأميرة » ؟

وكانت سلمى في سبيلها إلى الردّ « ولكني أنا .. » غير أنها توقفت في الوقت المناسب ، خشية من هذا التعبير الساخر الذي لا يحاول الرجل أن يخفيه . فاحمرّ وجهها . وحاولت أن تجد الجملة التي توقفه عند حدّه .

— أيها السيد ، إنك ... إنك .

فلاتجد الكلمة المناسبة . إنها مضحكة ، هي حقاً مضحكة ! وتركته هناك ، بكل التعالي التي هي قادرة عليه . ولكنها تشعر ، من وراء ظهرها ، بهذا الضحك الصامت الذي يتبعها .

وسترقص خلال السهرة كلها ، وتحاول أن تكون الأكثر إغراءً ، من دون أن تنقطع عن مراقبة هذا الرجل الغريب بطرف عينها . ويبدو كأنه لا يعيرها انتباهاً ، ولكنها مقتنعة أنه يلاحظها . وإذن فسيأتي ليطلبها للرقص معه . وعندئذ ستعرف ، بدورها ، كيف تُدّله .

ولكنه لم يعد إليها . فقد مضى مع واحدة سمراء رائعة ، حتى بدون أن ينظر إليها .

وفي اليوم التالي سألت سلمى ماري لور ، متظاهرة باللامبالاة .

— من كان هذا الكوبوي ؟

وكانتا منذ ساعة متكورتين ، كل منهما على كنبه ، تتسليان باستعراض أصغر تفاصيل الأُمسية الأخيرة ، منتقدتين فستان هذه ، وهيئة التعاضم التي بدت على ذاك ؛ ولا سيما وأنه ليس من إنسان كصديقتها ، لمتابعة وملاحظة التفاهات في كل مكان . ذلك أن عينها الحادة تلاحظ الثغرات الأكثر تنكراً .

وعلى ذلك فإن سلمى ، على الرغم من أنها تتحرّق شوقاً ، حذرت من أن تركّز الحديث على الأمريكي .

— تسألين عن الكوبوي ؟ آه ، إنه الدكتور كرماني ، ذاك الذي كان يضمّك بين ذراعيه بكل قوة . وكانت تبدو عليك سيماء الغضب . وكان ذلك مضحكاً جداً ، على أن ذلك لم يكن مزعجاً ، فهو أقرب إلى أن يكون رجلاً وسيماً .

وتتنفس سلمى الصعداء وتقول : إن الدبابة الرهيفة لم تحزر شيئاً .

— كان كرمان واحداً من أعظم جراحي نيويورك . وهو في باريس ، لحضور مؤتمر دولي . ولكن مضى عليه ما يقرب من سنتين ، زهد خلالهما بالشهرة لكي يهتم بالهنود في نواح ضائعة من المكسيك . ويبدو أن زوجته غاضبة وهي ، هي نفسها ابنة أحد كبار الأطباء ، ولقد تزوجته خلافاً لرأي أسرتها ، لأنه من وسط متواضع جداً : ويبدو أنهم لا يعرفون له أباً ، وأن أمه كانت خادمة في مطعم في مدينة صغيرة من وسط الغرب !

ودهشت سلمى ، وقالت :

— ولكن كيف دعتة الليدي فيللو الدقيقة جداً فيما يتصل بقضية الأنساب العائلية ؟

— لقد لقيته في نيويورك ؛ وهناك يعتبر الدكتور كرمان شخصية عظيمة . ولا بد أنها فكّرت أنه سيكون مثل الهارات لتلك الأمسية ؛ ولم تخطيء : فكل هؤلاء النسوة كن يدرن حوله ، كالذباب . ذلك أن العالم يتغير يا عزيزتي . ومع كل ما يحدث ، فإن الضرورة تقضي بالبحث عن المتعة والتسلية . وربما لم يبق لنا هذا ، لمدة طويلة ؛ فمن الناس من يؤكد أننا مع كل هذه النقابات التي تصخب ، ماضون باتجاه ثورة ، وآخرون يتوقعون قيام الحرب . لا ريب أن في هذا مبالغة ، ولكن هذا يزيد الحمى . فكل إنسان يريد الاستفادة من كل لحظة ، حتى ولو جرحوا بعض المستقبلات ! وأجد أنا أن هذا أمر سليم جداً ، إذ يجب أن نحسن العيش حتى ولو كنا على عتبة الكارثة .

ولطالما أغريت سلمى بهذا الخليط من الحماسة ، والتهكم لدى رفيقتها ماري لور . ولو أننا في زمان آخر ، إذن لكانت المرأة الشابة ، بدلاً من سيدة الصالونات ، إحدى المغامرات الكبيرات .

وتمطّلت ماري لور على الديوان ، ورفعت كأس عصير البرتقال . وقالت :

— أقترح أن نشرب على شرف الحرب لأنها هي وحدها القادرة على إنقاذنا من الضجر .

وشربتا النخب ، وهما تضحكان .

أعطى زينيل حمسة فرنكات للخادم الذي جاء يقدّم له على صينية من الفضة ، رسالة عليها
 شارات حكومة بادالبور . وأخيراً جاءت رسالة الراجاه . فمئذ ثلاثة أسابيع ، لم يصلهما أي خبر
 عنه ، فبدأ يشعر بالقلق . وكان سمّوه قد وعد بأن يأتي في أول حزيران / يونيو ؛ ولا ريب أنه في
 رسالته هذه يحدّد موعد وصوله . وزينيل ينتظر بفارغ الصبر : فهو ، على الأقل ، يعرف كيف يعيد
 سلمى إلى جادة العقل . ذلك أنها لا تنقطع عن الخروج ، على حين أن عليها ، وهي في حالتها هذه ،
 أن تستريح . وكان في بداية الإقامة في باريس لا يقول شيئاً ، لأنه سعيد برؤيتها من جديد تضحك .
 ولكنها لا تعرف حداً ، وترقص طول الليل ، ولا تعود إلا عند الفجر ... وعندما يدفعه القلق إلى
 تنبيهها وتحذيرها ، تسخر منه بنطف :

— يا عزيزي زينيل الطيب ، إنك لا تفهم من هذه الأمور شيئاً ! فالشيء الذي يهم بالنسبة
 للجنين ، هو أن أكون سعيدة .

وإمعاناً في إقناعه ، تعطيه قبلة صغيرة . وعندئذ ينسى الحرج التي طالما كرّرها ساعات
 وساعات ، وهو ينتظرها ؛ ولا يغضب ولا ينزعج ، إلا إذا وجد نفسه وحيداً ، ورأى أنها مرة أخرى
 نجحت في جعله يدور كالحاتم في إصبعها ! ومهما يعن في تذكّر ما كانت عليه في الماضي ، يرى أنها
 دائماً كانت كذلك : وحتى عندما كانت بنتاً صغيرة ، في استامبول ، كانت تصل إلى أن تحصل
 منه على كل ما تريد .

وصرخت « ادخل » ، ولكن زينيل ظل واقفاً على عتبة الغرفة ، مذهولاً : ذلك أنها كانت تقف أمام النافذة المفتوحة تماماً ، وعليها بنطال واسع ، وقميص مخطط ، وتحرك يديها ورجليها .

— أغلق الباب يا زينيل . إنك ترى جيداً أنني أقوم برياضتي اليومية !

وتتم :

— ومرة أخرى جاءتنا موضة من أمريكا ! ولكن لا السلطانة أمك ، ولأخواتها قمن بمثل هذه الحماقات ، والله يشهد أنهن كن جميلات ! أَوْ حقاً تحرصين على أن تشبهي الرجل ؟

وتضحك ، وتأخذ منه الرسالة باليد ، على حين أنه يبقى واقفاً في وسط الغرفة ، آملاً أن تطلب منه أن يبقى . ولكنها تنظر إليه وهي ترفع حاجبيها ، تماماً كما كانت تفعل السلطانة ، فينسحب ، رغماً عنه .

ومزقت سلمى الغلاف . وخلال فترة وقفت تتأمل الكتابة العالية التي تريد أن تمضي بلا تردد .

١٩٣٩/٥/٢

عزيزتي الغالية :

خلافاً لما كنت آمل ، لديّ الآن خبر سيء أعلمك به . فأنا لا أستطيع أن ألحق بك في الشهر القادم ، على ما كنا قد اتفقنا عليه . ولا بدّ أنك قرأت في الصحف أن الهند تعيش حياة محبومة ، ذلك أن الإنكليز قرروا التجنيد العام ، من دون أن يعودوا في ذلك إلى الحكومة المحلية . وفي كل مكان يدور النقاش بعنف حول ما إذا كان على الهند ، لدى وقوع الحرب ، أن تدعم إنكلترا ، أو على العكس ، أن تستفيد من الموقف ، لانتزاع استقلالها الذي تطالب به ، بلانجاس ، منذ سنين . وحزب المؤتمر منقسم على نفسه . أما الرابطة الإسلامية فتقدّر أنه يجب أن ندعم الديمقراطية ضد الخطر النازي . أما نحن الأمراء ، فإن نائب الملك اللورد ليلينغتوي Lilingtow طلب منا شخصياً أن نجتد عدداً من الرجال ، وجعلهم مستعدين للسفر إلى الجبهة ، في أية لحظة . وهذه مسألة حرجية ، لم أتخذ فيها قراراً بعد ؛ ولكن في دولة بادالور الآن ما يقرب من ثلاثة آلاف متطوع ! وإنه لمن المدهش كم أن فلاحينا مستعجلون على الذهاب لاستقبال القتل ، ما لم يكن ذلك ناشئاً عن هيبة اللباس العسكري ، أو عن إغراء الأجور التي تبدو لصعاليكنا المساكين وكأنها ثروة كبيرة .

« ولكن لتحدّث عنك ، يا عزيزتي . إني قلق . إذ يقال إن الهر هتلر يريد تصحيح الحدود التي فرضتها معاهدة فرساي . وفي هذه الحالة ستكون فرنسا في الخط الأول . فأنصحك بالذهاب إلى سويسرا . فلوزان مدينة رائعة ، وستكونين فيها هادئة .

« وفي رسالتك الأخيرة ، تطلبين مني أن أرسل إليك بعض المال ؛ وأعترف بأنّي لأفهم كيف استطعت ، خلال شهر واحد ، أن تصرفي ما يكفيني للإنفاق على قصر لوكنوف وسكانه المئتين ، مدة ستة أشهر . سأقوم بما ينبغي ، ولكنني أرجوك أن تكوني عاقلة : فأنا لست نظام حيدر آباد الذي يستطيع ، كما يقول صديقي آغا خان ، أن يملأ بحيرة سباحته بالأحجار الكريمة ... ولو أن أحداً مني ، تحالفوا ، كأجداده ، مع الإنكليز ، إذن لما فقدنا ثلاثة أرباع أملاك الدولة ، ولكان في وسعك اليوم أن تشتري كل بيوت الخياطة في باريس . ولكنني فخور بأنهم حاربوهم ، وأحسب أن عليك أن تفخري بهذا مثلي .

وتقطع سلمى القراءة ، لتقول : « لا بدّ من دروس في الأخلاق ! يارب كم يكون رجال الواجب متعبين ! » . والحقيقة ، أنها تعرف أنها لا تصدّق أية كلمة مما تقول ، فمفاهيم الشرف والشجاعة ، أتمن من أن لا تفهم اعتزاز زوجها بماضي أسرته . بل إن هذه واحدة من المزايا التي تفضلها لديه . وبالمقابل ، فإنه ليس موضوع بحث أن تذهب إلى سويسرا ، لتقبر نفسها فيها !

وعلى كل حال ، فإنه ليس هناك أي خطر . ذلك أن المختصين يؤكدون أن ألمانيا ، التي أضعفتها الأزمة الاقتصادية ، غير قادرة على مجابهة الجيش الفرنسي ، وأنها إذا حدث عرضاً ، أن تجرأت على ذلك ، فإن قضيتها ستسوّى خلال أقل من أربع وعشرين ساعة .

« وتحديثني قليلاً عما تفعلين ، ما عدا حفلات السينما ، وجولاتك مع صديقتك ماري لور . ولكنني أوصيك ألا تتعبي نفسك : إذ يقول الأطباء ، إن امرأة في مثل وضعك يجب أن تبقى متمددة على سريرها نصف النهار . وتوصيك البيجوم نعمة بألا تأكلي البطيخ ، إذ أن ذلك سيؤثر تأثيراً سيئاً في رثتي الطفل ،

« ولا بدّ أنك تشعرين بعزلك ، الكبيرة ، يا عزيزتي ... وأرجو أن لا تكوني ضجرة جداً . والقصر فارغ من دونك . وأهله يأسفون على فراقك . وأقبل يدك .

أميرك

ووضعت سلمى الرسالة إلى جانبها : « مسكين أمير ، هذا الذي لا يجرؤ حتى على أن يقول

لي ، بكل بساطة ، أو حتى أن يعترف ، بأنه يفتقدني ، وإنه لقلق عليّ ! ولكنه سيكون أكثر قلقاً لو عرف كم أستمتع ... ولكنني على كل حال ، لأفعل شيئاً منكراً . وكل هؤلاء الناس الذين يتقربون إلي ، أعرف كيف أبعدهم عني ، وأصلاً فإنني لست هنا ممن يستحقون الثناء ، لأنهم ... ترى كيف كان يسميهم الأمريكي ؟ ها لقد فطنت ، إنهم توافه ! » .

ولم تر هذا الرجل ثانية ، هذا الكوبي ، منذ ليلة البال لدى الليدي فيللو . لا بدّ أنه عاد إلى بلده . حسناً . فلقد تصرف تصرفاً سيئاً جداً تلك الليلة ، مما جعلها لا ترغب مطلقاً في أن تجده أمامها ..

وأسدل الستار مرة ثانية على مسرح المادلين ، في الحين الذي كانت فيه الأيدي تطيل التصفيق . ففي هذا المساء باريس كلها هنا : وهم يقدمون لساشا غيتري ، مسرحية جديدة باسم : « زوج من الصفعات » .

وعادت ثريات الكريستال فاشتعلت لتضيء على الحضور ، في الحفلات الكبرى الأولى . وها هم في المقاعد الأولى من الصالة مجموعة من الرجال يركّزون مرة أخيرة مناظيرهم باتجاه اللوجات التي ترى فيها أجمل نساء باريس .

ويهمس أحدهم لجاره في المقعد ، وهو شاب مرح .

— إن ساشا ضرب بالفعل ضربة معلم !

— الحقيقة ، أن المسرحية مسلية .

— من يكلمك عن المسرحية ؟ انظر ! لقد استطاع أن يجمع كل زوجاته القديمات : إيفون برنتان ، المصحوبة بزوجها الجديد بيير فريني ، والجميلة جاكلين دولوباك التي طلقها حديثاً ، ليتزوج جنففيف دوسيريفيل . واحزر كيف أخبرها أنه تاركها ؟ كان ذلك خلال الفصل الثالث من مسرحية كانا يلعبانها معاً : فقد صرّح لها عندئذ بقوله : « أيتها السيدة ، سأقدم لك هدية لا تقدر بثمن : إني أرد لك ... حريتك ! » .

— إنه رائع ، وأعتقد أن النساء يعبدنه .

— إنهن مجنونات به . وبالمقابل ، فإنه يغضب الرجال كثيراً ؛ فقد ادعى لي أحد الأصدقاء أنه عندما يخرج ليتنفس الهواء الطلق في شرفة بيته ، فإنه يكفي أن يَمُرَّ كلبٌ ، ليتخذ وضعاً رسمياً .

وكانت السيدات ، في الألواح ، قد بدأت بالنهوض . وكانت تلاحظ البيجوم ، ملكة الجمال السابقة ، لفرنسا ، وهي اليوم زوجة محترمة للأغا خان ، الرئيس الديني للطائفة الإسماعيلية ، ومارسيل مارغو نوبلمير ، الزوجة الساحرة لمدير دائرة « العربات — الأسرة » . وكذلك الماهاراني الصغيرة ذات العينين الخضراوين ، ولكن لأي راجا ؟ إن هذا غير مهم . وهي حلوة جداً في سارها الدانتيل الأسود المطرز بالذهب ، الذي يرر لون بشرتها الشبيه بلون الزنبرق .

وقال الرجل لرفيقه الشاب :

— يقال إنها لا تقارب ، وإنها نموذج الفضيلة ! ويبدو أنها تحمّر عندما يمزح بعضهم مزحات ثقيلة . وهذا رائع ، أليس كذلك ؟ لقد حجزت مكاناً في مطعم ماكسيم ، لأني أعرف أنها تتعشى فيه هذا المساء ، مع الأمير والأميرة دو بروغلي . فهم أصدقاء قدماء ، وطاولاتنا متجاورة ، على ما أكّده لي ، البير ، النادل الأول . ورغبتني عظيمة في التعرف إليها ؛ فهل ترافقني ؟

وبدأ محادثه يُمَلِّس جفونه ، حالماً .

— إنني أعرفها ، وأخشى ألا تقدّرني تقديرًا حسنًا ..

— وهذا أفضل ، لأنك ستبرزني أكثر .

ويأخذ صديقه من كتفه ، ويخرجان وهما يضحكان .

ويصعبُ على سلمى أن تتذكر أحداث هذه الليلة وهي تعرف فقط أنها رأتها يصل ، وأن تياراً من الحياة بدأ فجأة يجري في القاعة عندما مرّ . فشعرت أنها فرحة ، وقالت في نفسها :

« سأعرف الآن كيف أنتقم منه » ولم تستطع أن تمنع سسها من نظرة خبيثة إليه . ترى هل ظن أنها تشجّعه ؟ فجاء إليها

— ثم ... فلم تفهم من ذلك شيئاً ، ومن غير إرادة منها ، رأت أنها بين ذراعيه ، ورقصا مدة طويلة . ولكنه لم يعد يضمها بقوة كما لو أنها له ، بل بعومة ، كما لو أنه يخشى تحطيمها . وكانت عيناه تبترسمان لها بعدوبة لا متناهية . وكانت تشعر أنهم يرونها ، وأن الناس حولها يتهايمسون . ولكن الأمر بالنسبة إليها سواء . فهي لم تكن تملك منه شيئاً . وكان في وسعه أن يقبلها في وسط الحلبة ، وأنها على

الأرجح، لا تحاول أن تفلت منه . فقد فارقتها الإرادة والمبادئ ، وكان الشيء المهم بالنسبة إليها ، هو تلك الحرارة المائلة في نظراته ، وذراعاها اللتان كانت تحس أنها تنصهر فيهما .

وفجأة بدا أن الوقت متأخر جداً ، وكان قد اقترح أن يصحبها إلى منزلها ، وعلى الرغم من الوجه العابس الذي قابلته به الأميرة دو بروغلي ، التي كانت هي مدعوة إلى مأدبتها ، فإن سلمى قبلت ، قاضية بذلك ، وبحركة واحدة ، على سمعة « الجدبة » التي اكتسبتها ، خلال أسابيع من السلوك الذي لا غبار عليه . فهل سيتحدث الناس عن هذا ؟ ليكن ! كانت تندهش وتعجب من أنها تشعر باستقلالها عن القيل والقال .

ومن الطريق الملكية ، إلى شارع مونتين ، كانت باريس صورة للتألق . وكانت ساحة الكونكورد خالية ، وكان هو يقود السيارة ببطء ، ويتناغم مع ضجة الماء الذي يعود فيسقط كرهاذ ناعم ، على طرف البحيرات . وكانا قد صعدا في الشانزيليزيه ، كما لو أنه في كنيسة . ولم يكن يقول شيئاً ، وكانت جالسة بجانبه تنظر إلى جانبيته الحادة التي يتقاسمها الظل والنور ، وكانت تتخيل أنهما مسافران سفر طويلاً جداً . وأمام البلازا آثيني ، أوقف سيارته ، والتفت إليها . ومرة أخرى شعرت أن الاضطراب داخلها من تأثير القوة والركة اللتين تصدران عنه . وفي هذه اللحظة ، لم تكن لتأني عليه شيئاً . ولم تفدها كل الألعاب التي كانت تعرفها جيداً ، أية فائدة ، في هذا المضمار ، وكذلك لم تكن لتطلب أن تساعد على الموقف الذي هي فيه ، مقابل أي شيء تعطاه . فأخذ وجهها بين راحتيه ، ونظر إليها مدققاً فيها ، كما لو أنه أراد أن يتملك كل رجفة من رجفاتها ، ثم طبع على جبينها قبلة خفيفة .

وتتم :

— إلى الغد .

ومضى ، بعد أن تركها مترجحة ، والعينان نصف مغلقتين على حلم ، كانت تخشى أن تتركه يهرب منها .

H ... (أي هارفي) ذراعان يحيطان بالسما ، وساقان قائمتان بقوة على الأرض ، وتوازن مطمئن ، لاستدارة فيه ، بل تناظر كامل ، وخطوط واضحة معتدلة ، قوية في رفضها للخداع ، وبساطتها الهادئة ، وشدها القاسية بعض الشيء ... إنه H بدلاً من هارفي .

وتمسك سلمى بين أصابعها تلك البطاقة التي حملتها إليها خادمة الفندق مع طاقة من

الأزهار الوحشية . وتقرأ عليها اسم « هارفي كرماني » . هارفي ... وبصمت تكرر هذا الاسم الذي لم تسمعه قط من قبل ، والذي يبدو لها ، مع ذلك ، أليفاً ، كإلفة هذه الأزهار المجهولة من قبلها ، والتي تحمي تويجاتها القرمزية الميالة إلى الزرقة ، مدقات طويلة ميالة إلى اللون البنفسجي . ويرن جرس الهاتف . فتندفع سلمى إليه .

وتسمع :

— هل أزعجك ؟

— أبداً ، كنت أنهض .

— وإذن .

ويهتز الصوت من فرط الهيحان .

— عفواً ؟

— أرجوك ، لا تصنعي البراءة . ترى هل كوبوك الجميل خارق للعادة بالقدر الذي يبدو

فيه ؟

— ولكن ... إنك تتصورين ما لاحقيقة فيه . فلقد تركنا بعضنا أمام الفندق ، في أسلم

حال ؟

وسمعت ضحكاً منزعجاً في الطرف الآخر من الخط : فمن المؤكد أن ماري لور لا تصدق من ذلك شيئاً ، ولا تعترف لسلمى بالحق في إخفاء شيء ما عنها ؛ وبعد كل حساب ، يجب الاعتراف بأنها إذا لقيت هذا الأمريكي ، كما لقيت الكثيرين آخرين ، منذ وصولها ، فذلك بفضلها .

— إذا كنت تريد الاحتفاظ بالسر ، فاحفظيه على راحتك (وتقول هذا بلهجة المزعوجة) . ولكن افعلي ما تفعلين بشيء من الكتمان ؟ إذ لقد سلكت البارحة سلوك المتطرف في الإعلان عن نيائه . ولقد تلقيت حتى الآن أربعة اتصالات هاتفية حولك .

— أوليس للناس ما يفعلونه غير هذا ؟

— يمكن أن يفعل الإنسان كل شيء في باريس ، شريطة أن ينقذ المظاهر . وأخيراً ، فعندما

يسافر حبيبك العظيم إلى بلده ليلقى زوجته — خلال أسبوع على ما يظهر — فعودي للاتصال بي . ولكنني أنبهك ، فأنا لست من النوع الذي يمسح الدموع .

وأنهت المحادثة . وتلاشى فرح سلمى ، لا لأنها تهتم بعواطف ماري لور ولكن يجب أن تعترف أن هذه ، في الأعماق ، ليست على خطأ : فهي على وشك أن تصبح عشيقة لرجل متزوج سيعود من جديد إلى الطرف الآخر من العالم ، ولن تراه أبداً على الأرجح .

وبصورة آتية ، أشتعلت سيغارة ، مع أنها تكره التدخين . ودهشت من أن ترى يدها ترتخف . ولماذا تضع نفسها في مواقف كهذه من أجل رجل ، لقيته عرضاً ، والبارحة فقط ؟ لأنه مختلف جداً عن أولئك الذين يعازلونها بصورة بطيئة ؟ أما هو فقد هجم رماً فأذهلها عن نفسها كما لو أن جسمها كله كان قد تعرف على السيد ، وبعد أن حرنت قليلاً ، ولكن عبثاً ، تركت نفسها على سجيته . لقد حلمت ، وتخيلت له أنواعاً من المزايا ، وذلك على الأغلب تهرباً لهذا الافتتان الذي قلبها رأساً على عقب . أما الآن وقد عادت إلى رشدتها ، بعد ملاحظات ماري لور ، فإن عليها أن تعترف أنها صعدت : فهذا الأمريكي مغر — وهذا حق — ولكنه ليس من النوع الذي تحبه . ولن يكون بينهما ما يقولانه لبعضهما بعد أربع وعشرين ساعة . وانتصبت ، بعزم : إن عليها أن تضع حداً لهذه المغامرة .

وعاد الهاتف يرن . وشعرت سلمى بأن قلبها توقف عن الخفقان . فهذه المرة ، سيكون هو الذي يهتف . وهي تعرف ذلك . فتتنقض على الهاتف .

— صباح الخير ، أيتها الإلهة . سأمر لآخذك خلال ساعة ، لتتغدى في مطعم باريسى حقيقي ، أي في مكان لم تطأه رجلاك قط .

— ولكنني لا ...

— لست جاهزة ؟ وإذن فخلال ساعة ونصف الساعة ... ما أطولهما !

و « لافونتين دو مارس » الواقعة على طرف شارع سان دومينيك ، مطعم صغير ، يضع أغلبية ذات مربعات حمراء وبيضاء على طاولاته ، وقوائم طعامه ، إنما يكتبها ابن البيت الذي هو في الثانية عشرة من عمره ، وهذا ما يشرحه في الطريق ، هارفي لسلمى . وهو يقلد بحماسة صاحب المطعم الذي يأبى أن يقدم للشرب خمرأ آخر غير الكاهور Cahors ، أو يمتدح صحناً من الكاسوليه أي « بخنة الفاصولياء » بقوله : ستأكل وراءها أصابعك .

ولقد أثار وصول سلمى بالساري استغراب الجميع. ذلك أن المحييء إلى الغداء في روب ليلى، أمر لم يرق قط في المحييء! وتضطرب إحدى الأمهات أن تخرس طفلها الذي يسأل: «لماذا تنتكر هذه السيدة؟» على حين أن صاحب المطعم، وهو رجل أحمر الوجه والشعر، جريء يستعجل — ذلك أن «الأمريكي» واحد من زبائنه الممتازين. ولكي يبرهن أنه يعرف عادات العالم المتألق، نراه يمسك بيد سلمى، ويطلع عليها قبله ذات صوت، ثم يأخذ بيدها ويده، بحفة الراقصة، على الرغم من سمته، وبابتسامات كثيرة، يجلسهما على الطاولة الموجودة في آخر المطعم. أي على الطاولة التي يحتفظ بها للزبائن المتميزين. وهكذا فإن الزبائن الآخرين يمكنهم أن يلاحظوا أنهم لدى الأب بولاك، يجاورون الأكبر ولا يتجرؤون على الاحتجاج إذا بدا لهم الحساب ثقيلًا نوعًا ما.

ويخطر في بال سلمى أنها موجودة في قلب فيلم «لمارسيل كارني Marcel Carné». وما من مرة جال في حاطرها أن الفرنسيين، يشبهون حقاً تلك الشائعة التي تردد عنهم: فهؤلاء السادة الضخام، الذين يربطون المنشقة حول العنق، ويتذوقون الطعام، وعيونهم لامعة، والشفة نهمة... وهؤلاء الأطفال الغارقون إلى رقابهم في ثياب يوم الأحد، وهؤلاء العشاق الذين يقبلون بعضهم بعضاً، بعد كل لقمة، على مرأى من السيد بولاك، المنزعج، والناقم لأن هؤلاء يدعون الصحون الصغيرة التي صنعتها سيدة المطعم، تبرد، ولا يتردد هو في أن يصيح أنه: «عندما يأكل الإنسان فليتفرغ للأكل!» وتحب سلمى أن تعقد الحديث، ولكنها تشعر أنها قد تزعج. أما في المرة الثانية، فإنها ستلبس ثوباً عادياً.

في المرة القادمة... ولكن لن يكون هناك من مرة قادمة. وهذا ما يجب أن تقوله لهارفي. وحتى الآن، فإنه لم يترك لها المجال، فهو يفيض بهجة، ولا يقف عن المزاح. وعليها أن تبدد سوء التفاهم مباشرة، أما بعد قليل فسيكون ذلك أكثر صعوبة. ومع ذلك فإنها تتردد. إذ يبدو أنه جد سعيد.

— هارفي، يجب أن أكلمك.

وتندهش من لهجة صوتها، ومن انطلاقه السريع، وأكثر من ذلك، من أنها نادى الرجل باسمه الصغير، وهو بالنسبة إليها مجهول تقريباً. أتراها إلفاً تخفف بها وطأة الحديث الذي سيجرحه؟ أم هي مجرد رغبة في التلفظ باسم، ظلت تحلم به طيلة الصباح؟

وانتبه الرجل، وأخذ ينظر إليها، ويشير بغمزة عين، يبدو أنها تغنى: «لإني أعرف، لا تخافي. كل شيء سيُسوّى على أحسن وجه»، ولكنه يكتفي بالقول:

— بطبيعة الحال ، يا إلهتي ، ولكن ألا تريد أن تطلبي طعامك أولاً؟ إن هذا المكان لا يبدو شيئاً هاماً ، ولكن لا تنخدعي بالمظاهر . فهو أحد أفضل المطاعم في باريس . ومن حسن الحظ أن « الدرجة — الموضة » أبقته على حاله ، ويجب أن تعطيني بأنك لن تأتي إليه بأصدقائك ، ذلك أن لديهم « لورانهم » (مطعمهم الذي اسمه Laurent) ، وبرجهم الفضي ، وحبيبهم ماكسيم ، وهذا يكفي . ولا أريد أن يأتوا هنا ليقعوا الاضطراب في هؤلاء الناس الدراويش ، الذين لا يرون أن الطعام هو أن يكونوا في استعراض ، بل هو أمر أكثر جدية .

ونظرت سلمى بانتباه إلى قائمة الطعام ، كما لو أنها أمام مسألة رياضية ، ولكن عبثاً ما فعلت . فهي لا تفهم منها شيئاً بين ما يسمى الأرز المنقوع ، وفرخ دجاج مكماً (معه كمأة) وطاسة كبد بالفطور ... وهكذا فإن الكلمات تتراقص أمام عينيها : « أيها السيد » ... لا ، « أيها السيد العزيز » ... إن من الأفضل أن تختفي دوغما شرح . أوليست كل رسالة تعلن القطيعة دعوة لاستئناف العلاقات ؟ وهي قطيعة ، كما تسميها هي ! إذ لا يمكن أن يكون بينهما من قطيعة ، فما بينهما من شيء .

وتسمع نفسها تقول :

— لا شيء .

— عفواً ؟

فاحمرَّت وجنتاها ، وتمتعت ماتعني به أنها كانت تفكر بشيء آخر . وجباً لتوفير المشقة عليها ، طلب الطعام هو بدلاً عنها ، دون أن يسألها عن رأيها .

— والآن قولي ، ما هو هذا « اللا شيء » الذي كنت تؤكدينه بمثل هذا العزم ؟

وتسكت سلمى . إذ هل في وسعها أن تقول له ، إنها لا تريد منه شيئاً ، على حين أنه لم يعرض عليها شيئاً ؟

واستأنف الحديث هو ، فقال :

— لك الحق . فالشيء الظاهر هو أنه ليس بيننا من شيء مشترك . وهذا ماتفكرين به ، أليس كذلك ؟ وربما تساءلت : « ماذا أفعل أنا ، الأميرة ، مع هذا اليانكي » .

وأخذ يديها لينعها من الاحتجاج .

— والواقع أن هذا ليس ما تفكرين به ، ولكنه ما يفكر به الآخرون نيابة عنك . أولاً تظنين أنه
أن الألوان لكي تفكري أنت بنفسك ، حول ما يخصك ؟

— وما الذي يسمح لك بهذا القول ؟

ولقد وخزت بكلامها تماماً في المكان المألوف ، فحاولت أن تتخلص . ولكن هارفي يسك بها
بحزم .

— وحقاً ، فأني ظالم : فلقد بدأت . ولولا ذلك لما كانت لنا سهرة البارحة ، ولما كما معاً
اليوم . ولكنك قلما تعودت أن تفعلي ما ترغبين أنت بفعله ، بحيث أنك الآن لا يشتغل بالك إلا فكرة
واحدة ، هي الهروب .

وترك يديها .

— إنك حرة ، ياسلمى ، ولكن فكّري . فالهرب مني قد لا يكون شيئاً هاماً . ولكن
أنت ، هل تقضين حياتك بالهرب من نفسك ؟

وسلمى هنا تقف حائرة . فهذا الرجل خطر . إنها لا تكاد تعرفه ، ومع ذلك فإنه ينقض
كثور على حداثقها الأكثر صميمية . ومع ذلك ، فبدلاً من أن تنهض وتمضي ، تسمع نفسها تقول
بصوت بنت صغيرة عنيدة :

— إنك مخطيء . فأنا لا أهرب من نفسي . ولقد بحثت مدة طويلة عن نفسي ، وعن أكون ،
وماذا أريد . ولكن كلما أمعنت في البحث ، كنت أضيع أكثر . ولهذا فقد عدلت عن التفكير ،
وقرّرت أن أعيش .

— تريد أن تقولي إنك عدلت عن أن تعيشي ! هذا إن لم تكوني قد سميت باسم الحياة ،
ما تفعله اللعبة الميكانيكية ! سلمى — وانحنى باتجاهها ، وبدأ ينظر إليها بشدة — سلمى مِمَّ
تحافين ؟

ولكن لماذا تدع نفسها ، تُطرح عليها الأسئلة ؟ وهي الآن تريد أن تذهب ، ولكنها
لا تستطيع أن تقوم بأية حركة . وكأ لو أنها ، رغماً عنها ، تتمتع :

— كثيراً ما يدور في ذهني أنني لست شيئاً ، وفي الوقت نفسه ، أنني كل شيء . وأنا
لا أعرف ماذا يخيفني أكثر ، لأنني في الحالين ، أذوب وأختفي ...

ولكن ما الذي يدفعها إلى الإصرار لهذا الأجنبي بما في نفسها؟ على حين أنها تحذر حتى من أفضل أصدقائها الباريسيين. أهو هدوءه الذي يذكر بالسماء بعد العاصفة، أكثر من بحيرة هادئة؟ — كل شيء ولا شيء، وأعاد هذا الكلام مرة أخرى وهو يتبّت عليها نظراته بجديّة، ولكن هذا هو تماماً حالنا جميعاً. وأنا أصادق على قولك، إن هذا محيف لأننا الصغيرة!

ولما كانت تنظر إليه، مندهشة من هذه الكلمات المتفاحية بعض الشيء، على كونها ترنّ في أعماق أعماق نفسها، فإنه أخذها من الكتفين، وقال لها:

— اخرجي من حلمك، يا سلمى، إنك امرأة. فهل أنت شاعرة بما يعني ذلك؟ إن هذا هو أجمل لقب من ألقاب النبالة. وما الباقي كله إلا الزبد التافه الذي يعرقل جريان الحياة. أفسألت نفسك مرة، لماذا أدعوك إلهة لأميرة؟ ذلك أني أحب أن تتحرري من هذا القلب الذي يحذّك، لأنك أكثر بكثير من أميرة، فأنت مخلوق إنساني مع ما فيه من لانهائية الممكنات.

«ولكن يجب ألا يكون هذا مما يقطع الشهية». وقال هذا وهو ينفجر ضاحكاً، ويضع في صحنها قطعة رائعة من الفروج المكّمأ.

ويسكن هذا الإنسان في الرقم ٢٠ من طريق Montpensier، الذي يُطل على القصر الملكي (باليه رويال)، تماماً مقابل النافورة. فأخذها إلى هناك، بعد الغداء، دون أن يسألها شيئاً، كما لو أن ما كان يصلهما الواحد بالآخر، كانت له قوة الأمر البديهي. وقضى كل ما بعد الظهر، على السرير الكبير، فقبلها، وداعبها بنعومة، ولكنه لم يضاجعها، على الرغم من أن جسدها كله كان يرجو منه ذلك بكل قواه.

ثم عندما وهجت الشمس الغاربة غرفته، نهضا، ونزلا يستنشقان رائحة المساء إذ تفوح من العشب الذي يسقيه بعناية حدائق عجزوز. ووقفوا أمام بار صغير تحت القناطر وطلبا زجاجة من السانسير وبعض حبات الفستق التي رموا بها إلى الحمام.

وكان الليل لا يزال مضيئاً عندما أعادها إلى منزلها. وكانت ترتجف، وساقاها تلقيان العناء من حملها، وعندما انحنى ليقبلها، أغمضت عينيها لكي لا يرى فيها لمعان الدموع.

— سلمى، انظري إليّ!

وحملتها الموجة السمرء وأحاطتها بحنان لا ممتناه .

وتمتت قائلة :

— أحبك .

فدفعها عنه وحملق فيها بقسوة ، ثم إنه تلاطف ، عندما رأى وجهها مختبطاً .

— سلمى ، حاولي أن تفهمي أنك حرة بأن تفعلي ما يحلو لك ، دون أن تتخذي عذراً من عواطفك الكبيرة . فأنا مستعد لأقبل منك كل شيء ، ماعدا أن تكذبي على نفسك .

— ولكنني لم أكن أكذب .

— كنت تكذبين على نفسك . ولست مضطرة لأن تقولي الحقيقة ، إلا لنفسك . إني أعرف ، أنك بشوق إلى أن تحبي ، وربما إلى أن تحبيني ، ولكن حتى في اللحظة التي تظنين فيها أنك تستسلمين ، تظل عينيك مفتوحة عليك لكي تلاحظي الأثر الحادث . وأنا لألومك على ذلك ؛ فمنذ الطفولة دربك على أن تُعجبي ، وزادوا فأمعنوا في التنعيم والصقل وإعادة تشكيل كل ما كان عفواً فيك ، لكي تستطيعي أن تقومي ، بلا جهد ، بدورك كأمية . وما دمت لم تتخلصي من هذا ، فلن تستطيعي أن تحبي .

واقترب منها ، وأخذها من جديد بين ذراعيه ، وهددها بحنان .

— إن هذا صعب . ولكن لاتخافي ، سأفعل كل شيء لأساعدك عليه — ويضحك — لأساعدك عليه ، أناانية مني ، ذلك أني أنا أحبك ، وآمل أن تحبيني أنا ذات يوم ، لا أن تحبي صورة سلمى الواقعة في الغرام .

وعادت في اليوم التالي إلى جادة مونتبانسية Montpensier . ودون أن تهتف ، إذ لو فعلت ، لما عرفت ماذا تقول . وصعدت السلم في نوع من الحلم ؛ وفي كل درجة كانت تشعر أنه ينزل من على كتفها قطع من الثياب المهترئة . وكلما علت صعوداً ، شعرت بأنها أكثر خفة . وعندما كان عليها أن ترن الجرس ، شعرت بلحظة من الرعب : فكيف سينظر إلى امرأة تأتي هكذا ... لتقدم نفسها ؟ ولكنه عندما فتح الباب ، استقبلها ببسمة كانت من الرقة ، والروعة ، بحيث أنها عرفت

مباشرة أن هذا هو حقيقتهما، وأنه ما لشيء آخر غيره من أهمية. وأخذ يعريها، بتيء من الخجل تقريباً، فقام في ذهنها أن هذه هي المرة الأولى التي كان فيها رجل يراها بهذه الصورة، وعندما مس بشفتيه، ثديها — وهو جالس على ركبتيه أمامها — وأخذها من خصرها بين يديه القويتين، ومن انحناء كليتيها، فهمت بما يشبه الانبهار، أنها ما من مرة تملكها إنسان، قبل هذه المرة.

وفي نوع من السحر الحار والصامت، وخلال ساعات، تداعبا، مرتجفين، لا من انكشاف كل منهما للآخر، بل من التعارف الذي بدا لها، وكأنهما تحابا من قبل في عالم آخر، ولم يعد هناك وجود للمكان ولا للزمان — وأن الأبدية وحدها كانت موجودة في كل لحظة.

ومنذ الفجر، استيقظت على زقزقة العصافير، وبقيت مدة طويلة، ساكنة لا تتحرك، لتدع شعاعات الشمس الشاحبة تتسلل من بين جفونها، منتبهة، خلال ذلك، إلى عدم إزعاج اليد العارية الموضوعة على بطنها. وكانت تستمتع بالشعور أنها له، وكانت ممتنة له لهذا السبب، وبصوت ضعيف، كانت تقول له، إنها تحبه.

وأطالت النظر إلى الشفتين المليئتين، والتجاعيد الصغيرة الرائعة، الموجودة على زاوية كل عين. ترى، أسيحبها هذا الرجل، يحبها هي سلمى. ويقول إنه يريد لها عارية، ويريد لها امرأة، ويقول لها: كوني واثقة. ويقدم لها الهدية التي لم تعد تحلم بها، والتي ردتها منذ زمن طويل إلى أوهاام الطفولة، بل إنه ردتها إلى ما كانته، كبنية شرهة إلى الفهم، وكان العالم بالنسبة إليها مصدراً لا ينضب لكل أنواع التجارب، كما أنه ليس هناك من شيء يبدو له مستحيلاً.

ومنذ تلك اللحظة، لم يعودا يفترقان. وألغت سلمى كل دعواتها، مدعية أنها مسافرة. وعلى نهيل أن يجيب على الهاتف، ويقول إن موعد عودتها غير محدد. ولقد حاول هذا الخصي أن يرد أمرته إلى العقل — فهذا الأمريكي لا يبدو بذى قيمة في نظره — ولكن أمرته أسكتته بحشونة لم يعهد لها لديها من قبل؛ وهي لا تسمح لأحد بالتدخل في سعادتها.

وخلال أيام متتالية، واليد باليد، خلال المدينة. وأتاح هارفي لسلمى أن تكتشف «باريس» أخرى، غير التي تعرفها، وتنزه تحت أشجار الكستناء في جزيرة الجات la Jatte، التي تتمطى في منتهى النعومة، بين ذراعي السين، وأخذ يجلسان وهما يجلسان على المقعد الخشبي، المضاء بالمصباح ذي الأربعة أقمار، في ساحة فورستنبرغ Fürstenberg.

وفي صباح أحد الأيام، وباكرًا جدًا، أيقظها ليمضي بها إلى رصيف الأزهار *quau'aux fleurs* في الساعة التي تأتي الشاحنات، فتصب فيه كنوزها من الباقات الناعمة، المعطرة في ظل كاتدرائية نوتردام؛ ثم إنهما خطوا بضع خطوات، ووحدا نفسيهما في سوق الطيور. حيث اشترى لها قرقفًا *Mesange* في قفصه الأبيض.

وكانا في المساء، عند الغروب، يمضيان إلى مقبرة مونتاثر الصغيرة (وليها فيها) فتتذكر سلمى بحنين مقبرة أيوب الضاحكة، المطلة على البوسفور، حيث كانت تنزه وهي طفلة. وعندئذ، كان هارفي، حبا في تسليتها يأخذها إلى «الأرنب الماهر *Lapin Agile*». وهناك يجلسان حول طاولة، بين شبان نحيلين ذوي عيون حادة، تخيلهم هي، موسيقيين أو شعراء، فيستمعان إلى أغاني فريدي *Fredé* المكرورة. وكانت هي قد أهملت سواربها لتلبس مكانها طقوماً ذات تنورات مثناة، كانا قد ذهبا معاً لاختيارها. وأخيراً، ما عاد إنسان ينظر إليها.

وذات يوم، عندما جلسا على مقعد خشبي على ضفة السين، قصّ عليها هارفي حكاية طفولته في بلدة صغيرة من الأوهيو، ومطعم السائقين الذي كانت أمه تعمل فيه، وتخدم في قفاته، ذلك أنه كان يجب أن تعول الأسرة. أما أبوه فقد كان فناناً. وعندما كان يواتيه الإلهام، كان يلقي على القماش لمعات مُلوّنة معدّة، على ما كان يقول، لجعل العيون والقلوب تنفجر. وكان يعلن «أن هذا هو المهم، إذ يجب أن نوقظها، هذه الحيوانات المحترّة، ونملأ بها أفواههم، ويجب أن لا يناموا بعدها بهدوء!». وكانت هذه اللوحات، في الواقع، مناسبة جداً لإثارة الكوابيس؛ ولهذا فإنه لم يوجد من يشتريها.

وكان هارفي يعجب بأبيه إعجاباً لا حدّ له. وكثيراً ما تضارب هو وصبيان أكبر منه ممن كانوا يقولون عن أبيه، إنه الفنان الذي «لا يصلح لشيء». وكان قد أخذ عن أمه هذا الشعور بالكبرياء، التي كانت ترى أنه مامن فلاح حولهم، حتى الأكثر غنى، كان يصل إلى كعب زوجها، وكانت ستندesh حقاً لو أنها سمعت بأن الناس يشفقون عليها.

وذات يوم، كما في كل يوم، ألبسه أبوه ما ينبغي، ليذهب إلى المدرسة، وذلك لأن الأم كانت تمضي إلى عملها منذ الفجر. وضمه إليه بين ذراعيه؛ ويتذكر هارفي كل التفاصيل الصغيرة، واحدة واحدة، بدءاً من جاكيتة التويد التي كانت تحكّ له خدّه، والتي كان يحب رائحتها العنيدة، رائحة التيريبانتين المرافقة في نظره للعبقريّة، ويسمع، كما لو أن الأمر جرى الباردة، ذلك الصوت الأجلش يهمس قائلاً: «عندي بأن أكون فخوراً بك».

وسافر أبوه يوماً ما ، ولم يعد قط . وبحث عنه الأم في السماء والأرض ، وهي مقتنعة بأنه كان ضحية لحادث ما ، لكن ما من أحد عثر له على أثر . واليوم أيضاً ، وبعد ثلاثين سنة ، لا يعرف هارفي ما إذا كان أبوه ميتاً أم حياً .

— فبدأت أعمل كمجنون لأني بوعدي لأني . وكان يجب أن أكون الأول في كل شيء . وكنت مقتنعة بأن أبي سيعود إلى الظهور ، ليرت على كتفي ، كما كان يفعل ، في كل مرة كان يُسرّ فيها مني .

« وكنت أقضي لياليّ كلها في مكتبة البلدية . وكنت أذهب إليها بعد المدرسة . وعندما كان جرس الإغلاق يرن ، كنت أختفي وراء جناح ما من أحد أجنحة الكتب ، وأجس نفسي هناك . ولا يمكنك أن تتصوري فرحي بأن أجد نفسي وحيداً في مستودع المعرفة هذا . وفي البداية كنت أقرأ كل شيء . ولكن سرعان ما أصبحت كتب الفلسفة والطب هي التي تستهويني . وكنت أظن أنني سأجد فيها تفسيراً ما لسر الحياة . ولقد ورثت من أبي هوى الفهم ، ورفض الاكتفاء بالمظاهر ، وهو الذي كان يريد إثارة العين ، ومسّ شغاف القلب » .

ويقف هارفي مفكراً لحظة ما .

— وعندما حصلت على شهادتي في الجراحة ، ولم يأت ، فهمت أنني لن أراه أبداً . ومع ذلك ... ومنذ بضع سنوات ، أقمت معرضاً في نيويورك للوحاته . فهتف الناقدون ، لهذه العبقرية . وكانوا يقولون إن هذه اللوحات تنزع نزوع المذهب التعبيري قبل الألوان . وكانت عينا أُمي غارقتين في الدموع . وكنت أقول لنفسي ، لكن كان حياً ، فرمى حفزه هذا إلى العودة إلينا . إن الإنسان لا يفقد أبداً ، أمله بلقاء أبيه .

وأزاحت سلمى نظرها عنه ، لتخفي اضطرابها . وتعود فترى خيرى رؤوف بك ، جميلاً جداً في الريدنجوت الرمادي الصافي ، وتفكر أنها لم تسامحه قط على تخليه عنها ، وأنها انطوت على حزنها ، وأن حياتها كامرأة قد تحدّدت بحكم ذلك ؛ وفي حين أن هذا الصبي الصغير ، استمد قوته ، من مصيبة مماثلة . فلماذا؟ أيمكن أن يكون للإنسان أن يختار أن يكون بائساً أو سعيداً؟ وتحاول أن تدفع هذه الفكرة ، عبثاً ، وبدا لها أن سعادتها الحالية قد خالطها الحنين ، وأنها على وشك أن تلوم هارفي على أنه جعلها سعيدة ، وذلك لأنه جعلها تلاحظ مقدار ما بدّدت من سنين في الحياة من دون هذه السعادة . ولكنه هو أيضاً أفسد حياته جزئياً ، عندما تزوج من هذه البنت ، ابنة المعلم

الكبير ، منذ تركه العمل الداخلي في المستشفى . وفي اليوم التالي عزمت بعد شيء من التردد ، على أن تكلمه في هذا الشأن .

وتأمل هارفي فيها ، بهيئة المندهبش .

— ماذا تريد أن تعرفي ؟ لقد كنا شاوين في أول العمر ، متحابين وعاشقين . وكان الناس يقولون : إن هذا الزواج كان بالنسبة إلي ، فرصة غير مأمولة . ولكني لم أكن أفهم — فيما أنا فيه من بساطة — ما كانوا يخفونه وراء هذا الكلام . وهذا ما يبدو أنه لا يمكن تصديقه . ولكني كنت مزهواً بنفسي ، كبير الثقة بما عندي ، وأفكر بالمسافة التي قطعتها وحدي ! ولم أكن أفكر أنه كان بيننا كل هذه الهوة ، في نظر الناس . وكانت أورسولا جميلة ، ذكية ، متحمسة . وكان هذا يكفي لأعتقد أنها كريمة الطبع ، مثالية . ولسوء الحظ ...

وفجأة يتوقف عن الكلام ، ويقول :

— إني لا أفهم لماذا أقص عليك هذا كله ...

وتلح سلمى على المتابعة ، وليكن ما يكون من أمر التدخل في قضايا الآخرين . وتقول :

— لقد سمعت أنها لم تكن تطبق غيابك المتكرر للعناية بالهنود في أعماق المكسيك ، أو في منطقة الأمازون ، وأنها تطلب الطلاق ، وأنت لا ترضى بذلك لها .

فلمعت عينا هارفي .

— إنهم يقولون أشياء كثيرة . ولو أن هذا صحيح ، فلماذا أرفض إذن ؟ إنك تخييين أملي ، يا أميرة ، وتهبطين بقيمة نفسك . وهكذا فإنك تفتنين برجل تافه ، يبقى مع زوجته ، من أجل المال . أفلا تفكرين بأنك تساوين أكثر من هذا ؟ وأنت تستحقين ما هو أفضل ، يا إلهتي ، وأنت كنت على حق في اختياري ... لأنني « الأفضل » !

— وإذن فماذا ؟

حسناً . فما دمت تحرصين على ذلك كل الحرص ، فاعرفي أنني أقمت منذ سنة ، دعوى طلاق ، على الرغم من أن أورسولا تعارض في ذلك . وتركت الأمر يطول . ذلك أنني لم أكن أفكر مطلقاً بزواج ثان ... ولكن

— ولكن؟

وينظر إليها نظرة الفضول .

— أتساءل أحياناً، عما إذا كنت تستطيعين ذات يوم، أن تتخلي عن لقبك كأميرة، أو كما هاراني، لكي تكتفي باسم: السيدة هارفي كرمان .

ولم تغب عنه الانتفاضة الخفيفة التي حاولت إخفاءها عنه . وظهرت على وجهه هيئة الساخر، الحزين بعض الشيء .

— إن هذا ما كنت أفكر به ... إن عليك أن تكبري أكثر .

وعضت سلمي شفتيها ... فلم بدت عليها حركة التراجع هذه؟ ومع ذلك فإنها جد راغبة بالإجابة بعم، وأن تنسى كل شيء، وأن تسافر معه . وهي تعلم أن هذه هي فرصتها العظيمة، وتعلم أن هذه هي الحياة، وأنه على حق عندما يسخر من هذا « التاج الذي يحاصر رأسها، ويمنعها من التفكير » . ولكن عبثاً ما تحبّطت، ومنذ ثمان وعشرين سنة وهي تزن وتوازن؛ فكأن هذا كان لاصقاً بجمجمتها .

وتعود إليها صورة أمير الذي صرخ ذات يوم من أيام اليأس، وقال: « وماذا يجدي علينا الاستقلال . إذ ليس هم الإنكليز الذين يجب طردهم، بل كذلك هذا الدماغ الذي يجب أن نقتلعه من رؤوسنا، هذا الدماغ الذي صنعوه لنا هم، هذا الدماغ الأبيض! »، وهي تفهم الآن تماماً ماذا كان يريد أن يقول . إنما هي أيضاً سجين أفكار لم تعد تؤمن بها أبداً، على كونها تشعر كل يوم، مع هارفي، بأنها صدّتها عن الحياة (كما تريد) .

وأخذها بين ذراعيه وبدأ يداعب شعرها بخنان .

— بلى، يا حبيبتي، إن الحياة، الحياة مباشرة . وكأنه يحزر ما في نفسها . وكثيرون أولئك الناس الذين أدركوا متأخرين، أنهم انخدعوا بحياتهم ... ودب اليأس في قلوبهم .

ويهز رأسه .

— ولكم رأيتم من هؤلاء الشياطين المساكين الذين لم يكونوا يريدون أن يموتوا، لأنهم كانوا يقولون إنهم لم يعيشوا . ولكننا نحن، يا إلهتي، الأبواب كلها مفتوحة أمامنا! إن كنت تريدين ذلك .

وانقضت ثلاثة أسابيع ، كانت كل لحظة من لحظاتها تنقش في عقلها . فما من مرة حسبت سلمى فيها أن السعادة يمكن أن تكون بهذه القوة وهذه الرصانة في آن واحد .

وفي هذا المساء ، أراد هارفي أن يعود إلى « الفوتتين دومارس » واليوم هو الاثنين ، والمطعم شبه خال . فأجلسهما « الباترون » على طاولتهما ، ومدّت سلمى له يدها كما لو أنه كان صديقاً قديماً . ثم التفتت إلى هارفي فرحة ، وقالت :

— إن هذا هو فألنا السعيد ، أليس كذلك ؟

— موافق .

— يجب أن تأتي إلى هنا ، من وقت لآخر ، أنت وزينيل ...

— أنا وزينيل ؟

— عندما أكون قد سافرت .

ورسم على وجهه ابتسامة أراد لها أن تكون تشجيعاً .

— سلمى ، يجب عليّ أن أعود بالضرورة إلى نيويورك لأرتب أموري . ثم إن عليّ أن أراس بعثة إلى المكسيك ، ذلك أفي التزمت بهذا الأمر ، ستة أشهر . ولكني أكون قد عدت في بداية ايلول / سبتمبر . / سنتنظريني . أليس كذلك ؟

وكأن البرد دخل إلى أعماقها ، على كونها تعرف ذلك ، وتعرف أن عليه أن يسافر ، وأنه أخرّ موعد سفره عدة أسابيع بسببها . وهي تعرف أنه يجبها ، ولكنها لاتستطيع أن تقاوم الرعب الذي يستولي عليها .

— هارفي ، خذني معك !

وقالت هذا ، وكأنها صرخته صراحاً ، تقريباً . فحملك فيها ، مذهولاً ، من هذا الخوف الطفلي !

— يا عزيزتي ، هذا مستحيل ، وأصلاً أنت بحاجة إلى أن تبقي وحيدة ، لكي تفكري . فأنا أعرض عليك حياة مختلفة جداً عن التي تعودتها . وأنا أعيش حياة المتشردين . ولن يكون هذا سهلاً ...

ولما لم تجب، أضاف هو قوله :

— من حسن الحظ أننا لآأنت ولآأنا، مقبّدان بأطفال . وما نقرّره لآألزم أحداً غيرنا .

وامتقع لون سلمى . ذلك أنها منذ بدأ التعارف بينهما، كانت تريد أن تقول ذلك له . إذ لم تعد تستطيع النوم لهذا السبب . لآأرب أنه مختلف عن الرجال الآخرين . ولكن هل هو مختلف إلى هذا الحد؟ أوقبل أن تحمل المرأة التي يحبّها طفل رجل آأر؟ وخافت . ولم تعد تستطيع أن تحتمل فكرة فقدانه . آه، لو كان يستطيع أن يفهم أن هذا الولد هو ولدها هي، سلمى، وأنه لا علاقة له، أو قل إنه قليل العلاقة بأأمر .

وحتماً فالمسألة شيء آأر، عندما يكون الزوجان متحابين : فتحت نظر الأب، وفي حرارة اليد التي تداعب بطنه، وعلى الاستماع لصوته، ينمو الطفل، ذلك الكائن الصغير، بفضل الحب الذي تتفتح فيه المرأة . عندئذ يمكن القول إنه ثمرة تلاحم هذين الكائنين . آه، كم تحب أن يكون هذا الطفل، من هارفي لآمن أأمر! ..

وأخذت تبكي . فيلاحظها وهو حائر قلق . فما من مرة خطر بباله أنها حساسة جداً للذكر الولد . فيسألها بخنان .

— سلمى، أتريدين طفلاً؟

فرفعت رأسها، وحملت فيه من خلال دموعها . وعليها أن تكلمه الآن . ولكن الشجاعة تنقصها، فتكتفي بأن تمهمس :

— وأنت يا هارفي؟

— إنني، بحكم الحياة التي أعيشها، لم يخطر هذا في بالي قط، بصورة جدية . ولكن عندما أفكر في الأمر، فإن ولداً منك ومني، سيكون روعة !

وأشرق وجهه . ولكن لآم عادت سلمى إلى البكاء؟ فيلح عليها بالأسئلة . وتجبب هي أنه ليس هناك من شيء . وأنه مجرد الهيجان . وقرّرت ألا تتكلم، ولن تفسد أيامهما الأخيرة . أما فيما بعد، وعندما يكون هو في أمريكا، فإنها ستكتب له . فلقد عرفت دائماً أن تشرح أوضاعها بالكتابة، بصورة أفضل بكثير، مما تفعله بالكلام .

—٤—

وتمر في سماء الشانزيليزيه، المزينة بآلاف الأعلام، دورية من الطائرات المطاردة، بضجة ضخمة، يتبعها سرب، من « باصقات اللهب Spitfire » البريطانية، بجناحين، أحدهما أبيض، والآخر أزرق. وتأتي بعدها مباشرة، وبالعشرات، طائرات من نوع Breguet ٦٩٠. ومارسيل بلوخ ١٥١، وليوري أوليفيه ٤٥ Lioré Oliveir، وكان الجمهور المجتمع هناك منذ الساعات الأولى للصباح، يشعر « برعشة الاعتزاز »: ولقد قالوا لها ذلك، ولكنها حتى تلك الساعة، لم تكن قد قدّرت حق التقدير، قوة سلاح الطيران الفرنسي.

وجلس على المنصة الرسمية، الرئيس لوبران Lebrun، محاطاً بوزرائه الذين يلبسون جاكيتات قائمة. ووراء هؤلاء كان يجلس الرؤساء المحليون في المستعمرات والمحميات، وهم يلبسون الجلايات المطرزة بالذهب، أو بجلايات طويلة مخططة ومشجرة.

ويبدأ الآن استعراض ١٤ تموز / يوليو « من عام ١٩٣٩، المقابل لانقضاء مئة وخمسين عاماً، على الاستيلاء على الباستيل.

وكان في ذلك الجمهور الكثيف آلاف من المكبرات ترتفع. واستطاعت سلمى، بفضل مساعي زينيل، أن تجد مكاناً فوق علبة صابون، دفعت أجرته عشرين فرنكاً لأنها وصلت متأخرة. ولقد كانت تحثم على رؤوس رجليها، وتلاحظ المغفر اللامع لأفراد الحرس الجمهوري الذين يفتتحون الاحتفال، ويتبعهم في العرض أصحاب الريشة الحمراء — البيضاء التي يضعها طلاب سان سير،

المدرسة العسكرية المشهورة، وذوو قبعة القرنين السوداوين المزينين بشريطة حمراء، أي طلاب مدرسة البوليتكنيك. ما أجملهم! وكانت سلمى شديدة الحب للإستعراضات العسكرية. ففرع الطبول، والأناشيد الوطنية، من أي مكان صدرت، تثير فيها رعدة غريبة، في جوف معدتها، وتجعل دموعها تنال من عينها.

وها قد جاء دور الإنكليز: وجاء رماة الرمانات كأنما خرجوا مباشرة من الرسوم القديمة، تحت طرايشهم العالية المصنوعة من القرو الأسود. فتقدموا بخطى موزونة، على حين أن الحرس الإيقوسي في التناير، يبدون وكأنهم يرقصون على صوت مزاميرهم. ويهتف الجمهور: لتعش إنكلترا، ذلك أن الناس كانوا مسرورين بهؤلاء الحلفاء الجدد. واطمأنوا قليلاً، عندما بدؤوا ينظرون إلى استعراض المشاة. ولكن رجال البحرية سيجدون ما يستحقون من التصفيق، وعماً قريب سيمس الناس شرابهم، لكي تأتيمهم بالسعادة.

وأخيراً يظهر الفرنسيون الذين وفدوا من أنحاء العالم، في أعلى الشارع: كالرماة بالرشاشات الآتين من الهند الصينية، أو من ماداغسكار، والرماة الجزائريين، والسنغاليين المهيئين... وختاماً هذه المسيرة الغربية يأتي رجال الفرق الأجنبية، ذوو الخطوات البطيئة، مكللين بغار أولئك الذين جابهوا الصحراء والموت. وتنظر إليهم سلمى بفصول: وكانت قد سمعت من يقول إن مارلين ديتريش، التي جاءت البارحة من أمريكا لكي تشارك في الاحتفال، وتغني: قريباً من شقراي *Auprès de ma blonde* قد علقت بهوى واحد من هؤلاء.

وكانت العيون ملأى بأخيلة المغامرات، عندما وصلت فرق الخيالة، وهي فرقة أرستقراطية تسمع أصوات حوافر خيولها، بما فيها من هوسار *Hussards*، وفرسان، وتنانين، يجعلون كل هؤلاء الكسالى الذين لا يجروون على ركوب حمار، ينتصبون واقفين. وجاء وراء هؤلاء، فرق الخيالة الميكانيكية، التي تمثل نقطة اعتزاز الجيش الفرنسي الذي لا يغلب. وكانت الدبابات تجري في الشانزليزيه كما لو أنه ما من شيء يوقف زحفها أبداً. «إنها دبابات خط ماجينو، وعندنا منهم الآلاف» على ما يتهامس الناس، وهم خائفون بغموض أمام هذه الشياطين المصنوعة من الصلب، على حين أن رجلاً مهيباً جداً، كان يعلن بصوت عال، ما كان يدور في خلد كل إنسان، ولكن في السر: «إن البوش (الألمان)، مع هذه، يمكن أن يذهبوا، ليصلحوا أوضاعهم».

وكان الاستعراض على وشك الانتهاء، كما أن الجماهير قد تجاوزت جبال الشرطة، لكي تذهب فترى هؤلاء الجنود الجميلين الذي يدخلون الدفء إلى قلبها. وكانت سلمى لا تزال واقفة على صندوق الصابون، وهي تبحث في منصة الهيئة الدبلوماسية عن بعض من تعرفهم. آه. هذا هو

لوكا ، ولم يبدو سعيداً. إن هذا هو اسمه بالنسبة للحميمين من أصدقائه . أما اسمه الحق فهو جول لوكا سيويكس Lukasiewics ، سفير بولونيا : وكان قبل عدة أيام قد قَدَّم في منزله الرائع ، الذي يطلق عليه اسم أوتيل ساغان ، واحداً من آخر أكبر البالات في ذلك الموسم . وقبلما رقص الناس بمثل هذا الانطلاق . وكان هنالك آنق ساء باريس . وانطلقن جميعاً إلى رقصة «البولونر» «الشيطنانية» مقودات من قبل سيرج ليفار الذي كان يقدِّم الإيقاع . فيارب كم كان الناس يحبون بولونيا وسفيرها صاحب السحر السلافي ، ولم كان مضحكاً ذلك الغول الألماني الصغير ، صاحب الشارين الأسودين . وقد استمتعت سلمى متعة كبيرة ، ذلك المساء ، ونظرت بغضب إلى رجل مزعج كان يهمس لجاره قائلاً : «أي عدم مبالاة ! إن هذا هو حقاً ، بال العميان » .

وكانت قد مضت ثلاثة أسابيع على سفر هارفي . وكانت سلمى التي خشيت من هذا الغياب ، تلاحظ بدهشة ، أنها ليست بتعيسة . ولا ريب أنها كانت تفتقده ، وكثيراً ما فاجأت نفسها تبحث عنه في الجمهور المحيط بها . غير أن هذا الافتقاد عذَّب على قلبها ، لأنه يجعلها تعرف كم هي تحبه . ولأول مرة ، تجد أن هذا الحب لا يخيفها : ذلك أن لها ثقة كاملة به ، لأنه جعلها تثق بنفسها . وهي مقتنعة الآن بأنها وجدت أخيراً مكانها ، بعد لفّة طويلة جداً .

وهكذا فإنها تعيش لحظتها بهدوء جديد تماماً ، وتعجب أن تكون في آن واحد عفيفة وبسيطة ، وربما كانت عفيفة لأنها بسيطة ؟ على الأرجح .

وكانت باريس في هذه الأيام الأولى من الصيف قد تجاوزت المألوف بهذه التظاهرات الرائعة ، كما لو أنها ، في الحين الذي يتها فيه أصدقاؤها الحميمون لمغادرتها ، في رحلة الصيف ، والعطلة ، كانت تريد أن تحمل المغادرين على الأسف عليها . وكانت سلمى تدعى إلى كل الحفلات . وما من أحد عتب عليها أنها غابت شهراً كاملاً ، تقريباً ، بل بالعكس ، كانت تستقبل بأكبر المسرة ، بمقدار ما أصبحت نادرة الوجود .

وكان أحد أحداث هذا الشهر ، حزيران / يونيو / ، هو «العرس الذهبي لبرج إيفل» . وكان هذا السيّد العظيم يحتفل بعيدة الخمسيني ، في الحين الذي كان فيه دوق وندسور يحتفل بعيد ميلاده الخامس والأربعين . وكانت باريس كلها تحتفل بهذه المصادفة السعيدة في الطابق الأول من البرج . وكانت النساء قد لبسن الثياب التي كانت دارجة عام ١٨٨٩ ، ويرقصن بهجة ، رقصة

المربع le quadrille بكل صورها، في الحين الذي كانت فيه السماء تنوهج بالألعاب النارية التي كانت تطلق من قصر Chaillot .

ثم إنهم في الخامس والعشرين من هذا الشهر عادوا فاحتفلوا بجائزة السباق في «لونشان» واستطاعوا أن يروا بين القبعات الأكثر غرابة لكثرة ما فيها من قنازع وريش النعام الزهري والأزرق، الأمير رونييه دو بوربون بارم، والآغا خان، والسلطان المراكشي، مجتمعين في المصصة الرسمية، تمتقع ألوانهم، مرة أخرى بفضل الحصان الكراك le Crack الذي هو ملك مارسيل بوساك، والذي كان وعلى ظهره الجوكي إيليو، في آخر الخط الأيمن، قد انطلق وكسب الجائزة . وسط الحماسة العامة .

ولكن روعة الموسم، كانت بلا جدال، ذلك «البال المتنكر» الذي دعا إليه الكونت إيتيين دو بومون على شرف مرور ثلاث مئة عام على ولادة راسين . أما الكونت، الخفيف والسمين معاً، فقد كان متنكراً بأردية لولي Lulli، وكان صديقه موريس دو روتشيلد، يتنكر بصورة باياريه رائع Bayazet، وبعملة مُوشاة بالماس . أما جان ماري Jean Marais آخر ما اكتشفه الشاعر جان كوكتنو، والذي كان مغرمًا بحبه إلى حد الجنون، فقد ظهر ك هيبوليت Hyppolite، عارياً تحت ردائه المصنوع من جلد الثور . وأما السيدة شكيا باريللي Schia parelli فكانت متنكرة في ثياب الأمير Condé، وكوكو شانيل Coco-Chanel كان إنساناً مجهولاً رائعاً، على حين أن مهرجاه وماهاراني كابورتالا، في ثيابهما الفخمة المصنوعة من الخمّل القرمزي، كانا يمثلان دوق ودقة لورين . وكان هنالك كونتيسة دو سيفيني، وأوانس من سان سير، وسفارة كاملة لسيام، في وسطها الأنسة إيف كوري والأميرة بونيا توفسكا، تحتبجان وراء أظافرها الطويلة المعقوفة . أما سلمى فكانت تمثّل بيرينيس المؤثرة، في أوشحة سوداء، وجبهتها محاطة بأكليل بربري . وقد لوحظت بشكل واضح، بين الحاضرين . ولم تتسائل، إلا فيما بعد، لماذا اختارت دور هذه الملكة التي تخلّى عنها الرجل الذي كانت تحبه .

ولكن سلمى، في هذا النصف من تموز / يوليو /، في الحين الذي أفرغت فيه باريس من كل طيورها الخلوة، الذين هجروها إلى مناطق حمامات البحر، على الشاطئ، أو نحو المدن ذات المياه المعدنية، كانت فرحة كل الفرحة بأن تشعر بأنها حرة باستخدام وقتها، كسائحة تستقر في مدينة، لا تعرف فيها أحداً، وحيث تستطيع أن تكيف أيامها تبعاً لحاجات اللحظة التي هي فيها . ولقد دعته ماري لور إلى عزبتها في إيدن روك Eden Rock، ولكنها فضلت ألا تقبل الدعوة . فهي بحاجة إلى أن تبقى وحدها، ووحدها مع هذا الثقائل الغريب والحار الذي بدأت تحس بأنه يستقر في بطنها، وهي في حاجة إلى أن تتجمّع على نفسها، وأن تصيخ السمع إلى نداء جسمها، وأن

تنطوي على نفسها . وكانت في الأيام الأخيرة قد رفضت الانتباه إلى التغيرات التي تتم تدريجياً في داخلها ، إلا إذا كان الأمر يتعلق بتغيير مكان أبازيم تنوراتها ، عندما لاحظت أن خصرها بدأ يسمن ويعرض ، ولكن هارفي لم يلاحظ شيئاً . وظن أنها بضعة بطبيعتها ، وهذا كل شيء . وبطبيعة الحال فإنه اتهم المطبخ الفرنسي بما فعله بها .

وهارفي ... كانت قد وعدت نفسها بالكتابة إليه ، وأن تقول له الحقيقة ... ولكنها كانت مشغولة ، ومشغولة إلى الحد الذي ألهاها عن الوفاء بوعد ، تتردد الآن في الوفاء به . أو يفهم أنها لم تصارحه ؟ وكلما مضى الوقت ، وجدت أن من الصعب تبرير سكوتها : وقد أخطأت في السكوت عندما سنجت لها الفرصة بالكلام : عندما يكون الرجل بين ذراعي امرأة يحبها ، يقتنع بصورة أسهل ، مما لو قرأ عدة جمل على قطعة من الورق . وأية قوة تملكها الآن عن بعد ؟ وهي تخشى أن يضع هارفي صمتها على حساب التردد العاطفي بينه وبين أمير . ومتى شعر أنه جرح ، فإنها تخشى أن يحسم المسألة حالاً ، ويفعل كل ما بوسعه لينساها . وهو قادر على ذلك . لا ، إنه لا ينبغي لها أن تكتب إليه . فإذا عاد في ايلول ، وإذا بقي على حبا ، فإنه سيفهم .

والآن ، وقد اتخذت قرارها ، فإنها تشعر بأنها أهدأ بالاً ، ولم تلق عناء في خنق الصوت الصغير الذي يهمس في أذنها : « وإذا كان صبيّاً فماذا تقرّرين أنت ؟ وهل يسمح لك الحب بأن تحرمي ولدك من حقه الوراثي ، في تاج بادالبور ؟ » .

ولا يجدي في شيء أن تشغل ذهنها بجملة « إذا .. يأت » فلقد قال لها هارفي دوماً : « إن عليها أن تعيش في الحاضر » .

وتمضي الأيام الأولى من شهر آب / أغسطس / كحلم . وباريس فارغة تقريباً : وقد أحصي حوالي ١٢٠ ألف مسافر ، على نظام العطل المأجورة . وطمان الراديو — سيتي Radio—Cité كل الناس : ذلك أن منجميه قالوا إنه لن يكون هنالك حرب هذا العام .

أما في الشوارع ، فإن حراس المنازل سحبوا كراسيهم ، وأخذوا ينظرون إلى المارة القلائل ، بقلب نظيب ، كما لو أن مجرد البقاء كان يُوحدهم في جماعة الباريسيين الحقيقيين . أما في أكشاك الحدائق العامة ، فإن الأوركسترات البلدية ، تعزف قطعاً موسيقية لغونو Bizet وبيزيه ولكن لا وجود لمؤلفين موسيقيين ألمان ، بل إن بيتهوفن نفسه وضع على قائمة المنبوذين .

وبناءً على إلحاح زينيل الذي يساوره القلق من تضاؤل موارد الأميرة — ذلك أن الحوالات

الصادرة من الهند تتباطأ مدة طويلة — فقد قررت سلمى التخلي عن شقتها في البلازا آتيني . وأعلمت الحارس أنها تترك باريس ، لبعض الوقت ، وطلبت أن تحفظ لها رسائلها .

ولم يكن عليهما إلا أن يجتازا السين ، ليجدا في شارع RAPP فندقاً ريفياً بعض الشيء ، ولكن وسائل الراحة متوفرة فيه . وكان قربه من الشان دو مارس Champ-de-Mars هو الذي حمل سلمى على القبول به . إذ ستذهب فتتنزه هناك كل يوم ، لأن في ذلك خيراً للجنين . ولقد استقر في عزمها أن تكرر ، منذ الآن ، نفسها له : ذلك أنها شعرت بأنها أساءت إليه بإهمالها له . ولعلها حالت دون نمو رتيبه نمواً سليماً ، بالضغط بشدة على الخصر . ولكن هل لهذا الجنين رثان الآن ؟ وهي خالية الذهن من كل فكرة عما يكونه الجنين الذي يبلغ عمره الآن خمسة أشهر ونصف الشهر .

أما زينيل فهو في غاية السرور : فلأول مرة كانت سلمى كلّمها له . وكان قد استاء كل الاستياء من مغامرتها مع ذلك الأمريكي . إذ لقد كرهه من أول نظرة ، على الرغم من أن هارفي — وقد شعر بعدائه له — بدا لطيفاً جداً معه . ولكن هذا ، بالضبط ، هو ما احتقره الخصي لديه : أي إلفة هذا الأجنبي له ! فهو لاء الأمريكيون مجردون من حسن أسلوب التعامل : « إنه ليس من عالمنا ، يا أميرة » على ما كان يقول ويكرر قوله لسلمى ، « ويلاحظ بسهولة أنه لم يُعتنَ به » . وعندما فهم أن العلاقة تصبح جدية ، هدّد بأن يكتب إلى الراجاه الذي جعله مسؤولاً عن زوجته . ومن أول كلمة ، صعبته سلمى بنظراتها ، ومدّت إليه قلماً ليكتب به .

— اكتب ، وستحمل مسؤولية موتي في ضميرك ، ذلك أنك تعرف جيداً أن الراجاه سيقتلني ! وعلى الأرجح فإنه سيقتلك بعدي ، لأنك أسأت المراقبة .

ونخفض زينيل رأسه . وكان يعرف أنه لن يستطيع إخافة سلمى . ذلك أنها حتى وهي طفلة ، لم يكن أحد غير أمها يستطيع التأثير فيها . ولكنه على الأقل كان مرتاح الضمير داخلياً : فلقد حاول . وانقلب غضبه على الراجاه ، وقلة حكمته في إبقاء زوجته وحدها في باريس ، بعد أن استبقاها سنتين شبه سجنية . وأضافت سلمى ، كما لو أنها تحرر أفكاره ، وبرودة دم أحزنته ، بقدر ما لاحظ فيها من المرارة ، أضافت القول :

— إن الشيء المهم بالنسبة إلى زوجي العزيز ، ليس وفائي له ، ولكن سمعته . وهذا هو الذي

طلب منك حمايته . وعلى ذلك فإن واجبك هو أن تساعدني ، في أن لا يعرف عني شيئاً . وكنت أظنك أكثر رهافة ، يا زينيل .

وهزّ رأسه كما لو أن هذا الحديث أقنعه . والحقيقة أنه فعل ذلك معبراً عن ارتياحه ، إذ لم يطق أن تستعمل سلمى في حديثها إليه فعل الجمع . وكان مستعداً لقبول كل شيء منها ، ما عدا هذا الوضع الشديد البرودة ، الذي كانت تحسن اتخاذه عندما يعارضون إرادتها .

وأصلاً فإن الذي كان يلومها عليه ، لبس المغامرة التي أوقعت نفسها فيها . إذ أنها ، آخر الأمر ، ليست بفتاة ، ثم إذا كان الراجاه يجعلها تعبسة ... بل إن لومه ينحصر في أنها تبدو عاشقة . ذلك أنه كان يعرف أنها ذات مزاج كلي ، وأنها مستعدة للتخلي عن كل شيء .

غير أنه مادام الأمريكي ، قد سافر الآن ، فكل شيء سائر نحو الأفضل . ومنذ الآن ، يجد زينيل أنه الوحيد مع سلمى . وهي في وضعها هذا ، سريعة العطب ، وبها حاجة إلى أن تُدَلَّلَ ، وتحاط ، وتُحَبَّبَ . إذ ليس لها من شخص آخر غيره . فهو في آن واحد أبوها وأُمُّها وأخوها وزوجها . وربما تمنى وقوع كارثة ما ، ينقذها منها ، حتى تفهم أخيراً إلى أية درجة ، هي بحاجة إليه ، هذا الوفيّ الوحيد ، الذي صاحبها كل عمرها ، وسيبقى إلى جانبها ، مهما يحدث .

وفي كل صباح ، كانت خادمة الفندق (أو النادل) تحمل مع فطور الصباح جريد الفيغارو ، وكانت سلمى تقرض هاليتها (Croissant) وفي الوقت نفسه تطلع على الأخبار . ومنذ عدة أيام ، ولا حديث إلا عن البعثة العسكرية المرسلة إلى موسكو ، وتكتب الجريدة ، وهي باستمرار حسنة الاطلاع ، أن ستالين يحرص على توقيع اتفاق مع بريطانيا وفرنسا .

وفي يوم ٢٢ آب / أغسطس / ١٩٣٩ ، كان الناس أميل إلى التفاؤل . وقد صرّح بول كلوديل ، وهو شاعر ودبلوماسي عظيم ، « أن هذا الغول المنفوخ ، سيفقد انتفاخه » . والغول بطبيعة الحال هو هتلر ، الذي يسخر منه كل الناس ، بدءاً من المغنين الساخرين الذين إذ يقلدونه ، يكسبون أكبر نجاحاتهم ، حتى طلاب المدارس . فهؤلاء الفرنسيون ذوو روح فكهة ذكية ! ومنذ أسبوع أرسلت « لجنة ورود خط ماجينو » أول طاقاتها من الزهر إلى الرئيس لوبران . وسألت سلمى عن هوية هذه اللجنة ، وضحكت ضحكاً كثيراً عندما علمت أنهم ، وسط المدافع ، على طول خط الدفاع ، زرعوا آلاف الشجيرات من الورد ... وأنه لا مجال لتركها تسحق !

أما في الزاوية الخاصة بالأخبار الاجتماعية ، في الجريدة ، فقد توقفت عن مقال يصف « بال

الأسرة الصغيرة البيضاء» الذي أضاء البارحة البالم بيش Palm Beach ، في كان : وكان قد جمع كل الأسماء الكبيرة في الغوتا Gotha ، وأصحاب المليارات بعدد كبير ، وكان تحت رعاية حرم المارشال بيتان . الذي كانت سماته اللائقة تذكر بأن هذا الاحتفال ، احتفال لعائلات الإحسان .

الأخبار طيبة إذن ، والشمس رائعة ، ونهضت سلمى ، وكان أثناء عنايتها بنفسها تصغي إلى المذياع الذي يذيع الأغنية الدارجة : « كل شيء على أحسن حال ، يا مدام الماركيزة ! وكل شيء على أحسن حال . وخلال عدة أيام سيصل هارفي . وخلال هذا الغياب لم تتلق منه سلمى إلا بطاقتين صغيرتين . ولكنه كان قد أخبرها ، أنه لن يستطيع الكتابة ، وهو في أعماق المكسيك . وعلى كل حال فإن سيكون هنا في بداية ايلول / سبتمبر / ، ذلك أنه وعدها بأن يأخذها إلى هذه المكان نفسها ، حيث سيقام الاحتفال الدولي الأول للسينما . وستحضره أكبر النجوم في هوليوود — وكان الأمريكيون قد أعلنوا أنهم استأجروا عابرة للمحيط لكي يرسلوا فيها حمولة كاملة .

لكن هذه الحمولة المذهبة ، لم تصل إلا بعد ست سنوات ...

وفي الواقع ، فإن سلمى ستعلم عند نزولها من غرفتها خبراً مزعجاً ، سيقرب كل الأوضاع . فلقد انتهى ستالين إلى التوقيع على معاهدة ، ليست مع الإنكليز ولا مع الفرنسيين ، بل مع هتلر ! وكانت الصدمة قاسية : فهل يمكن بعد الآن أن نتجنب الحرب ؟

وعلى حين أن رئيس الوزراء ، إدوار دالادييه ، يذيع على موجات الإذاعة ، مالدى فرنسا من حرص على السلام ، كانت شوارع باريس تغطي بإعلانات تستدعي الاحتياطين . وخلال أربع وعشرين ساعة انتظمت مراكز توزيع للأقنعة الواقية من الغاز : وكان على كل باريسى أن يحصل على واحد منها ، وأن لا يفارقه ؛ ذلك أنه مازال يحول في خواطر الناس ما كان من تسمم بالغاز بين عامي ١٩١٤ — ١٩١٨ . ثم إن الإذاعة والصحف تقدم النصائح اللازمة لإصلاح الكهوف ، وسد المنافذ ، وستر المداخل بأغطية مبللة : وكل هذه احتياطات لا جدوى منها ، على الأرجح ، ذلك أن الحكومة تعرف كيف تفاوض ، لمنع الحرب . ولكن من الأفضل أن يكون الإنسان جاهزاً .

وهذا الأسبوع ، بالنسبة إلى سلمى ، أسبوع غريب ؛ فهي لا تصل إلى معرفة ما إذا كان هنالك خطر حقيقي ، ذلك أن كل شيء حولها ، يشير إلى اختلاط الخوف بعدم التصديق . وكانت السيارات التي تعود بالمصطافين إلى باريس ، تؤلف خطوطاً طويلة ، ومن جهة أخرى ، وبالمقابل ، فإن كثيرين يتركون العاصمة . وجيء بعمال وظفوا لجمع تحف اللوفر ، وانتزع زجاجيات السانت

شايل Sainte Chapelle (الكنيسة المقدسة). وكذلك فإنهم كانوا يفرغون حدائق الحيوانات من ضيوفها، وبعد عدة أيام، رحلوا ثلاثين ألف طفل. وكانت المحطات تغص بالمسافرين: وهم الطلاب الذين يبعدهم إلى المحافظات، بالإضافة إلى مجموعات خائفة من اللاجئين اليهود الآتين من بولونيا، وألمانيا.

وأخيراً، وفي ٢ ايلول / سبتمبر، أذيع الخبر الذي ما كان أحد ليتوقع حدوثه: فلقد اكتسح هتلر بولونيا! فهل ستدخل فرنسا الحرب. إن كثيرين يحسبون أن من واجبها ذلك. وهكذا يكتب فالديمر أورميسون في الفيجارو، مقالاً جاء فيه قوله: «إن ضميرنا بريء، وكذلك واجبنا أيضاً: فنحن سننتصر».

وكالملايين من الفرنسيين، في هذه الليلة، فإن سلمى لا تنام. وتتقلب ثم تتقلب في فراشها، متسائلة، عما إذا كان عليها أن تسافر. ومنذ أسبوع، كان زينيل يلح: إن عليهما أن يذهبا إلى لوزان بأسرع ما يمكن؛ وإذا كانت لاتهم هي بأمنها وسلامتها، فلتفكر على الأقل بالصغير الذي سيأتيها! ولكن سلمى لا تستطيع أن تقرّر. فهاري سيصل بين يوم وآخر، وهي تريد انتظاره، فإذا ازدادت الأمور سوءاً، سافرا معاً.

وفي اليوم التالي صباح الأحد، كان الفرنسيون يتخاطفون الصحف: فقد أرسلت إنكلترا إنذاراً إلى ألمانيا! فماذا ستفعل فرنسا؟ وحوالي الظهر، علم الناس، كما لو أنهم تحقّقوا من هم، بأن فرنسا انضمت إلى إنكلترا، ودخلت الحرب. وهكذا فبعد هذه الأيام الطويلة من الخوف والشكوك، أصبح الموقف واضحاً.

وجاءت الشمس فمزّقت ضباب الصباح، وخرج الباريسيون، والأقنعة الواقية محمولة في أعناقهم، إلى الشوارع. ومضت سلمى مصحوبة بزينيل، الشاعر بالمصيبة، إلى الشانزيليزيه، على الأقدام: فهي بحاجة إلى أن تتحسّس الجو، وأن تسمع، وتحاول أن تفهم ما عساه أن يجري. أما مصاطب المقاهي فهي غاصة بزبائنها. ومن طاولة إلى أخرى، تدور المناقشات، ملأى بالأهواء. وكلّ إنسان يقدّم رأيه، ويمضي إليه بما يتنبأ به.

ويناقش الناس بصورة خاصة، موقف الولايات المتحدة: فهل تبقى على الحياد، أو تنحاز إلى جانبنا؟ وعندما ترى سلمى الخط الطويل من المنتظرين أمام مراكز التطوع الخاصة، بالأجانب، كانت تفكر بهاري. وفي هذا المابعد الظهر المشمس، كان عليه أن يكون هنا، إلى جانبها؛ فهل سيصل عما قريب؟ كعسكري؟ وتعتبرها رعشة وتقول: «هذا غير ممكن، وفي وسع الآخرين أن

يَمضوا ليقتلوا، أما هارفي فلا». وأصبحت سلمى تتمنى بكل قواها ألا تدخل أمريكا الحرب.

وفي بضعة أيام تغيّر وجه باريس. إذ إنهم أحاطوا الأبواب بأكياس من الرمل، حماية لها، وطلوا باللون الأزرق زجاج المنازل. وفي كل مكان، تجد نساءً بعمرة (كسكيت) مزينة بشرائط، وساعدة، حللن محل الرجال. فهن شرطة سير، وعمال بريد، وجبات في الباصات، ورؤساء محطات، وسائقات شاحنات ثقيلة.

ولكن الإنسان يفاجأ بتغير مدينة النور، في الليل خاصة. إذ منذ الساعة الواحدة والعشرين، يكون الظلام كاملاً، ذلك أن الطريق لاتضاء، خوفاً من الغارات. وحتى السيارات، أمرت ألا تضيء مصابيحها، وعليها أن تمشي على ضوء قناديلها المخففة. أما سلمى التي كانت تذهب أحياناً، مع زينيل للعشاء، فلم تعد تخرج أبداً. وكانت المطاعم تفتح أبوابها حتى الساعة الثالثة والعشرين، وأقفلت أبواب المسارح وقاعات الموسيقى والمتنوعات. وفي كل حي، ظهر في الشارع رجال على يد كل منهم ساعدة صفراء؛ ولما كانوا أكبر عمراً مما يجب للمشاركة في الحرب، فقد كلفوا بالدفاع المدني، وهاهم يذرعون الطرق ليلاً، جيئةً وذهاباً، ويصفرون، تنبيهاً لمن ترك أضواء سيارته دون إطفاء. وحتى في النهار تراههم يحفظون النظام، ويحرصون بالدرجة الأولى، على ردّ الناس إلى منازلهم، متى سمعوا صفارات الإنذار.

ولن تنسى سلمى بسرعة ذلك الإنذار الأول. وكان ذلك في الساعة الواحدة صباحاً. فاستفاق سكان المنزل على غير توقع، وخرجوا من غرفهم وهم يصرخون، ويتزاحمون لكي ينزلوا على درجات السلم الضيقة التي تؤدي إلى الكهوف. وتجمع الناس كلهم في هذه الملاجئ التي جُهِّزَت على عجل، ببعض المقاعد القديمة. وكان الأطفال ييكون. وكانت هناك امرأة، ذات قوة وعزم، فما يظهر، قرّرت أنه ينبغي الدعاء إلى الله في مثل هذه الظروف، وهكذا، فمع أن الناس كانوا يلاحظون ضجة الطائرات القاذفة، فقد كانوا في الوقت نفسه يرددون أدعية من نوع «أبانا الذي...» و «السلام عليك يا مريم» بنوع من التقوى والحماسة، كانوا قد نسوها منذ زمن طويل. وعندما أطلقت الصفارة التي تعلن نهاية الغارة، عاد كل إنسان إلى غرفته، مع الشعور بأنه هرب من الموت.

وقضت سلمى بقية الليل في اللعب بالورق مع زينيل، على نحو ما تعودته منذ بعض الوقت

عندما كان يصيبها الأرق . ولكن حتى لو أيقظته ، فإنه كان دوماً سعيداً بهذه اللحظات التي يقضيها معها . وكان ذلك كهدايا تقدّمها له . وفي هذه الليلة ، كانا قد تناقشا مطوّلاً ، وقبلت سلمى أخيراً أنه من الأفضل أن تسافر إلى سويسرا . وطلبت من زينيل أن يتدبر أمر البطاقات .

ولكن الصحف ، في اليوم التالي ، أعلنت أن الإنذار لم يكن إلا تجربة ، استجاب لها الشعب بصورة مرضية ، وأنه ، والحمد لله ، ما من طائرة ألمانية ، حلّقت في السماء الفرنسية . وعبثاً توسل الخصي وتضرّع ، واحتج ، وأظهر العصب ، ذلك أن سلمى قرّرت البقاء . ولم يكن يفهم معنى عنادها ، أما هي فإنها لم تكن ترى أي واحد من أصدقائها الباريسيين ، بدعوى أنهم كانوا يشعرونها بالملل . بل إنها لم تشر بشيء إلى ماري لور ، التي كان ينبغي أن تكون قد عادت إلى منزلها منذ أسبوعين على الأقل . وفي لحظة ما ، كان يرى أنها تنتظر أحد الناس ، ولعله هو الأمريكي ! ولكنه سرعان ما استبعد هذه الفرضية الغريبة . ذلك أن الرواية التي بدأها هذا الأخير مع سلمى ، مضت وانقضت . ولقد راقب البريد ولم ير فيه أية رسالة من أمريكا ، منذ شهرين على الأقل . وكان يعرف سلمى بدرجة كافية ليرى أنها أعقل من أن تكون عاشقة لرجل غائب ، وفضلاً عن ذلك لا يكتب .

وفي أحد الأيام التالية ، كانت صفارات الإنذار تطلق في كل ساعة من النهار أو من الليل . وعلى حين أن الشوارع كانت تفرغ من جُوابها ، لأن كل واحد كان يعود على عجل إلى بيته ، فإن الناس انتهوا من ذلك إلى التعوّد على هذه الحال ؛ على يأس من رؤساء الماطق ، الذين لم يعودوا قادرين على ضمان احترام أي نظام ، ذلك أن هؤلاء الناس يقولون في دخيلتهم ، إننا لن نمضي إلى حد إفساد الحياة ، على أنفسنا ، في الحين الذي تعلن فيه الصحف والإذاعة أن كل شيء هادئ .

وكانت الحرب إنما تجري على الجبهة الشرقية . فمند ٩ ايلول / سبتمبر / كانت المعركة صاخبة ، من أجل فرسوفيا . وكانت المدينة محاصرة ، تضربها الطائرات ، وتهاجمها الجيوش من كل ناحية ، فانتهت إلى التسليم بعد ثمانية عشر يوماً من المقاومة . وللمرة الخامسة ، قسّمت بولونيا ، ولكن بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي ، هذه المرة .

ولقد بكى الناس قليلاً على هذه البلاد المخبوءة من « ضغط ابن آوى والخنزير عليها » ، على نحو ما أعلنت جريدة الماتان (الصباحية) ، وهنأ الناس بعضهم بعضاً على أن فرنسا ليس لديها ما تخشاه مع وجود ١٥٠ كم من خط ماجينو . أولم يكن جيش الريخ الثالث أقل عدة وعدداً من الجيش الألماني عام ١٩١٤ ؟ وكانوا يعرفون أن الجنود يتلقون طعاماً وتجهيزات ضئيلة جداً .

أما الباريسيون الذين هربوا من العاصمة، لدى إعلان الحرب، فإنهم عادوا إليها. وعادت دور اللهو إلى سابق عهدها، وبدأت درو الحياطة تطلق ما ابتكرته من ثياب شتوية، وعادت الحياة في شهر تشرين الأول / أكتوبر / المشمس إلى ما كانت عليه من قبل. غير أن فنانِي الحياطة بسّطو الفساتين، لكي تروق الأوانس هؤلاء الجنود الشباب العائدين بأذن إلى البلد. إذ يجب أن تكون المرأة أنيقة، على بساطة، وسيكون ذلك «درُجة الحرب» التي تذيب الطقوم ذات اللون الأزرق R.A.F.^(١)، ومانطويات «التعمية» ذات البقع الشبيهة بجلود الثور، والأقمشة المطبوعة «الدبابات» و «الإنذار الكاذب» و «الهجوم» بالإضافة هنا، وهناك، إلى برندوريات (أشرطة عرضانية على الصدر)، وبنود أكتاف، وأشرطة، هنا وهناك. وكما كتبت مجلة «حديقة الموضات»: «عليكن أيتها الأنسات أن تبقين جميلات، كما ترغب عيون أولئك الموجودين في الجبهة أن تراكن». ثم إن الإنفاق واجب وطني. وعليكن أن تقمن بهذه المهمة الأساسية التي تستطعن وحلكن القيام بها: أي «العمل على إبقاء الصناعة الكمالية حية لاثموت!».

ولكن سلمى لن تدعم هذا الجهد الحربي الجميل. ولم يعد معها شيء من المال، تقريباً. وعلى الرغم من البرقيات المرسلة إلى أمير، فإنها لم تتلق منه شيئاً. وتقول لزينيل الذي يعتريه القلق: إن هذا الأمر طبيعي — لأن البريد أصابه الاضطراب — ولكن كل شيء سيعود إلى ما كان، قريباً. والحقيقة أنها تتساءل عما إذا كان زوجها لم يسمع شيئاً عن علاقتها بهارفي.

ولكن مهما يكن من أمر، فإنها لا تريد أن تطلب منه مالاً. وليس في وسعها أن تفعل ذلك مع رجل تخذه، وقرّرت تركه. ولقد كان أمير دوماً سليم النية معها. فهي تدين له على الأقل بهذا الاحترام.

وليكن ما يكون، فستدبر أمرها بنفسها. وستبيع حليها كما فعلت أمها.

وتعود سلمى إلى ذكرياتها في بيروت، وترى نفسها في البهو الأصفر، مع السلطانة وسورين آغا، وترى قطع الحلّي الفخمة التي تختفي تباعاً، الواحدة بعد الأخرى، في الكيس الجلدي لذلك الأرمني الصغير. وكانت قد أقسمت عندئذ أن هذا لن يقع لها، وأنها غوّضُ لن ينقصها المال. وهاهي القصة تتكرّر.

وفي اليوم التالي، صباحاً، تمضي سلمى وزينيل إلى جاده Gadet حيث توجد سوق

(١) Royal Air Force أي بلون سلاح الجو البريطاني.

الحلي — بالرخصة — ودخلا واحدة من هذه الدكاكين القائمة ، حيث يوجد رجال بلباس مصقول ، والمكبر مربوط على عيونهم ، ليفحصوا الحلي بوضع من يشك في سلامتها . آه ، ما أبعد ذلك الزمان ، زمان سورين آغا اللطيف ! ذلك أن هؤلاء التجار المتميزين بالفظاظة يجعلون السيدة الشابة تشعر بأنها سارقة تحاول أن تصرف ثمرات سرقاتها . حتى إن اثنين أو ثلاثة صرحوا بأن أكثر الحجارة مزيفة ، أو من نوعية رديئة . ومن حسن الحظ أن زينيل هناك . فغضب ، وضرب على الطاولة ، وهدد باستدعاء الشرطة . وعدئذ بدأ هؤلاء الرجال القاتمون بالتلاطف ، وقال أحدهم إنه يستطيع شراء الحلي كلها بخمسين ألف فرنك ، لا شيء ، إلا لأنه يريد أن يساعد « السيدة » . وظنت سلمى بادیء الأمر ، أنه يهزأ منها ، وتقول :

— إن هذا لا يساوي حتى الواحد من العشرين من قيمتها !

— هذا هو الثمن فيما أن تقبله ، أو ترفضه ، وعاد إلى القسم الخلفي من دكانه .

وتتردد في الانصراف . ولكنها تفهم أنه لا خيار آخر أمامها . فخلال بضعة أسابيع ، سيولد الجنين . وهي بحاجة ماسة إلى المال . فتقوم بحساب سريع : إن هذا المال الذي يقدمه هذا الشقي ، يستطيع أن يقوم بأددها ثمانية أشهر ، وربما عشرة ، بالكثير من الحرص والانتباه . ومن الآن ، حتى نهاية هذه الأشهر ، يكون هارفي قد عاد . وتشير إشارة تعني أن في وسعه أن يأخذها . ولا تحتفظ من حليها إلا بعقد اللؤلؤ الذي جاءها من السلطانة ، وخاتم الزمرد الذي يحبه هارفي ، لأن له لون عينيه .

وهارفي ! إنه يبقى أمليها الوحيد . ولقد كتبت إليه عدة رسائل ، بقيت كلها بلا جواب ، دون أن يساورها القلق ، وهي تكتب ، بصورة خاصة ، لكي تقضي بعض الوقت معه ، ذلك أنها تفهم أن الاتصالات بين باريس وقرى المكسيك الهندية ، ينبغي أن تكون كالأعجوبة . وبانتظار ما سيأتي ، تتحدث لعصفورها (القرقف) عن حبيبها الذي وضعته على مقربة من نافذة غرفتها . وفي كل مساء تنام وهي تضغط بيدها على الولاة التي تركها لها . إنه سيصل عما قريب . وهي واثقة من ذلك ، لا سيما وأن أمريكا أعلنت حيادها . وليس عليه إلا أن يجد الوقت المناسب ليعثر على مركب ، وهذا قضية معقدة : فقلائل هم الذين يغامرون بالسفر منذ أن أغرق ، يوم ١٩٣٩/٩/٥ ، ذلك المركب الإنكليزي Athénia الذي كان ينقل المدنيين ، بفعل غواصة ألمانية . وكانت سلمى كثيرة الشك ، طيلة حياتها . أما هذه المرة فإنها تأبى هذا الشك : إذ إن مجرد وضع حبه موضع التساؤل ، يعني أنها خائنه ... وهل تخون هارفي ؟

وحتى ذلك الحين ، كانت ترسل زينيل إلى بلازا آتيني ، ليأتيها ببيدها . ولكنها بدأت تشك

أنه توجد فيه رسائل من أمريكا، يخفيها خصيها. ولهذا قررت أن تذهب هي بنفسها، غير عابئة ببسمة الحارس، التي تبدو لها في كل مرة، أكثر سخرية، ولا سيما بعد ذلك اليوم الذي أشار عليها فيه بألا تزعج نفسها، ويكفيه أن يعرف عنوانها، ليكتبه على الرسائل التي تردها، وستصل إليها بالبريد حتماً. فلما فوجئت بهذه الملاحظة، احمرت خجلاً وتمتمت بأنها دائمة التنقل: فعرض شفتيه، وشعرت هي بأنه فهم كل شيء وأن الآلىء والفرو التي آلت على نفسها أن تضعها عندما تأتي لتراه لم تعد تعني شيئاً كثيراً بالنسبة إليه.

وما من تعاضم أكبر من تعاضم الذين يخدمون الأغنياء. ولكن سلمى مستعدة، من أجل هارفي، لتحمل كل شيء، حتى احتقار ذلك الخادم. ومع ذلك، وجباً بالانتقام منه، رأت أن تقدم له «بخشيشاً» عظيماً لا يملك الشجاعة لرفضه: وهو كل المال الذي أعطاه إياه زينيل، لتشتري به «ديارة» لطفلها، أي أقمطته.

ولم يعد لديها مسافة من سنتيم واحد، ولم يبق أمامها إلا أن تعود إلى الفندق ماشية على قدميها. وببطء، تحتاز جسر آما، وتمشي بحذر، حتى لا تهز الجنين الذي تشعر أنه يتحرك في بطنها. ذلك أن الفرصة الأولى التي تلقته في اليوم التالي لعرض ١٤ تموز / يوليو، قد سببت لها خوفاً شديداً، فهرعت إلى الطبيب الذي طمأنها، وهو يضحك. وأوضح لها أن الأمر كذلك لدى كل اللواتي سيصبحن أمهات. ولقد شكرته، ولكنها لم تصدق من كلامه شيئاً. وحقاً فإن هذا الجنين يجب أن يكون أقوى من الآخرين. ويكفي أن تخلد إلى النوم حتى يذكرها بفرصة قوية، كما لو أن الراحة في هذا البطن، تفقده الصبر، وأنه مادام لا يستطيع أن يرى العالم، فليشعر على الأقل، بأن هذا العالم يتحرك حوله. وهكذا فقد عودت سلمى نفسها على إطالة النزاهات في الحقائق والمتاحف، لأنها مقتنعة بأن الهيجان الذي تشعر به أمام هذا الجمال، كان ضرورياً للطفل، كالهواء والغذاء الذي تنقله إليه بضرورة لم يكن لها أدنى رغبة في فهمها.

وفي هذا اليوم، ولدى عودتها من نزل بلازا، كانت تقول لنفسها ان مبادرتها إلى إعطاء الخادم ذلك البخشيش، والتي قد يعتبرها زينيل عملاً غير معقول، كانت أكبر أهمية للطفل من كل أقمطة العالم، لأنه ملتف على نفسه فيها، متعلق بقوة بها، وإذن فلا يمكن إلا أن يتأثر بما يساورها من مشاعر الثورة أو الزهو.

— إنك أيها السيد، أب، لبنت صغيرة حلوة.

وخرجت القابلة، مشرقة الوجه، من الغرفة التي كان زينيل يقطعها ذهاباً وإياباً، منذ الصباح، ذاكراً كل أسماء الله الحسنى، مستعيناً بها. وكانت الشمس قد غابت منذ مدة طويلة، فتتنفس القابلة مرتاحة، بعد أن أرهقت نفسها، تقريباً كالأم التي ظنت عدة مرات أن قلبها على وشك أن يتوقف. فلقد كانت الولادة صعبة بشكل خاص: فهي نحيلة والوليدة ضخمة (ثلاثة كيلويات ونصف الكيلو) «أيها السيد: في وسعك أن تكون فخوراً».

ومشى زينيل على رؤوس أصابع رجليه، ودخل الغرفة التي كانت فيها الولادة تستريح، وهي شاحبة اللون كالهيئة. وبدأ له من خلال دموعه، أنه في استامبول من جديد، وأن هذا الشكل الساكن في السرير، إن هو إلا السلطانة، وأن هذه الحزمة الحمراء التي (تفح) هي طفلها، سلمى الصغيرة...

— وإذن يا زينيل، ألا تهشني؟

وأخرجه هذا الصوت المرهق، الساخر قليلاً، من حلمه.

سلمى! أيّ غبي هو إذ يكرّر الماضي على حين أن ابنته الصغيرة هنا، هذه الابنة التي طالما تعذبت، واشتد عليها الندم، فاندفع نحو السرير وأخذ يديها، وبدأ يقبلهما وهو يتمم بكلمات شكر لم تفهمها.

ولما كانت القابلة حريصة على سرية العلاقات الحميمة، فقد استأذنت بالانصراف. وستعود غداً صباحاً.

— ومن الآن حتى الغد، فكّري بالاسم الذي ستسميها به، ذلك أنه يجب عليّ أن أذهب إلى دار البلدية، لأخبر بولادتها.

وأجابت سلمى ببسمة لا مجال لتحديدها:

— لا تحملى هذا العناء. فزينيل سيقوم عنك به.

وكان قنديل النوم يضيء الغرفة بلون مائل إلى الحمرة. فمنذ مدة طويلة مضى زينيل لينام بعد أن حطمت هيجانات النهار؛ وكانت سلمى وحدها مع الوليدة التي ترقد إلى جانبها.

إنها بنت صغيرة: والقدر هو الذي قرّر ذلك. وربها هو الذي يرشدها إلى الطريق. كل شيء الآن، إذن، بسيط، بديهي. فطفتها ستكون حرة! وحتى لو اضطرت سلمى إلى الاختباء، فإنها لن تعود إلى الهند. وأقسّمت على ذلك، على سرير ابنتها.

أول كانون الأول / ديسمبر / ١٩٣٩ .

« صاحب السمو

» نخرج الآن من كابوس طويل ، ولهذا لم نرسل إليك أخبارنا منذ بعض الوقت . فالرائي كانت مريضة جداً ، وظننا أننا سنفقددها ، على الرغم من أنها ما تزال ضعيفة جداً . ومن المؤسف أنه حدث أمر رهيب ، وعلى الأرجح فإنك حزرتة . وفي يوم ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر /، تمت ولادة الأميرة .

ووقف زينيل ، وفي يده القلم الذي يرتجف : إن هذا مستحيل ، فلا يمكن أن يكتب هذه الكلمات المخيفة . إذ إن هذا سيحمل الشر إلى الطفلة . وسيعاقبهم الله ! وقد اعترت جسمه كله رعشة طويلة ، وهو خائف ، خائف من الجريمة التي يتنبأ لارتكابها . ولكنه إذا تراجع ، فماذا ؟ إنه يعرف سلما . إذ لن تغفر ذلك له أبداً . وستقذر أنه خائنها . وبدلاً من أن تكاشفه بما يحدث لها ، كما صارت تفعل أكثر فأكثر منذ أن صاروا وحيدين في باريس ، فإنها ستعامله كأجنبي . وهذا مما لا يقوى عليه . وعلى كل حال ، فإنها ربما كانت على حق في أن تريد الانفصال عن الراجاه ، إذ هو كان يشقى حياتها . أولم يسجنها أسبوعين ، لأنها قبلت دعوة إلى الرقص ؟ أولم تشرف على الموت لهذا السبب ؟ إن على زينيل أن يحميها ، تماماً كما وعد السلطانة بذلك ، وهي على فراش الموت .

فيضغط على أسنانه ، ويعود فيخط هذه الكلمات :

« في يوم ١٤/١١/١٩٣٩ ، ولدت الأميرة طفلة ، ميتة » .

لقد كتب ذلك . وبنوع من الخجل ، بدأ الخصي ينظر إلى هذه العلامات السوداء ، التي تغيّر ، دفعة واحدة ، مصير كائن إنساني . فعدّ الراجاء ، هذه الطفلة لم تعد موجودة . وبكلمة واحدة ، جعلها تزول .

وعندما كلمته سلمى ، عن مشروعها ، قبل عدة أيام ، قدّر هو أنه مخاوف الولادة قد أفسدت عقلها؛ ثم إنه كان لا بدّ من الإقرار بالواقع؛ إذ لم يكن ذلك محرّداً نزوة عارضة ، على نحو ما كان يحدث لها أحياناً ، ولكنه قرار فكّرت فيه مدة طويلة ، واستقرّ رأيها حوله . كانت تخشى أن يرغمها ، بنوع من المساومة على الطفلة ، على العودة إلى الهند .

وكان قد رفض ذلك بوضوح ، مرعوباً من هذا المشروع الذي كان يرى أنه إجرامي . إذ كيف تستطيع أم أن تعلن أن وليدها مات فور ولادته؟ إن هذا ليبدو له في مثل النذالة التي قد توصف بها ، إذا هي قتلتها فوراً . ولما رأى أنها معاندة ، حاول أن يردها إلى رشدها ، مقدّماً حججاً عملية : فليس لها هي أية ثروة شخصية ، فبمّ سيعيشون هم الثلاثة؟ وأجابت سلمى بأنها ستعيش مما بقي من بيع مجوهراتها . ويمكنها أن تكتفي بها لمدة ستة أشهر على الأقل . ثم سيكون هنالك مورد البترول .

— البترول؟

— إنك تعرف جيداً أن بترول الموصل في العراق ، اشتراه السلطان عبد الحميد ، وهو ثروة خاصة بالأسرة . وقبل أن أترك الهند ، تلقيت رسالة من عمي سليم يعلمني فيه أن الحكومة العراقية ، قبلت بأن تعوضنا عنه . وجاءت هذه الحرب البشعة ، فأخترت كل شيء . ولكنها لن تدوم إلى الأبد . وعما قريب ، سنكون أغنياء يازينيل !

فأخذ يبيدها ضاحكاً ، ولم يطاوعه قلبه بالحديث عن شكوكه إذ أن وسع الحكومة العراقية أن تضم إليها الأراضي التي يوجد فيها النفط دون أن تدفع أي تعويض . ومن ذا الذي سينهض للدفاع عن حقوق أسرة منفيين ، لم تعد على المستوى السياسي ، ثمّثل شيئاً؟

ونتمم :

— حسناً ، فلعلك سترئين . ولكن هذا لن يغيّر موقفى : وأنا لن أكون من المتواطئين في أمر شيطاني بهذا القدر .

وصرخت سلمى ، والدموع تغرورق في عينها .

— إنك لا تفهم شيئاً . وأنا الذي كنت أعتقد أنك تحبني ! أفتريدني أن أصبح سجيناً من جديد ؟ وهل تريد لابنتي ألا تعرف من الدنيا إلا الحجاب ، والجدران المغلقة ، والخضوع لراحاه عجز سيزوجونها له منذ أن تبلغ الثانية عشرة ، بحجة أنه غني ؟ إنني لن أقبل هذا أبداً . وإن شئت التخلي عني ، فليكن ما يكون . سأبقى هنا ، وحدي مع طفلي . وأضافت تقول : ولكن مما يرحسي ويعذبني ، هو أنك أكثر ولاءً للراجاه الذي لا يُمثّل شيئاً بالنسبة إليك ، منك لأُسرتنا ...

وأدارت له ظهرها . وخلال أيام بقيت لا تكلمه ، باكية ، وترفض كل طعام ؛ وكان يعرف هو أنها تفعل ذلك لكي ترغمه على القبول . ولكنه يعرف أيضاً أنها قادرة على أن توقع نفسها في المرحس . فماذا يفعل عندئذ بالطفلة ؟ ولما كانت سلمى تلاحظ تردد زينيل ، فقد عمدت إلى تغيير أسلوبها ، بوصفها له الحياة الحلوة التي سيعيشونها في هذه البلد حيث لا توجد أية مستبقات متخلقة من عهد سابق ، تضيق عليهم أبواب الحياة . وسيؤلفون معاً ما يشبه الأسرة .

غير أنها لم توضح شيئاً . ولكنه كان من السهل أن يفهم ماتعنيه : كانت تعلله بهروب كثيراً ما كان يحلم به ، ولكنه كان يعرف أنه أمر مستحيل . ذلك أن سجنه هو ، كان محفوراً في جسده . أو قل إن هذا ما اعتقده دائماً حتى يجيء إلى أوروبا . ولكنه عندما لاحظ أن الناس يعتبرونه أباً لسلمى أو زوجها أحياناً ، فإن العالم تغير لونه . وفجأة لم يعد حصياً ، بل رجلاً ، يبدو وسيماً ، وكانوا يحيطونه بالاحترام ، على حين أنه في الهند ، حيث يعرف كل الناس وضعه ، كان يحزر الضحك الذي تخفيه عنه بأيديهن ، النساء والشباب . فهناك ، كما في كل مكان ، اندرست عادة الخصيان ، ولم يبق من هؤلاء إلا عدد قليل من السود ، بلا تربية ولا رهافة ، وكل ما هم قادرون عليه هو حراسة أبواب الحرم ، وأصلاً فإن زينيل يحتقر هؤلاء كل الاحتقار . أما في تركيا فقد كان الأمر مختلفاً جداً ! فخصيان القصر كانوا موضع خوف النساء ، لأنهم يمثّلون أذني السيد ، وكثيراً ما كانوا مستشاريه . فقصر آغا ، رئيس الخصيان السود عند السلطان ، كان أحد الشخصيات الكبرى في المملكة . وربما كان أقوى من الوزراء ... ولكن هذا العهد مضى وانقضى ، مع الأسف ! إذ لم يبق شيء من المجد والسلطة ، أو لا شيء غير التشويه الذي يجعل من الخصي موضع احتقار .

وبعد أن فكر زينيل في أمره هذا أياماً وليالي ، عاد إلى سلمى ليقول لها : إنه لا يحتمل أن

يراها تعيش، وأنه سيعمل طبقاً لرغباتها . وهو يجهل أنها كتبت لهاري ، ولكن الأسرة التي عرضتها عليه ، والمؤلفة من ثلاثة أعضاء هي في الحقيقة أربعة أعضاء . ولكنها حذرت من أن تقول هذا له : فأوفعت ، لكان هذا أضمن وسيلة لإبقاء زينيل ثابتاً في موقفه .

ذلك أن فكرة مجنونة عرضت لها ، ودفعتها عنها أول الأمر ، ولكنها بالتدريج فرضت نفسها عليها وانتهت بالاستيلاء على كامل عقلها . وكان ذلك عندما كانت تزهز سرير ابنتها ، وتتأمل في عيها البنيتي اللون ، اللتين كانتا بدأتاً تميلان إلى اللون الذهبي . وكانت مندهشة من ملاحظتها أنهما تشبهان عيني هاري بشكل غريب ، كما لو أن رغبتها بأن تكون مه ، قد انطبعت على سمات الطفلة .

ولكن هب أنها قالت له : إن هذه طفلة ؟ ذلك أن هذه الطفلة بحاجة إلى أب . وأي أب يمكن أن تحصل عليه ، أفضل من هاري ؟ وهو نفسه ، كيف يعرف جلية الأمر ؟ فمع تقلب الأحوال — إذ ظن الناس في بداية تشرين الثاني / نوفمبر ، أن الألمان سيهاجمون فرنسا — لم يعد هاري يستطيع العودة إلى فرنسا قبل عدة أشهر . فإذا وصل ، وجد أمامه بنتاً صغيرة حلوة ، على نحو ما حلم بمثلها له ، ولو أنها أنمى يقليل مما يجب لعمرها ، وهذا كل شيء !

وترتعد سلمى . إن هذا مستحيل ، إذ أنها لا تستطيع أن تكذب هكذا على الرجل الذي تحبه ... ولكن هل هذا كذب ؟ ... أوليست هذه الطفلة أقرب إلى هاري منها إلى أمير ؟ ... أمير الذي يبدو لها بعيداً جداً ، والذي تكاد أن تكون نسيتها ... فهذه الطفلة تفتحت في بطنها على مداعبات هاري : وهذه الحرارة التي كانت تشعر بها ، وتقلها إليها — كالشمس التي تجعل من العشب الصغيرة شجرة — كانت تأتيها من حنانها . فلو أنها بقيت في الهند ، قلقة ، يائسة من هذا الحمل الذي يبقها أسيرة لزوج . لم يكن يحسن حبها — إذن ولدت الطفلة — وهي متأكدة من ذلك — هزيلة ، معجونة بالآلام أمها ، هذا إن لم تثبط عزيمتها على الطريق .

لكن هذه الطفلة صورة للسعادة ، تلك السعادة التي منحها إياها هاري . فإذا قالت له : إنها منه ، أفلا يكون ذلك إثباتاً لحقيقة أعمق من تلك التي تأتي بها المصادفات ، أو الأحداث التي وصلت بها ، من دون أن تشارك هي فيها ؟ وهي لا تعرف كيف تشرح هذا الأمر ، ولكنها تعرف فقط أن التواريخ والمنطق عاجزان عن أن تعلل ما تشعر في أعماق نفسها ، أنه هو الحقيقة . إنها حقيقة متحررة من ماضٍ مرّت به ، كغريبة عنه ، وهي حقيقة متجذرة بقوة في هذا الحاضر الذي تحياه بكامل كيانه .

ولهذا فقد كتبت وهي مطمئنة النفس إلى هاري تقول : إنها تنتظر طفلاً منه .

— أدمماً بلا بريد؟

— لا، يا سيدة، لاشيء لك.

وها نحن الآن في أول شباط / فبراير /، وسلمى لم تتلق أي جواب من هارفي، على كونها قد كتبت له أربع رسائل إلى مسكنه في نيويورك، دون أن تنسى تشويه كتابتها، حتى لا تثير غيرة زوجته. وهي لا تعرف شيئاً عن وضعه الحالي: فهل تم الطلاق؟ وهل يسكن دوماً مع أورشولا؟ لا بدّ لاضطراب البريد من أن يفسّر فقدان بعض الرسائل، ولكنه لا يفسّر فقدانها كلها.

وبدأت تشعر بالقلق. وها قد مضت الآن خمسة أشهر ولم تتلق أي خبر. فهل يكون هارفي مريضاً، بدرجة لا تسمح له بالكتابة؟ أو ربما يكون قد حدث له حادث خطير؟

ومن حسن الحظ أن الطفلة تشغل سلمى بدرجة كافية، وتمنعها من الملل. إنها لطيفة جداً! وهي تضحك متى عرفت صوت أمها، وتبكي أيضاً بعض الشيء— وعمرها الآن تسعة أشهر، وبدأت بعض أسنانها بالظهور.

— يا سيدة!

وكان هذا صوت رب الفندق الذي استوقفها قليلاً في اللحظة التي كانت فيها على وشك الصعود في المصعد.

— سيدتي، هل في وسعك أن تقولي لي، كم ستبقين عندنا؟

— ... ولكنني لأعرف... ربما بقيت شهرين أو ثلاثة، على ما أظن.

— ذلك أني... سأكون بحاجة إلى هذه الغرف. فلدينا زبائن يـ...

وكانت سلمى تنظر إليه بازدراء، مدهوشة.

— إن الفندق ليس ممتلئاً، فيما أعلم. والسواح ليسوا بهذه الكثرة حالياً!

— لا، ولكن... هاك حقيقة الأمر: إن طفلتك توظف الزبائن. وقد رحل عنا كثيرون. وأنا آسف، يا سيدتي، ولكن يجب أن تبحتي عن فندق آخر، أو بانسيون للأسر... وأنا أعرف واحداً منها، كما ينبغي. يقع في جادة سكريب Scribe، على مقربة من الأوبرا.

فشعرت سلمى بأنها مسحوقة . فلقد كانت على ما يرام هنا ، مع هذه الحديقة . وعندما رأى المدير اضطرابها ، وما هو بالرجل السيء ، فقد حاول أن يبرّر موقفه .

— لقد عملنا ما نستطيع . ذلك أننا لا نرضى أن نأبى استضافة سيدة شابة . أما حول الولادة ، فإننا لم نقل شيئاً . ولكننا لم نفكر قط في أن الأمر سينتقل إلى هذه الحال ! فلو أنك أنت ، أو الطفلة ، قد حدث لكما حادث — لا سمح الله — إذن لقدّرتِ كم هي صور التعقيد التي تنشأ لنا عن ذلك .

فانتصبت سلمى .

— وحقاً ، فقد كان يمكن أن نموت ؛ فتأكد ، أيها السيد ، أنني كنت سأسف جداً ، من أجلك ! ولكن لا تخف . سترحل عنك بعد هذا الظهر . ولكن تفضل فاهتف إلى هذا الفندق في شارع سكريب ، لكي نعرف ما إذا كان لديهم مكان لنا .

— ذلك ... أني قد هتفت مسبقاً . ولديهم غرف حرّة .

— حسناً ، هيء لي الحساب .

وخجل الرجل ، وأخذ يعتذر بقدر ما يستطيع .

— ليس الأمر بمستعجل ، وفي وسعك البقاء يوماً أو أكثر إن شئت ...

— أما بالنسبة إليّ فالأمر مستعجل ، حتى بالساعة .

وفندق جادة السكريب ، المسمى على سبيل التّفخيم « فندق الملك Hotel du Roy » فندق من الدرجة الثالثة ، تقصده البورجوازية الصغيرة القادمة من المحافظات لقضاء بضعة أيام في باريس ، كما يقصده أزواج ينتظرون شققهم ، ويستأجرون الغرفة شهرياً . وليس فيه قاعة استقبال ، بل فيه غرفة طعام صغيرة ، يقدمون فيها طعامهم بسعر ثابت . وعندما رأى الحارس هذه السيدة الأنيقة ، ظنّ أنها ضلّت الطريق ، ثم إنه لمح السيد ومعه الصغيرة ، وفهم أن هؤلاء هم الغرباء الذي أعلم بأمرهم .

— من هنا ، أيها السيدة ، إذ لقد حجزنا لك أفضل غرفتين لدينا ، مع غرفة حمام !

وفهمت سلمى من اللهجة التي قال بها كلمة « غرفة » أنه يجب أن يكونوا الوحيدين الذي يتمتعون بهذه النعمة . فتلفت إلى زينيل ، وتقول له بشيء من الخبث :

— إنك مسرور الآن ، كما أرجو . فهذا النوع من الفنادق لن ينقل على موازنتنا !

ولكن زينيل لا يسمعها : فهو في غاية السرور ، ذلك أنه وهو يجتاز الممر ، رأى امرأة من خادومات الغرف ، تكيل له المديح ، بسبب « طفله » .

وكان لهذا الفندق ميزة أخرى : هي الابتعاد عن عون القابلة التي ساعدت على ولادة الطفلة . ذلك أن سلمى لم تكن قد أبلغت الجهة المسؤولة بولادتها ، وليس لها أي نية في أن تفعل ذلك قبل ١٥ شباط / فبراير / ذلك أن هذا الموعد ينتزع من الراجاه كل حق (إن عاد ليجدهما) على الطفلة — فمن المؤكد أن زوجته لا يمكن أن تكون قد حملتها اثني عشر شهراً — وبالمقابل فإنه يجعل أبوة هارفي مقبولة .

وتلاءمت بلا صعوبة ، مع حارتها الجديدة ، التي هي آخر الأمر ، أقرب إلى النفس من الحي السابع ، الأرستقراطي والمتصنع . ثم إن الحياة عادت إلى مجراها الطبيعي تقريباً . فالمسارح ودور السينما لا تفرغ ، والمراقص التي كانوا قد أغلقوها ثلاثة أشهر ، احتراماً للمحاربين ، عادت ففتحت أبوابها ، في كانون الأول / ديسمبر / ، لأن أحداً لا يحارب ! ويمكن أن يظن الإنسان أنه يعيش في زمن السلم ، لولا قلة سيارات التاكسي ، التي صودر نصفها ، ولولا وجود أيام لا حلولى فيها ولا مشروبات روحية ولا لحم . لكن الباريسيين يجدون في ذلك سبيلاً إلى المزاح : فإذا لم يكن هنالك لحم ، فسناً كل اللانغوست . بل إن الحكومة توقفت الآن عن إطلاق صفارات الإنذار ، إلا ظهر يوم الخميس ، على سبيل التجربة ، كما في أيام السلم .

ولا يكاد الإنسان يتذكر أنه في أيام الحرب ، إلا في الليل فقط ، وذلك بسبب المصابيح التي طليت باللون الأزرق . ولكن الناس اعتادوا ذلك ، كما يعتادون على كل شيء . ويكفي أن لا ينسى الإنسان مصباح الجيب . بل إن الخياطين أخذوا يطلقون موضة القبعات ذات الأزهار الفوسفورية التي تضمن للإنسان إضاءة لطيفة ... وكانت الفكرة بداتها مضيئة .

والحقيقة أنه مامن أحد يأخذ مأخذ الجد هذه الحرب التي يسمونها باسم : « الحرب الغريبة » . وتأتي الصحف فتساهم في تعزيز هذا التفاؤل السائد . وفي اليوم الأول من كانون الثاني

/يناير/ عام ١٩٤٠، وعلى سبيل ما يسمى بهدايا رأس السنة قامت جريدة الماتان بتقديم «النصر» كهدية إذ تقول: «إن أعداءنا، مغلوبون، من الوجهة المعنوية. ويمكن القول إننا كسبنا الحرب سياسياً، ولم يبق إلا أن نكسب النصر العسكري: ولن نقصّر في ذلك».

غير أن الناس أصبحوا يشكّون في أن تغامر ألمانيا بمهاجمة فرنسا التي يكشفون كل يوم، في الأخبار المصوّرة، عن عظمة قوتها. ثم إن هناك إنكلترا، ووراءها أمبراطوريتها، المستودع الذي لا تنضب فيه الجنود. حتى إن صاحب الفندق الذي رأى جواز السفر البريطاني العائد لسلمي، اعتبرها إنكليزية، ولم يعد يُقصّر كلما رآها، في التحدث إليها عما سيفعله نشرشل، وجلالته، التي لا بد من أن تكون قريبة لزبونتة هذه، أو على الأقل ذات علاقة حميمة به. وبطبيعة الحال فقد حذرت سلمى من أن تبدّد له هذا الخطأ، وانهزته فرصة، لينحها بعض الامتيازات. كتحسين غرفتها، التي أصبحت شبه معقولة، وتقديم طعام الصباح على السرير. وغار الزبائن الآخرون من هذه الامتيازات بعض الشيء. ولكن صاحب الفندق، سرعان ما ردّ عليهم بلهجة لا تقبل الردّ، بأنه لا يستطيع، على كل حال، أن يأبى على شخص في مثل هذا التميّز، بعض الخدمات الصغيرة.

ومن بين زبائن هذا الفندق، عرفت سلمى امرأة سمراء، تمتهن التمثيل كمهنة، وكذلك فإنها كما تقول: ساحرة بعض الشيء. وقد كسبت شيئاً من الشهرة بحكم موهبتها في هذا الباب. فهي تستقبل بعد الظهر زبائنها في إحدى زوايا غرفة الطعام، حيث أقامت مكتبها، بموافقة من صاحب الفندق الذي وجد في هذا الأمر، وسيلة لاجتذاب الناس إلى تناول الشاي أو الأشرطة المشهية.

وكما يحدث عادة للكثيرين من الذين يملكون مواهب طبيعية، فإن جوزيان هذه تحتقر موهبتها، ولا تطمح إلا إلى أبحاث التمثيل. فهي تعرف كل شيء عن المسرح، وهوس الممثلين، ومكائدهم العاطفية، ولا يمكن أن تفرغ جعبتها من هذا النوع من القصص. وهكذا فإنها استهوت سلمى التي لم تفقد فضولها كمراهقة، لعالم المسرح وحلفياته. وقد اقترحت على سلمى مرّة أن تيسّر لها اللقاء بالفنانين الجدد. فلأول مرة منذ الوضع، تركت ابتها في رعاية زينيل، بالرغم من احتجاجاته، لا سيّما وأنه لا يحب هذه «التأورية». ولكنها تعوّدت ذلك منه. فزينيل لا يحب أبداً أصدقاءها الجدد. وقامت جوزيان بمهمتها، فجعلتها تقضي ليلة كاملة في كباريات غامضة في مونبارناس، والحي اللاتيني، حيث تقوم «أبحاث الغد» بالعرف على القيثارة، أو بحكها على الأقل. ولم تتأثر سلمى كثيراً بهذا الذي رأيته، ولكنها تمتعت بمتعة مناسبة. ذلك أن هذه التسلّيات مما

يُرحَّب به ، لا سيّما وأنها أخذت تشعر بأن « العصبية » بدأت تأخذ بتلايبيها : ذلك أن شهر شباط / فبراير / أوشك على الانتهاء ، ولم تتلق بعد أي خبر من هارفي .

وسلمى تقضي الساعات ، وهي جالسة بقرب ابنتها الصغيرة النائمة ، في تذكّر الأسابيع الأربعة التي قضتها مع صاحبها هارفي . وهي تتذكر كل لحظة — وكل كلمة من كلماته ، وكل بسملة من بسماته — وكل واحدة من مداعباته ، طبعاً — بدقّة تستعربها . وهي واثقة بأن هارفي ، هو أيضاً ، لا ينساها . وتدهش لهذه القساعة لا سيّما وأنها لم تكن قط لتثق بأحد ! واليوم ، وكل الظواهر ، تدل على انقضاء هذا الحب — فإنها إذا جاءتها صديقة تقصّ عليها ، مثل قصّتها هذه ، فإنها ستنظر إليها ، ولأرب ، بعين الإشفاق ، مقتنعة بأن حبيبها ذاك قد تحلّى عنها . أما هي فلا تشك مطلقاً في هارفي ، لأنه هارفي . ذلك أن ما حدث بينهما مختلف : فهما لم يختتر كل منهما الآخر ، بل إنها نوع من « القبلية » التي ساقّت أحدهما إلى الآخر ، من دون أن تترك لأيٍ منهما أيّ سبيل إلى المقاومة . وتشعر باكتمال لا تستطيع أن تفسّره ؛ وتقول لنفسها : إنه عندما يعيش الإنسان بهذا الاكتمال ، حتى ولو دام ذلك عدة لحظات فقط ، فإنه يذوق الخلود ، وعندئذ لن يكون للموت من معنى .

وأثت الطفلة في مهدها . فأنخت سلمى ، مذهولة ، عليها ، وبدأت تداعب شعرها الحريري ، بخنان . ولكن كيف تجرّو على التفكير بالموت عندما تكون ابنتها هنا ، وهي بأمس الحاجة إلى أمّها ؟ لا سيّما وأنها أخذت تشبه هارفي أكثر فأكثر . وقد حان الوقت الآن للتصريح عنها . ولكن كيف تفعل ؟ وكيف تبرّر أمام السلطات تأخرها عن ذلك مدة ثلاثة أشهر . وكانت سلمى لا تفتأ منذ عدة أيام ، تبحث عن حلٍ لهذه المشكلة .

وجاءت جوزيان ، فعرضت عليها خدماتها .

— إني لأريد أن أكون فضولية . ولكنني إذا استطعت أن أساعدك ... فأنا أعرف باريس ، كما أعرف ما في جيبي . فقد وُلدت فيها .

ولم يكن لسلمى أي خيار . فصرّحت لها بمشكلتها ، دون أن تذكر هارفي . وكانت تعزو إلى جهلها بالقانون الفرنسي ، أنها لم تصرّح عن المولود منذ ولادته .

فنظرت جوزيان إليها نظرة من يتفرّسها .

— حسناً ! إنك لم تصرّحي عنها . ولكنّ علينا الآن أن نجد قابلة تشهد بأنها ولدتك .

وهذا صعب ، على الرغم من أنني أعرف واحدة ، ربما ... ولكنها تغامر ، وإذا هي افتضح أمرها ، فإنها لن تستطيع بعد ذلك أن تمارس مهنتها . لا ريب أنها ستطلب الثمن غالباً .

ولما رأت سلمى مترددة ، عادت إلى الكلام .

— الحقيقة ، أن من الأفضل أن تذهبي إلى دار البلدية مع القابلة التي عُينت بأمرك ، وستقولين بأنك لا تعرفين القانون ، أو أنك نسيتِ ، أو شيئاً ما من هذا النوع ، لا على التعيين !

— إن هذا مستحيل .

وتتفرس جوزيان وجه سلمى المحمرّ . وأصبحت تعرف ما كانت تريد أن تعرفه : فهذه الأميرة ، ذات النظرات البريئة عازمة على إعطاء تصريح مزيف . ولهذا فإنها لا تستطيع أن تطلب شيئاً من المرأة التي ولّدتها .

— هيّا ، لا تقلبي سحتك . وسنُسوي الأمر . . . وأنت تعرفين أنني سأفعل كل شيء لإنقاذك من هذه الورطة . فمنذ الغد ، سأذهب لأرى هذه المرأة .

وفي الغد ، عادت جوزيان ، وعليها سمات الانزعاج ، وقالت لسلمى :

— إن هذه المرأة مجنونة . وهي تطلب مبلغاً ضخماً . ولا أظن أن من المجدي أن نبحث فيه .

وسألته سلمى ، وقد تجمّد الدم في عروقها .

— كم طلبت ؟

— لا ، لا . ليس الأمر موضوع بحث . إنه مبلغ كبير جداً ... إنها تطلب مبلغ عشرين ألف فرنك .

— ٢٠.٠٠٠ فرنك ؟ هذا مبلغ ضخم !

— هذا غير معقول ، وتقول إنها تكرّمني ، لأنها تعرفني ، وأظن أن من الأفضل أن لا تصرّحي بالطفلة . وأحيراً ، فما من أحد يطالبك بشيء . وطبعاً ، إذا حدث ذات يوم أن كانت هناك مراقبة — وفي زمن الحرب ، فإن المسؤولين يميلون إلى مراقبة الأجانب — فقد تلقين بعض المتاعب : وقد يظنون أنك سرقت الطفلة ، ويستردونها منك . فلقد سمعت من يقول ...

وقاطعتها سلمى قائلة :

— هذا يكفي . سأدفع . فهل يمكن أن نذهب لنراها غداً بعد الظهر ؟ أي ما يكفي من الزمن لأمرّ بالمصرف ؟

ودهشت جوزيان وقالت :

— نحن ؟ لا أظنك تفكرين بهذا ، لأنها لن تقبل أبداً أن تلتاك . فهي شديدة الحذر ، ولا تقبلني كوسيلة ، إلا لأنها تعرفني منذ مدة طويلة .

وتستسلم سلمى ، رغماً عنها . وهي تفكر أن جوزيان لا تقول لها كل الحقيقة ، وأنها تدور الرقم المطلوب ، لكي تحتفظ لنفسها بجزءٍ منه . وعلى كل حال ، فإنها لا ترى حلاً آخر .

وفي اليوم التالي ، تدفع لجوزيان المبلغ المتفق عليه . ثم تذهب مع زينيل والطفلة في نزهة ، لإراحة أعصابها . وعندما عادت ، علمت بأن المرأة تركت الفندق ، ولم تترك عنواناً .

غير أن الخبر الذي أذيع ، والقائل : إن ألمانيا تعتمد على الغواصات لتعوق تسليح إنكلترا وتموينها ، بواسطة الولايات المتحدة ، كان أسعد خبر تلقته ذلك العام : ذلك أنها أصبحت تفهم بصورة أفضل ، لماذا لا تتلقى الرسائل من هارفي . ومن جديد تشعر بأنها خفيفة ، لا سيما وأن الحرب على وشك الانتهاء : والمشكلة كلها هي مشكلة عدة أشهر ، وماهي بحرب ١٩١٤-١٩١٨ ! وكانت سلمى صغيرة جداً ، ولكنها تتذكر ، كما لو أن الأمر تمّ البارحة ، تتذكر التعاسة التي خيّمَت على استامبول ، والمستشفيات الممتلئة بالجرحى ، والأسر المحزنة لقتل أبنائها . أما هنا فما من أحد يأخذ الأحداث مأخذ الجد . وبالعكس ، فالناس يسخرون من الضعف العسكري الملاحظ ، في الاتحاد السوفييتي الذي ظل ثلاثة أشهر يقاتل ويهاجم ، حتى قضى على فنلندا الصغيرة . ثم إن الناس يتحدثون عن الحرمان الذي يعيش فيه الجنود الألمان الذين يقاتلون ، وهم يلبسون الخرق البالية ، ويطونهم خاوية . ومع ذلك فإن هذا الجيش هاجم الدانمارك التي لم تستطع الوقوف لحظة واحدة . وكذلك كانت النرويج على الرغم من الحملة العسكرية الفرنسية — البريطانية التي أرسلت لدعمها ، فقد استسلمت هي الأخرى .

وكانت سلمى ، الحريصة على تكوين فكرة دقيقة عن الموقف ، تقرأ كل يوم جريدتين أو ثلاثاً ، وتستمتع للإذاعة . ولكنها جميعاً لا تتحدث إلا عن المجاعة التي تجتاح الرّيح ، وعن الاستياء المتزايد ضد النظام النازي ، وعن المرض الخطير الذي أصيب به هتلر ، والذي ربما أرغمه على

الانسحاب من الحكم . أما رجال السياسة ، فإنهم يستمرون في التصريح بأنه لا يوجد أي مبرر للقلق .

وعلى ذلك فإنه ما من أحد يشعر بالقلق . وها قد حَلَّ الربيع . وظهرت الثياب الصافية الألوان ، والقبعات المزينة بالزهر . أما في سباقات أوتوي Auteuil ولونشان Longchamp ، فإن النساء لم يفقدن شيئاً من أناقتهن ، وكذلك فإن الحانة الريفية عادت وفتحت أبوابها ، على نحو ما يغني الناس على ضفاف المارن .

و ذات يوم ، مضت سلمى مع زينيل الذي يحمل الطفلة ، مضت تتشمس على مصطبة الكافيه دولابي Café de la Paix (وهي قهوة مشهورة في باريس تطل على الأوبرا) ، فما شعرت إلا ويدان توضعان على عينيها ، وكلمة « كوكو » ترن في أذنها . وبقفزة واحدة تخلصت مما وضع على عينيها .

— أورهان !

— سلمى !

وتعانق الاثنان عناقاً ضحكاً ، وكل منهما يعجب من هذه المفاجأة ، الممتعة . ذلك أن كلاهما لم ير الآخر منذ كانا في لبنان .

— ولكن ماذا تفعلين هنا ؟ كنت أظنك تلبسين التاج في قصرك الذهبي ، في أعماق أعماق الهند .

— وأنت ؟

— أما أنا ؟ فلقد لحقت بالملك أحمد زوجو إلى المنفى . وبدأت أتعود على ذلك ! لاحظني أنني لم آسف على ألبانيا . لقد كانت هذه بلداً جميلاً ، ولكنها بدائية بعض الشيء بالنسبة لذوقي . وخلال ذلك تزوجت ، ثم طلقت ، وأنا الآن حر . وكذلك طلقت الملك . فلقد استقر في الريف ، وأنا ، والريف كما تعلمين ، لسنا أصحاباً . وعلى ذلك فقد عدت إلى مهنتي القديمة ، ولكن على مستوى أرقى : فأنا مواكب للسيارات بين كل أنحاء أوروبا !

ويضحكان ؛ إذ كم هو جميل أن يلتقي الأهل بعد فراق .

ويلتفت أورهان إلى زينيل الذي يصغي إليهما ، وهو مشروح الصدر تماماً .

— صباح الخير يا آغا. إن وجهك روعة! ولكن — ويشير إلى الرضيع، بهيئة المذهول —
ولكن ماهذا؟

— هذا، هذا لي ... هكذا أجابت سلمى بنعومة.

— وأين هو البابا؟

— سأشرح لك. فالمسألة طويلة قليلاً.

— أنت دوماً محاطة بالأسرار. وبهذا أعرف ابنة عمي الصغيرة. وينظر إلى الساعة.

— اعذرني، فقد تأخرت، ولي موعد مع امرأة أنا ... عاشق لها، بجنون.

وتسخر سلمى وتقول:

— كالعادة دوماً، إني أعرف ابن عمي من هذا!

— أعطني رقم هاتفك. سأتصل بك بعد عدة أيام. والآن وقد وجدتتك، فلن أتركك.

وأمرّ يده في خصل شعرها، كما كانا يفعلان عندما كانا مراهقين، ويهمس بين المازح والجاد.

— الحقيقة أنك أنت المرأة التي كان يجب أن أتزوجها.

ثم قبّلها على طرف الأنف، وانطلق مسرعاً، وهو يهزّ قبعته.

وبعد يومين، وفي ١٠ أيار / مايو، علم الفرنسيون باستغراب كبير أن الجيوش الألمانية هاجمت هولندا، واللوكسمبورغ ... وبلجيكا! وخلافاً لكل التنبؤات، فإنها دارت حول خط ماجينو، وخلافاً لكل قاعدة، دخلت بلداً كان قد أعلن وقوفه على الحياد. وأكثر من ذلك، فإنهم انتهزوا عيد العنصرة، ليهاجموا، يالهم من جناء! ولكنّ كلاً يطمئن الآخر: فالجيش الفرنسي، المدعوم بعدة كتائب إنكليزية، سارعت إلى دعم الجيران البلجيكي. وسيحملون هؤلاء البوش^(١)، على الهزيمة.

(١) البوش Boche، كلمة تستعمل لتعني الألمان، عند الهجاء والسخرية والغضب.

وفي الأيام التالية، ظلت أخبار الجبهة غامضة، ولكن عندما استسلم الهولنديون في ١٣ أيار / مايو /، بدأ القلق يتسرب إلى قلوب الباريسيين، لا سيما وأن أوائل اللاجئين كانوا يجتازون العاصمة، على مرأى من العيون المذهولة لهؤلاء، في عربات محملة بكل ما استطاعوا حمله. واستدعت الحكومة من بيروت الجنرال ويغان لكي يتسلم قيادة الجيوش، وسمت المارشال بيتان، نائباً لرئيس الوزراء. وهكذا فإن الشعب استقبل بطل فردان، بارتياح، وعرفان للجميل: فالبلد أصبحت منذ الآن بين أيدي أمينة. ولكن هذا لا يحول — تأميناً للتوازن — دون إقامة صلوات في الكنائس: بل إن الناس يمشون في الشوارع، وراء بقايا جسد القديس لويس، وجسد القديسة جنيفيف، التي حمت في القرن الخامس، لوتيس Lutèce^(٢) من هجمات قبائل آتिला.

وفي ٥/٢٦، وضعت جريدة الماتان في صدر صفحتها الأولى، عنواناً كبيراً جاء فيه: «إن جيوش الحلفاء أوقعت خسائر مادية جسيمة في العدو. والمشاة الفرنسيون لم يفقدوا أي شيء من مزاياهم». وهكذا فإنه عندما جاء الغد وعلم الناس باستسلام بلجيكا، انفجر فيهم الغضب: ذلك أن الملك الحائن استسلم حتى بدون أن ينبىء بذلك القيادة الفرنسية والإنكليزية! وأصبح الموقف خطيراً، وتراجعت قوات الحلفاء لحماية الطرق التي تؤدي إلى العاصمة، أمام جيش ألماني، أصبح الباريسيون الآن يشكّون في أنه بلغ من الإنهاك ما قالوه عنه.

أما في أوتيل لوروا، فقد كان بعض الأزواج يتحدثون عن تقصير مدة إقامتهم، والعودة إلى الريف. ولكن صاحب الفندق يثني عزمهم بضحكة طيبة ويقول:

— هيا، هيا. إنه ليس لديكم ما تخافونه، فهؤلاء البلجيكيون، لا دم في عروقهم. أما الجيش الفرنسي، فإنه شيء آخر!

وتعبت سلمى من تبجج هذا الرجل، وصعدت إلى غرفتها، وتبعها زينيل، مع البنت الصغيرة. ولقد تناقشوا خلال السهرة كلها. فما زال الوقت متسعاً للسفر إلى لوزان، ولكن هل هذا فعل حميد؟ فلقد خرق النازيون اتفاق الحياد الذي عقده مع بلجيكا. فمن يعرف ما إذا كانوا سيخرقونه غداً إذا قرروا مهاجمة سويسرا؟ إذ ليس لهذه مثل القوة التي لفرنسا للدفاع عن نفسها. وتتردد سلمى، وليس عندها أي عنصر من العناصر الضرورية للحكم على قيمة الخطر: فالأخبار

(٢) لوتيس: هو الاسم القديم الذي كان يطلق على باريس.

الوحيدة هي التي تقدمها الصحف. وهي تعرف الآن انها أخبار كاذبة، وتستنكر ذلك كل الاستنكار. مع ذلك فإن عليها أن تقرّر وبسرعة.

وأخذت تنظر، وهي مشغولة البال، إلى الرجل العجوز، والبنت الصغيرة، التي تتعلق بركبتيه، وتضحك ضحكات كبيرة. وهما يمنحونها ثقتها. وربما تعلّق مصيرهم كله على القرار الذي ستتخذه. آه، لو أن هارفي كان هنا! أو حتى أورهان... وهي لا تعرف كيف تتصل به. ذلك أنه لم يتصل بها، وهذا شيء لا تستغربه أبداً. ولا بدّ أنه الآن يتمتع بلذات الحب، وفي هذه الحال يمكن أن تهديم الدنيا حوله، ولا يشعر بشيء من ذلك.

وأخذت سلمى رأسها بين يديها: فمن تطلب النصيحة؟ أمن ماري لور؟ إن هذا مستحيل. فمئذ عشرة أشهر، اختفت سلمى ولم تترك لها عنواناً. ولا بدّ أن هذه السيدة الشابة تلومها أشد اللوم، وتشعرها بذلك. ثم إنها ستطرح أسئلة كثيرة حول الطفلة... كلا، كلا، لن تذهب إلى بيت ماري لور.

وفجأة تذكرت الأنسة روز. إذ لقد كتبت لها إلى لبنان عدة مرات، ثم إلى الهند. ولكن ما من طفل من أطفالها الذين عنيت بهم، عوّضها عن سلمى، أو احتل مكانها، في قلبها، وكانت ترجو الله أن تأتي لترأها. أيتها العزيزة الأنسة روز! كيف لم تفكر بها قبل الآن؟ فالمسكينة لا تكون على علم بأي شيء— إذ إنها لم تملك قط حسن الإحساس بالواقع— غير أن الأسر التي تعمل عندها، ربما تعرف ما ينبغي أن يفعل.

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت سلمى إلى جادة آبيس Abbessé، أي إلى العنوان الذي كانت الأنسة روز قد كتبتة في رسالتها إليها. وستكون سعيدة إذا هي رأتها من جديد. إن ذلك يذكّرها باستامبول وبطفولتها... وتبتسم عندما تتذكّر قبعات المربية، التي كانت تحمل الكالافات على الارتعاش، كما تتذكر أغلاطها التي أصبحت مضرب المثل. ولكنها كانت طيبة. وكان الناس جميعاً يحبونها. وسلمى خجلة من أنها لم تقم بزيارتها، منذ ما يرب من عام قضته كله في باريس. ولقد شغلها الحياة الباريسية أيما شغل، ثم شغلت بهارفي، وأخيراً بالطفلة، حتى لقد نسيتها تماماً. وهكذا فقد ذهبت إلى محل الماركيز دو سيفيني، لتشتري أكبر علبة شوكولا موجودة، تكفيراً وتعبيراً عن ندمها— ذلك أن الأنسة روز عرفت دائماً بالهم.

ووقفت سلمى أمام الرقم ١٢ من جادة آبيس هذه، مترددة. فهل من الممكن أن تسكن الأنسة روز هنا؟ ذلك أن البناية متشققة الجدران، وتبدو على وشك السقوط، كما أن طلاء الواجهة

يتقشّر قطعاً رمادية اللون . وحَبَسَتْ سلمى أنفاسها ، واجتازت المدخل الذي استقرت فيه أواني الأقدار المملوءة إلى أعلاها ، وظلت رائحتها تلاحقها حتى إلى قفص السلم . وبدأت تصعد درجاته الملوثة بالشحم ببطء : ترى كيف استطاعت الآنسة روز التي كانت جد حريصة على النظافة ، أن تقع على هذا الكوخ القذر ؟ لا بدّ أن المال كان ينقصها . فلم لم تتحدث قط عن ذلك في رسائلها ؟

وفي الطابق الثاني ، قرعت سلمى باباً من الأبواب الأربعة التي تطل على المسطحة . ولكن المرأة التي فتحت لها الباب ليست الآنسة روز ، ولكنها تعرفها ، أو على الأصح ، كانت تعرفها جيداً .

وسألت سلمى :

— حسناً ، وإذن فقد غيّرت مسكنها .

— إذا أمكن القول ... فالمسكينة قد ماتت ، منذ ثلاثة أشهر .

وشعرت سلمى بأنها على وشك بأن يصيبها الإغماء ، وتقول :

— أماتت ؟ ... ولكن مِمّ ماتت ؟

— أو ! من الكل ، من السل ، ومن البؤس ... وعندما عرف مشغلوها أنها مريضة ، صرفوها من الخدمة ... بسبب الأطفال ، طبعاً ! وعندئذ فقد جاءت لتستقر هنا ، منذ سنة فقط . لم يكن لديها من عمل ، ولا مال ، لكي تداوي نفسها ، ولكن كان لديها بعض ما اقتصدته مما يسمح لها بأن تستمر في الحياة . وكانت مهذّبة جداً ، ومحَبّبة جداً . وكنا ندعوها أحياناً للغداء ، يوم الأحد ، ذلك أنها كانت تعيش في وحدة قاتلة . ولكنك تعرفين ، أن لكل إنسان شؤونه وشجونته الخاصة ، ولا يمكنه أن يفعل الكثير .

وخلال الكلام ، كانت هذه المرأة ، تنفرس وجه سلمى بفضل ، وفجأة ، ضربت جبينها ، بأصابع يدها .

— ولكنني أتعرفك ! فلقد كان لديها صورة كبيرة لك في غرفتها . وإذن ، فأنت الأميرة ؟ والله يعرف كم كانت تتحدّث عنك . تلك المسكينة ، ويمكن القول : إنها كانت تحبك .

واغرورقت عيناها بالدموع . فوضعت علبة الشوكولا في يد المرأة ، وهربت . وهبطت الشارع

كله ، وهي تشبه من البكاء . ليتها جاءت مبكرة أكثر ، فلربما استطاعت إنقاذها . ولربما أخذتها وعرضتها على أفضل الاختصاصيين ، وساعدتها على العناية بنفسها ... ولربما لم تمت أيضاً . وحتى لو كان حالها ميؤوساً منها ، فإنه كان في وسعها ، هي سلمى ، أن تدخل بعض الدفء الإنساني إلى قلبها ، وشيئاً من السعادة إلى نفسها .

ولا تعرف سلمى كيف عادت إلى فندق لوروا . أما زينيل فقد قضى كل ما بعد الظهر ، وهو يمسح دموعها ، ويقول لها : إنها غير مسؤولة ، وإن كل إنسان منا ينسى بعض الأشياء ، ويفكر بنفسه بالدرجة الأولى ... وأخيراً ، وعندما رأى أنها مستمرة في اتهام نفسها ، جاءها بالطفلة ، ووضعها بين يديها . فلما رأت هذه أن أمها تبكي ، بدأت هي تصرخ أيضاً . فأرغم نفسه على الكلام بصورة خشنة ، وقال لها :

— أنت الآن مسؤولة عن هذه . فماذا علينا أن نفعل ؟ وماذا قررت ؟

وتنهّدت ، ثم قالت :

— يا زينيل ، إنني مرهقة . لنتنظر أيضاً بضعة أيام . وعلى كل حال فإنه ما من أحد يسافر !

ولكن عندما هجم السلاح الجوي الألماني على باريس يوم ١٣ حزيران / يونيو / ، وقذفها ببعض القنابل ، واضطرت هي ، مع سكان الفندق ، إلى أن تقضي الليلة في الكهف ، عندئذ أسفت على ترددها .

وفي اليوم التالي ، حزم الزبائن الآتون من المحافظات ، حقائبهم ، وتركوا فندق لوروا . وبدأ الناس يشهدون مرور سيارات عظيمة آتية من الأحياء الحلوة ، تكاد تنهار مما خشيت به من الحقائق ، وغير ذاهبة ، بالتأكيد إلى عطلة الأسبوع ، في فونتنبلو . ولكن الحكومة التي خشيت أن تفرغ باريس من سكانها ، وأن تصبح فريسة سهلة للعدو ، عادت تكثر من التصريحات المهدئة ، وتعظم من شأن شجاعة « شعب باريس الذي لا يعرف الخوف » . لـ إن راديو — سيتي يصف المقاومة البطولية لقوات الحلفاء ، التي باتت في الشمال ، على وشك أن تحمل العدو على التراجع : ولم يعد النصر إلا مسألة عدة أيام .

وتكلّم سيّد الفندق ، فقال :

— لقد قلت ذلك لكم . وعندما أفكر بالرعاديد الذين هربوا ، لأنهم لم يكونوا واثقين

بجيشنا ...

وأمسك هنا عن الكلام . ولكن الناس جميعاً فهموه ، وأدركوا أنه لا يعتبر هؤلاء الناس جنباء فقط ، بل خونة أيضاً .

أما في الغد ، فإنه سيفقد بعض الشيء من تعاليه . ذلك أن الصحف أعلمت الناس ، بعناوين سوداء كبيرة ، « بأن جبهة السوم قد انهارت » .

وسألت سلمى — التي لا تعرف شيئاً — عما هو السوم ، ولكنها قلقت مما رأيته على وجوه الناس من كآبة :

— هل هذا أمر خطير ؟

وضحك رجل عجوز من سؤاها هذا ضحكة صفراء ، وبدأ يتفرّس في وجهها ، وعليه سيماء العداء ، وقال :

— أخطير فقط ؟ ياسيدي الصغيرة . إن هذا يعني أن طريق باريس أصبحت منذ الآن مفتوحة أمام العدو .

فاصفر وجه سلمى ، وقالت :

— أيصل الألمان إلى باريس ؟ ولكنهم كانوا يقولون : إن الجيش ...

— كانوا يقولون . فالسياسيون يقولون ما يناسبهم . وأنا حيث ينبغي لكي أعرف ذلك . فلقد حاربت عام ١٩١٤ ، ياسيدي . فإذا نحن سمعناهم وأصغينا إليهم ، حسبنا أن القضية هي قضية نزهة !

أما في الأيام التالية ، فإن الصحف والإذاعات ، بذلت جهدها كله . لتطمين الباريسيين : « فنجيوشنا تحاصر العدو ، ويقوم عشرات الألوف من الرجال ، بإنشاء تحصينات لا يستطيع العدو خرقها ، حول العاصمة . وليس لباريس ما تخشاه ، وسندافع عنها مهما كان الثمن » . وفي ٨ حزيران / يونيو / صرّح الجنرال ويغان : « إن العدو خسر خسائر جسيمة . ونحن في ربع الساعة الأخيرة فقاوموا جيداً ! » ولكن الناس بدؤوا يلاحظون وصول الجماعات الأولى من الجنود المهزومين . كانوا منهوكين ، والمرارة تملأ نفوسهم ، ويصرّحون بصوت عال : أنه غرّر بهم ، وأن عدم التكافؤ في القوى هائل ، وأن كل أمل قد ضاع .

أما شركة الخطوط الحديدية ، فقد ضاعفت عدد القطارات لأولئك الذين يريدون السفر .

ولكن الأكتية ما تزال تتردد: فالسفر، يعني أن ندع كل شيء للمسافرين الذين يتكاثرون في ظروف الاضطراب. ومع ذلك، فإلى أين يسافر الإنسان؟ إنهم قلائل أولئك الباريسيون الذين يملكون مساكن ثانوية، أو أصدقاء في الريف يحسنون استقبالهم. والفنادق تكلف الإنسان كلفة غالية. وسلمي تريد الآن ترك العاصمة. لكن زينيل مُسَمَّر في سريره منذ يومين بنوبة رئية عنيفة. وهو يتوسل إليها أن تسافر، مؤكداً لها أنه سيلحق بها، بأسرع ما يمكن.

وربما كان الحل يكمن في العثور على سيارة. وهنا لا يمكن أن تجد العون إلا لدى ماري لور. فتجاوزت سلمى شعورها الشخصي بكرامتها، ومضت إلى شارع هنري مارتان *Henri Martin*، لتخبرها حارسة البناية «أن السيدة الكونتيسة سافرت منذ أسبوع». وعندما عادت إلى الفندق، ادّعت، لكي تطمئن زينيل، أن ماري لور هزئت بها، وأقسمت لها بأنه ليس هناك أي خطر: فالألمان لن يصلوا إلى باريس.

وفي هذه المرة فكّرت بصورة جدّية، قبل أن تتخذ قرارها. فمِنذ أشهر، وهما يعيشان معاً، ويوماً بعد يوم، استطاعت أن تقدّر قيمة إخلاص الخصي لها. فليس موضوع بحث أن تتخلى عنه. وعلى كل حال، فإنه إذا كان يستمر معها في هذه المغامرة، بدلاً من أن يعيش حياة هادئة في الهند أو في لبنان، فذلك خدمة منه لها! ولكنها هي، في بقائها في باريس، تعرّض ابنتها للخطر... وماذا كان يمكن أن تفعل أمها لو كانت مكانها؟ إنه لا مجال مطلقاً للظن بأنها كانت ستتخلى عن زينيل. وإذن فهي أيضاً، لن تتخلى. فإذا قام خطر، فسيجابهانه معاً.

وفي ١٠ حزيران، وفي الساعات الأولى من الصباح استيقظت سلمى على جلبة غامضة تصدر عن الشارع. فاندفعت إلى الشرفة لترى على الرصيف جماعات في أقصى درجات التهيج والاضطراب، وأناساً يعدون بسرعة وهم يصرخون. غير أنها لا تميّز بوضوح ما كانوا يقولونه. وبحركة سريعة، لبست ثوبها، ووضعت ابنتها الصغيرة في غرفة الخصي، وانطلقت باتجاه السلم. وهناك التقت بجيرانها وهم يجرون حقيبة تكاد تتمزق، من فرط ما حشيت به من متاع.

وصرخ هؤلاء بها:

— إن الحكومة هربت في الليل. فأسرعي، إن البوش واصلون عما قريب.

أما في الشارع، فإن الناس يتنادون:

— من أي محطة تذهبون ؟ من أوسترليتز ؟ إذن أسرعوا . فالقطارات ستكون مملأى .

— أما أنا فمأساfer على الدراجة ، إذ يقال إن الطائرات ستهاجم خطوط السكك الحديدية .

ويصرخ رجل منادياً امرأته المتجمدة على مدخل بابها .

— وإذن فستهيئين حقائبك ! وأندرك بأننا سنسافر خلال نصف ساعة !

وبدأت السيارات والشاحنات المحشوة بالحزم ، والفُرش ، الملفوفة بالخيطان ، والموضوعة على السقف ، تمضي على مرأى من عيني سلمى المنذهلة . واتجهت نحو الطريق الملكية ، لكي تجتاز السين ، والوصول من هنالك ، إلى بابي أورليان وإيطاليا . وكلما انقضت الساعات ، كان السير يتضاعف كثافة ؛ أما بعد الظهر ، فإن السير ازدحم ، حتى لا يكاد يتحرك . لا سيما وأن الباريسيين استخدموا في سفرهم هذا كل ما عثروا عليه من السيارات ، وكانت القديمة منها لا تمشي عدة مئات من الأمتار ، إلا وتتوقف عن الحركة . أما العربات ذات السواعد ، المحملة ببعض الحاجات التي أبقى أصحابها أن يتخلوها عنها ، فإنها ترهق الرجال والنساء بجرحها . وكانت مديرية الشرطة لا تنقطع طوال النهار عن تقديم النصائح ، مثل قولها : « لا تذهبوا باتجاه المحطات ، إذ لا يمكن الاقتراب منها ، ولا تمشوا باتجاه شارع سان ميشيل ، ولا باتجاه سان جيرمان . وشارع هنري الرابع مسدود تماماً » . ولما كان الناس في حالة الهيجان الجنوبي ، فإنهم لم يعودوا يسمعون شيئاً . وما في أذهانهم إلا فكرة واحدة هي : الهروب .

وكانت سلمى ترى من نافذة غرفتها الجمهور الذي امتلأ رعباً . وقد تعودت أن تحتفظ في الأوقات العصيبة ببرودة دمها ، كما لو أن الانسياق إلى الخوف ، يصبح شيئاً كالياً ، إذا كان الموقف مأساوياً فعلاً . وماذا عساها أن تفعل في مثل هذا المدّ البشري ، وسط هؤلاء الناس المذهولين ، مع ابنتها التي لم تتجاوز الشهر السابع من عمرها ، ومع زينيل الذي لا يملك أن يجرّ نفسه إلا بعناء ؟

أما اليومان التاليان فسيكونان كابوساً حقيقياً . فقد أعلن الجنرال ويغان أن باريس « مدينة مفتوحة » وأدى ذلك إلى أن يملك الرعب حتى أولئك الذين كانوا لا يزالون يترددون في الهروب . وتعني كلمة « المدينة المفتوحة » أنها لن يُدافع عنها ، وأنها متروكة لرحمة المنتصرين — والبوش أناس نعرفهم جيداً ، وسيقضون على كل أولئك الذين كانوا من الجنون ، بحيث أصروا على البقاء .

ولكن سلمى والأشخاص الستة المعمّرين الذين — سواء استسلموا للقدر أم خافوا من الموت مما سيلاقونه من الإرهاق على الطرق — فضلوا البقاء في الفندق ، وقرروا أن ما أعلن هو

أقرب إلى أن يكون خبراً جيداً. فإذا كانت باريس بلدة لا يدافع عنها، فهذا يعني أنها بلدة استسلمت. فليَمَ يقوم الألمان بتهديم مدينة رائعة تقدّم لهم على صينية من الفضة؟

ولقد اجتمعوا في قاعة الطعام الصغيرة، كلهم معاً، لكي يتشجعوا فيما بينهم — وقام صاحب الفندق — مرة واحدة، والمرة الواحدة ليست عادة — بفتح زجاجة من الأرمانيك. وكانوا ممتنين منه، لأنه لم يغلق الفندق، ولكنه تعب كل حياته لكي يحصل عليه: ولم يحصل عليه ليسلمه للنهابين! وصرّح قائلاً، وصدّره منتفخ:

— سأدافع عما أملك، حتى ضدّ البوش. وأصلاً فإنني لا أعرف لماذا يهاجمون مجموعة تجار مسالمين.

وأصبحت باريس الآن مدينة هادئة بشكل غريب، تخلى عنها ثلاثة أرباع سكانها. وقضت سلمى بعد ظهر ذلك اليوم في البحث عن حليب، لابنتها الصغيرة، ولكنها وجدت الدكاكين كلها مغلقة. ومع ذلك فقد عثرت على سمان باعها، بسعر عال جداً، حلويات جافة وعلبتي حليب مركّز. ثم عادت إلى الفندق من الطرق الخالية، مندهشة من الضجة الغريبة التي يحدثها مشيها على أرض الطريق: وقد لاحظت أن النوافذ كلها مغلقة، وشعر الناس أن المدينة انقطعت عن التنفس. وهم ينتظرون قدوم الألمان غداً.

وسهرت سلمى طوال الليل، في غرفتها المضاءة بشمعة واحدة، وهي تنظر إلى طفلتها النائمة.

وكأنما جاء هدير أصم، فجعلها ترتعش. لا بدّ إذن أنها نامت، وانطفأت الشمعة، وهما هي الشمس تتسلّل من عوارض النافذة. ويقفزة واحدة، كانت على النافذة، لتلاحظ من خلال المغالق أو الستائر المعدنية ما في الشارع... فإذا هم أمامها فيه.

ومرّت أمامها موكبة من الدبابات التي كانت تلمع في ضوء الصباح، كما لو أنها خفافس كبيرة. وكانت قد أحاطت بساحة الأوبرا، كما أنها كانت مسبوقة بجنود يركبون الدراجات النارية، ومتبوعة برجال مسلحين بالرشاشات، وبدؤوا جميعاً يمشون بثقل على طريق ساحة الكونكورد.

وقضت سلمى كل الصباح في النظر إليهم، مأخوذة بهذا الهدوء، وبهذه القوة. وقليلًا قليلًا تعود إليها صورة فتاة صغيرة حمراء متعلقة بتنورة أمها، تنظر من خلال منافذ قصر أورطاكوي، إلى

المراكب الكبيرة المسلحة بمدافع كثيرة، وهي تنزلق على مياه البوسفور الهادئة. فتضم طفلتها إلى صدرها ضمة قوية، وتنزل فتضم إلى رفاقها في الفندق، في غرفة الطعام.

وكانوا هؤلاء ملتصقين بالنوافذ، ويراقبون بصمت حركات العدو الذي يدخل إلى المدينة. ورأوا حول الظهر مجموعة من ضباط الطيران الحربي، في لباسهم الحربي الرمادي، وهم على أروع ما يمكن أن يكون الضباط، مظهراً، وكانوا يدخلون الفندق الكبير، الموجود على الطرف الآخر من ساحة الأوبرا.

ودمدم صاحب الفندق قائلاً:

— حسناً، فنحن مدللون. وإذا شاء الإنكليز أن يفعلوا شيئاً، فسنكون هنا في أحسن المواقع.

وما من أحد أجاب هذا المدير على ما قاله: فهم مرهقون، وينظرون إلى العلم الأحمر ذي الصليب المعقوف الأسود، الذي يرفع بهدوء في السماء. وحدثت ضجة غريبة جعلت سلمى تلتفت. فإذا بالمحارب القديم في الحرب العالمية الأولى، يكي وراءها.

وفي يوم ١٤ حزيران / يونيو /، كانت هالك سيارات مجهزة بمكبرات، تحوب الشوارع، وتأمر الباريسيين بالبقاء في بيوتهم. «إذ مامن مظاهرة يسمح بها. وكل عدوان على جنود ألمان سيعاقب بالموت». ولكن ما جاء الغد، ورأى الألمان أن الشعب الذي سحقته هذه الهزيمة، لا يفكر مطلقاً بالمقاومة، إلا ورفع هذا الخطر. وكان لا بدّ لاستقرار جيش الاحتلال، من أن تعود الحياة إلى مجراها الطبيعي، وأن تقوم الإدارات المختلفة بنشاطها العادي. وقد طلب إلى الخزائن والتجار وأصحاب المطاعم، أن يزاولوا أعمالهم كالمعتاد. «فعلى كل إنسان أن يعود إلى مركز عمله، ويقوم بواجبه» على ما أذاعه محافظ السين. وهكذا فكل شيء سيبدأ بالعمل، بالقدر المستطاع، كالمترو، وبعض مكاتب البريد، والمصارف، وحتى المحاكم.

ونامت سلمى في هذه الليالي الأخيرة، نوماً قليلاً؛ وهكذا ففي اليوم السابع عشر من حزيران / يونيو /، عندما ظهر زينيل في غرفتها لكي يكلّمها في أمرها، رآها تدسّ أنفها من جديد في وسادتها. لكنه يلح. ثم اتخذ ملامح المتواطىء، وأخبرها أن مكاتب البلديات قد فتحت، وأن الوضع سيكون على أسوأ حال من الفوضى، فتجلس سلمى، متكئة على مرفقها، وتنظر إليه مذهولة: أفيقلقها ليحدثها هذا الحديث! ولكن الخصي لا يتراجع، ويشرح لها أن هذا هو الوقت المناسب للإعلان عن ولادة الطفلة.

— ذلك أن نصف المستخدمين غائبون. والآخرون إنما يصرفون الأعمال كيفما اتفق

ليتابعوا النقاش فيما بينهم حول الأحداث الجارية. ولقد مررت هذا الصباح ببلدية الحي الحادي عشر: ويجب أن تنتهز الفرصة، سأقول إن الطفلة ولدت صباح ١٤ — ١٥ حزيران / يونيو، وإن القابلة جُنّ جنونها، واختفت، ونسيت أن تنظم شهادتها. وأنت تفهمين جيداً أنهم في هذه اللحظة لا يرغبون في التحقق، ولا يملكون الوسائل لذلك. فأسرعي وأعطني أوراقك، وسأعيد لك شهادة الميلاد هذه.

وسارت الأمور على النحو الذي تخيّلته زينيل تماماً. فأمام هذا الرجل العجوز الشديد التهذيب والذي ينظر إلى موظفة البلدية الموجودة أمامه، كما لو أنها الإلهة العليّة القوة، شعرت هذه بشيء من الشفقة عليه، وفوق ذلك فإنه لا يتكلم الفرنسية إلا بصورة ضعيفة جداً، حتى إنها لا تفهم شيئاً مما يقول — وطبعاً لا تريد أن تضيع معه صباحها كله — وليكن ما يكون، ستستغني عن الشهادة، فهذا اليوم ليس كالأيام الأخرى!

— حسناً. لننظر إذن في أوراق هوية الأم، لأنك لا تملك غيرها. الاسم: سلمى. زوجة: أمير، راجاه بادالبور.

وسجّلت بكتابة حلوة اسم أمير، وظنت أن الاسم الشخصي هو اسم الأسرة. فيحبس زينيل أنفاسه.

— حسناً! والآن: راجاه بادالبور، فما هذا؟ هل هذا هو مهنة الأب. وماذا تعني كلمة الراجاه؟

ويتردد زينيل. فإن قال تعني: الملك، فمن المؤكد أنها ستظن أنه عجوز مجنون.

وعيل صبرها، فقالت:

— لا بدّ أن له مهنة. فهل هو تاجر؟

ويوافق الخصّي، خافضاً رأسه، على حين أن الموظفة تكتب بكامل الكفاءة المسلكية:

— هذا هو. إنه تاجر.

وشعر زينيل أنه يخون الراجاه. أكثر مما فعل عندما رأى أن يقول له: إن الوليد، مات فوراً. وهو لا يجرؤ على تخيّل رد فعل الأميرة.

وخلافاً لتوقعاته، فإن سلمى وجدت في حديثه ما يسليها كل التسلية وقالت :

— لو قدّر لأُمير، ذات يوم، أن يعرف هذا، إذن لأمر بشنقك . ولكن لا تكثر بذلك (وقالت هذا عندما رأت لونه يغبر) . فمع هذه الشهادة بالولادة، ما من إنسان يمكن أن يتخيل أن هذه الطفلة هي طفلة ! وهذا هو المهم .

وكان مزاجها حسناً هذه المرة؛ إذ بعد مخاوف هذه الأيام الأخيرة، فإن الأمور، تميل إلى الأفضل . وستترك الطفلة في حراسة زينيل، وتمضي فتنزله قليلاً .

ومشت في الطرق الجانبية، تجنباً للمرور بساحة الأوبرا، التي أصبحت ساحة ألمانية، مع لافتاتها الجديدة التي كتبت فيها : « Coyucine Strasse » و « Concerde Platy » ولكنها وجدت أن أغلب الباريسيين لا يعبؤون بمثل هذه القضايا . فحول الجنود الألمان الذين يتشمسون على أرصفة المقاهي، تزدحم جماعات نشيطة . فدفعها فضولها — لمعرفة ما يمكن أن يقولوه لبعضهم البعض — إلى الاقتراب . وهما فتيان طويلان أشقران، بالثياب العسكرية، قد حلقا ذقنهما من قريب، يضحكان للصبية الذين يقفون أمامهم .

— ليس هناك ما تخافونه . ولن نؤذيكم أي أذى . لقد خدعكم الإنكليز الذين جرّوكم إلى مثل هذه الحرب الخاسرة سلفاً . ولكن هذا كله سينتهي بسرعة . وأنتم أيتها السيدات، أترغبن في أن تروا أزواجكن؟ حسناً، ونحن أيضاً نشتهي العودة إلى بيوتنا ونرى نساءنا !

ويذهل الإنسان مما يسمع، ولكنه يتخفف من الهم : فهؤلاء الألمان، محببون جداً؛ وكان الناس ينتظرون براءة سيحرقون المدينة، ويملأونها بالدم، ولكن ها هم أمام جنود منظمين وإذا هم لم يكونوا في الخدمة، فإنهم يتصرفون كالسواح، ومعهم آلات التصوير يحملونها على أكتافهم، ويشترون من المخازن أكثر بضائعها من الكلسات الحربية، والروائح، ويدفعون قيمتها كاملة .

وكان الطقس جميلاً، فتابعت سلمى سيرها حتى حدائق التويلري . وكان الناس الجالسون في الشمس يتناقشون، على حين أن أوركسترا عسكرية على بعد خمسين متراً تعزف سمفونية بيتهوفين الخامسة . ويظاھر الناس بأنهم لا يرونها، ولكنهم يصغون إليها بأذانهم، ويعلقون على ذلك بقوهم : « الحق يقال، إن هؤلاء الناس حسناً موسيقياً رائعاً، ما في ذلك ريب ! » ولقد أذاع الراديو منذ قليل تصريحاً للمارشال بيتان جاء فيه أنه يجب وضع حد للمعارك، إذ إننا سنوقع الهدنة . وإذا كان بعض الناس بدؤوا ويكون عندما سمعوه، فذلك من الفرح، أكثر مما هو من الخجل .

— الشكر لله ، فقد انتهت الحرب . وأصلاً ، فإنه ما كان لهم أن يعلنوها . ولعن وصلنا إلى هنا ، فذلك ذنب هذه الحكومة ، المؤلفة من عناصر متفسخة ، وذنُبُ دعايتها الكاذبة !

— كانوا يصفون لنا الجيوش الألمانية في لباسٍ ممزّق كالخرق البالية . وينقصهم كل شيء . فانظروا إليهم الآن ! ترى هل رأيتم سابقاً جيشاً جميلاً بهذه الدرجة ؟

— كانوا يقولون : ما من خطر ، وما من شيء يخشاه الإنسان ! ولكن عندما ساءت الأمور بهذه الصورة ، فإنهم ذهبوا واختفوا كاللصوص ، وتركوا نتدبر أمورنا بأنفسنا وحدنا .

وهذه المرارة التي شعر بها الناس من خداع قادتهم لهم ، جعلتهم ينظرون إلى العدو بكرهية أقل . وكان هذا العدو لا ينسى أن يلعب بهذه الورقة . فقد امتلأت الجدران بلافتات فيها مثل هذه العبارات : « أيها الشعب الذي تخلى عنه قاداته ، ثِقْ بالجيش الألماني » و « إن الباريسيين لا ينقصهم شيء ، لأن السلطات الألمانية تراقب ذلك » .

وبدأت سلمى تدرع الممرات ذهاباً وإياباً وهي تفكر . وتعود إليها صور مدينة أخرى محتلة ، وشعب حزين ، ورجال ونساء يمكرون بالمحتل ، لينضموا ، في الطرف الآخر من البلاد ، إلى لواء كان يأبى الهدنة ، ويطلب من الشعب أن يقاوم . ترى أياكون لفرنسا مصطفى كمالها ؟

وعندما عادت إلى الفندق ، وجدت مديره مع زوجته يتناقشان . لا ريب أنهما كانا يتحدثان حولها ، إذ سرعان ما سكنا عندما لمحّاها ، وذهبت المرأة باتجاه المطبخ وهي تهز كتفها .

وفي صباح اليوم التالي ، اقترب المدير من سلمى : إن امرأتى تريد أن أعلم القيادة الألمانية بأمرك (الكومانداتور) .

— الكومانداتور ؟ ...

— لقد أعلنوا أن كل من يؤوي أجنب في بيته أو فندقه ، يجب عليهم أن يخبروا عنهم ، تحت طائلة العقوبات القاسية . وأكثر من ذلك ، أنك إنكليزية ، وإذن ...

بلى ، إنها تفهم . فالبارحة كانت الحليفة ، أما اليوم ، وقد استسلمت فرنسا ، على حين أن إنكلترا ما زالت مستمرة في الحرب . وإذن فقد أصبحت ... العدو .

— ولقد أجبته بأنه يمكننا أن نحفظ بك ، وأنهم إذا جاؤوا يحققون ، فإن من السهل

إخفاءك . وهي لا تريد أن تفهم شيئاً . وأنا أعرفها . ذلك أنها على درجة من الخوف تستطيع معها أن تذهب بنفسها لتشي بك !

وكان العرق يتصبّب من وجه الرجل بحبات كبيرة ، فيشيح بنظرته .

— والأفضل أن تتركي من عندنا .

وتعرت سلمى بأن دمها كله ينسحب من شرايينها ، وأصابها الدوار . فاستندت إلى ظهر كرسي ، وقالت :

— ولكن أين نذهب ؟

ويتنفس المدير الصعداء . وكان يخشى أن يكون هنالك هياط ومياط . ولديه حل جاهز تماماً : ذلك أن الناس يجدون دائماً حلولاً سهلة لمشاكل الآخرين .

— لا تبقي في مركز المدينة ، فهو مغمم بالألمان . اذهبي إلى الشمال ، باتجاه بيغال أوكلشي . هناك ستجدين فنادق صغيرة ، ولا يُسألون عن شيء .

وخلال شهر واحد ، تنتقل سلمى من فندق إلى فندق ثلاث مرات . وترتعش كلما رأت أحداً من الناس ينظر إليها . وأصبحت ترى في كل مكان أناساً مستعدين للوشاية بها ، على كونها تدفع ضعف أجره الغرفة . ويقولون : « إن هذا طبيعي . فنحن نغامر ، وإنما نحفظ بك عندنا من أجل الطفلة » . ولكن من يدري ، إذ قد تشي بك جارة ، أو خادمة في الفندق . وفعلاً فإن الألمان وعدوا بجائزة لمن يصرّح لهم عن المشبوهين ، أوليست بين هؤلاء في المقام الأول باعتبارها إنكليزية ؟

وتدريجياً أصبحت مخاوفها رعباً حقيقياً عندما أشيع بأنهم يوقفون كل المواطنين الإنكليز ، أو من يحمل الجنسية البريطانية ، ويرسلونهم إلى المعسكرات . وتتخيّل هي الأسلاك الشائكة ، والأسر المفصولة عن الأفراد ، والأبناء الأطفال المنتزعين من أمهاتهم ... فتضمّ ابنتها الصغيرة إلى صدرها ، وتقول لنفسها بأنها ستقاتل ، ولكنهم لن يأخذوها منها .

وفي مثل هذا الجوّ القائم على فقدان الثقة والكذب ، فإن جمالها ، وطريققتها في الإحساس والشعور ، وسمتها « المختلفة » التي كثيراً ما كانت رصيذاً لها ، أصبحت الآن مصدر خطر . ومهما تفعل لتكون كسائر الناس ، فإنها تظل موضوع ملاحظة . وذات يوم ، صادفها رجل يحب المغامرة مع النساء ، وكانت قد أوقفته عند حده ، فقال لها ، غاضباً :

— آه، إنك شديدة الزهو بنفسك، ولكن إذا رحلت أخبر الألمان عنك، ومن أنت، فلن تكوني بعد ذلك في مثل هذا الزهو، فما رأيك؟

ولم تشأ سلمى أن تخاطر بنفسها من حديد؛ فأرسلت زينيل يسدّد الحساب. وبعد نصف ساعة، غادرت الفندق، ولفّت البنت الصغيرة بشال.

وانتهى الأمر بها وزينيل إلى جادة الشهداء Rue des Martyrs في بيت حقير دَلّوها عليه، لأنه يقبل الأجانب، متى كانوا قادرين على الدفع. وعندما رأت حقارة الغرف، وفذارتها، فهمت: ترى من يمكن أن يسكن في مثل هذه الكهوف الحفيرة، إن لم يكن مرغماً عليها بالضرورة؟ لا سيما وأن المالكة وهي امرأة مسنة، مهيبة، تتقاضى مثل الأجر الذي يدفع في فندق محترم، ولا يساورها أي خجل أو حياء. ولم تجعل؟ وإذن فلتدفع، لأن المحل مشهور بأنه موثوق. أما الشرطة — ترى بأي معجزة عجيبة — فلا تزوره أبداً. وكذلك حال الجنود الألمان، الذين لا يعينهم أن يزوروا مثل هذه الأحياء الصاخبة، الكريمة الرائحة. وهم لا يجتازونها إلا ليلاً، وبالسيارة، لكي يصلوا إلى المحلات التي يستمتعون فيها، في البيغال والساحة البيضاء. وقتلما حصلت دور الملاهي والكباريات على أرياح من النوع الذي تحصل عليه الآن. وسواء أكنّا في Eve أو في التباران Tabarin أو الكباريت مايول Kabarett Mayol — فإنها جميعاً غاصة بزبائن، غير أن هؤلاء ضباط ألمان حصراً بالإضافة إلى البسات. ذلك أن باريس، فضلاً عن كونها المركز المدني والعسكري الهام، الذي أقيم فيها، أصبحت مدينة المجازين، وترى أن عليها أن لا تخون سمعتها «كعاصمة للذائذ والمتع».

أما المحلات الأعلى مستوى، مثل كباريه مونسينيور Monseigneur الواقعة في شارع أمستردام، أو النسر L'aiglon الموجودة في الشانزليزيه وكذلك المطاعم الأنيقة، مثل ماكسيم والفوكيه Fouquet's، حيث كانت باريس كلها تجتمع في الماضي، فإنها تظل محجوزة للضباط ذوي المراتب العليا. غير أن الناس يرون فيها عدداً كبيراً من شخصيات عالم المسرح والصحافة. وأكثر هؤلاء عادوا منذ شهر تموز / يوليو / : ذلك أنه يجب على الإنسان أن يحيا حياة حلوة، كما أن الفن أمر لا حدود له! أما في الأوبرا، فإن سيرج ليفار، سيرقص رقصة جيزيل، مع إيفيت شوفيري Yvette Chouviré؛ وأما في كارينو باريس، فإن موريس سوفالييه وميستغيت، يحززان حاحاً ضحكاً، ثم إن ساشا غيتري عاد وفتح مسرحه في المادلين.

ولم تعد سلمى تذهب إلى هذه الأحياء الجميلة إلا قليلاً، خوفاً من أن يخطر في بال أحد الشرطة أن يطلب منها أوراقها. ولكنها أحياناً لا تقاوم الرغبة في زيارتها بإبرة خاطفة، لالتيء غير

التمتع بشرب فنجان من القهوة بين أشخاص أنيقين ، مرحين ، وغير الرغبة في نسيان حقارة العيش في جادة الشهداء ، مدة ساعة أو ساعتين .

ومع ذلك فقد حدث أن أصابها ، ذات يوم ، ذعر شديد : ذلك أن الممثلة آنابيل التي كانت تعرفها معرفة جيدة لأنها تعشت معها عدة مرات — في ظروف أخرى — دخلت إلى قاعة الشاي التي كانت موجودة فيها . ونظرت كل منهما إلى الأخرى لحظة ثم إن الممثلة تحولت عنها ، ولكنها بعد عدة لحظات ، مرّت بجانبها بحجة أنها بحاجة إلى إصلاح شعرها ، وهمست في أذنها بسرعة وهي ماشية ، قائلة :

— هل أنت مجنونة ؟ إن المكان مملوء بالجواسيس .

ولو أن سلمى كانت وحيدة ، إذن لما قاومت الهيجان الخاص الذي يأتيها به محرّد تحدي الخطر . ولكنها لم تعد تستطيع أبداً أن تسمح لنفسها به : إذ ما الذي يحدث لطفلتها إذا هي تعرّضت للتوقيف ؟

ماذا يحدث لهذه الطفلة التي تصبح شيئاً فشيئاً بنتاً صغيرة حلوة ، لم يؤثر الرحيل — من فندق إلى آخر ، لتكون نهاية المطاف فيه في هذا الكوخ الحقيق الذي يستخدمونه الآن كغرفة — في مرحها وهجتها . وفي كل مرة ، تعود فيها سلمى إلى هذا الكوخ تستقبلها هذه البنية عدو يتخلله السقوط ، ويتلفظ كلمة « ماما ! عدة مرات ، تفصل بينها زقزقات خفيفة بهيجة ، تجعلها تنسى كل همومها . وما كانت سلمى لتحسب أنها قد تملك عاطفة الأمومة هذه ، وبهذه القوة ، ولأن تتعلق بهذا القدر ، بمثل هذا الكائن الصغير . إنه يؤلف جزءاً منها ، وكأن بيها وبينه رابطة جسدية تجمع أحدهما إلى الآخر ، بقوة تحسب معها أنها متى ضمتها إلى صدرها ، وأغمضت عينيها ، فإن طفلتها هذه تتحرك من جديد داخل بطنها ، وأنها معاً ، كيان واحد .

وفي مثل هذه اللحظات ، تشعر داخل نفسها بسلام كامل ، وبعاطفة عنيفة تشعر معها أنها ملك لآخر . كما تشعر أنه ينمو في داخلها ، على أنقاض تردداتها القديمة ، نوع من القوة تتيح لها أن تجابه العالم كله .

والحياة ، وهذا ما تكتشفه ، هي هذا الطفل (أي الطفلة) الذي يتعلق بالحاضر ، والذي لم ينسج لنفسه ماضياً ، يبرّر به نفسه ، ولا مستقبلاً ليضمن نفسه فيه . فهل تستطيع أن توفر عليه أخطاءها ، وتعلّمه أنه لا يكسب في لعبة السعادة ، إلا من يقبل أن يضيع ويتبدّد ؟

— ستوقعينها في الأرض ، هذه الأميرة الصغيرة ، ذلك أن ساعة الرضاعة قد مضت منذ زمن طويل !

وزينيل هو صورة الاستنكار نفسه . فمذ الولادة ، تحوّل الخصي إلى « نونو » مربية حقيقية . فلا يجد له الإنسان مثيلاً للعناية بالطفل طعاماً ولباساً . ولاحظت سلمى بشيء من « عصّة القلب » أن طفلتها تفرح به غالباً أكثر مما تفرح بها .

ولكن تأخرت عن ابنتها ، فذلك لأنها قضت كل ما بعد الظهر ، في الوقوف في الطابور لكي تحصل على نصف لتر من الحليب ، هذا فضلاً عن أنها دفعت ثمنه مضاعفاً خمس مرات — وكما يقولون : « أنت حرٌّ في أخذه أو تركه » — وهذا هو التعبير الذي استخدمته صاحبة الدكان التي تبيع الحليب ومشتقاته .

ولقد أصبح التجار ملوك شعب يعرف كيف يخني هامته . وهو مستعد من أجل الحصول على كيلو من السكر أن يتحمل كل الإهانات . ذلك أن الناس بدؤوا يحسون نقص في كل مواد التموين تقريباً . ويأتي المحتل كل صباح ، فيقوم بغزو في سوق الهال . ثم إن فرنسا التي انقسمت قسمين ، لم تعد تموّن باريس تمويناً طبيعياً . وعدا ذلك فإن النية متجهة إلى توزيع قسائم التموين على الناس . وباعتبار سلمى أجنبية ، فإنها ليست بذات حق فيها . وهي تتساءل بقلق كبير ، كم من الوقت تستطيع أن تقاوم .

أما ثمن المجوهرات ، فقد نفذ ، واضطرت إلى بيع لآلئها ، ولم يبق لديها إلا الخاتم الزمردني . وغداً سترسل زينيل إلى المجوهراتي في جادة كادي Cadet . وستتقاضى من ثمنه ما يعيلها قرابة شهرين . ولكن بعد ذلك ، ماذا سيكون من أمرها ؟ ولو أنها وحدها ، لاستطاعت أن تحرم نفسها ، وزينيل ليس بعظيم الشهية . أما ابنتها الصغيرة فماذا تفعل بها . وسلمى لا تحتمل أن ترى ابنتها جائعة .

ولقد وُجد من يحدثها عن القنصلية السويسرية التي تهتم بأمر الأجانب الذين يعانون بعض الصعوبات . ولكنها لا تجرؤ على الذهاب إليها ، خوفاً من الألمان ، الذين يراقبونها : ذلك أنها تغامر بأن تتعرض للتوقيف .

ومنذ أن ولدت الطفلة — التي ماتت فوراً ، بالنسبة إلى أبيها — فإن سلمى لم تتلق أي خبر من الهند . ويخطر في بالها أحياناً قصر لوكنوف المفعم بالنساء اللواتي كن يحطنها بعونهن الصاخب ، كما يخطر ببالها بصورة خاصة قرية أوجبال والبسمة الحارة التي ترسم على وجوه قروياتها . ولكنها

لا تأسف على شيء، غير أنها لا تستطيع دفع شيء من الحنين يخامرها، كذلك الذي يشعر به الإنسان، إلى أيام مراهقته، حتى ولو لم تكن سعيدة.

وتساءل أحياناً عن حال أمير. والآن حين لم يعد لها أن تدفع عنها صورة السلمى التي كان أمير يريد أن تكونها، فإنها تعود وتفكر به بشيء من الحنان. فخلال السنتين اللتين قضياها معاً حاولا عبثاً أن يلتقيا. ولقد أرادت أن تحبه، أي أن تحب هذا الكائن الغريب الذي كان يستهويها، وكان مع ذلك يجرحها فيما هو أثير وغال عليها. ولا بدّ أنه الآن يشعر بذلك، وقد حاول أن يفهمها، وإسكات ردود فعله الموروثة من نظام قديم، كانت المرأة فيه لا توجد إلا لتعين الرجل. وكثيراً ما مضى كل منهما باتجاه الآخر. ولكن الهوة التي كانت تفصلهما كانت كبيرة جداً، عميقة جداً. وكانت الجهود التي يبذلها أمير للمثاقفة، والأغصان التي كان يضعها فوقها، لم تكن بالنسبة إلى سلمى إلا غصينات غضة جداً. وهي الآن تنظر وتتأمل، فيما يجب أن تكون جرحته به. ولم يستطيعا أن يريا اليد التي كانت تمتد من كل منهما إلى الآخر، بحكم الزهو، وفقدان الثقة، ثقة كل منهما بالآخر، وثقة كل منهما بنفسه. لقد كان عالماهما مختلفين، أما هما، فكانا يتشابهان كثيراً.

وبعد عدة أيام، وعندما كانت سلمى تمر أمام المكتب الذي تجلس على عرشه السيدة إيميلي، المشرفة على الفندق، رأت هذه توقفها، وكأن في عينيها نعمة تلقيها عليها. وتسألها:

— أنت يهودية، أنت؟

وتجيب سلمى، مذهولة.

— كلا، ولكن لماذا؟

— حسناً، إن هذا أفضل بالنسبة لك، لأنهم أخبروني بأنهم سيقضون ربع ساعة قذرة هنا. أفلم تسمعي بخبر ما حدث من تكسير وتحطيم في الشانزليزيه؟

وبدأت تصف، وعينها تلمع، ككل هؤلاء الناس الذين لا يحبون شيئاً بقدر ما يحبون مصائب الآخرين — لأن هؤلاء الآخرين هم أعداؤهم، بل لأنهم آخرون فقط — كيف أن جماعة من الشباب كانوا قد ساروا في الشارع، من ساحة النجمة إلى النقطة المستديرة. وهم يصرخون: «الموت لليهود — اليونان»^(١)، وحطّموا كل واجهات المخازن العائدة لليهود. ثم أتت على ذكر

(١) يستخدم الفرنسيون كلمة Youpins لسمية اليهود، كقلب جارج.

بعض الأسماء الهامة ، بكثير من الغبطة ، مثل سيد ريك ، وفانينا ، وبرنشفيع ، كما لو كانت تذكر أسماء مجرمين خطيرين .

ونخلصت من هذا إلى القول ، بعظمة : لقد استحقوا ذلك . فكم من زمن عاشوا فيه وهم يأكلون زبدتهم ، من ظهور الناس الشرفاء .

وتكبت سلمى ما ظهر على وجهها من آثار العثيان . وهي لا تفهم هذه الشراسة . فاليهود في تركيا إنما كانوا مواطنين كالأخرين . وكان الناس يقدرونهم لما فهم من ذكاء ، وحب للعمل ، وتفرد في بعض المواهب . ولكنها تفهم من حديث هذه المطرونة ما كان يقال في صحف تلك الأيام ، من أمثال هذه الأفكار ضد اليهود^(٢) .

وفي باريس المحتلة ، عادت الصحف إلى الظهور ، ووضعت نفسها إما بحكم المصلحة ، أو عن اقتناع ، في خدمة السادة الجدد . وكانت سلمى تقرأ أحياناً جريدة الماتان الموجودة في الفندق ، ولا يقرؤها أحد ، وذلك لأنها ولو كانت تقدّم القليل من الأخبار السياسية ، فإنها على الأقل ، تعلن عن الأيام التي تُموّن فيها السوق بالبيص ، والبطاطا أو القهوة وكل السلع الأخرى التي تصبح مفقودة .

ولاحظت سلمى أن هذه الجريدة بدأت حملة ضخمة ضد اليهود ، تصف فيها حي الماري Quartier Marais وما فيه « من أشخاص ملتحين ، يلبسون معاطف طويلة قدرة ، وأطفال يلعبون في الساقية بقشور الفواكه ، وجباه واطئة ، وشعر قصير أجعد ، وأنوف طويلة ، وتجار يضاعفون ثمن الأشياء بنسبة ٨٠٪ ... » ويخلص الصحفي في مقاله هذا إلى القول : « كل شيء هنا يهودي . فكيف يمكن ، عندما يجب علينا أن نقاوم مايسيء إلى الصحة ، أن نترك في قلب العاصمة ، هذه البقعة المقررة ؟ » .

وكان صحفي آخر ، يعالج الأشياء والقضايا من وجهة أقرب إلى السياسة ، ويتحدّث عن أن مصائب فرنسا كلها جاءت من اليهود : « ففي عام ١٩٣٦ كانوا هم الذين دعوا إلى وضع القوانين التي سُمّيت باسم القوانين الاجتماعية ، تلك القوانين التي أفسدت العلاقات القائمة بين المستخدمين ، والمستخدمين ، وأدّت إلى الخراب والبطالة » .

وبدأت بعض المخازن تعلن في لافتاتها ، أن المحلّ « لا يستقبل اليهود » مما كان أمعر في

(٢) وسلمى هنا طيبة جداً : ذلك أن ما كان يقال عن اليهود في الدعاية ، كان دائماً موجوداً في الضمير الفرنسي وغيره .

الشتيمة ، منه في التأثير . ذلك أنه لم يكن بوسع أصحاب المحل أن يسألوا الناس جميعاً عن هوياتهم . ولكن الخطوة الجدية التي حُطيت في هذا الموضوع ، تمت يوم ٢٧ / ٩ / ١٩٤٠ ، إذ صدر أمر من القيادة الألمانية ، يقضي بأن يأتي كل يهودي ، فيسجل اسمه في سجل خاص .

وقالت شارلوت ، بالحزم المألوف لديها .

— في وسعهم دوماً أن يأمرؤا بما يشاؤون . فأننا لن أذهب .

وكانت شارلوت هذه خياطة صغيرة لدى Maggi Rouf ، تستأجر غرفة في حادة الشهداء . وكانت أشد ما تكون إعجاباً بأناقة سلمى . وكانت السيدتان الشابتان قد ارتبطتا بروابط الصداقة ، منذ أن قامت ذات يوم بتأمل سلمى من الرأس إلى الأرجل ، لتصرّح بعد ذلك ، قائلة : « إن هذا الثوب ، أنا التي خطته ! » ، وركعت على رجليها ، أمام سلمى المذهولة ، وقلبت ثنية الروب . وأكدت : « إنه من صنعي أنا بالتأكيد . ويقول رئيس المعمل إني الوحيدة عنده القادرة على عمل هذه « الطعن » الصغيرة جداً ! وكانت تزهو بعملها هذا زهواً كبيراً » .

ثم إن سلمى سلّمت إليها أروابها المسائية ، طالبة منها أن تبيعها لها . وهذا ماقامت به خير قيام . ولما كانت تأبى قبول أية مكافأة من سلمى ، فإن هذه كانت تدعوها من حين لآخر ، للعشاء معها . وكانت الفتاة ، تروي لها ، بكل ما لدى الشقي الباريسي من روح فكهة ، مايقال ويسمع من فضائح عالم ، لم تعد هي تتردد عليه . وكانت ممتنة منها بشكل خاص ، منذ أن وزّعوا على الناس قسائم التموين ، ذلك أنها أعطت سلمى ما لديها من قسائم تتعلق بالحليب ، وتقول :

— أما أنا ، فالحليب يمرضني في القلب .

وعلى ذلك فإن شارلوت قرّرت أن لاتضع اسمها في السجل الخاص باليهود . « إذ كيف يمكن أن يحزروا . إن لي اسماً فرنسياً أما الباقي ، فمن حسن الحظ أتي امرأة » . وبدأت تضحك ، مسرورة من مزحتها هذه .

وبعد ثلاثة أسابيع قامت حكومة فيشي بإصدار قانون ينظم « وضع اليهود » . وهو يجمع ، « لدواعي الأمن الوطني » كل اليهود من العمل كمحام ، أو قاض ، أو مدرس ، أو ضابط ، أو صحفي أو في الإذاعة ، أو ممثل في السينما أو في المسرح ، أو في عالم الصيدلة ، أو طب الأسنان ...

وقالت شارلوت :

— إنكم ترون الآن أنني على حق ، لا لأن في عزمي أن أكون وزيرة . ولكن على كل حال ، هل نحن من المصابين بالطاعون ؟

وفي ذلك اليوم ، ومن أعلى مكتبها ، ومن حيث هي فرنسية حقيقة ، صرّحت مدام إيميلي بقولها :

— لا مجال بعد الآن للمراوغة : فالماريшал رجل عظيم !

وانتهزت الفرصة ، وزادت أجور الأسرتين الإسرائيلتين اللتين كانتا تسكنان هناك . أما من شارلوت ، فإنها لم تطلب شيئاً . ترى هل كانت تجهل أنها يهودية ؟ إن هذا ، لو صحّ ، لكان أمراً غريباً . ذلك أن هذه المديرة كانت تعرف كل شيء عن عندها . ولكن ربما حسبت أن من العبث أن تحاول . ذلك أنه لم يكن للفتاة من مصدر عيشٍ غير أجرتها التي لا تكاد تفي إلا بما يكفي لبقائها حية ؟

وقالت سلمى لنفسها :

« الحقيقة أنني أسأت الحكم عليها » .

والواقع أنه لم يمض إلا عدة أيام بعد ذلك ، حتى جاء شرطيان ، واقتادا شارلوت . وكانت هذه تتخبط وتصرخ ، أمام المستأجرين . وتقول :

— إن هذا خطأ . فأني فرنسية !

ويرد الشرطيان :

— ستشرحين لنا هذا في القسم . وأخذاهما بالقوة وهما يضحكان .

ولكن الفتاة استطاعت ، قبل أن يعتقلوها ، أن تقول لسلمى همساً :

— انتبهي إلى العجوز !

ولم تعد شارلوت قط . ولكن العجوز ، في اليوم التالي ، عرضت نفسها في ثوب جديد !

وكانت سلمى ، في الأيام التي كانت ما تزال تملك بعض المال ، تذهب فتغيّر جو أفكارها ، في الهضبة في مغى الأرنب الماهر Lapin Agile ، وتقضى فيه أمستها . وكانت تستمع فيه إلى

فريدي Fredé الذي يعزف بالقيثارة، ويغني أغاني قديمة معروفة، وتستمتع بهذه المجموعة من الناس المرحين والفوضويين. الذين كانوا يترددون على ذلك الغنى (الكباريه). والواقع أن ما كان يجذبها إلى هناك هو، بشكل خاص، صورة هارفي، وذكرى ليايهما في هذا المكان.

وحديثاً، تعرّفت إلى مجموعة من الشباب، تبنوها، وصارت واحدة منهم... وكان بينهم إسبانيون هربوا من نظام فرانكو، وتشيكويون، وبعض البولونيين، وكلهم من اللاجئين إلى فرنسا، وفوجئوا بوصول الألمان إلى باريس. كانوا مرتاحين، غير معقدين، ومنفتحين بحارة للآخرين. وكانت القاعدة الوحيدة فيما بينهم، هي التستر على ما لدى كل منهم. فما من أحد يطرح سؤالاً في هذا الوسط الذي يعاطي التهريب، والذي تفد إليه بعض الوجوه أحياناً، وتحتفي وجوه أخرى. ومن الذي لا يرب فيه أن أسماءهم مستعارة. ولكن كم يعيشون؟ لا يرب أنهم كانوا يقومون بمناجرات صغيرة. واستطاعت سلمى أن تقدّر مدى مهارتهم في تدبير أمورهم، وذلك بعد مدة من الوقت — وجدوا خلاله أنها عنصر موثوق. ذلك أنهم جاؤوها ببطاقات تموين مزيفة، ووجدوا الوسيلة لبيع معطفها الفيزون الأبيض، بثمان مقبول، كما باعوا لها بضعة حقائب يد من عند هيرمس، وحوالي العشرين زوجاً من الأحذية الكبيرة القيمة. ذلك أن الحلد أصبح مادة لا يُعتر لها على أثر.

وكانوا لا يبحثون أبداً في قضايا السياسة. ولكنها لاحظت أنهم يعرفون أشياء كثيرة، قبل الآخرين، مثل مظاهرة ١١ تشرين الثاني / نوفمبر / أمام قوس النصر، حيث أطلق الألمان النار على المتظاهرين من الطلاب. وقد اطلعت سلمى، مرة أو مرتين، على أحاديث تدور بينهم، من نوع غريب. وتساءلت عما إذا كان هؤلاء الشباب المجانين الذين لا همّ لهم إلا كسب بعض المال، والاستمتاع بالحياة، ليسوا على صلة بالمقاومة، التي بدأ الناس يتهايمسون أنها أخذت تنتظم.

وكانت هذه المجموعة تلتقي أحياناً للرقص في كهف أُعيدَ خصيصاً لهذا الغرض، وسدّت منافذه بإحكام، لإخفاء للنور، وطمساً للضجيج. وهم بذلك يتعرضون للأخطار، لأن هذا الأمر ممنوع. ولما كان منع التجول يبدأ من منتصف الليل، فإن هؤلاء الناس يرقصون حتى الفجر، ويرقصون بحارة أكبر، لأنهم غير واثقين بأنهم سيظلون أحراراً في الغد.

وفي المرة الأولى التي عادت فيها في أول الصباح، وجدت زنبيل جالساً على كرسيه، مرتدياً ثيابه. وكان لم ينم من شدة القلق. فنظر إليها دون أن يقول شيئاً، وهذه أحسن طريقة عنده للإعراب عن استنكاره. فجاءت، مرتبكة، وجلست بجانبه.

— آغا، افهمني . فأنا أحتنق في هذه الغرفة . أما في البهار فإن الطفلة تفرحني فرحاً أنسى معه كل همومي . وأما في المساء، عندما تكون نائمة، وأجد نفسي وحيدة في هذا الكوخ القذر، فأبسي أتعرض لأفكار سوداء تحجب عني النوم .

وحمل زيبيل يد سلمى إلى شفيتها، وقال لها :

— غفرانك، يا أميري . فأنا أناني عجوز، وأنت شابة في مقتبل العمر . وصحيح أن هذا السوع من الحياة قاسٍ عليك، وأنت بحاجة إلى تسلية نفسك ... وتعرفين أنني أقدم حياتي لكي تكوني سعيدة، ولكن ... — وهنا اضطرب صوته، ونفرت الدموع من عينيه — ولكني خائف . فإذا حدث لك حادث ما، فماذا يكون من أمر ابنتنا الصغيرة؟

فبدأت تضحك، لتطمئنه . وقالت :

— ليس هنالك أدنى خطر . إني أظل يقظة الانتباه ! .

ولكنها كانت تعرف أنه على حق . فباعدت طلعاتها هذه، وطلبت منه أن يساعدها في تغطية حدران الغرفة . وتخفيف النور بسوارها . لاشك أن هذا يعطي العرفة طابع العجريات، من كثرة الألوان، ولكنه بهيج على الأقل . ومنذ الآن تشعر بأنها أفضل حالاً .

أما مديرة الفندق (المطرونة) التي تلاحظ ملاحظات خبيثة حول كل هذا القماش الجميل المهدور، على حين أن الكثيرين لا يجدون ما يضعونه فوق أجسادهم، فإن زيبيل يتصدى لها ويقول : «إنه ليس لأحد حق في محاسبة الأميرة على ما تفعل» . ويظل يسميها أميرة، على الرغم من ملاحظات سلمى التي تنهأ عن هذه التسمية، خوفاً من أن تضاعف عليها الأجور .

— إنك لا تفهمين شيئاً من هذه الأمور . أما أنا، فأني أعرف هؤلاء الناس : ويجب أن تتكبري عليهم، وإلا فإنهم يسحقونك .

وهو على حق : لا لأن الأسعار لم ترتفع، ذلك أن العجوز تفهم أنه ليس لسلمى موارد مالية . ولكن بدلاً من أن تجعل الحياة صعبة عليها، نراها تراعيها، وترعاها، مشيرة مع بسمة كبيرة، إلى أنه عندما تصبح الحياة طبيعية، فإن «السيدة تعرف كيف تتذكر التضحيات التي قدّمت لها»، وتوافق سلمى، على ما قالته، من شدة التعب وتعدّها بأنها ستكافأ مكافأة جيدة، دون أن تسأل عن تلك التضحيات التي تشير إليها المطرونة . إلا أن يكون عدم توجيه الشتايم إليها، هو هذه التضحيات .

ومع وجود قسائم التموين المزينة ، فإن التموين يصبح أكثر فأكثر صعوبة . فما من شيء يجده الإنسان إلا في السوق السوداء ، حيث كل شيء موجود ، ولكن بأسعار لا تقارب . وتشتري سلمى ما لا بد من شرائه من أجل الطفلة ، أما هي وزينيل ، فإنهما يكتفیان بالقلقلاس الرومي (وهو نوع من البقول) . والملفوف . وحتى البطاطا ، فإنها قد أصبحت من عالم الكماليات العظيمة ، حتى إن الصحف تعلن عن قدموها إلى السوق قبل ثلاثة أسابيع . وللإنسان الحق في ٢٨ غراماً من اللحم و ٥٠ غراماً من الخبز الأسود القاسي . أما السكر فإن حصة الإنسان هي نصف كيلو في الشهر . لكن القهوة ذكرى قديمة العهد . وليس ذلك بالأمر الخطير ، ذلك أن الصحف تقدّم وصفات من نوع خاص لعمل قهوة « لذيذة » من الشعير المستوي أو من البلوط . أما الدحان الذي يستهلكه زينيل بمقادير كبيرة ، فيحب أن يُعوّض عنه « بتراشيب العرائس » .

وأخذ الحصّي على نفسه أن يقوم بتدبير الحاجات ، ذلك أن الحصول على هذه الحصص التافهة ، يحتاج إلى الوقوف في الصف طول النهار . ويرى أن هذا هو وظيفته ، وليس وظيفة الأميرة . وتراه يلحّ على مثل هذه التفاصيل العائدة لعهد آخر ، وانتهت سلمى إلى القبول بذلك ، لأنه في أيام الشقاء التي هو فيها ، يتعلق بقيم يجد أنها ضرورية له كالهواء . أما التي الذي لا يقوله ، فذلك هو أنه يظل قلقاً عليها . وحقاً فإنها لم تكن قط سميئة . أما الآن فإن نسمة من الهواء كافية لجعلها تقع على الأرض . وكثيراً ما انتابها — وهي في الطريق — آلام غير واضحة ، ودُهِش الناس من حوها ، لأنهم لا يتخيّلون أن سيدة في مثل هذه الأفاقة يمكنها بكل بساطة أن تتألم من الجوع . ولكنها لا تتألم من ذلك : فمع قلة الطعام ، تعود المعدة على ذلك ، وتتلاءم معه . وكان شتاء هذا العام ١٩٤٠ مخيفاً . فالناس في الخارج يرتجفون من البرد ، كما يرتجفون منه داخل الغرف . وما من فحم للتدفئة هذا العام ، حتى إن سلمى لا تجرؤ على فتح نوافذ الغرفة ، لتبهيتها ، لأنها ملتصقة من الخارج بطبقة من الجليد . وذات صباح وجدت عصفورها الذي اشتراه لها هارفي ، ميتاً في قفصه من شدة البرد . فهطلت دموع عينيها هذه المرة ، وهي التي تحمّلت حتى الآن كل شيء . إنه شيء من هارفي قد مضى ... وتأتى بطبيعة الحال أن ترى في ذلك فالاً سيئاً . ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من هذا التفكير : ففي الشرق ، ينتبه الناس إلى مثل هذه الأشياء ...

ولم يفهم زينيل هذا الحزن من أجل مجرد عصفور . وبالمقابل فإنه يظل قلقاً على البنيّة ، لأنها سريعة العطب في هذا العمر . وهكذا فقد تعودت سلمى أن تأوي إلى السرير بكامل لباسها ، وتضم الطفلة إلى صدرها ، وتجن عندما تفكر بأنها قد تصاب بأذى . ذلك أنها إذا هي استطاعت أن تغذيها بشكل مقبول ، على حساب حرمانها هي نفسها من كل شيء تقريباً ، فماذا عساها أن

تفعل ضد هذا البرد الرطب ، الذي ينفذ إلى أعماق الشرايين ، لا سيما وأن المرسى الكبير قد كلمها آخر معطف عندها من الفرو .

ففي تموز / يوليو / عام ١٩٤٠ ، عندما هاجم الطيران البريطاني الأسطول الفرنسي الراسي في هذه القاعدة ، في الجزائر ، وأغرق نصفه حتى لا يستولي عليه الألمان ، كان الاستياء كبيراً لدى جماعة بيتان وفي ذلك الحين كان أكثر الباريسيين من هذه الجماعة .

ومنذ ذلك الحين ، كانت المطرونة إيميلي لا تدع فرصة تفوتها لتهاجم هؤلاء الخونة « الإنكليز » وتُشفع ذلك بنظرات غاضبة باتجاه سلمى (باعتبارها من الرعوية البريطانية) . وهكذا فقد أوصت سلمى زينيل بترطيب خاطرها ، بتقديم بعض الهدايا الصغيرة لها ، كشال منسوج باليد ، وعقد من اللآلئ الملونة ، وكأي شيء آخر من تلك الهدايا ، التي قُدِّمت لها من قبل نساء بادالبور ، وحملتها معها في حقيبة كبيرة ، كما حملت شيئاً من تراب الهند . وأحياناً ، كانت المطرونة تضع على سبيل الزينة ، ما كانت تسميه « حليتها الشرقية » وعندئذ كانت سلمى تشعر بشيء من الانقباض في قلبها . ولكنها تعرف أن صديقاتها هناك ، كن سيفهمن لماذا استغنت عن هداياهن لحساب هذه المطرونة .

واستمر الأمر كذلك حتى صباح يوم من أيام تشرين الأول / أكتوبر / ، عندما كانت سلمى تنهياً للخروج ، وتدنّرت لذلك بمعطفها المصنوع من فرو ثعلب الماء . فلكيت في طريقها المطرونة إيميلي ، فاستوقفتها لكي تمتدح ذوقها في اللباس ، ولاحظت بضحكة مزيفة ، ملاحظة خبيثة ، قالت فيها :

— ما كنت أعرف أن الإنكليزيات يُحسنن مثل هذه الأناقة .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشير فيها إشارة مباشرة إلى جنسية سلمى . وكان هذا واضحاً كشفرة السكين . ومن دون أن تقول سلمى أية كلمة ، خلعت عنها معطفها هذا ، وأعطتها إياه ، وصعدت مباشرة إلى غرفتها حتى لا تسمع شكرها المزيف .

أما الآن فإنها تخرج في معطفها الصوفي ، المناسب للأيام نصف الباردة ، للأيام التي تهبط فيها الحرارة إلى ما دون الدرجة ١٥ ، تحت الصفر . وكان الحُلّ هو المشي بسرعة ، بل والعدو أيضاً ، ولكنها لم تُعُدْ تستطيع ذلك . ومنذ ذلك الحين ، وهي تشعر بتعب كبير . وكانت أحياناً تشعر بألم يعترى جانبها الأيمن . ولكنه لا يبقى إلا بعض الثواني . غير أنها في الأسابيع الأخيرة ، تكاثرت عليها

السويات وتقاربت . ولم تحدّث زينيل بشأنها : فماذا يستطيع أن يفعله من أجلها ، غير أن يحمل مريداً من الهموم ؟ وتعرف سلمى أن عليها أن تستشير طبيباً ، وتأخذ الأدوية الضرورية . لكن ذلك يكلف غالياً ، ولم يعد معها مه إلا القليل . وعدا ذلك ، فإنها كانت مقتنعة أن هذا كله سيزول لو أمها كانت تأكل أفضل بقليل . ولا بدّ أن هذا يشأ عن الزيت الذي يباع في السوق السوداء ، والذي تطهو به الطعام ، ذلك أن كبدها كان دوماً سريع العطب .

وتضم ابتها إلى صدرها ، وتقول لها : « ليس هذا بخطير ، أليس كذلك يا جوهرتي ؟ فأنت على الأقل في صحة جيّدة كالسحر الحلال . أنت أجمل بنت صغيرة في هذا العالم . إن أمك هي التي تقول ذلك لك ، وهي لا تكذب إلا نادراً . وسترين متى انتهت الحرب كم سيكون سعيدتين حين الانتنيس ! تم أجلستها على ركبتيها ، وجعلت تقفز بها ، بصورة منتظمة : ففرحت الطفلة بذلك ، وأخذت تطلق صرخات حلوة ، وتغضب عندما يتباطأ حصانها المتعب ، في إرقاصها . « إن للأنسة مراجها ! وهي على حق : فأنا لن أحاول أن ألح عليك بالتنعيم والتلطيف ، ولن أجعل منك فتاة كلّ وظيفة أن تعجب الآخرين . فلك الحق في أن تكوني كما أنت ، ولست بحاجة إلى تبرير نفسك عندما تعيشين على طريقتك . وعندما أفكر أن أمك كانت من الغباء بحيث قضت تسعة وعشرين عاماً من عمرها ، كي تفهم هذا » .

ولكن أكانت تفهم هذا يوماً ما ، لولا هارفي ؟ ... هارفي ... والله يعلم ما إذا كانت في البداية تلومه على إرغامه إياها ، على أن تكون حرة ، وأن يجيها عندما طلبت منه النصيحة ، بأن العايات كلها تتساوى وتتعاذل متى كان الإنسان يعيشها بعمق ، وأن المهم ليس الوصول ، بل المشي ، وبصورة خاصة ، أن يقع ، ذلك أن هذا يرغمننا على أن نضع أنفسنا موضع التساؤل . وكان يقول أيضاً إن المثل العليا توايبت تشلّنا ، وتمنعنا من أن نرى أو نسمع ، وأن الأغبياء والضعفاء يعملون من أجل مثل أعلى — استعاروه استعارة أو صنعوه لأنفسهم تلقائياً — وذلك لأنه ليس لديهم الشجاعة الكافية ليقفوا على أقدامهم ، بلا وصي . ثم إنه كان يتحدث عن السعادة التي لا تنشأ عن هذا الحادث أو ذاك ، ولكن عن قدرتنا على أن نعيش اللحظة التي نحن فيها ، مهما تكن ، وذلك لأننا وحدنا ، الذين مهب الأشياء لونها الحزين أو البهيج .

« أو أقول بأنني الآن فقط أفهم ما كان يريد أن يقوله لي ، وأنتي احتجت إلى الحرب ، والفقر ، والوحدة ، لكي أجد السعادة داخل نفسي ؟ ذلك أنني سعيدة . فممن مرّة أحببت الحياة كما أحبها الآن ، وممن مرة ، أبداً ، رغم الحرمان والخوف ، بدا لي العالم مُضيئاً ، بهذه الدرجة ! » .

ومع ذلك فإن سلمى تشعر منذ مات العصفور، أنها لن ترى هارفي مطلقاً، وهناك شيء يتهبأ حدوثه، بصورة مستقلة عن إرادتهما، ويوشك أن يفصلهما إلى الأبد. ومنذ بضعة أسابيع فقط، كانت مثل هذه الفكرة تدخل اليأس إلى أعماق قلبها. أما الآن فإنها تشعر بهدوء من نوع ما. ومهما يحدث فإنها تعرف أنها قادرة على مجابهته. ولم تعد تلك السلمى السريعة العطب، المعذبة. بل هي امرأة وهبها هارفي أجمل هدية في العالم. لقد علمها أن تنسى نفسها وأن تُحب.

«آه، يا أيها الغالي، أيها الغالي!». وبدأت سلمى تدور وهي تدور، ممسكة بالطفلة بين ذراعيها، على نغم فالس لستراوس كان ينطلق من الراديو. «سترين كم أن الحياة جميلة! والآن صرت أعرف السرّ، وأعدك بأننا لن نكون أبداً من التعمساء!».

ووضعت البنية ذراعيها حول عنق أمها، وضحكت من أعماق قلبها، على حين أن سلمى كانت تدور، وتدور، ببطء أول الأمر، ثم أسرع فأسرع، وكانت الأزهار الحمراء الموجودة فوق البساط تتراكض بعضها وراء بعض كسريندة^(٢) فرح.

وفجأة تشعر بألم، كأنه ضربة خنجر في البطن، يحملها على التراجع (التأرجح). فتحس باختناق، وتريد أن تصرخ... لكن الطفلة بين يديها، ويجب ألا تدعها تقع. واستنهضت كل قواها، وحاولت أن تتعلق بالطاولة، هناك، على مقربة منها، فتمايلت، وشعرت بحرقه لا تحتمل، وكأنها تمزقها... كما لو أن هناك موقداً، وستارة من الرماد... ولم تر شيئاً... وتشعر بأنها تسقط، ولا تتوقف عن السقوط...

وكان الفالس يتتابع، بهيجاً، مغرياً، في الحين الذي كانت فيه الطفلة تبكي أشد البكاء وتقول، إلى جانب أمها الغائبة عن الوعي.

ولم يكتشفها زينيل إلا بصورة متأخرة، بعد أن عاد من شراء حاجاته. وهما هي سلمى متمددة على الأرض، بيضاء، شديدة البياض. لكنها خلال سقوطها حمت الطفلة التي تبكي من شدة الخوف.

(٢) سريندة (رقصة من رقصات القرنين السابع والثامن عشر) تتميز بالصحب.

— ٧ —

وفي مستشفى الأوتيل — ديو، كان الجراح يذرع مكتبه جيئةً وذهاباً. وكان ينظر بمرارة إلى يديه القويتين اللتين توصفان عند الناس، بأنهما أعجوبتان: أما هذه المرة، فإنهما لم تستطعا الإنقاذ.

بيد أنه منذ أن وصلت سلمى، فيما يشبه نصف الإغماء، أمر بأخذها إلى غرفة العمليات. وكانت مصابة بالتهاب حاد في الصفاق. ففتح البطن، وقص، وربط، وخاط، خلال ساعتين؛ وقد استبسل في العمل، وحوله ممرضات صامتات. فالسيدة المريضة شابة. ويجب أن يخرجها مما هي فيه، بأي ثمن. وعندما عاد فأغلق البطن الرقيق، مسح عن جبينه العرق، وهو يتنهد، تنهد من تخلص من حمل ثقيل: ذلك أن خصمه القديم لن ينتصر.

غير أن الحمى عادت في الليل، وفهم أن تسمم الدم بدأ. وكان هنالك شيء واحد يستطيع إنقاذها، هو هذه الأدوية الجديدة «المضادات الحيوية» التي كانوا يصنعونها في أمريكا. أما في فرنسا، فإنها لم تكن قد وُجدت بعد.

ولقد وقف يشهد تصاعد الخطر، وهو في حالة العجز. وكان التسمم يزداد ويستولي على هذا الجسد الشديد البياض، بصورة حتمية، بعد أن ظن أنه خطفها من الموت.

أما الآن فقد انتهى الأمر. وعلى كل حال فإن المرض لم يكن يمهلهما أربعاً وعشرين ساعة.

ذلك أن الالتهاب امتد بسرعة . ولم تستطع العضوية أن تقاوم ، لشدة ما عاشت في الحرمان ، على ما يُرجَّح . فيشدُّ الأستاذ على قبضتيه . فها قد بدأ يُجري العمليات منذ عشرين سنة ، وكلما خسر معركة الحياة ، يقف وقفة المتمزق هذه . وأكثر من ذلك — وعلى الرغم من أنه يؤاخذ نفسه على ما أتى — فإنه عندما يكون أمام إنسان شاب يُودى به هكذا ، كما هي حال هذه السيدة الشابة ، في أرق درجات تألق جمالها ، يشعر بأن ذلك تبديداً للحياة ثمينة ، لا يحتمل .

والآن يجب أن يكلم الأب ، الذي بقي لا يتحرك منذ البارحة ، في الممر . وعندما خرج من العملية ، ابتسم له قائلاً : « إن الشر سيذهب » . فأشرق ذلك الوجه المتجعد عرفاناً بالجميل ، قبل أن يفهم الأستاذ ما كان يجري ، وانقض على ركبتيه ، وقبّل يديه ناكياً من الفرح . وكان الطبيب خشناً ، فدفعه عنه ، ورفع ، وسمح له بأن يدخل عدة دقائق إلى الغرفة . وكانت سلمى لا تزال نائمة ، وقد دهش الطبيب من هذا الحب القريب من العبادة ، الذي كان يفيض من هذا الرجل ، ومن خفقات العاطفة المتدفقة منه ، والتي كان يبدو أنها تدفئ غرفة المستشفى الباردة . ولم يستطع إلا أن يفكر بأنه لو كان البشر قادرين على الشعور بجزء ولو بسيط من مثل هذا الحب ، إذن لما حدثت حرب أبداً . وعلى أسف منه ، استبعد الأب عن تأمل انتته الغالية ، ونصحه بأن يأخذ قسطاً من الراحة . وفيما بعد ، علم من الممرضات أنه بقي الليل كله ، جالساً على الأرض في الممر .

وفي اليوم التالي ، كان باب الغرفة مغلقاً في وجه الجميع . أما في الداخل ، فإن الأطباء والممرضات كانوا منشغلين بالمريضة . بل إن الجراح هو نفسه ، جاء يتفقدتها مرتين أو ثلاثاً ، بين العمليات . وفي كل مرة كان يلقي النظرة المتوسلة ، لذلك الرجل ، ويرغم نفسه على الابتسام له أو يقول : « إننا نفعل كل ما بوسعنا » .

والآن ماذا سيقول له ؟

ولم يكن بحاجة إلى الكلام ، لأن زينيل كان يعرف . ولقد عرف ما جرى ، في اللحظة التي كانت فيه ابنته الصغيرة ، تلفظ نفسها الأخير . فشعر ، في جسمه كله ، بهزة ، بدت له وكأنها تنزع شيئاً ما منه . فترك نفسه ينزلق على الأرض ، وصدم جبينه باب الغرفة .

وجاءت الممرضة ، فوجدته هناك ، فيما يشبه الإغماء . فأجلسته وغسلت له صدغيه ، حتى يعود إلى كامل وعيه . ذلك أن عليه الآن أن يعمل ، ويتخذ بعض القرارات . فماذا يجب أن يفعل بالجنّة ؟ وهم أجانب ، وليس لديهم كهف عائلي . فأين إذن يقبرونها ؟

وهذا كله ليس من اختصاص الأستاذ، بل إن إدارة المستشفى ستتكفل به . ومع ذلك فإنه يشفق على هذا الرجل المتألم، وهياً بعض كلمات المواساة . ولكنه عندما وجد نفسه أمام نظرة الرجل الفارغة، التي يبدو أنها تنظر إلى مكان آخر، بعيد جداً، شعر أنه لا لزوم له، فضغط على يد الرجل العجوز، وخرج دون أن يبس ببنت شفة .

ولا يتذكر زينيل ماذا جرى خلال الساعات التالية، ولا يعي شيئاً آخر غير أن امرأة في ثياب بيضاء تطرح عليه بعض الأسئلة، لم يكن يفهم منها شيئاً، وكان يقول فقط : إنه يريد أن تدفن ابنته في مقبرة إسلامية، بعد أن قدم لها محفظة أوراقه .

ورأى بعد الظهرية عربية موتى يشدها حصان هزيل، ثم حَمَلَهَا الرجال الذين رافقوها، صندوقاً من الخشب الأبيض . وأشاروا إليه بأن يتبعهم .

ولكن كم من الوقت مشى وراء سلمى ؟ لقد كان المطر المثلج، مطر كانون الثاني / يناير / يتسرب إلى ماتحت ثيابه، ولم يكن يشعر بذلك وكان يتذكر الزهات الطويلة التي كانا يقومان بها، كما يتذكر بسمتها المداعبة، عندما كانت تطلب منه أن يعدها بأن يكون معها حتى نهاية العالم .

وأخيراً وصلوا إلى أرض ضخمة، غامضة، مقلقة بجدرانها المهلهلة، وعلى مدى النظر، كانت هنالك صفوف من الشواهد، تبرز من العشب : وكان هذا هو المقبرة الإسلامية، مقبرة بوبيني Bobegny . ولم يستطع زينيل أن يكبت شهقة بكاء، عندما فكر بالمقابر الحلوة التي تشرف على البوسفور، والتي كانت سلمى تحب النزهة فيها .

ولكن إمام المقبرة عيل صبره : ذلك أن الوقت أصبح متأخراً، ويجب بسرعة أن نصلي صلاة الميت، لا سيما وأن هذا الرجل المسكين لا يملك المال الكافي لكي يدفع تكاليف احتفال أهم من هذا، بل إنه لم يكن معه ما يشتري به شاهدة قبر ينقش عليها إسم المرحومة . وليكن ما يكون، فإننا سنكتبه على قطعة من الخشب، حتى إذا مابنت العشب، لم تختلط القبور على أصحابها . فالعائلات لا تحب هذا الخلط . وأية تعاسة !

وينظر زينيل إلى الحفرة السوداء التي حفرها رجلان في القسم المخصص للنساء، وإلى النعش الذي سينزلونه إلى مكانه بالحبال . ولكن لماذا حبسوا ابنته الصغيرة في هذه العلبة ؟ لا بد أنها ستختنق فيها، وهي التي لم تحتمل قط أن تحبس . ففي عالم الإسلام، يلف الجسد في قماش أبيض ثم يوضع هذا على التراب مباشرة . ولكنهم يقولون : إنه ليس لهم الحق، في فرنسا، أن يفعلوا هذا .

وعندما انتهى رجال المقبرة من عملهم ، كان الظلام قد حَلَّ تقريباً . أما صاحب العربة فقد هجر المكان منذ مدة طويلة وبقي زينيل وحده في المقبرة ، بين آلاف القبور ، أو قل بقي وحده مع سلمى . وكان يفكر ، وهو أمام هذا المربع من التراب المطروق ، بالأوباد الرخامية الفخمة التي كانت تستمر ، قرناً بعد قرن ، في استامبول ، في التذكير بأعجاء السلطانات العظيمات ، فيرتعد ... ومن يستطيع أن يحزر أن أميرته تنام في هذا القبر المسكين ؟ بل من سيتذكر ؟

وتتدّد على الأرض التي حفرت من جديد . مغطياً ابنته الصغيرة بجسمه ، ومحاولاً أن ينقل إليها شيئاً من حرارته الحية ، ومن حبه . إذ لم يعد لها الآن غيره . ولن يتخلى عنها . إذ لقد وعد السلطانة بذلك .

— آغا !

وتعدو سلمى نحوه من آخر الحديقة ، وهي أحلى ما تكون في ثوبها الحريري ، وخصل شعرها الحمراء تتطاير في الهواء .

— آغا ، خذني معك . أريد أن أرى الألعاب النارية على البوسفور ! وتعلقت برقبته . وأخذت تتسلى بشد شعره .

— تعال بسرعة ، يا آغا ، إن هذا ضروري ! إنني أريده !

— ولكنّ من الممنوع أن تخرجي من الحديقة ، أيها الأميرة الصغيرة !

— أوه ، آغا ، إنك لم تعد تحب سلماك . وماذا تعني كلمة : ممنوع ؟ آغا ، هل تريد أن أكون تعيسة ؟ ..

ومرة أخرى ، عاد فقبل . فهو لن يستطيع أن يخالف لها أمراً .. فيبهيطان ، يدأ بيد ، من خلال الممرات التي تعطرها الميموزا والياسمين ، باتجاه الشاطئ الذي ينتظرهما فيه القايق الأبيض والذهبي .

وقفزت ، بخفتها المعهودة . وكانت السهام النارية تلهب شعرها ، وحينما كان يستقر في مكانه كانت عيناها تلمعان وتهمس في أذنه قائلة :

— والآن ، يا آغا ، نسافر نحن الاثنين معاً ، في رحلة طويلة جداً .

واستيقظ زينيل بضربة خفيفة على كتفه . فقد كان النهار على وشك أن يطلع . وكان فوقه رجل ينظر إليه بفضول .

— يجب ألا تبقى هنا، لأن المرض سيصيبك من جراء ذلك!

وساعده على النهوض، وعلى نفخ التراب الذي يُلوث ثيابه. وقاده بيده، وهو يرتجف من البرد، إلى العريفة التي يضعون فيها أدوات الحفر، في مدخل المقبرة. وهناك أشر به قدحاً كبيراً من القهوة الساخنة. وكان يسمى «علي» وهو حارس المقبرة. وجلس بجانبه كأنما هو متضامن معه على الضراء.

— وإذن فهكذا يا أخي، ماتت السيدة؟

وتأتأ زنبيل وهو يصك أسنانه بعضها ببعض.

— إنما اهنئي.

— ولم تضع شاهدة باسمها، لايتك؟...

ويهرز زنبيل رأسه، وفجأة يشعر أنه ضعيف. ذلك أنه منذ ثلاثة أيام لم يأكل، منذ اللحظة التي رأى فيها سلمى...

— خذ، وكل. ثم إن العامل الذي يُصنّع الرخام صديقي، وفي وسعه أن يعطيك رخامة صغيرة، بثمان رخيص. وهكذا فقد سحب زنبيل بعناء، ساعته من جيب صدرته. وكان هذا كل ما بقي له من أيام العظمة في أورطاكوي. وكان قد احتفظ بها لليوم الذي لا يبقى معه شيء. أما الآن...

— ليس عندي غير هذا. أفيقبل؟

— احفظ ساعتك، ستكون إليها بحاجة، فيما بعد. ولا يزعجك فأنا سأتولى شأن الشاهدة. ويجب أن يتساعد المسلمون فيما بينهم.

وعلى الرغم من احتجاجات زنبيل، فإنه خرج. وبعد عدة لحظات، عاد وهو يحمل حجرة صغيرة بيضاء، قطعت على شكل القوس. ونقش عليها بتعليمات من الخصي، وبأحرف عرهاء ما يلي:

سلمى

١٣ — ٤ — ١٩١١ / ١٣ — ١ — ١٩٤١

ولكن شيئاً ظل يزجج زينيل، فقال لصديقه :

— إنهم لم يدفنها كمسلمة . إذ وضعوها في علبة بيضاء . فهل تظن أننا نستطيع ؟ ...
وأشرق وجه عليّ ، ذلك أنه يحب على المؤمنين الحقيقيين . وبقفزة واحدة ، مضى يبحث عن معول . ووجد في المستودع غطاءً أبيض . وذهب الاثنان معاً إلى القبر . ولم يحتاجا إلا إلى ربع ساعة لكي يزيحا التراب الجديد ، ورفع النعش ، وانتزاع المسامير .

وقال علي :

— حسناً ، سأترك الآن ، واختفى في الوقت الذي كان فيه زينيل يفتح النعش . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها ، ما أجملها في قميص نومها الطويل الأبيض ؛ أما خصل شعرها المذهبة فكانت متدلّية على كتفها ، وعليها كل سمات الفتاة الشابة . فأنحنى وهو يرتعد وطبع قبلة رقيقة جداً ، على خدّها .

وعندما نهض ، كانت عيناه جافتين . وبلحظة واحدة ، فارقه الهيجان . ذلك أن هذه الراقدة الباردة غريبة عنه . أما ابنته الصغيرة فإنها لم تعد هنا . لقد مضت مع ضحكاتها ونزواتها ، وألوان أشواقها ، وكرمها ، وكل ما كان يجعل منها « سلمى » . مضت وفارقت هذه الدنيا ...

وبنعمّة ، لفّ الجسد بالقماش الأبيض ، واتخذ كل الاحتياطات ، كيلا يجرحها . وعاد فأنزلها في الحفرة ، أو قل في هذه الأرض التي كانت سلمى تحب أن تستنشق رائحتها ، والتي تستقبل الآن جمالها . وترى أنها ابتها . فذراعها ، وشفتها ، وثديها ، وجسدها الرائع ، كل ذلك سينحلّ فيها ، ويعود فيفتتح في آلاف الأزهار والثمار .

ويكاد زينيل يشعر أن سلمى وراءه تلاحظ ما يفعله وتبتسم له : فهذا حقاً ما كانت تريده .
وعما قريب سيلحق بها ، وسيجتمعون معاً هم الثلاثة : هو وابنته الصغيرة ، والسلطانة ، وسيبقون إلى الأبد في قصر من الدانتيل ، شبيه بقصر أورطاكوي ، يستحمون في الأمواج الشفافة ، لنهر يشبه البوسفور ...

وفجأة انقطعت أنفاسه ، وجحظت عيناه من الرعب . والطفلة ! ... لقد نسي . فمنذ ثلاثة أيام بقيت وحدها ، دون أي إنسان يغذيها . أو يسهر عليها ... ولعلها قد ماتت ...

ورفع صوته ، متوسلاً إلى الله ، أن يحميها !

ولم يعد يعرف كيف عاد إلى الفندق . ويبدو له أن (علي) أوقف سائق عربة من عربات الموتى . كان يعود إلى باريس ، فوضعه بدلاً من النعش في عربة ، وبعد ذلك جرى كعجوز مجنون راجياً من الله أن يرأف بالصغيرة .

وعندما دخل الغرفة ، وجد الصغيرة متمددة على السرير وكأنه لم يعد فيها دم . وكانت عيناها مغلقتين ، ورأسها مقلوباً إلى الخلف ، والفم مفتوحاً ، وتنفسها عسيراً .

فصرخ بدرجة من القوة حملت جارة في الدور الذي هو فيه على أن تهرع إليه . فقالت له : إن من الضروري أن لا تحرك الطفلة من مكانها ، وإن عليه أن يرفع رأسها قليلاً لكي تشرب بعض الماء ، لكن الصغيرة ترفض كل شيء...

وعندئذ أخذها زينيل بين ذراعيه . فوجد أنها باردة كالثلج . فغطاها بغطاء ، وهبط السلم كالعاصفة ، ومرّ بالمطرونة ايميلي ، التي حاولت اعتراضه .

— قف ، قف ، إنك مدين لي بأجرة أسبوعين !

وبدأ يجري ، ونزل في جادة الشهداء ، ولا تكاد ساقاه تحملانه . ووجد على الطريق جملة عيادات طبية . ويرن الجرس ، ويقرع الباب ، فلا يرد أحد . كان ذلك يوم الأحد . وأخيراً ومن شدة اليأس ، اتجه إلى أحد رجال الشرطة الذي دلّه على القنصلية السريسية ، حيث يوجد دوام طبي في كل يوم من أجل الأجانب .

ومضى الخصى حتى وصل إلى جادة غرينيل Rue Grenelle وهناك شعر أن قلبه على وشك أن يفارقه . ولكن يجب أن يقاوم . إذ ليس له الحق في أن يموت قبل أن ينقذ ابنة سلمى .

ولكنه عندما دخل قنصلية سويسرا واستقبلته سكرتيرة ذات خدين مدورين ، وسألته عما يريد ، لم يسعه إلا أن يضع الطفلة بين ذراعيها ، ويقع على الأرض ، عاجزاً عن أن يقول أية كلمة .

ومرت بعد ظهر ذلك اليوم مدام نافيل ، زوجة القنصل ، لتبحث عن قائمة عناوين لتلك السوق الخيرية القريبة التي يقيمها الصليب الأحمر ، وما كادت ترى الطفلة ، حتى أخذت الهاتف ، وطلبت طبيبها الشخصي . ثم إنها أعطت للعجوز المسلم كأساً من الفودكا . وكاد زينيل يختنق منها ، وأراد أن يردها ، ولكنها تطمئننه .

— إن هذا ليس بكحول ! إنه دواء .

وبسرعة ، شعر بتحسّن ، وقصّ على هذه السيدة حكايته كلها : لقد ماتت أميرته ، وتركت الطفلة لحالها في الفندق ثلاثة أيام . وبعد عدة دقائق وصل الطبيب .

ودمدم قائلاً ، وهو يرى حالة الطفلة :

— من حسن الحظ أن الوقت لم يفت ! وأخرج من محفظته إبرة ، وحقنها بالمصل . ثم فحصها بنعومة . وقال :

— إنها ضعيفة جداً . وقد تأثرت الرئتان .. ويبدو أنها لم تأكل شيئاً ولم تشرب ، منذ عدة أيام .

وسمع أنيناً حمله على أن يلتفت برأسه . ونظر بإشفاق إلى الرجل العجوز وهو متهاو على كرسيه ، وقال له :

— لا تقلق يا أيها الرجل الطيب . سننقذها إن شاء الله . ولكن لا بدّ من عناية مشدّدة . وكأنما كان يتجه بكلامه هذا إلى السيدة نافيل ، ذلك أن مصلحة الاسعاف مرهقة جداً بما لديها من أيتام الحرب . وهذه الطفلة بحاجة إلى أن يكون هناك إنسان إلى جانبها دوماً . وإلا فإني أخشى أن ...

وقاطعته زوجة القنصل ، بقولها :

— سأخذها إلى بيتي ، يادكتور ، طول المدة اللازمة . فلقد هبطت عليّ هذه البنيّة من السماء . ولا أستطيع تركها تموت .

وخلال عدة أسابيع كان زينيل يأتي كل يوم ليزور الطفلة . وسرعان ما عادت الطفلة إلى السلامة ، بفضل الغذاء الصحي المتوفر في قنصلية سويسرا . هذه الجزيرة من البحبوحة والخيرات ، في وسط باريس المحتلة . وها هي الآن بنيّة بضّة الجينات والحدود ، تستقبل بفرح هذا الخصيّ وتسميه « زيزل » .

ولقد قصّ كل شيء على زوجة القنصل ، غاضباً النظر بطبيعة الحال عن مرحلة الرجل الأمريكي ، والرسالة التي أرسلت إلى الراجاه . وهو يرجو أن لا يكون الراجاه قد تلقاها ، لأنه لم يجب قط . فإذا انتهت الحرب ، فإنه يستطيع استعادة طفله . وهذا هو الحل الوحيد ، ما دامت

سلمى قد عادتنا إلى دار الآخرة . وستكبر الأميرة الصغيرة في الزينانا ، وتزوج ، وستكون حياتها مريحة وبلا مشاكل .

أوليس هذا ما أردت أن تقوله سلمى وهي على فراش موتها ؟ إن الخصى يتذكر تلك الممرضة الشابة التي هرعت إليه في اللحظة التي كان فيها ينزل المستشفى ، وقالت :

— أيها السيد ! انتظر ، فأنا التي كنت قريبة من ابنتك ، عندما .. أخيراً ، أي قبل ذلك بلحظة ، تعلقت بيدي وتمتت : « عفوك ، يا أمير ... الطفلة .. لقد كذبت ... » وكانت هذه آخر كلماتها .

وارتعش زينيل . وبدأ يفكر بالكآبة التي ينبغي أن تكون استولت على المرأة الشابة ، عندما وجدت أنها تموت ، تاركة طفلتها بلا أب ... لقد فعلت كل شيء لكي تبقى ابنتها حرة . ولكنها لم تتخيل لحظة واحدة ، أنها هي نفسها يمكن أن تموت ، وأن الطفلة عندئذ ستجد نفسها وحيدة .

... يا أميرتي الجميلة ، أيتها الصغيرة المسكينة ... هكذا كان يقول زينيل ، وهو يرى البنية في الجانِب الآخر من الغرفة ، تلعب مع دماها . ومنذ الآن فإنها في أمان ، ولم تعد بحاجة إليه . وقد فعل من أجلها كل ما كان يجب أن يفعله ، وبقدر ما استطاع ، سواء أحسن أم أساء . أما الآن فإن به رغبة ملحة ، هو أيضاً ، لكي يمضي ويستريح .

وقبّل الطفلة على جبينها بنعومة كيلا يزعجها ، وتركها وخرج ، بخطوات بطيئة .

ثم لم يره أحد بعد ذلك قط .

خاتمة

وهكذا تنتهي حكاية أمي .

وبعد قليل من موتها ، تقدّم زائر إلى قنصلية سويسرا . وكان هذا ، أورهان ، ابن عم سلمى . وكان قد كتب على بطاقته هذه الجملة فقط : « من قَبَل الأميرة الميتة » .

وأعلم الراجاه ، بالطرق الدبلوماسية أن له ابنة . وكانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين الهند ، كمستعمرة بريطانية ، وفرنسا المحتلة . فلم يستطع استعادتها إلى بادالبور . ولم يلتقيا إلا بعد انتهاء الحرب . ولكن لهذا قصّة أخرى .

أما زينيل ، فإنه لم يُعثر له على أثر ، تُرى هل مات من شدة الحزن ، أو من البؤس ، أو أنه غريب بين الغرباء ، سيق بين من سيقوا في عربة مرصّصة ، كغيرها من العربات ؟

أما هارفي فإنه لم ينس . غير أنه لم يتلق رسائل سلمى إلا عند موت زوجته . وكانت قد أخفتها ، مدة ثلاث سنوات .

وما كادت الحرب تضع أوزارها ، وفرنسا تتحرّر ، إلا وهرع إلى باريس . وعندما علم بموت سلمى ، أراد أن يهتم بالطفلة . ولكن ما كاد أن يبدأ عملية تحضير الأوراق الرسمية ، حتى مات هو أيضاً بسكتة قلبية .

وفيما بعد ، وبصورة متأخرة جداً ، أردت أن أفهم أُمي . فسألت أولئك الذين عرفوها ، وقرأت كتب التاريخ ، وصحف ذلك الزمان ، والوثائق المبعثرة المتصلة بالأسرة ، ووقفت طويلاً في الأماكن التي عاشت فيها ، وجربت أن أعيد تركيب مختلف أطر وجودها ، التي انقلبت اليوم انقلاباً لا سبيل إلى معرفة أصله ، وأن أحيا من جديد ما كانت قد عاشته هي نفسها .

وأخيراً ، وحبا بالتقرب منها بدرجة أكبر ، طمعاً بأن أعود فأجدها كما هي ، تركت لحدسي وخيالي أن يرهما الثغرات التي لم تعن الوثائق على ملئها .

المحتوى

١١	تركيا	<input type="checkbox"/> القسم الأول
٢١٣	لبنان	<input type="checkbox"/> القسم الثاني
٣٥٥	الهند	<input type="checkbox"/> القسم الثالث
٦٤٩	فرنسا	<input type="checkbox"/> القسم الرابع
٧٥٧	خاتمة	

حياة أميرة عثمانية في المنفى / كينيز مراد؛ ترجمه عن الفرنسية
حافظ الجمالي. - دمشق: دار طلاس للدراسة والترجمة،
١٩٩٠ - ٧٦٠ ص؛ ٢٤ سم.

١ - ٨٤٣ ف م راح ٢ - العنوان ٣ - مراد ٤ - الجمالي
مكتبة الأسد

ع - ٤٧٦ / ١٩٩٠/٥

رقم الإصدار - ٤٨٧

